المعاني الحسان في تفسير القرآن

النساء ۞ المائدة ۞ الأنعام ۞ الأعراف

المجلد الثاني

الأستاذ الدكتور
عمر سليمان عبد الله الأشقر
رحمه الله

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

المعاني الحسان في تفسير القرآن

جنـــــة السـنـــــة

المعاني الحسان

في تفسير القرآن

٢

جنـــــة السـنة

حقوق الطبع محفوظة ©
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

الطبعة الأولى

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
٢٠١٣/٦/١٨٦٣

٢٢٢,٣
الأشقر، عمر سليمان
المعاني الحسان في تفسير القرآن/ عمر سليمان الأشقر.-عمان- دار النفائس للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.
( ) ص.
ر.إ.: ٢٠١٣/٦/١٨٦٣
الواصفات: / تفسير القرآن// سور القرآن// القرآن الكريم/

©
يمنع تصوير هذا الكتاب أو استخدامه بكافة أنواع النشر العادي أو الالكتروني، تحت طائلة المسائلة القانونية.
®

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

العبدلي - مقابل مركز جوهرة القدس
ص.ب 927511 عمان 11190 الأردن
هاتف: 5693940 6 00962
فاكس: 5693941 6 00962
Email: alnafaes@hotmail.com
www.al-nafaes.com

ISBN ردمك
9 789957 801496

جنـــــة السـنـــــة

المعاني الحسان في تفسير القرآن

النساء ۝ المائدة ۝ الأنعام ۝ الأعراف

المجلد الثاني

الأستاذ الدكتور
عمر سليمان عبد الله الأشقر
رحمه الله

دار النفائس
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

جنـــــة الســـــنة

سُورَةُ النِّسَاءِ

التعريف بسورة النساء

قال أبو عمرو الدانيُّ في تعريفِ هذه السورة: «سورةُ النساءِ مَدَنِيَةٌ، ولا نظيرَ لها في عَدَدِها، وكَلِمُها ثلاثةُ آلافٍ وتسعُ مائةٍ وخمسٌ وأربعونَ كَلِمةً، وحروفها ستة عشَرَ ألفِ حرفٍ وثلاثونَ حرفاً، وهي مائةٌ وسبعونَ وخمسُ آياتٍ في المَدنِيَّيْنِ والمكيِّ والبصريِّ، وسِتٌّ في الكوفي، وسَبْعٌ في الشاميِّ» [البيان في عدّ آي القرآن: ص١٤٦].

جنـــة الســـنة

النص القرآنيُّ الأول من سورة النساء
الله تعالى خلقنا جميعاً من أصلٍ واحدٍ هو آدمُ عليه السلام

أولاً: تقديمٌ

افتتح اللهُ -تبارك وتعالى- هذه السورةَ الكريمةَ بمناداةِ الناسِ جميعاً طالباً منهم أن يَتَّقُوا ربَّهم الذي خلقهم مِنْ نَفْسٍ واحدةٍ هي نفسُ آدمَ عليه السلام، ثم خَلَقَ منها زوجَهُ حواء، ثم مِنْ آدم وزوجه حواء بَثَّ الناسَ جميعاً رجالاً ونساءً، ثم أمرهُم أنْ يتقوا اللهَ الذي يتساءَلون بِهِ والأرحامَ إنَّ اللهَ كان علينا رقيباً.

وأمرنا ربنا بإيتاءِ اليتامى أموالهم، ونهانا عَنْ أكْلِ أموالهم ظلماً وعدواناً، ونهانا عن الزواجِ مِنَ اليتيماتِ إلا إذا عَدَلْنا بينهنّ، وأباحَ للرجالِ أن يتزوَّجَ الواحدُ منهم بأربعٍ، فإن كان لا يستطيعُ العَدْلَ بينهنَّ، فعليه أن يكتفي بواحدةٍ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾﴾ [النساء:١-٣].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النص من القرآن

١- نادى ربُّ العزةِ النَّاسَ آمراً إيَّاهم بتقواه:

نادى اللهُ -تبارك وتعالى- النَّاسَ جميعاً على اختلافِ أجناسِهِمْ وألوانِهِمْ ولغاتِهِم آمراً إيَاهُم بتقواه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [النساء:١] وتقواه تكونُ بعبادته وحدَهُ لا شريكَ لَهُ، وإنَّما نادى اللهُ النَّاسَ جميعاً، لأنَّ رسالةَ محمدٍ ﷺ للنَّاس كلِّهم، وليسَ للعرب خاصَّة.

جنـــــة السـنـــــة

٢- تعريفُ اللهِ العبادَ بنفسِهِ سبحانَهُ:

عرَّف اللهُ -سبحانه- عبادَه بنفسِهِ، فقالَ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء:١] قالَ اللهُ تباركَ وتعالى: الربّ الذي أمرتكم بعبادتِهِ هو الذي خلقكم مِنْ نَفْسٍ واحدةٍ، هي آدم ﷺ، وخلق من آدم زوجَه حواءَ، وبثَّ من آدمَ وحواءَ كلَّ البشر الذين خلقهم.

وقد بيَّنَ لنا رسولُنا ﷺ كيفَ خُلِقَتْ حواءُ مِنْ آدمَ، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «اسْتَوْصُوا بالنساءِ خيراً، فإنَّ المرأةَ خُلِقَتْ من ضِلعٍ، وإنَّ أعوجَ شيءٍ في الضِّلَعِ أعلاه، فإنْ ذهبتَ تقيمُهُ كَسَرْتَه، وإنْ تركتَه لم يَزَلْ أعْوَجَ، فاستوصوا بالنِّساء» [البخاري: ٣٣٣١. ومسلم: ١٤٦٨].

وقولُه تعالى: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ أعلمنا اللهُ تعالى في هذه الآية أنَّ جميعَ مَنْ خلقهم مِنَ الرجالِ والنساءِ المبثوثين في هذه الأرضِ هم من آدم وحواء.

٣- واتقوا اللهَ الذي تساءَلونَ به والأرحامَ:

أمرنا اللهُ -تبارك وتعالى- بتقواه مرةً ثانيةً فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النساء:١] وأصلُ تساءَلونَ: تتساءَلون، حُذِفَتْ التاءُ الثانيةُ تخفيفاً، والناسُ يتساءَلون بالله بأن يقولَ الواحدُ لصاحِبه: أسألُك بالله.

والأرحامُ: اسم لجميعِ الأقاربِ مِنْ غيرِ فَرْقٍ بينَ المُحْرِمِ وغيرِهِ، والمعنى: اتَّقُوا الأرْحامَ أنْ تقطعوها.

وقد جاءت آياتٌ كثيرةٌ وأحاديثُ صحيحةٌ عديدةٌ آمرةٌ بصلةِ الأرحامِ، وناهيةٌ عن قطيعةِ الرحمِ، كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [محمد:٢٢] وفي الحديثِ عن أبي هريرةَ ﷺ، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «مَنْ سَرَّه أنْ يُبْسَطَ له في رِزْقِهِ، وأنْ يُنسأَ له في أثرِهِ، فليصِلْ رَحِمَهُ» [البخاري: ٥٩٨٦. ومسلم: ٢٥٥٧] وعن جبير بن مُطْعَم أنَّه سمعَ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «لا يدخلُ الجنَّةَ قاطعٌ» [البخاري: ٥٩٨٤. ومسلم: ٢٥٥٦]. وعن أبي هريرةَ ﷺ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «إنَّ الرحمَ شَجْنَةٌ من الرحمنِ، فقال اللهُ: مَنْ وَصَلَكِ وَصَلْتُهُ، ومَنْ قَطَعَكِ قَطَعْتُهُ» [البخاري: ٥٩٨٨. ومسلم: ٢٥٥٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء:١] أيْ: مراقبٌ لقلوبكم وأقوالكم وأعمالكم.

جنـــــة الســـــنة

وقد كانَ رسولُنا ﷺ يفتتحُ بعضَ خطبِهِ بعدَ حَمْدِ الله والثناءِ عليه بهذه الآيةِ، ففي صحيح مسلم أنَّ رسولَ الله ﷺ وَفَدَ عليه وفد من مُضَرَ فقراءُ مجتابي النِّمارِ، فخطبَ أصحابَهُ، ودعاهُمْ إلى الصَّدَقةِ، وقرأ في فاتحة خطبته هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [النساء:١] إلى آخرها [مسلم: ١٠١٧].

٤- ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْۖ﴾:

أمرَ اللهُ -تعالى- في الآية الثانية من هذا النصِّ الأولياءَ والأوصياءَ الذين يتولَّون أموالَ اليتامى أنْ يدفعوا إليهم أموالَهُمْ، كاملةً غيرَ منقوصةٍ ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْۖ﴾ [النساء:٢] واليتيمُ هو الذي تُوُفِّي والدُه وهو صغيرٌ لم يبلغ الحلمَ.

ويكون الدفعُ لليتيمِ عندما يبلغُ الحلمَ راشداً، ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْۖ﴾ [النساء:٦].

ونهى اللهُ -تبارك وتعالى- من بيدِهِ مالُ اليتيم أنْ يتبدَّلَ الخبيثَ بالطيِّب، كما نهاهُمْ أنْ يأكلوا أموالَ اليتامى إلى أموالِهِمْ ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ﴾ [النساء:٢]. أيْ: تستبدِلوا الحرامَ وهو مالُ اليتامى بالحلالِ وهو مالُكم، ولا تضُمُّوا أموالَهم إلى أموالكم، وقولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [النساء:١] أي: أكلكم أموالَ اليتامى، واعتداؤكم عليها كان حوباً، أي: إثماً عظيماً.

٥- ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾:

سأل عروةُ بنُ الزبير خالَته عائشةَ رضي الله عنها عن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [النساء:٣] فقالتْ: «يا ابنَ أُختي، هذه اليتيمةُ تكون في حِجْرِ وليها، تَشْرَكُهُ في مالِهِ، ويعجبُهُ مالُها وجمالُها، فيريدُ وليُّها أن يتزوَّجَها بغير أن يُقسِط في صَداقِها، فيعطيها مثلَ ما يُعْطِيها غيرُه، فنهوا عن أن ينكحوهنَّ إلا أنْ يُقسِطوا لهنَّ، ويبلُغوا لَهُنَّ أعلى سُنَّتِهِنَّ في الصَّداقِ، فأُمِروا أنْ يَنْكِحوا ما طابَ لهم من النساء سواهُنَّ» [البخاري: ٤٥٧٤ ومسلم: ٣٠١٨].

وقد ذكرتْ أمُّ المؤمنين عائشةُ في حديثٍ آخر أنَّ هذه الآيةَ نزلتْ في رَجُلٍ تزوَّجَ يتيمةً لها عِذْق، وكانَ يُمْسِكها عَلَيْهِ ولَمْ يكنْ لها من نفسه شيءٌ، فنزلتْ فيه ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [النساء:٣] أحْسَبُه قال: «كانتْ شريكَتُهُ في ذلك العِذْقِ وفي مالِهِ» [البخاري: ٤٥٧٣ ومسلم: ٣٠١٨].

جنـــــة الســــــنة

٦- لا يجوزُ للرَّجلِ أنْ ينكح من النساءِ أكثرَ مِنْ أربع:

شَرَعَ اللهُ تعالى في قولِهِ: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء:٣]. للرجلِ أن ينكحَ زوجتين أو ثلاثاً أو أربعاً، ولا يجوز له أنْ يتعدَّى هذا العددَ، وقد نَقَلَ القرطبيُّ الإجماعَ على عَدَمِ جواز تَعَدِّي الرجلِ الأربعَ من النساءِ في زواجِهِ، فقال في الذين قالوا بجوازِ نكاح التسع أو أكثرَ من ذلك مِنْ الشيعةِ والظاهريةِ: «هذا كلُّه جَهْلٌ باللسانِ والسنَّة، ومخالفة لإجماعِ الأمّةِ، إذ لم يُسْمَعْ عَنْ أحدٍ مِنَ الصحابةِ ولا التابعينِ أنّه جمعَ في عصمته أكثرَ مِنْ أربعٍ» [تفسير القرطبي: ٣/ ٢٠] وقَدْ ساقَ القرطبيُّ بعدَ إيرادِه هذا النصَّ الأحاديثَ التي تنصُّ على تطليقِ الصحابةِ ما زادَ عَنْ الأربعِ بعد نزولِ هذه الآية.

٧- وجوبُ العدلِ بينَ الزوجاتِ فمن خشي أن لا يعدلَ فعليه أنْ يكتفي بواحدةٍ:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- الذين يظنونَ أنّهم لا يستطيعونَ العدْلَ بينَ زوجاتِهم إذا تَزَوَّجُوا بأكثرَ مِنْ واحدةٍ أن يقتصروا في النكاحِ على واحدة ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ۝٣﴾ [النساء:٣] والعدلُ الذي يجبُ أنْ يُجْرِيه الرجلُ بين زوجاتِه هو في القَسْمِ والنفقة، فإذا خافَ الرجلُ عدم العدلِ بين زوجاتِهِ، فعليه أن يكتفيَ بالزواجِ بواحدةٍ، ذلك أدنى ألاَّ تعدلوا، أي ذلك أقرب ألا تجوروا ولا تظلموا.

أما ميلُ القلب إلى بعض زوجاتِهِ أكثر من بعضٍ، فهذا لا يدخلُ في العدلِ الذي لا بدَّ منه، فإنَّ هذا إلى الله، ولا يمكنُ للعبد أن يتحكم فيه.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النصِّ من علمٍ وعملٍ:

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١- أمَرَ اللهُ -تباركَ وتعالى- عبادَه أنْ يعبدُوه وَحْدَه لا شريك له.

٢- اللهُ وَحْدَهُ الذي يستحقُّ العبادَة، لأنَّه الذي خلقنا وخَلَقَ مَنْ قبلنا.

٣- أصلُ البشر جميعاً واحدٌ، فاللهُ خَلَقَ آدمَ من ترابٍ، وخَلَقَ منه زوجَهُ حواء، وخلق بقيةَ الناس بطريقِ التناسل من ذكرٍ وأنثى، إلا عيسى عليه السلام، فقد خَلَقَهُ مِنْ امرأةٍ من غير زوجٍ.

٤- أمَرَ اللهُ -تعالى- بصلةِ الأرحامِ، وحرَّم على عبادِهِ قطيعةَ الرَّحِمِ.

٥- حرَّمَ اللهُ على الأولياءِ والأوصياءِ أكْلَ أموالِ اليتامى بالباطلِ.

جنـــــة السـنـــــة

٦- لا يجوزُ لوليِّ اليتيمةِ أنْ ينكحها إنْ لم يؤدِّ لها مهرَها وافياً، ولمْ يَقْسِمْ لها حقَّها في المبيتِ والنفقةِ.

٧- لا يجوزُ للرجلِ أنْ ينكح أكثر من أربعِ نساءٍ، أيْ: لا يجوزُ أنْ يجتمعَ في عصمته أكثر من أربع في وقتٍ واحدٍ، وقدْ أجازَ لرسولِهِ ﷺ الزيادة عن ذلك خصوصيةً له.

٨- لا يجوزُ للرجلِ أن يتزوجَ أكثرَ من زوجةٍ إذا كانَ لا يستطيعُ العدلَ بينَ نسائه في القسمةِ والنفقةِ، وعليه في هذه الحالةِ أن يكتفي بواحدةٍ، ويجوز له أن يتسرَّى بالعددِ الذي يشاؤه.

جنــــــة الســـــــنة

النصُّ القرآنيُّ الثاني من سورةِ النساء
إيتاءُ النساء صدقاتِهنَّ نِحْلةً

أولاً: تقديم

آياتُ هذا النصِ تأمرُ الرجالَ بأنْ يُؤْتوا نساءَهُنَّ صدقاتِهِنَّ، أيْ: مهورهنَّ نِحْلَةً، أيْ: عَطِيَّةً، وهبةً غيرَ مستردَّةٍ، وفيها بيانُ كيفَ نتصرفُ في مالِ السفهاءِ، وكيف يتصرفُ الوليُّ أو الوصيُّ في مال اليتيم إذا بلغَ رشدَهُ، كما بينتِ الحالَ الذي لا يجوزُ للولي أوْ الوصيّ أن يأكلَ فيها من مالِ اليتيمِ، والحالَ التي يجوزُ له فيها ذلك.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾ [النساء:٤-٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- يجبُ على الأزواج إيتاءُ زوجاتهم مهورهُنَّ نِحْلةً

أمر اللهُ -تبارك وتعالى- الأزواجَ أنْ يُؤْتِيَ الواحدُ منهم زوجتَه مهرَها نِحْلةً، أي: عن رضاً وطيبِ نفسٍ، والنحلة: العطيةُ الواجبةُ اللازمةُ ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ﴾ [النساء:٤] والصدقاتُ: المهور، ولا يجوز للزوج أن يأخذَ مِنْ زوجته شيئاً مما أعطاها بغيرِ رضاها، فإنْ أعطته شيئاً من مالها طيبةً بذلك نفسُها، فلا حرجَ عليه فيما أخذه منها، وجازَ له أن يأكله هنيئاً مريئاً ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾ [النساء:٤] فإن أظهرت الرضا بسبب إكراهه لها، أو لكثرةِ مطالبتِهِ إيّاها أن تعطيهُ مِنْ مالها، فلا يحلُّ له ما أخذ منها.

٢- نهي الله لنا أنْ نُؤتي السفهاءَ أموالنا:

نهانا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنْ نُؤتي السفهاءَ أموالنا التي جعلها اللهُ لنا قياماً ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾ [النساء:٥] وأصلُ السَّفَهِ خِفَّةٌ في العقلِ، يؤدي بصاحبه إلى

جنـــــة السـنـــــة

تصرفاتٍ حمقاءَ، بعيدةٍ عن الصوابِ والاتزانِ، والسفهاءُ الذين نهانا اللهُ أنْ نعطيهم أموالنا الصغارُ والمجانين، والذين يسيئون التصرَّفَ بالمالِ إنْ هم ملكوه، فترى الواحدَ منهم يشتري الشيءَ الحقيرَ بالمالِ الكثيرِ، ويبيعُ الشيءَ الثمين بالمال القليل، وهؤلاء يُحْجَرُ عليهم أن يتصرفوا في أموالهم، ويُقامُ عليهم أوصياءُ يتصرفون في أموالهم حسبَ ما تقتضيه المصلحةُ، وعلى الأوصياء أن ينفقوا على السفهاءِ بمقدار حاجتهم إلى الطعامِ واللباس والسكنِ والتعليم ونحو ذلك، فإن طالبوا بأكثرَ من ذلك فعلى الأولياء أن يقولوا لهم قولاً معروفاً، كأن يقولوا لهم: هذا مالكم نحفظُه لكم، وغداً عندما تكبرون نعطيكم إياه، ونحو ذلك. والمال وإن كان السفيهُ يملكه، لكنَّه مالُ الأُمَّة التي بها قوامُ عيشها، فلا يجوزُ صرفه فيما ليس فيه مصلحةٌ.

٣- على وليِّ اليتيمِ أو الوصيِّ أن يختبرَ اليتيمَ إذا بلغَ سنَّ الرشد:

قال تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ [النساء:٦].

أمَرَ اللهُ الأولياءَ والأوصياءَ أن يختبر الواحدُ منهم يتيمه، ليعلموا مدى رُشدِهِ في التصرفِ إذا بلغَ سنَّ النكاحِ، فإن علمنا أنَّه أصبحَ راشِداً في تصرُّفِهِ، فيجبُ علينا أن ندفعَ إليه مالَهُ، ولا يجوزُ للوليِّ أو الوصيِّ أن يسارعَ إلى أكلِ مالِ اليتيم على وجه الإسرافِ أو المبادرة قبل بلوغِ اليتيم سن النكاحِ، وقد نهى الله الأولياءَ والأوصياءَ على مال اليتيمِ أنْ يأخذوا منه شيئاً إن كانوا أغنياء، فإن كانوا فقراءَ أكلوا منه بالمعروف، أي: بمقدار أجرتهم أو قَدْرِ حاجتهم، وقد سألَ رجلٌ رسولَ الله ﷺ، فقالَ: ليسَ لي مالٌ، ولي يتيمٌ، فقالَ: «كلْ مِنْ مالِ يتيمكِ غيرَ مُسْرِفٍ ولا مُبَذِّرٍ، ولا متأثلٍ مالاً، ومن غيرِ أن تقي مالكَ - أو قال: تفدي مالَكَ بمالِه» [قال فيه محقق ابن كثير: (١/ ١٩٤): جيد: أخرجه أحمد (٢/ ١٨٦. ورقمه: ٦٧٠٨) وهو حديث حسن، وله شواهد].

وقد أمَرَ اللهُ مَنْ كان عنده مالُ اليتيم إذا دفعَ إليه مالَهُ أن يُشْهِدَ عليه، وقال في ختامِ الآية ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ [النساء:٦] «أي: وكفى بالله محاسباً وشهيداً ورقيباً على الأولياءِ في حالِ نظرهم للأيتامِ، وحال تسليمهم للأموالِ، هل هي كاملةٌ موفَّرة، أو منقوصة مبخوسةٌ، أيْ: اللهُ عالمٌ بذلك كله» [ابن كثير: ٢/ ١٩٦].

جنـــــة السـنـــــة

رابعاً: ما تهدينا إليه هذه الآياتُ من علمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرنا هذه الآياتِ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١ - يجبُ على من تزوج امرأةً أنْ يفرضَ لها مهراً، فإن لم يسمِّ لها مهراً وجبَ لها مهرُ المثلِ إذا دخَلَ بها.

٢ - لا يجوزُ للزوجِ أن يأخذَ من زوجته شيئاً مما أعطاها إياه إلا إذا بذلته له عن طيبِ نفسٍ منها.

٣ - يجب أن يقومَ على أموالِ اليتامى والمجانين والذين لا يحسنون التصرفَ في أموالهم أولياءُ أو أوصياءُ يتصرفون فيها تصرفاً صحيحاً راشداً.

٤ - يجبُ على الوليِّ أن ينفقَ على السَّفيهِ فيما يحتاجُ إليه من كسوةٍ وطعامٍ وسكن وتعليمٍ ومعالجةٍ للأمراض ونحو ذلك.

٥ - يجبُ على وليِّ اليتيم أنْ يدفعَ لليتيم مالَهُ إذا بلغ سِنَّ النكاحِ، وكان تصرفه في المالِ تصرفاً راشداً.

٦ - إذا كانَ وليُّ اليتيم غنياً، فليستعفف عن أخذ شيءٍ من مالِ اليتيم، فإن كان الوليُّ فقيراً أخذ من ذلك المال بالمعروف.

٧ - إذا دفعَ وليُّ اليتيم إلى اليتيم مالَهُ وَجَبَ أن يُشْهِدَ عليه.

٨ - رهَّب اللهُ وليَّ اليتيمِ من بخس اليتيمِ حقَّه، ورهَّب اليتيمَ أنْ ينكر ما أعطاه وليُّهُ من مالٍ.

جنـــــة الســـــنة

النصُّ القرآنيُّ الثالثُ من سورة النساء
للرجالِ والنساءِ نصيبٌ مما تركَ الوالدانِ والأقربونَ

أولاً: تقديمٌ

أعلمنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- في آيات هذا النصّ أنَّ للرجالِ نصيباً مما تركهُ الوالدان والأقربون، وكذلك النساءُ، قليلاً كان ذلك المالُ أو كثيراً، وستأتي الآياتُ التي تبيِّنُ هذا النصيبَ لكلِّ وارثٍ، وأمَرَ اللهُ تعالى الورثةَ إذا هم قَسَمُوا التركةَ، وحَضَرَ القسمةَ بعضُ الأقاربِ أو اليتامى أو المساكين أن يرزقوهم من ذلك الميراث بما تطيبُ به أنفسهم، وأمرنا اللهُ -تعالى- إذا حَضَرْنا ميتاً أوصى بوصيةٍ تضرُّ الورثةَ أن نسدِّدَهُ ونُصَوِّبَهُ، وفي الآيةِ الأخيرةِ تهدّدَ ربُّ العزّةِ الذين يأكُلون أموالَ اليتامى ظلماً أنْ يطعِمهم النارَ يومَ القيامةِ، ويصليهم السعيرَ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء:٧-١٠].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- للرجال نصيبٌ مما تركَ الوالدان والأقربونَ

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه أحكم قسمةَ المواريثِ بقاعدةٍ ضابطةٍ، فقد جعل سببَ الميراثِ هو القرابة، وهذه القرابةُ تشملُ الرجالَ والنساءَ، قال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾ [النساء:٧]. وقد كان أهلُ الجاهليةِ لا يورِّثون النساءَ ولا الصغارَ، وإن كانوا ذكوراً، ويقولون: «لا يُعْطَى إلا مَنْ قاتلَ على ظهورِ الخيلِ، وطاعَنَ بالرُّمْحِ، وضاربَ بالسيفِ، وحازَ الغنيمةَ» [تفسير القرطبي: ٣/ ٤٥].

فأبطلَ اللهُ ما كان عليه أهلُ الجاهليةِ، وجعلَ القرابةَ هي السببَ الحاكم في الميراثِ، فالأبناءُ والبناتُ يرثونَ من آبائِهم، وكذلك الإخوةُ والأخواتُ، والآباءُ والأجدادُ،

جنـــــة السـنـــــة

والأمهاتُ والجداتُ، والأعمامُ وأبناؤهم لهم نصيبٌ في الميراث على تفصيلٍ ذكره ربُّ العزَّةِ -تبارك وتعالى- في هذه السورة، وبيَّنَتْهُ الأحاديثُ الصحيحةُ.

قال ابنُ كثير في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء:٧] «الجميعُ في الميراثِ سواءٌ في حكم الله تعالى، يستوون في أصلِ القرابةِ، وإن تفاوتوا بحسب ما فرض اللهُ لكلٍّ منهم، بما يدلي بِهِ إلى الميِّتِ من قرابةٍ، أو زوجية، أو وَلاءٍ» [ابن كثير: ٣/ ١٩٦]. والنصيبُ المفروضُ: الحظُّ المقدَّرُ المعلومُ.

٢- إذا حَضَرَ قسمةَ الميراثِ بعضُ الأقاربِ واليتامى والمساكين فيعطوا من ذلك المال:

أَمَرَ الحقُّ -تبارك وتعالى- الورثةَ إذا حَضَرَهم بعضُ الأقاربِ الذين لا يرثون، أو حضرهم بعضُ الفقراء أو المساكين وهم يقسمون مالَ الميراث، أن يجودوا لهم ببعض المال مِنْ تلكَ التركةِ، وأنْ يقولوا لهم قولاً طيباً حسناً ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾ [النساء:٨].

وهذه الآيةُ محكمةٌ غير منسوخةٍ كما قال ابنُ عباسٍ ﷺ [البخاري: ٤٥٧٦]، وهذا الرزقُ لمن ذكرهم اللهُ في الآية إذا حضروا قسمةَ الميراثِ هو على الندب والترغيب في فعل الخير، والشكر لله عزَّ وجل، لأنه لو كان فرضاً لكان استحقاقاً في التركةِ ومشاركةً في الميراث [تفسير القرطبي: ٣/ ٤٨].

٣- كيف يتصرفُ الرجل الذي حضر رجلاً -حَضَرَهُ الموتُ- يوصي بوصية تضرُّ الورثة:

قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ [النساء:٩] قال ابن كثيرٍ: «قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هذا في الرجل يَحْضُرُه الموتُ، فيسمعه رجلٌ يوصي بوصيةٍ تضرُّ بورَثَتِهِ، فأَمَرَ اللهُ الذي يسمعُه أنْ يتقيَ اللهَ، ويُوَفِّقَه ويُسَدِّده للصوابِ، فينظر لورثَتِهِ كما كان يحبُّ أن يُصنَع بورثته إذا خشِيَ عليهم الضَّيْعَةَ، وهكذا قال مجاهدٌ وغير واحدٍ» [ابن كثير: ٢/ ١٩٨]. وقد فعلَ الرسولُ ﷺ مثلَ هذا الذي ذكره ابنُ عباسٍ، عندما حضر سَعَد بن أبي وقاص وهو يريد أن يوصي بمعظم مالِه، قال سعد: «مرضتُ بمكَّةَ مرضاً، فأشْفَيْت منه على الموتِ، فأتاني النبيُّ يعودُني، فقلتُ: يا رسولَ الله، إنَّ لي مالاً كثيراً، وليسَ يرثني إلا ابنتي، أفأتَصدَّقُ بثُلُثَيْ مالي؟ قال: لا، قلت: فالشَّطْرُ؟ قال: لا، قلتُ: فالثلث؟ قال: الثلثُ كبير، إنَّك إن تَرَكْتَ وَلَدَكَ أغنياءَ خيرٌ من أن تتركَهم عالةً يتكففون الناسَ» [البخاري: ٦٧٣٣. ومسلم: ١٦٢٨].

جنـــــة السـنــــــة

وقد استحبَّ ابن عباس أنَّ يغضَّ الناسُ من الثلثِ إلى الرُّبُع، لأن رسولَ الله ﷺ قال: «الثلثُ، والثلثُ كثير، أو كبير» [البخاري: ٢٧٤٣. مسلم: ١٦٢٩]. ونقَلَ ابن كثيرٍ عن جمعٍ من الفقهاء أنَّهم قالوا: «إنْ كان ورثةُ الميِّتِ أغنياء، استحبّ للميت أن يستوفي في وصيته الثلث، وإنْ كانوا فقراءَ، استحبَّ أن ينقص الثلثَ» [ابن كثير: ٢/ ١٩٩].

وقد أمَرَ اللهُ مَنْ حَضَرَ إنساناً في مرضِ موتِهِ أنْ يقولَ له قولاً سديداً، يُذكِّرُ فيه هذا الرجلَ بعدم الغلوِّ في الوصيةِ، فيأمرُهُ أنْ يوصي بشيء من ماله، ويدع من ذلك المالِ لورثته.

٤- عِظَمُ جريمةِ الذين يأكلون أموالَ اليتامى ظلماً:

بيَّن اللهُ - تبارك وتعالى- عِظَمَ جريمةِ الذين يَعْتَدونَ على أموالِ الأيتامِ، فيأكُلونها ظلماً، فيطعمهُمْ اللهُ يومَ القيامةِ النَّارَ، ثم يكونُ مصيرهم إلى السعير، يقاسون لظاها وحرَّها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء:١٠].

ولا فرقَ في هذا التهديدِ والوعيدِ بين الذي حَرَمَ اليتامى من الميراثِ، وبيْن الذين غَصبوه إياه من الأولياءِ والأوصياءِ وغيرهم، وقد عَدَّ الرسولُ ﷺ أكلَ مال اليتيم إحدى الموبقاتِ السبعِ التي علينا أن نجتنبها ونحذر منها [البخاري: ٢٧٦٦. ومسلم: ٨٩].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعملٍ:

إذا تدبرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١- جَعَلَ اللهُ الميراثَ حقّاً لأقرباءِ الميت مِنَ الأولادِ والأزواج والأقاربِ لا فرقَ في ذلك بين الرجالِ والنساءِ، فهم شركاءُ فيه، قليلاً كان أو كثيراً.

٢- إذا حَضَرَ قسمةَ الميراثِ الأقاربُ الذين لا يرثون واليتامى والمساكين فيستحبُّ أنْ يعطوا شيئاً من مال الميراثِ.

٣- على مَنْ حضرَ مَنْ نزل به الموتُ أنْ ينصَح لَهُ بأن يقدِّم لآخرتِهِ، ويبقي لورثته، ولا يغالي في دعوته إلى تعظيم الوصيةِ بحيث يضرُّ بالورثةِ.

٤- عَظَّمَ اللهُ جريمةَ الذينَ يأكلون أموالَ اليتامى ظلماً، ففي يومِ القيامةِ يأكلونَ النَّارَ ويصلونَ السعير.

٥- الذين يأكلونَ أموالَ اليتامى ظلماً يعذَّبون في النار، ولكنَّهم لا يخلدون كما يخلد فيها الكفار إذا كانوا من أهل التوحيد.

جنـــــة السـنـــــة

النصُّ القرآنيُّ الرابعُ من سورة النساء

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ ﴾

أولاً: تقديمٌ

هذه الآيةُ الكريمةُ التي ضمَّها هذا النصُّ، والآيةُ التالية لها، والآيةُ الأخيرةُ من هذه السورة، بيَّنَتِ الأحكامَ التي تتعلقُ بالميراثِ، وجاءت بعضُ الأحاديث الصحيحة مكملةً لهذه الأحكام وشارحةً وموضحةً لما جاءت به الآياتُ الثلاثُ.

وكان أهلُ الجاهلية لا يورِّثون الأقرباءَ الرجالَ إلاَّ إذا كانوا أقوياءَ، ولا يورثونَ النساءَ، كما لا يورثون الصغارَ ذكوراً كانوا أو إناثاً.

وكان الميراثُ في الجاهلية وابتداءِ الإسلام بالمحالفةِ، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾ [النساء:٣٣] ثم صارتِ الوراثة بالهجرةِ، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾ [الأنفال:٧٢] [تفسير البغوي: ٢/ ١٧٢]. قال ابنُ عبَّاسٍ: «كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرثُ المهاجريُّ الأنصاريَّ دون ذوي رَحِمِهِ، للأُخوَّةِ التي آخى النبيُّ ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ﴾ [النساء:٣٣] نُسِخَتْ» [البخاري: ٤٥٨٠].

وحدَّثنا ابنُ عباسٍ أنَّ اللهَ جعلَ المالَ للولدِ في أول الأمر، وأمَرَ مَن حضره الموتُ بأنْ يوصي للوالدينِ، عن ابنِ عباسٍ قالَ: «كان المالُ للولدِ، وكانتْ الوصيةُ للوالدينَ، فنسخ اللهُ مِنْ ذلك ما أحبَّ، وجَعلَ للذَّكَرِ مثلَ حظِّ الأنثيين، وجعلَ للأبوين لكلِّ واحدٍ منهما السدسَ والثلثَ، وجعل للمرأةِ الثمنَ والربعَ، وللزوجِ الشطرَ والربعَ» [البخاري: ٤٥٧٨].

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١ ﴾

[النساء:١١].

جنـــــة السـنــــة

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- المقدارُ الذي يستحقُّه الأولادُ مِنَ الميراث:

أوْصى ربُّ العزَّةِ -سبحانه- أنْ يُعْطَى الأولادُ الذكورُ في حالِ اجتماعهم مع الإناثِ ضعفَ ما تأخذُه الأنثى ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾ [النساء:١١].

فإن كان للمتوفى وَلَدٌ واحدٌ، وليس له غيره من أصحابِ الفروض حاز الثروةَ كلَّها، فإن كانوا أكثر من واحدٍ، اقتسموا الميراث فيما بينهم، فإن كانوا رجالاً ونساء، كان للذكرِ مثلُ حظِّ الأنثيين.

فإنْ كان للمتوفى بنتان فما فوق ليس معهن ذكرٌ، فلهنَّ ثلثا ما ترك الأبُ، فإن كانتْ واحدةً فلها النصفُ، ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ﴾ [النساء:١١].

والصوابُ مِنَ القولِ أنْ البنتين لهما ثلثا التركةِ حالهنَّ حالُ الثلاثةِ والأربعةِ، ويدلُّ لصحةِ هذا القولِ أن الرسولَ ﷺ أعْطى ابنتيْ سعدِ بن الربيع ثلثي التركةِ عندما نزلتِ الآية، مما يدلُّ على أن هذا هو الفقه الصحيح للآية.

روى جابرُ بنُ عبدالله قالَ: جاءَت امرأة سعدِ بن الربيع بابنتيها من سَعْد إلى رسول الله ﷺ، فقالتْ: يا رسولَ الله، هاتان ابنتا سَعْد بنِ الربيع، قُتِلَ أبوهما مَعَكَ يوم أُحدٍ شهيداً، وإنَّ عمَّهما أخذَ مالهما، فلم يَدَعْ لهما مالاً، ولا تُنْكَحانِ إلا ولهما مالٌ، قالَ: «يقضي اللهُ في ذلك» فنزلتْ آيةُ الميراثِ، فبعثَ رسول الله ﷺ إلى عَمِّهما، فقال: «أعط ابنتي سَعْدٍ الثلثين، وأعْطِ أمهما الثُّمُنَ، وما بقي فهو لك» [الترمذي: ٢٠٩٢. وقال فيه: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح. وأوردَه الألباني في صحيح الترمذيِّ: ١٧٠١. وقال: حسن. وعزاه إلى صحيح ابن ماجه: ٢٧٢٠. وهو في سنن أبي داود: ٢٨٩١. وحسَّنَه الألباني في صحيح أبي داود: ٢٥١٤].

٢- ميراثُ الأبِ والأمِّ:

الأبُ والأمُّ لا يَسقُطانِ في الميراثِ بحالٍ من الأحوالِ، وقد دلَّ الكتابُ والسنَّةُ على أنَ لهما في الميراث ثلاثة أحوالٍ:

الأولى: أن يكون لكلِّ واحدٍ من الأبوين السدسُ، قال تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ﴾ [النساء:١١] فإذا كان للميتِ ولدٌ أو أولادٌ من الذكورِ والإناثِ، فلكلِّ واحد من الأبوين السدسُ، فإنْ كان له بنتٌ واحدةٌ، وليس للميت ورثةٌ

جنـــــة السـنـــــة

غيرها إلا أبويه، أخذ كلُّ واحد من الأبوين السدس، وأخذتْ البنت النصفَ، وردَّ الباقي على الأبِ تعصيباً.

الثانية: أنْ لا يكونَ للميتِ وارث غيرُ أبويه، فترثُ الأمُّ الثلثَ، ويُعْطَى الأبُ الباقي تعصيباً، ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ [النساء:١١]. فإذا كان مع الأبوين زوجٌ أو زوجةٌ، فيُعْطَى الزوجُ النصفَ، وتعطى الزوجةُ الربعَ، وتعطى الأمُّ ثلثَ الباقي، ويعطى الأبُ الباقي، وهذا هو القولُ الصحيحُ، قال بِهِ عمرُ وعثمانُ وابنُ مسعودٍ وزيدُ بن ثابت، وفقهاءُ المدينةِ السبعة، والأئمةُ الأربعة، وهو قول جمهورِ العلماءِ [ابن كثير: ٢/ ٢٠٣].

الثالثة: أن يكون مع الأبوين إخوة لا فرق في ذلك أن يكون الإخوةُ لأبوين أو لأبٍ أو لأمٍّ، فلا يرثُ الإخوةُ مع الأبِ شيئاً، ولكنَّهم يُنْقِصون نصيبَ الأم، فترثُ السدسَ، ويأخذُ الأبُ الباقي، قال تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء:١١]. والعددُ من الإخوة الذي يَحجبُ الأم من الثلثِ إلى السدس الاثنانُ فما فوقهما على الصحيح من أقوال أهل العلم، لا فرق في ذلك بين الإخوة لأبوين، أو لأبٍ، أو لأمٍّ.

٣- **يُوَزَّعُ الميراثُ بعد وصيةٍ يوصى بها أو دَيْنٌ:**

أولُ ما يؤخذُ من تركةِ الميتِ ما يفي بتجهيز جنازة الميتِ من الكفن وأجرة غسله وحَمْلِهِ وثمنِ قبره ونحو ذلك، ثم يُقْضى عنه دَيْنُهُ بالغاً ما بلغ، ثم تخرجُ وصيته وَفْقَ ما أوصى، بحيث لا تزيدُ عن الثلثِ، ثم توزَّعُ التركةُ على الورثةِ وفق ما بينه اللهُ تعالى لكلِّ واحدٍ منهم.

وسَدادُ الدَّينِ مقدَّم على الوصية، فإذا استغرقَ الدَّيْنُ التركةَ بطلتِ الوصيةُ، وليسَ للورثة من التركة شيءٌ.

قال ابن كثير: «أجمع العلماءُ سَلَفاً وخلفاً أنَّ الدَّيْنَ مقدمٌ على الوصيةِ» [ابن كثير: ٢/ ٢٠٤]. وعن عليٍّ أن النبي ﷺ : «قَضَى بالدَّين قبل الوصيةِ، وأنتم تُقِرُّون الوصيةَ قبل الدين» [رواه الترمذي بإسناد حسن: ٢١٢٢] وقال الترمذيُّ فيه: «والعملُ على هذا عند أهل العلم، أنه يبدأ بالدين قبل الوصية».

٤- ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ :

بيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّ البَشر لا يستطيعون أنْ يُحَدِّدُوا الأقربَ لهم نفعاً الآباءَ أو الأبناءَ، فبعضُ الناس يظنُّ أنَّ آباءَهُم أنفعُ إليهم من أبنائهم، وبعضهم يظنُّ أنَّ أبناءَهم أنفعُ إليهم من آبائهم، ولذلك تولَّى اللهُ تعالى قسمة ما يستحقه الآباء والأبناءُ مِنَ التركة بنفسه

جنـــــة السـنــــة

سبحانه، وجعله تبارك وتعالى فرضاً لازماً لا يجوزُ تغييرهُ، ولا تبديلُه ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ [النساء:١١].

وختم اللهُ الآيةَ بقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ [النساء:١١]، ليدلَّ على أنَّ الله تعالى قَسَمَ المواريثَ بين الورثة وفق علمه وحكمته، فلا مجالَ للخطأ ولا للضلال.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النصِّ من علمٍ وعملٍ:

إذا تدبرنا آيات هذا النصّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- تولَّى اللهُ تبارك وتعالى قسمةَ الميراثِ بنفسه وَفْقَ علمِهِ وحكمته سبحانه، ولا أحد أظلمُ ممن طَعَنَ في هذه القسمةِ، وظنَّ أنه سيأتي بأعدلَ وأحكمَ مما جاءَ اللهُ بهِ.

٢- يدَّعي الغربيون ومن شَرِبَ وتغذَّى بضلالهم أنَّ العدل يقضي بأن يسَوَّى بينَ الأبناءِ والبناتِ في الميراثِ، وقد ضلُّوا ضلالاً بعيداً.

٣- الرجالُ لهم نصيبٌ مضاعفٌ على أخواتهم من النساءِ، فاللهُ عَهِدَ إلى الرجالِ أن يقوموا على نسائهم، سواءً كانت زوجةً أو أُختاً أو أُمّاً، ومن القوامة الإنفاقُ عليهن.

٤- إذا لم يكنْ للمتوفَّ إلا بنت واحدةٌ، فلها نصفُ التركةِ، فإن كانتا اثنتين فصاعداً فلهنَّ الثلثانِ، فإن كانوا رجالاً ونساءً فللذكر مثلُ حظِّ الأنثيين.

٥- يستحقُّ كلُّ واحدٍ من الأبوين سُدُسَ التركة إنْ كان للميتِ ذريةٌ من الأولاد أو البناتِ، فإن لم يكن له ذريةٌ ولم يكنْ له وارثٌ غيرهما استحقت الأمُّ ثلثَ التركةِ والأبُ الباقي، فإن كان للميت زوجٌ أو زوجةٌ استحقتِ الأمُّ ثلثَ ما يبقى من التركة، والأبُ باقي التركة تعصيباً.

٦- إنْ كان للمتوفى أخوانِ فأكثر، سواءً أكانوا إخوةً لأب أو لأُمٍّ أو لأبوين، فإنَّ الأمَّ تستحقُّ السدسَ، والباقي للأب، ولا يرثُ الإخوةُ مع وجودِ الأب شيئاً.

٧- لا يأخذُ الورثةُ من التركة شيءٌ، حتى يُجهَّزَ المتوفى من تركته، ثم يُقْضَى دينهُ منها، ثم تنفذُ وصيته بما لا يزيد على الثلث، ثم توزَّع التركةُ بعد ذلك وفقَ ما قسمها اللهُ عليه.

٨- الله وحده هو الذي يستحقُّ أنْ يتولى قسمةَ التركةِ، فهو العليمُ الحكيمُ سبحانه، ونحن لا نستطيعُ أنْ نَعْلَمَ علماً مستيقناً من أقربُ لنا نفعاً الآباءُ أو الأبناء.

جنـــة السـنـــــة

النص القرآني الخامس من سورة النساء
ميراثُ كلٍّ واحدٍ من الزوجين والإخوة لأمّ

أولاً: تقديم

بيَّن لنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في الآية الأولى من هذا النص ما يستحقُّه كلُّ واحدٍ من الزوجين ميراثاً من زوجِهِ، ثم بيَّن لنا ما يستحقُّه الأخُ لأمٍّ أو الإخوةُ لأمٍّ ميراثاً في حال عدم وجودِ الأصل الوارث والفرع الوارث، وهي المسألة المعروفة باسم الكَلالَةِ.

وفي الآيتين الأخيرتين بيَّنَ الله تعالى عِظَمَ ثواب من التزمَ حدودَ الله في الميراثِ، وأطاع اللهَ فيما شرعَه فيها، وبيَّن جزاءَ من عصى الله ورسولَهُ في أحكامِ الميراثِ.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [النساء:١٢-١٤].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النص من القرآن

١- ميراثُ كلّ واحدٍ من الزوجين:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ لكل واحدٍ من الزوجينِ ميراثاً من زوجه، فلا يسقطُ حقُّ كلِّ واحدٍ منهما بحالٍ، وميراثُ الزوج يتردّدُ بين حالين: إما أن يكون النصفَ أو الربعَ، فإنْ لم يكنْ للزوجة ولدٌ حازَ الزوجُ نصفَ الميراث، وإنْ كان لها ولدٌ فنصيبُهُ الربُعُ، ونصيبه في كلِّ حالٍ من الحالين يكونُ بعد أداءِ ما على المتوفاة من وصيةٍ أو دَيْنٍ ﴿ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا

جنـــــة السـنة

تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء:١٢].

وميراثُ الزوجةِ من زوجها ربعُ التركةِ إنْ لم يكن له وَلَدٌ، فإنْ كان له ولدٌ فلها الثُّمنُ مما تركه، من بعدِ أداء الدَّيْن الذي على الزَّوْجِ، وتنفيذ وصيته بما لا يزيدُ على الثلث ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء:١٢] فإن كان للزوجِ المتوفى أكثرُ من زوجةٍ، فهُنَّ شركاءُ في الرُّبعِ أو الثُّمنِ من تركَةِ الزوجِ.

٢- الكلالةُ (ميراثُ الإخوةِ لأم):

الكلالَةُ في اللغةِ: مشتقةٌ من الإكليلِ، وهو الذي يحيطُ بالرأس من جوانبه، والمرادُ بها في الشرع مَن يرثُهُ من حواشيه وهم إخوانه وأخواته من أمِّه، إذا لم يكن للمتوفى أصلٌ وارثٌ، ولا فرعٌ وارثٌ. ونقل ابنُ كثير عن أبي بكرٍ الصديق وعمرَ أنَّ الكَلالَةَ مَنْ لا وَلَدَ له ولا والدَ، وعزى ابن كثيرٍ هذا القولَ إلى عليٍّ وابنِ مسعودٍ وابن عباسٍ وزيدِ بن ثابتٍ، ونقله عن الشعبيِّ والنخعيِّ والحسن وقتادةَ، وبه يقول أهلُ المدينةِ، وأهلُ الكوفةِ والبصرةِ، وهو قولُ الفقهاءِ السبعةِ والأئمةِ الأربعةِ، وجمهورِ السَّلفِ والخلفِ، بل جميعهم، وقد حكى الإجماعَ عليه غيرُ واحدٍ [ابن كثير: ٢/ ٢٠٥].

وعلى ذلك فالكلالةُ الإخوةُ مِنَ الأُمِّ إذا لم يكن للمتوفى أبٌ ولا جَدٌّ، ولم يكن له وَلَدٌ أو بِنْتٌ، فإن كان للميتِ أخٌ واحدٌ من الأمِّ أو أُختٌ واحدةٌ منها، فَلَهُ أي الأخُ أو الأختُ السُّدسُ، فإنْ كان للمتوفى اثنانِ فأكثرُ فهم شركاءُ في الثلثِ ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء:١٢] ويلاحظُ أنَّ الإخوةَ من الأمِّ يتساوون في الميراثِ، لا فرق بين الذكرِ والأنثى منهم.

٣- مشاركةُ أولادِ الأبوين لأولادِ الأمِّ في الثلث (المسألةُ المشتركةُ):

إذا تُوُفِّيَ الميتُ عن زوجٍ، وأُمٍّ أو جدَّةٍ، واثنين من ولدِ الأُمِّ، وواحدٍ أو أكثر من ولد الأبوين، فذهب جمهورُ أهلِ العلم أنَّ للزوج النصفَ، وللأمِّ أو الجدةِ السدسَ، وللإخوة لأم الثلثَ، ويُشاركهم في الثلثِ وَلَدُ الأبوين، لأنَّ أمَّهم واحدةٌ.

جنـــة الســـــنة

وتسمَّى هذه المسألةُ المشتركةَ، لمشاركةِ أولادِ الأبوين الإخوة لأمّ في الثلث، وتسمَّى الحمارِيةَ، لأنَّ أولادَ الأبوينِ قالوا لعمرَ بن الخطابِ، عندما حرمهم من الميراثِ، وأعطى أولادَ الأمِّ الثلثَ: «هَبْ أنَّ أبانا كان حماراً، أَلَسْنا من أُمٍّ واحدة؟» فشرَّك بينهم. [ابن كثير: ٢/ ٢٠٦].

٤- لا يجوزُ للموصي أنْ يضير بالورثةِ في وصيته:

لا يجوزُ للموصي أن يضير الورثة في وصيته، كأن يحْرِمَ في وصيتِهِ بعض الورثة، أو ينقصَ من ميراث بعضهم، أو يوصي بالمال الكثير الذي يزيدُ على الثلثِ، ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ﴾ [النساء:١٢]. وقد قال ابنُ عباسٍ: «الإضرارُ بالوصية من الكبائر» [قال محقق ابن كثير: (٢/ ٢٠٧) الصحيحُ موقوفٌ، رواه الدارقطني: (٤/ ١٥١) والعقيلي (٣/ ١٨٩) والطبري: (٨٧٨٩)].

والصحيحُ من القولِ أنه لا يجوزُ الوصيةُ للوارثِ، لقولِ الرسولِ ﷺ: «إنَّ اللهَ أعطى كلَّ ذي حَقٍّ حقَّه، فلا وصيَّةَ لوارثٍ».

٥- تلكَ حدودُ الله فلا تعتدوها:

أشارَ اللهُ -تبارك وتعالى- بقولِهِ: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾ إلى الفرائضِ والمقاديرِ التي جعلها اللهُ للورثةِ في الآيتين السابقتين، فلا يجوزُ تجاوز هذه الحدود، ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ﴾ [البقرة:٢٢٩].

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه من يطع اللهَ ورسولَهُ، بقبوله ما شرعَه اللهُ ورسولُه، وتنفيذِه له، ومن ذلك تطبيقُ الحدودِ التي حدَّها اللهُ ورسولُه في الميراثِ، فإنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- يُدْخِلُهُ جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ، خالدين في تلك الجنَّاتِ، وهذا هو الفوزُ العظيمُ، الذي تهدأ فيه النفوسُ ويَرْضَى به القلبُ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٣﴾ [النساء:١٣].

أما الذين يعصونَ اللهَ ورسولَه بعدم قبولهم ما شرعه الله، وتعدِّيهم للحدود التي شَرَعها في الميراثِ، فتراهم يُغيِّرونَ فيها، ويبدِّلونَ، ويزيدونَ ويُنْقصونَ، ويضربونَ بقولِ الله وقولِ رسولِهِ عرْض الحائط، وقد ارتفعتْ هذه النغمةُ النشازُ الظالمةُ التي تدَّعي أنَّ الأحكامَ الشرعيةَ في المواريثِ ظالمة، وهؤلاءِ عصَوُا اللهَ ورسولَهُ، وتعدَّوْا حدودَهُ، وسيدخلُهُم ربُّ

جنـــــة الســـــنة

العزَّةِ ناراً خالدين فيها أبداً، ولهم عذابٌ مهين ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء:١٤].

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النصِّ من علمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- إذا توفيتِ الزوجةُ كان لزوجها منها نصفُ ميراثها إنْ لم يكن لها ولدٌ، فإنْ كان لها ولدٌ فميراثه منها الرُّبُعُ، من بعد وصيةٍ يوصَى بها أو دينٍ.

٢- إذا تُوُفيِّ الزوجُ كان لزوجته منه ربع تركته إن لم يكن له ولد، فإن كان له ولدٌ فميراثها منه الثمن، من بعد وصيةٍ يوصَى بها أو دينٍ.

٣- إذا كان للرجل أكثرُ من زوجةٍ فإنهن شركاءُ في الرُّبُعِ، أو الثُّمُنِ الذي يرثنه من الزوج.

٤- الكلالةُ أنْ يكونَ للميتِ أخٌ أو أختٌ لأم أو أكثرُ، ولا يكونُ له ولدٌ، ولا أبٌ ولا جدٌّ.

٥- إذا لم يكن للميتِ ولدٌ ولا أبٌ ولا جدٌّ، وكان له أخ أو أُخت من أمِّه فلكلٍّ واحد منهما سدسُ التركةِ، فإنْ كانوا اثنين فأكثرَ فهمْ شركاءُ في الثلثِ، من بعد وصيةٍ يوصى بها أو دينٍ.

٦- إذا توفي رجلٌ أو امرأةٌ وترك خلْفَهُ زوجاً، وأُمّاً أو جدَّةً، وإخواناً لأمٍّ، وأخاً لأبوين أو أكثر، فللزوج النصفُ، وللأُمِّ أو الجدة السدسُ، وللإخوةِ لأمٍّ الثلثُ، ويشركُ الإخوةُ لأبوين الإخوةَ لأمٍّ في الثلث، لأن أمَّهم واحدةٌ.

٧- لا يجوزُ أن يضيرَ الموصي الورثةَ بوصيتِهِ، كأن يوصي لوارثٍ، أو يمنعَهُ أو يُنْقِصَهُ من الميراثِ.

٨- ما شرعَهُ الله في الميراثِ فرْضٌ لازمٌ، فمن التزم به رضي الله عنه وأدْخَلَهُ الجنّةَ، ومن نقضَه وغيَّره وبدَّله غضبَ اللهُ عليه وأدخله النَّار.

جنـــة الســـنة

النصُّ القرآنيُّ السادسُ من سورة النساء
الأمرُ بحبسِ الزانية وإيذاء الزاني

أولاً: التقديم

أَوْجَبَ اللهُ -تعالى- على المسلمينَ في هذه الآياتِ حَبْسَ مَنْ زَنَتْ من النساء إذا ثبت زناها بأربعةِ شهودٍ، وتُحبَسُ في بيتها حتى الموتِ، أو حتى يُنزلَ اللهُ حكماً آخرَ غير هذا الحكم، أما الزناةُ من الرجال فأوجبَ إيذاءَهم بالتوبيخ والتأنيبِ حتى يتوبوا ويُصلِحُوا، ثم نُسِخَ هذا الحكمُ برجمِ الزاني إذا كان محصناً رجلاً أو امرأةً، وجلد غير المحصن.

بيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- في الآيتين الأخيرتين من هذا النص التوبة التي يقبلها، والتوبة التي لا تُقبل.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿وَٱلَّتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾﴾ [النساء:١٥-١٨].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- حبسُ النساءِ اللاتي يأتينَ الفاحشةِ في البيوت:

أمرنا العزيزُ العليمُ -سبحانه- بحبسِ النساء اللاتي يأتين الفاحشةَ في البيوت حتى يتوفاهنَّ الموتُ أو يجعلَ اللهُ لهنَّ سبيلاً، ﴿وَٱلَّتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾﴾ [النساء:١٥].

وأصلُ الفاحشةِ ما عظمُ قبحُهُ مِنَ الأفعالِ والأقوالِ كالكُفرِ والزنا والقتلِ، والمرادُ بها هنا الزنا، وقولُه: ﴿مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ أي: المسلمات، ولا يُحبَسْنَ في البيوتِ حتى تثبت عليهنَّ جريمةُ الزنا، وإنما يثبتُ ذلك عليهنَّ بشهودٍ أربعةٍ من الرجال العدولِ أنَّهم رأوْهُنَّ يرتكبنَ هذه الجريمةَ، وقد جعلَ اللهُ الشهودَ أربعةً تغليظاً على المدَّعي وستراً على العباد.

جنـــــة الســـــنة

فإن شهدوا، فيُحْبَسْنَ في البيوت إلى أنْ يتوفاهُنَّ الموتُ، أو يجعلَ اللهُ لهن سبيلاً، أي إلى أن تقبضَ أرواحهنَّ، أو يُنزلَ اللهُ فيهنَّ حكماً آخر غير هذا الحكم.

٢- حُكْمُ اللذين يأتيان الفاحشةَ من الرجالِ:

بيّنَ اللهُ -تعالى- في الآية الثانية من آياتِ هذا النصِّ حكمَ الرجالِ المسلمين الذين يأتون الزنا، فالواجبُ علينا تعزيرُهُمْ وتبكيتُهُمْ بالقولِ والفعلِ، بالسبّ والضربِ بالأيدي أو النعالِ ونحو ذلك، وقد أمرنا اللهُ بأنْ نُعْرِضَ عنهم في حالِ صلاحِ حالهم، واستقامةِ أمرهم ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾ [النساء:١٦].

وأرادَ بقوله: ﴿وَٱلَّذَانِ﴾ صنفين من الرجالِ الزناة: المُحْصَنِ، وغيرِ المحصنِ، فالآيةُ السابقةُ في النساءِ محصناتٍ وغير محصناتٍ، وهذه الآية في الرجال مُحْصَنين وغير مُحْصَنين.

وقد أمرنا اللهُ بإيذاءِ الزناةِ بالقولِ أو الفعل حتى يتوبا إلى الله ويصلحا أمرهما، عند ذلك نَنتهي عن إيذائهما، واللهُ تبارك وتعالى توابٌ رحيم.

٣- نسخُ اللهِ -تبارك وتعالى- هذا الحكْمَ:

نسخ الله -تبارك وتعالى- هذا الحكمَ الذي تضمنتهُ الآيتان في حقِّ الزناةِ من النساءِ والرجالِ، ففي سورة النور بيّن اللهُ حُكْمَ الزاني غير المحصن من الرجال والنساء، فقال: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور:٢].

وبينتِ الأحاديثُ الصحيحةُ حكمَ المحصنين من الرجال والنساء، فعن عبادةَ بن الصامت قالَ: قال رسولُ الله ﷺ: «خُذُوا عنِّي، خُذُوا عنِّي، قد جَعَلَ اللهُ لهن سبيلاً، البكرُ بالبكرِ جلدُ مائةٍ، ونفيُ سَنَةٍ، والثيبُ بالثيبِ جلد مائةٍ والرجمُ» [مسلم: ١٦٩٠].

وقد أمر الرسولُ ﷺ برجْمِ الزناةِ الذين أُحصنوا أكثرَ من مرَّةٍ، فقد اعترفَ عند الرسولِ ﷺ ماعزٌ بالزنا، فأمرَ برجمِه، فرُجِمَ [البخاري: ٥٢٧١، ٦٨١٥، ٦٨٢٥. ومسلم: ١٦٩١، ١٦٩٢، ١٦٩٣، ١٦٩٤].

واعترفتْ عندهُ الغامديةُ، فأمر برجْمها بعدَ أنْ وضعتْ حملها، ثم أرضعته [مسلم: ١٦٩٥، ١٦٩٦] وأمر بجلدِ رجلٍ كان حارساً لبستانٍ فزنى بامرأةِ صاحبِ البستانِ، وأمر أُنيساً الأسلميَّ أن يذهبَ إلى امرأةِ صاحبِ البستانِ، فإن اعترفتْ فأمر برجْمها، فاعترفتْ بزناها فرجمها [البخاري: ٢٣١٤، ٢٣١٥، ٢٦٩٦، ٢٧٢٤. ومسلم: ١٦٩٧، ١٦٩٨] وأمر الرسولُ ﷺ برجمِ

جنـــــة الســـــنة

الزانيين اليهوديين اللذينَ رفع اليهودُ إليه أمرهما، فأمر بهما فرجما [البخاري: ١٣٢٩، ٤٥٥٦، ٦٨٤١. ومسلم: ١٦٩٩].

ولم يُذكرْ في الأحاديثِ التي أمرَ الرسولُ ﷺ أصحابَه فيها بالرجم، أنْ يجلدوا من أُمروا برجمه، فالحديث الذي أمرَ بالجلد قبل الرجم منسوخٌ على الصحيح.

والأحاديثُ الدالةُ على أمرِ الرسولِ ﷺ بالرجم، وقيامُ الصحابةِ بالذي أمرهم الرسول ﷺ به، يدلُّ على شناعةِ خطأ الذين يردُّون الرجم ويقصرونه على الجلد.

٤- التوبة الصادقةُ:

إذا ارتكبَ العبدُ ذنباً وجبَ عليه أن يتوبَ إلى الله -تبارك وتعالى- قالَ تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور:٣١]. وإذا تابَ العبدُ بصدقٍ قَبِلَ اللهُ توبتَهُ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى:٢٥].

وقد أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ أنَّ التوبةَ المقبولَةَ عند الله تعالى هي للذين يعملونَ السوءَ بجهالةٍ ثم يتوبونَ من قريب ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [النساء:١٧].

وقال قتادةُ مبيناً معنى قوله: ﴿يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء:١٧]: «اجتمع أصحابُ رسولِ الله ﷺ فرأوا أنَّ كلَّ شيءٍ عصي به فهو بجهالةٍ، عمداً كان أو غيره» وقال مجاهد: «كلُّ من عصى ربَّه فهو جاهلٌ، حتى ينزعَ عن معصيته» [تفسير الطبري: ٣/ ٢١٩٦].

ومعنى ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء:١٧] أيْ في حالِ الصحةِ والعافية قبل أن ينزل بهم الموتُ، كما يقولُ ابنُ عباس [الطبري:٣/ ٢١٩٨] وروى ابنُ عمر عن النبيِّ ﷺ قالَ: «إنَّ الله يقبلُ توبةَ العبد ما لم يغرغر» [قال فيه محقق ابن كثير (٢/ ٢١٢): حَسَنٌ أخرجه الترمذيُّ وابنُ ماجه وأحمدُ وابنُ حبانٍ وصححه الحاكمُ ووافقه الذهبيُّ وحسَّنه الترمذيُّ].

وقد أخبرنا العليمُ الحكيمُ -تبارك وتعالى- أنَّ الذين يعملون السوء بجهالةٍ، ثم يتوبونَ من قريبٍ فإن اللهَ يتوبُ عليهم، وكان الله عليماً حكيماً.

٥- التوبة غير المقبولة:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن التوبة غير المقبولة، فقال: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء:١٨].

جنـــــة الســـــنة

أعْلمنا اللهُ في هذه الآية أنَّ الذين يعملون السيئات مصرِّين عليها، ثم يتوبون حين يحضرهم الموتُ، ويعاينون الملائكة الذين حضروا لقبضِ أرواحِهم، فهؤلاء توبتهم غير مقبولة، ولا ينجون من عذاب الله، كما وقع لفرعون، فإنَّ اللهَ لم يقبل إيمانه عندما نزل به الغرق ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [يونس:٩٠-٩١].

رابعاً: ما تهدي إليه الآياتُ من علمٍ وعمل

تهدينا آياتُ هذا النص إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - كان الحكمُ في أوّلِ الأمر أنَّ النساء المسلماتِ اللاتي ثبت زناهُنَّ بأربعةِ شهودٍ أن يحبسنَ في البيوتِ حتى يتوفاهُنَّ الموتُ أو يجعلَ اللهُ لهنَّ سبيلاً.

٢- وكان الحكم في الرجال المحصنين وغير المحصنين إذا زنوا أن يُؤذَوْا بالقول والفعل حتى يتوبوا ويستقيمَ أمرهم.

٣- نُسِخَ هذا الحكمُ الذي يتعلقُ بالزناة من النساء والرجال فيما بعد، فالرجل الزاني وكذلك المرأة الزانية يجلد كلٌّ منهم مائة جلدةٍ إذا لم يكن محصناً، فإن كان محصناً رُجم حتى الموت.

٤ - يقبلُ الله توبةَ عبده إذا تابَ توبةً نصوحاً قبل أن ينزلَ به الموتُ، وقبل أن يصل إلى درجةِ الغرغرة، أما الذين يتوبون عندما يصل بهم الحالُ إلى الغرغرةِ، فلا تقبلُ توبتُهم، ومثلُهم الكفارُ الذين يؤمنون عند نزول الموت أو العذاب بهم.

جنـــــة السـنـــــة

النصُّ القرآنيُّ السابعُ من سورة النساء
حرَّمَ اللهُ -تعالى- على الرجالِ ظلمَ النساء

أولاً: تقديمٌ

كان أهلُ الجاهلية يظلمون النساءَ، فمن ذلك قَتْلُهُمْ الصغيرات من البنات، ومن ذلك ما أخبرنا اللهُ عنه في آياتِ هذا النص، فقد كان أولياءُ المتوفى يرثونَ زوجتَه كما يرثونَ مالَهُ، ويتصرفون فيها كما يشتهونَ، وكانَ الأزواجُ يضيِّقون على زوجاتِهم ليأخذوا منهنَّ بعض ما آتوهن، وبعضهم يطلِّقها، ويأخذُ منها ما أعطاها، وقدْ أبطلَ اللهُ كل هذا الظلم الذي كان يحيقُ بالمرأة في الجاهلية، ونهى عنه.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾ [النساء:١٩-٢١].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لا يحلُّ للرجالِ أن يرثوا النساء كَرْهاً:

نهى اللهُ -تبارك وتعالى- الرجال أن يتخذوا زوجات آبائهم ميراثاً، يرثونهن كما يرثون المتاعَ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ ﴾ [النساء:١٩]. قال ابنُ عباسٍ في تفسير هذه الآية: «كانوا إذا ماتَ الرَّجُلُ كانَ أولياؤه أحقَّ بامرأتِهِ، إن شاءَ بعضُهم تزوَّجَها، وإن شاؤوا زوَّجوها، وإنْ شاؤوا لم يزوجوها، فهُمْ أحقُّ بها من أهلها، فنزلتْ هذه الآيةُ في ذلك» [البخاري: ٤٥٧٩، ٦٩٤٨. وصحيح أبي داود: ١٨٣٩]. وعن ابن عباس أيضاً قال: «كانَ الرجلُ يرثُ امرأةَ ذي قرابتِهِ، فيعْضُلُها حتى تموتَ، أو تَرُدَّ إليه صَداقَها، فأحْكَمَ اللهُ عن ذلك، ونهى عن ذلك» [صحيح أبي داود: ١٨٤٠].

جنـــــة السـنـــــة

٢- حرَّم اللهُ على الزوج أن يَعْضُلَ زوجته ليأخذ منها بعض ما آتاها:

نهى الحقُّ -تبارك وتعالى- الأزواجَ عن عضل أزواجهم بالتضييق عليهنَّ، كي يفتدين منهم ببعضِ المالِ الذي دفعوهُ لهنَّ مهراً أو غيره ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ [النساء:١٩] قال ابنُ جريرٍ في هذه الآيةِ: «نهى اللهُ -جلَّ ثناؤُه- زوجَ المرأةِ عن التضييقِ عليها والإضرار بها، وهو لصُحْبَتِها كارِهٌ، ولفِراقِها محبٌّ، لتفتديَ منه ببعض ما آتاها من الصَّداق» [الطبري: ٣/ ٢٢٠٧].

أما إذا كانتْ الزوجةُ هي الكارهةَ لزوجها، فيجوز لزوجها أن يأخذ منها ما آتاها أو بعضه كما سيأتي بيانه.

٣- يجوزُ للزوجِ أن يأخذ من زوجته بعض ما آتاها إذا جاءت بفاحشةٍ مبيِّنةٍ:

أحلَّ اللهُ تعالى للأزواجِ أن يأخذوا ما آتوه للزوجات أو بعضَه إذا جاءت المرأةُ بفاحشةٍ مبينة، ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [النساء:١٩] وقد ذهبَ كثيرٌ من أهل العلم إلى أنَّ المرادَ بالفاحشة في الآية الزنا، وذهب آخرون إلى أنها النشوزُ والبَذاءُ وسوءُ العشرة، والذي رَجَّحه ابنُ جريرٍ أن الآية شاملة لذلك كلِّه [الطبري: ٣/ ٢٢١١]، وهو الصحيح.

٤- يجبُ على الأزواجِ معاشرةُ زوجاتهم بالمعروف:

أمرَ اللهُ -تبارك وتعالى- الأزواجَ أن يُعامِلَ الواحدُ منهم زوجته بالمعروف ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء:١٩]. والمعروفُ المأمورُ به في الآية: الصحبةُ الطيبةُ، ومن أراد أن يعرف كيف تكون الصحبةُ الطيبةُ للزوجة، فلينظرْ إلى صحبة الرسول ﷺ لزوجاتِه، وقد قال رسولُ الله ﷺ: «خيرُكُمْ خيرُكُمْ لأهلِه، وأنا خيرُكُمْ لأهلي» [الترمذي (٣٨٩٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح].

وقد كان الرسولُ ﷺ يحادثُ أزواجَهُ، ويضاحِكُهُنَّ، ويستمعُ إليهن، وقد صحَّ في الحديثِ أنه سابقَ عائشةَ فسبقتْهُ، فلما أثقَلها الشحْمُ، سابقَها فسبقَها، فقال: هذه بتلك، وقد كان يصْبِرُ على ما يكونُ من أذاهنَّ في بعضِ الأحيانِ، كما كان يجيب على أسْئلتهن، ويُعلِّمُهُنَّ ما جهلن.

٥- صبرُ الزوجِ على زوجتِهِ إذا كَرِهَ منها خلقاً:

دعا اللهُ -سبحانه وتعالى- الأزواجَ إلى الصبرِ على زوجاتِهم إنْ كرهوا منهن أمراً، وقد رغَّب اللهُ الأزواجَ بإمساك الزوجات مع وجود ما يكرهونه فيهنَّ من دمامةٍ أو خلُقٍ، فقد يجعلُ اللهُ

جنـــــة السـنــــــة

فيهنَّ خيراً كثيراً، فالمرأةُ لا تخلو من عيبٍ، ولكن قد يكونُ مع ذلك العيبِ حسناتٌ كثيرات، قال الرسولُ ﷺ في الحديث الذي رواه عنه أبو هريرة ﷺ: «اسْتَوْصُوا بالنساءِ، فإنَّ المرأةَ خُلِقَتْ من ضِلَعٍ، وإنَّ أعوجَ شيءٍ في الضِّلَعِ أعلاه، فإنْ ذهبْتَ تُقيمُهُ كسرتَهُ، وإنْ تركتَهُ لم يَزَلْ أعوج، فاستوصوا بالنساءِ خيراً» [البخاري: ٣٣٣١، ٥١٨٦. ومسلم: ١٤٦٨]. والخيرُ الذي قد يكونُ في المرأةِ ما فيها من الصفات الحسنة الطيبة، وما قد تأتي به من أولاد وبنات من أهل الصلاح.

٦- لا يجوزُ لمن أرادَ فراقَ زوجته أن يأخذ مما آتاها شيئاً:

نهى اللهُ -تبارك وتعالى- الزوجَ الذي يريدُ أنْ يفارقَ زوجتَهُ، ويستبدلَ مكانها غيرها أن يأخذ من مهرها الذي آتاها إياهُ شيئاً، ولو بلغ ذلك المهرُ قنطاراً ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾ [النساء: ٢٠].

وقولُهُ: ﴿بُهْتَـٰنًا﴾ أي: ظُلْماً بغير حقٍّ، وقد وصف الإثم بأنه مبين، أيْ: ظاهرٌ واضحٌ بيِّنٌ.

وقولُهُ: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾ [النساء: ٢٠] استفهامٌ للتقريعِ والإنكارِ والتوبيخِ.

وقد أتْبَع التوبيخَ السابقَ بتوبيخٍ لاحقٍ، فقال: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء: ٢١] أنْكَرَ اللهُ في هذه الآية مرَّةً أخرى على الأزواجِ أن يأخذوا من أزواجهنَّ شيئاً من المهر بعدما أفضى بعضُهم إلى بعضٍ، ويكونُ الإفضاءُ بالمعاشرة، وكذلك بالخلوةِ التي تكون بين الزوجين، ولو لم يكن معها جماعٌ، قال عمر بن الخطاب: «إذا أغْلَقَ باباً وأرخى ستراً، ورأى عورةً فقد وَجَبَ الصَّداقُ» وقال عليٌّ مثل ذلك [القرطبي: ٣/ ٩٥].

والميثاقُ الغليظُ الذي أخذَتْهُ الزوجاتُ على الأزواجِ بيَّنَه الرسولُ ﷺ في الحديث الذي رواه عنه جابرُ بنُ عبدالله ﷺ، وفيه: «فاتَّقوا اللهَ في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانِ الله، واسْتَحْلَلْتُمْ فروجَهُنَّ بكلمةِ الله» [مسلم: ١٢١٨].

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا هذه الآياتِ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١- أبطلَ اللهُ ما كان عليهِ أهلُ الجاهلية من جَعْلِ المرأةِ التي توفى عنها زوجها ميراثاً، فقد كانوا يتحكمون بها تحكمهم بالمال الذي يرثونه من أبيهم.

جنــــة الســــنة

٢- حرَّم اللهُ على الأزواج ظُلْمَ النساءِ بالحبسِ والتضييقِ عليهن في النفقةِ ليفتدينَ منهم ببعضِ المالِ الذي أخذنه منهم مهراً.

٣- إذا جاءَت المرأةُ بفاحشةٍ بيِّنة، وهي الزنا أو سوءُ الخلق والنشوزُ وسلاطةُ اللسانِ، فيجوز لزوجها أن يضيِّقَ عليها لتفتديَ منه ببعض مما أعطاها ليطلِّقها.

٤- أمر اللهُ الأزواجَ أن يُحْسِنوا معاشرتَهُمْ لزوجاتِهِمْ، ونبَّه ربُّ العزة إلى عَدم المسارعةِ بالفراقِ إن كَرِهَ الزوجُ خلقاً، فقد يجعل اللهُ فيها خيراً كثيراً.

٥- لا يجوزُ للزوج أن يأخذَ من زوجته شيئاً مما أعطاها إيَّاهُ من مهرٍ أو غيره، إذا شاءَ طلاقَها والزواجَ بأخرى.

٦- بيَّنَ اللهُ أنَّ أخْذَ الأزواج شيئاً من مهور الزوجات إذا طلقوهنَّ مستنكرٌ، ووصفه بالبهتان والإثم المبين، وأنكر أخْذَ الأزواج له بعد معاشرتهم لزوجاتهم، وبعد الميثاق الغليظ الذي أخذْنَه عليهم بالعقد.

٧- المهرُ قد يكونُ قليلاً، وقد يكونُ كثيراً، فالله قال: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء:٢٠] والقنطارُ مالٌ عظيمٌ جزيلٌ، ولكن ينبغي أن يتوسَّطَ في المهر، ويعتدلَ فيه، فعن عمر بن الخطاب قال: «ألاَ لا تغالوا في صَدُقَةِ النساءِ، فإنَّها لو كانت مكرمةً في الدنيا، أو تقوى عند الله، لكان أولاكم بها نبيَّ الله ﷺ، ما علمت رسولَ الله ﷺ نكَحَ شيئاً من نِسائه، ولا أنكح من بناته على أكثر من ثنتي عشرة أوقيَّة» [الترمذي: ١١١٤. وقال فيه: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، والأوقيةُ عند أهل العلم أربعونَ درهماً، وثنتا عشرةَ أوقية: أربعمائة وثمانون درهماً].

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الثامن من سورة النساء
المحرماتُ من النساء

أولاً: تقديم

بيّن اللهُ -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ النساءَ اللاتي يحرمُ الزواجُ منهنَّ، وقد ضَلَّ البشرُ في هذا ضَلالاً عظيماً في القديمِ والحديثِ، فالمجوسُ يتزوجون من بناتِهم، والعربُ في الجاهلية كانوا يجمعون بين الأختين في الزواجِ، وكانَ الرجلُ ينكحُ زوجةَ أبيه إن لم تكن أمّاً له.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [النساء:٢٢-٢٣].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النص من القرآن:

١- حرَّم اللهُ على الأبناء الزواجَ ممن نَكَحَهُ الآباءُ من النساء:

حرَّم اللهُ تبارك وتعالى على الأبناء نكاحَ النساءِ اللاتي نكحهنَّ الآباءُ، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [النساء:٢٢]. قال عطاءٌ: «كانَ الأبناءُ ينكحون نساءَ آبائهم في الجاهلية». وقال ابنُ عباس: «كلُّ امرأةٍ تزوَّجها أبوكَ أو ابنُك دخل أو لم يدْخل فهي عليك حرامٌ» [الطبري: ٣/ ٢٢١٨].

والمرادُ بالأب كلُّ رجلٍ له عليك ولادةٌ، فيشملُ الأبَ والجدَّ لأبٍ، والجدَّ لأم، وآباءَهم، وقولُه: ﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ ﴾ [النساء:٢٢] أي «لكن ما قد سَلَفَ، فهو مَعْفُوٌّ عنه لمن كانَ واقعه» [المحرر الوجيز: ٢/ ٥٠٦].

جنـــة السـنـــة

والفاحشةُ: ما عَظُمَ قُبْحُهُ من الأفعالِ والأقوالِ، «والمقتُ: البغضُ الشديدُ لمن تراه تعاطى القبيحَ، وكان يسمَّى تزوُّجُ الرجلِ امرأةَ أبيه المَقْتَ» [المفردات: ص٤٧٠] وقوله: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٢٢﴾ أي: بئسَ طريقاً لمن سَلَكَهُ من الناسِ.

وقد أمر رسولُ الله ﷺ بضرب عنق رجُلٍ تزوَّج امرأةَ أبيه بعد وفاتِهِ، فعن البراء بن عازب، قال: «بيْنا أنا أطوفُ على إبلٍ لي ضَلَّتْ، إذ أقبلَ ركْبٌ أو فوارسُ معهم لِواءٌ، فجعلَ الأعرابُ يطيفون بي لمنزلتي من النبي ﷺ، إذ أتوْا قُبَّة، فاستخرجوا منها رجلاً، فضربوا عُنُقَه، فسألتُ عنه، فذكروا أنه أعْرَسَ بامرأةِ أبيه» [سنن أبي داود: ٤٤٥٦، وأورده الألباني في صحيح أبي داود: ٣٧٤٣. وقال فيه: صحيحٌ. وانظر الإرواءَ: ٨/ ١٢١].

وعن البراءِ أيضاً قال: «لقيتُ عَمِّي ومعه رايةٌ، فقلتُ: أين تريدُ؟ قال: بعثني رسولُ الله ﷺ إلى رجُلٍ نكح امرأةَ أبيه، فأمرني أن أضْرِب عنقَهُ، وآخذ مالَهُ» [سنن أبي داود: ٤٤٥٧. وأورده الألباني في صحيح أبي داود: ٣٧٤٤].

٢- المحرماتُ مِنَ النساءِ من النسب:

بيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- في الآية الثانية من آيات هذا النص المحرمات من النساء، وهنَّ سبعٌ من النسب، واثنتان من الرِّضاع، وأربعٌ من المصاهرةِ، أما المحرمات من النسب فهنَّ: الأمهاتُ، والبناتُ، والأخواتُ، والعماتُ، والخالاتُ، وبناتُ الأخِ، وبناتُ الأختِ. قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ [النساء:٢٣] ويدخلُ في الأمهاتِ: الأمُّ الوالدةُ، والجداتُ من قِبَلِ الأب ومن قِبَلِ الأم، والأمهات كلُّ امرأة لها عليك ولادة. والبنات بناتُكَ، وبناتُ أولادِك، وبناتُ بناتِكِ، وإنْ نَزَلْنَ، وقالوا في الضابط المُعرِّفِ بالبناتِ: كلُّ امرأةٍ لك عليها وِلادةٌ فهي ابنتُكَ، ويدخلُ في الأخواتِ الأخواتُ لأبوين، والأخواتُ لأبٍ، والأخوات لأمٍّ، ويدخل في العمّات أخْتُ الأب وأخواتُ الأجداد، ويدخُلُ في الخالاتِ أُختُ الأُمِّ، وخالةُ الأبِّ، وخالةُ الجدّ، ويدخلُ في بناتِ الأخِ وبناتِ الأختِ ما كان أختاً لأبوين، أو لأبٍ، أو لأمٍّ.

٣- المحرمات من الرضاع:

أخبرنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَّه حَرَّمَ علينا من الرضاعِ الأُمَّ التي أرْضَعَتْنا وأخواتِنا من الرضاعة: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ [النساء:٢٣] وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ أنَّ الرضاعةَ تُحرِّم ما تحرمُه الولادةُ، فعن عائشة أنها سمعتْ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إنَّ الرضاعةَ تُحرِّمُ ما يَحْرُمُ من الولادة» [البخاري: ٢٦٤٦. ومسلم: ١٤٤٤] وفي روايةٍ عند

جنـــــة السـنــة

مسلم عن عروة أنَّ عائشةَ كانت تقولُ: «حرِّموا من الرضاعة ما تحرمونَ من النَّسَبِ» وعلى ذلك فإنه إذا أرضعتِ امرأةٌ طفلاً، أصبحتْ هي أُمَّهُ من الرَّضاعِ، وكلُّ من أرضعتهُ من بناتها أو غيرهن أخواتُه من الرضاع، وأُمُّ الأمِّ المرضعةُ جَدَّتُه، وزوجها والدُهُ، وأُختها خالته، وأختُ زوجها عمَّتهُ.

والصواب من القولِ أنَّ الرضاعةَ لا تُحَرِّمُ حتى يبلغَ عددُ الرضعاتِ خمسٌ، لما قالته عائشةُ: «كان فيما أُنزل من القرآن: عشْرُ رضعاتٍ معلوماتٍ يُحرِّمْنَ، ثم نسخن: بخمسٍ معلوماتٍ» [مسلم: ١٤٥٢].

ولا يُحرِّمُ الرضاعُ إلا إذا كان في مُدَّةِ الحولين لما روتْهُ أُمُّ سلمةَ قالتْ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «لا يَحْرُمُ من الرِّضاعةِ إلا ما فتَقَ الأمعاءَ في الثَّدْيِ، وكانَ قبل الفِطامِ» [الترمذي (١١٥٢): وقالَ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح]، وقال الترمذي بعد إيراده الحديث: «والعملُ على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرِهم: أنَّ الرضاعةَ لا تحرِّمُ إلا ما كان دونَ الحولين، وما كان بعد الحولين، فإنَّه لا يحرم شيئاً».

وكانت عائشة رضي الله عنها ترى أنَّ رضاعَ الكبير يؤثِّر في الرَّضاع، وقد خالفها جميعُ أزواجِ الرسولِ ﷺ، وخالفها الأكابرُ من الصحابة، وجمهور أهلِ العلم، وفيهم فقهاءُ المدينةِ السبعة، والأئمةُ الأربعة، وما وردَ أنَّ الرسولَ ﷺ أمر امرأة أبي حذيفة أن ترضع سالماً مَوْلى أبي حذيفة، هو خاص بأبي حذيفةَ وزوجِهِ.

٤- المحرماتُ من المصاهرة:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه حرَّم على الرجال الزواجَ بأربعٍ من النساء عن طريق المصاهرة، قال تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [النساء: ٣٢].

والأُولَى من هذه المحرماتِ: أمهاتُ نسائنا، فإنَّ الرجل إذا عقد على امرأةٍ حَرمَتْ عليه أُمُّها دخل بها أو لم يَدْخُلْ بها، وهذا هو الصحيح، وهو مذهبُ عدد من الصحابة وقولُ الفقهاء السبعة، ومذهبُ الأئمة الأربعة، وذهبَ بعضُ أهل العلم أنَّ أمَّ الزوجة لا تحرم إلا إذا دخَلَ ببنتها، وهذا غير صحيح، والصوابُ القولُ بالتحريم [ابن كثير: ٢/ ٢٢٤].

جنـــــة الســـــنة

والثانية من المحرمات: ربائبنا اللاتي في حُجورِنا، والربيبةُ هي بنتُ الزوجة، فهذه تحرمُ على الزوج إذا دخل بأمها، فإنْ فارقَ الأُمَّ قبل الدخولِ جازَ له أن يتزوج من بنتها، وجمهورُ أهلِ العلم على أنَّ الربيبةَ حرامٌ سواءً كانت في حِجْرِ الرجل أوْ لم تكن في حِجْره، فالخطابُ في الآيةِ خَرَجَ مخرجَ الغالبِ، فلا مفهومَ له. وهذا القولُ كما يقولُ ابنُ كثيرٍ، وهو أنها حرامٌ سواءً كانت في حجرِهِ أو لم تكن، هو قولُ جمهورِ السلف والخلف، وفيهم الفقهاءُ السبعةُ والأئمة الأربعة [ابن كثير: ٢/ ٢٢٥].

والصنف الثالث الذي يَحْرُم بطريقِ المصاهرةِ زوجاتُ أبنائِنا الذين من أصلابنا، فلا يَحْرُمُ علينا زوجاتُ الأبناء الذين ليسوا من الأصلاب، وقد كان أهل الجاهلية يتبنَّونَ أولاداً ليسوا من أصلابهم، ويُحرِّمون عليهم نساءَهم، فأبطلَ اللهُ ذلك كلّه، قالَ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [الأحزاب:٤] وطلّق زيدُ بنُ حارثة زوجتَهُ، وهي زينبُ بنت جحشٍ فزوَّجها اللهُ رسولَه ﷺ، وقد كانَ الرسولُ ﷺ تبنى زيداً في الجاهلية، وكان يُدْعَى زيدَ بن محمدٍ.

والصنف الرابع الذي حرَّمه علينا بطريقِ المصاهرةِ: الجمعُ بينَ الأختين، أي في النكاح، لا فرق في ذلك بين الزواجِ ومِلْكِ اليمين، وقولُه: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي إلا ما وقع منكم من نكاحِ الأختين في الجاهليةِ، فإنَّ اللهَ يغفره، واللهُ سبحانه غفورٌ رحيمٌ، أي واسعُ المغفرةِ، كثيرُ الرحمة.

رابعاً: ما تهدينا إليه هذه الآيات من علمٍ وعملٍ:

إذا تدبَّرْنا هذه الآيات وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١ - حرَّم اللهُ على الأبناءِ نكاحَ النساءِ اللاتي نَكَحَهُنَّ الآباءُ، وهذا النوعُ من النكاح كان ولا يزال فاحشةً ومقتاً وساءَ سبيلاً.

٢ - يحرُمُ على الرجال أنْ ينكحوا سبعاً من النساء عن طريق النسب، وهُنَّ: الأمهاتُ، والبناتُ، والأخواتُ، والعماتُ، والخالاتُ، وبناتُ الأخِ، وبناتُ الأختِ.

٣- حرَّم اللهُ **علينا** نكاح النساءِ اللاتي أَرْضَعْنَنا، وأخواتِنا من الرَّضاعةِ، وبيَّن لنا رسولُنا ﷺ أنَّه يحرُمُ علينا من الرضاعة ما يحرُمُ من النسب.

٤- حرَّم اللهُ علينا أربعاً من النساءِ بطريقِ المصاهرة، وهُنَّ أمهاتُ نسائنا، وربائبُنا اللاتي في حجورنا، وزوجاتُ أولادنا الذين من أصلابنا، والجمعُ بين الأختين بطريق الزواج أو مُلْكِ اليمين.

٥- وحَرَّمت علينا السنَّةُ النبوية صنفاً خامساً بطريق المصاهرة، وهو الجمعُ بين المرأة وعمتها والمرأة وخالتها.

٦- الصوابُ من القولِ: أن بنت الزنا تحرْمُ على الأبِ الزاني، خلافاً لمن أجازَ ذلك.

٧- الصوابُ من القولِ: أنَّ الرضاعَ المحرِّم هو الرضاعُ في الحولين إذا بلغ خمس رضعاتٍ، خلافاً لمن حرَّم برضاعِ الكبيرِ، وخلافاً لمن حرَّم برضعةٍ أو اثنتين أو ثلاث.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني التاسع من سورة النساء
حرمةُ الزواجِ من أيِّ امرأةٍ متزوجة

أولاً: تقديم

آية هذا النص مُكمِّلةٌ للآيات في النص السابق المتحدِّثة عن المحرمات من النساء، فقد أعلمنا اللهُ في هذه الآية أنه حرَّم علينا الزواج من كل امرأةٍ متزوجة، ومثلها أيضاً المعتدَّةُ، واستثنى من المتزوجات المسبياتُ من النساء، فإنَّ سبيهنَّ يقطع العلاقة بينهنَّ وبين أزواجهنَّ، ويجوزُ لمن ملكهن معاشرتهن بملك اليمين، وأحلَّ اللهُ لنا الزواج من غير المحرمات المذكورات بشرط أن نتزوجهنَّ محصنين غير مسافحين، ونؤتيهن أجورهن، أي مهورهن فريضة، ولا جناح علينا فيما تراضينا به من بعد الفريضة.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [النساء:٢٤].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- حرمة نكاح المتزوجات من النساء:

بيَّن اللهُ -تبارك وتعالى- في آيتين سابقتين في النص السابق جملةً من النساء اللاتي يحرم الزواج منهنَّ، وعطَفَ عليهن في آية هذا النص نكاح المتزوجات من النساء في قوله: ﴿ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ [النساء:٢٤].

وجاءت المُحْصَنَةُ في القرآنِ على أربعة معانٍ، الأول: المتزوجة: وهذا هو المعنى المراد في هذه الآية. والثاني: الحرّة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ ﴾ [النساء:٢٥]. والثالثُ: العفيفةُ: ومنه قوله تعالى في الآية التالية: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ ﴾ [النساء:٢٥]. والرابعة: المسلمة.

جنـــــة السـنــــة

٢- استثنى ربُّ العزة المسبيات:

واستثنى ربُّ العزَّة من ذواتِ الأزواج اللاتي يحرم الزواجُ منهن: المسبياتِ، ولهنَّ أزواجٌ في دار الحربِ، فيحلُّ لمالكيهنَّ وطؤُهُنَّ بعد استِبْرائهن بحيضة، لأنَّ السبيَ يرفعُ النكاحَ بين المسبية وزوجها، وهذا هو المعنى المرادُ بقولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء:٢٤].

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما رواه أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ يوم حنين بعث جيشاً إلى أوطاسٍ، فلقوا عدواً، فقاتلوهم فظهروا عليهم، وأصابوا لهم سبايا، فكأنَّ ناساً من أصحابِ رَسُولِ الله ﷺ تحرَّجوا من غِشْيانِهِنَّ من أجلِ أَزْواجِهِمْ من المشركِينَ، فأَنْزَلَ اللهُ -عزَّ وجلَّ- في ذلك ﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء:٢٤] أي: فهُنَّ لكم حلال إذا انْقضَتْ عِدَّتُهُنَّ [مسلم: ١٤٥٦].

وذهب بعضُ أهلِ العلمِ أنَّ الأمةَ المتزوجةَ من عَبدٍ مسلم إذا بِيعتْ فُسِخ نكاحُها، والصوابُ أنَّه لا ينفسخ نكاحُها، والدليلُ على ذلك أنَّ أمَّ المؤمنين عائشة اشترت بَرِيْرَةَ، وكانت متزوجةً بمُغيثٍ، جاء في الحديث: «وأَعْتَقَتْ بَريرَةَ، فخُيِّرتْ في أن تُقرَّ تَحْتَ زَوْجِها أوْ تُفارِقَه» [البخاري: ٥٤٣٠] وجاء في صحيح مسلم في حديث جابر: «وكان زوجُها عبداً، فخيَّرَها رَسولُ الله ﷺ ، فاختارتْ نفسَها، ولو كان حُرّاً لم يُخَيِّرْها» [مسلم: ١٥٠٤] وواضحٌ أنَّ التخيير، لأنَّ الزوج كان عبداً، ولو كان حرّاً لم يخيرها.

٣- محرمات لم يذكرهنَّ الله في هذا النص:

وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:٢٤] أي هذا التحريم الذي ذكره اللهُ في هذه الآياتِ كتابٌ كتبه الله عليكم، أيْ أنه فرضه علينا بتحريمه علينا، ولذا فيجب علينا التزامه.

وهذه الآياتُ التي ذَكَرَ اللهُ فيها المحرماتِ مِنَ النِّساء من العامِّ المخصوص، فقد حرَّم في مواقع من كتابه وفي سنة رسوله ﷺ محرماتٍ أخرى، فمن ذلك:

أ- حُرْمَةُ الزوجةِ التي لاعنها زوجُها.

ب- حرمةُ الجمع بين المرأة وعمتها، والمرأة وخالتها.

ج- تزوج الخامسة لمن عنده أربع من النساء.

د- المطلقة ثلاثاً حتى تنكح زوجاً غيره.

جنـــــة السـنـــــة

٤- أحلَّ لكم ما وراء ذلكم:

وقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء:٢٤] أي: ما عدا ذلك من المحرمات، هُنَّ لكم حلال. وقوله: ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [النساء:٢٤] أي تطلبوا بأموالكم الزواجَ الذي شرعه اللهُ لكم ﴿مُّحْصِنِينَ﴾، أي: تريدون العِفَّة بالزواجِ، غير مسافحينَ، والسفاحُ الزنا والفجورُ، وقوله: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء:٢٤] والمرادُ بالأجور هنا المهور، يقولُ: فما استمتعتم به منهنَّ بالمعاشرة، فآتوهنَّ أُجورهنَّ، أي: مهورهنَّ، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء:٤] وقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ [البقرة:٢٢٩].

٥- ليس في الآية دلالة على مشروعية نكاح المتعة:

وقد استدلَّ بعض أهل العلم بهذه الآية على إباحة نكاحِ المتعة، والصواب من القول: أن الآية ليست في زواج المتعة، وإنما هي في الزواج الشرعي، والمراد بالأجورِ المهور.

وقد دلَّت الأحاديثُ الصحيحةُ على أنَّ نكاح المتعة أُبيح، ثم نهى عنه الرسول ﷺ وحرَّمه، فعن علي بن أبي طالب «أنَّ رسولَ الله ﷺ نَهى عن مُتْعَةِ النِّساءِ يومَ خيْبَرٍ، وعن أكل لحوم الحُمُرِ الإنسيةِ» [البخاري: ٤٢١٦. ومسلم: ١٤٠٧] وفي صحيح مسلم عن سَبْرَةَ أنه كان مع رسول الله ﷺ قال: «يا أيُّها النَّاسِ، إنِّي قد كُنْتُ أذِنْتُ لكُمْ في الاسْتِمْتَاعِ من النِّساءِ، وإنَّ اللهَ قد حرَّم ذلك إلى يومْ القيامةِ، فمَنْ كانَ عِنْدَهُ منهنَّ شيءٌ، فلْيُخَلِّ سَبيلَهُ، ولا تأْخُذُوا مما آتَيْتُموهُنَّ شيئاً» [مسلم: (١٤٠٦)(٢١)].

٦- لا حرج على الزوجين إذا تراضوْا بالزيادة أو النقصان من المهر:

وقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾ [النساء:٢٤] أي: لا جناح على الزوجة أن تسقط شيئاً مما تستحقُّه من المهر، فتسامحَ زوجَها بالمهر كلِّه أو بشيء منه، ولا جناح على الزوج إن هو زادَ زوجته على المهر الذي فرضَ لها، وختم ربُّنا جَلَّ وعلا الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [النساء:٢٤] ليدلَّ على أنَّه يشرِعُ التشريعَ الأوفى والأكملَ المبني على علمه وحكمته سبحانه.

جنـــــة الســــــنة

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١- لا يجوزُ خطبةُ النساءِ المتزوجاتِ، فإنَّه عدوان على الزوجة المخطوبة وعلى زوجها.

٢- استثنى اللهُ من النساءِ المتزوجاتِ اللاتي لا يجوز الزواج منهنَّ المسبيات، فيجوز وطؤهن بملك اليمين بعد اسْتِبْرائهن بحيضة.

٣- يجوز للرجال أن يتزوجوا غير ما حرَّمَهُ الله من النساء وهذه الآية من العام المخصوص، فهناك أربع من النساء محرمات لم يذكرن في هذا النصّ ولا في النصِّ الذي قبله.

٤- يجب على الزوجِ أنْ يُقَدِّم مهراً لمن تزوج بها، فإذا لم يُسَمِّ لها مهراً عند العقد وجب لها مهر المثل الدخول.

٥- لا بأْس على الرجل في أن يزيد في مهر من تزوَّج بها، كما لا حرج على المرأة أن تنقصَ من المهر الذي حدَّده لها الزوج.

جنـــــة السـنـــــة

النصُّ القرآنيُّ العاشر من سورة النساء
جوازُ نكاحِ الأمَةِ لمن لا يملك مهر الحُرَّة

أولاً: تقديم

بيّن اللهُ لنا في آياتِ هذا النصِّ أنه شرع لمن لا يجدُ مهرَ الحرة أن ينكح الأمة بشروط بينتها آيات هذا النص الكريم، واسْتَطْرَدَ النصُّ إلى بيان حكم الإماءِ اللاتي أُحصنَّ إنْ هنَّ ارتكبن جريمة الزنا.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء:٢٥-٢٨].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النصِّ من القرآن

١- إذا لم يَقْدر الرجلُ على مَهْرِ الحرَّة جازَ له أن ينكح أمَةً مُؤْمِنَةً:

شرع الله للرجال الأحرار إن لم يقدر الواحد منهم على مهر الحرَّة المؤمنةِ أن ينكح أمة مؤمنة ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ ﴾ [النساء:٢٥] والمراد بالطَّول: القُدْرَةُ على مهر الحرَّةِ. والمراد بالمحصنات في هذه الآية: الحرائر من المؤمنات، والمراد بالفتيات المؤمناتِ: الإماءُ المؤمناتُ.

والمراد بإيمان الفتياتِ المؤمناتِ الإيمانُ الظاهرُ، أما الباطن فالله أعلم به، ولذلك قال سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ ﴾ [النساء:٢٥] أي أنَّ اللهَ تعالى هو العالم بإيمانكم

جنـــــة الســــــنة

على وجهِ الحقيقةِ، فهو يعلمُ بواطنَ الأُمورِ على ما هي عليه، لا يخفى عليه سبحانه شيء، أما نحن فنعلم الظاهر مِنَ الأمور.

٢- **يشترط لجواز نكاح الأمة موافقةُ أهلها وإعطاؤُها مَهْرَها:**

لا يجوزُ نكاحُ الأمةِ إلا بشرطين: الأول: موافقة ولي أمرها الذي يملكها. والثاني: إعطاؤها مهرها. قال تعالى: ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء:٢٥]، والمراد بأهل الأمة الذين يُشترَط إذنُهم سيِّدُها ووليُّها، وهذا ليس قصراً على الإماء، بل يشترط في صحة زواج العبد أن يأذن له سيِّدُه، ويدلُّ لصحة هذا الشرط حديث جابر بن عبدالله، عن النبي ﷺ قال: «أيُّما عَبْدٍ تَزَوَّجَ بغيرِ إذْنِ سيِّدِهِ فهو عاهِرٌ» [الترمذي: ١١١، وقال فيه: حديث جابر حديث حسن. ورواه الترمذي بلفظه. بإسناد آخر، (١١١٢) وقال فيه: هذا حديث حسن صحيح] وقال الترمذيُّ: «العملُ على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبيِّ وغيرهم أنَّ نكاح العبد بغير إذن سيِّده لا يجوز، وهو قول أحمد وإسحاق وغيرهما بلا اختلاف».

والمرادُ بالأجورِ التي أمر اللهُ إيتاءَها الإماء المهورُ، والذي يستحقُّ المهر هو سيِّدُها، لأنَّ الوليَّ ناله بسبب الأمة. وقوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي أنَّ مقدار المهر يكون بمقدار ما تعارف الناس عليه فيما بينهم في المجتمع الذي تعيش فيه الأمة.

٣- **يُشترطُ أن تكون الأَمَةُ التي يجوزُ أن ينكحها الحرُّ عفيفةً:**

اشترط اللهُ -عزَّ وجلَّ- في الأمة التي يجوز للحرِّ نكاحها أن تكون عفيفة، قال تعالى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء:٢٥]، والمرادُ بالمحصناتِ العفيفات اللاتي لا يتعاطين الزنا، ومعنى ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ أي: غير زانيات، والمسافحة أن لا تمنع الزانية أحداً أرادها بفاحشة، والمراد بالأخْدانِ في قوله: ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ أي: الأخلاءُ والأصدقاء.

٤- **حدُّ الأمة إذا زنت:**

إذا زنت الأمةُ التي تزوَّجَتْ حُرّاً وكذلك العبد الذي تَزَوَّجَ حُرَّةً، فعلى الزاني منهما نصفُ ما على المحصنةِ أو المحصن من العذاب، والحدُّ الذي يكون فيه التنصيف هو الجلدُ، أما الرجمُ فلا تنصيف فيه، فيقام عليها الحدُّ بجلدها خمسين جلدة ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء:٢٥] وقد جاءَت الأحاديث الصحيحة مفسِّرة هذه الآية، ومُبيِّنَةً أنَّ الأمة تحدُّ خمسين جلدة إن هي زنت سواء أكانت

جنـــــة السـنــــــة

متزوجة أو غير متزوجة، ومنطوقُ الأحاديث الدالُّ على ذلك أولى بالإعمال من مفهوم الآية الدالِّ على قصر الحدّ على المتزوجة.

ويدلُّ لصحةِ ما ذكرتُهُ ما ورد عن أبي عبدالرحمن السُّلَمِيِّ، قال: خَطَبَنا عليٌّ فقال: «يا أيها الناسُ، أقيموا على أرِقَّائكُم الحَدَّ، من أُحْصِنَ منهم، ومَنْ لم يُحْصِنْ، فإنَّ أَمَةً لرسولِ الله ﷺ زَنَتْ، فأمَرني أن أجْلِدَها، فإذا هي حَديثُ عَهْدٍ بنفاسٍ، فخشيتُ إنْ أنا جَلَدْتُها أن أقْتُلَها، فذكَرْتُ ذلك للنبي ﷺ فقال: «أحسنتَ»» [مسلم: ١٧٠٥] والحديث رواه عبدالله بن أحمد عن غير أبيه، وفيه: «فإذا تعالَتْ من نِفاسِها فاجْلِدْها خمْسين» [زوائد المسند: ١/ ١٣٦، ورقمه: ١١٤٦].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا زَنَتْ الأَمَةُ فتَبَيَّن زِناها، فلْيَجْلِدْها، ولا يُثرِّبْ، ثم إنْ زَنَتْ فلْيَجْلِدْها، ولا يُثرِّبْ، ثم إنْ زَنَتْ الثالثة، فلْيَبِعْها ولو بحَبْلٍ من شَعْرٍ» [البخاري: ٢١٥٢. ومسلم: ١٧٠٣]. ولمسلم: «إذا زَنَتْ ثلاثاً، فلْيَبِعْها في الرابعةِ» [مسلم: ١٧٠٣] والنهي عن التثريب: نهي عن التعنيف والتعيير.

٥- يباحُ زواجِ الحرِّ بالأمة لمن خاف العنت:

أباحَ اللهُ للحرِّ أن يتزوج الأمَةَ بالشرط الذي ذُكر في الآية، وهو خوف العنت، وهو أن تكون شهوتُه عارمةً، وخاف الوقوع في الزنا، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ [النساء:٢٥] والعَنَتُ: الهلاك والمشقَّة العظيمة، فإنْ جاهد المرءُ نفسَهُ في الكفِّ عن الزنا، فهو خير له لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء:٢٥] وإنما كان الصبر عن نكاح الأمة أفضل، لأنَّ من رُزِقَ بالأولاد مِنَ الأمة، فإنَّ أولادَهُ يكونون أرِقَّاء لمالك الأمَةِ، ولأنَّ الأمة تبقى في خدمةِ مالكِ رقبتها، وهي تتعرض أثناء ذلك لما لا يليق في بعض الأحيان.

وختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [النساء:٢٥] أي: لمن رُخِّص له بنكاح الإماء.

٦- الغاية من هذه التشريعات الإلهية الربّانية:

أخبرنا ربُّنا سبحانه وتعالى أنَّ ما بيَّنه لنا في هذه التشريعات يريدُ أن يعرِّفنا فيه سنن الذين من قبلنا، يعني طرائقَهم الحميدةَ في اتباع شرائعه التي يحبُّها ويرضاها، ويريد سبحانه أن يتوبَ علينا من الإثم والمحارم، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النساء:٢٦] أي: عليم حكيم في ما يشرعه ويقدِّره، كما هو عليم حكيم في أقواله وأفعاله.

جنـــــة السـنـــــة

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه يريدُ أن يتوب علينا، أما الذين يتبعون الشهواتِ فيريدون إضلالنا، وحَرْفَنا عن الصواب ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النساء:٢٧] ومن طالع صحف ومجلات وإذاعات و(تلفزيونات) الذين يتبعون الشهوات في مشارق الأرض ومغاربها علم مدى الميل والانحراف والضلال الذي يريدون إيقاع البشرية به.

والآيةُ الأخيرةُ في هذا النص تبين لنا أنَّ اللهَ أرادَ بإذنه لمن لم يجد مهر الحرة أنْ ينكحَ الأمةَ بالشروطِ التي ذكرها أن يخفف عنا في أمرِ النساءِ حتى لا نقعَ في الفاحشةِ. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء:٢٨].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا أمعنا النظر في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- شرعَ اللهُ لمن لا يقدرُ على مهر الحرَّة المؤمنة أن ينكح الأمَةَ بشرط أن تكون مؤمنة، وأنْ يعطيها مهرها، وأن يأذن لها وليُّها بالنكاحِ، وأن تكون عفيفة لا تتعاطى الزنا، كما اشترط أن يخاف الناكح على نفسه العنت، وهو الوقوع في الزنا إنْ لم يتزوج الأمة.

٢- الإيمان المشترط في الأمة المنكوحة هو الإيمان الظَّاهر، أمَّا الإيمان الخفيُّ الباطن فعلمه إلى الله تعالى.

٣- لا يجوز لأمة أن تنكح بغير إذن وليها وكذلك العبد.

٤- الصبر على عدم نكاح الأمة أولى من نكاحها.

٥- إذا زنت الأمة فعليها نصف ما على المحصنات من العذاب، لا فرق في ذلك بين المتزوجة وغير المتزوجة، لأنَّ الرجم لا يمكن تنصيفه في حال العقاب به.

٦- يريد الله من وراء هذه التشريعات أن يبين لنا ما يجب اتقاؤه والعمل به، وهو في ذلك يريد أن يبين لنا طرائق الأمم الصالحة من قبلنا.

٧- فَضَحَ اللهُ الذين يتبعون الشهواتِ، فهم ضالُّون منحرفون يعملون على إضلال العباد وحرف مسيرتهم.

٨- شَرَعَ لنا من التشريعات التي خَفَّفَ الله بها عن عباده، ومن ذلك تشريعه لنا نكاح الإماء المؤمنات، أي: حال عدم قدرتنا على مهر الحرائر.

جنـــــة الســـــنة

النصُّ القرآني الحادي عشر من سورة النساء

تحريم الله على المؤمنين أكل أموالهم بينهم بالباطل

أولاً: تقديم

نهى اللهُ المؤمنين في آياتِ هذا النص عن أنْ يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل، كأكل المال بالسَّرقة والرَّشوةِ والرِّبا، وأباح الله التجارة بالحلال، وأكْلَ ربح التجارة، بشرط أن تكون التجارةُ عن تراضٍ، ونهى اللهُ فيها عن الانتحار بأن يقتل المرءُ نفسه، وتوعَّد من فعل ذلك بالنَّار وغضب الجبّار، ووعد اللهُ الذين يجتنبون كبائر الذنوب بأن يُكَفِّرَ عنهم سيئاتهم ويدخلهم مُدْخَلاً كريماً في جنات النعيم.

ثانياً: آياتُ هذا النص من سورة النساء

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ ﴾ [النساء:٢٩-٣١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- حرمَ الله على المؤمنين أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل:

حرَّم اللهُ على المؤمنين أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطلِ، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ ﴾ [النساء:٢٩] والباطلُ الذي نهى اللهُ عن أكلِ المالِ به الحرامُ الذي حرَّم الله أكْلَ المالِ به كالربا والقمارِ والغصبِ والسَّرقةِ والخيانةِ والتجارةِ في المحرماتِ كالتجارةِ في الخمر والخنزير والمخدِّرات، وقوله: ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ ﴾ [النساء:٢٩] أي: إلاَّ أن تكون الأموالُ تجارةً، والمراد بالتجارة التجارةُ المشروعةُ التي تكون عن تراضٍ بين البائع والمشتري.

ومن التراضي ما ثبت في الشَّرع من خيارِ المجلس وخيار الشرط، فعن ابن عمر رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ المتبايعين بالخيار في بيعهما ما لم يتفرقا، أو يكون البيعُ خياراً» وكان ابن عمر إذا اشترى شيئاً يعجبه فارق صاحبه. [البخاري: ٢١٠٧. ومسلم: ١٥٣١].

جنـــــة السـنـــــة

٢- حرَّم اللهُ على المؤمن أنْ يقتل نفسه:

حرَّم اللهُ على المؤمن أن يقتل نفسه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء:٢٩]. ونَهْيُ الله تعالى العبادَ أنْ يقتلوا أنفسهم من رحمة الله بعباده، وتهدَّد اللهُ الذين يقتلون أنفسهم بأن يصليهم النارَ، وهذا أمر يسير سهل على ربِّ العباد ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [النساء:٣٠]، والمرادُ بقوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ [النساء:٣٠] أي من يفعل ما نهى الله عنه من قبل، وهو قتلُ النفس.

وقد جاءت الأحاديث مبينة ما تهددتنا الآية به، فعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «من تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فقَتَلَ نَفْسَهُ، فهو في نارِ جهنَّمَ يَتَرَدَّى فيه خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تَحَسَّى سُمّاً فقتَلَ نفسَهُ، فسُمُّه في يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ في نارِ جَهَنَّمَ خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن قَتَلَ نَفْسَه بحَدِيْدَةٍ، فحَديدَتُه في يَدِه يَجَأُ بها في بَطْنِهِ في نارِ جهنَّم خالداً مخلداً فيها أبداً» [البخاري: ٥٧٧٨. ومسلم: ١٠٩].

وعن ثابتِ بن الضحَّاك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بحَديدَةٍ عُذِّب به في نار جَهَنَّم» [البخاري: ١٣٦٣. ومسلم: ١١٠].

وعن جندب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: كانَ برجلٍ جراحٌ، فقَتَلَ نفسَه، فقالَ اللهُ تعالى: «بَدَرَني عَبْدِي بِنَفْسِه، حَرَّمْتُ عليهِ الجنَّةَ» [البخاري: ١٣٦٤. ومسلم: ١١٣ مطولاً].

وقد احتجَّ بهذه الآية جمعٌ من أهل العلم على حُرْمَةِ فعل الإنسان ما يؤدي إلى إهلاك نفسه، ومن هؤلاء عمرو بن العاص، فقد احتلم في ليلةٍ باردةٍ شديدةِ البرد، فأشْفَقَ على نفسه أن يهلك إن اغتسل، فصلَّى بأصحابه بعد أن تيمم، ولما سأله الرسول ﷺ عن ذلك، احتج بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء:٢٩]. فضحك رسول الله ﷺ، ولم يقل له شيئاً. [حَكَمَ مُحَقِّقُ تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٠) على الحديث بأنه حسن صحيح. وعزاه إلى أبي داود (٣٣٤) وأحمد (٤/ ٢٠٣) وغيرهما. وذكر أنَّ ابن حجر في الفتح قال: إسناده قويٌّ، وعلَّقه البخاري بصيغة التمريض، وذكره مختصراً].

٣- وَعَدَ اللهُ الذين يجتنبون الكبائر أن يُكَفِّرَ عنهم سيئاتهم:

وَعَدَ اللهُ المؤمنين الذين يجتنبون كبائر ما نهى الله عنه أن يكفِّر عنهم ذنوبهم ويدخلهم مدخلاً كريماً، ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم

جنــــة الســــنة

﴿مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء:٣١] ففي هذه الآية حثٌّ على التعرف على الكبائر، وحثٌّ على الابتعاد عنها.

وأصَحُّ الأقوالِ في تعريف الكبائر: أنها كلُّ ذنبٍ فيه حدٌّ في الدنيا، كالزنى والقتل وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، أو وعيد في الآخرة كأكلِ مالِ اليتيم وأكلِ الربا، وعقوقِ الوالدين، واليمينِ الغموس، وشهادة الزور، وأمثال ذلك [شرح العقيدة الطحاوية: ص٤١٨].

وقد أثنى الله تعالى على الذين يجتنبون الكبائر، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ [الشورى:٣٧].

وقد ذكر رسولُنا ﷺ عدداً كبيراً من الكبائر محذِّراً منها، وجعل بعض الذنوب أكبر الكبائر، فمن ذلك ما رواه عبدالرحمن بن أبي بكرة عن أبيه ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أُنبِّئُكُمْ بأكبرِ الكبائر» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشْراكُ بالله، وعقوقُ الوالدين» وكان مُتَّكِئاً فجلسَ، فقال: «ألا وقولُ الزُّورِ، وشهادةُ الزُّورِ، ألا وقولُ الزورِ، وشهادَةُ الزور» فما زال يقولها، حتى قلت: لا يسكت [البخاري: ٥٩٧٦. ومسلم: ٨٧].

ومنها ما رواه أنس بن مالك ﷺ قال: ذكر رسول الله ﷺ الكبائر، أو سُئل عن الكبائر، فقال: «الشِّركُ بالله، وقَتْلُ النَّفس، وعُقوق الوالدينِ، قال: ألا أُنبِئُكُمْ بأكْبَرِ الكبائر؟ قال: قولُ الزُّورِ، أو قال: شهادة الزور» [البخاري: ٥٩٧٧. ومسلم: ٨٨].

وعن عبدالله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «الكَبائِرُ: الإشراكُ بالله، وعُقوقُ الوالدينِ، وقَتْلُ النَّفسِ، واليَمينُ الغَمُوسُ» [البخاري: ٦٦٧٥].

وعن النبي ﷺ قال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الموبِقاتِ» قالوا: يا رسول الله، وما هنَّ، قال: «الشِّركُ بالله، والسحرُ، وقتل النفس التي حرَّم اللهُ إلا بالحَقِّ، وأكْلُ الرِّبا، وأكْلُ مالِ اليَتيمِ والتَّوَلِّي يومَ الزَّحْفِ، وقَذْفُ المُحْصَناتِ المؤمناتِ الغافلاتِ» [البخاري: ٢٧٦٦. ومسلم: ٨٩ عن أبي هريرة].

٤- حكم مرتكب الكبيرة:

ذهب الخوارجُ إلى أنَّ مرتكبَ الكبيرةِ إذا لم يتبْ منها كان كافراً يجوز قتله، وذهب المعتزلة إلى أنّه في الدنيا ليس كافراً، وليس بمؤمن، وإنما هو في منزلةٍ في الدنيا بين المنزلتين وهو في الآخرة في النّار، وأحكم أهلُ السنّةِ كلّ نصوص الوعيد الواردة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:١١٦] فكلُّ الذنوب دون الشرك

جنـــــة السـنـــــة

مردُّها إلى الله تعالى: إن شاء غفر لصاحبها، وإن شاء عذَّبه، ولا يخلد أَحد في النَّار إذا كان مُوَحِّداً، بل لا بدَّ أن يخرج مِنَ النَّار، ومع ذلك فأهل السنة لا يَعْرِضون لنصوص الوعيد بالنقض والتأويل، هذا مذهب أهل السنّة من سلفنا الصالح.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعملٍ

عندما نتدبر آياتِ هذا النصِّ نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ أو عملٍ:

١- لا يحلُّ للمؤمن أنْ يأكلَ أموالَ الناس بالباطل، أيْ: بالطرقِ التي حرَّمها الله تعالى: كالربا والسرقة والتجارة بالمحرمات ونحو ذلك.

٢- يجوز العمل في التجارة التي أحلَّ اللهُ الاتجار فيها، مثل الاتجار بالحلال من الأطعمة والأشربة والمواشي والعقار ونحو ذلك.

٣- يَحْرُمُ على المؤمن قتل نفسه، وقد رَهَّب القرآن من قتل الإنسانِ نَفْسَهُ، وأخبرَ الرسولُ ﷺ أنَّ من قتل نفسه، فإنَّه يُعَذَّبُ في النَّار يوم القيامة نَفْسَهُ بمثل ما قتل نفسه بِهِ.

٤- وعد اللهُ الذين يجتنبون كبائر الذنوب بأن يُكَفِّر عنهم سيئاتهم في الآخرة، ويدخلهم مُدْخَلاً كريماً في جناتِ النعيم.

٥- الكبائرُ كلُّ ذنب جعل اللهُ له عقوبةً في الدنيا، أو توعَّدَ اللهُ عليه بالعذابِ أو اللعن أو النَّار في الآخرة.

٦- أجمع علماءُ أهل السنة على أنَّ مرتكب الكبيرة الذي لم يتب في مشيئة الله، إنْ شاءَ غفر له، وإن شاءَ عذَّبه، وأجمعوا على أنَّ أهل التوحيد مصيرهم إلى الجنّة.

جنـــــة السـ‍ـــــنة

النصُّ القرآني الثاني عشر من سورة النساء
مشكلاتُ الأسرة في ضوء النصوص القرآنية

أولاً: تقديم

أقام اللهُ بناءَ الأسرةِ الإنسانية على قواعد من العدلِ، تحفظ توازنها، وتقيم بناءَها على أُصولٍ صحيحةٍ، وقد نهى اللهُ في هذه الآياتِ أن يتمنى النساءُ ما خصَّ اللهُ به الرجال من فضل. كما نهى الرجال أن يتمنوا ما خصَّ به النساء، وأبانَ الله القاعدةَ التي استقرَّ عليها الميراث، وهي قاعدةُ القرابةِ.

وقد ضَلَّ كثير من الرجال والنساء اليوم في مناداتهم بالمساواة بين الرجال والنساء من غير مراعاةٍ لخصائص كل واحدٍ منهما.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا۟ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُوا۟ اللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ الْوَٰلِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾ [النساء:٣٢-٣٣].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في آيات هذا النص من القرآن

١- لا يجوز للرجال أو النساء أن يتمنى بعضهم ما خصَّ اللهُ به الآخر مِنْ فضل:

نهى اللهُ -تبارك وتعالى- في الآية الأولى من هذا النص أن تتمنى النساء ما خصَّ اللهُ به الرجالَ مِنْ فضلٍ، وكذلك لا يجوزُ للرجال أيضاً أن يتمنوا ما خصَّ الله به النساءَ، وفي ذلك يقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا۟ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَۚ﴾ [النساء:٣٢].

نهى اللهُ -تبارك وتعالى- في هذه الآية أن يتشهى النساء الخصائص التي خَصَّ اللهُ بها الرجالَ، وكذلك يقال في تشهي الرجالِ ما خصَّ الله به النساءَ، فاللهُ تبارك وتعالى خصَّ الرجالَ كما خصَّ النساء بمنازل يقتضيها وجود المجتمع الإنساني المتوازن، واللهُ تعالى حكيمٌ عليمٌ، لا تخفى عليه خافية، وأحكامه قائمة على العدلِ والصدقِ، فتَمَنِّي أَحَدِ الطرفين مِنَ

جنـــة الســـــنة

الرجالِ أو النساءِ ما خصَّ اللهُ بِهِ الآخر هو من الاعتراض على حكم الله ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾ [الرعد:٤١]، والواجب على كلِّ مؤمن ومؤمنة أن يقف عند حدود شرع الله لا يتعدّاه، ولا يجوز أن يتمنى خلاف حكم الله، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ﴾ [الأحزاب:٣٦].

لقد جعل اللهُ القاعدةَ في الميراثِ أن يكون نصيب الولد ضعفَ حَظِّ الأُنثى ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ [النساء:١١] وفرَضَ الجهادَ على الرجال دون النساء، وفرض الله على الرجل أن يقدِّم المهر لزوجته، وإن كانت غنيَّةً، وعليه أيضاً نفقة والديه وإخوانه، إلى غير ذلك من الفرائض التي لا تلزم المرأة، ولكن الإسلام سوَّى بين الرجل والمرأة في الثواب والعقاب، وقد دلَّت على ذلك نصوص كثيرة.

ومع أن تمني أحد الفريقين مِنَ الرجالِ أو النساءِ منازلَ الآخر فيه اعتراض على حكم الله، فإنَّ في تحقيق هذه الأماني خللاً كبيراً يحرف مسار الأسرة والمجتمع، لقد ضلَّ أهلُ الجاهليةِ عندما حَرَمُوا الزوجةَ مِنَ الميراثِ كما حَرَمُوا أولادَ الرجلِ وبناتهِ أيضاً مِنَ الميراثِ إذا كانوا صغاراً.

وضربت الجاهليةُ المعاصرة بعيداً في التيه عندما أجازت لصاحب المال أن يخصَّ بعض أقاربه بماله بعد موته، كما أجازوا له أنْ يوصي بماله لكلبه أو غير ورثته. وقرَّر اللهُ الحقَّ والعدلَ الذي يجب أن يأخذ به النَّاسُ أنْفُسهم ويلتزموا به. وقد راود بعض العقول في عهد الصحابة التطلعُ إلى ما خصَّ اللهُ بِهِ الرجالَ أو النساء من مكانة، وكان ذلك خَلَلاً في التصور والتفكير وخطلاً في القصدِ والإرادة.

ورد في سبب نزول الآية عن مجاهد قال: قالت أمُّ سلمة: يا رسول الله، لا نُعْطَى الميراثَ، ولا نغزو في سبيل الله، فنقتل، فنزلت. وفي روايةٍ أنها قالت: تغْزو الرجالُ، ولا نغزو، وإنَّما لنا نصفُ الميراثِ [الطبري: ٣/ ٢٢٧٥، وعزاه محقق زاد المسير: ٢/ ٦٨ إلى أحمد والترمذي والحاكم وقال: على شرط الشيخين إن كان سمع مجاهد من أُمِّ سلمة، ووافقه الذهبي، وذكر المحقق أن الشيخ أحمد شاكر لم يرتض حكمَ الترمذيِّ عليه بالإرسال، لأنَّ مجاهداً ولد سنة ٢١ وأمُّ سلمة ماتت بعد سنة ٦٠ فمجاهد عاصر أمَّ سلمة، والمعاصرة من الراوي الثقة تحمل على الاتصال].

وذكر الطبريُّ أنَّ السُّديَّ قال في تفسير الآية: «قال الرجالُ: نريد أن يكون لنا مِنَ الأجرِ الضِّعْفُ على أجرِ النساء، كما لنا في السهام سهمان، فنريد أن يكون لنا في الأجرِ أجرانِ.

جنـــــة السـنة

وقالت النساء: نريدُ أن يكون لنا أجرٌ مِثْلُ الرجالِ، فإنَّا لا نستطيع أن نقاتلَ، ولو كتب علينا القتال لقاتلنا، فأنزل الله تعالى الآية» [الطبري: ٣/ ٢٢٧٦].

وقال الطبريُّ في قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ [النساء:٣٢] «للرجالِ نصيبٌ مما اكتسبوا من الثواب على الطاعة، والعقابِ على المعصية، وللنساءِ نصيب من ذلك مثل ذلك».

وأورد الطبريُّ عن قتادة قوله في الآية: «كان أهل الجاهلية لا يورثون المرأة شيئاً، ولا الصبيَّ شيئاً، وإنما يجعلون الميراث لمن يَحْتَرِفُ، ويَنْفَعُ ويَدْفَعُ، فلما لَحِقَ للمرأةِ نصيبُها وللصبي نصيبُه، وجُعِلَ للذكر مثلُ حظِّ الأنثيين، قالت النساءُ: لو كان جَعَلَ أنصباءَنا في الميراث كأنصباءِ الرجالِ، وقال الرجالُ: إنَّا لنرجو أن نُفَضَّلَ على النساء بحسناتنا في الآخرة، كما فُضِّلنا عليهنَّ في الميراث، فأنزل الله ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ [النساء:٣٢] يقول: المرأة تجزى بحسنتها عشر أمثالها كما يجزى الرجل» [الطبري: ٣/ ٢٢٧٧].

وقد دلَّ اللهُ - عز وجل - عباده على الطريق الذي يسلكونه، وهو أن يسألوه من فضله بدل أن يتمنى الواحد ما فضَّلَ الله به غيره ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء:٣٢] قال ابن كثير: «أي، لا تَتَمَنَّوا ما فضلنا بِهِ بعضكم على بعض، فإنَّ هذا أمر محتوم، والتمني لا يجدي شيئاً، ولكن سَلُوني مِنْ فضلي أُعطكم، فإني كريم وهَّاب» [ابن كثير: ٢/ ٢٥٦].

وختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ [النساء:٣٢] أي إن الله عليم بما يستحقُّه الرجال دون النساء، وعليم بما يستحقُّه النساء، فيعطي كلَّ فريق ما يخصُّه ويناسبه.

٢- الميراث للأقارب:

أَخْبَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه جعل لكلِّ واحدٍ مِنَّا موالي، أي: ورثةً مما تركَ الوالدان والأقربون، وأرادَ بالموالي الذين يرثونَهُ أولادَه وإخوانه وبني عمه، والعرب تسمي ابنَ العمِّ مولى، ومنه قولُ الفضلِ بن العباسِ:

مَهْـلاً بنـي عَمِّنـا مَهْـلاً موالينـا ... لا يظهـرنْ بيننـا مـا كـان مـدفونا

قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء:٣٣].

جنـــة السـنة

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾ [النساء:٣٣] المرادُ بالذين عَقَدَتْ أيمانُنا الذين عاقدناهم بالحلف بالأيمانِ والعهودِ والمواثيق. قال قتادةُ مفسِّراً الآية: «كان الرجلُ يعاقدُ الرجلَ في الجاهلية، فيقول: دَمِي دَمُكَ، وَهَدْمِي هَدْمُك، وتَرِثُني وأرثك، وتطْلُبُ بي، وأطلب بك، فجعل له السدس من جميع المال في الإسلام، ثم يقسم أهل الميراث ميراثهم، فنسخ ذلك بعد في سورة الأنفال، فقال اللهُ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنفال:٧٥].

وقد أمرنا رسولنا ﷺ بحفظ العقد الذي نشأ في الجاهلية، ولكنه لا يجوز إنشاء مثل هذه العقود في الإسلام، فعن جبير بن مطعم، قال: قال رسول الله ﷺ : «لا حِلْفَ في الإسلامِ، وأيُّما حِلْفٍ كان في الجاهِلِيَّةِ لم يَزِدْهُ الإسلامُ إلا شِدّةً» [مسلم: ٢٥٣٠].

وإلى ما دَلَّ عليه الحديثُ مِنْ عدم جواز التحالف في الإسلام، وعدم التوارث عليه ذهب جمهور العلماء، وفيهم مالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه، خلافاً لمن أجاز التوارثَ بالحلفِ في الإسلام، وفيهم أبو حنيفة وأصحابه ورواية عن أحمد» [ابن كثير: ٢/ ٢٥٩].

ويدلُّ لصحة ما ذهب إليه جمهورُ أهلِ العلمِ ما رواه ابن عباس عن النبي ﷺ ، قال: «أَلْحِقُوا الفَرائِضَ بأهْلِها، فما بَقِيَ فلأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ» [البخاري: ٦٧٣٢. مسلم: ١٦١٥].

وقد آخى الرسولُ ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وكانوا يتوارثون بهذه المؤاخاة، ثم نَسَخَ التوارثَ بها، وجعل الميراثَ للأقاربِ، وقد صحَّ عن ابن عباس رضي الله عنه أنّه حمل الآية على هذا التوارث، روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: «﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ﴾ [النساء:٣٣] قال: ورثة، ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾ [النساء:٣٣] كان المهاجرون لما قَدِمُوا المدينة يرث المهاجريُّ الأنصاريَّ، دون ذوي رحمه، للأخوة التي آخى النبيُّ ﷺ بينهم، فلما نزلت ﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ﴾ [النساء:٣٣] نُسِختْ، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ [النساء:٣٣] أي مِنَ النصرِ والرفادة والنصيحة، وذهب الميراث» [البخاري: ٤٥٨٠].

وقوله تعالى في ختام الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ٣٣﴾ [النساء:٣٣] أي: شاهداً على ما تفعلون مما أمركم به أو نهاكم عنه، وسيجزيكم على ذلك، فالمحسن له الحسنى، والمسيء له السُّوء.

جنـــــة السـنـــــة

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعملٍ

عندما نتدبرُ آياتِ هذا النصِّ نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ و عملٍ:

١- لا يجوز للنساء أن يتمنَّين ما خصَّ اللهُ به الرجالَ، ولا يجوز للرجالِ أن يتمنوا ما خصَّ الله به النساءَ، فإنَّ في ذلك اعتراضاً على حكمِ الله وشرعه.

٢- سعيُ كلٍّ واحدٍ مِنَ الرجالِ والنساءِ للحصولِ على خصائصِ الطرف الآخر يحدثُ خللاً في بنية المجتمع الإنساني.

٣- سيجازي اللهُ الرجالَ بما عملوا من خيرٍ وشرٍّ في يوم القيامة، وكذلك النساء.

٤- ينبغي للرجال والنساء أن ينشغلوا بالاستغاثة بالله أن يرزقهم من فضله، بدل أن يشغل كلٌّ واحد نفسه بتمني فضائل غيره.

٥- القاعدة التي يقوم عليها الإرث هي القرابة، وعلى أساسها وزَّع الله الإرثَ بين الأقارب، وقد توارث المسلمون في أول الإسلام بغير القرابة، كالإرث بالحلف والمؤاخاة، وقد نسخ اللهُ ذلك كلَّه.

جنـــة الســـــنة

النص القرآني الثالث عشر من سورة النساء

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾

أولاً: تقديم

آيات هذا النص كآيات النص السابق تتحدثُ عن بناءِ الأسرةِ الإنسانية على قواعدَ مِنَ العدلِ، وقد بيَّن اللهُ تعالى في هذه الآياتِ أنَّ الرجالَ لهم حقُّ القِوَامةِ على زوجاتهم لأمرين: الأولُ: لما خصَّ اللهُ بِهِ الرجالَ مِنْ فَضْلٍ. والثاني: لما أنفقوه على زوجاتهم مهراً، ثم إنفاقهم بعد ذلك على زوجاتهم أثناء الحياة الزوجية.

وأبان الحقُّ -سبحانه- أنَّ النساءَ الفضليات هن الطائعاتُ لأزواجهنَّ بالمعروفِ، وبيَّن الطريقَ الذي ينبغي أن يسلكه الأزواجُ في حالِ نشوزِ الزوجاتِ وتعاليهنَّ على أزواجِهنَّ، كما بيَّن الطريقَ الذي ينبغي سلوكه في حال وقوع النزاعِ والشقاقِ بين الزوجين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء:٣٤-٣٥].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الرجالُ قوَّامون على النساء:

قرَّرَ الحقُّ -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ قِوامةَ الرجالِ على النساءِ ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء:٣٤] و﴿قَوَّٰمُونَ﴾ جَمْعٌ، واحده قوَّام، وقوَّام صيغةُ مبالغةٍ تدلُّ على كثرة قيام الزوج على زوجته، وذكر اللهُ أنَّه أعطى الرجال القوامة على النساءِ لأمرين: الأول: لما فَضَّل الله به الرجالَ مِنْ مزايا. والثاني: لإنفاقِ الرجالِ على النساءِ من أموالهم، فمن ذلك ما يدفعُهُ الزوجُ لزوجته

جنـــــة الســـــنة

مهراً، ومِنْ ذلك نفقتُهُ عليها في سكنِها ولباسِها وطعامِها وشرابِها وعلاجِها، وإنفاقُهُ على أولاده منها، وكلُّ ذلك واجب على الزوج، حتى لو كانت الزوجة غنية.

ومن لوازم القِوامَةِ أن يحفظ الرجلُ زوجته ممن يريدُ الأذى والشرَّ بها.

وإذا كان الرجل قوّاماً على المرأةِ، فإنه يجبُ على المرأة أن تطيعَ زوجها فيما أمرها به فيما لا معصيةَ فيهِ لله ورسولِهِ، ولذلك أثنى اللهُ تعالى على النساءِ الصالحاتِ المطيعاتِ لله فيما أمَرَهُنَّ به مِنْ طاعةِ أزواجهنَّ ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء:٣٤] والمرأة الصالحةُ هي المستقيمةُ على أمرِ الله، وقُنوتُها طاعتُها لزوجها فيما لا معصيةَ فيه، والحافظاتُ للغيب: أن تحفظ المرأة نفسَها ومالَ زوجها وبيتَهُ وأولادَه في حال غيبته، وقوله: ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء:٣٤] أي: يحفظن غيبة أزواجهن بسبب حفظ الله لهنَّ، وعلى ذلك فحفظهنَّ لما كُلِّفن بحفظه بسبب رعايتهن حقَّ الله لا لرياءٍ وتصنع منهنَّ.

٢- كيف يتصرَّفُ الزوجُ حين تنشزُ زوجتُه عليه:

أثنى اللهُ -تعالى- فيما سبق على الزوجةِ الصالحةِ التي تطيع زوجَها، وتحفظُ غيبتَهُ، وأبان بعد ذلك كيف يتصرف الزوجُ إذا ما استعلتْ زوجتُهُ عليه، وأبَتْ طاعته ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤)﴾ [النساء:٣٤].

والنُّشوزُ مأْخوذٌ مِنَ النَّشَزِ، وهو ما ارتفعَ مِنَ الأرضِ، يقال: نَشَزَ الرجلُ يَنْشُزُ إذا كان قاعداً، فنهض قائماً [تفسير القرطبي: ٣/ ١٥٤].

فإذا نَشَزَتْ زوجةُ الرجلِ عليه وأبتْ طاعته، فلا يجوزُ له المسارعةُ بطلاقِها، ولا ضَرْبِها، وإنما عليه أنْ يعظَها أوّلاً بأنْ يُبَيِّنَ لها حقَّهُ عليها الذي فَرَضَهُ اللهُ له، ويبيِّن لها ما يَحِلُّ بها مِنْ غضب الله بسبب معصيتها له، فيذكر لها حديث عائشة أنَّ الرسولَ ﷺ قال: «لَوْ أَمَرْتُ أَحَداً أَنْ يَسْجُدَ لأحد، لأَمَرْتُ المَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِها» [ذكره الألباني في صحيح ابن ماجه (١٥٠٢) وصحيح أبي داود (١٨٥٧) وخرجه في الإرواء (١٩٩٨)].

ويَقُصُّ عليها حديثَ معاذ الذي قال فيه رسولُ الله ﷺ: «فإنِّي لو كُنْتُ آمراً أحداً أنْ يسجُدَ لغيرِ الله، لأَمَرْتُ المَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِها، والذي نَفْسُ مُحمدٍ بيده، لا تُؤَدِّي المرأةُ حَقَّ رَبِّها، حتى تُؤَدِّي حَقَّ زوجها، ولو سألَها نَفْسَها، وهي على قَتَبٍ لم تَمْنَعْه» [صحيح ابن ماجه: (١٥٠٣) وقال فيه الألباني: حسن صحيح، وذكر أنه خرجه في الإرواء (٧/ ٥٥) والصحيحة (١٢٠٣)].

جنـــــة السـنـــــة

ويذكر لها في وعظه إياها حديثَ أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا دَعا الرَّجُلُ امْرَأَتَه إلى فِراشِهِ، فأبت أنْ تجيءَ، لَعَنَتْها الملائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ» [البخاري: ٥١٩٣. ومسلم: ١٤٣٦].

فإن أطاعته إذا وعظها فبها ونعمت، وإلا زاد عليها الأمْرَ فهجرها، لقوله تعالى: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [النساء:٣٤].

والهجرانُ: يعني تَرْكَهُ حديثَها، وتَرْكَ المبيتِ معها في المَضْجَعِ، وتَرْكَ معاشرتِها، وعن ابن عباس: «الهُجْرانُ: هو أنْ لا يُجامِعَها، ويضاجِعَها على فراشِها، ويولِّيها ظَهْرَهُ، وكذا قالَ غيرُ واحِدٍ» [ابن كثير: ٢/ ٢٦٣].

وقوله تعالى: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [النساء:٣٤] يدلُّ على أنّه لا يَخْرُج مِنَ البيتِ في هجرانه لها، وإنما يهجرها في المضْجَعِ، وقد أخبرنا الرسولُ ﷺ أنّه لا يجوز أنْ يكونَ الضَّرْبُ مبرِّحاً، ففي حديث جابر بن عبدالله أنَّ الرسول ﷺ قال في خطبة حجَّة الوداع في عرفة: «فاتَّقُوا اللهَ في النساءِ، فإنَّكُمْ أخَذْتُموهُنَّ بأمانِ الله، واسْتَحْلَلْتُمْ فُروجَهُنَّ بكَلِمَةِ الله، ولَكُمْ عَلَيْهِنَّ أنْ لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أحَداً تَكْرَهُونَه، فإنْ فعَلْنَ فاضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غيرَ مُبَرِّحٍ، ولَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وكِسْوَتُهُنَّ بالمَعْروفِ» [مسلم: ١٢١٨].

وأخبرنا أنَّ الهجران لا يكون إلا في البيتِ، فعن بَهْزِ بن حكيم عن أبيه عن جدِّه أنه قال: يا رسول الله، نساؤنا ما نأتي منها، وما نَذَرُ؟ قال: «حَرْثُكَ، ائْتِ حَرْثَكَ أنَّى شِئْتَ، غيرَ أنْ لا تَضْرِبِ الوَجْهَ، ولا تُقَبِّحْ، ولا تَهْجُرْ إلا في البيتِ» [أورده ابن كثير (٢/ ٥٢٣) وعزاه لأحمد وأهل السنن، وقال محققه: حسن. وعزاه لأبي داود وأحمد والنسائي في الكبرى بهذا اللفظ].

ومع إجازة الرسولِ ﷺ للزوج أنْ يضرب زوجته، إلا أنه قال فيمن ضربوا أزواجهن «لقد طافَ بآلِ محمدٍ نساءٌ كثيرٌ، يشْكُونَ أزواجَهُنَّ، ليس أولئك بخيارِكُمْ» [أبو داود: ٢١٤٦. وإسناده صحيح].

فإذا أطاعتْ المرأةُ زوجَها فيما يريده منها مما شرعَهُ اللهُ تعالى، فلا سبيلَ له عليها بهجرانٍ ولا ضربٍ ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء:٣٤] وقد تهدَّد الله الرجالَ في خاتمة الآية إذا بغوا عليهن من غير سبب بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ۝٣٤﴾ [النساء:٣٤] يقولُ اللهُ للرجال الذين نهاهم أن يبغوا على نسائهم إذا أطعنهم: إنَّ اللهَ -عزَّ وجل- ذو عُلُوٍّ، وهو أعلى منكم عليهن، فإيَّاكم أن تظلموهن فينتقم منكم.

جنـــــة الســـــنة

٣- إذا وقع الشِّقاق والنزاع بين الزوجين:

بيَّن اللهُ لنا في الآية الأخيرة مِنْ هذا النصِّ كيف يكون حلّ النزاع والشقاق إذا وقع بين الزوجين، فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء:٣٥]. أمر الله المسلمين الذين حول الزوجين أو الحكام إذا رفع لهم أمر الزوجين المتنازعين أن يختاروا حكماً من أهل الزوج وحكماً من أهل الزوجة، فينظرا في أمر الزوجين، وقوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء:٣٥] فيه إرشادٌ للحكمين أن يريدا الإصلاح بين الزوجين، وقد سمَّى اللهُ الرجلين المختارين للإصلاح حكمين، ومِنْ شأن الحكم أنْ يحكم بما يُؤَدي إليه اجتهاده، فإنْ شاءا وجَّها اللَّوم إلى المخطئِ مِنَ الزوجين وعنَّفاه وأغلظا له في القول، وإن شاءَا حكما بالتفريق بينهما، وإن شاءا ألْزما الزوجة بأن تخالع زوجها.

وليس بصواب قول مَنْ قال بأنَّه لا يجوز لهما أن يحكما بالتفريق بين الزوجين، فقد سمَّاهُما الله حكمين، ومن شأن الحَكَمِ أن يحكم بين المتنازعين رضيا أو غضبا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء:٣٥] أي: عليم خبير بما انطوت عليه قلوب الحكمين من إرادة الإصلاح أو غيره، وسيجيزهم بحسب نياتهم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعملٍ:

١- للرجالِ على النساء درجةُ القِوامَةِ، لما خصَّهم الله به من فضلٍ، ولإنفاقهم على أزواجهم.

٢- يجب على الزوجة المسلمة أن تطيعَ زوجها فيما لا معصية فيه، كما يجب عليها أن تقوم بحفظ بيتِهِ ومالِهِ وولده في غيبته.

٣- المرأةُ التي تتعالى على زوجها، ولا تطيعه فيما يأمرها به، فيجب عليه أن يحسن وعظها، فإن لم يؤثر وعظه فيها هجرها في المنزل، فإن لم يؤثر فيها ضربها ضرباً غير مبرح، فإن أطاعته، فلا يجوز له أن يضربها.

٤- إذا وقع الشقاقُ بين الزوجين، وجب على من يحيط بالزوجين أو القاضي الذي رفع إليه أمر نزاعهما أن يقيم عليهما حكماً من أهله وحكماً من أهلها، وعليهما أن يقضيا بينهما بما يظنَّانه صواباً.

٥- إذا أحسن الحكمان التصرف، فإنَّ الله يوفق بينهما في الحكم إن أرادا الإصلاح.

جنـــــة السـنـــــة

النص الرابع عشر من سورة النساء
مجالات الإحسان

أولاً: تقديم

بيّن اللهُ تبارك وتعالى في آيات هذا النص مجالات الإحسان التي أمر اللهُ عبادَهُ أن يقوموا بها، وأعظمها عبادةُ الله، والإحسانُ إلى الوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين والجيران والأصحابِ وابن السبيل وما ملكت أيماننا، وذمَّ اللهُ الذين يبخلون بأموالهم فيقبضون أيديهم عن الإنفاق في هذه المجالات، كما ذمَّ الكفرة الذين ينفقون أموالهم يراؤون بها الناس، ودعا ربُّ العبادِ عبادَه إلى الإيمانِ بالله واليوم الآخر والإنفاقِ مما رزقهم اللهُ في مرضاته، وبيَّن قاعدة الحسابِ التي يجزي بها العباد.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ ﴾ [النساء:٣٦-٤٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الأمر بعبادة الله وحده:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- في الآية الأولى من هذا النصِّ بعبادتِهِ وحده، ونهانا عن أنْ نشركَ به شيئاً ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾ [النساء:٣٦] وعبادةُ الله تكون بالتذلُّل له والإخلاص له، قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠]، وقال: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾ [الزمر:٣]، وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة:٥].

جنـــة الســــنة

وتوحيدُ الله بعبادتِهِ وإخلاصِ الدين له أعظم ما أَمَرَ اللهُ به، والشركُ بالله أعظمُ ما نهى عنه، ففي الصحيحين عن ابن مسعود، قالَ: سألت رسولَ الله ﷺ : أيُّ الذَّنْبِ أعْظَمُ عِنْدَ الله؟ قال: «أنْ تَجْعَلَ لله نِدّاً وهُوَ خَلَقَكَ» [البخاري: ٤٤٧٧. مسلم: ٨٦].

وقد سألَ الرسولُ ﷺ معاذَ بن جبلٍ، وكان رديفَ رسولِ الله ﷺ على حمار يُدْعى عُفَيْراً فقال: «يا مُعاذُ، أَتَدْرِي ما حقُّ الله على عِبادِه، وما حَقُّ العبادِ على الله؟» فقال معاذٌ: اللهُ ورسولُهُ أعلم، قال: «فإنَّ حَقَّ العبادِ على الله أنْ يَعْبُدُوهُ ولا يُشْرِكوا بِهِ شيئاً، وحَقُّ العِبادِ على الله أنْ لا يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شيئاً» [البخاري: ٢٨٥٦. ومسلم: ٣٠].

واللهُ خلقَ الخلقَ لعبادتِهِ وحدَه لا شريك له، وأرسلَ بذلك جميعَ رسلِهِ وأنبيائه، وأنزل ذلك في جميع كتبه، ومدارُ جميع كتبِ الله على الأمر بعبادَةِ الله وتوحيدِهِ، ومَنْ جاء يومَ القيامة مخلصاً دينَه لله دخل الجنةَ، ومن جاء مشركاً بالله دخل النَّار، والله تعالى لا يغفرُ أن يشركَ به، ويغفر سبحانه ما دون ذلك إن شاء. واللهُ وحده المستحقُّ للعبادةِ، فهو الخالق الرازق المنعم المتفضل سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

٢- الأمرُ بالإحسان للوالدين:

بعد أن أمر الله بعبادتِهِ وحده لا شريك له، ثنَّى بالأمر بالإحسان إلى الوالدين فقال: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [النساء: ٣٦]، فهما السبب الذي أخرجنا اللهُ به مِنَ العدم إلى الوجودِ، وكثيراً ما يَقْرِنُ اللهُ سبحانه بين عبادته والإحسان إلى الوالدين، قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ [لقمان: ١٤] وقال: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء: ٢٣].

٣- الأمرُ بالإحسان إلى ذوي القربى واليتامى والمساكين:

أمَرَ اللهُ -تعالى- بالإحسان إلى الوالدين، ثم أمَرَ بالإحسانِ إلى ذوي القربى، كالإخوةِ والأعمام والأخوالِ ونحوهم، وأمر بالإحسانِ إلى اليتامى، وهم الذين ماتَ آباؤُهم وهم صغارٌ، فأصبحوا في غايةِ الحاجةِ مع فَقْدِ العائلِ، وأمر بالإحسانِ إلى المساكين، وهم الذين ليس لهم دَخْلٌ، أو لهم دَخْلٌ لا يكفي حاجاتهم ومتطلباتهم، قال تعالى: ﴿وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [النساء: ٣٦].

٤- الوصية بالجار:

أوْصَى اللهُ -تعالى- بمن سبقَ ذكرهم، ثم أوصى بالجار، فقال: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ [النساء:٣٦].

وأمْرُ الله بالإحسانِ إلى الجارِ لا فرقَ فيه بين الجار الذي هو من ذوي القربى، والجار الذي ليس من ذوي القربى، سواءً أكان مسلماً أو كافراً، ولم تحدِّدِ الشريعةُ ولا اللغةُ حدّاً لمن يدخل في الجوارِ، فمرجع ذلك إلى العرف، فما تعارف عليه النَّاس أنَّه جار، فهو داخل في الجوار، وما تعارفوا عليه أنَّه غير داخل في الجوار، فهو ليس بجارٍ.

والإحسانُ إلى الجار يكون بكفِّ الأذى عنه، ومشاركتِه أفراحَهُ وأتراحَهُ، والإهداء إليه، وكلَّما كان الجارُ أقربَ إليك كان أحقَّ بإحسانك، ففي الحديث عن عائشة قالت: يا رسول الله، إنَّ لي جارين، فإلى أيهما أُهدي؟ قال: «إلى أقْرَبِهما مِنْكِ باباً» [البخاري: ٢٢٥٩].

وقد أكثر جبريلُ ﷺ مِنَ التوصيةِ بالجارِ، حتى ظنَّ رسولنا ﷺ أنَّه سيجعلُ له نصيباً في الميراث، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما زالَ جِبْرِيلُ يُوصِيني بالجارِ، حتَّى ظَنَنْتُ أنَّهُ سيُورِّثُه» [البخاري: ٦٠١٤. ومسلم: ٢٦٢٤].

وقد رغَّبَ رسولنا ﷺ النساءَ المسلماتِ بالإهداء إلى جاراتهن، ولو كان بالقليلِ مِنَ الطعام، فعن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ يقول: «يا نساءَ المُسْلماتِ، لا تَحْقِرَنَّ جارَةٌ لجارَتِها ولوْ فِرْسِنَ شاةٍ» [البخاري: ٦٠١٧. ومسلم: ١٠٣٠]. ونَهى رسولُنا ﷺ عن إيذاء الجارِ، فقال: «مَنْ كان يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخِرِ فلا يُؤْذِ جارَهُ» [البخاري: ٦٠١٨. ومسلم: ٤٧. عن أبي هريرة].

وفي الحديث الآخر عن أبي شريحٍ العَدَوِيِّ؛ أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بالله واليومِ الآخِرِ فلْيُكْرِمْ جارَه» [البخاري: ٦٠١٩. ومسلم: ٤٨].

٥- توصيةُ الله بالإحسان إلى الصاحب بالجنبِ وابنِ السبيلِ وما ملكت أيماننا:

وجاءَ في ختامِ هذه الوصايا الصادرةِ عن الله التوصيةُ بـ ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء:٣٦]. والصاحبُ بالجنبِ رفيقُكَ الذي يصاحِبُكَ، ويكون إلى جنبك، ويدخلُ فيه رفيقُ السَّفر، والمنقطعُ إليك الذي يلازمك رَجاءَ نفعك، ومثله صاحبك الذي يصاحبك في الوظيفة. والسبيلُ الطريقُ، وابنُ السبيلِ: المسافرُ الذي يجتاز بك، وإن كان في الأصل غنيّاً، فلَهُ عليك حقُّ الضيافةِ، وأنْ تمدَّهُ بشيء من المال إن ذهب مالُهُ. وما ملكتْ أيماننا هم الذين وصانا بهم ربُّنا من العبيدِ والإماءِ، فهؤلاءُ قوتُهُمْ على مالكهم، فيجبُ

جنـــــة السـنـــــة

وتوحيدُ الله بعبادتِهِ وإخلاصِ الدين له أعظم ما أمَرَ اللهُ به، والشركُ بالله أعظمُ ما نهى عنه، ففي الصحيحين عن ابن مسعود، قالَ: سألت رسولَ الله ﷺ: أيُّ الذَّنْبِ أعْظَمُ عِنْدَ الله؟ قال: «أنْ تَجْعَلَ لله نِدّاً وهُوَ خَلَقَكَ» [البخاري: ٤٤٧٧. مسلم: ٨٦].

وقد سألَ الرسولُ ﷺ معاذَ بن جبلٍ، وكان رديفَ رسولِ الله ﷺ على حمار يُدْعى عُفَيْراً فقال: «يا مُعاذُ، أتَدْرِي ما حقُّ الله على عِبادِه، وما حَقُّ العبادِ على الله؟» فقال معاذٌ: اللهُ ورسولُهُ أعلم، قال: «فإنَّ حَقَّ العبادِ على الله أنْ يَعْبُدُوهُ ولا يُشْرِكوا بِهِ شيئاً، وحَقُّ العِبادِ على الله أنْ لا يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شيئاً» [البخاري: ٢٨٥٦. ومسلم: ٣٠].

واللهُ خلقَ الخلقَ لعبادتِهِ وحدَه لا شريك له، وأرسلَ بذلك جميعَ رسلِهِ وأنبيائه، وأنزل ذلك في جميع كتبه، ومدارُ جميع كتبِ الله على الأمر بعبادَةِ الله وتوحيدِهِ، ومَنْ جاء يومَ القيامة مخلصاً دينَه لله دخل الجنةَ، ومن جاء مشركاً بالله دخل النَّار، والله تعالى لا يغفرُ أن يشركَ به، ويغفر سبحانه ما دون ذلك إن شاء. واللهُ وحده المستحقُّ للعبادةِ، فهو الخالق الرازق المنعم المتفضل سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

٢- الأمرُ بالإحسان للوالدين:

بعد أن أمر الله بعبادتِهِ وحده لا شريك له، ثَنَّى بالأمر بالإحسان إلى الوالدين فقال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦]، فهما السبب الذي أخرجنا اللهُ به مِنَ العدم إلى الوجودِ، وكثيراً ما يَقْرِنُ اللهُ سبحانه بين عبادته والإحسان إلى الوالدين، قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤] وقال: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء: ٢٣].

٣- الأمرُ بالإحسان إلى ذوي القربى واليتامى والمساكين:

أمَرَ اللهُ -تعالى- بالإحسان إلى الوالدين، ثم أمَرَ بالإحسانِ إلى ذوي القربى، كالإخوةِ والأعمامِ والأخوالِ ونحوهم، وأمر بالإحسانِ إلى اليتامى، وهم الذين ماتَ آباؤُهم وهم صغارٌ، فأصبحوا في غايةِ الحاجةِ مع فَقْدِ العائلِ، وأمر بالإحسانِ إلى المساكين، وهم الذين ليس لهم دَخْلٌ، أو لهم دَخْلٌ لا يكفي حاجاتهم ومتطلباتهم، قال تعالى: ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [النساء: ٣٦].

جنـــة الســـــنة

٤- الوصية بالجار:

أَوْصَى اللهُ -تعالى- بمن سبقَ ذكرهم، ثم أوصى بالجار، فقال: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ [النساء:٣٦].

وأمْرُ الله بالإحسانِ إلى الجارِ لا فرقَ فيه بين الجار الذي هو من ذوي القربى، والجار الذي ليس من ذوي القربى، سواءً أكان مسلماً أو كافراً، ولم تحدِّدِ الشريعةُ ولا اللغةُ حدّاً لمن يدخل في الجوارِ، فمرجع ذلك إلى العرف، فما تعارف عليه النَّاس أنَّه جار، فهو داخل في الجوار، وما تعارفوا عليه أنَّه غير داخل في الجوار، فهو ليس بجارٍ.

والإحسانُ إلى الجار يكون بكفِّ الأذى عنه، ومشاركتِه أفراحَهُ وأتراحَهُ، والإهداء إليه، وكلَّما كان الجارُ أقربَ إليك كان أحقَّ بإحسانك، ففي الحديث عن عائشة قالت: يا رسول الله، إنَّ لي جارين، فإلى أيهما أُهدي؟ قال: «إلى أقْرَبِهِما مِنْكِ باباً» [البخاري: ٢٢٥٩].

وقد أكثر جبريلُ ﷺ مِنَ التوصيةِ بالجارِ، حتى ظنَّ رسولنا ﷺ أنَّه سيجعلُ له نصيباً في الميراث، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما زالَ جِبْرِيلُ يُوصِيني بالجارِ، حتَّى ظَنَنْتُ أنَّهُ سيُورِّثُه» [البخاري: ٦٠١٤. ومسلم: ٢٦٢٤].

وقد رغَّبَ رسولنا ﷺ النساءَ المسلماتِ بالإهداء إلى جاراتهن، ولو كان بالقليلِ مِنَ الطعام، فعن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ يقول: «يا نساءَ المُسْلِماتِ، لا تَحْقِرَنَّ جارَةٌ لِجارَتِها ولوْ فِرْسِنَ شاةٍ» [البخاري: ٦٠١٧. ومسلم: ١٠٣٠]. ونَهى رسولُنا ﷺ عن إيذاء الجارِ، فقال: «مَنْ كان يُؤْمِنُ بالله واليومِ الآخِرِ فلا يُؤْذِ جارَهُ» [البخاري: ٦٠١٨. ومسلم: ٤٧. عن أبي هريرة].

وفي الحديث الآخر عن أبي شريحٍ العَدَوِيِّ؛ أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بالله واليومِ الآخِرِ فلْيُكْرِمْ جارَه» [البخاري: ٦٠١٩. ومسلم: ٤٨].

٥- توصيةُ الله بالإحسان إلى الصاحب بالجنبِ وابنِ السبيلِ وما ملكت أيماننا:

وجاءَ في ختامِ هذه الوصايا الصادرةِ عن الله التوصيةُ بـ ﴿ٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ [النساء:٣٦]. والصاحبُ بالجنبِ رفيقُكَ الذي يصاحِبُك، ويكون إلى جنبك، ويدخلُ فيه رفيقُ السَّفر، والمنقطعُ إليك الذي يلازمك رَجاءَ نفعك، ومثله صاحبك الذي يصاحبك في الوظيفة. والسبيلُ الطريقُ، وابنُ السبيلِ: المسافرُ الذي يجتاز بك، وإن كان في الأصل غنيّاً، فلَهُ عليك حقُّ الضيافةِ، وأنْ تمدَّهُ بشيء من المال إن ذهب مالُهُ. وما ملكتْ أيماننا هم الذين وصانا بهم ربُّنا من العبيدِ والإماءِ، فهؤلاءُ قوتُهُم على مالكهم، فيجبُ

جنـــــة الســــــنة

عليه أن يرعاهم ويحسنَ إليهم، وقد قالَ الرسولُ ﷺ في هؤلاء لأبي ذرٍّ: «إخْوانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمْ اللهُ تحتَ أيْدِيكُمْ، فمَنْ كانَ أخُوه تَحْتَ يَدِهِ، فلْيُطْعِمْه مما يأْكُلُ، ولْيُلْبِسْهُ مما يَلْبَسُ، ولا تُكَلِّفُوهُمْ ما يَغْلِبُهُمْ، فإنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فأعينُوهُمْ» [البخاري: ٣٠. ومسلم: ١٦٦١].

وعن خيثمة قال: كنا جلوساً مع عبدالله بنِ عمرٍو، إذ جاء قهرمانٌ له، فدخل، فقال له: أعطيتَ الرقيقَ قوتَهم؟ قال: لا، قال: فانطلِقْ فأعطِهم، قال: قال رسول الله ﷺ: «كَفَى بالمَرْءِ إثْماً أن يَحْبِسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قوتَهُ» [مسلم: ٩٩٦].

وروى مُسْلِمٌ أيضاً عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «للمَمْلوكِ طَعامُه وكِسْوتُه، ولا يُكَلَّفُ مِنَ العَمَلِ إلاَّ ما يُطيقُ» [مسلم: ١٦٦٢].

٦- عدم محبَّة الله للمختال الفخور:

ختم اللهُ الآيةَ السابقةَ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦﴾ [النساء:٣٦] والمختال: الصَّلِفُ التيَّاهُ الجهولُ، ذو الخيلاء في مشيته وقوله، والفخور: المتكبِّرُ.

فاللهُ -تبارك وتعالى- يبغضُ مَنْ اتَّصف بهاتين الصفتين اللتين تفرزانِ العُجْبَ والزَّهْوَ، وتعوقان مَنْ اتصف بهما عن عبادةِ الله والإحسانِ إلى الوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين، قال عبدالله بنُ واقد أبو رجاء الهرويُّ: «لا تَجِدُ سيئَ المَلَكَةِ إلا وجدْتَه مختالاً فخوراً، وتلا: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦﴾ [النساء:٣٦] ولا عاقّاً إلا وجدْتَه جبَّاراً شَقيّاً، وتلا: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢﴾ [مريم:٣٢]» [تفسير الطبري: ٣/ ٢٣١٩].

٧- ذمَّ اللهُ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل:

ذمَّ اللهُ - عزَّ وجلَّ - البخلاءَ الذين يأمرون الناسَ بالبخل، وتهدَّدهم وتوعَّدهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٣٧﴾ [النساء:٣٧].

والبخلاءُ الذين ذمَّهم اللهُ -تعالى- في هذه الآية هم الذين يمتنعون مِنْ إنفاقِ ما آتاهم اللهُ مِنَ المالِ على مَنْ أمرهم بالإنفاق عليه كالوالدين وذوي القربى والجيران، والصاحبِ بالجنب وابنِ السبيلِ وما ملكت أيمانهم، وهم في ذلك يكتمون المال، الذي آتاهم اللهُ مِنْ فضله، والمرادُ به الرزق والمالُ الذي أعطاهم الله إياه، وهم لا يكتفون بأنْ يَبْخَلُوا بأموالِهم، ولكنهم يسعون إلى تبخيل غيرهم، فيقصدون مُنْفِقي المالِ الذين أمَرهم اللهُ بالإنفاقِ، فيأمرونهم بالبخلِ، وتركِ الإنفاق في تلك المجالاتِ، فيزدادُ غضبُ الله عليهم وعقابه لهم.

جنـــــة الســـــنة

وقد حذَّرنا رسولُنا ﷺ من الشُّحِّ وهو البخلُ، فقال: «إيَّاكُمْ والشُّحَّ، فإنَّه أهْلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ، أمَرَهُمْ بالقَطيعَةِ، فقَطَعُوا، وأمَرَهُمْ بالفُجورِ ففَجَرُوا» [أورده ابنُ كثير: (٢/ ٢٧١) وقال فيه محققه: صحيحٌ، وعزاه لأحمد، وابن حبان والحاكم].

وختم الحقُّ -سبحانه- الآية بقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾ [النساء:٣٧]. والمرادُ بـ ﴿أَعْتَدْنَا﴾ أعْدَدْنا وأحْضَرْنا للكافرين الذين يسترون نعمة الله عليهم، ويكتمونها ويجحدونها عذاباً مهيناً، أي: يذلُّهم ويقهرهم يومَ القيامة، جزاء كبرهم واستعلائهم على عبادِ الله.

٨- ذمَّ اللهُ الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس:

ذمَّ اللهُ فيما مضى الذين يبخلون بأموالهمْ ويأمرون النَّاس بالبخل، وذمَّ سبحانه في هذه الآية نوعاً آخر مِنَ النَّاس، وهم الذين ينفقون أموالهم رئاءَ الناسِ، ولا يؤمنون بالله واليومِ الآخرِ، وهؤلاء قد استجابوا لوساوس القرين الشيطاني، فقد جعلوه وليّاً من دون الله، وبئس القرين الذي استجابوا له ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَـٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾ [النساء:٣٨].

وكلُّ المنفقين من الكفار يدخلون في هذا الصنف من الناس، فحاتمٌ الطائيّ الجوادُ المشهور في الجاهلية كان من هذا الصنف، ومنهم الجواد المشهور في الجاهلية عبدُالله بن جدعان، كان باذلاً لماله منفقاً له، وقد سألت عائشة رضي الله عنها وعن أبيها الرسولَ ﷺ عن إنفاقه، فقالت: «يا رسولَ الله، ابنُ جدعانَ، كان في الجاهليةِ يصلُ الرحمَ، ويطعمُ المسكين، فهل ذاك نافعه؟» قال: «لا يَنْفَعُهُ، إنَّه لم يَقُلْ يوماً: ربِّ اغْفِرْ لي خَطيئَتي يومَ الدين» [مسلم: ٢١٤]. ومثل هؤلاء المنافقون الذين كانوا ينفقون مِنْ أموالهم في عهد الرسول ﷺ والعصور التالية له، ومثلهم الكفار الذين يجودون بأموالهم اليوم، فشَرْطُ قبولِ الله الإنفاق أن يكون المنفقُ مؤمناً، وأن يبتغي بإنْفاقِهِ وجه الله. أما المؤمن فإنَّه إذا أنفق مالَهُ يريدُ به الرياءَ والسمعةَ فإنَّ الله لا يَقْبَلُ إنْفاقَهُ، وإنفاقه موزور غير مأجور، وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن أحد الثلاثة الذين يقضى عليهم يوم القيامة «رَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عليهِ، وأعْطاهُ من أصْنافِ المالِ كلِّه، فأُتِيَ به، فعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فعرَفَها، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: ما تَرَكْتُ من سبيلٍ يُحبُّ أنْ يُنْفَقَ فيها إلاَّ أنْفَقْتُ فيها لَكَ. قال: كَذَبْتَ، ولكنك فَعَلْتَ ليُقال: هو جوادٌ، فقد قيلَ، ثم أُمِرَ به فسُحِبَ على وَجْهِهِ، ثم أُلْقِيَ في النَّار» [مسلم: ١٩٠٥].

جنـــــة السـنـــــة

٩- ترغيبُ الله في الإيمان والإنفاق:

رغَّب اللهُ الكفرة الذين يبخلون ويأمرون الناسَ بالبخلِ، والذين ينفقون أموالهم رئاء النَّاس، رَغَّبهم بالإيمان بالله واليومِ الآخرِ، وإنفاقِ المالِ الذي رزقهم اللهُ إياهُ في المجالات التي يحبّها الله، وأخبر اللهُ عبادَه بأنَّه عليمٌ بهم، وسيجازيهم وفق علمه ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾ [النساء:٣٩].

١٠- إنَّ اللهَ لا يظلم مثقالَ ذرَّةٍ:

أعلمنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّه لا يظلمُ أحداً مثقالَ ذرَّةٍ، وإذا عملَ الإنسانُ حسنةً فإنه يُضاعفها له أضعافاً كثيرة، ويؤْتي عبادَه في يوم الدين مِنْ عنده أجراً عظيماً، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء:٤٠].

فنحن العبادُ خَلْقُ الله ومِلْكُهُ، ولله أن يتصرف فينا كما يشاءُ، وكما يريدُ، ولو تصرف فينا فأدخلنا النَّارَ لا يكون ظالماً، ولكنَّه سبحانه وتعالى حرّم الظلم على نفسه، ويجزينا بالسيئةِ سيئةً واحدةً، وأقلُّ ما يجزي به المؤمنين أن تكونَ الحسنةُ بعشرِ أمثالها إلى سبعين ضعفاً إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرةٍ.

وقد قرَّر هذه القاعدة في مواضع كثيرة فقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٣٧] وحكى مقالة لقمان في مخاطبته لابنه ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان:١٦]. وقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام:١٦٠].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١- أعظم ما أمرنا به ربُّنا عبادتُه وحدَه لا شريك له، وأعظمُ ما نهانا عنه الشركُ به.

٢- عِظَمُ حقِّ الوالدين، فبعدَ الأمرِ بعبادةِ الله يُثنّي ربُّنا بالأمر بالإحسان إلى الوالدين.

٣- أمَرَنا ربُّنا تبارك وتعالى بالإحسانِ إلى ذوي قربانا وإلى اليتامى والمساكين والجارِ ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيماننا.

جنـــــة الســـــنة

٤- من صفاتِ الله التي أثْبَتَها لنفسه الحبُّ والبغضُ، فهو لا يحبُّ من كان مختالاً فخوراً، ويحبُّ المؤمنين، ويحبُّ المجاهدين.

٥- ذمَّ اللهُ تبارك وتعالى المختالين الذين يفخرون على عبادِ الله تعالى، وهم مع ذلك بخلاءُ يأمْرون الناسَ بالبخل، ويكتمون الحقَّ الذي أنزله اللهُ إليهم، وهؤلاء هم اليهودُ، وقد أعدَّ الله لهم عذاباً مهيناً.

٦- ذمَّ اللهُ -تعالى- الذين ينفقون أموالَهم يطلبون حمدَ الناسِ، وهم كفّار بالله وباليوم الآخر، وقد جعل اللهُ لهؤلاءِ الكفرةِ الشيطانَ ولياً مِنْ دون المؤمنين.

٧- رَغَّب اللهَ الكفرةَ والمنافقين بالإيمان بالله واليوم الآخر والإنفاق مما رزقهم اللهُ.

٨- اللهُ -تبارك وتعالى- يُوَفِّي الناسَ أجرهم يومَ القيامةِ، ولا يظلم الناسَ مثقالَ ذرةٍ، وهو يضاعفُ ما عملوه من حسنات.

جنــــة الســـــنة

النص الخامس عشر من سورة النساء

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾

أولاً: تقديم

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه سيأتي في يوم القيامة من كلِّ أُمةٍ بشاهد يشهدُ عليها، وهو رَسُولُها الذي أرسله إليها في الدنيا، وسيأتي بمحمدٍ ﷺ شاهداً على هذه الأمة في ذلك اليوم. وأخبرنا -سبحانه وتعالى- أنه يتمنى الذين كفروا عندما يُؤْتَى بالرسول شاهداً عليهم أن يُدَمَّروا، ويُهْلكوا، وعَبَّرَ عن ذلك بقوله: ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ وبيَّن أنهم لا يستطيعون كتمانَ الله كفرهم وضلالهم.

وبيَّن الله تعالى حالتين لا يجوز فيهما للمسلم أن يقرب الصلاة فيهما، وهما حالة السكر وحالة الجنابة، وبيَّن الحالات التي يُشْرَعُ فيها التيممُ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [النساء:٤١-٤٣].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- حال الكفارِ عندما يُؤْتَى بالشهداءِ يومَ القيامةِ:

يخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن الهولِ العظيم الذي يصيبُ الكافرين الذين عَصَوُا الرسولَ ﷺ عندما يأتي الله بالشهداءِ من الرسلِ والأنبياءِ، فيشهدون أنَّهم بلغوا أُمَمَهُمْ بما أرسلهم اللهُ به، فعند ذلك يتمنى الكفرة العصاة لو انشقَّت الأرضُ وابتلعتهم لما يرونَ من أهوالِ الموقفِ، وما يحلُّ بهم من الخزي والفضيحةِ، ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [النساء:٤١-٤٢].

جنـــــة السـنــــــة

و(كيف) حرفُ استفهامٍ، ومعناه التوبيخُ، والمعنى: كيف يكونُ حالُ هؤلاءِ الكفرةِ عندما نأتي بالشهداء؟ والشهيدُ الذي يأتي الله بِهِ مِنْ كلِّ أُمةٍ هو رسولها الذي أرسلَهُ اللهُ إليها، وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزمر:٦٩]. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ﴾ [النحل:٨٩].

وعنى اللهُ بقوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء:٤١] نبينا محمداً ﷺ، يأتي به يومَ القيامةِ شهيداً على الذين كفروا به وعَصَوْه.

وقد بكى رسولنا ﷺ عندما قرأ عليه عبدالله بن مسعود هذه الآية، ففي صحيح البخاري عن عبدالله بن مسعود قال: قال لي النبي ﷺ: «اقْرَأ عليَّ» قلتُ: يا رسولَ الله، أقْرَأُ عليكَ، وعليكَ أُنْزِل؟ قال: «نعم» فقرأتُ عليه سورةَ النساءِ، حتى إذا أتَيْتُ إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء:٤١] قال: «حَسْبُكَ الآنَ» فالتفت إليه، فإذا عيناهُ تذْرِفان [البخاري: ٥٠٥٠. ومسلم: ٨٠٠. بدون لفظ حسبك].

وقوله: ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [النساء:٤٢] أي: يموتون، ويصبحون تراباً، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾ [النبأ:٤٠].

وقد أوْرَدَ بعض أهلِ العلم على ابن عباس إشكالاً فقالوا: أخبرنا اللهُ تعالى عن المشركين أنَّهم يقولون في يوم القيامة: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام:٢٣] وأخبرنا ربنا أنَّ المشركين في يومِ القيامة ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء:٤١] فأخبره ابنُ عباسٍ أنَّه لا تعارُضَ بينَ الآيتين، فالمشركون يوم القيامة لما رأوا أنَّ اللهَ يغفرُ لأهلِ الإسلام، ويغفر الذنوب، ولا يغفر شِرْكاً، ولا يتعاظمه ذنبٌ أن يغفره جحدوا، وادَّعَوْا أنَّهم ليسوا بمشركين، فختم اللهُ على أفواههم، وتكلمتْ أيديهم وأرجلهم، فلا يكتمون الله حديثاً. [تفسير الطبري: ٣/ ٢٣٢٩].

٢- لا يجوز للمصلي أن يقرب الصلاة وهو سكران:

نهى اللهُ -تبارك وتعالى- الذي أسْكَرَهُ شربُه الخمرَ حتى لا يدري ما يقولُ عن قربانِ الصلاةِ إذا كان قد سَكِرَ، حتى يفيقَ من سكره، وقد كان الخمرُ مباحاً في أوَّلِ الأمرِ، ثم تدرَّجَ الشارع في تحريمِهِ، وكان من مراتب التحريم أن منع الله من شربه عند الصلاة، فامتنعوا عن

جنــــة الســــنة

شُرْبِهِ إلا بعد العشاءِ والفجرِ، لأنَّ السكر كان يزولُ قبل حلولِ الصلاةِ التاليةِ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ ﴾ [النساء:٤٣].

وسببُ نزولِ هذه الآية كما روى علي بن أبي طالب قال: «صَنَعَ لنا عبدُالرحمنِ بن عوفٍ طعاماً، فدعانا وسقانا مِنَ الخمر، فأخذت الخمرُ مِنَّا، وحضرت الصلاةُ، فقدَّمُوني، فقرأتُ: «قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون». قال: فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾» [الترمذي: ٣٠٢٦، وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح].

٣- لا يجوزُ للمسلمِ أن يصلّيَ وأن يمكث في المسجد وهو جنب:

نهى اللهُ تعالى المسلمَ أن يقربَ الصلاةَ وهو سكرانُ عندما كانَ السُّكْرُ مباحاً لما بيناه فيما سبق، ونهاه أيضاً عن قربان الصلاة وهو جنب، قال تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ ﴾ [النساء:٤٣].

والجنابةُ: خروجُ المنيِّ متدفقاً بلَذَّةٍ، فإذا أصابتِ الجنابةُ رجلاً أو امرأةً فلا يجوزُ له أن يصلي، كما لا يجوز له أن يمكث في المسجدِ حتى يغتسلَ، ويجوزُ للجنب أنْ يمرَّ بالمسجدِ إذا كان عابرَ سبيلٍ، أيْ: يمرُّ به من غير جلوس فيه، وقد كان لبعضِ الصحابةِ بيوتٌ أبوابُها إلى المسجدِ، فكانوا يحتاجون أن يمُرُّوا بالمسجدِ وهم جنب، وقد أمرَ الرسولُ ﷺ بسدّ كلِّ الأبوابِ المُشْرَعَةِ إلى المسجد إلا بابَ أبي بكر، قالَ رسولُ الله ﷺ : «سُدُّوا عَنِّي كُلَّ خَوْخَةٍ في هذا المسجِدِ إلا خَوْخَةَ أبي بَكْرٍ» [البخاري: ٤٦٧].

ومِثْلُ الجنبِ الحائضُ والنفساءُ، فإنّهم يجوزُ لهما المرورُ بالمسجد إذا أمِنا تلْويثه، وقد صحَّ في صحيح مسلم عن عائشة أن رسولَ الله ﷺ قال لها: «ناوِليني الخُمْرةَ من المسجِدِ» قالت: إني حائضٌ، فقال: «إنَّ حَيْضَتَك ليستْ في يَدِكِ» [مسلم: ٢٩٨]. والأحاديثُ الدالةُ على تحريم مرورها مطلقاً غير صحيحة.

٤- الحالاتُ التي يجوزُ فيها التيممُ:

عدَّدَ ربُّ العزةِ الحالاتِ التي يشرعُ فيها التيممُ لمن يريدُ الصلاةَ إذا لم يجد ماءً أو لم يقدر على استعماله، وهي أربع حالات: الأولى: حالةُ المريضِ الذي لا يستطيع استعمالَ الماءِ. والثانيةُ: المسافرُ الذي فَقَدَ الماءَ. والثالثةُ: إذا أصابَ من يريدُ الصلاةَ حدثٌ أصغر ولم يجد ماءً، وسَبَبُهُ هو الغائط، وأصلُ الغائطِ المكانُ المنخفضُ من الأرض، كانوا يأتونه لقضاءِ حاجتهم، لأنه أسْتَرُ للمرءِ من غيره، فسُمِّي الخارجُ من المرء، وهو النَّجْوُ أو البولُ بالغائط.

جنـــة الســـــنة

والرابعةُ: ملامسةُ النساءِ لمن لم يجد ماءً، والصوابُ مِنَ القولِ: أنَّ المرادَ بملامسةِ النساءِ مجامَعَتُهنَّ، لقولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب:٤٩]، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء:٤٣] وروى عُرْوَةُ بن الزبير عن عائشة: «أن النبي ﷺ قَبَّلَ بعضَ نِسائِه، ثم خَرَجَ إلى الصَّلاةِ، ولم يَتوضَّأ» [صحيح سنن الترمذيِّ: ٧٥ وهو في الترمذي: ٨٦، وضعَّفه] وقد ذهب بعضُ أهلِ العلم إلى أنَّ المرادَ بالملامسةِ في الآية الجَسُّ، والأوَّل هو الصحيح.

٥- كيفيةُ التيمم:

أمَرَنا ربُّ العزةِ -تبارك وتعالى- بالتيمم في الحالاتِ الأربعِ السابقةِ إذا لم نجدْ ماءً ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء:٤٣]. والتيمُّمُ في اللغة: القصدُ. وفي الاصطلاح: ضَرْبُ -من لم يجد الماءَ أو لم يمكنه استعماله- وَجْهَ الأرضِ بيدَيْهِ، ثم يمسح بهما وجهه وكفَّيْهِ، والمراد بالصعيد وجه الأرض، والتيمم من خصوصيات هذه الأمة، فقد أخبرنا رسولُنا ﷺ أننا فُضِّلنا على الناس بثلاثٍ، وإحدى هذه الثلاث: «أنَّه جُعِلَتْ لنا تُرْبَةُ الأرْضِ طَهُوراً إذا لم نَجِدِ الماء» [مسلم: ٥٢٢].

وقد صلَّى رسولُ الله ﷺ في السَّفر، فلما انفتلَ من صلاته، إذا هو برجلٍ معتزلٍ لم يُصَلِّ مع القوم، قال: «ما مَنَعَكَ يا فُلانُ أنْ تُصَليَ مع القومِ؟ قال: أصابَتْني جنابةٌ ولا ماءَ، قال: عليكَ بالصَّعيدِ، فإنَّه يكفيكَ» [البخاري: ٣٤٤. ومسلم: ٦٨٢]. وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ أنَّ «الصَّعيدِ الطَّيِّب طَهُورُ المسلمِ، وإنْ لم يَجِدْ الماءَ عَشْرَ حِجَجٍ، فإذا وجَدَه فلْيُمِسَّه بَشَرَتَه، فإنَّ ذلك خيرٌ» [عزاه ابن كثير: (٢/ ٢٨٨) إلى الترمذي، وقال الترمذي فيه: حسن صحيح].

وذكر ابنُ كثيرٍ [٢/ ٢٨٨] جملةً من الأحاديث تدلُّ على أنَّ المتيممَ يضربُ في تيممه ضربتين: ضربةٌ يمسحُ بها وَجْهَهُ، والأخرى يمسحُ بها يديه، وضَعَّفَ جميعَ هذه الأحاديث، ثم ذكر حديثَ البخاريِّ الذي عَلَّم فيه الرسول ﷺ عمارَ بن ياسر وعمرَ بنَ الخطاب، أنَّ التيممَ ضربةٌ واحدةٌ للوجه والكفين، ففي ذلك الحديث أنَّ الرسول ﷺ قال: «إنَّما يَكْفِيكَ هكَذا» فضَرَبَ النبيُّ ﷺ بكَفَّيْهِ الأرْضَ، ونَفَخَ فيهما، ثم مَسَحَ بهما وَجْهَه وكَفَّيه [البخاري: ٣٣٨. ومسلم: ٣٦٨].

وختم اللهُ -تبارك وتعالى- الآيةَ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ۝٤٣﴾ [النساء:٤٣] أي إنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- واسعُ العفوِ والمغفرةِ، ولسعة عفوه ومغفرته شرع لنا التيمم إذا لم نستطع استعمال الماء، أو لم نجده.

جنـــــة السـنـــــة

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم أو عمل:

١ - في يوم القيامة يبعثُ اللهُ في كلِّ أمةٍ عليها شهيداً من أنفسها، وهو رسولُها الذي يشهدُ عليها أنَّه بَلَّغها ما أرسله اللهُ به، وأقام عليها الحجةَّ وسيأتي اللهُ برسولِهِ محمدٍ ﷺ شهيداً على هذه الأمة.

٢ - حالُ الكفارِ الذين عَصَوُا الرسولَ ﷺ في يومِ الدين حالٌ صعبةٌ، حتى يتمنوا في ذلكِ اليومِ أن يصبحوا تراباً، وهم في ذلك اليوم يبوحون بكلِّ جرائمهم.

٣ - حَرَّم اللهُ على المؤمنينَ عندما كانت الخمرُ مباحةً أن يصلُّوا وهم سكارى حتى يفيقوا من سُكْرِهم.

٤ - حَرَّم اللهُ على مَنْ أصابته جنابةٌ أن يصليَ وهو جنبٌ حتى يغتسلَ.

٥ - لا يجوزُ للجنبِ والحائضِ والنفساءِ المكثُ في المسجدِ، ويجوز لهم المرور فيه.

٦ - إذا كان الإنسانُ لا يستطيع استعمالَ الماءِ لمرضِهِ، أو كان لا يجدُ الماءَ وهو يريدُ الصلاةَ وعليه حدثٌ أصغر أو أكبرُ فعليه أن يتيمم.

٧ - الراجحُ مِنْ القولِ أنَّ المرادَ بملامسةِ النساءِ في الآية الجماع، أمَّا الجسُّ باليد فلا ينقضُ الوضوءَ، لأنَّ الرسولَ ﷺ كان يُقَبِّلُ بعضَ نسائه، ويصلّي، ولا يتوضأ.

٨ - إذا لم يَجِدِ المرءُ الماءَ لغُسْله أو وضوئه، عليه أن يبحثَ عنه فيما حوله، لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ فالآيةُ تدلُّ على أنّه بَحَثَ فلم يَجِدْ.

٩ - دَلَّ القرآنُ على أنَّ المتيمم يضربُ الأرضَ، فيمسحُ بيديه وَجْهَهُ وكَفَّيه، ودَلَّ صحيحُ السنةِ أنَّ المتيمم يضرب الأرضَ بيده مرةً واحدةً، فيمسح وجهه وكفيه، فحَسْبَ.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني السادس عشر من سورة النساء

﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾

أولاً: تقديم

يُعرِّفنا ربُّنا في آياتِ هذا النصِّ بأعدائِنا من اليهودِ الضالِّين المضلِّين، واللهُ أعلم بأعدائنا، فعندما يُعرِّفُنا بهم فإنَّه يكشف لنا حقيقتَهمْ وطبيعتَهُمْ بما لا مزيد عليه، وعندما نمعنُ النظر فيما حَدَّثنا به عن يهود، نجدُ شخصيةً ملتويةً منحرفةً رعناءَ، وقد وَصَلَ بهم البعدُ في الضلالِ إلى تحريفِ كلامِ الله، وكان كلامُ الله يصلُ إلى آذانهم، وتعزم قلوبهم على عصيانِهِ، وكانوا يقفون من رسولِ الله المرسلِ إليهم موقفاً سيئاً، يؤذونه بالقولِ والفعلِ، وقد وجَّهَ اللهُ توبيخاً شديداً قاسياً يليقُ بما يكنونه في قلوبهم وما تموج به صدورُهُمْ، فقد تهدَّدهم بالمسخِ واللعنِ والطردِ من رحمته، وهم يستحقُّونَ ذلك، فإنَّهم مشركون، ورحمة الله لا تقبل المشركين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥) مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٤٧) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨)﴾ [النساء: ٤٤-٤٨].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١ - أهل الكتاب ضالُّون مُضِلُّون:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ بعضَ أهل الكتاب ضالُّون في أنفسهم، مُضِلُّون غيرهم، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤)﴾ [النساء: ٤٤].

ومطلعُ الآيةِ فيه سؤالٌ موجَّهٌ للرسولِ ﷺ لتعْجيبِهِ من حالِ الذين أُوتوا نصيباً من الكتابِ، وهمُ اليهودُ والنصارى الذين لديهم التوراة والإنجيل وهما منزلان عليهم من ربِّهم،

جنـــــة السـنــــة

وقوله: ﴿نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: حَظّاً منه، وهي البقيةُ الباقيةُ من الحقّ التي لم ينلها التحريفُ والتبديلُ، وكان مقتضى وجودِ هذا الحقّ في أيديهم، وفيه البشاراتُ بمحمدٍ ﷺ ودينِهِ وكتابِهِ وأُمتِهِ أن يسارعوا إلى الإيمان به، ولكنَّهم بَدَلَ ذلك اشْتَرَوُا الضلالةَ، والتعبير بقوله: ﴿يَشْتَرُونَ﴾ يدلُّ على الجهدِ والعناءِ الذي قاموا به في الكُفْرِ بالإسلام، ومقاومةِ هذا الدين، لتحصيل مغانم دنيوية تافهةٍ، وهم في ذلك لا يقتصرون على إضلالِ أنفسهم، ولكنَّهم يبذلون كل جهدهم في محاولتهم إضلال المسلمين، سواء بما يوردونه مِنْ شبهاتٍ، أو ما يبذلونه من كيدٍ ومؤامراتٍ.

وفي مواجهة هذا الكيد اليهوديِّ المتنامي على مدارِ التاريخ يعلمنا اللهُ أنَّه أعْلَمُ بأعدائنا، ولذلك علينا أن نُقْبِلَ على كتابِ ربِّنا، ونتعرفَ عبرَ كلامِهِ على أعدائنا، ونلوذَ به، ونحتمي به، فكفى به وليّاً، وكفى به نصيراً وحامياً لهذه الأمة ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [النساء:٤٥] وفي هذا التوجيه الإلهي الرباني تحذير لهذه الأُمة أن تتخذ أعداءَها الذين عرفنا بهم أحبَّاءَ وأولياءَ.

٢- صورة الشخصية اليهودية المريضة الملتوية:

عرَّفنا ربُّنا بالشخصيةِ اليهوديةِ التي تعادينا، وهي شخصيةٌ ملتويةٌ مريضةٌ، تحاولُ أن تُلْبِس علينا ديننا، وتوقِعَنا في العَفَنِ والمصائبِ والإحنِ، وهي شخصيةٌ مخادعةٌ ذلقةُ اللسانِ، تعمل في تحريف الحقِّ، والانسلاخ منه، وتبذلُ جهدَها في الإضلالِ وتعكيرِ الأجواءِ ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ [النساء:٤٦].

إن هذه الآية ترسمُ صورةً واضحةَ المعالمِ للشخصية اليهوديةِ المريضةِ الضالَّةِ المضلَّة التي تَعْرِفُ الحقَّ وتتنكَّبُه، والتي تحاورُ الخصومَ بلسان ذَلِقٍ، والآية ترسمُ الشخصيةَ اليهوديةَ في حالِ ضلالها، ثم تدعو إلى الصورةِ المثلى التي ينبغي أن تكون عليها.

يخبرنا اللهُ ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَّ بعضاً من يهودٍ، يُحَرِّفون الكلِمَ عن مواضعه، وقد قامَ اليهودُ بكلِّ ألوانِ التحريفِ في التوراةِ، فزادُوا فيها، وأنقصوا منها، وجعلوا بعضاً منها على حَرْفٍ من الاحتمالِ يمكن حملهُ على وجهين، والكَلِمُ: جمع كَلِمَةٍ، والمراد به كلام الله في التوراةِ، بحذفِهِ أو الزيادةِ فيه، أو تغيير معناه وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾

جنـــة الســـــنة

[النساء:٤٦] أي: سمعنا قولَكَ، وعصينا أمْرَكَ. وهذا يدلُّ على شناعَةِ ما كان منهم، إذ هم يُعْرِضون عن كتابِ الله بعد ما عقلوه.

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّهم يقولونَ ساخرين مستهزئين: ﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾ [النساء:٤٦] أي: اسْمَعْ ما نقولُ، لا سمعت.

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّهم يَلْوُونَ ألسنتهم بالكتاب قائلين: ﴿وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ﴾ [النساء:٤٦] ومعنى راعنا، أي: احفظنا، وانتبه إلينا، ولكنَّهم كانوا يميلون بهذه الكلمة ألسنَتَهُمْ، قاصدين بها الرُّعونةَ، سخريةً وتهكماً واستهزاءً بالرسولِ ﷺ و﴿وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ﴾ وأصل الطعن الرمي بالرمح أو السَّهْمِ، ثم استعير لما يَرْمِي به اللسانُ.

وقد نهى اللهُ صحابةَ رسولِهِ ﷺ أنْ يقولوا هذه الكلمة، لإغلاقِ البابِ على اليهودِ أن ينْطِقُوا بها على وجه التهكم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾ [البقرة:١٠٤].

ثمَّ بيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- الصورةَ الصحيحةَ السويّةَ المرضيةَ التي كان يجبُ أنْ يكونوا عليها، فقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ [النساء:٤٦] فلو أنَّهم قالوا: سمعنا وأطعنا، بدلَ قولهم سمعنا وعصينا، وقالوا: واسمع وانظرنا بدل قولهم: واسمع غير مسمع وراعنا، لكان خيراً لهم وأقوم، ولكنَّ اللهَ لم يردْ بهم الخيرَ، ولعنهم بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً.

٣- أمَرَ اللهُ اليهودَ بالإيمان بما أنْزلَ على رسوله محمد ﷺ وتَهَدَّدهم إن لم يفعلوا:

نادى اللهُ -تعالى- اليهودَ والنصَّارى وهم أهلُ الكتابِ، آمراً إيَّاهم بالإيمانِ بما أنزله على عبدِهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ وهو القرآنُ، وهو مُصدِّقٌ للحقِّ الذي بقيَ بينَ أيدي اليهود والنصارى في التوراةِ والإنجيل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم﴾ [النساء:٤٧].

وقد تهدَّد اللهُ أهلَ الكتابِ إن هم استمرُّوا على تكذيبهم وكفرهم بأن يَطْمِسَ وجوهَهُمْ، وطَمْسُ الوجوهِ يكونُ بإزالةِ أسماعِهِمْ وأبصارهم وَرَدِّ الوجوهِ إلى الأدبار، كما تهدَّدَهُمْ بأن يفعلَ بهم فعله بأسلافهم الذين اعتدوا في السَّبت في مدينة أيْلَةَ، فمسخهم قِرَدَةً، ﴿فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ١٦٦﴾ [الأعراف:١٦٦] قال اللهُ لهم في تهديدِهِمْ

جنـــة السـنـــة

في هذه الآية: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴿٤٧﴾﴾ [النساء:٤٧].

٤- إذا ماتَ المرءُ مشركاً فلن يغفرَ اللهُ له، والذنوبُ غير الشركِ أمرها إلى الله:

ذهبتِ الخوارجُ وبعضُ الفِرَقِ الإسلامية إلى القولِ بكفرِ من ارتكب كبيرةً كالزنا والرِّبا وشرب الخمر، وحَكَموا بحلِّ دماءِ من ارتكبوا مثلَ هذه الكبائرِ، وزعم المعتزلةُ أنَّ مرتكبَ الكبيرة في الدنيا ليس بمؤمنٍ، ولا كافرٍ، ولكنه مُخَلَّدٌ في الآخرة في نار جهنَّم، وذهبَ أهلُ السنّةِ والجماعةِ إلى أنَّ الذنبَ الوحيدَ الذي لا يغفر اللهُ لصاحبه هو الشركُ الأكبرُ والكفرُ، أما الكبائر غير الشرك فأمرها إلى الله عزَّ وجلّ، فإنّه إن شاءَ عذَّبَ أصحابها وإن شاءَ غفر لهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء:٤٨].

والشركُ أن يعتقدَ وجودَ آلهةٍ أُخرى تستحقُّ العبادةَ مع الله، كالذين يعبدون الشمسَ والقمرَ والنجومَ، أو يعبدون معه الأصنامَ والأوثانَ، أو يعبدون القبورَ من دونِ الله، أو الذين عَبَدُوا عيسى أو العزيرَ، كلُّ هؤلاءِ ضالُّون مشركون، فالعبادة لله وحده، لا يستحقُّها أحدٌ من دونِ الله، وقد جاءت أحاديثُ كثيرةٌ تدلُّ على أنَّ مصيرَ مَنْ ماتَ على التوحيدِ الجنَّة، وإن لم يتب من الكبائر التي ارتكبها، فمن ذلك:

١- ما رواه أبو ذرٍّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما مِنْ عَبْدٍ قالَ: لا إله إلا اللهُ، ثمَّ ماتَ على ذلك إلاَّ دَخَلَ الجنَّة» قال أبو ذرٍ: وإنْ زنى وإنْ سَرَقَ؟ قال: «وإنْ زَنَى وإنْ سَرَقَ» قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإنْ زَنَى وإنْ سَرَقَ»، قلت: وإن زنى وإنْ سَرَق؟ قال: «وإن زَنَى وإنْ سَرَقَ على رغم أنْفِ أبي ذرٍّ» [البخاري: ٥٨٢٧. ومسلم: ٩٤].

٢- وعن أبي ذرٍّ أيضاً قالَ: قال رسولُ الله ﷺ: أتاني جبريلُ، فقال: «من ماتَ من أُمتِك لا يُشْرِكُ بالله شيئاً دَخَلَ الجَنَّةَ» [البخاري: ٢٣٨٨. مسلم: ٩٤].

٣- وفي رواية عن أبي ذَرٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «ذلك جبريلُ عليه السلام عَرَضَ لي في جانِبِ الحَرَّة، قال: بَشِّر أُمَّتَكَ أَنَّهُ من ماتَ لا يُشركُ بالله شيئاً دَخَلَ الجنَّةَ. قلتُ: يا جبريل، وإنْ سَرَقَ، وإن زَنَى؟ قال: نعم. قال: قلتُ: وإنْ سَرَقَ وإن زنَى؟ قال: نعم، وإن شرب الخمر» [البخاري: ٦٤٤٣. ومسلم: ٩٤].

جنـــــة الســـــنة

٤- وعن جابرِ بن عبدالله، قال: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ، فقال: يا رسولَ الله، ما الموجبتان؟ قال: «من ماتَ لا يُشْرِكُ بالله شيئاً دَخَلَ الجنَّةَ، ومن ماتَ يُشْرِكُ بالله شيئاً دَخَلَ النار» [مسلم: ٩٣].

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل:

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - أهلُ الكتابِ مِنَ اليهود والنصارى الذين كفروا برسولنا ﷺ ضالُّون مضلّون.

٢ - الله -تبارك وتعالى- عالم بأعدائِنا لا يخفى عليه منهم شيء، وقد عرَّفنا بهم.

٣- علينا أن نتعرف إلى أعدائنا من خلال ما عرَّفنا به ربُّنا، ونحذرهم أشدَّ الحذرِ.

٤ - اللهُ -عزَّ وجلَّ- هو وَلِيُّنا وناصرنا، فإليه نتوجَّهُ، وبه نستنصرُ.

٥ - عمل اليهودُ على تحريفِ التوراةِ، فزادوا فيها، ونقصوا منها.

٦ - اليهودُ خبثاءُ يتلاعبون بالألفاظِ في مخاطبتهم للرسولِ ﷺ والمؤمنين، ويخاطبون الرسولَ ﷺ والمؤمنين بما لا يليقُ بهم.

٧-دعا اللهُ اليهودَ للاستقامةِ على أمْرِ الله تعالى وإحسانِ القولِ والعملِ.

٨- لَعَنَ اللهُ -تبارك وتعالى- اليهودَ، فأظلمتْ قلوبُهم، فلا يؤمنُ منهم إلا القليل، ومن أحصى عَدَدَ المؤمنين من اليهود علم صحة هذا الذي أخبرنا الله به عنهم.

٩- تهدَّد الله اليهودَ وتوعَّدهم إن لم يؤمنوا بالكتاب الذي أنزله على عبدِهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ ، وهو القرآنُ أن يفعلَ بهم الأفاعيل، كأن يطمس وجوههم، ويردَّها على أدبارها، أو يمسخهم قردةً، كما مسخ الذين اعتدوا منهم في السبت.

١٠ - الذي يموتُ مشركاً خالدٌ في نارِ جهنَّم، وجرمه غير قابلٍ للغفران.

١١ - الكبائر غيرُ الشركِ إن تاب منها صاحبها توبةً صادقةً، غفر له ذنبه، فإن مات غير تائب منها فأمره إلى الله تعالى إنْ شاءَ غفر له، وإن شاءَ عذَّبه.

١٢ - نصوصُ الوعيدِ الواردةُ على الذنوبِ كُلُّها تُحْكَمُ بهذه الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨].

١٣ - الشركُ بالله تعالى أعظمُ الذنوبِ، وهو كذبٌ وافتراء عظيم على ربِّ العزة.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني السابع عشر من سورة النساء
تعريف الله لنا بأعدائنا من اليهود

أولاً: تقديم

هذه الآياتُ الكريمةُ تزيدُ في وضوحِ الصورةِ التي رَسَمَتْها الآياتُ السابقةُ لليهودِ، حتى إنَّنا عندما نُمْعِنُ النَّظَرَ والتدبُّرَ في الآياتِ نراهم رؤيةً واضحةً جليَّةً، نراهم وهم يمتدحون أنْفُسَهُمْ، ويزكُّون مسارهم، نراهم وهم يفترون على الله الكذب، فيرجعونَ آثمين مأزورين، نراهم وقد انشغلوا بالسِّحْرِ، وذلَّلوا أنفسهم للطواغيت، نراهم وهم يميلون مع أهلِ الشركِ والكفرِ حاكمينَ عليهم بأنَّهم أهدى مِنَ الذين آمنوا سبيلاً، نراهم وقد غَرِقوا بالكفر والشركِ فحلَّتْ بهم لعنةُ الله تعالى، فأُغْلِقَتْ عليهم منافذُ الخَلاصِ.

وتمضي الآياتُ تكشف لنا خبثهم، فهم بخلاءُ لا يُؤْتُونَ الناسَ نقيراً، حسدةٌ يحسدونَ الناس على ما آتاهم اللهُ مِنْ فضله.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [النساء:٤٩-٥٥].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النصِّ من القرآن

١- ذَمَّ اللهُ اليهودَ الذين يُزكُّون أنْفُسَهُمْ:

عَجَّبَ اللهُ رسولَهُ ﷺ مِنْ حالِ اليهودِ الذين يُزكُّون أنْفُسَهُمْ، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ﴾ [النساء:٤٩] والذين يزكُّونَ أنفسهم هم الذين يَمْدَحونها، ويثنون عليها، وقد أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى كيف زكَّى اليهودُ أنْفُسَهُمْ في مواضعَ مِنْ كتابه، فأخبرنا أنهم قالوا: ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ [المائدة:١٨]. وقالوا: ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾

جنـــة السـنـــة

[البقرة:٨٠]. وقالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة:١١١]. وقد نهى اللهُ تعالى عن تزكية المرءِ نفسه فقال: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ۝٣٢﴾ [النجم:٣٢]. وكما نهى ربُّنا الناسَ عن تزكية أنفسهم، فإن رسولنا ﷺ نهى الواحِدَ منا أنْ يزكي غيره، فعن أبي موسى الأشعري قال: سَمِعَ النبيُّ رَجُلاً يُثْني على رَجُلٍ ويُطْرِيه في المِدْحَةِ، فقال: «أَهْلَكْتُمْ، أو قَطَعْتُمْ ظَهْرَ الرَّجُلِ» [البخاري: ٦٠٦٠. ومسلم: ٣٠٠١].

وعن أبي بَكْرَةَ أنَّ رَجُلاً ذُكِرَ عند النبيِّ ﷺ، فأثنى عليه رجلٌ خيراً، فقال النبي ﷺ: «وَيْحَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صاحِبِكَ -يقوله مراراً- إنْ كان أحَدُكُمْ مادِحاً لا مَحالَةَ، فلْيَقُلْ: أَحْسِبُ كذا وكذا، إنْ كان يَرَى أنَّه كَذلِكَ، وحَسِيبُهُ الله، ولا يُزَكِّي على الله أحَداً» [البخاري: ٦٠٦١. ومسلم: ٣٠٠٠].

وعن همَّام بنِ الحارثِ أنَّ رَجلاً جَعَلَ يَمْدَحُ عُثمانَ، فعمد المقدادُ فجثا على ركبتيه، وكان رجلاً ضخماً، فجعلَ يحثو في وَجْهِهِ الحصباءَ، فقاله له عثمانُ: ما شأنُكَ؟ فقال: إنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إذا رَأَيْتُمُ المدَّاحينَ، فاحْثُوا في وُجُوهِهِمُ التُّرابَ» [مسلم: ٣٠٠٢].

وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٩] أخْبَرَ اللهُ -سبحانه- أنَّ التزكيةَ إليه سبحانه، لأنَّه العالمُ بحقائقِ الأمورِ وغوامِضِها، وختمَ الحقُّ -سبحانه- الآية بقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٤٩﴾ [النساء:٤٩] وهنا محذوف تقديره: فيَجْزِي اللهُ العبادَ بأعمالهم، ومعنى ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٤٩﴾ أي: لا ينقصون من أعمالهم شيئاً، والمرادُ بالفتيلِ أقلّ الأشياءِ وأصغرُها، والفتيلُ: ما تفتله بين أصابعك مِنَ الوسخ، وقيل: هو ما كان في باطنِ النواةِ من لحائِها، وقيل: هو ما كان في ظَهْرِها، وهو الذي تنبت منه النخلة [معاني القرآن، للزجاج: ٢/ ٦٠].

٢- ترك اليهود الاشتغالَ بالكتابِ المنزلِ من عند الله واشتغالهم بالجبت والطاغوت:

أمَرَ اللهُ رسولَه محمداً ﷺ أنْ ينظرَ ويتأمَّلَ في كيفية افتراءِ اليهودِ على الله الكذبَ في ما ادَّعوه وزعموه من دعاوى ومزاعم زكُّوا بها أنفسهم، ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النساء:٥٠] وقوله تعالى في ختام الآية: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ۝٥٠﴾ [النساء:٥٠] أي: وكفى بصنيعهم هذا إثماً بيِّناً واضحاً.

وقد عجَّب اللهُ رسولَه ﷺ مَرَّةً أُخرى مِنْ حالِ هؤلاءِ اليهودِ الذين تركوا الهدى الذي أُنزِلَ إليهم مِنْ عِنْد الله، وصاروا إلى الإيمان بالجِبْتِ والطاغوتِ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء:٥١] والذين يؤمنون بالجبتِ

والطاغوتِ اليهودُ، والجبتُ: السِّحرُ، الذي يُعبِّدون به أنفسهم للشيطانِ، والطاغوتُ: كلُّ مَنْ تجاوزَ حدَّه من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاعٍ، فيدخلُ فيه الشيطانُ والكهانُ والأوثانُ والأصنامُ وأئمة الضلال كفرعون ونمرود وأبي جهل ونحوهم.

٣- دعوى اليهود أن كفار قريش أهدى من الذين آمنوا سبيلاً:

ومن جرائم اليهود التي ذمَّهم اللهُ بها أنهم كانوا يكذبون ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء:٥١] وعنى بقوله: ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ كفارَ قريش، وقوله: ﴿أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: مِنَ الرسولِ ﷺ وأصحابه.

وأورد الطبريُّ عن ابن عباس، قال: «لما قَدِمَ كعبُ بنُ الأشرف مكةَ، قالت له قريش: أنت حَبْرُ أهْلِ المدينةِ وسَيِّدُهُم؟ قال: نعم، قالوا: ألا ترى هذا الصُّنبور المُنْبَتِرَ من قومِه، يزعم أنَّه خيرٌ منَّا ونحن أهل الحجيج وأهل السِّدانة وأهل السقاية؟ قال: أنتم خير منه، فأُنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ [الكوثر:٣] وأنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ الآية» [تفسير الطبري: ٣/ ٢٣٧٥].

٤- لعن اللهُ اليهودَ الكفرة:

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ اليهودَ الذين يؤمنون بالجبت والطاغوتِ ويفضِّلون عبَّادَ الأصنام على المؤمنين الأطهارِ ملعونين عند الله، ومَنْ يلعنِ اللهُ فإنه يطرده من رحمته، فلن تجد له ناصراً ينصره، ولا حامٍ يحميه ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء:٥٢].

وهذه الآية تذمُّ اليهودَ أيّما ذمٍّ بسبب موالاتِهم للمشركين، واستنصارهم بهم، وتزكيتهم لهم، ومحالفتهم لهم في القتالِ في غزوةِ الخندقِ، فردَّ اللهُ المشركين واليهودَ بغيظهم لم ينالوا خيراً.

٥- بُخْلُ اليهودِ وحسدُهُمْ للناس:

أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّ اليهودَ فيهم صفتان قبيحتانِ: البخلُ والحسدُ، ولذلك قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ﴾ [النساء:٥٣] وهذا استفهام إنكاريٌّ، أيْ ولو كان لهم حظٌّ مِنَ الملك لما أعطَوُا النَّاسَ شيئاً مما يملكونه، حتى لو كان ﴿نَقِيرًا﴾، والنقيرُ: أقلُّ الأشياءِ، وقد فسَّرَها ابن عباسٍ بالنقطة التي تكون في ظَهْرِ النواةِ [تفسير الطبري: ٣/ ٢٣٧٨] ثم قال تبارك وتعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ﴾ [النساء:٥٤] والحَسَدُ مرضٌ نفسيٌّ

جنـــــة السـنة

خبيثٌ يضيرُ صاحبه، فإنَّ الحاسد لا يرضى بما أنعم اللهُ عليه مِنْ فضله، ولا يلجأُ إلى الله طالباً منه أن يوسِّع عليه، وكلُّ ما يهمُّهُ تلك النعم التي أنعمَ اللهُ بها على الآخرين، فإنَّه يريد أنْ تصيرَ إليه وتزولَ عن الآخرين، فقد حَسدوا رسولَنا ﷺ على ما آتاه اللهُ مِنَ النُّبوةِ والرسالةِ، والكتابِ المنزل عليه، وحَسَدُوا الأُمَّة الإسلامية على ما أنعم اللهُ عليها من فضله، ومما تفضَّل اللهُ به فيما مضى على عبادِهِ ما آتاه اللهُ آلَ إبراهيمَ عليه السلام، فقد جَعَلَ اللهُ في ذريته الكتابَ والحكمةَ، وآتاهم ملكاً عظيماً، ومن ذلك ما آتاه اللهُ موسى وعيسى مِنَ الكتاب وما آتاه داودَ وسليمانَ مِنَ الملك ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء:٥٤] وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ طائفةً من بني إسرائيلَ آمنوا بالكتابِ والحكمةِ التي أنزلت على أنبياءِ بني إسرائيل، ومنهم مَنْ رفضها، وحارب من رضي بها، وهؤلاءِ الرافضونَ الصادُّون هم من بني إسرائيلَ، ولذا فإنَّهم قد حسدوا قَوْمَهُمْ وبني جنسهم، قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النساء:٥٥] وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ فيه دلالةٌ على أنَّ اللهَ سيحاسبهم، ويجازيهم على ما قاموا به يومَ القيامة، وكفى بالكافرين منهم أنْ يدخلهم النارَ وبئس القرارُ.

و﴿جَهَنَّمَ﴾ اسم لنار الله الموقدة. و﴿سَعِيرًا﴾ أي: ناراً اشتدَّ حرّها.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- انحرفَ بنو إسرائيل عن الطريقِ الذي كان عليه الصالحون من آبائهم، ومع ذلك فإنَّهم يدَّعون الفضائلَ التي كانت في آبائهم، ويزكُّونَ أنفسهم، ويمدحونها بما ليس فيها.

٢- تزكيةُ الله -تبارك وتعالى- لعباده هي التزكيةُ المقبولةُ السديدةُ، فقد زكَّى اللهُ رسلَه وأنبياءَه، وزكَّى صحابةَ رسولِهِ ﷺ.

٣- سيجزي ربُّ العبادِ العبادَ بأعمالهم، وبخاصةٍ الذين زكُّوا أنفسهم، ولا يظلمون فتيلاً.

٤- الذين يُزَكُّونَ أَنْفُسهم من اليهودِ كاذبون، افتروا على الله الكذب.

٥- الذين يفخرونَ مِنْ هذه الأُمة بما كان عليه الرعيلُ الأول من غيرِ أن يعملوا بمثل عملهم حالهم حالُ اليهود.

جنـــــة السـنـــــة

٦- ذمَّ اللهُ اليهودَ الذين في أيديهم شيءٌ من الكتاب، لاشتغالهم بالسِّحر، وانقيادهم للطواغيتِ، وكذَّبهم في دعواهم أنَّ كفارَ قريش أهْدى من الذين آمنوا سبيلاً.

٧- لعنَ اللهُ اليهودَ فأعمى قلوبَهُمْ، فلا يدخلُ الإسلامَ منهم إلا القليل.

٨- اليهودُ بخلاءُ، فلا يجودون على غيرهم بشيءٍ مهما كان قليلاً.

٩- اليهودُ ذوو حسد، يحسدونَ الناس على ما آتاهم اللهُ من فضله، ومن ذلك حَسَدُهم لرسولنا ﷺ وأُمتنا، ومِنْ حسدهم أنْ يمني بعضُهم بعضاً بما أنعم اللهُ على بعض، فقد جَعَلَ اللهُ في ذريةِ إبراهيم الكتاب والحكمة وآتى بعضهم ملكاً عظيماً.

١٠- كان اليهودُ قديماً يحسدُ بعضُهم بعضاً على ما آتاهم اللهُ من فضله.

جنـــــة السـنة

النص القرآني الثامن عشر من سورة النساء

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾

أولاً: تقديم

أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ أنَّ مصيرَ الكفَّارِ في يوم القيامةِ النَّارُ، ومصيرَ المؤمنين الجنَّةُ، وأمر اللهُ المؤمنين وفي مقدمتهم الحكامُ أن يؤدوا الأماناتِ إلى أهلها، وإذا حكمنا بينَ الناس أن نحكم بالعدلِ، وأمرنا بطاعةِ الله وطاعةِ رسوله ﷺ، كما أمرنا بطاعة أولي الأمر إذا أطاعوا اللهَ ورسولَه، فإنْ تنازعنا في شيءٍ فعلينا أنْ نردَّ المتنازعَ فيه إلى الله ورسولِه ﷺ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء:٥٦-٥٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير هذه الآيات من القرآن

١- مصيرُ الكفارِ والمؤمنين في يومِ الدين:

بيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- لنا في الآيتين الأوليين من هذا النص مصيرَ البشرِ جميعاً في يوم الدين، فالنَّاس من أولهم إلى آخرهم يقسمون إلى فريقين: الكفارُ، والمؤمنون، ولا يشذُّ عن هذين القسمين أحد.

قال تعالى في مصير الكفار: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء:٥٦].

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في هذه الآية أنّه سيدخلُ الكفارَ في يوم الدين ناراً يصْلُون حرَّها، وأخبرنا أنَّ هذه النَّارَ ستُنْضِجُ جلودهم، فإذا احترقت جلودُهم بدَّلَهم اللهُ جلوداً

جنـــــة السـنـــــة

غيرها ليذوقوا العذاب، وقد اكتشف العلمُ الحديثُ أنَّ الإحساسَ بألم الحرقِ والقطعِ بالسكين إنما يكون في الجلد، فإذا اخترقت السكينُ الجلدَ فلا يشعرُ الإنسانُ بالألم، ولذا فإنَّ اللهَ يبدِّلهم جلوداً غيرَ جلودهم ليستمرَّ إحساسهم بالعذاب، ولو لم يُبَدِّلِ اللهُ جلودَهم بجلودٍ غيرها فإنَّهم لا يشعرون بالعذابِ.

وختم اللهُ الآيةَ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [النساء:٥٦] والعزيز: القويُّ الغالب، الذي لا يمتنع أحدٌ عن عذابه، وهو حكيم في تدبيره وقضائه. ثم بيَّن ربُّنا -تبارك وتعالى- مصير المؤمنين في يومِ الدين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء:٥٧].

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- في هذه الآية أنَّه سيدخلُ المؤمنين الذين يعملون الصالحاتِ في يوم الدِّين جَنَّاتٍ، وهي البساتينُ ذات الأشجارِ، تجري من تحتها أنهارُ الماءِ والعسلِ واللبنِ والخمرِ، وأخبرنا أنَّهم بعد دخولهم فيها يصبحون خالدين فيها أبداً، وأخبرنا أنه سيجعلُ لهم في تلك الجنَّاتِ أزواجاً مُطَهَّرةً، أنفسهنَّ طيبةٌ خاليةٌ من الشركِ والذنوبِ والمعاصي والأخلاقِ الفاسدة مِنَ الكذبِ والحسدِ والعجبِ وغيرها، وأجسادهنَّ خالية من قاذوراتِ الدنيا، كالبولِ والحيضِ والنخامِ والبزاق والمني.

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في خاتمة الآية أنه سيُدْخِلُ المؤمنين ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء:٥٧] قال الزمخشري: «ظَليلاً: صفة مشتقة من لفظ الظلِّ، لتأكيد معناه، كما يقال: ليلٌ أَلْيَل، ويوم أَيْوَم، وما أشبه ذلك، وهو ما كان فَيْناناً لا جَوْبَ فيه، ودائماً لا تَنْسَخُهُ الشمسُ، وسِجسجاً[(١)] لا حرَّ فيه ولا بَرْدَ، وليس ذلك إلا ظلّ الجنةِ، رزقنا اللهُ بتوفيقهِ لما يزلف إليه التفيؤ تحت ذلك الظلِّ» [الكشاف: ١/ ٥٣٥].

٢- وجوبُ أداءِ الأماناتِ إلى أهلها:

أمر اللهُ -تبارك وتعالى- عبادَهُ بأن يؤدوا الأماناتِ إلى أهلها، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعَدْلِ، فقال: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء:٥٨].

(١) قوله: فيناناً، أي: منبسطاً طويلاً ممتداً. والجَوْبُ: الخرق والفرجة. والسجسج: المتوسط.

جنـــــة السـنـــــة

وهذا -كما يقولُ ابنُ كثير- «يعمُّ جميعَ الأماناتِ الواجبةِ على الإنسان، من حقوقِ الله عزَّ وجل على عباده من الصلواتِ والزكواتِ والصيامِ والكفاراتِ والنذورِ وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه، ولا يطّلعُ عليه العبادُ، ومِنْ حقوقِ العبادِ بعضِهم على بعضٍ كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به بعضَهم على بعضٍ من غير اطّلاع بيِّنَةٍ على ذلك، فأمر اللهُ عزّ وجل بأدائها، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أُخِذَ منه ذلك يومَ القيامة» [ابن كثير: ٢/ ٣٠٦].

ويدخلُ في الذين أمرهم اللهُ بأداءِ الأماناتِ إلى أهلها والحكم بين النَّاس بالعدل الحكامُ الذين يَلُونَ أمرَ المسلمين، فيجبُ على الحكامِ أن يؤدوا ما ائتمنهم اللهُ عليه من الولاياتِ، فيختاروا للمناصب التي تحت أيديهم الأقوياءَ الأمناءَ، وهذان اللذان أمرت بهما الآية، وهما أداءُ الأمانات إلى أهلها، والحكمُ بين الناس بالعدلِ جماعُ السياسة العادلة والولايةِ الصالحةِ، ومما يدلُّ على دخولِ الحكامِ في الآيةِ سبب نزولها، فقد ذكر ابن كثير ما رواه محمد بن إسحاق بإسناده عن صفية بنت شيبَةَ، وفيه أنَّ الرسولَ ﷺ عندما دخلَ المسجدَ في فتح مكةَ أخذ مفتاحَ الكعبةِ من عثمانَ بن طلحةَ، ودخل الكعبةَ، ثم خرجَ وجلسَ في المسجد، وطلب منه عليُّ بن أبي طالب المفتاح، وكان مفتاحُ الكعبةِ في يده، فقال: يا رسولَ الله، اجمعْ لنا الحِجابَةَ مع السِّقاية، فقال رسول الله ﷺ : «أينَ عُثمانُ بن طَلْحَةَ؟» فدُعِيَ له، فقال: «هاكَ مِفْتاحَكَ يا عُثمانُ، اليومُ يومُ وفاءٍ وبِر» [ابن كثير: ٢/ ٣٠٧. وقال محققُ ابنِ كثيرٍ: «ذكره ابن هشام في السيرة ٤/ ٤٢. عن ابن إسحاق، ورجالُهُ ثقات مشاهير، وابن إسحاق صرَّح بالتحديث، فحديثه حسن، وعَجَزُ الحديث مرسلٌ، ومرسله مجهول، ولكن له شواهد»].

وقد وردتْ أحاديثُ كثيرةٌ دالَّةٌ على ما أمرت به الآية، فمن ذلك حديث أبي هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لتُؤَدُّنَّ الحُقوقَ إلى أهْلِها يومَ القيامةِ، حتَّى يُقاد للشَّاةِ الجَلْحاءِ من الشاةِ القَرْناءِ» [مسلم: ٢٥٨٢].

وعن عبدالله بن عمرو، قال: قال رسولُ الله ﷺ : «إنَّ المُقْسطينَ عندَ الله على منابرَ من نُورٍ عن يمين الرحمنِ عزَّ وجلَّ، وكِلْتا يديهِ يمينٌ، الذين يعدِلُون في حُكْمِهِمْ وأهْليهِمْ وما وَلُوا» [مسلم: ١٨٢٧].

وقد دلَّت أحاديثُ صحيحةٌ على أنَّ الولايةَ أمانةٌ يجب أداؤها على الوجه الأكمل، ولذا نهى الضعيفَ عن طلبها، ففي مسلم عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله ألا تستعملني، قال: فضربَ بيده على منكبي، ثم قال: «يا أبا ذرٍّ، إنَّكَ ضعيفٌ، وإنَّها أمانةٌ، وإنَّها يومَ القيامةِ خِزْيٌ وندامةٌ، إلا من أخَذَها بحَقِّها، وأدَّى الذي عليه فيها» [مسلم: ١٨٢٥].

جنـــة السـنــة

وقال الرسولُ ﷺ للأعرابي الذي سأل عن وقتِ وقوع الساعة: «إذا ضُيِّعت الأمانةُ فانتظر الساعة» قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إذا وُسِّدَ الأمْرُ إلى غيرِ أهْلِهِ فانْتَظِر الساعَةَ» [البخاري: ٥٩].

وقوله: ﴿نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء:٥٨] أي: نِعْمَ الشيءُ الذي يعظكم به، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ۝٥٨﴾ [النساء:٥٨] أي: سميعٌ لأقوالكم بصير بأعمالكم.

٣- وجوبُ طاعةِ الله ورسولِه وأولي الأمر منا:

أمرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في الآية الأخيرة من هذا النص بطاعةِ الله وطاعةِ رسوله، وأولي الأمر منا، وأمرنا بأن نَرُدَّ أمرنا في حال التنازعِ إلى الله ورسولِهِ إن كنا نؤمن بالله واليومِ الآخر، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ۝٥٩﴾ [النساء:٥٩].

وطاعةُ الله تكون بالإيمان به، والعمل بما أمر به، وترك ما نهى عنه وزَجَرَ، وطاعة رسولنا ﷺ تكون بالاستجابة له في حياتِهِ، وتحكيم سنته بعد وفاته، ومَنْ أطاعَ الرسولَ ﷺ فقد أطاع اللهَ، «وقد أعاد اللهُ الفعل ﴿أَطِيعُواْ﴾ في قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء:٥٩] إشارة إلى استقلالِ الرسولِ بالطاعة، ولم يُعِدْهُ في ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ إشارة إلى أنه يوجد فيهم مَنْ لا تجب طاعته، ثم بيَّن ذلك بقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾ [النساء:٥٩] كأنه قيل: فإن لم يعملوا بالحقّ فلا تطيعوهم، وردُّوا ما تخالفتم فيه إلى حكم الله ورسوله» [عزاه القاسمي في تفسيره (٣/ ١٨٦) إلى الطيبي].

وقد جاءت الأحاديثُ دالةً على أنَّ الحكامَ لا يُطاعون إنْ هم أمروا بالمعصية، فعن ابن عمر، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «السَّمْعُ والطاعَةُ حَقٌّ ما لم يُؤْمَرْ بمعْصِيَةٍ، فإذا أُمِرَ بمعْصِيَةٍ فلا سَمْعَ ولا طاعَةَ» [البخاري: ٢٩٥٥. ومسلم: ١٨٣٩ واللفظ للبخاري].

وعن عليٍّ ﵁ قال: بعثَ النبيُّ ﷺ سَرِيَّةً، فاستعملَ رجلاً من الأنصارِ، وأمرهم أنْ يطيعوه، فغضبَ، فقال: أليسَ أمركم النبيُّ ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: فاجمعوا لي حطباً، فجمعوا فقال: أوقدوا ناراً، فأوقدوها، فقال: ادخلوها، فهمُّوا، وجعلَ بعضهم يمسك بعضاً ويقولونَ: فَرَرْنا إلى النبيِّ ﷺ من النَّار، فما زالوا حتى خمدت النَّار، فسكن غضبُهُ، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ ، فقال: «لو دخلُوها ما خَرجُوا منها إلى يوم القيامةِ، الطَّاعةُ في المعروفِ» [البخاري: ١٤٤٠. ومسلم: ١٨٤٠].

جنـــــة السـنـــة

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء:٥٩] في هذا تهييجٌ على ردِّ الخصوماتِ والنزاعات والجهالات إلى كتاب الله وسنّة رسوله، ومن لم يفعل ذلك فليس مؤمناً بالله واليوم الآخر ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٩﴾ [النساء:٥٩] أي: التحاكمُ إلى كتابِ الله وسنّة رسوله ﷺ والرجوع إليهما في فصل النزاع خير وأحسن تأويلاً، أي: أحسن عاقبة ومآلاً.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- النَّاسُ جميعاً في يوم القيامة فريقان: الكفار الذين يصليهم اللهُ ناراً تحرق جلودهم، فيبدِّلهم الله جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب، والمؤمنون الذين يدخلهم اللهُ جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، ويهبهم زوجاتٍ طاهرات، ويدخلهم ظِلاً ظَليلاً.

٢- ذكرت الآيةُ الأولى حقيقةً علميَّة تَعَرَّفْنا عليها اليوم، وهي أنَّ الجلود هي مكان الإحساسِ بالحرقِ والجرحِ، فإذا احْتَرَقَ الجلدُ فلا يشعر الإنسان بالألم.

٣- أمرَ اللهُ كلَّ مؤمنٍ أن يؤدي الأمانات إلى أهلها، وإذا حكم أن يحكم بين الناس بالعدل، وفي طليعة المؤمنين الذين أُمروا بهذين الأمرين الحكامُ، فعليهم اختيارُ الأصلح للولاياتِ والمناصبِ، وعليهم أن يعطوا ما ائتمنهم اللهُ عليه من الأموال للمستحقين.

٤- قال السُّيوطيُّ: «استدلَّ المالكيةُ بعموم قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨] على أنَّ الحربيَّ إذا دخلَ دارنا بأمانٍ فأوْدع وديعةً، ثم ماتَ أو قُتل أنه يجب ردُّ وديعته إلى أهله، وأنَّ المسلمَ إذا استدان من الحربي بدارِ الحربِ، ثم خرج يجب وفاؤه، وأن الأسيرَ إذا ائتمنه الحربيُّ على شيءٍ لا يجوز أنْ يخونه، وعلى أنَّ من أودِعَ مالاً، وكان المودِعُ خانَه قبل ذلك، فليس له أن يجحده كما جحده» [الإكليل، ص٩٤].

٥- يجب علينا طاعةُ الله وطاعةُ رسولِهِ ﷺ فيما أمرنا كلُّ واحد منهما به، وعلينا طاعة الحكامِ والعلماءِ إذا أمرونا بالمعروف، فإن أمرونا بمعصيةٍ فلا طاعةَ لهم علينا.

٦- أمرنا اللهُ بردِّ ما اختلفنا فيه إلى الله والرسولِ ﷺ ، والمراد بذلك كتاب الله، وصحيح سنّة رسول الله ﷺ .

جنـــــة الســــــنة

النص القرآني التاسع عشر من سورة النساء

الذين يدّعون الإيمان ويريدون التحاكم إلى الطاغوت

أولاً: تقديم

خاطبَ اللهُ -تبارك وتعالى- في هذه الآياتِ رَسُولَه ﷺ مُعَجِّباً إيّاه مِنْ حال المنافقينَ الذين يزعمونَ أنّهم يؤمنون بما أُنْزِلَ إليه، وما أُنزلَ من قبله، ثم يناقضون دعواهم بالإعراض عن التحاكم إليه، ويطلبون التحاكم إلى الطواغيتِ التي تعبدُ من دونِ الله، ولا يتمُّ الإيمانُ إلا بالكفرِ بها، وعندما يُدْعى هؤلاء إلى التحاكم إلى ما أنزل الله وإلى ما جاء به الرسول ﷺ تراهم يصدون عنه صدوداً، وهؤلاء الذين هذه حالهم أهلٌ لأنْ يصيبهم اللهُ بالمصائبِ تنزلُ من عنده، وعند ذلك يأتون معتذرين زاعمين أنهم لم يريدوا إلا إحساناً وتوفيقاً، وقد أمر اللهُ رسوله ﷺ أن يعرضَ عن هؤلاء الضالين وأن يعظهم ويقولَ لهم في أنفسهم قولاً بليغاً.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء: ٦٠-٦٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ذمَّ اللهُ -تعالى- الذين يريدونَ التحاكم إلى الطاغوت:

عجَّب الله -تعالى- رسولَه ﷺ من حال الذين يزعمون الإيمانَ بما أنزلَ اللهُ على رسولِهِ ﷺ وبما أنزلَ مِن قبله على رُسُلِهِ السابقين، ثمَّ يناقضون أنفسهم بطلبهم التحاكمَ إلى الطاغوتِ الذي أمر اللهُ -تعالى- بالكفر به، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ [النساء: ٦٠].

جنـــــة السـنـــــة

وأكثر ما يستعملُ (الزَّعم) في قولِ ما لا تتحقَّقُ صِحَّتُهُ، وقد قيل: «بئسَ مَطِيَّة الرجلِ زَعموا» وقال الشاعرُ:

زَعَمَتْني شيخاً ولَسْتُ بشيخٍ إنَّما الشيخُ مَنْ يَدِبُّ دبيباً

ذمَّ اللهُ في هذه الآية قوماً زعموا أنهم آمنوا بما أُنزلَ إلى رسولِنا ﷺ وآمنوا بما أُنزل على الرسلِ من قبله، ولكنَّهم ناقضوا هذه الدعوى عندما اختاروا التحاكم إلى الطاغوت، والطاغوتُ هو الذي تعدَّى حَدَّه بحكمه بغير ما أنزل اللهُ ورسولُه، وقد أمرنا اللهُ تعالى بالكفرِ بالطاغوتِ، ومِنَ الطواغيتِ الكُهَّان الذين كانوا يحكمون بين العرب عندما يلجؤون إليهم فيما يثور بينهم من نزاع، وسببُ نزولِ الآية أنَّ نفراً مِنَ المسلمين نَفَرُوا إلى أحدِ طواغيتِ الجاهليةِ ليحكم بينهم، وهو أبو بردة الكاهن الأسلمي، رواه عكرمة عن ابن عباس [قال محقق «زاد المسير» [٢/ ٦٠] نقل الخبر الهيثميُّ في «المجمع» (٦/٧) وقال: رواه الطبراني، ورجاله رجالُ الصحيح، وذكره السيوطي في «الدرِّ المنثور» (٢/ ١٧٨) عن ابن أبي حاتم والطبري بسند صحيح].

وقوله تعالى في آخر الآية: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء:٦٠] أي: يضلُّهم بإعراضهم عن حكم الله وحكم رسولِهِ، وتحاكمهم إلى الطاغوت.

٢- صُدودُ المنافقين عما أنزله اللهُ تعالى على رسوله ﷺ :

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه إذا قيل للفريقِ السابقِ: تعالَوْا إلى ما أنزله اللهُ في كتابه من أحكامٍ، وإلى ما حكم به الرسولُ ﷺ رأيتَ هذا الفريقَ المنافقَ يَصُدُّون عنك صدوداً، ويعرضون عن حكم الله وحكمِ رسوله، وينطلقون إلى الطواغيت لتحكم بينهم، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء:٦١].

٣- تهديدُ اللهِ المنافقين بالقوارع التي يمكن أن تنزل وتحلّ بهم:

وقد عَجَّبَ اللهُ -تعالى وتقدَّس - من حالِ هؤلاءِ عندما تنزلُ بهم المصائبُ والقوارعُ بما قَدَّمت أيديهم، ومنها إعراضُهم عن حُكْمِ الله وحكم رسولِهِ والتجاؤُهم إلى الطواغيت، ثم تضطرُّهم المصائبُ إلى الرسولِ ﷺ فيأتونه معتذرين حالفين بالله بأنهم لم يريدوا إلا الإحسانَ والتوفيق بينَ شرعِ الله المنزلِ وما عليه الطواغيتُ من كفرٍ وضلال ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء:٦٢].

٤- الموقف الذي يجب أن يقفه الرسول ﷺ تجاه هذا الفريق الضال:

أخبر اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أنَّه يعلم ما في قلوبِ هؤلاءِ من الكفرِ والشركِ والضلالِ، وأمره أن يعْرض عنهم بعدم تعنيفهم، وأمره بأن يَعِظَهمْ بتذكيرهم بالله، وبوقوفهم بين يديه في يوم الدِّين، وأمره أن يقولَ لهم قولاً يَبْلُغُ كُنْهَ ما في قلوبهم، والبلاغَةُ: إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورةٍ مِن اللفظِ، وقيلَ: البلاغةُ حسن العبارةِ مع صحة المعنى [زاد المسير: ٢/ ١٢٢]. قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء:٦٣].

وقد كان رسولنا ﷺ يجْبَهُ المنافقين ويُوَبِّخهم، ويقول لهم قولاً يبلغُ الغايةَ في نفوسهم، وقد كان يتلو عليهم في مواجهتهم كتابَ الله كقوله تعالى: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾ [الأحزاب:٦٠-٦١].

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١- المؤمنُ بالله كافرٌ بالطاغوتِ، فمن ادَّعى الإيمان بالله وأصرَّ على التحاكم إلى الطاغوتِ فهذا ضالٌّ، وإن ادَّعى الإيمانَ، وأمره متعجَّبٌ منه، مستغرب.

٢- هؤلاء المنافقون الذين يدَّعون الإيمانَ، ويطلبون التحاكمَ إلى الطاغوتِ إذا طُلِبَ منهم التحاكمُ إلى كتابِ الله وسنّةِ رسوله ﷺ يرفضون ذلك.

٣- تهدَّد اللهُ هذا الفريقَ الضالَّ المنافقَ بأن يصيبهم اللهُ بالمصائب والجوائح في الدُّنيا، فيُضَطرون إلى الاعتذارِ إلى الرسولِ ﷺ في حياتِه، وإلى المؤمنين معه.

٤- أمَرَ اللهُ تعالى بالتجاوز عن أهل النفاقِ وعدم قتالهم، ولكن عليه أن يعظهم ويقول لهم قولاً يزلزلُ قلوبهم.

٥- أخبرنا اللهُ تعالى أنَّ أهل النفاقِ يدَّعُونَ أنَّهم يريدون التوفيقَ بين دينِ الله وما عليه طواغيتهم، وهذه ضلالةٌ بيِّنة، فدينُ الله دينٌ قويمٌ كامل لا يحتاج إلى غيره، ولا يجوز التوفيقُ بينه وبين الأديانِ والمذاهب الضالة، وقد أغرق بعضُ المسلمين في هذا النوع من الضلالِ،

جنـــــة السـنـــــة

فكُتِبت المؤلفات التي يراد بها أن تُقَرِّبَ بين الإسلامِ والفلسفةِ وعلم الكلام، واليوم تعقد المؤتمرات التي يراد لها أن تُقَرِّب بين الإسلام القائم على التوحيد، والنصرانية القائمة على الشرك، وقد أعلمنا ربُّنا كيف نحاورُ أهلَ الأديانِ المخالفةِ للإسلام إذا التقينا بهم، وذلك بدعوتنا لهم إلى الله وحده وإلى دينه وشرعِهِ ورسولِهِ.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني المتمم للعشرين من سورة النساء
لا يؤمن العباد حتى يُحَكِّموا الرسول ﷺ فيما شجر بينهم

أولاً: تقديم

أَوْجَبَ اللهُ -تعالى- على عبادِه أن يطيعوا الرسولَ الذي بعثه إليهم، كما أوجب اللهُ تعالى على العبادِ المرسلِ إليهم أن يُحَكِّموه فيما تنازعوا فيه، ثم القبولُ بحكمه من غير اعتراضٍ، وكما يجبُ على العبادِ طاعةُ الرسولِ والرضا بحكمه، فإنَّه يجب عليهم الالتزامُ بشرعِ الله ودينِه، ومَنْ التزم ذلك فإنَّ الله يعطيه الأجر العظيمَ، ويهديه الصراطَ المستقيم، وختمَ اللهُ الآيات بتعريفنا بأهلِ الصراط المستقيم الذين يدخلهم الله به جناتِ النعيم، وهم الأنبياءُ والصديقون والشهداءُ والصالحون وحسن أولئك رفيقاً.

ثانياً: آياتُ هذا النص من سورة النساء

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [النساء: ٦٤-٧٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- وجوبُ طاعة الرسول ﷺ:

كانَ كلُّ رسولٍ قبل نبينا محمد ﷺ يبعثُ إلى قومِهِ خاصةً، وكان يجبُ على كلِّ قومٍ طاعةُ رسولِهِمُ الذي أُرسلَ إليهم، وأرسلَ اللهُ رسولَنا محمداً ﷺ للناسِ كلِّهم، فيجبُ على الناس جميعاً من العربِ والفرسِ والرومِ والبربرِ والتركِ وغيرهم طاعتُه ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [النساء: ٦٤].

جنـــــة السـنـــــة

فإذا قُدِّرَ لبعض العباد أن يظلموا أنفسهم بكفرهم أو عصيانهم لله ورسوله، فالواجب عليهم أن يأتوا الرسولَ ﷺ، فيستغفروا اللهَ، ويطلبوا مِنَ الرسولِ أن يستغفر لهم، فإنَّهم يجدون اللهَ تواباً رحيماً ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء:٦٤].

وفي الآيةِ دلالةٌ واضحةٌ على أنَّ المنافقين والعصاةَ لا يظلمون ربَّهم بعصيانهم، وإنما يظلمون أنفسهم، وفي الآية دلالةٌ على انتفاع العصاةِ بدعاء الرسولِ ﷺ واستغفارِهِ في حياتِهِ، وكذلك ينتفعون بدعوة الصالحين الأحياءِ واستغفارهم.

٢- إقسامُ ربِّ العزةِ بنفسه على عدم إيمانِ الناسِ حتى يُحكِّموا الرسولَ فيما شجر بينهم:

أقْسَمَ ربُّ العزة -تبارك وتعالى- بنفسِهِ العظيمة المقدَّسةِ على أنَّ البشر لا يدخلون في الإيمانِ، ولا يكونونَ مؤمنينَ حتى يُحكِّموا الرسولَ ﷺ فيما وقعَ بينهم من منازعات، وليس ذلك فقط، بل يجبُ عليهم مع تحكيمه في الخصوماتِ أنْ يرضَوْا بحكمه، ولا يجدوا في نفوسهم حَرَجاً مما قضى، ويُسلِّموا تسليماً، وهذا لا يتحقق إلا إذا كان قبولهم بالحكم تامّاً وافياً من غير ممانعةٍ، ولا مدافعة، ولا منازعة ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء:٦٥].

وسبب نزولِ هذه الآية أنَّ رَجُلاً من الأنصارِ خاصمَ الزبيرَ بنَ العوام عند النبيِّ ﷺ في شِراجِ الحرَّة التي يَسْقُون بها النَّخلَ، فقال الأنصاريُّ للزبير: سَرِّحِ الماءَ يَمُرُّ، فأبى عليه، فقالَ الرسولُ ﷺ للزبير عندما اختصما إليه: «اسْقِ يا زُبَيْرُ، ثمَّ أرْسِلِ الماءَ إلى جارِكَ» فغضب الأنصاريُّ، فقال: أن كان ابنَ عَمَّتِكَ؟ فتَلَوَّنَ وجهُ الرسولِ ﷺ، ثم قالَ: «اسْقِ يا زُبَيْرُ، ثم احْبِسِ الماءَ حتى يرجِعَ إلى الجَدْر» فقال الزبير: إني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء:٦٥][البخاري: ٢٣٥٩. مسلم: ٢٣٥٧].

٣- الأمَّةُ الصالحة هي الأمة التي تقف عند حدودِ ما أمرَ اللهُ به ونهى عنه:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه لو كتب على عباده أن يقتلوا أنفسهم أو أن يخرجوا من ديارهم ما فعله منهم إلا القليلُ، واللهُ لم يكلفنا بما يكون شاقّاً وصَعْباً إلى هذه الدرجة التي لا يصلُ إلى مستواها إلا القليلُ، ثم أخبر سبحانه وتعالى أنَّ العبادَ لو استقاموا على أمرِ الله، ففعلوا ما يوعظون به بالقيام بالفرائضِ والمستحباتِ، وترك المحارمِ والمكروهاتِ، لكان خيراً

جنـــــة السـنـــــة

لهم، أي: مِنْ تركِ المأموراتِ وفعلِ المحرمات ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝٦٦﴾ أي: أشدُّ تصديقاً، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝٦٦﴾ [النساء:٦٦].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۝٦٧ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٦٨﴾ [النساء:٦٧-٦٨]. يُخبرنا -تبارك وتعالى- أنَّ العبادَ لو استقاموا على أمرِ الله لكان خيراً لهم وأشدَّ تثبيتاً، ولأعطاهم ربُّنا أجراً عظيماً، أي في الدنيا والآخرةِ، ويتمثل هذا الأجر في الآخرة في النعيم المقيم في جناتِ النعيم، ولهداهم اللهُ إليه صراطاً مستقيماً، والصراطُ المستقيمُ هو الطريقُ الحقُّ الذي يهدي إلى الله ويوصلُ إلى جنته، وهو الدينُ الحقُّ الذي أنزله الله على رسله وأنبيائه، وآخرهم محمد ﷺ الذي أنزلَ اللهُ عليه الصراطَ المستقيمَ، وبينه أعظم بيان وأتمه.

٤- أصحاب الصراط المستقيم:

أعلمنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنه من يُطِعِ اللهَ والرسولَ ﷺ فإنه يحشرُ في يوم القيامة في زمرةِ النبيين والصديقين والشهداءِ والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقاً ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النساء:٦٩].

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في هذه الآية أنَّ الذي يطيعُ اللهَ ورسولَهُ، وإنما تكون الطاعة في فعل ما أمر اللهُ ورسوله، وترك ما نهى كلٌّ منهما عنه، فهؤلاءِ المطيعون لله وللرسولِ سيكونون مع الذين أنعم الله عليهم، والذين أنعم الله عليهم همُ الأنبياءُ، الذين اختارهم لوحيه، والصديقون الذين بلغوا الغايةَ في الإيمان والعمل الصالح، ولذلك قيل في تعريفهم: الكثيرو الصدق، أو المبالغون في الصدق. والشهداءُ الذين سقطوا صرعى وهم يقاتلون في سبيل الله، والصالحونَ: الذين صلحت سريرتُهم وعلانيتهُم، وقوله: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النساء:٦٩] ثناءٌ من ربِّ العزة على هؤلاء الرفقاء في جناتِ النعيم في يوم الدين، نسألُ اللهَ -تعالى- أنْ يجعلنا منهم.

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ دخولَ الجنةِ في زمرةِ هؤلاء الأخيار إنما هو بفضلِ الله ورحمته، وليس بالعملِ، فالإيمانُ والعملُ ليسا ثمناً للجنة ﴿ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ۝٧٠﴾ [النساء:٧٠] وقوله: ﴿عَلِيمًا ۝٧٠﴾ أي: عليم بمن يستحقُّ الهداية والتوفيق.

جنـــة السـنــة

وقد أخبرتنا عائشة رضي الله عنها وعن أبيها أنّ قوله تعالى: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ [النساء:٦٩] كانت آخر ما نطق به رسولنا ﷺ. عند نزع روحِهِ، قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولَ: «ما من نبيٍّ يمْرَضُ إلاّ خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيا والآخِرَةِ». وكان في شكواهُ الذي قُبِضَ فيه، أخذته بُحَّةٌ شديدةٌ، فسمعته يقولُ: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ [النساء:٦٩] فعلمتُ أنَّه. خُيِّرَ [البخاري: ٤٥٨٦. ومسلم: ٢٤٤٤].

وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ أنَّ المَرْءَ في يوم القيامةِ مع من أحبَّ، فإن أحبَّ اللهَ ورسولَه والذين آمنوا فهو في الجنَّة، وإنْ أحبَّ الكافرين والظلمة والفاسقين فهو في النار، عن أنس أنَّ رجلاً من أهل البادية أتى النبيَّ ﷺ ، فقال: يا رسولَ الله متى الساعةُ قائمةٌ؟ قال: «وَيْلَكَ، وما أعْدَدْتَ لها؟» قال: ما أعددتُ لها إلا أني أُحِبُّ اللهَ ورسولَه، قال: «أنْتَ مع من أحْبَبْتَ» فقلنا: ونحن كذلك، قال: «نعم» ففرحنا ذلك اليوم فرحاً شديداً [البخاري: ٦١٦٧. ومسلم: ٢٦٣٩].

وقال أنسٌ بعد روايته للحديث: «فأنا أُحِبُّ النبيَّ ﷺ ، وأبا بكرٍ وعمرَ، وأرجو أن أكون معهم بِحُبي إياهُمْ، وإنْ لم أعمل بمثل أعمالهم» [البخاري: ٣٦٨٨. ومسلم: ٢٦٣٩]. وأنا أقول كما قال أنس رحمه الله: وأنا أُحبُّ الرسولَ ﷺ وأصحابَه، وفي مقدمتهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وأسأل اللهَ أن أكونَ معهم، فالمرءُ مع مَنْ أحبَّ.

ومع أن الأنبياءَ والصديقين والشهداءَ والصالحين جميعاً في جناتِ النعيم، إلا أنهم متفاوتون في درجاتهم في الجنَّة، عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «إنَّ أهْلَ الجنَّة يتراءَوْنَ أهْلَ الغُرَفِ من فَوْقِهِمْ، كما يتراءَوْنَ الكوكَبَ الدُّرِّيَّ الغابِرَ في الأُفُقِ من المَشْرِقِ أو المَغْرِبِ، لتفاضُلِ ما بَيْنَهُمْ». قالوا: يا رسولَ الله تلكَ منازلُ الأنبياءِ لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى، والذي نفْسِي بيدِهِ، رجالٌ آمنُوا بالله، وصدَّقُوا المُرْسَلينَ» [البخاري: ٣٢٥٥. ومسلم: ٢٨٣١].

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- كلُّ رسولٍ أرسله اللهُ تعالى فإنه يجب على من أرسل إليهم طاعتُهُ.

٢- يجبُ على الذين عَصَوُا اللهَ وعَصَوُا الرسولَ ﷺ أن يبادروا إلى التوبةِ الصادقةِ.

٣- لا حرجَ على العصاة إذا هم تابوا أن يلجؤوا إلى الرسولِ ﷺ ليستغفرَ لهم إن كان حيّاً، ويلجؤوا إلى الأخيارِ والصالحينَ الأحياء ليستغفروا لهم.

جنـــــة السـنة

٤- التوبةُ الصادقةُ يقبلها اللهُ من عباده، واللهُ تبارك وتعالى توابٌ رحيم.

٥- لا يؤمن العبادُ إلا إذا حَكَّموا الرسولَ ﷺ فيما ثارَ بينهم من نزاعاتٍ وخصومات، واستسلموا لحكمِ الله عزَّ جل من غير حرج.

٦- الفئة الخيِّرةُ الصالحةُ التي تستجيب لأمر الله تعالى، وتنتهي عن نهيه، وتلتزم بما أراده اللهُ تعالى منها، وهؤلاءِ هم الأخيارُ الذين يرضى الله عنهم ويدخلهم جنته.

٧- أَصْحابُ الصراطِ المستقيمِ الذين هداهم اللهُ إلى دينه، ويدخِلُهُمْ يومَ القيامة جنته هم: الأنبياءُ، والصديقون، والشهداءُ، والصالحون.

٨- الناسُ يدخلون الجنَّةَ بفضلِ الله ورحمته، فالجنَّةُ أعظم من أن تكون ثمناً لعملٍ مهما عَظُمَ، والإيمانُ والعملُ الصالحُ سببٌ لدخولِ الجنَّة، وليس ثمناً لها.

٩- الله -تبارك وتعالى- عالم بالذي يستحق الهدايةَ والتوفيق إلى الصراط المستقيم.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الحادي والعشرون من سورة النساء

﴿ ۞ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾

أولاً: تقديم

آياتُ هذا النص تدور حول قضيةٍ واحدة، هي القتالُ في سبيلِ الله، وهذه الآياتُ تطالب الأُمَّةَ الإسلامية بالحذر من أعدائها، وإعدادِ القوة التي تواجه بها خصومها، وتطالبُ المجاهدين بالنفير الجزئي أو الكلي لمواجهة الأعداءِ، وتدلُّنا على مَكْمَنِ الضعفِ في الأُمَّةِ الإسلامية، والمتمثلِ في ضعافِ الإيمانِ، الذين لم تَخْلُصْ نفوسُهُمْ للقتالِ في سبيل الله، فهم يتخلفون عن النفيرِ للقتالِ ويفرحهم عدمُ إصابتهم في المواقع التي يصابُ فيها المسلمون، ويحزنهم تخلُّفُهم عن المواقعِ التي ينتصر فيها المسلمون. وتأمر الآياتُ المؤمنين بالقتال في سبيل الله، وفي سبيلِ تخليصِ المستضعفين مِنَ الجبارين الذين يذلُّونهم، ويأمرنا اللهُ في الختام بمقاتلة أولياء الطاغوت وعلى رأسهم الطاغوتُ الأكبر، وهو الشيطان.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [النساء:٧١-٧٦].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آياتِ هذا النص من القرآن

١- أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنين أن يأخذوا حِذْرَهُمْ من عدوهم:

نادى اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنين آمراً إياهم أن يأخذوا حذرهم مِنْ عَدُوِّهم، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ ﴾ [النساء:٧١] وأخذُ

جنـــــة السـنة

الحِذْرِ يكونُ باليقظةِ، وإعدادِ العدّةِ العسكرية، وتدريبِ المقاتلين، ثمَّ أمَرَهم بالنفيرِ، ويكونُ بالخروجِ لمقاتلةِ الأعداء، والنفيرُ له وجهان، الأول: أن يكون في جماعاتٍ متواليةٍ، وسرايا متعددةٍ، سريةً بعد سريةٍ، وهذا معنى (ثُباتٍ)، فثُبات جمع ثبةٍ، أي: جماعات.

والوجه الثاني: أن يخرج المسلمون في جيش واحدٍ كبير، وهو المراد بقوله: ﴿أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾ [النساء:٧١].

وقد كان الرسول ﷺ يخرجُ مع بعضِ أصحابه لمقاتلةِ الأعداءِ كما فعل في غزوة بدر، أو يرسل بعضَ المجاهدين في مجموعات وهي السرايا، وكان في بعض الأحيان يخرج في المؤمنين في جيش ضخم كبير، كخروجه في غزوةِ أُحُدٍ والخندق وفتح مكة.

٢- ذمّ اللهُ الذين يتباطؤون عن الخروجِ للقتال في سبيل الله تعالى:

أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- عن وجود طائفة من المقاتلين مع الرسول ﷺ كانوا يتباطؤون في الخروج إلى الجهادِ، أي: يتخلفون أو يتثاقلون عن الخروجِ، وهؤلاءِ هم المنافقون، أو هم طائفة كان إيمانهم ضعيفاً في ذلك الوقت، وقد رجع عبدُ الله بن أبيّ قبيل غزوة أحد بثلث الجيش الخارجِ مع رسولِ الله ﷺ، قال تعالى في هذا الفريق: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [النساء:٧٢].

وقد أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- عن هذا الفريق أنّه كان إذا تخلّفَ عن الغزو مع الغزاةِ، فأصابتِ المؤمنين مصيبةٌ في تلك الغزوةِ كما وقع في معركة أُحد، أو سَرِيَّةِ بئر معونة، قال: قد أنعم اللهُ عليَّ لعدم شهوده تلك الغزوة أو تلك السرية، ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾﴾ [النساء:٧٢] وإذا خرج المؤمنون للحرب والقتالِ، ففتح اللهُ عليهم، ورزقهم الغنائم تمنى ذاكَ الفريق لو كان مع المقاتلين لينالَ من الغنائم التي غنموها وكسِبُوها ﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [النساء:٧٣].

وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ ﴾ [النساء:٧٣] جملة معترضة بين القول، وهو ﴿لَيَقُولَنَّ ﴾، وبين مقوله، وهو ﴿يَٰلَيْتَنِى﴾. والمرادُ بالجملة المعترضةِ إظهارُ قبح فعلهم وشناعَتِهِ، فالقُعودُ عندهم هو للهروبِ من تكاليف الجهادِ، والخروجُ للحصولِ على الغنيمةِ، فهم يوادُّون المؤمنين في الظاهِرِ، أما أن يقاتلوا طاعةً لله، فهذا ليس له مكان في قلوبهم.

جنـــــة السـنـــــة

٣- أوجب اللهُ القتالَ على الذين يشْرُون الحياةَ الدنيا بالآخرة:

أمَرَ الله -تبارك وتعالى- المؤمنين الذين يشرون الحياةَ الدنيا بالآخرة، ومعنى يشرون، أي: يبيعون الحياةَ الدنيا بالآخرة، أمرهم بالقتال في سبيل الله، أي: في سبيل إعلاء دينه، ﴿ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [النساء:٧٤].

والقتالُ في الإسلام لا يكون إلا في سبيل الله، ولا يكونُ لملكٍ أو عصبيةٍ، أو للحصولِ على الأمجادِ والغنائمِ، أو لتسودَ أمةٌ على أمةٍ، وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أنَّ مَنْ قاتلَ لتكون كلمةُ الله هي العليا فهو سبيل الله. وقد وَعَدَ اللهُ -تبارك وتعالى- المقاتلين في سبيل الله إن هم خَرُّوا صرعى في ميدان الحرب والقتال أو غلبوا خصومهم وقهروهم، فسوف يؤتيهم اللهُ -تعالى- في الحالين أجراً عظيماً، قال تعالى: ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾ [النساء:٧٤].

وقد جاءَت أحاديث كثيرةٌ صحيحةٌ تتحدث عن أجْرِ الغزاة المجاهدين في سبيل الله، منها: حديثُ أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «تضمَّنَ اللهُ لمن خَرَجَ في سَبيله، لا يُخْرِجُهُ إلا جهاداً في سَبيلي، وإيماناً بي، وتصديقاً برُسُلي، فهو عليَّ ضامنٌ أنْ أدْخلَهُ الجَنَّةَ، أو أرْجِعَهُ إلى مسْكَنه الذي خَرَجَ منهُ، نائِلاً ما نالَ من أجرٍ أو غنيمة، والذي نَفْسُ محمدٍ بيده ما من كَلْمٍ يُكْلَمُ في سبيلِ الله، إلا جاءَ يومَ القيامة كهَيْئَته حينَ كُلِمَ، لونُهُ لَوْنُ دَم، وريحُهُ مِسْكٌ، والذي نفسُ محمدٍ بيده! لولا أن يشُقَّ على المسلمينَ، ما قَعَدْتُ خلافَ سَرِيَّةٍ تغزُو في سَبيلِ الله أبداً، ولكنْ لا أجدُ سَعَةً فأحْمِلَهُمْ، ولا يَجِدُونَ سَعَةً، ويَشُقُّ عليهِمْ أنْ يتَخَلَّفُوا عَنِّي، والذي نفسُ محمدٍ بيدِه! لوَدِدْتُ أنّي أغزو في سبيلِ الله فأُقْتَلُ، ثمَّ أغْزُو فأُقْتَلُ، ثم أغْزُوا فأُقْتَلُ» [أخرجه البخاري: ٣٦، ٥٥٣٣، ٢٧٨٧، ٢٧٩٧، ٧٢٢٦. ومسلم: ١٨٧٦ واللفظ لمسلم].

٤- حثُّ الله -تعالى- المؤمنين على القتالِ لتخليصِ المستضعفين:

خاطب اللهُ -عزَّ وجلَّ- المؤمنين منكراً عليهم عَدَمَ قتالهم في سبيلِ الله وفي سبيل نصرة المستضعفين، والمستضعفون هم المؤمنون الذين استطال عليهم الكفارُ في مكَّةَ، فعذَّبوهم وأهانوهم، وكانوا مِنَ الرجالِ والنساءِ والولدان، ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ [النساء:٧٥] وكان هؤلاءِ المستضعفون إذا مسَّهم عذابُ الظالمين مِنْ أهلِ مكة ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء:٧٥] أخبرنا ربنا -تبارك وتعالى- أنهم كانوا يَدْعون ربَّهم أن يخرجهم مِنْ

جنـــــة الســـــنة

مكة الظالم أهلها، فنسبوا الظلم إلى أهل مكة، لا إلى مكة، وطلبوا مِنَ الله أن يجعل لهم وليّاً يلي أمورهم، وناصراً يحميهم، ويذود عنهم.

وقد كان رسولنا ﷺ وهو في المدينة يدعو للمستضعفين في مكَّةَ، بعد أن يرفع رأسه من الركوع قائلاً: سمع اللهُ لمن حمده: «اللهم أنجِ الوليدَ بنَ الوليدِ، وسَلَمَةَ بنَ هشام، وعياشَ بنَ أبي ربيعةَ، والمستضعفين مِنَ المؤمنين، اللهمَّ اشْدُدْ وطْأَتَكَ على مُضَرَ، واجعلها عليهم سنينَ كَسِني يوسف» [البخاري: ٨٠٤. ومسلم: ٦٧٥].

وقد حدَّث ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما قال: «كنتُ أنا وأُمِّي مِنَ المستضعفين» [البخاري: ٤٥٨٧].

وقد خَرَجَ طائفةٌ من المستضعفين من مكةَ قبل غزوةِ الفتحِ، وكشف اللهُ الغُمَّةَ عن بقيةِ المستضعفين بعد فتحِ مكةَ، وجعل لهم وليّاً، وجعل لهم نصيراً.

٥- الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ المؤمنين يقاتلون في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، والطاغوتُ كلُّ معبودٍ عُبِدَ من دون الله، ومن الطواغيتِ التي عبدها البشرُ قديماً الأصنامُ وفرعونُ ونمرودُ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء:٧٦] وأعظمُ الطواغيتِ الشيطانُ، ولذلك أمرنا اللهُ -تعالى- بقتالِ أوليائه، وأخبرنا بأنَّ كيدَ الشيطانِ كان ضعيفاً، لتجريئنا على مقاتلة أوليائه ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء:٧٦].

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا أمعنَّا النظر في آياتِ هذا النصِّ نجدها تدلُّ على ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١- يجب على المسلمين أن يأخذوا حِذْرَهُم من أعدائِهم بإعداد ما يستطيعون مِنَ العدَّةِ الحربيةِ، وتدريب الجند، وتحسس أخبارِ أعدائهم.

٢- إعداد الأمةِ القوةَ الحربية بأقصى ما تستطيعه لا ينافي التوكل على الله والاعتمادَ عليه.

٣- يجبُ إنفاذُ الجيوشِ لمواجهة الأعداءِ، ويكون النفير بحسب الحاجة قلةً وكثرة.

٤- تعريفنا بحال المنافقين وضعافِ الإيمان الذين لا يهمهم إلا أنفسهم وما يحصلون عليه من المغنم، ولا يقاتلون لإعلاءِ كلمة الله.

٥ - أَمَرَ اللهُ المؤمنين الذين يَشْرونَ الحياةَ الدنيا بالآخرة بالقتالِ في سبيلِ الله.

٦ - المقاتلُ في سبيلِ الله بين حالين: إمَّا أن يسقط في الميدان شهيداً، وإمَّا أن ينتصرَ على أعدائِه، وليس في قاموس هؤلاء الفرارُ من الميدان.

٧- المؤمنُ يسعى لتحقيق الأهداف التي أمر اللهُ بتحقيقها، ومِنْ ذلك أن يقاتلَ في سبيل تخليصِ المستضعفين من أعدائهم الذين يسومونهم سوءَ العذاب.

٨- كلُّ الذين يعارضون الشريعةَ الإسلامية فإنَّهم أولياء الطاغوت، وعلى المؤمنين أن يقاتلوا أولياءَ الطاغوتِ على اختلاف مشاربهم.

٩ - الطاغوتُ الأكبرُ الشيطان، ومع ما يحوزه الشيطان من قوى، فإنَّ كيده بجانب قُوَّةِ الله وقدرته ضعيفٌ، فلا يجوز للمؤمنين أن يرهبوا كيده، ويذلوا في مواجهة أوليائه.

جنـــــة الســــــنة

النص القرآني الثاني والعشرون من سورة النساء

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ ﴾

أولاً: تقديم

بيَّنَ اللهُ -تعالى- لنا في آيات هذا النص أن الموت له أجلٌ محدَّدٌ، فالنكوصُ في ميدانِ القتال لا ينجي من الموت، وخوضُ الحروبِ لا يقصِّرُ الأعمار، والقعودُ عن القتالِ مِنْ أجلِ الدنيا الفانية متاعٌ قليلٌ في جنب متاعِ الآخرة الدائم الباقي.

وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن الموتَ يُدْرك العبادَ، ولو اعتصموا بأعظم الحصون والقلاع، وأخبرنا أن النِّعَم والمصائبَ كلَّها من عند الله تعالى، وقد ضلَّ الذين زعموا أنَّ المصائبَ التي أصابتهم كانت بسبب الرسولِ ﷺ، ومع أنَّ النعم والمصائب كلّها من عند الله، أي: بقدرِهِ ومشيئته، فإنَّ المصائب التي تصيب العبد تكون بسبب خطاياه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [النساء:٧٧-٧٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تعجيب الله رسولَهُ ﷺ مِنْ حالِ الذين نكصوا عن الجهاد بعد أنْ كانوا يطالبون به:

عَجَّبَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسوله ﷺ مِن الذين طُلب منهم أن يكُفُّوا أيديهم عن القتالِ في مكة، وخلال فترةٍ وجيزةٍ بعد الهجرة، وأُمروا بأنْ يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فلما كُتِبَ عليهم القتالُ إذا فريقٌ من هؤلاء يخافونَ الكفارَ الذين طُلب منهم قِتَالُهُمْ، كخوفهم

من الله أو أشدَّ من خشيتهم له، وقال هذا الفريق الذي شقَّ عليه القتالُ مخاطباً ربَّه تبارك وتعالى: يا ربَّنا لم كتبت علينا القتال؟ هلاَّ أخَّرْتَ كتابته علينا مدةً من الزمانِ، أي حتى يكثر عددُنا، ونحوز القوةَ التي تمكننا من التغلُّبِ على عدوِّنا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء:٧٧].

وقد أجابَ اللهُ تعالى على سؤالِ هؤلاء بقوله: ﴿قُلْ مَتَٰعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء:٧٧].

فقال الله تعالى لهم: الدُّنيا في الآخرة عَرَضٌ زائلٌ، ومتاعٌ قليلٌ، يتمتَّعُ بها، ثم تزولُ، قال رسولُنا ﷺ: «والله ما الدُّنْيا في الآخرةِ إلاّ مثْلَ ما يجْعَلُ أحَدُكم أصبعَه هذه (وأشار يحيى إلى السبابة)، في اليَمِّ، فلْيَنْظُرْ بم تَرْجِعُ؟» [مسلم: ٢٨٥٨].

وقال الحسن: «ما الدنيا كلُّها أوَّلُها وآخِرُها إلا كرجلٍ نام نَوْمَةً، فرأى في منامه بعض ما يحبُّ، ثم انتبه» [ابن كثير: ٢/ ٣٢٦]. وقال الشاعر:

فـإنْ تُعْجِـبُ الـدُّنيا رجـالاً فإنَّـهـا ... متـاعٌ قليـلٌ والــزوالُ قريـبُ

وأخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّ الآخرةَ خيرٌ للمتقين، الذين يدخلهم اللهُ تعالى جناتِ النعيمِ، فإنها جناتٌ لا تزولُ ولا تحولُ، أُكلها دائمٌ وظلُّها، وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى أنَّه يفي عبادَه أُجورَهُم، ولا يُنْقِصُ أحداً منهم من أجرِهِ شيئاً حتى لو كان فَتيلاً، والفَتيلُ الأمر اليسير الحقير، وهو ما في شقِّ النواة طُولاً.

٢- الموتُ حَتْمٌ لازمٌ لا ينجو منهُ أحدٌ:

أخبرنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنَّ الموتَ حتمٌ لازمٌ للعبادِ، أينما كانوا وحيثما حلُّوا، فالقلاعُ والحصونُ قد تقي من العدوِّ الإنسيِّ، أما ملائكة الموتِ فإنهم يصلونَ إليك، ولو كُنْتَ في أقْوى الحصونِ ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨]. والبروجُ المشيدة: القلاعُ والحصونُ، التي يبنيها البشر فوق ظهر الأرض، والمشيدة: المبنية بالشيد وهو الجص.

وقد أطالَ القرآنُ في ذكر الموتِ وأنه لا ينجو منه أحد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر:٣٠]، وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥]، وقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا

جنــــة الســـــنة

فَانٍ ﴿٢٦﴾ [الرحمن:٢٦]، وقوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنبياء:٣٤].

وإدراكُ حقيقةِ الموتِ جعلت المجاهدين مِنَ الصحابةِ فمن بعدهم يهجمون على الموتِ غير هيّابين، ولا وجلين، وكان شعارُهم: اطلبِ الموت توهْب لكَ الحياةُ.

وعندما أدركت الأمةُ الإسلاميةُ حقيقةَ الموتِ أصبحتْ أمَّةً مقاتلةً من الطراز الأول، يهزِم الجمعُ القليلُ منها الجيوش الجرارة، وقد تفكَّر الناسُ في الموتِ وحقيقتِهِ، فاستفادوا منه عِبَراً، وسطَّروا فيه الكتبَ والأشعارَ في كل عصرٍ ومصرٍ.

ومن الذين تفكروا في الموتِ وغوائِله، وما يفعلُهُ بالملوكِ والطواغيتِ، عديُّ بنُ زيدٍ العبادي، فإنه رأى الموت يُفني الأجساد، ويخرِّب البيوت، ويودي بالناس إلى القبور وفي ذلك يقول:

أَيُّهَــا الشَّــامِتُ المُعَــيِّرُ بالدَّهْـــ ـــرِ أأنْــتَ المُــبَرَّأُ المَوْفــورُ
أمْ لَـدَيْكَ العهـدُ الوثيـقُ مِـنَ الأيـ ـامِ بَـلْ أنـتَ جاهـلٌ مغـرورُ
مَـنْ رأيـتَ المنـونَ خَلَّـدْنَ أمْ مَـنْ ذا عَلَيْـهِ مِـنْ أنْ يُضَـامَ خَفـيرُ
أيْـنَ كِسْـرَى كِسْـرَى الملـوكِ أنُـوشِرْ وَانَ أمْ أيْـنَ قَبْلَـهُ سـابُورُ
وبنـو الأصْـفَرِ الكـرامِ ملـوكُ الـ ـرومِ لَمْ يبـقَ مـنهمُ مـذكورُ
وأخـو الحَضْـرِ إذ بنـاه وإذ دِجْـ ـلَةُ تُجْبَـى إلَيْـهِ والخـابُورُ
شـادهُ مرمـراً وجلَّلَـهُ كِلْـ ـساً فِللطَّـيْرِ في ذراهُ وكـورُ
لم يَهَبْـهُ ريـبُ المنـونِ فبـادَ الْـ ـمُلكُ عنـه فبابُـه مهجـورُ
وتَـذَكَّرْ ربَّ الخَوَرْنَـقِ إذ أشْـ ـرَفَ يَوْمـاً ولِلْهُـدى تَفْكـيرُ
سَرَّه مالُـهُ وكَثْـرةُ مـا يَمْـ ـلِكُ والبحـرُ مُعْرِضـاً والسَّـديرُ
فـارعوى قَلْبُـهُ وقـالَ فـما غبـ ـطَةُ حَـيٍّ إلى المماتِ يَصـيرُ
ثـم أضْـحَوا كـأنَّهم وَرَقٌ جَفْـ ـفَ فَـألْوتْ بِـهِ الصَّـبا والـدَّبورُ
ثـم بعـدَ الفـلاحِ والمُلْـكِ والإمَّـ ـةِ وارتْهـمُ هُنـاكَ القُبُـورُ

جنـــة الســـــنة

وهذا الذي ذكره القرآن فيه ردٌّ على الذين يخافون المواجهة في ميدان القتال، فقد أخبرهم بأنَّ الموت له أجلٌ محدودٌ، لا يعجلُهُ الهربُ مِنَ الحربِ، ولا القتالُ، فقد تطول أعمارُ المقاتلين، وتَقْصُرُ أعمارُ النائمين في بيوتهم.

٣- النِّعَمُ والمصائبُ كلُّها مِنْ عندِ اللهِ:

ذمَّ اللهُ -تعالى- أقواماً من المنافقينَ واليهودِ والمشركينَ إذا أصابتهم حَسَنَةٌ، وهي النعمةُ، قالوا: هذه مِنْ عندِ الله، وإن أصابتهم سيئةٌ، وهي النقمةُ قالوا: هذه من عندك، فأمر اللهُ رسولَهُ ﷺ أن يردَّ على هؤلاء، ويقول لهم: النِّعَمُ والمصائبُ كلُّها مِنْ عند الله، أي: بقضاءِ الله وقدرِهِ، ثم ذمَّ اللهُ -تعالى- هذه الطائفةَ التي قالتْ هذا القولَ، ووصفهم تعالى بالجهل، وأخبر تعالى أنَّهم لا يكادون يفقهونَ حديثاً ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ [النساء:٧٨].

واللهُ -تبارك وتعالى- قرَّرَ في هذه الآيةِ قاعدةً كُلِّية عظيمة، وهي أنَّ جميعَ الأمور بيد الله تبارك وتعالى وبإرادتِهِ، الخيرُ والشرُّ كلُّه من عندِ الله في الدنيا والآخرة، فالخيراتُ والنعمُ من الخلقِ والإيجادِ، والطعامِ والشراب، والصحة والعافية، والنصر والغنيمة، والسلامة والأمن، وراحةِ النفس، وهدوءِ البال، والاستقامة على دين الله، والسلامة في الآخرة، والنَّجاة من النار، ودخول الجنة كلُّها من الله تعالى.

وكذلك المصائبُ والنقمُ، والبلايا والرزايا، كلُّها من الله، أي: بقَدَرِ الله، ومن ذلك الفقرُ والجوعُ، والمرضُ والهزيمةُ، وذهابُ الأموالِ، وموتُ الأولادِ والأزواجِ، ونحو ذلك كلُّها من الله تعالى، لا يشذُّ عن ذلك شيءٌ.

وهؤلاء الذين نسبوا النقم إلى الرسولِ ﷺ ضلُّوا ضلالاً بعيداً، فقد جعل الله رُسله جميعاً مباركين، ورسولُنا ﷺ أعظمهم بركةً، فهو مباركٌ في نفسه، ومباركٌ في فِعْلِهِ، كان يبارك الطعامَ والشراب، فيكفي القليلُ العددَ الكثير، وحلّ بالمدينة فباركها، وبارك مسجدَها، فالصلاةُ فيه بألفِ صلاةٍ، وكان يدعو بالنصرِ فيستجابُ له، ويدعو بالمطر فينهمر غزيراً كثيراً، وفي الآية ردٌّ على القدرية الذين يزعمونَ أنَّ السيئات من العباد، لا مِنْ ربِّ العباد، وهؤلاء أثبتوا خالقين من دون الله تعالى.

٤- ما أصاب العبدَ من النعم فمن الله تعالى وما أصابَهُ من النقم فبسبب معاصيه:

أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّه ما أصاب الواحدَ منا من حسنة، أي: مِنْ نعمة، فهو مِنْ ربِّنا تبارك وتعالى، وما أصابنا مِنْ نقم وبلايا فهو بسبب أنفسنا، قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ﴾ [النساء:٧٩].

جنـــــة السـنــــة

وهذه لا تخالفُ الآيةَ السابقةَ، فالنقمُ قدَّرها اللهُ على العباد بسبب ذنوبِهِمْ، وإصابةُ العبدِ المؤمن بالمصائبِ يُكَفِّرُ اللهُ بها الزلاَّت، روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد وأبي هريرة أنَّهما سمعا رسولَ الله ﷺ يقولُ: «ما يصيبُ المؤمنَ مِن وَصَبٍ، ولا نَصَبٍ، ولا سَقَمٍ، ولا حَزَنٍ، حتى الهَمَّ يُهَمُّهُ إلا كفَّرَ به مِنْ سيئاته» [مسلم: ٢٥٧٣].

٥- أرْسلَ اللهُ محمداً ﷺ رسولاً، وشهدَ له بذلك:

خَتَمَ الله تعالى هذا النصَّ بقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ٧٩﴾ [النساء:٧٩] أخبرنا ربُّنا عز وجل أنه أرْسَلَ إلينا عَبْدَهُ ورسولَه محمداً ﷺ مبلغاً عن ربِّنا ما يريده منَّا من شرائعَ، فأخبرنا بمحابِّه ومكروهاتِه، وهو شاهدٌ على أنه عبدُهُ ورسولُهُ، وقد أظهر هذه الشهادةَ بألوانٍ كثيرةٍ تدُلُّ على ذلك، فمنها نصْرُهُ وتأييدُهُ في حياته، ونصرةُ دينه وأتباعِهِ بعد مماته، وعقابُ أعدائه ومَنْ أراده بسوء، وفضحهم، وآتى أتباعه الحجةَ والبرهانَ، وأظهر لهم الآياتِ الدالةَ على صدقه دائماً وأبداً.

رابعاً: ما تهدي إليه هذه الآيات من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي:

١- مَنَعَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ وصحابته في مكة قبل الهجرة مِنَ القتالِ، وأمرهم في تلك الفترة بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وفي ذلك حِكَمٌ كثيرةٌ، منها قلةُ عددهم وكثرةُ عدوهم، ومنها اختلاطُ الفريقين حتى في المنزلِ الواحدِ، فلا يقرُّ للناسِ قرارٌ في المجتمع المكي لو كتب القتال على المؤمنين.

٢- تعجيبُ الله رسولَهُ ﷺ مِنْ حال بعض المؤمنين الذي طلبوا مِنَ الرسول ﷺ أن يأذن لهم بالقتال في مكة، فلما فُرض عليهم القتالُ في المدينة فزع فريقٌ منهم وجزع.

٣- الذين فزعوا وجزعوا عندما فُرِضَ عليهم القتالُ لم يدركوا حقيقةَ الدنيا بالنسبة للآخرة، فالدنيا متاع قليلٌ، والآخرةُ خيرٌ للذين يتقون اللهَ تعالى.

٤- الموت له أجلٌ محدَّدٌ، فإذا حضرَ الأجلُ جاءَ الموت، ولو كان الإنسان متحصناً في أقوى القلاعِ والحصون، وكم مِنْ أقوام طالت أعمارهم، وقد قضوا أوقاتهم في الحرب والقتال، وآخرون قلَّت أعمارهم وقد عاشوها مرفهين في النعيم.

٥- إدراكُ الحقيقةِ السابقةِ جعل الأمةَ المسلمة أمةً مقاتلة، تطلب الموت، فتوهب لها الحياةُ.

٦- ظنَّ بعضُ الجاهلين أنَّ النِّعَمَ من عندِ الله والنقمَ من عندِ الرسول ﷺ ، فردَّ الله عليهم، وأكذبهم، وأخبر أنَّ النعم والنقم كلها من عند الله.

٧- مع أنَّ النعم والنقم كلَّها بقضاء الله وقدره، لا يشذُّ عن ذلك شيءٌ، إلا أنَّ المصائبَ قدَّرها اللهُ على العباد بسبب ذنوبهم ومعاصيهم.

٨- محمد ﷺ مرسلٌ من عند الله ليبلغنا عن الله دينَه وشرعَهُ، وقد شهد الله لرسوله ﷺ بالصدقِ في حياتِه وبعد مماته، وذلك بتأييده وتأييد أتباعه.

جنـــــة الســــــنة

النص القرآني الثالث والعشرون من سورة النساء

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾

أولاً: تقديم

يجبُ على كلِّ مؤمنٍ أن يطيعَ الرسولَ ﷺ، ومن يُطِع الرسولَ ﷺ فقد أطاعَ الله، وقد ذمَّ اللهُ المنافقين الذين يعلنون بينَ يدي الرسولِ ﷺ طاعتهُم له، فإذا خرجُوا من عندِهِ أعمل قادتُهُمْ وأصحابُ الرأي فيهم عقولهم في التخطيطِ لعصيانِهِ، ومخالفةِ أمره، فهؤلاءِ عِلْمُ الله محيط بهم، وهو يكتب ما يخططون له، وسيحاسبهم على جرمهم الذي ارتكبوه، وعلى الرسول ﷺ والمؤمنين معه أن يتوكلوا على الله، ويتخذوه ناصراً ومعيناً، وقد أمر اللهُ المؤمنين في المجتمع الإسلامي بعدم إذاعةِ الأخبارِ ذاتِ الأهميةِ التي تتعلق بالأمن أو الخوفِ، وعليهم أن يردُّوها إلى القادةِ وأولي الأمر، وسيعلم أصحابُ العلم والرأي حقيقةَ هذه الأخبار على الوجهِ الصحيحِ، وسيطلعون الأمة على حقيقة ما وقع منها

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء: ٨٠-٨٣].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الذي يطيعُ الرسولَ ﷺ فقد أطاعَ اللهَ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠] ذلك أنَّ الرسولَ ﷺ لا يأمر إلا بما أمر اللهُ به، ولا ينهى إلا عما نهى الله عنه، وفي إخبار ربِّنا لنا بأن طاعة الرسولِ ﷺ طاعةٌ لله بيانٌ لعظم مكانة الرسولِ ﷺ وعلوِّ شأنه، وارتفاع منزلته.

جنـــــة السـنـــــة

٢- الذين تولَّوْا عن طاعةِ الرسولِ ﷺ اللهُ حسيبُهُم:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ مَنْ تولَّى عن طاعةِ الرسولِ ﷺ فأمرُهُ إلى الله، هو الذي يُحصِي عليه عمله، وهو الذي يحاسبُهُ ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء:٨٠] واللهُ -تبارك وتعالى- لم يُرْسِلْ رسولَهُ حفيظاً يحاسبُ الناس على أعمالهم، ويعاقبهم عليها، قال الزجاج: «لستَ حفيظاً عليهم تعْلَمُ ما يغيبُ عنك مِنْ شأْنهم، وهذا ونظائرُهُ في كتابِ الله من أبْيَنِ آياتِ النبيِّ ﷺ، لأنَّهم ما كانوا يخفون عنه أمراً إلا أظهره اللهُ عليه» [معاني القرآن: ٢/ ٨١].

٣- تبْييتُ المنافقين عصيانَ الرسول ﷺ :

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن موقف المنافقين مِنَ الرسولِ ﷺ، فإنَّهم إذا كانوا بين يديه، أظهروا استعدادهم للطاعةِ له فيما يأمُرُ به، وينهى عنه، فإذا خرجوا منْ عندِهِ، وبرزوا إلى بيوتهم ومنازلهم بيَّتَ زعماؤُهم ورؤُساؤهم أمراً مخالفاً لما قالوه للرسول ﷺ، ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء:٨١].

ومعنى (طاعة): أي يقولونَ أمْرُنا طاعةٌ لك، نسمعُ ونطيعُ لأمرك ونهيك، فإذا خرجوا من بين يديك، وصاروا إلى منازلهم بيَّتَ طائفة منهم غير الذي قالوه للرسول ﷺ، قال الزجَّاجُ: «يقال: لكلِّ أمرٍ قد قُضِيَ بليلٍ قد بُيِّت» [معاني القرآن: ٢/ ٨١] فهؤلاء كاذبون في دعْواهم أنَّهم يطيعون الرسولَ ﷺ، فعندما يغادرون المجلس يعملُ زعماؤهم ورؤساؤُهم ومنظِّرُوهم الرأيَ في عصيانه، والله تعالى عالمٌ بما يقولونَهُ، ويبيتونَهُ، وليس عالماً به فحسب، بل يكتبه عليهم، وسيحاسبُهم عليه، وأَمَرَ اللهُ رسولَهُ ﷺ أن يُعْرِضَ عنهم، ولا ينشغلَ بهم، ويتوكَّل على الله الواحد الأحد، أي: يفوض أمره إلى الله، ويعتمدُ عليه، وكفى بالله وكيلاً، أي: كفى به ناصراً وحافظاً.

٤- وجوب تدبُّر المؤمنين القرآن:

أمر اللهُ -تبارك وتعالى- عبادَهُ وفيهم المنافقون الذين أعْرَضَتْ قلوبُهُم عن القرآن الكريم أن يتدبروا هذا القرآن، وذلك بالتأمل فيه، والنظر في معانيه، فالقرآن أُنزل ليتلى، ولتعرف معانيه ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء:٨٢].

وقال تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد:٢٤].

جنـــــة الســــــنة

ومن نتائج التدبُّر الطيبة أن يعْلَمَ المتدبِّر فيه أن هذا القرآنَ سالمٌ من الاختلافِ والتناقض والتعارض، لأنه من عند الله العليم الخبير الحكيم، ولو كان من عند غير الله لحَفَلَ بالتناقضِ والاختلاف.

٥- **الموقفُ الذي يجب أنْ يقفه المؤمنون في المجتمع الإسلامي من الوقائعِ الكبار:**

ذمَّ اللهُ فريقاً من المجتمع الإسلامي الأول، وأوَّلُ ما يدخلُ في هذا الفريق المنافقون، إذا جاءَهم أمر يتعلق بالأمن أو الخوف، لم ينتظروا حتى يتفحصوه، ويتبينوا حقيقته، ولكنَّهم يتحدثون به في مجالسهم ومنتدياتهم، ويشيعونه، ويذيعون به، ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٌ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ ﴾ [النساء:٨٣].

والواجب على الذين لا يملكون القدرة على استيعاب الأخبار، والتبين من مدى صدقها أن يرُدُّوا هذه الأخبار إلى الرسولِ ﷺ في حياته، وإلى ولاة الأمر من بعده، وسيتبينُ أهلُ العلم والرأي الذين لديهم القدرة على الاستنباطِ حقيقة تلك الأمور، ﴿ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ ﴾ [النساء:٨٣].

وختَمَ اللهُ تعالى الآية بقوله: ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣ ﴾ [النساء:٨٣] أي: لولا فضلُ الله علينا ورحمتُه بإنزالِ القرآنِ علينا، وإرسالِ محمدٍ ﷺ فينا، لاتبعنا الشيطانَ إلا قليلاً منا، ولكنه تفضَّل علينا بإنزالِ القرآنِ وإرسالِ رسولِهِ ﷺ، وهدانا للإيمان، وأنقذنا من الشيطانِ.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من العلم والعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من العلم والعمل:

١- الذي يطيع الرسول ﷺ فيما أمر وترك ما نهى عنه وزجر، فقد أطاع الله سبحانه.

٢- الذين يعصون الله تعالى ورسوله ﷺ أمرهم إلى الله تعالى، هو الذي سيحاسبهم ويعاقبهم، ولم يرسل الله رسوله حفيظاً ومحاسباً لهؤلاء.

٣- المنافقون كذبةٌ يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، يقولون للرسول ﷺ: سنطيعك فيما تأمرنا به، وننتهي عما تنهانا عنه، فإذا خرجوا من عنده أعملوا عقولهم في التخطيط والتدبير لمخالفته.

٤ - أَمْرُ المنافقين إلى الله تعالى، أما الرسول ﷺ والمؤمنون به فعليهم أن يعرضوا عنهم، ويتوكلوا على الله وحده، وكفى بالله وكيلاً.

٥ - أَمَرَ اللهُ المؤمنين بتدبر القرآن، لتظهر لهم معانيه، وتتضح لهم أسراره، ويظهر ما حواه من تناسق واتفاق، لأنه من العليم الخبير.

٦- إذا بلغ المؤمنين في المجتمع الإسلامي أمْرٌ له علاقة بأمن المجتمع، فعليهم أن يرُدُّوه إلى الرسول ﷺ وإلى أولي الأمر منهم، وسيعلم حقيقته أصحاب العقول الراجحة القادرون على التحليل والتعليل والاستنباط.

٧- يوجد في كل عصر قِلَّةٌ من أصحاب العلم والرأي يؤتيهم الله القدرة على الاستنباط والاجتهاد.

٨- الأخذ بالقرآن واتباع الرسول ﷺ عصمة للأمة من الشيطان.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الرابع والعشرون من سورة النساء

﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾

أولاً: تقديم

أَمَرَ الله -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ بأن يقاتل في سبيل الله ولو بقي في الميدان وحَدَه، وأمرَهُ بأن يحثَّ المؤمنين على القتالِ، ووَعَدَ اللهُ المقاتلين في سبيلِهِ أن ينصرهم، ويكفَّ عنهم بأسَ الذين كفروا، ووَعَدَ اللهُ الذين يشفعون في سبل الخيرِ بالأجر والمثوبةِ، كما وعد الذين يشفعون في سُبُلِ الشرِّ بالإثمِ والعقوبةِ، وأمرنا ربُّنا إذا حُيِّينا بتحيةٍ بأن نردَّها بأحسن منها أو مثلها، وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه المعبودُ الواحدُ الذي يستحقُّ العبادة، وأقسم سبحانه وتعالى على أنّه سيجمعنا إلى يومِ القيامةِ، وذلك بإقامتنا من قبورنا أحياء، ليحاسبنا ويجازينا.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء:٨٤-٨٧].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أوجبَ اللهُ على رسولِهِ ﷺ القتالَ في سبيلِهِ لا يكلف إلا نفسه:

أمر اللهُ - تبارك وتعالى - عبدَهُ ورسولَهُ محمداً ﷺ بالقتال في سبيل الله، ولو بقيَ وَحْدَهُ، وأمره بتحريضِ المؤمنين على القتالِ، وذلك بحثِّهم عليه، وترغيبهم فيه، قال تعالى: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ [النساء:٨٤].

وهذه الآية تكلف الرسول ﷺ بالقتال ولو بقي وحده في الميدانِ، وهي كقول موسى عليه السلام عندما امتنع قومُهُ من قتال الجبارين، فقال مخاطباً ربّه تبارك وتعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾ [المائدة:٢٥]، فحرَّمَ اللهُ عليهم دخولَ الأرضِ المقدسة أربعين سنة، وتاهوا في

جنـــــة السـنـــــة

الأرض طيلة تلك المدة ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة:٢٦]. ولكنَّ الصحابةَ لم يفعلوا فعلَ اليهودِ، فقد أطاعوا الرسولَ ﷺ فيما أمر به مِنَ الجهاد، وقد قامَ الرسولُ ﷺ بتحريضِ المؤمنين على القتالِ كما أمره ربُّهُ، ففي صحيح مسلم عن أنس بن مالك أنَّ رسول الله ﷺ قال في معركةِ بدرٍ لأصحابه: «قوموا إلى جنَّةٍ عَرْضُها السمواتُ والأرض» [مسلم: ١٩٠١].

وسَمِعَ أبو موسى الأشعري الرسولَ ﷺ يقولُ: «أبوابُ الجنَّةِ تحت ظِلالِ السيوف» [مسلم: ١٩٠٤].

وعن سلمانَ، قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقولُ: «رِباطُ يوم وليلةٍ خيرٌ من صيام شهرٍ وقيامِهِ، وإنْ ماتَ، جرى عليه عملُه الذي كان يعملُهُ، وأُجْرِيَ عليه رزقُهُ، وأمِنَ الفَتَّان» [مسلم: ١٩١٣].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنَّ في الجنة مائةَ درجةٍ، أعدَّها الله للمجاهدين في سبيلِ الله، ما بين الدرجتين كما بينَ السماء والأرض، فإذا سألْتُم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسطُ الجنة، وأعلى الجنة -أراه- فوقَه عرشُ الرحمن، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنَّةِ» [البخاري: ٢٧٩٠] والأحاديث التي حرض الرسول ﷺ فيها على القتال كثيرة.

وقد وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا بالغلبة على الكافرين بقوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ [النساء:٨٤] أي: بتحريضكَ إياهم على القتالِ تنبعثُ هِمَمُهم على مناجزةِ الأعداءِ، و﴿عَسَى﴾ من الله تعالى واجبةٌ، فهو وعد من الله تعالى، ووعدُه كائن لا محالةَ، وقد قوَّى اللهُ طمعَ المؤمنين بالنصر بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ [النساء:٨٤] أي: أشدُّ صَوْلَةً، وأعظمُ سلطاناً، والتنكيلُ: العذابُ، قال القاسمي: قال أبو السعود: «﴿عَسَى﴾ عِدَةٌ منه سبحانه وتعالى محقَّقَةُ الإنجازِ بكفِّ شدةِ الكفرةِ ومكرِهِمْ، فإنَّ ما صُدِّرَ بـ(لعلَّ، وعسى) مقرَّرُ الوقوعِ من جهته عزَّ وجل» [محاسن التأويل: ٣/ ٢٣٩].

٢- الشفاعةُ الحسنةُ والشفاعةُ السيئةُ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه مَنْ يشفعْ شفاعةً حسنةً أو سيئةً فإنَّ له نصيباً من أجر الشفاعة الحسنة، وعليه شيئاً من وِزْر الشفاعةِ السيئة، قال تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾ [النساء:٨٥]. والشفاعةُ الحسنةُ: أن يتوسط أحَدُنا في أمر يترتب عليه خيرٌ أو دَفْعُ ضيرٍ،

جنــــة السـنــة

والشفاعةُ السيئةُ أنْ يتوسط أحدنا في أمر يترتبُ عليه ضَيْرٌ، أو دَفْعُ خير، والشفاعةُ الحسنةُ هي مِنْ بابِ التعاونِ على البرِّ والتقوى، والشفاعةُ السيئة هي مِنْ بابِ التعاونِ على الإثمِ والعدوانِ، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة:٢].

وقد رغَّب الرسولُ ﷺ في الشفاعة الحسنة، فعن أبي موسى الأشعري قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا جاءَه السائلُ، أو طُلِبَتْ إليه الحاجةُ قالَ: «اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، ويقضي اللهُ على لسانِ نبيِّهِ ما شاء» [البخاري: ١٤٣٢. ومسلم: ٢٦٢٧]. وقد شَفَعَ رسولُ الله ﷺ عند بريرة كي ترجعَ إلى زوجها مغيثٍ بعد أن أُعتقت فقالت: «لا حاجةَ لي بِهِ» [البخاري: ٥٢٨٣].

وقولُهُ تعالى في ختامِ الآيةِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾ [النساء:٨٥] قال ابن عباسُ ومجاهدُ: «المقيتُ: الحفيظ والشهيد» [المحرر الوجيز: ٣/ ٦١٧].

٣- وجوبُ ردِّ التحيةِ بأحسنَ منها أو مثلها:

أمرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- إن نحن حُيِّينا بتحيةٍ أن نردَّها بأحسنَ منها أو بمثلها، قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ [النساء:٨٦].

وتحيةُ الإسلام السلامُ، بأنْ نقولَ: السلامُ عليكم، وأفضلُ منه أن نقولَ: السلامُ عليكم ورحمةُ الله، والسلامُ الكاملُ هو قولُنا: السلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاتُهُ، وقد جَعَلَ اللهُ هذه التحيةَ تحية آدمَ ﵇، وتحيةَ ذريته من بعده، ففي سنن الترمذيِّ عن أبي هريرةَ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إن اللهَ قالَ لآدمَ بعد خَلْقِهِ في الجنة: اذْهَبْ إلى أولئك الملائكةِ - إلى مَلأ منهم جلوسٌ - فقلْ: السلامُ عليكم، قالوا: وعليكَ السلامُ ورحمةُ الله، ثم رَجَع إلى ربِّه، فقال: إنَّ هذه تحيَّتُكَ، وتحيةُ بَنِيْك بَيْنَهُمْ» [وقال الترمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ مِنْ هذا الوجه، وقد روى من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ من رواية زيد بن أسلم، عن أبي صالح عن أبي هريرة، وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذيِّ، ورقمه: ٣٦٠٧].

ونحن مخيَّرون في إجابة التحية بين أمريْنِ: أن نردَّ التحية بمثلها أو بأفضل منها، فنقولُ لمن قالَ لنا: السلامُ عليكم: وعليكُمْ السَّلام، أو نقول: وعليكم السلام ورحمة الله، أو نقول: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وهذا يدلُّ على أنه لا يجوزُ أن نُنْقِصَ التحية، فمن قالَ لنا: السلام عليكم ورحمة الله لا يجوزُ أن نقولَ له: وعليكم السلامُ.

هذا في السَّلام بين المؤمنين، أمَّا اليهودُ والنصارى، فلا يجوزُ لنا أن نبدأهم بالسلامِ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «لا تَبْدَؤُوا اليهودَ ولا النصارى بالسَّلام، فإذا لقيتُمْ أحدهم في الطريق، فاضطروه إلى أضيقه» [مسلم: ٢١٦٧].

جنـــة الســـــنة

فإذا سلَّم علينا اليهوديُّ أو النصرانيُّ، فإننا لا نجيبُهُ إلا بتحية ناقِصَةٍ، بأن نقول: وعليكم، فحسبْ، فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إذا سلَّمَ عليكُم اليهودُ، فإنما يقولُ أحدهم: السَّامُ عليكَ، فقُلْ: وعليكَ» [البخاري: ٦٢٥٧، ومسلم: ٢١٦٤ بلفظ: السَّام عليكم].

وعن أنس بن مالكٍ ﷺ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إذا سلَّم عليكُمْ أهلُ الكتابِ فقولوا: وعليكم» [البخاري: ٦٢٥٨. ومسلم: ٢١٦٣].

وقد حثَّنا الرسولُ ﷺ على إفشاءِ السَّلام بيننا، وأخبرنا أنَّ إفشاءَ السلام بيننا يورِّثنا التحابُبَ فيما بيننا، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تَدْخُلُونَ الجنةَ حتى تُؤْمِنوا، ولا تؤْمِنوا حتى تحابُّوا، أوَلاَ أدُلكُمْ على شيءٍ إذا فعلْتُموه تحابَبْتُم، أفْشُوا السلامَ بيْنكُمْ» [مسلم:٥٤].

وأخبرنا عبدُالله بن سلام ﷺ أنه سمع الرسولَ ﷺ أولَ ما قدم المدينةَ يقولُ للناسِ، وقد انجفلوا إليه: «أيها الناس، أفْشُوا السَّلام، وأطْعِمُوا الطَّعامَ، وصَلُّوا والناسُ نِيامٌ، تدْخُلُوا الجَنَّة بسلامٍ» [الترمذي (٢٤٥٨)، وقال: هذا حديث صحيح].

وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ أنه كُلَّما كانتْ تحيتُنا أوْفى كلما زادَ أجرُنا وثوابنا، فعن عمرانَ ابن حصينٍ ﷺ أنَّ رجلاً جاءَ إلى النبيِّ ﷺ فقالَ: السلامُ عليكُم، قالَ: قالَ النبيُّ ﷺ: «عَشْرٌ»، ثم جاء آخرُ، فقال: السلامُ عليكم ورحمةُ الله، فقال النبي ﷺ: «عشرون»، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاتُه، فقال النبي ﷺ: «ثلاثون» [رواه الترمذيُّ (٢٦٨٩)، وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ غريبٌ من هذا الوجه].

وقوله تعالى في ختام الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ [النساء:٨٦] أي: محاسباً لنا على كل شيءٍ، ومنه ردّ السلام بمثله أو بأحسن منه.

٤- اللّهُ هو المعبودُ الحقُّ وسيجمعنا إلى يوم القيامة لا ريب فيه:

أخبرنا ربُّنا - تبارك وتعالى - أنه هو المعبود الذي يستحقُّ العبادةَ، وأنَّه سيجمعُنا إلى يومِ القيامة ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء:٨٧] واللامُ في قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ لام القسم، أي: والله ليجمعنكم، وسميت القيامةُ قيامةً، لأنَّ الناسَ يقومون فيها من قبورهم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج:٤٣] أي: يقومون للجزاء والحساب ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين:٦].

جنـــــة السـنـــــة

وقال ربُّ العزة في ختام الآية: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء:٨٧] أي: لا شك في يوم القيامة، ولا أحدَ أصدقُ من ربِّ العزة في حديثِهِ وخبرِهِ ووعْدِهِ ووعيدِهِ.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أَمَرَ الله -تبارك وتعالى- رسوله ﷺ بالقتال في سبيل الله، ولو بقيَ وحده، وأَمَرَهُ أن يُحَرِّضَ المؤمنين على القتال، أي: يحثُّهم عليه، ويرغبهم فيه.

٢- وَعَدَ الله عبادَهُ بأن ينصرهم على أعدائهم، فهو القادرُ على ردِّ بأسِ الكفار، وهو أشدُّ بأساً وأشدُّ تنكيلاً.

٣- مَدَحَ اللهُ الذين يشفعونَ لجلبِ الخيرِ لغيرهم، ودفْعِ الشرِّ عنهم، وذَمَّ الذين يشفعون لجلب الشرِّ لغيرهم، ودفع الخير عنهم.

٤- مشروعيةُ السلامِ على من نلقاهم، ووجوبُ ردّ التحية بأحسنَ منها أو بمثلها.

٥- لا يجوز أن نبدأ الكافرَ بالتحية، وإذا سلَّم علينا نكتفي بالقول: وعليكم.

٦- اللهُ -تبارك وتعالى- هو المعبودُ الحقُّ الذي يستحقّ العبادةَ دون غيره.

٧- اللهُ -تبارك وتعالى- هو الذي يقيمنا مِنْ قبورنا يومَ القيامة، وقد أقْسَم اللهُ على ذلك، وأخبرنا أنَّ القيامة كائنةٌ لا شكَّ ولا ريبَ فيها، وقرَّرَ سبحانه وتعالى أنّه لا أحد أصدقُ منه حديثاً.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني الخامس والعشرون من سورة النساء
الموقف الذي يجب أن نقفه من المنافقين والكفار

أولاً: تقديم

ذمَّ اللهُ تعالى موقفَ بعض المؤمنين الذين أحْسَنوا الظنَّ بالمنخذلين من المنافقين في غزوة أُحُدٍ، فقد كانَ الواجبُ أن يكونَ الموقفُ منهم واحداً، فهم ضالُّون كفرةٌ.

وبيَّن لنا موقف الكفارِ منا، فهم يودُّون أن نكْفُر، وأوجَبَ علينا أنْ لا نتخذَ منهم وليّاً ولا نصيراً، حتى يؤمنوا، ويهاجروا إلى دار الإسلام. ثم بيَّن الذين يجبُ أن نتوقفَ عن قتالِهِمْ من الكفار، والذين يجب أن نقاتلهم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ ﴾ [النساء:٨٨-٩١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لومُ الله -تعالى- المؤمنين في اختلافهم في شأن المنافقين:

أظهر اللهُ -تبارك وتعالى- كُفْرَ المنافقين الذين رَجعُوا عن رسول الله ﷺ في غزوة أُحُد، وكانوا قريباً من ثلث الجيش، وهم الذين قالَ اللهُ تعالى فيهم: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ﴾ [آل عمران:١٦٧].

وقد اختلفَ الصحابةُ ﷺ في شأن هؤلاء، فبعضهم رأى أنهم منافقون يُؤخذون ويُقتَلُون، وبعضُهم رأى أنهم مسلمون، يعفى عنهم، ولا يقاتلون، فأنزلَ الله في شأن

جنـــــة الســـــنة

المختلفين فيهم منكراً عليهم اختلافَهُمْ، ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [النساء:٨٨].

وقوله: ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾ أي: طائفتين، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ﴾ قال ابن القيم: «قال الفراءُ: ﴿أَرْكَسَهُم﴾: رَدَّهم إلى الكفر، وقال أبو عبيدة: أركَسْتُ الشيءَ وركَسْتُه - لغتان - إذا رَدَدْتَه.

والرِّكسُ: قلبُ الشيءِ على رأسِهِ، أو رَدُّ أوَّلِهِ على آخرِه، والارتكاسُ: الارتدادُ، ومن هذا يقال للروَّثِ: الركسُ، لأنه رُدَّ إلى حالِ النجاسةِ، ولهذا المعنى سُمي رجيعاً، والرِّكس والنِّكْسُ، والمرْكُوس والمنْكُوس بمعنى واحد» [بدائع التفسير: ٢/ ٦٥].

وقوله: ﴿بِمَا كَسَبُوٓا۟ ﴾ أي: من الكفر والشرك وتكذيب الله وتكذيب رسوله ﷺ، وقوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ﴾ فيه إنكارٌ على الذين يحسنون الظنَّ بالمنافقين، ويدَّعون أنهم مؤمنون، والاستفهامُ للإنكار، وفي الآية بيانُ أنَّ المنافقين ضالون، وقولُهُ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ ﴾ فيه بيانٌ لحالِ من يضلُّه اللهُ -تبارك وتعالى- فالذي يضلُّه الله -تعالى- فلن تجدَ لَهُ سبيلاً، أي: إلى الهدى والخيرِ والصلاح.

وقد وَرَدَ في صحيح البخاري ما يدلُّ دلالةً صريحةً على أنَّ هذه الآية نزلتْ في شأن اختلافِ الصحابةِ في المتخذلين من المنافقين عن رسول الله ﷺ في أُحدٍ، فعن زيد بن ثابتٍ قال: «لما خَرَجَ النبيُّ ﷺ إلى أُحُدٍ، رَجَعَ ناسٌ ممن خَرَجَ معه، وكان أصحابُ النبيِّ ﷺ فرقتين: فرقةً تقولُ: نقاتلهم، وفرقةٌ تقول: لا نقاتِلُهُمْ»، فنزلتْ ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ﴾ [النساء:٨٨] وقال: «إنَّها طَيْبَةُ تَنْفِي الذُّنُوبَ كما تَنْفِي النارُ خَبَثَ الفضَّة» [البخاري: ٤٠٥٠. وراجع: ١٨٨٤، ٤٥٨٩].

الموقفُ الذي يجبُ أن نقفه من الكفار:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عما تُكِنّهُ قلوبُ الكافرين، فقد كانَ كفَّارُ جزيرةِ العرب يحبونَ أن يرتد المؤمنون عن الإسلام إلى الكفر، فيصبحَ المؤمنونَ والكفارُ على دينِ الكفرِ سواء ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ [النساء:٨٩].

وقد نهى اللهُ تعالى المؤمنين أنْ يتخذوا هؤلاء الكفار أولياءَ، أي: أصحاباً وأنصاراً حتى يؤمنوا، ويهاجروا من ديار الكفر، إلى دار الإسلام، ودار الإسلام في ذلك الوقت هي المدينة

جنـــــة الســـــنة

المنورةُ دونَ غيرها ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء:٨٩]، فإذا تَوَلَّوْا، أي: أعرضوا عن الإيمانِ والهجرةِ فقد أمر اللهُ الرسولَ ﷺ وأصحابَهُ أنْ يحاربوا هؤلاءِ، ويأخذوهُمْ، أسراً وقتلاً في أي مكانٍ وجدوهم فيه، ونهاهم ربُّ العزةِ أنْ يتخذوا منهم حالَ كفرهم وليّاً أو نصيراً، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾ [النساء:٨٩].

٣- عدم مقاتلة المعاهدين والمسالمين:

يظهرُ من تدبُّر آياتِ هذا النص أنَّ المؤمنين أصبحوا في الوقت الذي نزلتْ فيه آياتُ هذا النص قوةً ظاهرةً غالبةً، بل أصبحوا قوةً مؤثرة فيما حولها، وقد استثنى ربُّ العزةِ من الكفار الذين أمرَ الله المؤمنين بقتالهم طائفتين: الأولى: الذين قالَ اللهُ تعالى فيهم: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ [النساء:٩٠] وهؤلاء هم الذين دخلوا في قوم عاهدهم المسلمون وصالحوهم، فيأخذون حكم المعاهدين. والثانية: هم الذين قال اللهُ تعالى فيهم: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ [النساء:٩٠] وهؤلاء قومٌ حصرتْ صدورهم، أي: ضاقتْ أن يقاتلوا المسلمين، كما حصرت صدورُهم أن يقاتلوا قومَهُم، فهم يريدونَ اعتزالَ الحربِ، فلا يقاتلون المسلمين، ولا يقاتلون قوْمَهُم. وقد امتنَّ الله على المؤمنينَ بعدم تسليط هؤلاء الذين اعتزلوهم في الحرب عليهم، فلو شاءَ الله لسلَّط هؤلاء على المؤمنين فقاتلوهم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ [النساء:٩٠].

وقد أمَرَ اللهُ -تعالى- المؤمنين في حال اعتزالِ هاتين الفرقتين الحربَ والقتالَ وإلقائهم السَّلَم للمؤمنين، أمرهم بأن يسالموهم، ويوقفوا الحربَ ضِدَّهم، ولم يجعلِ اللهُ للمؤمنين سبيلاً لحرب هؤلاء وقتلهم وغنم أموالهم وسبي نسائِهم وأولادهم ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾ [النساء:٩٠].

٤- موقفُ المؤمنين من المذبذبين المخادعين:

حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن الموقف الذي يجبُ على المؤمنين أنْ يقفوه من العدوِّ الذي يريد أنْ يأْمن المسلمينَ ويأمنَ قومَهُ، ولكنَّه لا يستطيع أن يحْسِمَ أمره، ولا يلتزمُ بمهادنة المؤمنين، فتراه إذا ثارت الحروبُ أعانَ قومَهَ، ولم يَكُفَّ يَدَه عن الحربِ والقتالِ، وهؤلاء أمر اللهُ بقتالهم، وحرْبِهم ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ

جنـــــة الســـــنة

أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿٩١﴾ ﴾ [النساء:٩١].

والفرقُ بين هذا الفريق والفريق الذي قبله أنَّ الفريقَ السابق ملتزمٌ بعدم قتال المؤمنين فهم معتزلون للحربِ والقتالِ، تماماً، وهم سالموا المؤمنين وصَدَقُوا في ذلك. أما الفريقُ الثاني فهم يشاركونَ القومَ السابقين في رغبتهم في مسالمةِ المسلمين ومسالمةِ قومهم، ولكنهم لا يلتزمون بذلك، وعبَّر اللهُ عن هذه الحالةِ من الذبذبةِ التي يعيش فيها هؤلاء بقوله: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ ﴾ أي: كلما حاولوا اعتزال الحربِ ارتكسوا وعادوا إلى حربِ المسلمين، ومعاونة قومهم عليهم، وهؤلاء إن بقوا مذبذبين غير ملتزمين باعتزال الحرب، ولم يحافظوا على السِّلْمِ مع المسلمين، ولم يَكُفوا أيديَهُمْ فعلى المسلمين أن يعملوا سيوفهم فيهم أينما وجدوهم، وقد جعل الله للمؤمنين على هؤلاء سلطاناً مبيناً، أي: حجةً على مقاتلتهم.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص الكريم وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- ذمَّ اللهُ تعالى موقفَ المؤمنين الذين أحْسَنُوا الظنَّ بالمنافقين الذين انخذلوا عن جيش المسلمين في أُحُدٍ، وكان الواجبُ أن يقف المسلمون من هؤلاء المنافقين الضالين موقفاً واحداً.

٢- ليسَ كلُّ اجتهادٍ ممدوحاً، فقد لامَ اللهَ تعالى الفريقَ المؤمن الذي أحسنَ الظنَّ بالمنافقين، وبيَّنَ خطأهم فيما ذهبوا إليه.

٣- بعضُ النَّاسِ لا يمكنُ هدايتهم إلى الإيمانِ بحالٍ، وهم الذين حَكَمَ ربُّ العبادِ بكفرهم.

٤- كفارُ جزيرةِ العرب كانوا يوَدُّون أن يعودَ المؤمنون كفاراً، فيكونُ حالُ المؤمنين والكفارِ حالاً واحداً.

٥- نهى اللهُ تعالى المؤمنين أن يتخذوا الكفارَ أولياء حتى يؤمنوا ويهاجروا إلى المدينةِ، فإن رفضوا وَجَبَ عليهم حربُهُمْ وقتالُهُمْ.

٦- نهانا الله عن قتال طائفتين: الأولى: الذين دخلوا في حِلْفِ قومٍ بيننا وبينهم ميثاق. والثانيةُ: الذين اعتزلوا حربنا وحربَ قومهم.

٧- علينا أن نقاتل الذين يزعمون أنهم يجتنبون حربنا وحربَ قومِهِمْ، ولكن إذا ثارت الحربُ أعانوا قومَهم علينا.

جنـــــة السـ ـــــنة

النص القرآني السادس والعشرون من سورة النساء
حكم المؤمن الذي يقتل مؤمناً خطأً أو عمداً

أولاً: تقديم

بيّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- في آياتِ النصِّ السابق الموقف الحقّ الذي يجب أن نقفه من المنافقين والكافرين، وبيَّن الله تعالى في آيات هذا النص أنه لا يجوز للمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً، وبيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- لنا ماذا يجبُ على من قتل مؤمناً خطأً، سواءٌ أكان أهله مؤمنين أو محاربين أو معاهدين.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم من سورة النساء

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء:٩٢-٩٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لا يجوز للمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً:

حرَّم اللهُ تعالى على المؤمنِ أن يقتلَ مؤمناً إلا إذا وقع القتلُ منه على وجهِ الخطأ، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [النساء:٩٢] وقوله: ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾ استثناءٌ منقطع، معناه: لكنْ خطأً.

٢- حكم الذي يقتل مؤمناً خطأً:

بيَّن اللهُ -تبارك وتعالى- حكم من قتلَ مؤمناً خطأً، وقد يكون أهل القتيل المؤمن مؤمنين، وقد يكونون محاربين، وقد يكونون معاهدين. وقد بيَّن الله لنا حكمَ من قتل مؤمناً خطأً أهلُه مؤمنون، فقال سبحانه: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ

جنـــــة السـنــــــة

﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ﴾ [النساء:٩٢] أوجب الله على من قتل مؤمناً خطأً أمرين: الأول: أن يعتق رقبةً مؤمنةً، والرقبةُ المؤمنة كلُّ مؤمن صحَّ عتقه سواء كان صغيراً أو كبيراً، وقد صحح ابن كثير إسنادَ حديثٍ رواه أحمدُ عن رجلٍ من الأنصار أنه جاء رسول الله ﷺ بأَمَةٍ سوداء، فقال: يا رسولَ الله، إنَّ عليَّ عتقَ رقبةٍ مؤمنةٍ، فإنْ ترى هذه مؤمنةً أُعتقها، فقال لها رسول الله ﷺ: «أتشهدين أنْ لا إله إلا الله؟» قالت: نعم، قال: «أتؤمنين بالبعث بعد الموت؟» قالت: نعم. قال: «أعتقها» [ابن كثير: ٢/ ٣٤٠].

وقد جاء معاوية بن الحكم السُّلمي بجارية، وقال له: يا رسول الله، أفلا أعتقها؟ قال: ائْتِني بها، فأتيتُهُ بها، فقال لها: «أين الله؟» قالت: في السماء، قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسولُ الله، قال: «أعْتِقها فإنها مؤمنةٌ» [مسلم: ٥٣٧].

والواجب الثاني ديةٌ مسلَّمَةٌ إلى أهل القتيل، قال تعالى: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ﴾، وهذه الديةُ لا يدفَعُها القاتلُ، إنما تدفعها عاقلتُه، قال ابن كثير: قال الشافعي رحمه الله تعالى: «لم أعْلَمْ مخالفاً أنَّ رسولَ الله ﷺ قضى بالديةِ على العاقلةِ» [ابن كثير: ٢/ ٣٤١].

ويدلُّ لصحة ما ذكره الشافعيُّ رحمه الله تعالى ما رواه صاحبا الصحيحين عن أبي هريرة قال: «اقْتتلت امرأتان من هذيل، فرمتْ إحداهما الأخرى بحجرٍ، فقتلتها، وما في بطنها، فقضى أنَّ دية جنينها غُرَّةٌ، عبدٌ أو وليدةٌ، وقضى أن ديَّةَ المرأة على عاقلتها» [البخاري: ٦٩١٠. ومسلم: ١٦٨١].

والغُرَّةُ في الحديث: ما بلغ ثمنُهُ نصفَ عشرِ الديةِ من العبيد والإماء، أي: خمْسٌ من الإبل.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ﴾ رغَّبَ اللهُ تعالى أولياءَ القتيل بالعفو عن الديةِ، ولهم في هذا العفو أجْرٌ وثوابٌ، ولذا سمَّاه تبارك وتعالى صَدَقَةً.

٣- حكمُ من قَتَلَ مؤمناً أهله كفّارٌ من أهلِ الحربِ:

فإنْ كان قتيلُ الخطأ مؤمناً، وأهلُه من أهل الحربِ، فالواجبُ على القاتلِ تحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ﴾ [النساء:٩٢] ولا تجبُ الديةُ في هذه الحال، لأنَّ إعطاءَ الكفار المحارَبين ديةُ القتيلِ، فيها إعانةٌ لهم على حربِ المؤمنين وقتالهم.

جنـــة السـ‍ـــــنة

٤- حكم من قتلَ رجلاً بيننا وبين أهله عهدٌ:

أعلَمنا ربُّنا تبارك وتعالى أنَّه يجبُ على مَنْ قتلَ رجلاً مؤمناً مِنْ أهلِ العهد دية يسلمها إلى أهل القتيلِ، كما يجب على القاتلِ أنْ يعتق رقبةً مؤمنةً، قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ﴾ [النساء:٩٢].

٥- إذا لم يجدِ القاتلُ رقبةً مؤمنة:

أوْجَبَ اللهُ تعالى على القاتل في أكثر من صورةٍ عتقَ رقبةٍ مؤمنةٍ، فإذا لم يجدِ القاتلُ رقبةً مؤمنةً لعدم وجودِ الرقيقِ كما هو الحالُ في أيامنا هذه، أو لعدم وجودِ المال، كأن يكون القاتل محتاجاً فقيراً، فيجبُ على القاتلِ في هذه الحال أن يصوم شهرين متتابعين ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ﴾ [النساء:٩٢].

ويدلُّ النصُّ على بطلانِ الصيام إذا قطعه الصائم من غير عذرٍ، فإن كان بعذر الحيضِ أو النفاس أو المرض فإنه لا ينقطعُ، وإن كان بعذر السفر، ففيه قولان، الله أعلم بالأصح منهما.

٦- تحريرُ الرقبة توبةٌ من الله:

أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أن تحريرَ القاتلِ الرقبةَ بسبب قتله هو من بابِ التوبةِ التي شرعَها، ليتوبَ على عبده القاتل ﴿تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾، وأخبر سبحانه أنَّه تباركَ وتعالى عالمٌ حكيمٌ بما يصلحُ عبادهُ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٩٢﴾ [النساء:٩٢].

٧- عِظَم جريمةِ الذي يتعمَّد القتلَ من غير سبب شرعي:

رهَّبَ الله -تبارك وتعالى- الذي يقتلُ غيره متعمداً من غير سبب شرعي، فقال: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ٩٣﴾ [النساء:٩٣].

وقد رهَّب الله -تبارك وتعالى- عبادَه من القتل العمد بإخباره بما يحلُّ بالقاتل في يوم القيامة، فقد أخبر اللهُ تعالى بأنَّ القاتلَ المتعمِّدَ جزاؤه جهنمُ خالداً فيها، وأنَّ الله في ذلك اليوم يغضبُ عليه، ويلعنُهُ، وأعدَّ له عذاباً عظيماً.

والنصوص المحذِّرة من قتل المؤمن مؤمناً كثيرةٌ في الكتاب والسنَّة، كقوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ [المائدة:٣٢]، وقوله: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأنعام:١٥١].

جنـــــة الســـــنة

وفي الحديث عن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلُّ دمُ امرئٍ مسلمٍ يشهدُ أن لا إله إلا الله وأنّي رسولُ الله إلا بإحدى ثلاثٍ: النفسُ بالنفسِ، والثيبُ الزاني، والمارقُ من الدين التاركُ للجماعة» [البخاري: ٦٨٧٨. ومسلم: ١٦٧٦].

فإذا تاب القاتلُ في الدُّنيا توبةً صادقةً تابَ اللهُ عليه، فقد أخبرنا رسولنا ﷺ عن توبةِ الله على عبدٍ من عبادِهِ قتل مائة نفس عندما تاب توبةً صادقةً، وخرج من بلده مهاجراً إلى بلدةٍ أهلُها صالحون، فقبضته ملائكةُ الرحمة [الحديث صحيح أخرجه البخاري (٣٤٧٠) ومسلم (٢٧٦٦)].

وقد أخبرنا ربنا -تبارك وتعالى- عن قبولِهِ توبةَ المشركين وقاتلي النفس التي حرم اللهُ -تعالى- قتلها بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

وأخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن الذنب الوحيد الذي لا يقبل المغفرة في يوم القيامة الشرك بالله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - عظم جريمة من قتل مؤمناً لم يأذن الله بقتله.

٢ - الذي يقتل مؤمناً خطأً عليه أن يعتق رقبة مؤمنة، فإن كان أهل القتيل مؤمنين فيجب على القاتل أن يدفعَ إليهم ديةً تؤخذ من العاقلةِ.

٣ - إذا عفى أهلُ القتيل عن الدية فلهم أجرُ الصدقةِ.

٤ - إذا قتلَ رجلٌ رجلاً مؤمناً أهلُهُ كفارٌ محاربون، فيجبُ عليه تحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ، ولا تجبُ عليه الديةُ لأهلِ القتيلِ.

٥ - فإن كان القتيلُ من أهلِ العهدِ، فيجبُ على القاتلِ تحريرُ الرقبةِ المؤمنةِ، ويجبُ عليه الديةُ لأهلِ القتيلِ.

جنـــــة الســـــنة

٦- الذي لا يجدُ رقبةً لعدم وجودِ الرقيق، أو لكونه فقيراً، فعليه أن يصومَ شهرينِ متتابعين.

٧- عِظمُ جريمةِ الذي يقتلُ مؤمناً متعمداً، ففي يوم القيامة جزاء القاتل جهنَّم خالداً فيها، وغضبَ الله عليه، ولعنه، وأعدَّ له عذاباً عظيماً.

٨- إذا تابَ القاتلُ في الدنيا توبةً صادقة، فإنَّ الله يتوبُ عليه.

٩- عِظمُ جرمِ الذين خرجوا على المسلمين اليوم، يسفكون دماءَهم، ويقتلون رجالَهُمْ ونساءَهم وأطفالَهُمْ، بدعوى أنَّهم كُفَّار، وقد بينت الآياتُ عِظَمَ جرمِ من قتل مؤمناً متعمداً، ويدخل في المؤمنين العصاةُ منهم.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني السابع والعشرون من سورة النساء
وجوب التثبت في أمر الذي أظهر الإسلام من الكفار

أولاً: تقديم

أمرنا اللهُ -تبارك وتعالى - إذا كنَّا مجاهدين أن نتبين في أمر الذي أظهر لنا الإسلامَ من أهل الكفر، ولا يجوزُ أن نبادر بقتل من أظهر الإسلام من هؤلاء بدعوى أنه إنما فعل ذلك لينجوَ من القتل، وبيَّن اللهُ بعد ذلك الأجرَ العظيم الذي يحوزه المجاهدون في جناتِ النعيم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾ [النساء:٩٤-٩٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- وجوبُ التثبت في الحربِ والقتالِ:

أوْجَبَ اللهُ -تبارك وتعالى- على المؤمنين إذا غزوْا في سبيلِ الله أن يتبينوا، ويتثبتوا، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ [النساء:٩٤] والضَرْبُ في سبيل الله: السفر للغزوِ والقتالِ في سبيل الله، والتبيّنُ: التَّثبتُ، فإذا ظهرَ ممن يرادُ قتلُهُ ما يدلُّ على إسلامه، فلا يجوزُ قتلُهُ، ولذلك قال ربُّ العزة: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ [النساء:٩٤].

وهذه الآية نزلتْ في شخصٍ ألقى السلامَ على المجاهدينَ في سبيلِ الله، فظنُّوا أنه غير صادقٍ في إيمانِهِ، وأنه ألقى عليهم السلامَ ليُحْرِزَ دَمَهُ، فقتلوه، فأنزلَ اللهُ -تعالى- هذه الآية

جنـــة الســـــنة

منكراً على من قتله، وأمر المؤمنين المجاهدين أن يتحققوا من إسلام مثل هذا الشخص قبل قتله.

ففي صحيح البخاري عن ابن عباسٍ قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء:٩٤] «كان رجلٌ في غُنَيْمَةٍ له، فلَحِقهُ المسلمونَ، فقالَ: السلامُ عليكم، فقتلوه، وأخذوا غنيمَتَهُ، فأنزل اللهُ في ذلك إلى قوله: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [النساء:٩٤]» [البخاري: ٤٥٩١. ومسلم: ٣٠٢٥].

وعن ابن عباس قال: «مرَّ رجلٌ من بني سُلَيْم بنفرٍ من أصحابِ النبيِّ ﷺ وهو يسوقُ غنماً له، فسلَّم عليهم، فقالوا: ما سلَّم علينا إلا ليتعوَّذَ منا، فعمدوا إليه، فقتلوه، وأتوْا بغنمهِ النبيَّ ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٩٤]» [عزاه ابن كثير (٢/٣٤٨) إلى أحمد والترمذي، ونقل عن الترمذي أنه قال: هذا حديث حسن صحيح].

وقوله تعالى: ﴿أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ﴾ أي: قال لكم: السلام عليكم، وقوله تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: الغنيمةَ، وعَرَض الدنيا: منافعُها، ومتاعُها، وسمي متاعُ الدنيا عَرَضاً، لأنه عارضٌ زائل، وقد علَّل اللهُ -تبارك وتعالى- للنهي عن القتلِ لأجلِ متاع الدنيا بقوله: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ وهي مغانمُ المعارك التي أحلَّها الله لهم، وغنائمُ الآخرةِ، أي: أجْرُها وثوابُها في جناتِ النعيم.

وقد ذكَّر اللهُ المسلمين بحالهم في أول إسلامهم حيث كانوا يُخفونَ إسلامهم عن أقوامِهِمْ، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [النساء:٩٤]. أي: تَسْتَخْفونَ بإيمانكم كما استخفى هذا الذي قتلتموه بإيمانِهِ، فمنَّ اللهُ عليكم بنصركُم وإظهارِ دينكم، وفي البخاريّ قال: قال حبيب بن أبي عَمْرَة، عن سعيدٍ، عن ابن عباسٍ، قال النبيُّ ﷺ للمقداد: «إذا كان رجلٌ مؤمنٌ يُخفي إيمانَه مع قومِ كُفَّارٍ، فأظْهَرَ إيمانَهُ فقَتَلْتَهُ، فكذلك كنتَ أنت تُخْفِي إيمانَكَ بمكة من قبلُ» [البخاري: ٦٨٦٦].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٩٤﴾ [النساء:٩٤] أي: خبير بما أضمرتموه من طلب عَرَضِ دنيا مَنْ قتلتموه.

٢- فَضْلُ المجاهدين على القاعدين:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى - عن عَدَم استواءِ القاعدين من المؤمنين غير أصحابِ الضَّرَرِ، والمجاهدين بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله، وأعلمنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنه فضَّلَ

جنـــــة السـنـــــة

منكراً على من قتله، وأمر المؤمنين المجاهدين أن يتحققوا من إسلام مثل هذا الشخص قبل قتله.

ففي صحيح البخاري عن ابن عباسٍ قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء:٩٤] «كان رجلٌ في غُنَيْمَةٍ له، فلَحِقهُ المسلمونَ، فقالَ: السلامُ عليكم، فقتلوه، وأخذوا غنيمَتَهُ، فأنزل اللهُ في ذلك إلى قوله: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [النساء:٩٤]» [البخاري: ٤٥٩١. ومسلم: ٣٠٢٥].

وعن ابن عباس قال: «مرَّ رجلٌ من بني سُلَيْم بنفرٍ من أصحابِ النبيِّ ﷺ وهو يسوقُ غنماً له، فسلَّم عليهم، فقالوا: ما سلَّم علينا إلا ليتعوَّذَ منا، فعمدوا إليه، فقتلوه، وأتوْا بغنمهِ النبيَّ ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٩٤]» [عزاه ابن كثير (٢/ ٣٤٨) إلى أحمد والترمذي، ونقل عن الترمذي أنه قال: هذا حديث حسن صحيح].

وقوله تعالى: ﴿أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ﴾ أي: قال لكم: السلام عليكم، وقوله تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: الغنيمةَ، وعَرَض الدنيا: منافعُها، ومتاعُها، وسمي متاعُ الدنيا عَرَضاً، لأنه عارضٌ زائل، وقد علَّل اللهُ -تبارك وتعالى- للنهي عن القتلِ لأجلِ متاع الدنيا بقوله: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ وهي مغانمُ المعارك التي أحلَّها الله لهم، وغنائمُ الآخرةِ، أي: أجْرُها وثوابُها في جناتِ النعيم.

وقد ذكَّر اللهُ المسلمين بحالهم في أول إسلامهم حيث كانوا يُخفونَ إسلامهم عن أقوامِهِم، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [النساء:٩٤]. أي: تَسْتَخْفونَ بإيمانكم كما استخفى هذا الذي قتلتموه بإيمانِه، فمنَّ اللهُ عليكم بنصركم وإظهارِ دينكم، وفي البخاريّ قال: قال حبيب بن أبي عَمْرَة، عن سعيدٍ، عن ابن عباسٍ، قال النبيُّ ﷺ للمقداد: «إذا كان رجلٌ مؤمنٌ يُخفي إيمانَه مع قومٍ كُفَّارٍ، فأظْهَرَ إيمانَهُ فقَتَلْتَهُ، فكذلك كنتَ أنت تُخْفِي إيمانَكَ بمكة من قبلُ» [البخاري: ٦٨٦٦].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٩٤﴾ [النساء:٩٤] أي: خبير بما أضمرتموه من طلب عَرَضِ دنيا مَنْ قتلتموه.

٢- **فَضْلُ المجاهدين على القاعدين:**

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن عَدَم استواءِ القاعدين من المؤمنين غير أصحابِ الضَّرَرِ، والمجاهدين بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله، وأعلمنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنه فضَّلَ

جنـــــة السـ‍ـــــنة

المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجةً، أي: درجةً عظيمةً، ومع هذا التفضيل فالقاعدون والمجاهدون وعدهم اللهُ الحسنى، ثم أخبرنا أنَّه سبحانه فضَّل المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً، ويتمثل هذا الأجرُ بالدرجات العالية التي يعطيها اللهُ للمجاهدين في جنَّاتِ النعيم، وغفران ذنوبهم، ورحمةِ الله الواسعة التي تحلُّ بهم، واللهُ سبحانه كثيرُ الغفرانِ والرحمة ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء: ٩٥-٩٦].

وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ أنَّ الدرجات التي أعدَّها اللهُ للمجاهدين مائةُ درجةٍ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، ففي مسلم عن أبي سعيد الخدريّ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «يا أبا سعيد، من رضي بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ نبيّاً، وَجَبَتْ له الجنَّة» فعجبَ لها أبو سعيدٍ، فقال: أعِدْها عليَّ يا رسول الله، ففعلَ، ثم قال: «وأخرى يرْفَعُ بها العبدَ مائة درجةٍ في الجنةِ، ما بينَ كلِّ درجتين كما بين السماء والأرض» قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهادُ في سبيل الله، الجهادُ في سبيلِ الله» [مسلم: ١٨٨٤].

وقد نزلتْ الآيةُ في أول الأمر هكذا «لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم» فقال ابن أُمِّ مكتومٍ: لو أستطيعُ الجهادَ لجاهدتُ، وكان أعمى، فأنزل اللهُ: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾.

روى البخاريُّ عن زيدِ بن ثابتٍ أن رسولَ الله ﷺ أملَى عليه: «لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله» فجاءَه ابنُ أُمّ مكتوم وهو يمليها عليَّ، قال: يا رسولَ الله، والله لو أستطيع الجهادَ لجاهدتُ، وكان أعمى، فأنزل اللهُ على رسوله ﷺ، وفَخْذُه على فخذي، فثقلتْ عليَّ، حتى خِفْتُ أن ترضَّ فَخِذي، ثم سُرِّيَ عنه، فأنزل الله: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾ [البخاري: ٤٥٩٢].

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أنَّ القاعدين عن الجهاد الذين أصابهم الضرر كانوا يَشرَكُون المجاهدين في الأجر، ففي صحيح مسلم عن جابر قال: كنا مع النبي في غزاةٍ، فقالَ: «إنَّ بالمدينة لرجالاً ما سِرْتُمْ مَسيراً، ولا قَطَعْتُمْ وادِياً، إلا كانوا معكم، حَبَسُهم المرض» وفي حديث وكيع: «إلا شَرَكوكم في الأجْر» [مسلم: ١٩١١].

جنـــــة السـنـــــة

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - لا يجوزُ المسارعة إلى قتل من أظهر الإسلام بدعوى أنه أسلم ليحفظ دمه، بل يجب التثبتُ في الأمر قبل المبادرة إلى القتل.

٢ - لامَ اللهُ -تبارك وتعالى- الصحابةَ الذين قتلوا من ألْقى عليهم السلام، فلم يرضَوْا بإيمانِهِ، وقتلوه، وساقوا غنيمته.

٣- نهى اللهُ عن قتل الذي ألقى إليهم السلام لأجلِ عرضِ الدنيا ومتاعِها الزائل، ورغَّبَ اللهُ تعالى عن عرض الدنيا الزائل بما عنده تعالى من المغانم الكثيرة في الدنيا والآخرة.

٤ - وَعَظَ اللهُ المؤمنين الذين قتلوا الرجل الذي ألقى إليهم السلام بأنهم كانوا من قبل كاتمين إسلامَهُمْ عن قومِهِمْ مثلما كان هذا الرجل كاتماً إسلامه.

٥ - الجهادُ فرضُ كفايةٍ إذا قامَ به من يكفي سقطَ عن الباقين، ويصبحُ فرضَ عين إذا اجتاحَ العدوُّ ديارَهُمْ، فإن لم يكف عددُ المقاتلين لدفعِ الكفار المهاجمين وجب الجهاد على من يليهم، وهكذا.

٦ - فضلُ المجاهدين على القاعدين، فقد أعدَّ اللهُ للمجاهدين في الجنة مائةَ درجةٍ، بين كلِّ درجتين كما بين السماء والأرض.

٧- الذين يطمعون في الجهاد من أصحاب الأضرار كالمرضى والذين أمرهم الخليفة بالبقاءِ في الديار يَشرَكُون المجاهدين في الأجر والثواب.

٨- الكافر الذي أظهر الإسلامَ يحكمُ لهُ بالإسلامِ، والمرتدُّ الذي أظهر التوبة والإسلام يحكم له بالإسلام حتى يأتي ما يناقض ذلك.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الثامن والعشرون من سورة النساء

﴿قَالُوٓاْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾

أولاً: تقديم

أوجَبَ الله على المؤمنين أن يهاجروا إلى المدينة، ويفارقوا المشركين، وينصروا المؤمنين، وقد ذمَّ اللهُ أقواماً كانوا قادرين على الهجرة فتقاعسوا، ولم يهاجروا، أما الذين لا يستطيعون الهجرة مِنَ الرجال والنساء والولدان فأولئك عفا اللهُ عنهم، وقد وَعَدَ اللهُ -تعالى- المهاجرينَ بالتوسعة عليهم في الدنيا، والأجر العظيم في الآخرة.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ﴿٩٩﴾ ۞وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء:٩٧-١٠٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ظُلْمُ الذين لم يهاجروا إلى المدينة أنفسَهم:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الذين كانوا قادرين على الهجرة من مكة إلى المدينة، فلم يهاجروا كانوا ظالمين لأنفسهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء:٩٧].

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في هذه الآية عن الذين توفَّتْهُمْ الملائكةُ، أي: قبضتْ أرواحَهُمْ، وهم ظالمون لأنفسهم، أي: بتركهم الهجرةَ من مكةَ إلى المدينة، وأخبرنا ربُّنا عزَّ وجل أنَّ الملائكةَ سألتهم منكرةً عليهم موبخةً لهم، وهي تقبضُ أرواحَهُمْ: فيم كنتم؟ أي: سألتهم عن السببِ في تركهم الهجرةَ، فأجابوا قائلين: كنا مستضعفين في الأرضِ، أي: كنا لا نستطيع الخروجَ من أرضنا، فمرادهم بالأرض التي استضعفوا فيها مكة. فأكذبتهم الملائكةُ

جنـــــة الســـــنة

في دعواهم أنهم كانوا مستضعفين في الأرضِ، فقالوا لهم سائلين إيّاهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ فإذا كانوا مستضعفين في مكة، فإنَّهم قادرون على الخروج من مكَّةَ، والخلاصِ من مشركي مكة بالخروج إلى المدينة.

وقد حَكَمَ اللهُ على هؤلاء الذين آثروا المقامَ في مكَّة لإحراز أموالهم وأولادهم، وقد تُوفِّي بعضٌ منهم في مكة، وخرجَ آخرون منهم للقتالِ مع المشركين، فقتل بعضٌ منهم في ميدان المعركة، وأُسر آخرون منهم، منهم العباسُ بنُ عبدالمطلب، وأحدُ أبناء أخيه، وقد حكمَ اللهُ تعالى على الذين قتلوا في مكةَ أو في معركة بدرٍ بأنَّ ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾.

روى البخاريُّ عن ابن عباس، قال: «إنَّ ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين، يكثرون سواد المشركين على عهدِ رسول الله ﷺ ، يأتي السهم، فيرمى به، فيصيب أحَدَهُمْ فيقتلُه، أو يُضْربُ فيُقتلُ، فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية» [البخاري: ٤٥٩٦، ٧٠٨٥].

وعن ابن عباسٍ قال: «كان قومٌ من أهلِ مكة أسْلَموا، وكانوا يستخفونَ بالإسلام، فأخرَجَهُمْ المشركون يوم بدرٍ معهم، فأُصيب بعضُهُمْ فقال المسلمون: كان أصحابنا مسلمين وأُكْرِهوا فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية قال: فكُتِبَ إلى مَنْ بقي بمكة مِنَ المسلمين بهذه الآية، وأنه لا عذر لهم. قال: فخرجوا، فلحقهم المشركون، فأعطوهم الفتنةَ، فنزلتْ فيهم ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت:١٠] إلى آخر الآية، فكتب إليهم المسلمونَ بذلك، فحزنوا وأيسوا من كلِّ خير، ثم نزلت فيهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [النحل:١١٠]، فكتبوا إليهم بذلك: إنَّ الله قَدْ جعلَ لكم مخرجاً، فخرجوا، فأدركهم المشركون، فقاتلوهم، حتى نجا من نجا، وقتل من قتل» [الطبري ٣/ ٢٤٥. وحكم محقق ابن كثير على إسناده بالصحة، وقال رجاله ثقات، ابن كثير: ٢/ ٣٥٥] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً﴾ والسعةُ في الأرضِ تعني السعةَ في الرِّزْقِ، وكثرة المعاقلِ، وبذلك يخلصُ المرءُ ممن يجبره على الكفر والظلم والفسادِ.

٢– عفوُ الله تعالى عَنْ المستضعفينَ الذين لا يقدرونَ على الهجرةِ:

أخبرنا ربُّنا –تبارك وتعالى– أنَّه عفا عن المسلمينَ غيرِ القادرين على الهجرةِ من الرجالِ والنساءِ والولدانِ، لضعفِهِمْ وقلَّةِ حيلتهم ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا

جنـــــة السـنــــة

يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء:٩٨-٩٩].

وكان مِنَ المستضعفين بمكةَ عبدُالله بن عباسٍ وأُمُّه، ومنهم عياشُ بنُ ربيعة، وسلمةُ ابن هشامٍ، والوليدُ بن الوليدِ، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كنتُ أناً وأمي من المستضعفين، أنا من الولدان، وأمي من النساء» [البخاري: ١٣٥٧].

وقد كان الرسولُ ﷺ يدعو ربَّه أن يُنْجِيَ المستضعفين من المسلمين في مكَّة، فعن أبي هريرة ﷺ قال: بينما رسولُ الله ﷺ يصلي العشاء، إذ قالَ: «سمعَ اللهُ لمن حَمِدَهُ». ثم قالَ قبل أن يسجد: «اللهمَّ نجِّ عياشَ بن ربيعةَ، اللهمَّ نجِّ سلمةَ بنَ هشامٍ، اللهمَّ نجِّ الوليدَ بنَ الوليدِ، اللهم نجِّ المستضعفين من المؤمنين، اللهمَّ اشْدُدْ وطْأتَكَ على مُضَرَ، اللهم اجْعَلها عليهِمْ سِنين كَسِني يوسُفَ» [البخاري: ٤٥٩٨. مسلم: ٦٧٥].

وقوله ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾ والحيلة ما يتوصل به المرءُ إلى مبتغاه في خُفْية، وأكثر ما تكون في الشرِّ والفسادِ، وقد تكون فيما فيه خيرٌ وصلاحٌ، كالذي يتخلص من الكفار بأن يجد طريقةً يهاجر فيها إلى ديار الإسلام، ومن ذلك احتيالُ نعيم بن مسعود للتفريق بين مشركي قريش واليهود، وكما فعل الحجاجُ بن عِلاط بالكذبِ على زوجتِهِ وأهلِ مكةَ حتى استخلصَ منهم مالَهُ، وكما احتالَ بعضُ الصحابةِ لقتلِ كعبِ بن الأشرف وابن أبي الحقيق، وأبي رافعٍ مِنَ اليهود وغيرهم، فهذه حيلٌ محمودة.

وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ هؤلاء المستضعفين الذين لا يجدون حيلةً للخلاص من الكفار ولا يهتدون سبيلاً، فإنَّه تعالى عسى أن يعفو عنهم، و﴿عَسَى﴾ من الله تعالى واجبةٌ، لأنها للإطماعِ، واللهُ تعالى إذا أطمع عَبْدَه وَصَلَهُ إليه.

وختم اللهُ الآية بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ أي: كثيرُ المغفرةِ والرحمة سبحانه.

٣- وجوبُ الهجرة إلى المدينة:

حرَّض اللهُ تعالى المؤمنين على الهجرة في سبيلِ الله تعالى، ووَعَدَ المهاجرينَ برزقهم والتوسعةِ عليهم في الدنيا، وبالأجر العظيم في الآخرة ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء:١٠٠].

جنـــــة الســــــنة

«والمراغم: السَّعَةُ والمضْطَرَبُ، وقيلَ: المَذْهَبُ والمَهْرَبُ في الأرض وقال أبو إسحاق في قوله تعالى: ﴿يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا﴾ المعنى: يجد في الأرض مهاجَراً، لأن المهاجِرَ لقومه والمراغم بمنزلة واحدة، وإن اختلف اللفْظانِ» [لسان العرب: ١/ ١١٩٣].

وأخبرنا ربُّنا عز وجل أن الذي يهاجرُ في سبيل الله فإنه يراغمُ عدوَّ الله وعدوَّه، وقيامُ العبدِ بالأعمال التي تغيظ الكفار، ومنها الهجرة في سبيل الله فيها أجرٌ عظيمٌ، وثوابٌ جزيلٌ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [التوبة: ١٢٠].

ووَعَدَ اللهُ المهاجرَ بأن يوسِّعَ عليه في رزقِهِ، ووَعَدَ الذي يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله، ثم يُدْرِكهُ الموتُ، أي: يموتُ في طريقِهِ إلى البلدِ الطيب الذي هاجر إليه، فقد ثبت أجره، وإن لم يصل إلى البلد الذي هاجر إليه.

وقد أخبرنا رسولُ الله ﷺ في الحديث الذي يرويه عمرُ بنُ الخطاب أنَّ: «الأعمال بالنية، ولامرئ ما نوى، فمن كانت هجرتُه إلى الله ورسولِهِ، فهجرتُه إلى الله ورسوله، ومن كانتْ هجرتُه لدنيا يصيبُها، أو امرأةٍ يتزوَّجُها، فهجرتُه إلى ما هاجر إليه» [البخاري: ٢٥٢٩. مسلم: ١٩٠٧]. ومعنى هجرته إلى الله ورسوله، أي: هجرته مقبولةٌ عند الله.

وأخبرنا رسولُنا ﷺ عن ذلك الذي قَتَلَ تسعةً وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فسأله: أله توبة؟ فقال: لا، فقتلَهُ، فأتمَّ بقتلِهِ المائةَ، ثم سأل عن أعلمِ أهل الأرض، فأخبره أنَّ له توبة، وأرشده أنْ يهاجرَ من البلدة الخبيثةِ إلى أرضٍ طيبة، أهلها صالحونَ، وأخبر الرسولُ ﷺ أن الله تاب عليه [الحديث في البخاري: ٣٤٧٠. ومسلم: ٢٥٥٠].

رابعاً: ما تهدي إليه الآياتُ من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - عِظَمُ جُرْم الذين يجبُ عليهم الهجرةُ في سبيل الله، ثم يتقاعسون عنها، مع قدرتهم عليها.

٢ - الذين لا يستطيعونَ الهجرةَ من الرجالِ والنساءِ والولدانِ داخلون في عفو الله.

٣ - رغَّبَ اللهُ المؤمنين الراغبين بالهجرةِ بأن يوسِّعَ عليهم في الرِّزْقِ في الدنيا، وبالأجر العظيم في الآخرة.

٤ - يجوزُ للمؤمن أنْ يلجأ إلى حيلة يخلصُ بها من الكفار، أو يُفرِّقُ فيها بيْنَ الأعداءِ في الحربِ والقتالِ، أو يخلِّصُ مالَهُ من أعدائه.

٥ - الذي يخرجُ مهاجراً أو غازياً، فيدركهُ الموتُ قبل أنْ يصلَ إلى دارِ هجرته، أو قبلَ أن يقاتلَ عدوَّه، فقد وقع أجرُهُ على الله.

جنـــــة السـنة

النص القرآني التاسع والعشرون من سورة النساء
قَصْرُ الصلاة في الخوف والسفر

أولاً: تقديم

شَرَعَ اللهُ -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ صلاةَ الخوفِ، وبيَّن لنا كيفَ نُصَلِّيها، وأمرنا بأن نأخذ أسلحتنا ونحن نصلي لربِّنا، خشية أن ينتهز العدو الفرصةَ، فيميلَ علينا، ويستأصلنا ونحن نصلِّي، وأذِنَ لنا بوضع السِّلاح إذا أصابنا أذى، كأن ينزل بنا مَطَر، أو يحلَّ بنا مَرَضٌ، ومع إذنه تبارك وتعالى لنا بذلك، فقد أمرنا أن نكون دائمي الحذر من العدوِّ، فإذا أمِنَّا وَجَبَ علينا أن نأتي بالصلاةِ تامَّةً كاملةً في أوقاتِها التي حَدَّدَها لنا ربُّنا.

ونهانا ربُّنا عن أن نَضْعُفَ في طلبِ خصومنا، فإننا وإن كنا وإياهم سواءً فيما يصيبنا من جراحٍ وألم، فإننا نرجو من الله ما لا يرجونه مِنَ النصرِ في الدنيا وثواب الآخرة.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةًۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [النساء:١٠١-١٠٤].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أباحَ اللهُ للمسافرِ أنْ يقصرَ الصلاةَ:

أباحَ اللهُ -تعالى- للمسافر أن يصلي كلاًّ من صلاة الظهر والعصر والعشاء ركعتين ركعتين، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ ﴾ [النساء:١٠١].

جنـــــة السـنـــــة

والضَّرْبُ في الأرض: السفر في الأرض، قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل:٢٠] أي: مسافرون للتجارة.

وذهب أكثرُ أهلِ العلم إلى جوازِ قصْرِ الصلاة في السفر، لقوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ وذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أنَّ الرسول ﷺ كان يقصر الرباعية، فيصليها ركعتين من حين يخرُجُ مسافراً إلى أن يرجعَ إلى المدينةِ، ولم يثبتْ عنه أنَّه أتمَّ الرباعية في سفره ألبتة، وأما حديث عائشة أنَّ النبي ﷺ كان يقصر في السفر ويتمُّ، فلا يصحّ، وسمع شيخه شيخَ الإسلام ابن تيمية يقول: «هو كذب على رسول الله ﷺ» [زاد المعاد: ١٦٨] وما ذهبَ إليه ابن القيم هو القولُ الراجحُ.

والصوابُ مِنَ القولِ أنّ السفرَ الذي تُقصَرُ فيه الصلاةُ هو سفرُ الطاعةِ والسفرُ المباح، كالسفر للجهادِ والحجِّ والعمرة وصلةِ الرحِم وسفرِ التجارة ونحو ذلك، ولا يجوز القصرُ في سَفَرِ المعصية، كالسَّفر لقطعِ الطريق، وإعانةِ الظالِم.

وقد ذهب قِلَّةٌ من أهلِ العلم إلى أنَّ السَّفَر الذي يباحُ فيه القصرُ هو السَّفر الذي نخشى فيه على أنفسنا من أعدائنا، لقوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ .

والصواب أنَّ القصرَ مباحٌ في حالِ الأمنِ وحالِ الخوفِ، لأن قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ خَرَجَ مخرجَ الغالبِ في الوقت الذي نزلت الآية فيه فجلُّ أسفارِهم إن لم تكن كلّها في ذلك الوقت مخوفةً، والمنطوقُ إذا خَرَجَ مخرجَ الغالب، فلا مفهومَ له، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور:٣٣].

ويدلُّ لصحة هذا القول ما رواه مسلمٌ عن يَعلَى بن أُميَّةَ، قال: قلتُ لعمرَ بن الخطاب: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ فقد أمِنَ النَّاس؟ فقال: عَجِبْتُ مما عَجِبْتَ منه، فسألتُ رسولَ الله ﷺ عن ذلك، فقال: «صَدَقةٌ تَصدَّقَ اللهُ بها عليكُمْ، فاقْبَلُوا صَدَقتَهُ» [مسلم: ٦٨٦].

وهذا الحديثُ نصٌّ صريحٌ دالٌّ على جوازِ القصر في السفر في حالِ الأمن وحالِ الخوف. وقد جاءت الأحاديث كثيرةً طيبةً تصرِّح بأنَّ الرسول ﷺ كان يصلي قَصْراً وهو مسافر آمن، فعن أنس قال: «خَرَجْنا مع النبيِّ ﷺ مِنَ المدينة إلى مكّة، فكان يصلي ركعتين ركعتين، حتى رجعنا إلى المدينة، قلت: أقمتم بمكة شيئاً؟ قال: أقمنا بها عَشْراً» [البخاري: ١٠٨١. ومسلم: ٦٩٣].

وعن ابن عباس «أن النبي ﷺ خَرجَ مِنَ المدينةِ إلى مكةَ لا يخافُ إلا ربَّ العالمين فصلَّى ركعتين» [الترمذي: ٥٤٧، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيح].

وعن حارثةَ بن وهبٍ الخزاعيّ ﷺ قال: «صلى بنا النبيُّ ﷺ ونحن أكثر ما كنا قَطُّ وآمَنُهُ، بمنى ركعتين» [البخاري: ١٦٥٦. ومسلم: ٦٩٦].

وروى ابن مسعودٍ «أنَّه صلى مع رسول الله ﷺ، ثم مع أبي بكر، ثم مع عمر، ركعتين ركعتين» [البخاري: ١٠٨٤. ومسلم: ٦٩٥].

فهذه الأحاديثُ وغيرها كثيرةٌ صريحةٌ في القصر في السَّفر، وليس من شَرْطِهِ وجودُ الخوفِ، وهي صريحةٌ في أنَّ القصر قصرُ الرباعيةِ ركعتين.

وقوله تعالى: ﴿أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: يدخلَكم الكفارُ في الفتنة، أي: في البلاءِ والعذاب لتتركوا دينكم، وتكفروا بربكم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾ بَيّنَ الله تعالى في هذا الجزء من الآية السببَ الذي يدعو الكفارَ إلى فتنة المؤمنين، فالكفارُ أعداءٌ للمؤمنين، وعداوتهم بيِّنةٌ واضحةٌ ومن أجْلِ ذلك هم يودُّون أن يغلبوا المؤمنين، ويقهروهم، ويفتنوهم.

٢- مشروعية صلاة الخوف:

شرعَ اللهُ للمؤمنين أن يصلُّوا صلاةَ الخوفِ إذ حَضَرهم الخوفُ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء:١٠٢].

وقد وَرَدَ في سنن أبي داود ذكرُ سببِ نزولِ هذه الآية، فعن أبي عيَّاشٍ الزُّرَقيِّ، قالَ: كنا مع رسولِ الله ﷺ بعُسْفانَ، وعَلَى المشركينَ خالدُ بنُ الوليدِ، فصلَّيْنا الظُّهْرَ، فقال المشركونَ: لقد أصبنا غِرَّةً، لقد أصبنا غفلةً، لو كنا حَمَلْنا عليهم، وهُمْ في الصلاةِ، فنزلتْ آيةُ القَصْرِ بين الظُّهرِ والعصرِ.

فلما حَضَرَت العصرُ قامَ رسولُ الله ﷺ مُسْتَقْبِلَ القبلة والمشركون أمامَهُ، فصفَّ خلفَ رسولِ الله ﷺ صَفٌّ، وصَفَّ بعد ذلك الصَّفِّ صَفٌّ آخرُ، فركَعَ رسولُ الله ﷺ، وركَعُوا جميعاً، ثم سَجَدَ وسَجَدَ الصفُّ الذين يَلونَهُ، وقام الآخرون يَحْرُسُونَهُمْ، فلما صلَّى هؤلاءِ السَّجْدَتَيْنِ، وقاموا، سَجَدَ الآخرونَ الذين كانوا خَلْفَهُم، ثم تأخَّرَ الصفُّ الذي يليه إلى مقامِ

جنـــــة السـنـــــة

الآخرينَ، وتقدَّمَ الصفُّ الأخيرُ إلى مقامِ الصفِّ الأول، ثم رَكَعَ رسولُ الله ﷺ وركَعُوا جميعاً، ثم سَجَدَ وسَجَدَ الصفُّ الذي يَليهِ، وقام الآخرونَ يَحْرُسُونَهُمْ، فلما جَلَسَ رسولُ الله ﷺ والصفُّ الذي يَليه سَجَدَ الآخرونَ، ثم جَلَسوا جميعاً، فسلَّمَ عليهم جميعاً فصلاَّها بعُسْفانَ، وصلاَّها يومَ بني سُلَيْمٍ.

وقد ذكر أبو داود أن هذا الحديث رواه أيضاً بأسانيد صحيحة عن جابر وابن عباس وأُبَيٍّ [أبو داود: ١٢٣٦. وصححه الألباني، صحيح سنن أبي داود: ١٠٩٦].

وهذه الصفة المذكورة في الحديث السابق، هي التي ذكرت في هذه الآية.

وقد صحّ عن رسولِ الله ﷺ أنه صلَّى صلاةَ الخوفِ بأكثر من صفةٍ، ففي صحيح مسلم عن جابر أنَّهم كانوا مع رسول الله ﷺ بذات الرِّقاع، فنُودِيَ بالصلاةِ، فصلَّى بطائفةٍ ركعتين، ثم تأخروا، وصلَّى بالطائفة الأخرى ركعتين. قالَ: «فكانت لرسولِ الله ﷺ أربعُ ركعاتٍ، وللقومِ ركعتان» [مسلم: ٨٤٣].

وعن صالح بن خَوَّاتٍ، عمَّنْ شَهِدَ رسولَ الله ﷺ يومَ ذاتِ الرقاعِ أنه صلَّى صلاةَ الخوف، فصَفَّتْ طائفةٌ معه، وطائفةٌ وِجاهَ العدوِّ، فصلى بالتي معه ركعةً، ثم ثَبَتَ قائماً، وأتمُّوا لأنفسهم، ثم انصرفوا، فصفُّوا وِجاهَ العدوِّ، وجاءت الطائفة الأخرى، فصلَّى بهم الركعةَ التي بقيتْ من صلاتِهِ، ثم ثبت جالساً، ثم سلَّم بهم [البخاري: ٤١٢٩. مسلم: ٨٤٢].

والأحاديثُ التي وصفت لنا صلاةَ الرسول ﷺ في الخوف كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أردتَ إقامةَ الصلاةِ، والطائفةُ: الفرقةُ، وقد أمرهم الله تعالى أن يصحبوا معهم سلاحَهُمْ إذا هم قاموا إلى الصلاة، حتى يتمكنوا من مقاتلةِ الأعداء إن هم شَنُّوا عليهم الغارةَ، وهم في الصلاة، وأمَرَ الله المؤمنين أن يكونوا دائماً حذرينَ يقظين، وأن يصحبوا معهم أسلحتهم دائماً.

وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الكفار يودُّون ويتمنَّوْن أن نغفلَ عن أسلحتنا وأمتعتنا، فيميلون علينا ميلةً واحدةً، أي: يحملونَ عليكم حملةً واحدةً، فيستأصلونكم، ويذهبون بكم ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [النساء:١٠٢].

٣- أباحَ اللهُ للمقاتلين أنْ يضعوا أسلحتَهُمْ في حالِ المرضِ والمطر:

رخَّصَ اللهُ تعالى للمقاتلين أن يضعوا أسلحتهم في حال وجودِ أذى يلحقُ بهم، كأن يصيبهم المطر، أو يكونوا مرضى، ومع ترخيصه لهم بوضعِ أسلحتهم أمرهم بأنْ يحذروا

جنـــــة الســـــنة

عدوَّهم ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء:١٠٢] وختم الله تعالى هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء:١٠٢].

وفي ذلك تقوية لقلوب المؤمنين لأنه أخبرنا أنه أعدَّ للكافرين عذاباً مهيناً، يقهرهم، ويذلُّهم، ولا يستطيعون منه خلاصاً ولا فكاكاً.

٤- ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- المجاهدين بعد أنْ يتمُّوا صلاةَ الخوفِ بأن يذكروا اللهَ في حال قيامهم وقعودهم وعلى جنوبهم، أي: على كلِّ أحوالهم ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣].

ثم أمرنا ربّنا -تبارك وتعالى- إذا اطمأننا، أي: إذا أَمِنَّا، وزال الخوف عنَّا أن نقيم الصلاةَ بأن نأتي بها تامَّةً كاملةً، بخشوعها وركوعها وسجودها وجميع صفاتِها ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء:١٠٣].

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ الصلاةَ مكتوبةٌ على المؤمنين، أي: مفروضةٌ، و﴿مَّوْقُوتًا﴾ لها وقتٌ تبدأ فيه، لا يجوزُ أنْ تُصلَّى قبل دخوله، ولها وقتٌ تنتهي إليه، لا يجوز تأخيرها عنه، فالصبحُ من طلوعِ الفجرِ إلى طلوع الشمس، والظهرُ من الزوال إلى أن يصير ظلُّ الشيءِ مثله، والعصرُ من مصير ظلِّ الشيء مثله إلى اصفرار الشمس، وفي الضرورة إلى غروب الشمس، والمغربُ من مغيبِ الشمس إلى غياب الشفق الأحمر، والعشاءُ من مغيب الشفق الأحمر إلى طلوع الفجر.

٥- **تحريضُ المؤمنين على القتال:**

نهى اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنين في الآية الأخيرة من هذا النصِّ عن أن يهنوا في طلب أعدائهم وقتالهم ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ [النساء:١٠٤] والوَهَنُ: الضَّعْفُ، ومن ذلك قولُ زكريا عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم:٤]، والمراد بالقوم: أعداء المؤمنين مِنَ الكفارِ، وقوله: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء:١٠٤] أي: إن كنتم تتوجعون لما أصابكم من السفر والقتالِ والقتلِ والجرح، فإنَّ أعداءَكم يصيبهم مثلُ ما أصابكم، فأنتم وإياهم في هذا سواءٌ، ولكنكم تفضلونهم بأنكم

جنـــــة الســـــــنة

ترجونَ من الله ما لا يرجونَه، فأنتم تجاهدون في سبيلِ الله، وترجون مِنَ الله النصرَ، وترجون في الآخرة الأجرَ المتمثل فيما يهبه اللهُ للمجاهدين من الخلود في جنات النعيم، وختم اللهُ تعالى الآية بقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [النساء:١٠٤] والعليمُ الحكيمُ لا يأمركم إلا بما فيه خيركم وصلاحكم في العاجلِ والآجلِ.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- شرع اللهُ تبارك وتعالى لنا أن نَقْصُرَ الصلاةَ في حالِ السفر، وذلك بأن نصلي الرباعية ركعتين.

٢- الشرط في قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ لا مفهومَ له، فقدْ دلَّت جملةٌ مِنَ الأحاديث على مشروعية القصر في صلاةِ السفر خفنا أو لم نخف، وهذا الشرط خرج مخرجَ الغالب، فلا مفهوم له.

٣- يبدأ المسافرُ بالقصرِ إذا غادر ديارَ بلده، لأنه لا يكون ضارباً في الأرض إلا بذلك، ولا يكونُ ضارباً في الأرضِ بنيتِهِ السفر.

٤- القصرُ في الصلاةِ فيه عونٌ على سفرِ الطاعةِ والسفرِ المباح، أما سفرُ المعصيةِ فلا يجوزُ أن يستعانَ عليه بالقصر.

٥- علينا أن نحذَرَ من الكفار، فإنهم أعداءٌ لنا عداوتهم بيِّنة.

٦- صلاةُ الخوفِ تصلَّى في السفر والحَضَر، أما القصرُ من غيرِ خوفٍ فلا يكون إلا في السفر.

٧- بيّنَ القرآنُ الكريمُ كما بيَّنت السُّنَّةُ النبويةُ أنَّ صلاةَ الخوفِ لها أكثر من كيفية، ويأخذُ المقاتلون منها الكيفية الأنسبَ لحالهم، وقد بيَّنَت هذه الآية واحدة من حالات صلاة الخوف، وصورُ صلاةِ الخوف التي وردتْ قديماً قد لا تناسبُ الحالَ في عصر الصواريخ والقنابل، لأن تجمعَ الجيش كُلِّه في مكانٍ واحد، قد يزيل وجودهم إذا انصبت عليهم الصواريخُ والقنابلُ، فيلزم أن يصلُّوا فرادى في بعض الأحيان، أو يصلي كلُّ اثنين أو ثلاثةٍ أو أربعةٍ معاً.

٨- على المجاهدين ألاَّ يغفلوا عن أسلحتهم، بل عليهم أن يأخذوها معهم في صلاتهم، خشية أن ينتهز الكفار الفرصة، فيقضون عليهم، وهم في صلاتهم.

جنـــــة السـنــــــة

٩- إذا أصابَ المجاهدينَ أذى من مطرٍ أو مرضٍ حلَّ لهم وضعُ أسلحتهم، ومع ذلك عليهم الحذرُ من عدوهم.

١٠- على المؤمنِ أن لا ترهبه قوَّةُ عَدُوِّه، فاللهُ هو القويُّ الغالبُ، وقد أعدَّ للكافرين عذاباً مهيناً.

١١- حثَّ اللهُ -تبارك وتعالى- المجاهدين على ذِكْرِه في كلِّ أحوالهم بعد أن يتموا صلاةَ الخوفِ.

١٢- يجبُ على المؤمنين إذا زال عنهم الخوفُ، وأصبحوا آمنين أن يأتوا بالصلاةِ على الوجهِ التامِّ الكاملِ، فالصلاةُ واجبةٌ على المؤمنين في أوقاتها التي حدَّدها ربُّنا لنا.

١٣- حرَّضَ اللهُ المؤمنين على قتالِ أعدائهم وليدركَ المؤمنون معنى ما أمرهم به أخبرهم أنهم يشْتوون مع أعدائهم فيما يصيبهم في القتالِ والنزالِ، ولكنهم يرجون من الله النصر والغلبَ، وفي الآخرة الأجر والثوابَ.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني المتمم للثلاثين من سورة النساء
لا يجوز للمسلم أن يجادل عن الذين يختانون أنفسهم

أولاً: تقديم

وضعَتْ آياتُ هذا النص للرسولِ ﷺ ولأصحابِهِ وللذين اتبعوه من أُمته بإحسانٍ الموقفَ الحقَّ الذي يجبُ عليهم أنْ يَقِفوهُ من الذين يختانون أنفسهم، فقد وقعت في العهدِ النبويِّ واقعةٌ دافعَ فيها بعضُ الصحابةِ عن الذين اختانوا أنفسهم، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيات، تبيِّنُ الموقفَ السديد الذي يجب أن يلتزمه المؤمنون في هذه الحال وأمثالها.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [النساء:١٠٥-١٠٩].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- وجوبُ الحكم بما أنزلَ الله في كتابه وما أراه الله لنبيِّه:

أخبر اللهُ -تبارك وتعالى- نبيَّه ﷺ أنَّه أنزل عليه كتابه، وهو القرآن العظيمُ، ليحكم بين الناس بما أراه اللهُ، ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ [النساء:١٠٥] فإن كان الحكم منصوصاً عليه في كتاب الله حكَّمَ ذلك النصّ، وإلا فإنّه يجتهدُ فيما عرض عليه، وفي النصِّ وَعْدٌ من ربِّ العباد لرسولِهِ ﷺ بأن يريَهُ ما ينبغي أن يحكمَ فيه إن لم يكن الحكم منصوصاً عليه.

وقد جاءت أحاديثُ كثيرة تدلُّ على أنَّ رسول الله ﷺ كان يجتهد في الحكم، فعن أمِّ سلمة رضي الله عنها، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنكم تَخْتَصِمونَ إليَّ، ولعلَّ بعضَكُمْ ألْحَنُ بحُجَّتِهِ من بعضٍ، فمن قضَيْتُ له بحقِّ أخيهِ شيئاً بقولِهِ، فإنَّما أَقْطَعُ له قِطْعَةً من النارِ، فلا يأْخُذْها» [البخاري: ٢٦٨٠. مسلم: ١٧١٣. وسنن أبي داود: ٣٥٨٣].

جنـــــة السـنـــــة

وخَتَمَ اللهُ -تبارك وتعالى- الآيةَ بنهي الرسولِ ﷺ أنْ يكونَ خصيماً للخائنين ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء:١٠٥] أي: لا تكن معيناً لهم، ومدافعاً عنهم.

٢- **سببُ نزولِ هذه الآيات:**

روى الترمذيُّ عن قتادةَ بن النُّعْمان، قال: كان أهلُ بيت منَّا يُقالُ لهم بنو أُبَيْرق: بِشْرٌ، وبُشَيْرٌ، ومُبَشِّرٌ، وكان بُشَيْرٌ رجلاً منافقاً يقولُ الشِّعْرَ يهجو به أصحابَ رسولِ الله ﷺ ، ثم يَنْحَلُهُ بعضَ العربِ، ثم يقولُ: قال فُلانٌ: كذا وكذا، قال فُلانٌ: كذا وكذا، فإذا سَمِعَ أصحابُ رسولِ الله ﷺ ذلك الشِّعْر، قالوا: والله، ما يقولُ هذا الشِّعْرَ إلا هذا الخبيثُ، أو كما قالَ الرَّجُلُ. وقالوا: ابْنُ الأُبَيْرِقِ قالَها، قال: وكانوا أهلَ بيت حاجة وفاقة في الجاهلية والإسلام، وكان الناسُ إنما طعامُهُمْ بالمدينة التَّمْرُ والشَّعيرُ، وكان الرجلُ إذا كان له يَسارٌ فقدِمَتْ ضافِطَةٌ من الشام من الدَّرْمَك[1] ابتاعَ الرجلُ منها فَخَصَّ بها نفسَهُ، وأما العيالُ فإنما طعامُهُمُ التمرُ والشعيرُ.

فقدِمَتْ ضافِطَةٌ من الشام، فابتاع عميِّ رِفاعةُ بنُ زيد حِمْلاً مِنَ الدَّرْمَك، فجعله في مَشْرَبَة له، وفي المَشْرَبَةِ سلاحٌ ودِرْعٌ وسيفٌ، فعُدِيَ عليه من تحت البيت، فنُقِبَتِ المشربَةُ، وأُخذ الطعامُ والسلاحُ.

فلما أصبحَ أتاني عمِّي رِفاعةُ، فقال: يا ابنَ أخي، إنَّه قد عُدِيَ علينا في ليلتنا هذه، فنُقِبَتْ مشرَبَتُنا، وذُهِبَ بطعامنا وسلاحنا. قال: فتحسَّسْنا في الدارِ، وسألنا، فقيلَ لنا: قد رأينا بني أُبَيْرِقِ استوْقَدُوا في هذه الليلة، ولا نرى فيما نرى إلاّ على بعضِ طعامكُمْ. قالَ: وكانَ بنو أُبَيْرِق، قالوا: ونحنُ نسألُ في الدارِ، والله ما نُرَى صاحبَكُمْ إلا لَبيدَ بنَ سهلٍ، رجُلٌ منا له صلاحٌ وإسلام، فلما سَمِعَ لبيدٌ اخترَطَ سيفَهُ، وقال: أنا أسْرق، فوالله ليُخالِطَنَّكُمْ هذا السَّيْفُ أو لَتُبيِّنُنَّ هذه السرقةَ، قالوا: إليكَ عنَّا أيُّها الرجلُ، فما أنتَ بصاحِبها، فسألْنا في الدار حتى لم نَشُكَّ أنهم أصحابُها.

فقالَ لي عمِّي: يا ابنَ أخي، لو أتيتَ رسولَ الله ﷺ ، فذكرتَ ذلك له، قال قتادةُ: فأتيتُ رسولَ الله ﷺ ، فقلتُ: إنَّ أهلَ بيت منَّا أهْلُ جَفاءٍ عَمَدُوا إلى عمِّي رِفاعةَ بنِ زيدٍ، فنَقَبُوا مَشرَبَةً له، وأخذوا سلاحَهُ وطعامَهُ فلْيَرُدُّوا علينا سلاحَنا، فأما الطعامُ فلا حاجةَ لنا

(١) الضافطة: القوم الذين يجلبون الطعام إلى المدن. والدرمك: الدقيق الأبيض.

جنـــة الســــنة

فيه. فقال النبيُّ ﷺ : «سآمُرُ في ذلك»، فلما سَمِعَ بنو أُبَيْرِق أتوا رجلاً منهم، يقالُ له أُسَيْرُ بنُ عُرْوةَ، فكلَّموهُ في ذلك، فاجتمَعَ في ذلك أُناسٌ من أهل الدار، فقالوا: يا رسولَ الله، إنَّ قتادةَ ابن النُّعمانِ وعمَّهُ عَمَدا إلى أهل بيت منَّا أهلِ إسلامٍ وصلاح يَرْمُونَهُمْ بالسرقة من غير بيِّنَةٍ ولا ثَبَتٍ.

قال قتادةُ: فأتيتُ رسولَ الله ﷺ، فكلَّمْتُهُ فقال: عَمَدْتَ إلى أهل بيت ذُكِرَ منهم إسلامٌ وصلاحٌ ترْميهِمْ بالسرقةِ على غير ثَبَت ولا بيِّنَةٍ، قال: فرجعتُ، ولوَدِدْتُ أني خرجتُ من بعض مالي، ولم أُكَلِّمْ رسولَ الله ﷺ في ذلك، فأتاني عمِّي رِفاعةُ، فقال: يا ابنَ أخي ما صَنَعْتَ؟ فأخبرتُهُ بما قالَ لي رسولُ الله ﷺ فقالَ: اللهُ المستعانُ.

فلم يَلْبَثْ أن نزل القرآنُ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء:١٠٥] بني أُبَيْرِق ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء:١٠٦] أي مما قلتَ لقتادة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴿١٠٧﴾ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء:١٠٦-١٠٨] إلى قوله: ﴿غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء:١١٠] أي: لو استغفروا اللهَ لغفرَ لهم ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ﴾ [النساء:١١١] إلى قوله: ﴿وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿١١٢﴾﴾ [النساء:١١٢] قولهم للبيدِ ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء:١١٣-١١٤].

فلما نزل القرآنُ أتى رسولَ الله ﷺ بالسلاح فرَدَّهُ إلى رِفاعةَ، فقال قتادةُ: لَمَّا أتيتُ عَمِّي بالسلاحِ، وكان شيخاً قد عَشا أوْ عَسا في الجاهلية، وكنتُ أُرى إسلامَهُ مَدْخولاً، فلما أتيتُهُ بالسلاحِ، قال: يا ابنَ أخي هو في سبيلِ الله، فعرَفْتُ أنَّ إسلامَهُ كان صحيحاً، فلما نَزَلَ القرآنُ لَحِقَ بُشَيْرٌ بالمشركين، فنزلَ على سُلافةَ بنتِ سَعْدِ بنِ شُهَيد، فأنزلَ اللهُ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء:١١٥-١١٦]، فلما نزل على سُلافة رَماها حسَّانُ بن ثابتٍ بأبياتٍ من شِعْرِه، فأخذتْ رَحْلَهُ، فوضعتْهُ على رأسِها، ثم خَرَجَتْ بِهِ، فرَمَتْ به في الأبْطَحِ، ثم قالتْ: أَهْدَيْتَ لي شِعْرَ حسانٍ، ما كُنْتَ تأتيني بخير» [رواه الترمذي: ٣٠٣٦. وقال: هذا حديث غريب. وأورده الألباني في صحيح الترمذي: ٢٤٣٢. وحكم عليه بالحسن. وذكر محقق ابن كثير (٢/ ٣٧١) أنَّ الحاكم صححه، ووافقه الذهبي، وقال محقق ابن كثير: وله طرق وشواهد. وانظر القصة في الطبري: ٣/ ٢٠٢٢].

جنـــة الســــنة

٣- أمْرُ الله تعالى رسولَهُ ﷺ بالاستغفار ونهْيُه عن مجادلة الذين يختانونَ أنفسهم:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ بالاستغفارِ ونهاه عن المجادلة عن الذين يختانون أنفسهم، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾ [النساء:١٠٦-١٠٧].

قال الطبري: «﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ أي: يا محمد، سَلِ اللهَ أن يصْفَحَ لكَ عن عقوبةِ ذنبكِ في مخاصمتك من خانَ مالاً لغيره. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾ يقولُ: إنَّ الله لم يزلْ يصفحُ عن ذنوبِ عباده المؤمنين بتركِهِ عقوبتهم عليها، إذا استغفروه منها، والله رحيم بهم، فافعلْ أنت يا محمدُ، يغفرْ لكَ ما سلفَ من خصومتك عن هذا الخائن، وقدْ قيل: إنَّ النبيَّ ﷺ لم يكنْ خاصَمَ عن الخائنين، ولكنَّه همَّ بذلك، فأمره الله بالاستغفار مما همَّ به مِنْ ذلك» [الطبري: ٣/ ٢٥٢٢].

والجدالُ الذي نهى اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ: الخصامُ، وأراد بـ ﴿ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: الذين يظلمون أنفسهم بالخيانةِ والسرقةِ، والخوَّانُ: الكثير الخيانةِ، والأثيم: الكثيرُ الإثمِ، وعدمُ محبَّةِ الله للخوان الأثيم يعني أنَّه يكرهُهُ، ويبغضُهُ.

٤- ذمَّ اللهُ -تعالى- الذين يستخفون مِنَ الناس ولا يستخفون مِنَ الله:

ذمَّ اللهُ -تبارك وتعالى- الذين يستترُّون في أعمالهم السيئةِ مِنَ النَّاس، ولكنَّهم لا يستخفون من الله، أي: لا يراقبون اللهَ فيما يفعلونه، فهو يراهم، ويطلعُ عليهم عندما يُبيِّتون ما لا يرضى مِنَ القول، وسمَّاه تَبْييتاً، لأنَّ الغالبَ أنْ تكونَ إدارةُ الرأي بالليل ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء:١٠٨].

إنَّ ما تضمنته هذه الآيةُ هو العاصم الذي يعصمُ مِنَ الزلَلِ والفتنِ، ويجعلنا نستقيمُ على أمْرِ الله، ألا وهو العلمُ بأنَّ اللهَ مطَّلعٌ علينا وعلى أقوالنا وأعمالنا وقلوبنا وخواطرنا.

وقد خَتَم اللهُ -تعالى- الآية بقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ [النساء:١٠٨] يقولُ الله لهؤلاء: إنَّ اللهَ محيطٌ بما تعملون، وهو قادر على كَبْتكمْ، وردِّ شَرِّكُمْ.

٥- لومُ الله -تعالى- الذين جادلُوا عن هؤلاء في الدنيا:

خاطبَ اللهُ -تبارك وتعالى- الطائفة المؤمنةَ الذين جادلوا عن بني أُبَيْرِقٍ في هذه الحياة الدنيا، والمجادلةُ أشدُّ المخاصمة، ثم قال لهم: إذا كنتم جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن الذي

جنـــــة السـنــــة

يخاصمُ اللهَ عنهم في يومِ القيامة، أم من يكونُ وكيلاً عنهم، أي: من يكون حافظاً ومحامياً يحميهم من بأس الله وانتقامه ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [النساء:١٠٩].

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- وجوبُ تحكيم كتابِ الله تعالى فيما شَجَرَ بين النَّاسِ في المجتمع الإسلامي.

٢- يجوز للرسولِ ﷺ أن يحكم بين النَّاس بالاجتهاد فيما لا نصَّ فيه.

٣- لا يجوز لغير العالم أن يجتهدَ فيما لا نصَّ فيه، لأنَّ مَنْ لا علم عنده كيف يجتهد؟

٤- اجتهادُ الرسولِ ﷺ حقٌّ، لأنه لو كان خطأً فإنَّ اللهَ ينبهه عليه، أما اجتهادُ غيره من أهل العلم فإنه قابلٌ للصواب والخطأ.

٥- بيَّن اللهُ -تعالى- للأمَّةِ المنهجَ الذي يجبُ سلوكُه في مثلِ الواقعة التي وقعت من بني أُبيرق.

٦- لومُ الله تعالى للذين يُسِرُّون أفعالهم عن الناس، ولكنَّهم لا يخفون ذنوبهم عن الله تعالى، فهو مطلعٌ على أعمالهم عالمٌ بها، لا يخفى عليه منهم خافيةٌ.

٧- تهديدُ الذين ناصروا الذين سَرَقوا، أو رَمَوْا غيرهم بالسرقةِ، بأنه سيوقفهم بين يديهِ، ولن يجدوا ناصراً ينصُرهم، ولا حامياً يحميهم، ويدافعُ عنهم في يوم القيامةِ.

٨- يجبُ على المؤمن الحقِّ أنْ لا يحابي في الحكم صديقاً ولا قريباً، ولا يجوز المجادلةُ عن الخائن، ولا التعصبُ له.

جنـــة السـنــــة

النص الحادي والثلاثون من سورة النساء
فتحُ الله بابَ التوبةِ للعصاةِ المذنبين

أولاً: تقديم

حدَّثنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- في الآيات السابقة عن الذين فعلوا السيئات، ورمَوْا بها غيرهم، وعن المجادلينَ عنهم، وجاءَت هذه الآياتُ لتفتح البابَ للعصاةِ الذين ارتكبوا السيئات، فبابُ التوبة مفتوحٌ على مصراعيه، واللهُ لا يتعاظمه ذنبٌ مهما عَظُمَ، فالمشركونَ والقتلةُ والزناةُ والسارقون وغيرهم بابُ التوبةِ مفتوحٌ لهم، فإن صَدَقَ المذنبُ، فإنَّ اللهَ يتوبُ عليه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [النساء:١١٠-١١٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- دعوةُ الله الذين ارتكبوا السيئات إلى التوبة:

دَعى اللهُ -تباركَ وتعالى- عبادَهُ الذين ارتكبوا السيئات، وظلموا أنفسَهُمْ بما فعلوه من الذنوب إلى التوبةِ والاستغفار، فإنْ هم تابوا واستغفروا، فسيجدوا اللهَ تعالى غفوراً رحيماً، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [النساء:١١٠].

«والسوءُ كلُّ ما يغمُّ الإنسانَ من الأمورِ الدنيويةِ والأُخرويةِ» [المفردات: ص٢٥٢] والمراد بها في الآية الذنبُ والمعصيةُ التي تسوءُ صاحبها في يومِ القيامة، وظلمُ العبدِ نفسَهَ بالمعصية لمعاقبةِ الله العبدَ إن لم يَتُب من معصيته.

وهذه الآية وإن كانت واردةً على السارقين والمجادلين عنهم الذين تحدَّثتْ الآياتُ السابقةُ عنهم، فإنَّها شاملةٌ لكل من ارتكب ذنباً أو معصيةً.

جنـــــة السـنـــــة

٢- من ارتكبَ ذنباً فوِزْرُهُ على نفسه:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الذي يرتكبُ ذنباً، فوِزْرُهُ على نفسِهِ، فلا يؤاخذُ غيره به، قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾﴾ [النساء:١١١].

وهذا يدلُّ على بطلان ما تقرَّرَ عند النصارى من أنَّ عيسى عليه السلام جاء ليخلِّص البشر مِنَ الخطيئة التي ورثوها من أبيهم آدم عليه السلام ، والصوابُ ما قرَّره الحقُّ تبارك وتعالى أنَّ كلَّ من كَسَبَ خطيئةً، فإنَّ وِزْرَها واقعٌ عليه دون غيره، واللهُ عليمٌ بالذين ارتكبوا السيئاتِ، وحكيمٌ فيما يقرِّرهُ من أحكام، وآدم عليه السلام عصى ربَّه ثمَّ تاب، فتاب الله عليه.

٣- عِظَمَ جُرْمِ الذين يرتكبونَ السيئات ثم يرْمونَ بها مَنْ لم يرتكبها:

بيَّن اللهُ -تبارك وتعالى- لنا عِظَمُ جُرْمِ الذين يرتكبون السيئاتِ، كالذين يسرقونَ أو يزنونَ أو يقتلونَ، ثم يرمونَ غيرهم بها اقترفوه، فهؤلاءِ إثمهم مضاعَفٌ، وجرمهم أكبرُ ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾ [النساء:١١٢]، والبهتانُ الذي احتملوه الكذبُ العظيمُ الذي يبهتُ سامِعَهُ لفظاعته، والإثمُ العذابُ الذي يجزون به في يوم الدين إنْ لم يتوبوا ويستغفروا، واكتسابهم للإثم، لأنَّهم يتحملون هذا الإثم حتى يجزوا به في يوم القيامة.

٤- فَضْلُ الله على رسولِهِ ﷺ في عِصْمَتِهِ من الضَّلال:

امتنَّ اللهُ -تبارك وتعالى- على عبدِهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ في عصمته من الذين يريدون إضلالَه، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ [النساء:١١٣].

والبشرُ يحاولون جهدَهُمْ لإقناعك بها يرونه، وقد يكونُ ضلالاً وباطلاً، وقد عصمَ اللهُ رسولَهُ ﷺ بالتزامِهِ بها أوحاه إليه، فنجَّاهُ مِنَ الضلالِ، ولذلك فإنَّ الذين كانوا يُجْهِدُون أنْفُسَهُمْ في إضلالِ الرسولِ ﷺ ، لا يُضِلُّون إلا أنفسَهُمْ، ولا يَضُرُّون رسولَ الله ﷺ شيئاً.

وقد امتنَّ اللهُ على رسولِهِ ﷺ بإنزالِ الكتابِ والحكمةِ عليه، وتعليمه ما لم يكنْ يعلم، وهذا هو الذي يعصِمُهُ من الضلالِ، وهو أيضاً عصمةٌ لأُمته، وهذا فَضْلٌ عظيم مِنَ الله حَبا به رسولَهُ ﷺ ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء:١١٣].

جنـــة الســـــنة

والحكمةُ: إصابةُ الحكم في القولِ والعمل، وقد آتاها اللهُ لقمانَ عليه السلام ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [لقمان:١٢] وآتاها اللهُ الأنبياءَ والرسلَ ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة:٢٥١]، وقال في عيسى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران:٤٨] وحظُّ رسولنا ﷺ من الحكمةِ أكملُ من حظِّ غيره، فقد أنزلَ عليه ديناً كاملاً، ووهبه عقلاً وافراً.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - باب التوبة مفتوح، فكلُّ من اقترفَ ذنباً، ثم توجَّه إلى الله بصدقٍ غفر له ذنبه.

٢ - كلُّ مَنْ ارتكبَ ذنباً فوزره على نفسِهِ، ولا يضيرُ غيره بما اقترفه في يوم الدين.

٣ - الذي يرتكبُ جرماً، ثم يرمي بجرمه بريئاً، فجريمتُهُ عظيمة ووزرُه كبير.

٤ - عَصَمَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ من إضلال العبادِ له، والذين يحاولون إضلالَه لا يستطيعونَ، وإثمهم على أنفسهم، ولا يضرونَهُ شيئاً.

٥ - عصم اللهُ رسولَهُ ﷺ بما أوحاه إليه مِنَ الكتابِ والحكمةِ، وتعليمه ما لم يكن يعلم، وهذا مِنْ فضلِ الله العظيم على رسوله ﷺ.

٦ - بمقدارِ ما يَفْقَهُ المسلمُ كتابَ الله وسنّةَ رسولِ الله ﷺ يخلص مِنَ الضلال، فلا تزال العصمةُ مِنَ الضلال يزخر بها الكتابُ والسنّةُ.

جنـــة الســـــنة

النص القرآني الثاني والثلاثون من سورة النساء
النجوى التي لا خير فيها

أولاً: تقديم

كان المنافقون يُكْثِرون مِنَ التناجي سِراً في المجتمع الإسلاميِّ، وأكثر هذه النجوى التي يسارُّون فيها لا خير فيها، فالتناجي في شؤونِ الدولة وقضايا الناس العامة بعيداً عن موطن اتخاذ القرار تؤدي إلى التنازع والاختلافِ، واستثنى اللهُ مِنَ النجوى ما كان موضوعُهُ الصدقَةَ والمعروفَ والإصلاحَ بينَ الناسِ، فهؤلاءِ الذين يبتغون بنجواهم رضوانَ الله أجرهم عظيمٌ وثوابُهُمْ جزيلٌ.

وتهدَّدَ اللهُ في هذه الآيات الذين يعادون رسولَ الله ﷺ بعد أن تحققوا من صِدْقِ رسالتِهِ، فرفضوها عن عِلْمٍ، وقد تهدَّدَهُمْ بأن يصليهم النار، وفي الآية الأخيرة إظهار لعظم جريمة الشرك، وأنها أعظمُ الذنوب.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾

[النساء:١١٤-١١٦].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لا خيرَ في كثير من نجواهم:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه لا خيرَ في كثيرٍ من نجوى الناسِ، والنَّجوى: حديث السرِّ بين اثنين أو أكثر من ذلك ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ ﴾ [النساء:١١٤] واستثنى من النجوى التي لا خير فيها النجوى التي فيها الأمرُ بالصدقةِ أو المعروف أو الإصلاح بين الناس ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ ﴾ [النساء:١١٤] استثنى النَّجوى التي يتداول المتناجون فيها تقديم العونِ للفقراء والمساكين، ويأتمرون بالمعروف وهو ما أمر

جنـــة السـنـــة

اللهُ به من واجبات أو مستحباتٍ، أو يتداولون في إصلاح ما وقعَ بين المسلمين من خلافٍ وتنازعٍ وتخاصمٍ، فالذين يتناجون في هذه الأمور يطلبون رضوانَ الله تعالى ومرضاتِهِ وسوفَ يعطيهم اللهُ الأجرَ العظيمَ، والثوابَ الجزيلَ في يومِ لقياه ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء:١١٤].

وقد أخبرنا الرسولُ ﷺ بعظم درجةِ الذي يسعى بالصلح بين الناس، ففي الحديث عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجةِ الصيامِ والصلاةِ والصدقة؟» قالوا: بلى، قال: «صلاحُ ذاتِ البَيْنِ، فإنَّ فسادَ ذاتِ البَيْنِ هي الحالِقَةُ» [الترمذي: ٢٥٠٩، وقال: هذا حديث حسن صحيح].

٢- عظمُ جريمة الذين يشاقون الرسولَ ﷺ:

أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنه ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء:١١٥] ومشاقَّةُ الرسول ﷺ تكونُ بمخالفتِهِ ومعاداتِهِ والكفر بِهِ، من بعد ما تبين لهذا المشاقّ أنه رسولُ الله، مرسلٌ من عند الله بالهدى ودين الحق، وقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وسبيلهم هو الدين الذي هم عليه، وهو الإسلامُ، فإنَّ اللهَ يوليه ما تولّى، فمن تولَّى الأصنام وكله الله إليها، ومَنْ تولى الجبابرة كفرعون وهامانَ ونمرودَ وكله إليهم، وهؤلاء لا يغنون عنه من الله شيئاً، وسوف يصليهم اللهُ في يوم القيامةِ النارَ، وساءَتْ النارُ مصيراً لهم.

٣- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾:

أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنه لا يغفرُ أن يُشرَكَ به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاءُ، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:١١٦] وهذا النصُّ من هذه الآية وَرَدَ بمثل ورودِهِ في الآية رقم (٤٨) من هذه السور.

وبينتُ هناك أن في الآية ردًّا على الخوارجِ الذين يكفِّرون مرتكبَ الذنب إنْ لم يتب عنه، وعلى المعتزلةِ الذي يجعلونه في الدنيا ليس مؤمناً ولا كافراً، ويحكمون عليه بالخلودِ في النار في الآخرة، والآياتُ صريحة في أنَّ الذي لا يقبل الغفرانَ هو الشركُ، أما ما دونه من الزنا والسرقة والربا إن لم يستحلَّها فهي إلى الله تعالى إنْ شاءَ عفا عن الذنب، وإنْ شاءَ عذبَ به، ثم أخرجه من النار.

جنـــــة السـنـــــة

وقد أخبر اللهُ -تبارك وتعالى- في خاتمة هذه الآية أنَّ ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء:١١٦] وإنما كان ضلالُ المشركِ بعيداً، لأنَّ الشرْكَ أعظم أنواعِ الضلالِ، وأبعدُها عن الاستقامةِ والصلاحِ.

وختم اللهُ -تعالى- الآية رقم (٤٨) بقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ أي: من أشرك بالله تعالى فقدْ افترى على الله إثماً عظيماً، والافتراءُ أعظمُ الكذبِ، ولا أعظم كذباً على الله مِنْ دعوى من ادَّعى أنَّ لله -سبحانه- شريكاً.

وأحبُّ أن أنبه هنا إلى أن بعضَ من يقترفُ الشرك، يظنُّ أنه ناجٍ في يوم القيامةِ، لأنه لا يعرفُ الشركَ، فبعضُ الذين يدْعُونَ غيرَ الله، ويستغيثونَ بغيرِ ٱلله، ويذبحونَ الذبائحَ للأنصابِ والجنِّ، هؤلاء مشركون، ووقوفهم بين يدي الله عظيم يوم الدين.

رابعاً: ما تهدي إليه الآيات من علم وعمل

إذا أمعنَّا النظرَ في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- نهى اللهُ -تبارك وتعالى- عن كثير من النجوى في المجتمع الإسلامي، فقد كان بعضُ المسلمين، وكثير مِنَ المنافقين والفاسقين يتناجون سِرّاً بعيداً عن الرسولِ ﷺ والجماعةِ المسلمة وهذا يُسَبِّبُ النزاعَ والخلافَ والبعدَ عن توجيهات القيادة المسلمة.

٢- أذنتِ الآياتُ في التناجي إذا كان الموضوعُ الذي يتناجى فيه هو أعمالَ الخير، من الصدقة أو المعروف والإصلاح بين الناس.

٣- يستفادُ من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ...﴾ أنَّ العملَ الصالح، لا يتمُّ، ولا يكونُ مقبولاً عند الله حتى يبتغي به صاحبُهُ وجْهَ الله تعالى.

٤- عظمُ جريمةِ الذي يُشاقّ الرسولَ ويعاديه ويكفر به، ومصير هذا الصنف النَّار.

٥- لا يكون المرءُ مذموماً إذا شاقَّ الرسول ﷺ حتى يعلمَ أنَّ محمداً رسولُ الله، جاءَ من عندِ الله.

٦- أعظمُ الذنوبِ الشركُ بالله تعالى، والذي يموتُ مشركاً لا يغفرُ اللهُ له شِرْكَهُ.

٧- في قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ ردٌّ على الخوارجِ الذين يُكَفِّرون مرتكبَ الكبائر في الدنيا؛ وردٌ على المعتزلة الذين يقولون: إنَّ مرتكب الكبيرة ليس مؤمناً ولا كافراً في الدنيا، بل هو في منزلةٍ بين المنزلتين، ويحكمون عليه بالخلود في النار يوم القيامة.

٨- استدلَّ الإمامُ الشافعيُّ -رحمه الله تعالى- بقوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على حجِّيةِ الإجماعِ، وحرمةِ مخالفتِه.

جنـــــة السـنــــة

النص القرآني الثالث والثلاثون من سورة النساء

﴿وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا﴾

أولاً: تقديم

حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ العربَ كانوا في الجاهلية يعتقدون أنَّ آلهتهم إناثٌ، وكانوا يعبدون مع تلك الآلهة الإناث الشيطان، وقد أطالت الآياتُ في الحديث عن هذا الشيطان، وأخبرتْ أن اللهَ لعنه، وأخبرنا ربُّنا بما قاله الشيطان له عندما طردَه من رحمته، وبيَّن لنا خطواتِه، وأخبرنا عن مدى الخسارة التي تحيق بمن يتخذ الشيطان وليّاً، وأخبرنا ربُّنا عن مصير أولياء الشيطان، ومصيرِ أولياءِ الرحمن.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾ ﴾ [النساء:١١٧-١٢٢].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- كان العربُ يسمون الآلهةَ التي يعبدونها من دون الله باسم الإناث:

كان العربُ في الجاهلية يُسمُّون الآلهةَ التي يعبدونها مِنْ دون الله باسم الإناثِ، ﴿ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ ﴾ [النساء:١١٧] ومن هذا زَعْمُ أهل الجاهلية أن الملائكة التي يعبدها بعضُهم كانت إناثاً ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الزخرف:١٩-٢٠].

جنـــــة السـنـــة

وسموا أصنامَهُمْ التي عبدوها من دونِ الله بأسماء الإناث، ومنها العزَّى، وهي مؤنث العزيز، ومنها مناةُ الثالثةُ الأخرى ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم:١٩-٢٢].

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في الآية السابقة أنَّهم مع عبادَتهم الأصنامَ التي سمّوها باسم الإناثِ يعبدون الشيطانَ، ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾. والشيطانُ المريدُ الذي عبدوه من دون الله هو إبليس، والمريد: المتعرِّي من الخير، المغموس بالشرِّ، والشيطان أصلُ كلِّ بلاء وشرٍّ، فكلُّ شرٍّ هو من اختراعه، وهو الذي دعا إليه.

٢- التعريف بالشيطان الذي يعبده المشركون:

وصف اللهُ الشيطانَ الذي يعبدُه المشركونَ من دون الله بأنه (مريدٌ)، والمريدُ العاري من الخير وصفات الصلاح، وهو إبليسُ الذي كان يعبدُ الله مع ملائكةِ السماءِ، فلما أمر اللهُ الملائكةَ بالسجود لآدم، رفضَ طاعة أمْرِ ربِّه تبارك وتعالى، فلَعَنَه اللهُ تعالى، أي: طرده من رحمته وجنَّته ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ وقال لربِّه في جملة ما قال له: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾﴾ [النساء:١١٨] والنصيب المفروض، أي: المقدار المعلوم، وهم حزبه وأتباعه من بني آدم.

٣- خطوات الشيطان التي يتبعها في إضلال بني آدم:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن خطواتِ الشيطانِ التي يتبعها في إضلالِ عبادِ الله، وقد صرَّح الشيطان لربّه بها عندما رفض السجود لآدم، فلعنه وطرده من رحمته، وتتمثل في الآتي:

أ- **إضلالُ العباد وتَمْنِيَتُهُ لهم**: قال الشيطانُ لربِّ العزة: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ [النساء:١١٩] أي: لأضلَّنهم، بإبعادِهِمْ عن الهدى، والحقِّ المنزلِ من عند الله تعالى.

وقوله: ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ والتمني: تقدير الشيء في النَّفْس وتصويره فيها، وأكثرُ التمني يكونُ عن تخْمينٍ وكذبٍ، فأكثر التمني يكون بتصورهم ما لا حقيقة له، والأمنيةُ: الصورُ الحاصلةُ في النفس عن تمني الشيء [راجع: المفردات: ص٤٧٥].

والشيطانُ يمنِّي العبادَ بوساوسِه، وبما يقذفُهُ في قلوبهم من حُبِّ الدنيا، والأملِ بطولِ البقاءِ فيها، حتى يؤْثِرها الناسُ على الآخرةِ، وقد يمنيهم بركوبِ الأهواءِ الداعيةِ إلى الشركِ والبدعِ والذنوبِ والمعاصي.

جنـــــة السـنـــــة

ب- **أمْرُه العبادَ بتبتيكِ آذان الأنعام**: أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الشيطانَ قال لربِّه تعالى: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ [النساء:١١٩].

يعني لآمرنّهم بتَبْتِيكِ آذانِ الأنعام، أي: بتشقيقها، وكلُّ المفسرين يذهبون إلى أنَّ هذا الجزء من الآيةِ يتحدَّثُ عما كان يفعله أهلُ الجاهلية، فقد كانوا يَشُقُّون أذن الناقة إذا ولدت خمسةَ أبطنٍ، وكان المولودُ الخامسُ ذكراً، ثم تُسَيَّبُ، وكانوا يُحرِّمون على أنفسهم وغيرهم الانتفاع بها، فلا يركبونَ ظهرها، ولا يَحْمِلُون عليها، ولا يذبحونها، ولا يَرُدُّونها عن ماءٍ ولا مرعى، وهي البحيرةُ، يقالُ: بَحَرَ الناقةَ والشاةَ: شقّ أُذنها نصفين.

ج- **أمره الناس بتغيير خلقِ الله**: وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الشيطانَ قالَ له: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء:١١٩] وتغيير خَلْقِ الله الذي يأمر الشيطان العبادَ بفعله يحوي أمرين:

الأول: تغيير فطرةِ الله التي فطر الله العباد عليها، وهي التوحيد.

والثاني: تغيير خَلْقِ الله الذي خلَقَ الإنسان عليه بالوَشْمِ، والنَّمصِ، والفَلَجِ، والتجميل، ونحو ذلك.

وقد جاءت الآياتُ والأحاديثُ الصحيحةُ مفصِّلة لما أُجمل في هذه الآية، قال تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ [الروم:٣٠]. وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولَدُ على الفِطرة، فأبواه يهوِّدانه، أو يُنَصِّرانِهِ، أو يُمجِّسانِهِ، كما تُنْتِجُ البَهيمةُ بهيمةً جمعاءَ، هل تُحِسُّونَ فيها من جَدْعاء» ثم يقول: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ [الروم:٣٠] [البخاري: ٤٧٧٥. ومسلم: ٢٦٥٨].

وفي صحيح مسلم عن عياضِ بن حمارٍ المُجاشعي، أنَّ رسولَ الله ﷺ، قال ذات يومٍ في خطبته: «ألا إنَّ ربِّي أمَرَني أنْ أُعلِّمكُمْ ما جهِلْتُمْ مما علَّمَني يومي هذا، كلُّ مالٍ نَحَلْتُهُ عَبْداً حَلالٌ، وإنِّي خَلَقْتُ عبادي حُنفاءَ كُلَّهم، وإنَّهم أَتَتْهُمُ الشياطينُ فاجْتالَتْهُمْ عن دينهم، وحرَّمَتْ عليهِمْ ما أَحْلَلْتُ لهم، وأَمَرَتْهُمْ أن يُشركوا بي ما لم أُنزِلْ به سلطاناً» [مسلم:٢٨٦٥].

وعن عبدالله بن مسعود قال: «لَعَنَ اللهُ الواشِماتِ، والمتوشِّماتِ، والمتنمِّصات، والمتفلِّجات للحُسْنِ، المُغيِّراتِ خلقَ الله» [البخاري: ٤٨٨٦. ومسلم: ٢١٢٥]، وأخبر ابن مسعود في بقية الحديث أن رسول الله ﷺ لعن هؤلاء.

جنـــــة السـنـــــة

وقد توسَّعَ الناسُ اليومَ في تغيير خلقِ الله، فلم يبقَ قاصراً على الصور الجاهلية البسيطة، كالوشم، والنَّمص، والفَلْج، بل زادوا عليه بما يُعرف بعمليات التجميل التي تصغِّر الأنف وتكبِّرُهُ، وتكبِّرُ العين، وتتلاعبُ بتقاسيم الوجه، وتصل إلى تصغير الثديين أو تكبيرهما، وغير ذلك، كلُّ هذا من تلاعب الشيطانِ بعباد الله، وقد حذَّرهم ربُّ العزة تبارك وتعالى من تغيير خلقِ الله تعالى.

٤- مدى خُسْران العباد الذين يتخذونَ الشيطانَ وليّاً من دون الله:

حذَّرَ اللهُ عبادَه من اتخاذِ الشيطان وليّاً من دون الله، وأخبر أنَّه من اتخذه وليّاً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [النساء:١١٩].

٥- أماني الشيطان ووعوده باطلةٌ كاذبة:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن الشيطان يَعِدُ أولياءَه ويمنِّيهم، وهي وعودٌ كاذبةٌ وأماني باطلةٌ، ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء:١٢٠].

قال ابنُ القيم رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية: «﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾: فوعدُه، يصلُ إلى قلب الإنسان، نحو: سيطولُ عمركَ، وتنالُ من الدنيا لذَّتكَ، وستعلو على أقرانِكَ، وتظفرُ بأعدائك، والدنيا دولٌ، وستكون لك كما كانت لغيرك، ويُطوِّلُ أمَلَهُ، ويعدُهُ بالحسنى على شِرْكِه ومعاصيه، ويمنِّيه الأماني الكاذبة على اختلافِ وجوهها، والفرقُ بينَ وعدِهِ وتمنيتِهِ أنه يعدُ الباطلَ ويمني المحالَ، والنفسُ المَهينَةُ التي لا قَدْر لها تَغْتَذِي بوعده وتمنيتِهِ» [بدائع التفسير: ٢/ ٨٠].

٦- مصيرُ أولياءِ الشيطان ومصيرُ أولياءِ الرحمن:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى عن مصير أولياءِ الشيطان، فقال: ﴿أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ [النساء:١٢١] والمشارُ إليه في قوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ هم الذين عبَّدَهُم الشيطانُ لنفسِهِ وأضلَّهم، وقوله: ﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾ أي: مسكنهم النار. فليس لهم دارٌ غيرها بعد دخولهم إياها في يوم الدين، وقوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾، أي: لا يجدون عنها مَعْدَلاً ولا مَهْرَباً.

أما أولياءُ الرحمن، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فقد وعدهم ربُّهم -تبارك وتعالى- بأن يدخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ، خالدين في تلك الجنات أبد الآبدين، لا

جنـــــة السـنـــــة

يزولون عنها ولا يحولون وهو وعدٌ حقٌّ صادقٌ، فلا أحَدَ أصدقُ من الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء:١٢٢].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- كان أهلُ الجاهلية يعبدون الملائكة مدَّعين كذباً وزوراً أنهنَّ بنات الله، وكانوا يسمُّون كثيراً من آلهتهم بأسماءِ الإناث كالعزى ومناة الثالثة الأخرى.

٢- كان أهلُ الجاهلية يعبدون أعدى أعدائهم الذي يريدُ إدخالهم النارَ وغضبَ الجبار، وهو الشيطانُ الذي عَرِيَ عن كلِّ خير، واتصف بكلِّ شرٍ.

٣- الدعاءُ من أعظم ما يُعبَدُ اللهُ به، فلا يجوز أن يُدْعَى غيرُ الله تبارك وتعالى، ومَنْ دعا غيرَ الله تعالى كان مشركاً شركاً أكبر.

٤- أصابتْ لعنةُ الله تعالى إبليسَ، فطردَهُ من رحمتِهِ وجنتِه.

٥- الشيطانُ يسعى لتعبيد بني آدم لنفسِهِ، وقد بيَّن اللهُ -تبارك وتعالى- ما أخبر به الشيطانُ أنَّه سيفعله بنا، فهو يريد إضلالنا، وتزيين الأماني لنا، ويأمرنا بتشقيقِ آذان الأنعامِ، وتغيير خلق الله تعالى.

٦- حذَّرنا اللهُ -تبارك وتعالى- مِنَ اتخاذِ الشيطانِ وليّاً من دونِ الله تعالى، الذي يتخذُ الشيطانَ وليّاً من دون الله قد خسر خسراناً مبيناً.

٧- كلُّ ما يعطينا إيَّاه الشيطانُ وعودٌ كذابةٌ وأمانيُّ باطلةٌ في الدنيا، وفي الآخرة مصيرُ الذين رضوا بوعودِ الشيطانِ وأمانيه النَّار.

٨- الذين والوْا اللهَ تعالى، ورضوا بوعودِه، وعادَوْا الشيطان، وعملوا الصالحاتِ، سيدخلُهُمْ ربُّ العزَّةِ جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ.

جنـــــة الســــــنة

النص القرآني الرابع والثلاثون من سورة النساء

﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾

أولاً: تقديم

أعلمنا ربنا تبارك وتعالى أنَّ الناس لا ينالون رضاه وجنته بالأماني الكاذبة، التي يدعي أصحابها أنهم أهل الله وأصحاب جنته، وهم مفارقون للإيمان، غارقون في الشرك والذنوب والمعاصي، فالعباد في يوم الدين مجزيون بأعمالهم، وليس لهم في ذلك اليوم من يدافع عنهم وينصرهم.

أما الذين يعملون الصالحات من المؤمنين والمؤمنات فهم أصحاب الجنات الذين لا ينقصون شيئاً من أعمالهم مهما كان قليلاً، وأعلمنا ربنا عن أحسن الناس ديناً عنده الذين أسلموا وجوههم لله، وكانوا محسنين، متبعين ملة إبراهيم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ ﴾ [النساء:١٢٣-١٢٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١ - **من يعمل سوءاً يجزَ به:**

أخبرنا ربُّنا عز وجل أن اليهودَ والنصارى يدَّعي كلٌّ منهم أنهم أهلُ الجنةِ ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة:١١١] وأخبرنا أيضاً عن الدعوى العظيمة الكاذبة التي ادَّعاها اليهودُ والنصارى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ﴾ [المائدة:١٨]. ويدَّعي بعضُ الذين ينسبون إلى الإسلامِ من هذه الأمة أنهم الأفضل والأكملُ، وهم معرضون عن الإيمانِ والعمل الصالحِ، ودعوى هؤلاء من الأولين والآخرين دعاوى

جنـــــة السـنـــة

باطلةٌ، وأمانيُّ فاجرةٌ، ليس عليها دليل، ولا يقومُ عليها برهانٌ والقاعدةُ التي يجريها اللهُ في عباده أنه من يعمل سوءاً يجزَ به، ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء:١٢٣].

فمن كفر بالله، وأشرك به، واقترفَ الذنوبَ والمعاصي جوزي بعمله، ومن آمنَ وعمل الصالحات جوزي بذلك.

وعندما نزلت هذه الآية كان لها وقعٌ شديدٌ في قلوب المؤمنين من الصحابةِ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قالَ: لما نزلت ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ بلغتْ من المسلمين مبلغاً شديداً، فقالَ رسولُ الله ﷺ : «قاربوا وسَدِّدوا، ففي ما يُصابُ به المسلمُ كفَّارَةٌ، حتى النَّكْبَةِ يُنْكَبُها، أو الشوكةِ يُشاكُها» [مسلم: ٢٥٧٤].

وقد أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أنَّ الذي لا يغفره هو الشركُ فحسب، وغير الشرك من الذنوب متروكٌ لمشيئةِ الله، إن شاءَ غفر له، وإن شاءَ عذَّبه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ ﴾ [النساء:٤٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء:١٢٣] أي: ليس للذي يعمل السوءَ من دونِ الله وليّاً يواليه، ولا ناصراً ينصرُهُ ويحامي عنه.

٢- أصحابُ الجنة:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في الآية السابقة أنَّ الذين يريدون الحصولَ على رضوانِ الله والنجاةِ من نارِه ودخولِ جنته بالأماني والتخرصاتِ، وهم معرضون عن الإيمان والعمل الصالح، وغارقون في الكفر والمعاصي، كاذبونَ، ضالُّونَ، وأخبرنا في الآية التالية أنَّ الذين يعملون الصالحاتِ من الرجالِ والنساء المعتنقين للإيمان فإنَّ اللهَ تعالى يدخلهم جنَّتَهُ ولا يظلمُهُمْ مثقالَ نقيرٍ، ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء:١٢٤]. والنقيرُ الأمْرُ الصغيرُ الذي لا يُؤْبَهُ له، وأصل النقير نقطةٌ صغيرةٌ تكونُ في ظهر نواة التمرة، ومنها تنبتُ النخلةُ عندما تُغْرَسُ النواةُ في الأرضِ.

٣- أحسنُ الناس ديناً عند الله:

يتفاوتُ الناسُ في الدين والفضل عند الله تعالى، وقد أخبرنا العليمُ الحكيمُ في قوله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء:١٢٥] أخبرنا أن أحسن الناس ديناً من جمَعَ بين ثلاثِ خلالٍ:

جنـــــة السـنـــــة

الأولى: أن يسلم المرءُ وجهه لله تعالى، وذلك بالانقياد إلى الله تعالى، والعمل بطاعته، واجتنابِ معصيته، وهذا كقولِهِ تعالى في سورة البقرة: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ [البقرة:١١٢].

الثانية: أن يكونَ محسناً في عملِهِ، ويكونُ الإحسانُ ببلوغِ درجةِ الإتقانِ، وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ أننا نبلغُ درجةَ الإحسانِ بأن نعبد الله كأننا نراه، فإن لم نستطع ذلك، فنستحضرُ أنَّ الله يرانا ويطّلعُ علينا «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

الثالثة: أن يتّبعَ ملة إبراهيم عليه السلام، حالَ كونه حنيفاً، ورسولُنا محمد ﷺ وأتباعه كلُّهم على ملّةِ إبراهيم، وهي توحيدُ الله تعالى، قالَ اللهُ آمراً رسولَهُ ﷺ آمراً إيّاه باتباع ملة إبراهيم ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النحل:١٢٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ ﴾ [آل عمران:٦٨].

والحنيفُ: المائلُ عن الشرك، المستقيمُ على الإسلام.

وقد أثنى اللهُ -تبارك وتعالى- على إبراهيم بإعلامنا أنه اتخذه خليلاً، وفي هذا ترغيبٌ من الله تعالى في اتّباعِهِ، فقد بلَغَ مرتبةَ الخلّة، وهي أعلى درجاتِ المحبة لله، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النساء:١٢٥].

٤- لله ما في السموات والأرض:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ له جميعَ ما في السموات وما في الأرض، كي لا يظنَّ ظانٌّ أنّه اتخذَ إبراهيمَ خليلاً لحاجته إليه، وإذا كان اللهُ له ما في السموات والأرض، فنحن بنو آدم مملوكون لله رب العالمين، وكذلك ما عبده البشرُ من الشمس والقمر والنجوم والجبال والدوابِ والأنهار والأصنام كلّها مخلوقةٌ مربوبةٌ، لا تستحقُّ أن تُعبَدَ من دون الله، ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [النساء:١٢٦]. وقوله تعالى في خاتمة الآية السابقة: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ ﴾ أي: عِلْمه تعالى نافذٌ في جميع خلقِهِ، لا يخفى عنه تبارك وتعالى شيءٌ منهم.

جنـــــة السـنـــــة

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- كلُّ فريقٍ من المسلمين واليهودِ والنصارى والمشركين يدَّعي أنه الأفضلُ والأحسنُ، وقاعدةُ الثوابِ والفضلِ عند الله أنه من يعمل سوءاً يجزَ به، وهي قاعدةٌ عادلةٌ، بعيدة عن الأهواء والتمنيات الكاذبة.

٢- ما يصيبُ اللهُ به المؤمنين من الأمراضِ والأوجاعِ يكفِّر اللهُ بها ذنوبهم.

٣- الذي يعملُ السيئاتِ ليس له من دون الله وليٌّ يحميه، ولا نصيرٌ يدفعُ عنه.

٤- المؤمنونَ الذين يعملونَ الصالحات يدخلُهم اللهُ الجنة، ولا يُنْقِصُهم شيئاً من أعمالهم.

٥- أحسنُ الناسِ ديناً الذين أخلصوا دينهم لله، والتزموا بالعمل الذي شَرَعَهُ، واتبعوا ملة إبراهيم.

٦- ثناءُ اللهُ تعالى على إبراهيم، فقد أمرنا باتباع ملته، وأخبرنا أنه اتخذه خليلاً.

٧- السمواتُ والأرضُ وما فيهما وما بينهما كلُّها مخلوقة لله تعالى، وليس فيهما ما يستحقُّ أن يكونَ إلهاً ومعبوداً.

٨- علمُ الله محيطٌ بخلقه، لا يخفى على الله منهم خافيةٌ.

جنـــة السـنـــة

النص القرآني الخامس والثلاثون من سورة النساء
أحكام شرعية خاصة بالنساء

أولاً: تقديم

في هذه الآيات الكريمات تقويمٌ لعلاقة الرجال بالنساء فقد كان أهل الجاهلية يظلمون المرأةَ، فيحرمونها من الإرث، كما يحرمون الصغار، وكان الرجلُ يتولَّى المرأةَ، ولا يجدُ له رغبةً في الزواج منها، فيمنعها من الزواج خشيةَ أنْ تتزوج رجلاً يشركه في ماله، إذا كان لها مالٌ هو شريك فيه.

وبينت هذه الآياتُ للزوجة كيف تتصرف إنْ هي خافتْ من بعلها نشوزاً أو إعراضاً، وأعلمنا ربُّنا في خاتمة الآيات أن الزوجَ لا يستطيع أن يعدلَ بين زوجاته في المحبة القلبية، وكلُّ المطلوب من الزوج أن لا يميل إلى واحدةٍ من زوجاته كلَّ الميل، فيذرُ الأخرى كالمعلقةِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾ [النساء:١٢٧-١٣٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن:

١- إفتاءُ الله -تبارك وتعالى- صحابة رسولِهِ ﷺ فيما سألوا عنه في شأن النساء:

بيّن اللهُ تعالى لنا في أول هذه السورة أحكاماً تتعلقُ بالنساء وميراثهنَّ، وبقي أمور لم تتبيّن للصحابة، فسألوا الرسولَ ﷺ عنها، فأجابَ اللهُ عنها بنفسه، قال سبحانه: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ [النساء:١٢٧]، أي: يُبيِّن لكم حكمَ ما سألتم عنه.

جنـــــة السـنـــــة

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ [النساء:١٢٧] معطوف على لفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾، والمعنى: أنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- يفتيكم في النساء، والقرآنُ الذي يتلى عليكم يفتيكم فيهنَّ، وقد أنزلَ في أول هذه السورة آياتٍ تتعلق بالنساء، فمن ذلك ما يتعلقُ باليتامى في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء:٣]، وقوله: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء:٤]، وقوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء:١١]، فقد بيَّن فيها ميراثَ النساءِ.

٢- حُكْمُ نكاحِ النساء اليتامى:

بيَّنَ اللهُ تبارك وتعالى في الآية الأولى من هذا النص أن اليتيمة تكونُ في حجْرِ وليِّها، ويكونُ هو وارثَها، ولها مالٌ، ولا يرغبُ في نكاحها، ويخشى أن يزوجها غيره، فيشْرَكُهُ في ماله، فيعْضُلُها، ويمنعها من الزواج، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۖ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النساء:١٢٧]. قالتْ: هو الرجل تكون عنده اليتيمةُ، هو وليُّها ووارثُها، فأشْرَكَتْه في مالِهِ حتى في العِذْقِ، فيرغبُ أنْ ينكحَها، ويكْرَهُ أن يُزَوِّجَها رجلاً، فيشركُه في ماله بما شركته، فيعضُلُها، فنزلتْ هذه الآية [البخاري: ٤٦٠٠. ومسلم: ٣٠١٨].

وقوله: ﴿لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ [النساء:١٢٧] أي: ما فُرِضَ لهنَّ من الميراثِ، وهذا ما كان عليه الأمر في الجاهلية، وفي أول الإسلام.

وقد سألَ عروةُ بن الزبير خالته عائشة رضي الله عنها عن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿وَرُبَاعَ﴾ [النساء:٣].

فقالت: «يا ابن أختي، هي اليتيمةُ تكونُ في حَجْرِ وليِّها، تشاركه في مالِهِ، فيُعجِبُهُ مالُها وجمالُها، فيريد وليُّها أن يتزوَّجها، بغير أن يُقسط في صَداقِها، فيُعْطيها مثلما يُعطيها غيرُهُ، فنُهُوا أنْ يَنْكِحوهنَّ إلا أن يُقسِطوا لهنَّ، ويبلُغوا بهنَّ أعلى سُنَّتِهِنَّ من الصَّداقِ، وأمِروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهُنَّ».

قال عروة: قالت عائشة: ثم إنَّ الناس استفْتوا رسولَ الله ﷺ بعد هذه الآية، فأنزل الله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النساء:١٢٧]. والذي ذكر

جنـــــة السـنـة

اللهُ أنه يُتلَى عليكم في الكتاب الآيةُ الأولى، التي قال فيها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ قالت عائشةُ: «وقولُ الله في الآية الأخرى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النساء:١٢٧]. يَعْني هي رغبةُ أحدكُمْ ليتيمتِهِ التي تكونُ في حَجْرِهِ، حين تكونُ قليلةَ المالِ والجمالِ، فنُهوا أنْ ينكحوا ما رغِبُوا في مالِها وجمالِها من يتامى النساء إلا بالقسط، من أجل رغبتهن عنهن» [البخاري: ٢٤٩٤. ومسلم: ٣٠١٨].

وهذا يدل على أن الآية التي في أول النساء نزلت في اليتيمة إذا كانت غنيَّةً، فأوجب على الوليِّ إن رَغِبَ في الزواج منها أنْ يقسط إليها في مهرها، وإلا فليترك زواجها، وليتزوجْ ما طابَ له من النساء.

والآيةُ التي في هذا النص في اليتيمة تكونُ دميمةً، ولا يرغبُ في الزواج منها، فنهاه اللهُ تعالى أنْ يعضلَها خشية أن يشركوه في مالِهِ الذي بينه وبينها.

٣- **وجوبُ إعطاء الصغار ما فَرَضَ اللهُ لهنَّ من الميراث:**

كان أهلُ الجاهلية لا يورِّثونَ الصغار كما لا يورثون النساء، ولهم في ذلك فلسفةٌ قائمةٌ على أن الذي يستحقُّ الميراثَ هو الذي يقاتلُ، ويردُّ العدوانَ، قال ابنُ عطيةَ: «كانت العربُ لا تورِّث الصبيَّةَ، ولا الصبي الصغيرَ، وكان الكبيرُ ينفردُ بالمالِ، وكانوا يقولون: إنما يرثُ المال من يحمي الحَوْزَةَ، ويردُّ الغنيمةَ، ويقاتل عن الحريمِ، ففرضَ اللهُ لكل واحدٍ حقَّهُ» [المحرر الوجيز: ٣/ ٣٤].

قال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء:١٢٧] وقد أوجب اللهُ على عباده المؤمنين أن يقوموا لليتامى بالقسط، أي: بالعدل، أي: يعطوهم ما فرض اللهُ لهم من الميراث، وهَيَّجَ رَبُّ العزة المؤمنين على فعل الخيراتِ وامتثالِ الأوامر بقوله سبحانه: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾ [النساء:١٢٧] وإذا كان عليماً بما نفعله، فسيجزينا به.

٤- **كيف تتصرفُ المرأةُ إذا خافتْ من بعلها نشوزاً أو إعراضاً:**

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ المرأة إن خافت من بعلها، وهو زوجها أن ينْفِرَ منها، أو يُعْرِضَ عنها، فلا جناحَ عليها أن تصالحهُ، بأن تُسْقِطَ عنه حقَّها أو بعضَهُ من نفقةٍ أو كسوةٍ أو مبيتٍ، ولا حرجَ على زوجها أن يقبلَ ذلك منها، وهذا الذي يمكنُ أن يتصالحَ عليه الزوجانُ خيرٌ من الفراق والطلاق ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء:١٢٨].

جنـــــة السـنـــة

وقد فعلتْ ذلك سَوْدَةُ بنتُ زمعةَ زوجُ الرسولِ ﷺ عندما كبرت، فجعلتْ يومَها لعائشةَ، وقَبِلَ ذلك رسولُ الله ﷺ منها، فعن عائشة قالت: «لما كَبِرَتْ سودة، جعلَتْ يومَها من رسول الله ﷺ لعائشة، قالت: يا رسول الله، قد جعلتُ يومي منك لعائشة، فكان رسول الله ﷺ، يقسم لعائشة يومين، يومَها ويوم سودة»[1] [مسلم: ١٤٦٣. وانظر البخاري: ٢٥٩٣].

وروى عروةُ عن خالته عائشة رضي الله عنها: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ [النساء:١٢٨] قالت: «الرجلُ تكون عنده المرأةُ، ليس بمستكثر منها، يريدُ أن يفارقَها، فتقولُ: أجعلك من شأني في حِلٍّ، فنزلتْ هذه الآية في ذلك» [البخاري: ٢٤٥٠. ومسلم: ٣٠٢١].

وقولُه تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء:١٢٨] إخبارٌ من الله تعالى أنَّ الشحَّ موجودٌ في كلِّ واحد من الزوجين، بل هو موجودٌ في النفوس البشرية كلِّها، لا يكاد يغيبُ عنها بحال إلا من رَحِمَ اللهُ، هذا طَبْعٌ في العبادِ بحكم الخلقةِ التي خلق اللهُ الناسَ عليها.

والشحُّ: بخلٌ مع حِرْصٍ، وذلك فيما كان عادةً، ومن تخلَّص من شُحِّ نفسِهِ أفلحَ ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر:٩].

وختم ربُّ العزة الآية بقوله تعالى: ﴿وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝١٢٨﴾ [النساء:١٢٨] أي: أن تحسنوا عشرة النساء، وتتقوا ما لا يجوز من النشوز والإعراض ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝١٢٨﴾ فيجازيكم يا معشر المؤمنين بما تستحقونه.

٥- عدم استطاعة من له أكثر من زوجة أن يعدل بينهن في المحبة القلبية:

أخبرنا ربنا -تبارك وتعالى أن من له أكثر من زوجة فإنه لا يستطيع أن يعدل بينهنَّ في المحبة القلبية ولو حرص على ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ﴾ [النساء:١٢٩]، أي: لا تستطيعون أن تعدلوا بين الزوجات ولو حرصْتُمْ، ولذلك علينا أن نقاومَ أنفسنا حتى لا نميل كلَّ الميْل.

وهذا العدل غير المستطاع هو العدلُ القلبي، أما العدلُ في المبيتِ والنفقة فذلك عدل مقدور عليه، وهو واجب ومستطاع.

---

(١) يذكر بعض المفسرين أن سودة فعلت ذلك عندما أراد الرسول ﷺ طلاقها، وليس هذا بصحيح، فلم يرد أن الرسول ﷺ أراد طلاقها.

جنـــــة الســـــنة

قال الشوكاني: «أخبر سبحانه بنفي استطاعتهم للعدل بين النساء على الوجه الذي لا ميلَ فيه ألبتة، لما جبلت عليه الطباعُ البشريةُ من ميلِ النفس إلى هذه دون هذه، وزيادة هذه في المحبة ونقصان هذه، وذلك بحكم الخلقة بحيث لا يملكون قلوبهم، ولا يستطيعون توقيفَ أنفسهم على التسوية، ولهذا كان يقول الصادق المصدوق ﷺ: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك»[1]. ولما كانوا لا يستطيعون ذلك، ولو حرصوا عليه، وبالغوا فيه، نهاهم عز وجل عن أن يميلوا كل الميل، لأن ترك ذلك، وتجنُّبَ الجورِ كلّ الجورِ في وُسْعِهِم، وداخل تحت طاقتهم، فلا يجوز لهم أن يميلوا عن إحداهن إلى الأخرى كلَّ الميلِ حتى يذروا الأخرى كالمعلقة التي ليست ذات زوج ولا مطلقة، تشبيهاً بالشيء الذي هو معلق غير مستقر على شيء. وقوله: ﴿وَإِن تُصۡلِحُواْ﴾ : أي ما أفسدتم من الأمور التي تركتم ما يجب عليكم فيها من عشرة النساء والعدل بينهن ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ كل الميل الذي نهيتم عنه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٢٩﴾ لا يؤاخذكم بما فرط منكم» [فتح القدير: ١/ ٥٢٨].

٦- إن يتفرق الزوجان يُغْنِ الله كلَّ واحدٍ منهما من سعته:

أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنه إذا تفرق الزوجان، فإنَّ اللهَ يغني كلَّ واحدٍ منهما من سَعَته، فهو قادرٌ أن يعوّض الزوجَ عن زوجته، كما هو قادرٌ أن يعوضها عنه بمن هو خير لها منه، قال تعالى: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ ﴾ [النساء:١٣٠] وختم ربُّ العزة الآية بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا ١٣٠﴾ [النساء:١٣٠] أي: واسعُ الفضلِ، عظيمُ المنِّ، حكيمٌ في جميع أفعاله وأقداره وشرعه.

رابعاً: ما تهدينا إليه هذه الآياتُ من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا هذه الآيات وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - عظمُ منصبِ الإفتاءِ، حتى إنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- تولاَّه بنفسه.

٢ - إذا كان الوليُّ تحت يده يتيمةٌ لها مالٌ، وهو لا يرغبُ في نكاحها، فعليه أن لا يمنعها من الزواج ممن رضيتْهُ زوجاً.

---

(١) عزاه محقق ابن كثير إلى أحمد وابن أبي شيبة والدارمي وأبي داود والنسائي والترمذي وغيرهم (ابن كثير ٢/ ٣٩٢ وهو مرسل صحيح).

٣- يجبُ على من ولي أيتاماً صغاراً أن يعطيهم نصيبهم من الإرث الذي فرضه اللهُ تعالى لهم، وهذا هو العدلُ الذي أمر اللهُ به.

٤- خلَّص اللهُ المجتمعَ الإسلاميَّ من الظلم الاجتماعيِّ الذي كان يسودُ أهل الجاهلية، فقد كانوا يحرمون النساءَ والصغارَ من الميراث.

٥- لا حرجَ على الزوجة إن خافت من زوجها نشوزاً أو إعراضاً أن تصالحه، بأن تسقط عنه شيئاً من المهر أو النفقة أو المبيت، والصلحُ في شرع الله خيرٌ من الفراقِ والطلاق.

٦- أمر اللهُ بالعدلِ بين النساءِ في المبيتِ والنفقةِ ونحوهما، وأعلمنا أن العدلَ في المحبَّة القلبيةِ، والمعاشرةِ، لا يقدرُ عليه العبادُ، ولذا أمرنا بأن لا نميل كلَّ الميلِ.

٧- وعد اللهُ تعالى الزوجين إن هما افترقا أن يُغنيَ كلَّ واحدٍ من سَعَتِهِ.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني السادس والثلاثون من سورة النساء

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾

أولاً: تقديم

كرَّر اللهُ تبارك وتعالى قوله: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [النساء:١٣١] ثلاث مراتٍ في الآيتين الأوليين من هذا النص، وأخبرنا أنه وصَّانا ووصَّى الأممَ من قبلنا بتقواه، فإن كفرنا فإنَّه غنيٌّ عنا، وتهدَّد الكفرةَ المجرمينَ بأنه قادرٌ على أن يذهب بهم ويدمِّرَهُمْ، بل يذهبُ بالناس جميعاً، وأعلمنا في الآية الأخيرةِ من هذا النصِّ أنَّ من يريدُ ثوابَ الدنيا، فعند الله ثوابُ الدنيا والآخرة، وهو سميعٌ بصيرٌ سبحانه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا (١٣٣) مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤) ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥) ﴾ [النساء:١٣١-١٣٥].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١ - ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾:

كرَّر ربُّنا في الآيتين الأوليين هذا النص ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ثلاث مراتٍ، وهذا التكرارُ فيه دلائلُ موحية تدلُّ على ما يأتي:

أ- ملكُهُ سبحانه وتعالى للسمواتِ والأرض يدلُّ على عظيم غناه، والغنيُّ لا يحتاجُ إلينا، ولا إلى أعمالِنا وعبادتِنا، قال تعالى مبيناً مدى غناه عن عباده ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨].

جنـــــة السـ ـــــنة

ب- وإذا كان اللهُ تبارك وتعالى هو الغنيَّ، فإننا فقراءُ إليه، نحتاجُ إليه في صلاح أنفسنا وتقويمها، ونحتاجُ إليه في شربةِ الماءِ، ولقمةِ الطعام ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ [فاطر:١٥].

وهذا يدلُّ على عظم جريمة اليهودِ الذين زعموا أنَّ اللهَ تعالى عندما طلب القرض من عبادِهِ فقيرٌ، وهم أغنياء: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ﴾ [آل عمران:١٨١].

ج- إذا كان اللهُ -تبارك وتعالى- هو خالقَ السموات والأرضِ ومالكها، فإنَّ ذلك دالٌّ على أنَّ كلَّ ما عبده البشر من شمس وقمر ونجوم وملائكة وجبال وحيوان وأصنام وبشر وغيرها كلّه باطلٌ، لأن هذه المعبودات هي جزء من السماوات والأرض، وهي مخلوقةٌ مربوبةٌ ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ [الحج:١٨].

د- السماواتُ والأرضُ وما فيهما وما بينهما محتاجةٌ إلى ربِّ العزَّة، لا تستغني عنه لحظةً ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ [فاطر:٤١].

٢- توصية الله تعالى أهل الكتاب وإيانا بتقوى الله:

أعلمنا ربُّنا تبارك وتعالى أنه وصَّى الذين من قبلنا من أهل الكتاب وهم اليهودُ والنصارى كما وصَّانا بتقواه سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [النساء:١٣١] وتوصيةُ الله عبادَهُ تدلُّ على وجوب ما أوصى به، كقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ [النساء:١١].

ومحلُّ التقوى القلبُ، فقد صحَّ من حديث أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال: «التقوى ها هنا» ويشيرُ إلى صدرِهِ ثلاثَ مراتٍ [مسلم: ٢٥٦٤]. ولذلك كانَ القلبُ موضعَ نظر ربِّ العزة، ففي الحديث: «إنَّ اللهَ لا ينظرُ إلى أجسادكم، ولكن ينظرُ إلى قلوبكم» [مسلم: ٢٥٦٤]. وتتحقق التقوى بخشية الله ومخافته وتعظيمه وتوقيره ومحبته، والتقوى تنبتُ العمل الصالح من الصلاة والزكاة والصوم وذكر الله ونحو ذلك، وتَرْدَعُ عن الأعمال السيئة من الشرك والمعاصي والذنوب.

٣- اللهُ غنيٌّ عن الكافرين:

خاطبَ اللهُ تعالى عبادَهُ مبيناً أنه غنيٌّ عنهم إن هم كفروا: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا ١٣١﴾ [النساء:١٣١] يقولُ العزيزُ الحكيمُ لعباده: إن

جنـــــة السـنة

أنتم كفرتم بي وأعرضْتُمْ عنِّي، فأنا لي ما في السموات والأرض، وأنا غنيٌّ عنكم، وأنا المحمودُ في السموات والأرض، فلا يضرني كفركم بي، والمتضرر من الكفر هم الكفرةُ الضالون.

وفي الآية التالية كرَّر النصَّ على أن له ما في السموات والأرض: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾﴾ [النساء:١٣٢] فهو سبحانه مالك السموات والأرض الغنيّ عن عباده، وكفى به كفيلاً على من توكَّل عليه، واعتمد عليه سبحانه.

٤- قدرةُ الله على الذهاب بنا والإتيان بآخرين:

قال ربُّ العزةِ متهدداً الكفرةَ المجرمين ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء:١٣٣] يخاطبُ اللهُ الناسَ ومرادُهُ الكفرةُ منهم، ويقول لهم: إنه قادرٌ على إهلاكِهِمْ وتدميرِهِم، والإتيان بآخرين يوحِّدونه ويعبدونَه، كما أهلك قومَ نوحٍ وقومَ هودٍ وقومَ صالحٍ، وفرعونَ وقومَهُ، وأنشأ بعدَهُمْ أُمماً لتوحيده وعبادتِهِ، فاللهُ قادرٌ على كلِّ شيءٍ، لا يعجزه شيءٌ في الأرض، ولا في السماءِ. ولهذه الآية نظائر في كتابِ الله تعالى، كقولِهِ سبحانه: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم:١٩-٢٠]، وقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد:٣٨].

٥- اللهُ -تبارك وتعالى- عنده ثوابُ الدنيا والآخرة:

ذمَّ اللهُ -تبارك وتعالى- أقواماً من البشر لا يتطلعون من وراء أعمالهم إلى غير الدنيا، وكانوا قادرين على أن يحْصُلوا على ثواب الدنيا والآخرة، فاللهُ عنده ثوابُ الدنيا والآخرة ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾ [النساء:١٣٤].

وقد حدَّثنا الله -تبارك وتعالى- في سورة البقرة عن فريقين من الناس: فريق يطلبُ الدنيا، وليسَ له في الآخرة من خلاق، وفريق يطلبُ الدنيا والآخرة، قالَ تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة:٢٠٠-٢٠١].

وفي الآية حثٌّ للمؤمنين على أن يطلبوا ثوابَ الدنيا وثوابَ الآخرة من مالكهما ربِّ العالمين سبحانه، واللهُ -تعالى- عالمٌ من يستحقُّ ثوابَ الآخرة ممن لا يستحقُّه، ولذلك قال -سبحانه- في ختام الآية ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾.

جنـــــة السـنــــة

٦- ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ :

أمرنا ربنا - تبارك وتعالى- في الآية الأخيرة من هذا النص الكريم أن نكون قوامين بالقسط شهداء لله، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥)﴾ [النساء:١٣٥].

ونكونُ ﴿قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ بالحرص على العدل في كل أمورنا وأحكامنا، ونكون شهداءَ لله تعالى، بالإتيان بالشهادة على وجهها، من غير نقصانٍ، ولا تزيُّدٍ.

وقد فسَّر هذه الآية أحدُ أئمة التفسير الكبار، وهو قتادةُ، فقال: «هذا في الشهادة، فأقم يا ابن آدم الشهادةَ على نفسِكَ، أو الوالدين، أو على ذوي قرابتك، أو أشرافِ قومِكَ، فإنَّ الشهادةَ لله، وليستْ للناس، وإنَّ اللهَ رضي العدلَ لنفسه، والإقساطُ والعدلُ ميزانُ الله في الأرض، به يرُدُّ اللهُ من الشديد على الضعيفِ، ومن الكاذب على الصادق، ومن المبطل على المحقّ، وبالعدل يُصَدِّقُ الصادق، ويُكَذِّبُ الكاذب، ويُرَدُّ المعتدي، ويُوَبِّخُهُ، تعالى ربنا وتبارك، وبالعدل يصلحُ الناسُ، ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ يقولُ: أولى بغنيكم وفقيركم» [رواه ابن جرير الطبري: ٤/ ٢٥٩١، وعزاه محققه إلى ابن أبي حاتم في تفسيره. وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر. الدر المنثور: ٢/ ٧١٥].

ويقيم المرءُ الشهادةَ على نفسِهِ باعترافه بما عليه من حقٍّ وعدم كتمانه له، وقوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾ نهى الله -تبارك وتعالى- عن اتباع الهوى فإنه يصدُّ الناسَ عن العدلِ، وقوله: ﴿وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥)﴾ [النساء:١٣٥] نهى اللهُ تبارك وتعالى عن السببين الموجبين لكتمانِ الحقِّ، محذراً منهما، ومتوعداً عليهما، أحدهما: الليُّ. والآخر الإعراض. وأصلُ الليِّ: الفتْلُ، وهو التحريفُ وتعمد الكذب، سواءً كان في لفظه أو معناه. والإعراضُ يكون بكتمانِ الشهادةِ وتركها.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - اللهُ تبارك وتعالى غنيٌّ عن عبادِهِ، فله ما في السمواتِ وما في الأرض.

٢ - اللهُ وحدَهُ المعبودُ، وغيرهُ مِنَ المعبوداتِ باطلةٌ، فكلُّ المعبوداتِ من دون الله هي في السماواتِ والأرضِ، وكلُّ ما فيهما فهو مخلوقٌ مربوبٌ مصنوعٌ.

جنـــــة السـنـــــة

٣- اللهُ لا يحتاجُ إلى أحدٍ من خلقِهِ، فهو غنيٌّ عنهم، وعن عبادتهم.

٤- تقوى الله وصية الله تبارك وتعالى للبشرية من قبلنا، ولنا من بعدهم.

٥- البشرُ ضعافٌ، فلو شاءَ اللهُ لأهلكهم جميعاً، وجاء بغيرهم.

٦- على المؤمنين أنْ يطلبوا من الله ثوابَ الدنيا والآخرة، ولا يجوز أن يقتصروا على طلب الدنيا وحدها، أو الآخرة وحدَها.

٧- يجبُ على المؤمنِ أن يأتي بالشهادة على وجهها، أي من غيرتزيُّدٍ فيها، ولا نقصٍ منها.

٨- يجب على المؤمن أن يشهد بالعدل، ولو كان على نفسه، أو والدَيه وأقاربه.

٩- حذَّرنا اللهُ -تبارك وتعالى- عن اتباع الهوى الذي يصرِفُنا عن الحقِّ والعدلِ.

١٠- استدلَّ أهلُ العلم بقوله تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ على أنَّ العبدَ لا مدخلَ له في الشهادةِ، إذ ليس قوَّاماً بذلك، لكونه ممنوعاً من الخروج إلى القاضي.

١١- استُدِلَّ بقوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ على قبول شهادة الرجل على والديه وأقاربِهِ، ووجوب العدلِ في الشهادة بين القريب والبعيد، والغني والفقير.

جنـــة الســـــنة

النص السابع والثلاثون من سورة النساء
وجوبُ الإيمانِ بجميع الكتبِ التي أنزلها اللهُ والرسلُ الذي أرسلهم

أولاً: تقديم

أمرنا اللهُ تعالى في آيات هذا النص بالإيمان بالله ورسولِهِ وما أنزله من كُتُبٍ، وأعلمنا أن الذي يكفرُ بالإيمان فهو ضالٌ أعظمَ الضلال، وبيّن لنا أن الذين يترددون بين الإيمانِ والكفر، ويموتون على الكفر، فلن يغفرَ اللهُ لهم، وبشّر المنافقين بالعذاب الأليم، الذين يوالون الكفارَ مبتغين عندهم العزَّة، جاهلين أن العزة كلَّها لله تعالى، ونهى اللهُ المؤمنين عن مجالسةِ الذين يكفرون بآياتِ الله، ويستهزئون بها، حتى يخوضوا في حديثٍ غيره، وإلا كانوا مثلهم، وأخبرنا في الختامِ أن اللهَ سيجمعُ المنافقين والكافرين في جهنَّم جميعاً.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾ [النساء:١٣٦-١٤٠].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أمر اللهُ -تعالى- المؤمنين أن يؤمنوا به وبرسوله وبالكتاب الذي أنزله:

نادى اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنينَ، وأمرهُمْ أن يؤمنوا به، وبرسولِهِ محمدٍ ﷺ، وبالكتابِ الذي نزّلَ على رسولِهِ ﷺ، وهو القرآنُ الكريم، وبالكتابِ الذي أنزله من قبل، وهذا شاملٌ لجميع الكتب التي أنزلها اللهُ تعالى من قبلُ، ومنها صحفُ إبراهيمَ والتوراةُ والزبورُ والإنجيلُ، لأن (أل) في قوله: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ للجنس، فهي شاملةٌ لكل كتابٍ أنزله اللهُ تعالى، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء:١٣٦].

جنـــــة السـنـــــة

والمرادُ بالمؤمنين الذين ناداهم اللهُ عزَّ وجل المؤمنون من هذه الأمة، فإنَّ الإيمانَ والإسلامَ لقبٌ لهم، أَمْرُهم بالإيمانِ، أمر لهم بالتعرّف عليه، والازدياد منه، والثبات عليه.

وأمْرُه تعالى المؤمنينَ بالإيمان بالكتابِ الذي نَزَّل على رسوله والكتاب الذي أنزله على الأنبياء من قبلنا، قاعدةٌ إلهية ربّانيةٌ، وهي الإيمانُ بكلّ ما أنزله الله، ولكننا في الاتباع والتنفيذ، نلتزمُ بما شَرَعه اللهُ في كتابنا وسنّة نبينا ﷺ.

وقال اللهُ في كتابنا ﴿نَزَّلَ﴾ لأنه نزل منجماً على مدارِ ثلاثة وعشرين عاماً، أما الكتبُ السابقة، فكان كلُّ كتابٍ ينزل مرّةً واحدةً، ولذلك قال: ﴿أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾.

٢- الكفار بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر ضلُّوا ضلالاً بعيداً:

بعد أن أمرنا اللهُ ربُّنا -تبارك وتعالى- بالإيمانِ، أخبرنا سبحانه وتعالى أنَّ الذين يكفرون بِهِ وبملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ واليومِ الآخر ضلُّوا ضلالاً بعيداً، أي: ضلُّوا ضلالاً لا أعظم منه، ولا أشدَّ منه ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾ [النساء:١٣٦]. وقد ساقَ ربُّنا في هذا الجزء من الآية أركانَ الإيمان، فيجبُ الإيمانُ بها كلِّها، ومن كفر بواحدٍ منها فقد كفر بها كلِّها، لأنها وِحْدَةٌ واحدةٌ لا يجوزُ الإيمانُ ببعضها والكفر ببعضٍ آخر.

٣- الذين تردّدوا بين الكفر والإيمان ثم ماتوا على الكفر لا يغفر اللهُ لهم ولا يهديهم:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ الذين يتردَّدُون بين الإيمان والكفر، فيؤمنون مرةً، ويكفرونُ أخرى، ثم يُصَمِّمون على الكفر ويموتونَ عليه، فإنه لا توبةَ لهم بعد الموتِ، ولا يغفرُ اللهُ لهم، ولا يجعلُ لهم فرجاً ومخرجاً، ولا طريقاً إلى الهدى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ١٣٧﴾ [النساء:١٣٧].

وهذه الحالةُ، وهي التردُّدُ بين الكفر والإيمان، يمرُّ بها كثير من المنافقين، فمن فعلَ ذلك، ثم كانت العاقبةُ أن يزداد كفرُهُ، ويموتَ عليه، هؤلاء تندثرُ حسناتُهم يومَ القيامة، فالكفرُ الذي يموتُ عليه المرءُ يمحو الإيمانَ والعملَ الصالح، وفي الحديث عن عبدالله قال: قال أناسٌ لرسولِ الله ﷺ: يا رسولَ الله، أنؤاخذُ بما عملنا في الجاهلية؟ قال: «أما من أحسنَ منكم في الإسلام، فلا يؤاخذ بها، ومن أساءَ أُخِذ بعمله في الجاهلية والإسلام» [مسلم: ١٢٠].

جنـــــة الســـــنة

٤- أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أن يُبشِّرَ المنافقين بالعذاب الأليم:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- عبدَهُ ورسولَهُ محمداً ﷺ أن يبشِّر المنافقين بالعذاب الأليم ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾ [النساء:١٣٨]. والبشارة في الأصل إنما تكون في الأمرِ المفرحِ الذي يجلبُ السرورَ، وبشَّر اللهُ المنافقينَ بالعذاب على جهةِ الاستهزاءِ والتهكم بهم.

وعذابُ الآخرة مؤلمٌ موجعٌ لشدَّته وقوتِهِ، فنارُ الآخرةِ أشَدُّ من نارِ الدنيا بسبعين مرة.

٥- حرمةُ اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياءَ:

جاءت النصوصُ القرآنيةُ كثيرةً طيبةً تنهى المؤمنين عن موالاةِ الكفارِ، وقد ذمَّ اللهُ تبارك وتعالى في آيات هذا النص المنافقين الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١٣٩]. فقد كان المنافقون يتخذون زعماءَ الكفار من اليهود وغيرهم أولياء، فيذهبون إليهم، ويذيعون عندهم أخبارَ المؤمنين، ويستمعون إلى ما يُلْقُونَه إليهم، ويُسِرُّون إليهم بالمودَّة، ويقولون: نحن معكم.

وقد سأل اللهُ -تبارك وتعالى- هؤلاء المنافقين سؤالَ توبيخ قائلاً: أتبتغون بموالاتكم الكفارَ العزةَ؟، ثم بيَّن لهم فسادَ ما استقرَّ في قلوبهم، وأخبرهم أنَّ العزة كلَّها له وحده ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء:١٣٩] والذي يحظى بالعزة هو الذي يتولى اللهَ تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون:٨]، والعزَّةُ: الغلبة والقوة.

٦- كيف يكونُ حالُ المسلم في المجالسِ التي يُكْفَرُ فيها بآياتِ الله:

كثُرَ في أيامنا هذه إعلانُ طوائفَ من الكفار الكُفْرَ بآياتِ القرآنِ والاستهزاءَ بالقرآن والرسول ﷺ، والاستهزاء بشعائر الإسلام، والمسلمون اليوم فيهم ضَعْفٌ، فيصعبُ عليهم أن يردُّوا عليهم الردَّ المناسب في كثير من الأحوال. وقد كان علماؤُنا وحكامنا أيامَ سيادةِ الإسلام وقوتِهِ يصيحون بأمثالِ هؤلاء، ويؤدِّبونهم، ويأخذونَ على أيديهم، وقد مرَّ الصحابةُ في أول الأمر بفترات ضعفٍ، وكان المنافقون والكفار يجهرون بالكفرِ بآياتِ الله ويستهزئون بها، وقد أمَرَ اللهُ تبارك وتعالى المؤمنين أن لا يجلسوا في تلك المجالس إن لم يستطيعوا أن يكبتوا أعداءَ الله المستهزئين بآياتِ الله ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء:١٤٠].

جنـــــة الســـــنة

والذي نزلّه على رسولِه ﷺ وصحابتِه الكرام هو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام:٦٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء:١٤٠] أي: إذا جلستم في المجالس التي يُكْفَرُ ويستهزأ فيها بآياتِ الله، وسَكَتُّم، فقد شاركتموهم فيما خاضوا فيه.

وقد أخبرنا ربُّنا -عز وجلّ- أنَّ اللهَ جامعُ المنافقين والكافرين كلِّهم في النار، ذلك أنَّ المنافقين يعصمون أنفسهم وأموالهم بإظهارهم الإيمان، أما في يوم القيامة فإنَّ الكفرَ الذي أخفوه في الدنيا يصبح ظاهراً بيِّناً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء:١٤٠].

رابعاً: ما تهدي إليه الآيات من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الإيمانُ الصحيح الذي لا يقبلُ اللهُ من أحدٍ سواه ديناً أن نؤمنَ بالله وملائكته وكتبه ورسلِهِ واليوم الآخر، فمن كفر بهذه الأصول أو بأصل منها فهو كافر عند الله تعالى.

٢- يجبُ الإيمانُ بالكتبِ كلِّها، والإيمانُ بالرسل جميعاً، فمن آمنَ ببعض الكتب أو بعض الرسل، وكفر ببعضٍ لم يصحَّ إيمانه.

٣- المنافقون مذبذبون في إيمانهم، فتراهُم يؤمنونَ ثم يكفرون، ويكون خاتمةُ بعضِهم الموتَ على الكفرِ، فهؤلاء لا يغفرُ اللهُ لهم، ومصيرُهم النار.

٤- بشَّرَ اللهُ المنافقين بالعذابِ الأليم، وهم الذين يتخذونَ الكفارَ أولياءَ من دون المؤمنين، والمنافقون يطلبون من الكفار العزَّةَ، وهم جهلاءُ، فالعزةُ لله وحدَه.

٥- لا يجوزُ للمؤمن أن يجلسَ في المجالسِ التي يُكْفَرُ ويُستَهزأ فيها بآيات الله، ويجوزُ مجالسة الكفار في حال عدم كفرهم بآيات الله وعدم استهزائهم بهذه الآيات.

٦- إذا كان لا يجوز مجالسةُ الكفار الذين يستهزئون بآيات الله، فكذلك لا يجوزُ مجالسةُ المبتدعة وأهل الأهواءِ حالَ ممارستهم بدَعَهُمْ وأهواءَهم.

٧- مصيرُ المنافقين يوم الدين النار، ففي يوم القيامة يفضحهم اللهُ، ويهتكُ سِتْرَهُمْ، ويدخلُهُمْ أشدَّ العذاب.

جنـــــة السـنـــــة

٨- لا يجوزُ للمؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياءَ من دون الله والمؤمنين.

٩- الذين يشاركون أهلَ الكفر وأصحابَ الأهواءِ في مجالسهم، ويخوضون في الباطلِ الذي يخوضون فيه، يكونون شركاءَهم في الإثم.

١٠- اتخذ المؤلفون من هذه الآية أصْلاً، وهي الآية الناهية عن مجالسة الكفرة حال استهزائهم بآيات الله، فترى المؤلفين يحيلون في مؤلفاتهم على موضعٍ آخر، كما أحالت الآية على ما سبق إنزاله من قبل.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الثامن والثلاثون من سورة النساء
المنافقون مذبذبون بين الإيمان والكفر

أولاً: تقديم

في آيات هذا النص مزيدُ بيانٍ لما تحدثتْ عنه آياتُ النصِّ السابق من أحوال المنافقين، فقد كَشَفَتْ حالَهُمْ، وأبرزتْ سماتِهِمْ، وأخصُّ خصائصهم تذبذبهم بين الإيمان والكفر.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾ [النساء:١٤١-١٤٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- المنافقون يتربصون بالمؤمنين الدوائر:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن المنافقين كانوا يُضْمِرون الشَّرَّ للمؤمنين، وينتظرون أن تدورَ عليهم الدوائر، فيذهبَ مُلْكُهُمْ، وتَفْنَى قوتُهم، وتزولَ دوْلَتُهُمْ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ [النساء:١٤١] والتَّربُّص: الانتظارُ بالشيء، كأن ينتظرَ زوالَ الشيء أو حصولَهُ، والمرادُ أن المنافقين يتربصون بالمؤمنين الدوائر.

٢- امتنانُ المنافقين على المؤمنين والكافرين:

المنافقون لم تَخْلُص قلوبهم للمؤمنين، ولا للكافرين، وكلُّ ما يُهِمُّهُمْ أنفسُهُمْ، فإذا غَلَبَ المؤمنونَ ورزقهم اللهُ فتحاً، قال لهم المنافقون متوددين طالبين المَغْنَمَ: ألم نكن معكم ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ [النساء:١٤١]، فإذا كانت الغلبةُ للكافرين، كما وَقَعَ في غزوة أُحُدٍ قالوا للكفار: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١٤١]، يعنون أنهم ناصروهم، وحَمَوْا ظهورهم، وخذَّلوا عنهم، وخَلْخَلوا صفوف المؤمنين.

جنـــــة السـنـــــة

المنافقون يريدون نيلَ الحظوةِ عند هؤلاء وعند هؤلاء، ويريدون أن يأمنوا مكرَ هؤلاءِ وهؤلاءِ.

٣- **حكم الله تعالى بين العباد في يوم القيامة:**

وقد أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنّه سيحكمُ بين المؤمنين والمنافقين في يوم الدين، ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [النساء:١٤١]، ففي ذلك اليوم يُكْشَف حالُ المنافقين، ويظهر منهم ما كانوا يكنُّونه، ويسترونَه من كُفْرهم، ولا يستطيعون أن يكتُموا الله شيئاً من أخبارهم.

٤- ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١﴾:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١﴾ [النساء:١٤١] أما أنه لن يجعل لهم عليهم سبيلاً في الآخرة، فهذا أمر في غاية الوضوح والبيانِ، وكلُّ مؤمنٍ يوقنُ بذلك، أما في الدنيا فقد يُظَنُّ أنَّ الكفارَ قد يُدالونَ على المؤمنين، كما وقعَ للكفارِ في أُحُدٍ، وكما وَقَعَ للكفار في حنينٍ في أول المعركة، والصوابُ مِنَ القولِ أنَّ الآيةَ على عمومِها وظاهِرِها، فاللهُ -تبارك وتعالى- لن يجعلَ للشيطانِ ولا للكفارِ سبيلاً على المؤمنين، إلا إذا جعلَ المؤمنون السبيلَ على أنفسِهِمْ بمخالفتهم لما أمرَ الله به أو أمَرَ به رسولُهُ ﷺ ، ففي أُحُدٍ نَصَرَ اللهُ المؤمنين حتى اختلفَ المؤمنونَ وتنازعوا وتركوا أمر الرسولِ ﷺ ، وفي يوم حنين أعجبتِ المؤمنين أنفسُهُمْ وكثرتُهُمْ، وهكذا كلُّ معركة هُزم فيها المؤمنون، أما إذا كان المسلمونَ على المستوى الإيمانيِّ المطلوب، فلن يجعلَ اللهُ للكافرين سبيلاً عليهم بحالٍ.

٥- **المنافقون يخادعونَ اللهَ وهو خادِعُهُمْ:**

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أن المنافقين يظنُّون أنّهم قادرون على خداع الله تعالى، ذلك أنهم أظهروا الإيمانَ وأبطنوا الكفر، فعصموا دماءَهم وأموالَهم في الدنيا، فأمر اللهُ تعالى أن تُجرَى أحكامُ الشريعةِ في ظاهِرِ أمْرِهم، فإذا جاؤوا يومَ القيامةِ ظَنُّوا أنّهم يستيطعونَ النجاةَ من عذابِ الله في ذلك اليوم، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٨﴾ [المجادلة:١٨].

ولا شكَّ أنَّ اللهَ -تعالى- لا يخدعُ لا في الدنيا، ولا في الآخرة، فاللهُ -تبارك وتعالى- عالمٌ بمكنون ضمائر المنافقين، وأجرى عليهم أحكامه في الدنيا لحكمةٍ يعلمها، وفي يوم القيامة عندما ينكرون كُفْرَهُمْ وضلالَهُمْ يختمُ على أفواههم، وتشهدُ عليهم أيديهم وأرجلُهم

جنـــــة السـنـــــة

وجلودُهم بما كانوا يعملونَ، فيظهر لهم في ذلك اليوم أنّه هم المخدوعون ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢].

٦- إذا قامَ المنافقون إلى الصَّلاةِ قاموا كسالى:

أخبرنا ربُّنا - تبارك وتعالى- عن حالِ المنافقين في صلاتِهِمْ، فقال: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء:١٤٢]. وقد أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ المنافقينَ لا إيمانَ في قلوبهم، ولذلك فإنهم لا يُصلُّون إذا كانوا في خِفْيةٍ من الناس، فإذا كانوا ظاهرين صَلَّوْا مراءاةً للناس، ومن كان هذا حاله فإنَّ همته لا تنبعثُ قويةً إلى الصلاةِ، بل يقومون كسالى فاترين، ليس لهم في الصلاة همٌّ ولا عَزْمٌ.

وقد حدَّثنا رسولُنا ﷺ عن صلاةِ المنافقين، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبيُّ ﷺ: «ليس صلاةٌ أثْقَلَ على المنافقين من الفجرِ والعشاءِ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حَبْواً» [البخاري: ٦٥٧. ومسلم: ٦٥١].

وعن أنس بن مالكٍ قالَ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «تلكَ صلاةُ المنافق، يجلسُ يَرْقُبُ الشمسَ، حتى إذا كانت بين قرْني شيطانٍ، قام فنقرها أربعاً، لا يذكرُ اللهَ فيها إلا قليلاً» [مسلم: ٦٢٢].

وتكون الصلاةُ بين قرني شيطان في طلوعها وفي غروبها، حيثُ ينصِّب نفسَهُ في ذلك الوقت في جهة الشروقِ أو الغروبِ، ليكون من سجَد من الكفار في تلك الجهة ساجداً له.

٧- المنافقون مُحَيَّرون بين الإيمان والكفر:

أخبرنا ربُّنا - تبارك وتعالى- أنَّ المنافقين مُحَيَّرون بين الإيمان والكفر، فلا هم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً، ولا مع الكفارِ ظاهراً وباطناً، بل ظواهِرهُمْ مع المؤمنين، وبواطنهم مع الكافرين قال الراغب الأصفهاني: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: مضطربين مائلين تارةً إلى المؤمنين، وتارةً إلى الكافرين [المفردات: ص١٧٧]، قال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء:١٤٣].

وهذه الآية تصوِّرُ حال المنافقين بأوضح صورةٍ، فهم متأرجحون متذبذبون بين الصف المؤمن والصفِّ الكافر، ومن كان كذلك كان حاله يَشِي بالضعف والخلل وهو بذلك موضعُ احتقارٍ من نفسِهِ ومن غيره، وهذا الصنفُ يستحقُّ أن يقول ربُّ العزة فيه: ﴿وَمَن

جنـــــة السـنــــة

يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾ [النساء:١٤٣] أي: من يصرفه ربنا عن الهدى فلا هاديَ يهْديهِ، ولا منقذَ له من الضلال.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - المنافقونَ ينتظرونَ أن تحلَّ الدوائر بالمؤمنين، فيذهبُ عِزُّهم، ويزولُ ملكهم.

٢ - المنافقون يحاولون أن يكْسبوا وُدّ المؤمنين وودَّ الكافرين، فإذا انتصرَ المؤمنون قالوا لهم: كنا معكم، وإذا كانت الدولة للكفار زعموا أنه كان لهم دورٌ في نصرِهم.

٣ - اللهُ تبارك وتعالى يحكمُ بين عبادِهِ في يوم الدين، ويفضحُ في ذلك اليومِ المنافقينَ.

٤ - إذا استقام المؤمنون على الإيمان حقَّ الاستقامة لم يجعل اللهُ للكافرين عليهم سبيلاً، وإنما يكونُ لهم سبيلٌ على المؤمنين إذا وُجد في إيمانهم وطاعتهم ثغرةٌ.

٥ - لا يجوزُ أن يملكَ الكافرُ عبداً مؤمناً لقوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾ [النساء:١٤١].

٦ - المنافقون يظنون في أنفسهم الذكاء والنباهةَ، إذْ يظنونَ أنهم قادرون على خداع الله والذين آمنوا، وفي يوم القيامة يعلمون أنَّهم مخدوعون أغبياءُ.

٧ - من علامة المنافقين أنهم يقومون إلى الصلاة كسالى، أما المؤمنون فيقومون نشطين مبتهجين.

٨ - أدقُّ وصفٍ للمنافقين أنهم مذبذبون متأرجحون بين الصفِّ الإسلامي والصفِّ الكافرِ، لا يقرُّ لهم قرارٌ، ولا يهدأُ لهم بالٌ.

جنـــــة السـنة

النص القرآني التاسع والثلاثون من سورة النساء

﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾

أولاً: تقديم

نادى اللهُ تعالى المؤمنينَ ناهياً إياهُمْ عن تولِّي الكافرين، مخبراً إياهم أنَّ اتخاذَهُمْ أولياءَ من دونِ المؤمنين يجعلُ لله حجةً عليهم بتعذيبهم، وأخبرنا عن عظم جريمةِ النفاقِ الأكبرِ، فالمنافقون في الدركِ الأسفلِ من النار، وأخبرنا سبحانه أنه يقبلُ توبة المنافقين الصادقين في توبتهم، فهو ليس بحاجةٍ إلى عذابهم إنْ هم تابوا، وأنابوا.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء:١٤٤-١٤٧].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- نهى اللهُ المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين:

نهى الله تبارك وتعالى المؤمنينَ أن يكونوا كالمنافقين باتخاذِهِمْ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾ [النساء:١٤٤] قال ابنُ كثيرٍ رحمهُ الله تعالى: «يَنْهى اللهُ عبادَهُ المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياءَ من دون المؤمنين، يعني مصاحبتَهم ومصادقتهم، ومناصَحَتَهُمْ وإسرارَ المودة إليهم، وإفشاءَ أحوال المؤمنين الباطنة إليهم، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ﴾ [آل عمران:٢٨]» [ابن كثير: ٢/ ٤٠٢].

وقوله تعالى في خاتمة الآية ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾ [النساء:١٤٤] الاستفهامُ في قوله: ﴿أَتُرِيدُونَ﴾ للتقريع والتوبيخ، أي: أتريدون أن تجعلوا لله

جنـــــة السـنـــــة

عليكم حُجَّةً بيِّنةً يُعذِّبكم بها بسبب ارتكابكم لما نهاكم عنه من موالاةِ الكافرين، وقد نَقَل ابنُ كثير عن ابن عباسٍ بإسناد حكمَ عليه بالصحة أنه قال: «كلُّ سلطانٍ في القرآن حجةٌ» ونقل ذلك عن أئمة التفسير، كمجاهدٍ، وعكرمة، وسعيد بن جبيرٍ، وغيرهم [ابن كثير: ٢/ ٤٠٢].

٢- المنافقون في الدركِ الأسفل من النار:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء:١٤٥] والنار سبعُ دركاتٍ، بعضُها تحت بعضٍ، وكلما نزلتْ دركاتُ النار ازداد أهلها عذاباً وشقاءً، والمنافقون في المنزلة السابعة من دركاتِ النار، وهذا يدلُّ على عِظَم جريمَتِهم، وعِظَم شقاوَتِهِمْ، وكما أنَّ النارَ دركاتٌ، فإنَّ الجنةَ درجاتٌ بعضها فوق بعضٍ، وكلما ارتفعَ الناسُ في الجنة ازدادَ نعيمهم.

وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ المنافقين في الدَّركِ الأسفل من النار، لا يجدون من ينصرهم، ولا من يحميهم، ويدافعُ عنهم في ذلك اليوم، نعوذُ بالله من حالهم ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء:١٤٥].

٣- التائبون من النفاق:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ طائفةً من المنافقين تابوا إلى الله تعالى وأنابوا إليه، وصلُحَ حالُهم، فهؤلاء مع المؤمنينَ في جناتِ النعيم، وقد قال تعالى في هؤلاءِ التائبين.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء:١٤٦] لقد وقع تغيير حقيقي في حياة هؤلاء المنافقين، وقد أعلمنا ربُّنا أن هؤلاء انصلح حالُهُمْ، وتغيَّر ضَلالُهُمْ، وانحازوا لأهل الإيمان، فنجوْا في يوم الدين، وكانوا من الصالحين، وقد وُجِدَتْ فيهم أربعة أمور أوجبت نجاتهم في يوم الدين:

الأول: أنهم تابوا عما كان في قلوبهم من الشك والريب والخيانة لله ورسوله.

الثاني: أصلحوا ما أفسدوه من قبل من كتمانهم الحق، واتهامهم الإسلام وأهله.

الثالث: اعتصامُهُمْ بالله وَحْدَهُ، وإعراضُهُمْ عن زعماء الكفرِ والنفاق.

الرابع: إخلاصُ دينهم لله تعالى بعبادته وَحْدَهُ لا شريكَ له.

جنـــــة السـنة

إنَّ التغيير الذي وقع في نفوس هؤلاء تغيير كليٌّ حقيقيٌّ، فقد انسلخَ هؤلاء عما كانوا فيه من مبادئ ضالة، وعقائدَ فاسدة، وقد تحوَّلوا من فئة المنافقين إلى زُمْرَةِ المؤمنين، ولذلك فإنَّهم يستحقون الأجر العظيم في يوم الدين.

٤- ما يفعلُ اللهُ بعذابِكم إنْ شَكَرْتُم وآمنتم:

خاطبَ اللهُ تعالى المنافقينَ مبيناً لهم أنه لا حاجةَ له إلى تعذيبهم إنْ هم آمنوا وشكروا اللهَ عز وجل، فقال: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء:١٤٧].

يقول ابن جرير رحمه الله تعالى مفسِّراً هذه الآية: «ما يصنعُ اللهُ أيها المنافقون بعذابكم، إن أنتم تُبْتُمْ إلى الله، ورجعتُم إلى الحق الواجب لله عليكم، فشكرتُموهُ على ما أنعم عليكم من نعمِهِ في أنفسكم وأهاليكم وأولادِكُمْ، بالإنابة إلى توحيده، والاعتصام بِهِ، وإخلاصِكُمْ أعمالَكم لوجهه، وتَرْكِ رِياءِ الناس بها، وآمنتم برسولِهِ محمدٍ ﷺ، فصدَّقْتُموهُ، وأقْرَرْتُم بما جاءَكم به من عنده، فعملتم به» [تفسير الطبري: ٤/ ٢٦١٠].

وقولُه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ أي: شاكرٌ لعبادِهِ الذين أطاعوه وعبَدُوه بإثابتهم على الإيمان والعبادة، وهو عليمٌ بالصالح والطالحِ من عباده، وسيجزيهم على ما كان منهم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١- حرَّم اللهُ على المؤمنين أنْ يتخذوا الكافرين أولياءَ من دون المؤمنين.

٢- اتخاذُ المؤمنين الكافرينَ أولياءَ سببٌ يؤدِّي إلى تعذيب الذين توَلَّوْا الكفارَ.

٣- النفاقُ الأكبرُ الذي يكونُ بإظهار الإيمانِ واستبطانِ الكفر جريمةٌ كبرى، يستحقُّ أصحابُها أن يجعلهم اللهُ في الدركِ الأسفل من النار.

٤- النار سبع دركاتٍ بعضُها تحت بعضٍ، والجنةُ درجاتٌ بعضها فوق بعض.

٥- اللهُ يقبلُ توبةَ التائبين من المنافقين والكفار إذا كانت صادقةً، وذلك برجوعهم عن الكفر الذي تلبَّسوا به، وإصلاحِ أعمالهم الفاسدة، واعتصامِهِمْ بالله وحده منخلعين عما كانوا يعبدونه من دون الله، دينهم لله الواحدِ الأحد.

٦- الله -سبحانه- ليس به حاجة إلى تعذيب المؤمنينَ الذين تابوا من النفاق والشرك.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني المتمم للأربعين من سورة النساء

﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾

أولاً: تقديم

آياتُ هذا النص ترمي إلى رفع المؤمنين إلى مستوىً راقٍ في أقوالهم وتصرفاتهم، فقد أخبر اللهُ تعالى المؤمنين أنه لا يحبُّ الجهرَ بالسوء من القول إلا إذا كان المجاهرُ مظلوماً، ولا شكَّ أن المؤمنين سينتهون عن الجهر بالسوء، لأنهم يحبون ما يحبُّهُ الله، ويكرهونَ ما يَكْرَهُهُ الله تعالى، ومع إباحة الله للمظلوم الجهرَ بالسوء من القول إلا أن عَفْوَ المظلوم عمَّن ظلمه أفضلُ وأكثرُ أجراً وثواباً.

وقد ذمَّ اللهُ أهل الكتابِ الذين يؤمنون ببعض الرسل، ويكفرون ببعضٍ، وحكم عليهم بالكفر، وأثنى على المؤمنين من هذه الأمة الذين يؤمنون بالرسل كلِّهم، ووعدهم بالأجر العظيم، والثواب الجزيل.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾ [النساء:١٤٨-١٥٢].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾:

أعلمنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنه يكره لأحدٍ من المؤمنين أن يجهَرَ بالسوءِ لغيره إلا إذا ظُلِمَ، قال تعالى: ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ [النساء:١٤٨]. وصُوَرُ الظلم التي تبيحُ للمظلوم أن يجْهَرَ بمعاناته من ظالِمِهِ كثيرةٌ، فمن ذلك ما ذكره ابنُ عباسٍ قال:

جنـــــة الســـــنة

إنَّ التغيير الذي وقع في نفوس هؤلاء تغيير كليٌّ حقيقيٌّ، فقد انسلخَ هؤلاء عما كانوا فيه من مبادئ ضالة، وعقائدَ فاسدة، وقد تحوَّلوا من فئة المنافقين إلى زُمْرَةِ المؤمنين، ولذلك فإنَّهم يستحقون الأجر العظيم في يوم الدين.

٤- ما يفعلُ اللهُ بعذابِكم إنْ شَكَرْتُم وآمنتم:

خاطبَ اللهُ تعالى المنافقينَ مبيناً لهم أنه لا حاجةَ له إلى تعذيبهم إنْ هم آمنوا وشكروا اللهَ عز وجل، فقال: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء:١٤٧].

يقول ابن جرير رحمه الله تعالى مفسِّراً هذه الآية: «ما يصنعُ اللهُ أيها المنافقون بعذابكم، إن أنتم تُبْتُمْ إلى الله، ورجعتُم إلى الحق الواجب لله عليكم، فشكرتُموهُ على ما أنعم عليكم من نعمِهِ في أنفسكم وأهاليكم وأولادِكُمْ، بالإنابة إلى توحيده، والاعتصام بِهِ، وإخلاصِكُمْ أعمالَكم لوجهه، وتَرْكِ رِياءِ الناس بها، وآمنتم برسولِهِ محمدٍ ﷺ، فصدَّقْتُموهُ، وأقْرَرْتُم بما جاءَكم به من عنده، فعملتم به» [تفسير الطبري: ٤/ ٢٦١٠].

وقولُه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ أي: شاكرٌ لعبادِهِ الذين أطاعوه وعبَدُوه بإثابتهم على الإيمان والعبادة، وهو عليمٌ بالصالح والطالحِ من عباده، وسيجزيهم على ما كان منهم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١- حرَّم اللهُ على المؤمنين أنْ يتخذوا الكافرين أولياءَ من دون المؤمنين.

٢- اتخاذُ المؤمنين الكافرينَ أولياءَ سببٌ يؤدِّي إلى تعذيب الذين تولَّوْا الكفارَ.

٣- النفاقُ الأكبرُ الذي يكونُ بإظهار الإيمانِ واستبطانِ الكفر جريمةٌ كبرى، يستحقُّ أصحابُها أن يجعلهم اللهُ في الدركِ الأسفل من النار.

٤- النار سبع دركاتٍ بعضُها تحت بعضٍ، والجنةُ درجاتٌ بعضها فوق بعض.

٥- اللهُ يقبلُ توبةَ التائبين من المنافقين والكفار إذا كانت صادقةً، وذلك برجوعهم عن الكفر الذي تلبَّسوا به، وإصلاحِ أعمالهم الفاسدة، واعتصامِهِمْ بالله وحده منخلعين عما كانوا يعبدونه من دون الله، دينهم لله الواحدِ الأحد.

٦- الله -سبحانه- ليس به حاجة إلى تعذيب المؤمنينَ الذين تابوا من النفاق والشرك.

جنـــــة السـنـــــة

«لا يحبُّ اللهُ أن يدعو أحدٌ على أحدٍ إلا أن يكونَ مظلوماً، فإنَّ الله أرْخَصَ له أنْ يدعوَ على من ظَلَمَهُ» [الطبري: ٤/ ٢٦١٠].

وقال مجاهدٌ: «هو الرجل ينزلُ بالرَّجُلِ، فلا يُحْسِنُ ضيافته، فيخرجُ من عنده فيقولُ: أساءَ ضيافتي» [الطبري: ٤/ ٢٦١١]. وقال السُّدِّيُّ: «إنَّ اللهَ لا يحبُّ الجهرَ بالسوءِ من أحدٍ من الخلقِ، ولكنْ من ظُلم فانتصرَ بمثل ما ظُلِمَ، فليس عليه جناحٌ» [الطبري: ٤/ ٢٦١٢]. وقال عبدالكريم بن مالكٍ الجزريُّ: «هو الرَّجُلُ يشتمكُ فتشتُمُهُ، ولكن إن افترى عليكَ فلا تَفْتَرِي عليه» [ابن كثير: ٢/ ٤٠٤]. وقد جاءت جملةٌ من الأحاديث توضِّحُ الآية وتُبيِّنُها، فمن ذلك ما رواه أبو هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «المُستبَّان ما قالا، فعَلَى البادئ، ما لم يعتدِ المظلومُ» [مسلم: ٢٥٨٧].

وعن عقبة بن عامرٍ قال: قلنا للنبي ﷺ : إنك تبعثُنا، فننزلُ بالقوم لا يُقْرُوننا، فما ترى فيه؟ فقال لنا: «إنْ نزَلْتُمْ بقومٍ، فأُمِرَ لكم بما ينبغي للضيف، فاقْبَلوا، فإنْ لم يفعلوا، فخُذوا منهم حقَّ الضيفِ» [البخاري: ٢٤٦١. ومسلم: ١٧٢٧].

وعن أبي كريمة قال: قال رسولُ الله ﷺ : «ليلةُ الضيفِ حقٌّ على كلِّ مسلمٍ، فمن أصبح بفنائه فهو عليه دينٌ، إن شاء اقتضاه وإن شاء تَرَكَ» [سنن أبي داود: (٣٧٥٠) وأورده الألباني في صحيح أبي داود (٣١٩٠)، وحكم عليه بالصحة. وعزاه لصحيح ابن ماجه (٣٦٧٧)].

وختم اللهُ -تبارك وتعالى- الآية بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾ [النساء:١٤٨] أي: سميعاً لأقوالكم عليماً بأفعالكم، وسيُحاسبُكُم وفق ما سمعه وعلِمه منكم.

٢- الذي يعفو عمن أساء إليه أفضل ممن يقتصُّ منه:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أننا إن أظْهرنا الخيرَ الذي نفعلُهُ أو أخفيناه كالذي يُظهر الصدقة أو يُخفيها، أو عفونا عمن ظلمنا وأساءَ إلينا، فإنَّ الله كانَ عفواً قديراً، قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء:١٤٩]. والمعنى المرادُ أن هذه الأعمالَ تقرِّبنا إلى ربنا -تبارك وتعالى- وتُجْزِلُ ثوابنا عنده، فإنَّ من صفاتِهِ -سبحانه- أن يعفو عن عبادِهِ مع قدرته على عِقابهم.

وهذا يدلُّ على أنَّ العفوَ عمن ظلمنا أفضلُ عند الله تعالى من الجهرِ له بالسوءِ، وقد روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «وما زادَ اللهُ عبداً بعفوٍ إلا عِزّاً» [مسلم: ٢٥٨٨].

جنـــــة السـنـــــة

٣- كفر الذين يؤمنون ببعض الرُّسُلِ ويكفرونَ ببعضٍ:

ذمَّ اللهُ -تبارك وتعالى- أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين يدَّعون أنَّهم مؤمنون، وحكَمَ عليم بأنهم كفارٌ حقاً وصِدْقاً، لأنهم وإن آمنوا ببعض الرسل كموسى ونوحٍ وإبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاق، فإنهم كفروا بآخرين، فاليهودُ لا يؤمنون بأن عيسى ومحمداً أنبياءُ، والنصارى لا يؤمنون بنبوةِ محمدٍ ﷺ، واليهودُ السامريون لا يؤمنون بنبيٍّ بعد يوشَعَ، وقد حكم اللهُ تعالى بكفر كلِّ من كفر بنبيٍّ من الأنبياء الذين أوحى اللهُ إليهم، وقالَ فيمن كذَّبَ الرسولَ الذي أرْسَلَه إليه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء:١٠٥] ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشعراء:١٢٣]، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الشعراء:١٤١]، وإنما كذَّبتْ كلُّ أمةٍ الرسلَ جميعاً بتكذيبهم الرسولَ الذي أُرسل إليهم، قال تعالى في آية هذا النص: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء:١٥٠-١٥١].

وقد حكم اللهُ -تبارك وتعالى- على هؤلاء بأنهم كُفَّارٌ بالله ورُسُلِهِ، لأنهم فرّقوا بين الله ورُسله، وبيَّن اللهُ تبارك وتعالى أن المرادَ بتفريقهم بين الله ورسله هو إيمانهم بالله وكفرهم ببعض الرُّسُل، وإنما كانوا كافرين، لأن الرسلَ جميعاً حملةُ دينٍ واحدٍ، وقوله: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾ أي طريقاً ومسلكاً غير الطريق الذي شَرَعَه الله تعالى.

وقد حكم اللهُ على هؤلاء بأنهم كفارٌ، وأخبرنا أنه هيأَ وأعدَّ للكافرين عذاباً يهينُ كبرياءَهم.

٤- الذين آمنوا بالرسل كلِّهم هم المؤمنون حقاً:

أثنى اللهُ على المؤمنين من هذه الأمة والذين دخلوا فيهم من اليهود والنصارى، فهؤلاء مؤمنون بالله وجميع رسله، وليسوا كاليهود والنصارى الذين فرّقوا بين الله ورسله، ووعدهم ربُّ العزة -تبارك وتعالى- أنْ يُؤْتيهمْ أجورَهُم في يوم الدين، فلهم في ذلك اليوم الجزاءُ الجزيلُ، والثوابُ الجليلُ، والعطاءُ الجميلُ، واللهُ تبارك وتعالى غفورٌ رحيمٌ بالمؤمنين ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾ [النساء:١٥٢].

جنـــــة السـنة

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- اللهُ -تبارك وتعالى- يكرَهُ كل من جَهَرَ بالقول السيئ، ومن ذلك السبابُ والشتائمُ، والتنابزُ بالألقاب، والغيبةُ والنميمةُ، وقد أجازَ اللهُ لمن ظُلِمَ أن يُظهِرَ جُرْمَ من أساءَ إليه وظلمه.

٢- الذي يعمل العمل الصالحَ يقبَلُهُ اللهُ منه أظْهرَه أو أخْفاه إذا عَمِلَه خالصاً لوجه الله.

٣- الإيمانُ الذي يفقدُ أصلاً من أصوله لا يقبله الله تعالى، فالذي يزعُمُ أنه مؤمنٌ بالله، وهو كافرٌ بالرُّسُلِ أو بعض منهم، فهو كافرٌ خارجٌ من دين الله حتى يؤمنَ بالله وجميع الرُّسُلِ الذين أخبرنا اللهُ أنه أرْسَلَهم.

٤- اليهودُ كفارٌ لأنهم لا يؤمنونَ بعيسى وبمحمدٍ عليهما السلامَ، والنصارى كُفّار، لأنهم لا يؤمنون بمحمدٍ ﷺ.

٥- هذه الأمة تحمل في صدورها الإيمانَ الكامل المرضيَّ عندَ الله تعالى، القائمَ على الإيمانِ بالله وملائكتِهِ وكتبه ورسله واليومِ الآخر.

٦- لا يكفي في وَصْفِ الإنسان، بالإيمان أنه صدَّق بوجودِ الله، من غير أن يَعْبُدَهُ وحْدَهُ لا شريكَ له، ومن غيرِ أن يؤمنَ ببقية أصولِ الإيمانِ.

٧- الله تباركَ وتعالى يتَّصفُ بصفاتِ الكمالِ، ومن صفاته التي أخبرنا بها أنه يحبُّ، وأنه لا يحبُّ.

جنـــة الســـــنة

النص القرآني الحادي والأربعون من سورة النساء

طَلَبَ بنو إسرائيل من نبينا محمد ﷺ أنْ يُنزِلَ عليهم كتاباً من السماء ليؤمنوا

أولاً: تقديم

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ بني إسرائيلَ سألوا رسولَنا ﷺ أن يُنزِلَ عليهم كتاباً من السماء ليؤمنوا به، وقد واسى ربُّنا رسولَنا ﷺ بإعلامه أنهم سألوا موسى أعظمَ من ذلك، فقد اشترطوا لإيمانهم لموسى أن يريهم الله جهرةً، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم.

وأخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنهم بعد أن طلبوا من موسى أن يريهم الله جهرةً، اتخذوا العجلَ الذي صَنَعَهُ لهم السامريُّ من الذهب، فعفا اللهُ عنهم، وأخبرنا عن عُتُوِّهم واستكبارهم عندما أمرهم أن يدخلوا بابَ المدينة التي أُمروا بدخولِها خاضعين، وعن اعتدائهم في السبت.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا (١٥٤) ﴾ [النساء:١٥٣-١٥٤].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- سؤال اليهود رسولَنا ﷺ أن ينزلَ عليهم كتاباً من السماء:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ أهل الكتابِ سألوا رسولَنا ﷺ أنْ يُنَزِّلَ عليهم كتاباً من السماء ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ ﴾ [النساء:١٥٣].

سأل بنو إسرائيل رسولَنا ﷺ أن يُنَزِّلَ عليهم كتاباً من السماء مكتوباً، كما جاء موسى بني إسرائيلَ بالتوراة مكتوبةً من عند الله، كي يكون هذا الكتابُ معجزةً للخلق، وشاهداً لرسولِ الله ﷺ بالصدقِ.

جنـــــة السـنـــــة

وقد سألَ كفارُ قريشٍ مثلَ هذا السؤالِ، وقد حكاه اللهُ عنه في قولِهِ: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء:٩٣] وبنو إسرائيلَ ومشركو العرب سألوا هذا السؤال على سبيل التعنُّتِ والعنادِ والكفرِ والإلحاد، وقد واسى اللهُ رسولَه ﷺ فأخبره أنَّ بني إسرائيل في عهد موسى ﷺ ﴿سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء:١٥٣].

وقد طلب بنو إسرائيل من موسى أن يروْا الله عياناً حتى ينظروا إليه بأبصارهم، فأخذتْهُم الصاعقةُ بظلمهم، والصاعقة الصوتُ الشديد يأتي من الجوِّ الذي يكون معه نارٌ، وقد ذكر اللهُ تعالى طلبهُم هذا، وأخبرَ عن حلول الصعقةِ بهم في مواضعَ من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة:٥٥-٥٦].

وما كان لليهود ولا لغيرهم أن يسألوا رسولَ الله ﷺ أن يُنزِّلَ عليهم كتاباً من السماء مكتوباً بعد أن أنزلَ الله عليهم أعظمَ الكتبِ وهو القرآنُ الذي قال الله تعالى فيه ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء:٨٨].

٢- اتخاذ بني إسرائيل العجلَ إلهاً عبدوه من دون الله تعالى:

ذمَّ اللهُ -تبارك وتعالى- في أكثر من موضع في كتابه اتخاذَ بني إسرائيل العجلَ الذهبي الذي صَنَعَه لهم السامريُّ من الحليِّ الذي أخذه بنو إسرائيل من أهل مصر، فقال في هذه الآيات: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾ [النساء:١٥٣].

وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ أي: بعد ما سألوا موسى أن يُرِيَهُمُ اللهَ جهرةً وصَعْقِهِمْ ثم بعثهم، وقد مضى الحديثُ عن اتخاذ بني إسرائيل العجل في سورة البقرة، وسيأتي مزيدُ بيانٍ لتلك الواقعة في الأعراف وطه إن شاء الله تعالى.

وقولُهُ: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: الحجج الظاهراتُ، ومنها العصا التي كانَ موسى يلقيها فتصبحُ ثعباناً مبيناً، واليدُ التي يُدْخِلَها في جيبه فتصبحُ بيضاءَ للناظرين، وما

جنـــــة السـنـــــة

أرْسَله إلى فرعونَ وقومِهِ من الآيات، ومنها الجرادُ والقُمَّل والضفادعُ والدمُ، ومنها إهلاكُ فرعونَ وقومِه في البحرِ.

وعفو الله عن ذنب بني إسرائيل المذكور في قوله تعالى: ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ أخبرنا ربنا في سورة البقرة أنه كان بعد أن أمر الذين لم يعبدوا العجل بقتل عابديه. والسلطانُ المبينُ الذي آتاه اللهُ موسى ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾ [النساء:١٥٣] التوراةُ المنزلةُ على موسى، فهي الحجَّةُ التي أنْزَلها اللهُ عليه.

٣- **رفعُ اللهِ الطورَ فوقَ رؤوسِ بني إسرائيل:**

حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ بني إسرائيل رفضوا الالتزام بأحكام التوراة، فرفع اللهُ الجبلَ فوقَ رؤوسهم كأنه غمامةٌ، فلما رأوه خرّوا ساجدين، والتزموا، وجعلوا ينظرونه فوقَ رؤوسهم خائفين أن يسقُطَ عليهم ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ [النساء:١٥٤].

وقد ذَكَرَ اللهُ -تعالى- هذه الواقعةَ العظيمةَ في أكثر من موضع، ومن ذلك ما ذكره في الأعراف، فقال: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ [الأعراف:١٧١].

وقولُهُ: ﴿بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ أي: كان رفعُ الطورِ وهو الجبلُ فوقَ رؤوسهم ليُعْطُوا الميثاقَ ويلتزموا به.

وأشارت هذه الآياتُ إلى واقعتين جَرَى بيانُهما في مواضعَ أخرى، الأولى: أمرهم بدخول باب المدينة التي أمروا بدخولها وهم خاضعون، فدخلوه على غير الوصف الذي أمرهم الله به، والثانية: نهيُ الله لهم عن الاعتداء يوم السبت ففعلوا ما نهاهم الله عنه ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ [النساء:١٥٤] والأولى مضى بيانُها في الآية رقم (٥٨) من سورة البقرة، والثانية سيأتي ذكرها في الآيات (١٦٣-١٦٧) من سورة الأعراف.

والميثاقُ الغليظ الذي أخذه اللهُ على بني إسرائيلَ والذي ذكره اللهُ في قوله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾ [النساء:١٥٤] هو العهدُ الموثَّقُ المؤَكَّدُ الشديدُ، الذي التزموا فيه بالعمل بما أمَرَهم اللهُ به، والانتهاءِ عما نهاهم عنه مما أنزله عليهم في التوراة.

جنـــــة الســـــنة

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - سألَ اليهودُ رسولَنا ﷺ على وجه التعنت أن يُنَزِّلَ عليهم كتاباً من السماء كما أنزلَ اللهُ التوراةَ على موسى فأخبر اللهُ رسولَهُ ﷺ أنَّ بني إسرائيلَ سألوا موسى أكثر من ذلك عندما طلبوا منه أن يُرِيهم اللهَ عياناً.

٢ -من جرائم بني إسرائيل عبادتُهم العجلَ الذهبيَّ الذي صنعه لهم السامريُّ.

٣- رفعَ اللهُ الجبلَ فوق بني إسرائيل عندما رفضوا الالتزامَ بالعهد الذي يلزمهم اللهُ فيه بشريعة موسى.

٤ - أمَرَ اللهُ بني إسرائيلَ بدخولِ أبوابِ مدينة القدسِ خاضعينَ متواضعينَ، فدخلوها متعالين مستكبرينَ.

٥- حرَّم اللهُ على بني إسرائيل العملَ يوم السبت، فخالفوا أمْرَ الله تعالى، واحتالوا لصيدِ الحيتانِ فيه.

٦ - أخذ اللهُ من بني إسرائيل ميثاقاً غليظاً، تعهدوا فيه بالالتزام بشريعة موسى، فلم يلتزموا بما عاهدوا اللهَ عليه.

جنـــــة السـنــــة

النص القرآني الثاني والأربعون من سورة النساء
الجرائم التي ارتكبها اليهود عبر العصور

أولاً: تقديم

في الآية الأخيرة من النص السابق أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه أخذ من بني إسرائيل ميثاقاً غليظاً، وفي هذا النص أخبرنا اللهُ تعالى أن بني إسرائيل نقضوا ميثاقهم مع ربِّهم، وعدَّدَ جملةً من الذنوب الكبار التي أوجبتْ غضبَ الله عليهم، ومن ذلك محاولَتهمْ قتل عيسى، ولكن اللهَ رفعَهُ إلى السماءِ، ولم يمكِّنهم من قتله، وسينزُله في آخِرِ الزمان، فيقتلُ الدجال، ويحكمُ بشريعة القرآنِ.

ثانياً: آياتُ هذا النص من سورة النساء

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء:١٥٥-١٥٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تعدادُ الله جرائمَ اليهود عبر القرون:

عدَّدَ اللهُ -تعالى- جرائم اليهود عبر العصور التي استحقُّوا بها مَقْتَ الله وغضبه ولعنتَه، فمن ذلك نَقْضُهم مواثيقَهُم التي أعْطَوْها لربهم بأن يعبدُوه ويوحِّدوه ويطيعوه، وكُفرُهمْ بالآيات التي أنزلها اللهُ تعالى إليهم، وقَتْلُهم جملةً من الأنبياء والرسل، فقد قتلوا بعض أنبيائهم، وحاولوا قتل عيسى ومحمداً عليهما السلام، ودعواهم أنَّ قلوبَهم غُلْفٌ، أي: في أغْطيةٍ، فلا تفقه ما أوحى اللهُ به إلى عبْدِهِ ورسولِه محمدٍ ﷺ، وقد رَدَّ اللهُ عليهم فِريتهم هذه، وأخبرنا أنَّ الله تعالى طَبَعَ على قلوبهم، أي: خَتَم عليها بسبب كفرهم، فلا يؤمنون إلا قليلاً، قال تعالى في ذكر ما عدَّدَهُ من جرائمهم: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾

جنـــة السـنـــة

[النساء:١٥٥]. قال ابنُ القيم رحمه الله تعالى: «لما ادَّعَوْا أنَّ قُلوبَهُمْ في أغْطيةٍ وأغْشيةٍ لا تفقهُ قولَه، عرفَّهم أنَّ كُفْرَهم ونَقْضَهم ميثاقَه وقَتْلَهُمْ الأنبياءَ كان سبباً لأن طبعَ على قلوبهم» [بدائع التفسير: ٢/ ٨٨].

٢- **جريمةُ اليهودِ فيما رموْا به عيسى عليه السلام وأمَّه:**

أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنّ من جرائم اليهود التي استحقّوا بها غضبَ الله ومقتَهُ ولعنتَهُ موقفَهُمْ من نبيِّه عيسى وأُمِّه عليهما السلام، فجمْعٌ كبير من اليهود رَمَوْا الصدِّيقة العذراءَ البتولَ أمَّ عيسى عليها السلام بالبهتان العظيم وهو الزنا ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء:١٥٦] والبهتانُ أعْظَمُ الكَذِب، سُمِّيَ بهتاناً لأنه يَبْهَتُ سامِعَهُ لفظاعَتِهِ.

ومن جرائمهم محاولَتُهمْ قَتْلَ عيسى عليه السلام، وقد ادَّعَوْا أنّهم قتلوه، وصدَّقهم النصارى فيما زعموه، وقد أكذب اللهُ اليهودَ في دعواهم قَتْلَهُ، وقرَّر ربُّ العزةِ سبحانه أنهم لم يقتلوه، ولم يَصْلُبُوه، ولكن شُبِّه لهم، فقد ألْقى اللهُ شَبَهَهُ على غيره، فقتلوا الشبيهَ، وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الذين اختلفوا فيه، وهم الذين أحاطوا به ليقتلوه ليسوا بمستيْقنين بأنهم قتلوه، بل هم في ذلك شاكون، وليسَ عندهم علم على وَجْهِ الحقيقة، بل عندهم ظنونٌ وتخرصاتٌ، والحقُّ الذي جزم به الحقُّ -تبارك وتعالى- أنهم لم يقتلوه، وهذا أمرٌ مستيقنٌ لا شك فيه، قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾﴾ [النساء:١٥٧].

٣- **رَفْع اللهُ -تعالى- عيسى عليه السلام وسينزل إلى الأرض آخر الزمان:**

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنه بعد أن ألقى شَبَهَ عيسى على غيره، رفع اللهُ عيسى إليه، واللهُ قادرٌ على أن يفعل ما يريدُ، وهو يفعلُ ذلك لحكمةٍ يريدُها، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء:١٥٨].

وسينزلُ عيسى في آخر الزمان بعد خروج الدجال، فيقضي على الدجال، ويحكمُ بالشريعة المحمدية المتمثلة بالكتاب والسنّة، وتُرفَعُ الجزيةُ في عصرِهِ، فلا يُقبَلُ من أحدٍ غير الإسلام، وتهلكُ الأديانُ في عصره إلا دينَ الإسلامِ، ويدخلُ اليهودُ والنصارى في الإسلام، ومن أبى قُتِلَ، ولذلك قالَ اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء:١٥٩] والمرادُ بأهل الكتاب الذين سيؤمنون به قبل موته اليهود والنصارى الذين يكونون أحياءَ عند نزوله، لأنه لا يرضى منهم إلا بدخول الإسلام

جنـــــة الســـــنة

أو القتل، وسيكون في يوم القيامة شاهداً عليهم أنه أَبْلَغَهُمْ ما أوحى اللهُ به إليه، وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ عيسى عليه السلام يقولُ لربِّ العزة تبارك وتعالى في يوم القيامة: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ﴾ [المائدة:١١٧].

٤- الأحاديث الدالة على نزول عيسى عليه السلام:

أخبرنا رسولُنا ﷺ في أحاديث كثيرة صحيحة طيبة عن نزولِ عيسى عليه السلام، فمن ذلك:

أ- عن أبي هريرة رضي الله عنه قالَ: قال رسولَ الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، ليوشِكَنَّ أن ينزلَ فيكُمُ ابنُ مريمَ حَكَماً مُقْسِطاً، فيكْسِرَ الصَّليبَ، ويقتُلَ الخنزيرَ، ويضَعَ الجزيةَ، ويفيضَ المالُ حتى لا يقْبَلَهُ أحدٌ» [البخاري: ٢٢٢٢. ومسلم: ١٥٥].

ب- وقالَ الرسولُ ﷺ في حديثِ النواسِ بن سمعانَ: «فبينما هو (أي الدجال) كذلك إذ بعثَ اللهُ المسيحَ ابنَ مريمَ، فينزلُ عند المنارَةِ البيضاءِ شرقيَّ دمشق، بين مَهْرُودَتَيْنِ، واضِعاً كفَّيْهِ على أجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ، إذا طَأْطأَ رأسَهُ قطَرَ، وإذا رَفعَهُ تحَدَّرَ منه جُمانٌ كاللُّؤْلُؤِ، فلا يحِلُّ لكافرٍ يجِدُ ريح نفسِهِ إلاّ ماتَ، ونَفَسُهُ ينتهي حيثُ ينتهي طَرْفُهُ، فيَطْلُبُهُ حتى يُدْرِكَهُ ببابِ لُدٍّ، فَيَقْتُلُهُ، ثم يأتي عيسى ابنَ مريمَ قومٌ قد عَصَمَهُمُ الله منه، فيمْسَحُ عن وُجوههم، ويُحَدِّثهم بدرجاتهم في الجنة» [مسلم: ٢٩٣٧].

ج- عن أبي هريرةَ قالَ: قال رسولُ الله ﷺ: «والله، لَيَنْزِلَنَّ ابنُ مريم حَكَماً عادلاً، فليكسرنَّ الصليبَ، وليقتلنَّ الخنزير، وليَضَعنَّ الجزيةَ، ولتتركَنَّ القلاصُ فلا يسعى عليها، ولتَذْهَبَنَّ الشحناءُ والتباغضُ والتحاسدُ، وليَدْعُوَنَّ إلى المالِ فلا يَقْبَلُهُ أحدٌ» [مسلم:١٥٥].

د- عن أبي هريرة مرفوعاً: «يوشِكُ من عاشَ منكُم أن يلقى عيسى ابنَ مريمَ إماماً مهديّاً، وحكماً عَدْلاً، فيَكْسِرُ الصَّليب، ويقتلُ الخنزيرَ، ويضعُ الجزيةَ، وتضعُ الحربُ أوزارها» [قال الألباني: أخرجَهُ أحمدُ، وإسنادُه صحيحٌ، على شرط الشيخين: قصة المسيح: ص٩٨] وكسْره للصليبِ إبطالٌ للدين المحرَّفِ الذي عليه النصارى، وقَتْلُهُ الخنزير، التزامٌ بالشريعة الإسلامية التي تحرّمه، ووضْعُهُ الجزيةَ إعلانٌ لعدم قبولِهِ من الكفار إلا الإسلامَ، وعند ذلك تضعُ الحربُ أوزارها لدخولِ الناس جميعاً في الإسلام.

هـ- جاء في حديث أبي هُريرةَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «ينزلُ عيسى ابنُ مريمَ، فيَقْتُلُ الخنزيرَ، ويمْحُو الصليبَ، وتُجمعُ له الصلاةُ، ويعطي المالَ حتى لا يُقبلَ، ويَضَعُ الخراجَ، وينزلُ الرَّوْحاء، فيحجُّ منها أوْ يَعْتَمِرُ أو يجمعهما». قال: وتَلا أبو هريرة ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ

جنـــــة السـنـــــة

إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾ [النساء:١٥٩] [قال الألباني في تخريجه: أخرجه أحمد، وإسنادُه صحيحٌ على شرط مسلمٍ، وقد أخرج منه نزولَه بـ (الرَّوْحاءِ) والإهلالِ، وكذلك رواه عبدالرزاق، قصة المسيح: ص٩٩].

و- جاءَ في حديث أبي هريرةَ أيضاً يَرْفَعُه: «ليس بيني وبينَهُ نبيٌّ (يعني: عيسى)، وإنه نازلٌ، فإذا رأيتموه فاعْرِفُوه، رجلٌ مربوعٌ إلى الحمرةِ والبياضِ بين مُمَصَّرَتَيْنِ، كأنَّ رأسَهُ يقطِرُ، وإنْ لم يُصِبْهُ بَلَلٌ، فيقاتِلُ الناسَ على الإسلام، فيَدُقُّ الصليب، ويقتلُ الخنزير، ويضعُ الجزيةَ، ويُهْلِكُ اللهُ في زمانه المِلَلَ كلها إلا الإسلامَ، ويُهلِك (الله في زمانه) المسيحَ (الكذاب) الدجالَ، وتقع الأَمَنَةُ على الأرضِ؛ حتى ترْتَعَ الأسودُ مع الإبل، والنمارُ مع البقرِ، والذئابُ مع الغنم، ويلعبُ الصبيانُ بالحياتِ لا تَضُرُّهُمْ، فيمكثُ في الأرضِ أربعينَ سنةً، ثم يتوفَّى، فيُصَلِّي عليه المسلمونَ (ويدفنونه)» [قال الألباني في تخريجه: أخرجه أبو داود، والسياقُ له، وابنُ حبان، وأحمد، وابنُ جرير في «التفسير» والآجريّ، وعبدالرزاق وزاد: «وتكون الدعوةُ واحدة لرب العالمين». وقال فيه: إسنادُهُ صحيحٌ، وصحَّحَه الحافظُ، وهو مُخَرَّجٌ في «سلسلةِ الأحاديث الصحيحة» قصة المسيح: ١٠٠].

وقد ذكرتُ بعضاً من هذه الأحاديث عند تفسيري لقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ [آل عمران:٥٥].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- ذَكَرَ اللهُ -تعالى- جملةً من جرائم اليهود التي ارتكبوها عبر العصور، واستحقُّوا بسببها غضبَ الله ومقتَه ولعْنَتَهُ، فمن ذلك نَقْضُهم عهودَهُ التي عاهدوه بها، وكُفْرُهم بآياتِ الله، وقَتْلُهم الأنبياءَ بغير حقٍّ، ودعواهم أنَّ قلوبَهم غُلْفٌ، وافتراؤُهُمْ الكذبَ العظيمَ على الصدِّيقةِ مريم برميهم إياها بالفاحشةِ، ومحاوَلَتهم قتلَ عيسى عليه السلام، وادعاؤُهم أنهم قتلوهُ.

٢- حاول اليهودُ قتلَ عيسى ابن مريمَ، فلم يُمكِّنهم اللهُ من ذلك، ورفَعَهُ الله إليه، وألقى شَبَهَهُ على غيره، فقتلوا الشّبيه وصلبوه.

٣- رفع اللهُ تعالى عيسى عليه السلام إلى السماء فهو حيٌّ هناك.

٤- سينزلُ عيسى عليه السلام آخرَ الزمانِ بعد خُروجِ الدجالِ، فيقتلُ الدجالَ، ويتَّبعُ محمداً ﷺ، ويُصلِّي صلاةَ المسلمين، وتُرفَعُ الجزيةُ في عَهْدِه، ولا يُقْبَلُ من أحد إلا الإسلامُ أو القتلُ.

٥- سيُؤْمِنُ الناسُ جميعاً بعيسى، ولا يبقى على الأرض دينٌ إلا الإسلامُ، ويؤمنُ به اليهودُ والنصارى، ويتبعونَ الإسلامَ.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الثالث والأربعون من سورة النساء
حرّم اللهُ على اليهود طيباتٍ أُحِلَّتْ لهم

أولاً: تقديم

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجل- أنه حرَّم على اليهودِ طيباتٍ أُحِلَّتْ لهم، لأربعةِ أمور، هي: ظُلْمُهُمْ، وصَدُّهُمْ الناسَ عَنْ دينِ الله، وأخْذُهُمْ الرِّبا الذي حرّمه عليهم، وأكْلُهُمْ أموالَ الناسَ بالباطلِ. وقد أثْنى اللهُ -تعالى- في الآية الأخيرة من هذا النصِّ على الصالحين من بني إسرائيلَ الذين آمنوا وأسْلَموا ووعدهم بالجزاء العظيم، وهم قسمان: الراسخون في العلم، والمؤمنون.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾ [النساء:١٦٠-١٦٢].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- عاقب اللهُ -تعالى- الذين هادوا فحرَّم عليهم طيباتٍ أُحلَّتْ لهم:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه حرَّم على اليهود طيبات أُحِلَّت لهم بسبب ظلمهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ ﴾ [النساء:١٦٠] وقد حدَّثنا ربُّنا -عز وجل- عن المحرمات التي حرَّمها على اليهود بسبب ظلمهم في قوله: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأنعام:١٤٦].

وقوله: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ ﴾ أي: صدُّوا الناسَ عن الإيمان بالله تعالى.

جنـــــة السـنـــــة

٢- **أكلُ اليهودِ الربا وهم يعلمون أنّ اللهَ حرَّمه عليهم:**

أخبرنا ربُّنا أنَّ اليهودَ أكلوا الربا مع علمهم أنَّ اللهَ حرَّمه عليهم في التوراةِ ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾ [النساء:١٦١] وقد سبق الحديث عن الربا في البقرة وآل عمران.

واليهودُ في هذا العصر عَجَنُوا الاقتصادَ في العالم كلِّه بالربا، واتخذوه مصيدةً سيطروا بها على العالم كلِّه.

وذمَّ اللهُ اليهودَ لأكلهم أموال الناس بالباطل ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء:١٦١].
أخبرنا ربُّنا أنَّ اليهود يَنْفُذونَ إلى أموالِ الناس، فيستولون عليها بطرقٍ باطلة.

٣- **أعدَّ اللهُ للكافرين من اليهود عذاباً أليماً:**

كان اليهودُ ولا يزالون يَتَبَجَّحونَ بأنَّ اللهَ أباحَ لهم أموالَ غيرهم بالربا وبغيرِهِ من الطرقِ الباطلةِ، وهم في ذلك كاذبون، وقد أخْبرنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنه أعدَّ للكافرين من اليهود عذاباً مؤلماً موجعاً في النارِ يومَ القيامة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء:١٦١].

٤- **ثناءُ اللهِ تعالى على المؤمنين من اليهود:**

أثنى اللهُ تعالى على القلة القليلة من اليهود الذين دخلوا في الإسلام، وهم قسمان: الراسخون في العلم، والمؤمنون منهم من غير رسوخ في العلم، فقال: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ [النساء:١٦٢].

آمن عددٌ قليلٌ من اليهود في عهد الرسول ﷺ، منهم حَبْرُ اليهود الأعظم عبدالله بنُ سلام، وزوجتُهُ وأولادُه وعمتُه خالدة، كما آمن ثعلبةُ بنُ سعية، وأسدُ بنُ سَعْيَة، وأسدُ بن عُبيْدٍ، وفي كلِّ عصرٍ يؤمن أعدادٌ قليلة من اليهود، وقد أثنى اللهُ على من آمن منهم في العهد النبوي، ووصفهم بالرسوخ في العلم ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾، أي: الثابتون في العلم وهم الذين لا تعرِضُ لهم شبهة، والمؤمنون منهم، أيْ الذين لم يبْلُغوا درجةَ الراسخينَ، وهؤلاء يؤمنونُ بالكتابِ كلِّه الذي أنْزَلَهُ اللهُ -تعالى- غير مُفَرِّقينَ بين ما أنْزَلَ اللهُ على رسولِهِ محمد ﷺ، وما أنْزَلَ على الرسلِ من قبله، الذين يقيمون الصلاةَ، ويؤتون الزكاةَ، ويؤمنونَ بالله واليوم الآخر، وسيأتيهم اللهُ أجراً عظيماً في يومِ الدين.

جنـــــة السـنـــــة

وقوله: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ منصوبٌ على المدح، كما جاءَ في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ﴾ [البقرة:١٧٧]. فنصبَ الصابرينَ على المدح.

وقد قرأ جميعُ القراءِ العشرة بهذه القراءة المتواترة ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فلا يحلُّ أن يُقرأَ بغيرها.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا أمعنا النظر في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - حرَّم اللهُ على بني إسرائيل أطعمةً طيبةً حلالاً بسبب ظُلْمِهِمْ وصدِّهم عن سبيل الله كثيراً، أما هذه الأمةُ فإنَّ اللهَ أحلَّ لهم الطيباتِ وحرَّم عليهم الخبائث.

٢ - استحلَّ اليهودُ ما حرَّم اللهُ عليهم من الربا، واستباحوا أموال الناس بالباطل، وقد ظهر في هذه الأيام مدى استباحة اليهود لذلك كلِّه، فأصبحوا أباطرة الربا.

٣- تهدَّد اللهُ -تعالى- اليهودَ بسبب كُفْرِهم وظُلْمِهم بالعذابِ الأليم في يوم القيامة.

٤ - أثْنى اللهُ على اليهود الذين دخلوا في دين الإسلام، ومنهم الراسخون في العلم، ومنهم المؤمنون من غير رسوخٍ في العلم، وسيؤْتي الله هؤلاء جميعاً أجراً عظيماً.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الرابع والأربعون من سورة النساء
قصَّ اللهُ علينا قصصَ بعض الرسل وأخفى قصصَ آخرين منهم

أولاً: تقديم

أعلمنا الله تعالى في آيات هذا النص أنه أوحى إلى عبدِه ورسولِه محمدٍ ﷺ، كما أوحى إلى نوحٍ وجملةٍ من النبيين من بعده سمّاهم، وأخبرنا أنه قصَّ علينا قصص بعض الرسل، وأخفى قصص آخرين. وبيَّنَ لنا وجْه الحكمة من وراء إرسال الرسل، فاللهُ أرسلَ الرسلَ لإقامة الحجّة على العباد، وختم الآيات بإخبارنا بشهادتِه وشهادة ملائكتِهِ بصدقِ ما أنزله اللهُ إلى رسولنا محمدٍ ﷺ، فقد أنزله بعلمه، وكفى بالله شهيداً.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء:١٦٣-١٦٦].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أوْحَى اللهُ -تعالى- إلى رسولِهِ كما أوْحى إلى النبيين من قبله:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه أوحى إلى عبْدِهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ كما أوْحى إلى النبيينَ والرسل من قبله، ومن هؤلاء الذين ذكرَ اللهُ أنَّه أوحى إليهم: نوحٌ وإبراهيمُ وإسماعيلُ وإسحاقُ ويعقوبُ والأسباط وعيسى وأيوبُ ويونسُ وهارونُ وسليمانُ وداودُ وموسى عليهم جميعاً الصلاة والسلام ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء:١٦٣].

جنـــــة السـنـــــة

وأصلُ الوحي في اللغة: الإشارةُ السريعةُ على وَجْهِ الخفاءِ، وفي الشرعِ ما ينزله اللهُ على رسلِهِ وأنبيائه من شرعِهِ وكلماتِهِ، وقد يكونُ بتكليمه من شاء تَكْلِيمَهُ، كما كلَّم رسولَه موسى، وقد يُنْزِلُ اللهُ جبريلَ على رسلِه وأنبيائه بوحيه وكلماته، وقد يَقْذِفُ جبريلُ في رَوْعِ الرسولِ ﷺ ما يريدُ إبلاغَه إيَّاه. ﴿وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ هم أولادُ نبيِّ الله يعقوب، وإخوةُ نبيِّ الله يوسفَ، وقد تناسل مِنْ كلِّ واحدٍ منهم فرعٌ هو بمثابة القبيلة عند العرب، والمرادُ بالأسباطِ الذين أوْحَى إليهم هُمُ الرُّسُلُ والأنبياءُ الذين بَعَثَهُمْ اللهُ من ذريةِ أولئك الأسباطِ، والمرادُ بالزبورِ في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ الكتابُ الذي أنزله اللهُ على عبدِهِ ونبيِّهِ داودَ عليه السلام، والذي يُسَّمى بالمزامير.

٢- قصّ اللهُ -تبارك وتعالى- علينا بعضاً من قصص المرسلين ولم يَقُصَّ علينا قصص آخرين:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه قصَّ على عبدِهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ في الآيات التي سبق إنزالُها عليه أخبارَ بعض رسلِهِ وأنبيائِهِ، وأخفى قصص آخرين من رسلِهِ وأنبيائه ﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ﴾ [النساء:١٦٤] ومن الرسل الذين قصَّهم علينا الذين ذكرهم الله في الآية السابقة.

٣- كلَّم اللهُ تعالى موسى تكليماً:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه كلَّم عبدَهُ ورسولَه موسى عليه السلام، فقال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء:١٦٤]. وقد جاءت النصوص وافرةً بتقرير هذه الحقيقة، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣] وقال: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ [الأعراف:١٤٤].

وقد كلَّم اللهُ -تعالى- نبينا محمداً ﷺ عندما عُرِجَ به إلى السموات العُلَى، والقرآنُ الذي أنزله اللهُ على رسولِنا محمدٍ ﷺ كلامُ الله تعالى، أوحى به إلى جبريلَ، وجبريلُ أوْحى به إلى محمدٍ ﷺ، ومحمدٌ ﷺ تلاه على أصحابِهِ، وأمر كُتَّابَ الوحي بكتابتِهِ في الرقاعِ واللِّخافِ.

وعقيدةُ سلفِ الأمة الإسلامية وأهلِ السنّة والجماعة أنَّ القرآنَ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ، منه بدأ وإليه يعودُ، واللهُ تكلَّم بالقرآنِ بصوته فأسمع جبريلَ عليه السلام، والقرآنُ الذي هو كلامُ الله مدوَّنٌ في المصاحف، وهو الذي يقْرؤُه قارئُ القرآنِ، فالصوتُ الذي نسمعه صوتُ القارئ، والكلامُ كلامُ الباري تبارك وتعالى، وقد ضَلَّ الذين زعموا أن القرآن مخلوق.

جنــــة الســــــنة

٤- أرسلَ اللهُ -تعالى- الرسلَ مبشرين ومنذرين لئلا يكونَ للناس على الله حِجّة بعد الرسلِ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه أرسل رسلَه مبشرين برحمةِ الله وجنته، ومنذرين غضبَهُ ونارَه وانتقامَهُ، كي لا يكونَ للناس على الله حجّةٌ بعد الرسل ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ [النساء:١٦٥]. أي: أرسَلَ اللهُ الرسلَ إلى عبادِه لئلا يبقى لمعتذرٍ عُذْرٌ يوم القيامة، فلا يقولونَ لرب العزة سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [طه:١٣٤] وقال: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء:١٥] وفي الحديث عن المغيرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا أحَدَ أحبُّ إليه العذرُ من الله ومن أجلِ ذلك بعثَ الرسلَ مبشرين ومنذرين» [البخاري: ٧٤١٦. ومسلم: ١٤٩٩].

وقولُهُ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ [النساء:١٦٥] أي: اللهُ تعالى ذو عِزَّةٍ في انتقامِهِ ممن انتقم منه من خَلْقِهِ بسبب كفره ومعصيتِهِ، و﴿حَكِيمًا﴾ في تدبيره في خلقه.

٥- اللهُ يشهدُ بما أنزَلَه إلى رسولِه:

تضمنتِ الآيةُ الأولى من هذا النص، وهي قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ ﴾ إثباتَ نبوة عَبْدِه ورسولِهِ محمدٍ ﷺ وفي ذلك ردٌّ على مكذبيه من المشركين وأهل الكتابِ، وأعلمنا في قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾ [النساء:١٦٦] أعلمنا اللهُ أنَّه يشهدُ لرسولِه محمدٍ ﷺ بالنبوة والرسالة، وفي ذلك ردّ على مكذبيه من الكفار، وقد شهد اللهُ لعبده ونبيه بما أنزله إليه من الوحي، أنْزَلَهُ عالماً به، والملائكةُ جميعاً يشهدون بصدقِ الوحي الذي أُنزل عليه من عند الله، وكفى بشهادة الله على صحة نبوته، وصحة ما أنزل إليه.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا أمعنا النظر في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- اللهُ -تبارك وتعالى- هو الذي أوحى إلى عبده ورسولِه محمدٍ ﷺ ما أوحاه، وأوْحى إلى جميع الأنبياء والمرسلين، وفي ذلك ردٌّ على الكفرة من أهل الكتاب والمشركين الذين كذّبوا برسالَتِهِ.

جنـــــة السـنــــة

٢- قصّ اللهُ -تبارك وتعالى- قَصَصَ بعض رسلِهِ وأنبيائه، ولم يخبرنا بقصص آخرين منهم.

٣- الله يتكلَّمُ كما يشاءُ ويريدُ، فمن ذلك تكليمه لرسولِه موسى ﷺ، ومن ذلك إنزالُه القرآنَ الذي هو كلامُه على محمدٍ ﷺ.

٤- البشرُ محتاجونَ إلى الرُّسلِ، ليسَ لهم غِنىً عنهم، وقد أرسلهم تعالى لكيلا يكونَ للناس حجةٌ على الله يوم القيامة.

٥- لا أعظم من شهادةِ الله تبارك وتعالى، ولا أعظم بعد شهادةِ الله من شهادةِ ملائكته، وقد شهد الله لرسولِه محمدٍ ﷺ بأنَّه صادقٌ في نبوَّته، وكذلك الملائكةُ يشهدون لهُ بالرسالة.

جنـــــة السـنــــة

النص القرآني الخامس والأربعون من سورة النساء
الكفارُ مُغْرِقون في الضلال خالدون في نارَ جهنَّم

أولاً: تقديم

أعلمنا اللهُ -عزَّ وجلَّ- أنَّ الكفارَ الصادِّين عن سبيل الله ضالون ضلالاً بعيداً، وأنَّ كفرهم غير قابلٍ للغفران إذا ماتوا عليه، وأخبرنا ربُّنا أنهم محرومون من الجنة، خالدون في النار، وطالبَ اللهُ الناس جميعاً بالإيمانِ بالرسولِ ﷺ وبما جاءَنا به، وأعلمنا أنه إن كفرنا فهو غنيٌّ عنا وعن أعمالنا، فله ما في السموات والأرضِ سبحانه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ ﴾ [النساء:١٦٧-١٧٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ضلالُ الذين كفروا بالله وصدُّوا الناسَ عن الإيمان:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الذين حلَّ الكفرُ في قلوبهم، وسَعَوْا في صَدِّ الناس عن الإيمان قد ضَلُّوا ضلالاً بعيداً ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ ﴾ [النساء:١٦٧] وأول ما يدخل في هؤلاء اليهودُ، الذين رفضوا الإيمانَ، وأعْرَضوا عنه، وعملوا على إبعاد الناس عن الإيمان برسولنا ﷺ وعن الدين الذي أنزل عليه، وذلك بدعواهم أنه لا ذكر له في كتبهم، وزعمهم أنَّ أهل الجاهلية أهدى من المؤمنين، وقد حَكَم ربُّ العزة على هؤلاء بالضلال، ووصفَ هذا الضلال بالبعيد، والضلالُ: العدولُ عن الطريق المستقيم، ويضادّه الهداية، ويكونُ الضلالُ بعيداً إذا أغْرقَ صاحبُه في الضلالِ، وتعمَّقَ فيه، وصَعُبَ عليه الرجوعُ إلى الهدى والصوابِ.

٢- الذين كفروا وظلموا لا يغفرُ اللهُ لهم ولا يهديهم طريقاً :

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩]. والآياتُ وإنْ كانت في اليهود فإنها شاملةٌ للكفار كلِّهم، فالذين كفروا بالله بسبب كفرهم بمحمدٍ ﷺ وبالدين الذي أُنزل عليه، وهم في ذلك ظالمون ظلماً لا ظلمَ فوقه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣] وهؤلاء لم يكن اللهُ ليغفر لهم إن هم ماتوا على الكفر من غير توبةٍ، ولا ليهديهم طريقاً، أي: لا يهديهم يومَ القيامةِ طريقَ الخيرِ التي توصلهم إلى الجنة، ولكنه يهديهم الطريقَ التي توصلُهم إلى النارِ، فيدخلونها خالدين فيها أبداً، وهذا أمر سهل يسيرٌ على الله تعالى.

٣- مطالبةُ الناس كلِّهم بالإيمان بالرسولِ ﷺ :

رسولُنا ﷺ مُرسَل إلى الناسِ كافةً، ولذلك نادى اللهُ -تعالى- الناسَ كلَّهم مخبراً إياهم أنَّ هذا الرسولَ جاءَهم بالدين الحقِ من عند الله، وأمرهم بالإيمان به، فإن آمنوا فهو خير لهم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ﴾ [النساء:١٧٠]. أي: آمنوا إيماناً صادقاً، فهو خير لكم، وأعلمهم أنهم إن كفروا لن يَضُرُّوا الله شيئاً، فهو غنيٌّ عنهم وعن أعمالهم، وله السموات والأرض ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾ [النساء:١٧٠]، أي: ﴿عَلِيمًا﴾ بمن يستحق الهداية فيهديَهُ، وبمن يستحقُّ الغواية فيغويَهُ و﴿حَكِيمًا﴾ أي: في أقوالِهِ وأفعالِهِ وشرعِهِ وقَدَرِهِ.

رابع: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا أمعنا النظر في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الذين يعتقدونَ الكفرَ ويعملونَ به، وينَفِّرون غيرهم عن الإيمان كفارٌ مغرقون في الضلال.

٢- الكافرُ الذي يموتُ على كُفْره ذَنْبُهُ غير قابلٍ للمغفرة.

٣- الكافرون يومَ القيامة محرومونَ من الجنة خالدون في النارِ.

٤- يجبُ على الناسِ جميعاً أن يتبعوا الدين الذي جاءَهم به رسولنا ﷺ .

٥- اللهُ غنيٌّ عنا وعن إيماننا وأعمالِنا، ومِنْ غِناهُ -سبحانه- أنَّ له مُلْكَ السمواتِ والأرضِ.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني السادس والأربعون من سورة النساء
نهى اللهُ أهلَ الكتابِ عن الغلوِّ في دينهم

أولاً: تقديم

نهى اللهُ تعالى أهلَ الكتابِ عن الغُلُوِّ في الدين، ونهاهم أنْ يقولوا على الله إلاَّ الحقَّ، ونهى النصارى عن الغُلُوِّ في عيسى عليه السلام، والزَّعْمِ بأنّه اللهُ أو ابنُ الله، أو ثالثُ ثلاثةٍ، وقد بيَّن اللهُ حقيقة عيسى عليه السلام ومنزلته، وأمَرَهُمْ بالإيمانِ، ونهاهم عن الكفرِ والطغيان، وبيَّن أنَّ الله هو المعبودُ الواحدُ الأحدُ، وكلُّ الآلهة غيره معبودةٌ مربوبةٌ.

وقرَّر سبحانه أنَّ العبادَ الكرامَ والملائكةَ المقربينَ لا يأنفون من الإقرارِ بالعبودية لله، والذي يستكبرُ عن عبادةِ الله فسيحشرهم إليه جميعاً، وفي يوم القيامة يُوفِّي المؤمنين أجورَهُمْ، ويُعذِّبُ المستنكفينَ المستكبرينَ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء: ١٧١-١٧٣].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- نَهَى اللهُ تعالى أهلَ الكتابِ عن الغُلُوِّ في دينهم:

نهى اللهُ -تبارك وتعالى- أهل الكتاب عن الغلوِّ في دينهم فقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١] وهذه الآيةُ نزلتْ في النصارى، قال بذلك جمهورُ المفسرين، والغُلُوُّ في الدين الذي نهى اللهُ النصارى عنه الإفراطُ ومجاوزةُ الحدِّ، ومنه غَلا السِّعْرُ، وقد غَلا النصارى في عيسى عليه السلام ، فقالوا: هو اللهُ، أو ابنُ الله، أو ثالثُ ثلاثةٍ، وقد كفَّرهم اللهُ

جنـــــة الســــــنة

بغلوهم، وعدَّهم من المشركين، فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:٧٢] وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣]. وغلوْا في أحبارهم ورهبانِهم، فاتخذوهم أرباباً من دون الله ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٢١]. وقد نهى رسولُنا ﷺ أُمَّتَه أن تغلوا فيه فتُطريه كما أطْرَتِ النصارى عيسى ابنَ مريم، فعن عمرَ ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُ: «لا تُطْرُوني كما أطْرَتِ النصارى ابنَ مريمَ، فإنّما أنا عَبْدُهُ، فقولوا: عَبْدُ الله ورسولُه» [البخاري: ٣٤٤٥].

٢- نَهْيُ الله للنصارى عن أنْ يقولوا على الله إلا الحقَّ:

نهى ربُّ العزةِ -تبارك وتعالى- النصارى أنْ يقولوا على الله إلا الحقَّ، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [النساء:١٧١]، ولا يستطيعُ البشر أنْ يقولوا على الله إلا الحقَّ إلا إذا تعرَّفوا على الله تعالى عن طريقِ كتابِهِ وسنّةِ رسولِهِ ﷺ، وبذلك يتعرَّفون إلى ذاته وأسمائه وصفاتِهِ، ويثبتون له الوحدانية، ولا يشركون به شيئاً، وقد قال النصارى في الله غيرَ الحقِّ، عندما جعلوا له شركاءَ وأنداداً، وجعلوا له صاحبةً وولداً، جعلوا عيسى ابنَ مريمَ هو اللهَ أو ابنَ الله أو ثالثَ ثلاثةٍ، تعالى اللهُ عما يقولون علواً كبيراً.

٣- حقيقةُ عيسى ابنِ مريمَ عليه السلام:

غَلاَ النصارى في عيسى غُلوّاً عظيماً، وقد بيَّنَ اللهُ في هذه الآيات القولَ الحقَّ في عيسى عليه السلام، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء:١٧١] فالمسيحُ عيسى عليه السلام هو ابنُ مريم عليها السلام، وليسَ بابنِ الله، وليسَ له أبٌ من البشر، وهو رسولٌ إلى بني إسرائيل، وهو كلمةُ الله، لأنه خُلق بكلمةِ الله، وهي: ﴿كُن﴾، وهو روحٌ من الأرواح التي خَلَقَها اللهُ تعالى، كبقية أرواحِ بني آدمَ من الأنبياءِ والمرسلين وغيرهم.

وقد أطالَ اللهُ في بيانِ قصة عيسى وأمِّه في سورةِ آل عمرانِ وسورةِ مريمَ، وغيرِهما، ومما ذكره اللهُ في عيسى وأُمِّه قوله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة:٧٥]، وقال في عيسى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران:٥٩]، وحَكَى لنا ربُّنا ما قاله عيسى في المهدِ، وهو صبيٌّ رضيع: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم:٣٠-٣٣].

جنـــــة السـنـــــة

٤- أمَرَ اللهُ تعالى النصارى بالإيمان به ونهاهم أن يشركوا به أحداً:

أمَرَ اللهُ تعالى النَّصارى بالإيمان به وبرسله، ونهاهم عن الشركِ، ونهاهم أنْ يقولوا إنَّ معبودَهم ثلاثةٌ، وهم الأبُ والابنُ والروحُ القدسُ، وطالبهم بالانتهاءِ عن هذا القولِ والتراجعِ عنه: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾ [النساء:١٧١].

وقرَّرَ اللهُ -سبحانه وتعالى- أنه هو المعبودُ الواحدُ الذي لا يستحقُّ العبادةَ أحدٌ سواه، وسبَّح نفسَهُ عن الشريكِ والمثيلِ والنظيرِ، وسبَّحَ نفسَه عن أن يكونَ لهُ ولدٌ، وقرَّرَ أنَ لَهُ كلَّ ما في السمواتِ وكلَّ ما في الأرضِ، وكفى بِهِ -سبحانه- وَكيلاً ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء:١٧١].

وإذا كانتْ السمواتُ والأرضُ مخلوقتين مملوكتين لله سبحانه، وكلُّ ما فيهما فهو مخلوقٌ مربوبٌ، فيكونُ عيسى الذي اتَّخَذَهُ النصارى إلهاً، وكلُّ الآلهةِ التي عَبَدَها البشرُ من دون الله كالشمس والقمر والنجومِ والجبالِ والشجرِ والدوابِ مربوبةٌ مخلوقةٌ، لا يستحقُّ شيءٌ منها أنْ يكونَ إلهاً.

٥- لن يسْتَنكِفَ عيسى عليه السلام ولا الملائكةُ المقربون أن يُقِروا بالعبودية لله:

أخبرنا ربُّنا -تعالى وتقدَّسَ- أنَّ المسيح لنْ يَستَنْكِفَ أنْ يُقِرَّ بالعبودةِ لله، وكذلك الملائكةُ المقربونَ، والذي يستنكفُ عن عبادة الله ويستكبر، فسيحشُرُهُمْ إليه جميعاً يومَ القيام، ويقتصُّ منهم، ويعذِّبهم بكفرهم ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾﴾ [النساء:١٧٢].

والاستنكافُ -كما يقولُ ابن عطيةَ- : «إبايَةٌ بأنَفَةٍ» [المحرر الوجيز: ٣/ ٧٤]. وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه يوقِف عيسى بين يديه يوم القيامة، ويقولُ له: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ [المائدة:١١٦-١١٧].

٦- سيُحشَرُ الناسُ يومَ القيامة فيُوَفَّى المؤمنون أجورَهُمْ ويُعذَّب الكافرون:

أخبرنا ربُّنا - تبارك وتعالى- أنه سيحشُرُ الناس إليه يوم القيامة، فيُوَفِّي المؤمنين الذين عملوا الصالحات أجورَهُم، الحسنةُ بعشر أمثالها، إلى سبعين ضعفاً إلى سبعمائةِ ضعفٍ إلى ما لا يعلم مقداره إلا اللهُ تعالى، أما الذين أنفوا عن عبادته، وامتنعوا، واستكبروا، فيعذِّبهم عذاباً

جنـــــة السـنـــــة

أليماً، ولا يجد هؤلاء في ذلك اليوم من يتولاهم وينصرهم ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء:١٧٣].

قوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: بتضعيف الحسنات أضعافاً مضاعفةً.

رابعاً: ما تدعو إليه هذه الآيات من علم وعمل

إذا دقَّقنا النظرَ في هذه الآيات وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- نهى اللهُ عن الغلوِّ في الدين، كما فعل النصارى عندما رفعوا المسيحَ إلى مرتبة الألوهية.

٢- نهى اللهُ تعالى الناسَ أن يقولوا عليه إلا الحق، وذلك بوصفه بما لا يليقُ به، وجَعْلهم له شريكاً يعبدونه معه.

٣- بيان حقيقة عيسى ﷺ، وأنه ابنُ مريمَ المُحْصَنَةِ العفيفةِ، وليس ابنُ الله، وليس له أبٌ، بل خَلَقَه اللهُ بقوله: ﴿كُن﴾.

٤- أمر الله عبادَهُ بالإيمان به وبجميعِ رسلِهِ، وفي هذا دعوةٌ لأهل الكتاب إلى الإيمان بعبده ورسوله محمدٍ ﷺ، فإنه واحدٌ من رسل الله الذين أمر الله بالإيمان بهم.

٥- كلُّ ما في السموات والأرض مخلوقٌ مربوبٌ مملوكٌ لله تبارك وتعالى، ومنه ما يدَّعيه البشر مما عبدوه من دون الله كعيسى والعزير، والشمسِ والقمر.

٦- لا يستكبرُ أحَدٌ من الصالحين عن عبادة الله.

٧- سيحشُرُ الله الناس جميعاً يومَ القيامة، فيوفي المؤمنينَ أجْرهم، ويعذبُ الكافرين بذنوبهم.

جنـــــة السـنة

النص القرآني السابع والأربعون من سورة النساء
يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة

أولاً: تقديم

نادى ربُّ العزة الناسَ أجمعين مُعَلِماً إياهم ببعثةِ الرسول ﷺ إليهم، وإنزالِ القرآن الكريم إليهم، وأبانَ ما يحصلُ عليه المؤمنون بالله المعتصمون به من رحمةٍ وهدايةٍ، وأفتانا ربنا في الكلالةِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾ يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿١٧٦﴾﴾ [النساء:١٧٤-١٧٦].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- امتنانُ الله على الناسِ ببعثة رسوله ﷺ وإنزالِ كتابه:

نادى ربُّ العِزَّة - تبارك وتعالى- الناسَ مخبراً إياهم أنه قد جاءَهم برهانٌ من ربِّهم، وهو الكتابُ العظيم الذي أنزله على رسوله الكريم محمدٍ ﷺ، فهو حُجَّةُ الله على خلقه، ﴿قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [النساء:١٧٤]، قال ابن عطية: «البرهانُ: الحجةُ النيِّرةُ الواضحةُ التي تُعْطِي اليقينَ التامَّ، والمعنى: قد جاءكم مقترناً بمحمدٍ برهانٌ من الله تعالى يدلُّ على صحة ما يدعوكم إليه، وفسادِ ما أنتم عليه من النِّحَل. وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء:١٧٤] يعني القرآنَ» [المحرر الوجيز: ٣/ ٧٦] وسمَّى اللهُ القرآنَ نوراً، لأننا نعرفُ في نورِه الخيرَ والشرّ، والهدى والضلالَ.

٢- المؤمنون المعتصمون بالله يُدْخلهم ربُّ العزة الجنة:

أعلمنا ربُّنا تبارك وتعالى أن الذين آمنوا بالله واعتصموا به سبحانه، سيدخِلُهُمْ في رحمته، أي: في جنَّتِه، ويزيدُهم من فضلِهِ، وأعلى ما يزيدُهُمْ به هو رُؤْيَتُه في جناتِ النعيم،

جنـــــة السـنـــــة

ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً، أي: يهديهم طريقاً واضحاً لا اعوجاجَ فيه، وهذا حالُ المؤمنين في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا يهديهم إلى الإسلام، وفي الآخرة يمرُّون على الصراطِ الذي يوصلُهم إلى جناتِ النعيم ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء:١٧٥].

٣- إفتاءُ اللهِ صحابةَ رسولِهِ ﷺ في الكلالة:

المرادُ بالكلالة الذي يتوفاه اللهُ من المسلمين وليس له أبٌ ولا جَدٌّ، ولا ابنٌ ولا بنتٌ، ولا ابنُ ابنٍ، وله أخٌ أو أختٌ، أو إخوةٌ وأخواتٌ، وقد بيَّنَ الله تعالى في الآية الثانية عشرةَ من هذه السورة الحُكمَ فيها إذا كان الوارثُ في حالة عدم وجود الأب أو الابن هو الأخَ من الأم أو أخت واحدة منها، فإنه يكونُ لكلِّ واحدٍ منهما سدسُ التركة، فإنْ كانا اثنين فأكثر فهما شركاءُ في الثلث، قال تعالى في تلك الآية: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾ [النساء:١٢]

وبيَّنَ اللهُ تعالى في الآية الأخيرة من سورة النساء الصور الأخرى للكلالة، فقال: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾ [النساء:١٧٦].

ومعنى ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ أي: يسألونَكَ عما أشْكَلَ عليهم من أمْرِ الكلالة، ومعنى: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ﴾ أي: مات، ﴿لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أي: ولا والد، فإنَّ الوالدَ والولدَ يحجبُ كلٌّ منهما الأخَ، فإن كان المتوفى الذي لا والد له ولا ولد له أختاً، فلها نصف الميراث ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾، فإن ترك الميتُ الذي لا والدَ له ولا وَلَدَ أخاً، فله الميراثُ كله ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ فإن كان للميت أختان فلهما الثلثان ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ وإن كان له إخوةٌ من الرجال والنساء فللذكر مثل حظِّ الأنثيين ﴿فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ أي: يبين لكم فرائضَهُ التي فَرَضَها عليكم لئلا تضلوا عن الحق الذي قرَّره ربُّ العزةِ. ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾ أي: اللهُ تعالى عالمٌ بعواقب الأمور، ويعلم ما فيها من الخير، وما يستحقه كلُّ واحدٍ من القَرابات بحسب قربه من المتوفى [ابن كثير: ٢/ ٤٤٢].

جنـــة السـنـــة

٤- سبب نزول آيةِ الكلالة:

عن جابر بن عبدالله قال: «جاءَ رسولُ الله ﷺ يعودُني، وأنا مريضٌ لا أعْقِلُ، فتوضَّأ، وصَبَّ عليَّ من وَضُوئه، فعَقَلْتُ، فقلتُ: يا رسولَ الله، لمن الميراث؟ إنما يَرِثُني كلالةٌ، فنزلتْ آيةُ الميراث» [البخاري: ١٩٤. ومسلم: ١٦١٦].

٥- أشكل فقه آية الكلالة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب:

وقد أشْكَلَ فقهُ المراد بالكلالةِ على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وخَطَبَ في ذلك على المنبر، وقال: «وددتُ أنَّ رسولَ الله ﷺ لم يفارقنا حتى يعهد إلينا عَهْداً: الجَدُّ، والكلالَةُ، وأبوابٌ من أبوابِ الربا» [البخاري: ٥٥٨٨. ومسلم: ٣٠٣٢].

وفي صحيح مسلم عن مَعْدانَ بنِ أبي طَلْحَةَ أنَّ عمر بن الخطاب خَطَبَ يوم الجمعة، وكان مما قاله في خطبته: «ثم إني لا أَدَعُ بعدي شيئاً أهمَّ عندي من الكلالة، ما راجعتُ رسولَ الله ﷺ في شيء ما راجعتُهُ في الكلالة، وما أغْلظَ لي في شيء ما أغْلَظَ لي فيه، حتى طَعَنَ بإصبعه في صدري. فقال: يا عمر! ألا تكفيك آيةُ الصيف التي في آخر سورة النساء؟ وإني إن أعِشْ أقضِ فيها بقضيةٍ، يقضي بها من يقرأ القرآنَ ومن لا يقرأ القرآن» [مسلم: ٥٦٧].

والمراد بآية الصيف الآية الأخيرة في سورة النساء، سماها الرسولُ ﷺ بآية الصيف، لأنها نزلت في فصل الصيف.

وكان أبوبكر ﷺ يقولُ: «الكلالةُ ما عدا الولد والوالد» وهذا الذي قالَه الصديقُ عليه جمهورُ الصحابة والتابعين والأئمة في قديم الزمان وحديثه، وهو مذهبُ الأئمةِ الأربعةِ والفقهاءِ السبعةِ وقولُ علماءِ الأمصارِ قاطبةً، وهو الذي يدلُّ عليه القرآنُ [ابن كثير: ٢/ ٤٤٤].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا أمعنا النظر في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أنزلَ اللهُ القرآنَ الكريمَ ليكونَ دليلاً يدلُّ على صِدْقِ رسولنا ﷺ في رسالتِهِ، وجعلهُ نوراً مبيناً، يهدي إلى الرشادِ والصواب.

٢- وَعَدَ اللهُ المؤمنين بالله الذين اعتصموا به أنْ يُدْخِلَهم في رحمته، ويهديهم إلى صراطه المستقيم.

٣- استفتى الصحابةُ رسولَ الله ﷺ في الكلالة، فأجاب اللهُ بنفسه فَتْواهم.

جنـــــة السـنـــــة

٤- الصوابُ من القول أن الكلالة الميتُ الذي ليس له أصلٌ وارثٌ من الرجال، ولا فرعٌ وارثٌ من الأبناء والبنات، وله واحدٌ أو أكثر من الإخوة والأخوات.

٥- إن كان للميت الذي لا وارثَ له من الآباء والأبناء أخٌ أو أختٌ لأمّ، فلكل واحدٍ منهما السدس، فإنْ كانوا أكثر من ذلك فهم شركاءُ في الثلث.

٦- إنْ كان للمتوفى الذي لا وارثَ له من الآباء والأبناء أختٌ واحدةٌ فلها نصفُ ما تَرَكَ، فإن كان للمتوفى أخٌ واحدٌ، فله الميراثُ كلُّه، فإنْ كان له أختان فلهما الثلثان، فإن كان له أكثرمن واحدٍ من الإخوة والأخوات، فلهم الميراث، للذكر مثل حظِّ الأنثيين.

٧- يُبيِّنُ اللهُ -تعالى- لنا أحكامَ الميراثِ في الكلالة وفي غيرها، حتى نهتديَ ونحكم بالحق، ولا نضلَّ.

جنـــــة الســـــنة

سُورَةُ المَائِدَةِ

التعريف بهذه السورة

هذه السورة الكريمة مدنية، أُنزلتْ كُلُّها بعد الهجرة النبوية، قال أبو عمرو الداني: «حروفها أحد عشر ألفاً وسبعُ مائةٍ وثلاثةٌ وثلاثون حرفاً، وهي مائة وعشرون آية في الكوفيِّ، ومائةٌ وعشرون وآيتان في المدنيين والمكيِّ والشاميِّ، ومائةٌ وعشرونَ وثلاثٌ في البصري» [البيانُ في عدِّ آيِ القرآنِ: ١٤٩].

جنـــة الســـــنة

النص القرآني الأول من سورة المائدة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾

أولاً: تقديم

أَمَرَنا اللهُ -تبارك وتعالى- بالوفاء بالعقود، وهي أَوْثَقُ العهودِ، وهذه العقودُ قد تكونُ بيننا وبين ربِّنا تبارك وتعالى، وقد تكونُ بين الخلقِ فيما بينهم، وقد ذكر لنا ربُّنا جملةً مما يدخل في العقود التي شَرَعَها لنا في آيات هذا النص والنصوص الأخرى في هذه السورة.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢﴾ [المائدة:١-٢].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أوجب الله علينا الوفاء بالعقود:

قال الزَّجاجُ في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة:١]: «خاطبَ الله جل وعز جميعَ المؤمنين بالوفاءِ بالعقودِ التي عَقَدَها اللهُ عليهم، والعقودُ التي يعْقِدُها بعضُهُمْ على بعضٍ على ما يوجبه الدينُ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: يا أيها الذين صدَّقوا النبيَّ ﷺ أوْفوا بالعقود، والعقودُ: العهودُ، يقالُ: وفيتُ بالعهدِ وأوفيتُ. والعقودُ واحدُها عَقْد، وهي أوكَدُ العهودِ يقال: عهدتُ إلى فلانٍ في كذا وكذا، تأويله ألزمتُه ذلكَ، فإنما قلتُ عاقدتُهُ أو عَقَدتُ عليه، فتأويله أنك ألْزمْته ذلك باستيثاق»

[معاني القرآن: ٢/ ١٣٩].

جنـــة السـنـة

٢- ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾:

أحلَّ اللهُ -تبارك وتعالى- لنا بهيمةَ الأنعام، وهي الإبلُ والبقرُ والغنمُ، وقد أبطَلَ بذلك ما حرَّمَهُ أهل الجاهلية على أنفسهم من الأنعام، وهي البحيرةُ، والسائبةُ، والوصيلةُ، والحام.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:١] والذي استثناه الله هنا ذكره في الآية الثالثة من هذه السورة في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة:٣].

٣- ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾:

ومعنى الآية «أُحِلّتْ لكم بهيمةُ الأنعام كلها، إلا ما كان منها وحْشياً، فإنه صيد، لا يحِلُّ لكم في حال الإحرام» [تفسير البغوي: ٣/ ٧].

و﴿حُرُمٌ﴾: جمعُ حرام، وهو المُحْرِمُ بالحجِّ أو العمرة.

والصيدُ المُحَرَّمُ هو صيدُ البر، أما صيدُ البحر فإنه حلالٌ للمُحْرِم ولغيره كما سيأتي بيانه.

٤- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾:

قال ابنُ جريرٍ: «إنَّ اللهَ يقضي في خَلْقِهِ ما يشاءُ، من تحليلِ ما أرادَ تحليلَه، وتحريمِ ما أراد تحريمَهُ، وإيجابِ ما شاء إيجابَهُ، وغير ذلك من أحكامه وقضاياه» [تفسير الطبري: ٤/ ٢٦٦٩].

وفي هذه الآية تقوية للأحكام الشرعية المخالفة لمعهود العرب، وليس ذلك بعجبٍ، فإنَّ الله -تعالى- هو الذي شرعها، وهو يحكُمُ ما يريدُ، لا رادَّ لحكمه، ولا مُعقِّبَ لقضائه.

٥- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾:

نهى اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنين عن أن يُحِلُّوا شعائر الله، والشعائرُ: جمع شعيرةٍ، على وزن فعيلة، والشعائرُ ما أُشْعِرَ من الحيوانات لتُهْدَى إلى بيتِ الله تعالى، وذهبَ ابنُ عباس إلى أن شعائرَ الله مناسك الحجِّ، وجاءَ عنه: «كان المشركون يحُجُّونَ البيتَ الحرام، ويُهْدُونَ الهدايا، ويُعظِّمونَ حرمةَ المشاعِر، ويتَّجرون في حجِّهم، فأرادَ المسلمون أن يُغِيروا عليهم، فقال الله تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾» [تفسير الطبري: ٤/ ٢٦٧٠].

جنـــــة السـنــــة

ولعل الصواب أن شعائر الله نوعان: الأول: شعائر يتعبَّدُ الله عندها، كالصفا والمروة، وعرَفة، ومزدلفة، والجمرات، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:١٥٨]، وشعائر يتعبَّدُ اللهُ تعالى بها، ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحج:٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ ﴾ اسمٌ مفردٌ يدلُّ على الجنسِ في جميعِ الأشهرِ الحرمِ، وهي أربعةٌ، واحدٌ فردٌ، وهو رجبٌ الذي بين جمادى وشعبان، وثلاثةٌ سَرْد، وهي ذو القعدةِ، وذو الحجةِ، وشهرُ الله المحرمُ، والمعنى: لا تَسْتَحِلُّوها للقتالِ، ولا للغارةِ، ولا تُبَدِّلوها، فإنَّ استبدالَها استحلالٌ، قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ [البقرة:٢١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴾ والهديُ: ما أُهدي إلى بيتِ الله -تعالى- من ناقةٍ، أو بقرةٍ، أو شاةٍ، الواحدةُ هَدِيَّةٌ، و﴿ٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴾ هي الهديُ المقلَّدُ، الذي يُهْدَى إلى بيتِ الله الحرامِ بقصدِ القربةِ.

وقد ساقَ رسولُ الله ﷺ في حجَّةِ الوداعِ مائةَ ناقةٍ، وأشْعَرَ هَدْيَهُ وقلَّده.

٦- ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ﴾ :

نهى اللهُ تعالى في هذه الآية رسولَه ﷺ وأصحابَه عن قتال الذين يقصدون البيتَ الحرام بالتجارة في مواسم الحج والعمرة، ويزعمون أنهم يعبدون الله، ويتقربون له بالحجِّ والعمرة.

يقال: أَمَمْتُ البيتَ، أي: قصدتُه، وقولُه: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أي: يطلبون التجارة في مواسم الحج، وقوله: ﴿وَرِضْوَٰنًا ﴾ أي: يزعمونَ أنهم يعبُدون اللهَ بحجِّهم وعمرتهم.

وهذه الآية قد نُسخت، نسخها قولُه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ [التوبة:٢٨]، وقال: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة:٥].

٧- ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ﴾ :

أي إذا فَرَغْتُم من إحرامِكُمْ للحج والعمرة، وأَحْلَلْتُم منه، فقد أبحنا لكم ما كان محرَّماً عليكم في حال الإحرام من الصيد.

وأمرُ اللهُ بالاصطياد بعد أنْ نهى اللهُ عنه، هو أمرٌ بعدَ حظْرٍ، وقد ذهب جمهورُ الأصوليين والفقهاء إلى أن الأمر بعد الحَظْرِ للإباحة، وهذا وإن كان صحيحاً في هذا الموضع،

جنـــة السـنـــة

أي أن الأمر بالصيد بعد النهي عنه يفيدُ الإباحة، لكنه لا يفيدُ هذا الحكم دائماً، والصوابُ: أنَّ الأمْرَ بعد الحظر يردُّ الحكم إلى ما كان عليه قبل النهي، فإن كان واجباً ردَّه واجباً، وإن كان مستحبّاً فمستحبٌّ، أو مباحاً فمباح.

٨- ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ :

وقوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي: لا يَحْمِلَنكم، ولا يُدْخِلَنَّكُمْ في الجرم و(الشنآن): البُغْضُ، يقال: شَنَأْتُهُ، أَشْنَؤُه: إذا أَبْغَضْتَه، و﴿صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: منعوكم من الوصول إليه في عُمْرَتِكُمْ، ومعنى الآية: «لا يَحْمِلَنَّكم بغضُ قومٍ، قد كانوا صدُّوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام، وذلك عام الحديبية، على أن تعتدوا فيَّ حُكْمِ الله فيهم، فتقتصُّوا منهم ظلماً وعدواناً، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل في كلِّ أحدٍ. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨] أي: لا يحملنكم بُغْضُ أقوامٍ على تركِ العدل، فإن العدل واجب على كل أحدٍ في كل أحدٍ، في كل حالٍ.

وقال بعض السلف: ما عاملتَ من عصى اللهَ فيك بمثلِ أن تطيعَ اللهَ فيه، والعدلُ به قامت السموات والأرضُ» [ابن كثير: ٢/ ٤٥٢].

٩- أمرنا اللهُ بالتعاون على البر والتقوى ونهانا عن التعاون على الإثم والعدوان:

أمرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بالتعاون على البر والتقوى، ونهانا عن التعاون على الإثم والعدوان، فقال: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة:٢].

أمرنا اللهُ -عز وجل- في هذه الآية بالبر والتقوى، والبرُّ والتقوى يدخلُ كلُّ واحدٍ منهما في الآخر إذا ذكر كلٌّ منهما مفرداً، فإن اجتمعا في آيةٍ أو حديث كان لكل منهما معنى يخصُّه، مثلهما في ذلك مثلُ: الإيمان والإسلام، والفقير والمسكين، والفسوق والعصيان، والمنكر والفاحشة. فالبرُّ إذا ذكر وحده كان كلمةً جامعةً لأعمال الخير كلِّها المطلوبة من العبد، ويقالُ في مقابل البر: الإثمُ.

وقد جمع اللهُ تعالى خصالَ البرِّ في قوله تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى

جنـــــة الســـــنة

﴿ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة:١٧٧].

فجعل الله من البر الإيمانَ بالأصول الخمسة التي ذكرها الله في الآية، وجعل منه إنفاقَ المال على من ذكرهم اللهُ في الآية، ومما ذكر اللهُ -تعالى- أنه داخلٌ في البر الشرائع الظاهرة من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ويدخل في البر أيضاً الأعمال القلبية من الوفاء بالعهد والصبر في البأساء والضراء وحين البأس، فاشتمل البرُّ على جميع أقسام الدين، وجميع حقائقه وشرائعه والأعمال المتعلقة بالجوارح والقلب، وأصول الإيمان الخمس.

وعلى ذلك فتدخلُ التقوى في البر إذا أُفرد بالذكر.

والتقوى -كما يقول التابعي طلقُ بنُ حبيبٍ- : «أنْ تعملَ بطاعة الله على نورٍ من الله، ترجو ثوابَ الله، وأن تترَكَ معصيةَ الله على نورٍ من الله، تخافُ عقابَ الله».

فالأعمال الصالحةُ لا تُقبَلُ حتى يكونَ الباعثُ عليها الإيمانَ، لا العادةَ والهوى وطلبَ المحمدةِ، وهذا الذي قَصَدَهُ طَلْقُ بن حبيبٍ من قوله: أن تعمل بطاعةِ الله على نورٍ من الله، ولا بد للعامل أن تكون غايتُهُ رجاء ثواب الله حتى يكونَ عملُه براً، فإذا ذُكِرَتِ التقوى منفردةً عن البر كان البرُّ داخلاً فيها.

فإذا اجتمعَ البرُّ والتقوى في آيةٍ واحدةٍ كهذه الآية: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ﴾ [المائدة:٢] فالفرقُ بينهما فرقٌ بين السبب المقصود لغيره والغاية المقصودة لنفسها، فإنَّ البر مطلوبٌ لذاته، إذ هو كمالُ العبد وصلاحُه الذي لا صلاحَ له بدونِهِ، وأما التقوى فهيَ الطريقُ الموصلُ إلى البرِّ والوسيلةُ إليه، ولفظها يدلُّ أنها من الوقاية، فإن المُتَّقِي قد جَعَلَ بينه وبين النارِ وقايةً، فالوقايةُ من باب دفعِ الضرر، والتقوى والبر كالعافية الصحة.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ﴾ [المائدة:٢] (الإثم والعدوان) في جانب النهي نظيرُ (البر والتقوى) في جانبِ الأمر.

فالإثمُ: كلمةٌ جامعةٌ للشرور والعيوب التي يُذَمُّ العبدُ عليها، وإذا اجتمع (الإثم والعدوان) خُصَّ الإثمُ بما كان حراماً لجنسه كالزنا والخمر والميسر، ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ تعدِّي حدود الله، وذلك بأن يتعدَّى ما أُبيحَ له إلى القدر المحرم، كأن يعتدي على امرئٍ في بدنه أو ماله أو عِرْضِه، فيعتدي الشخصُ الذي وَقَعَ عيه العدوانُ أولاً بأشدَّ مما وقعَ عليه، فإذا ضربه بالعصا وجَرَحَهُ، ضربه بالسيفِ وقطعَ يده، وإذا قطع له فرعاً من شجرةٍ أحرقَ له بستانه، وإذا غَصَبَهُ خشبةً هَدَم له دارَه [راجع في هذه المسألة: بدائع التفسير: ٢/ ٩٤-٩٩].

جنـــة السـنــة

وأمر اللهُ عبادَه أن يجعلوا بينهم وبين عذاب الله وقايةً، فإنه سبحانه شديدُ العقاب: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٢﴾ [المائدة:٢].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أوجب اللهُ على المؤمنين أن يَفُوا بما فرضه عليه من عقود وعهود، بأن يقوموا بالواجبات، ويتركوا المحرمات، ويُحِلُّوا ما أحلَّ الله، ويُحرِّموا ما حرَّمه، وأن يَفُوا بالعهود التي بينهم وبين العباد في البيع والشراء، والزواج، والإجارة ونحو ذلك.

٢- أباحَ لنا بهيمةَ الأنعام من الإبل والبقر والغنم إلا ما حرَّمَهُ الله في الآية التالية، وأبْطَلَ في هذه الآية ما حرَّمَهُ أهلُ الجاهلية على أنفسِهم من الأنعام.

٣- حرَّم على الحُجَّاجِ والمعتمرين إذا هُمْ أحْرَموا صيدَ البر دون صيدِ البحر.

٤- نهى اللهُ تعالى الذين آمنوا عن إحلالِ شعائرِ الله، وهو ما حرَّمه الله تعالى على الحاجِّ والمعتمر إذا أحْرَمَ.

٥- لا يجوزُ للمسلمين أن يبدؤوا القتالَ في الأشهر الحُرُمِ، فإن قاتَلَهُمْ الأعداءُ في الشهر الحرام، جاز لنا أن نقاتل في مثل هذه الحال.

٦- يجبُ أنْ لا نعتدي على ما أُرسِل إلى البيت الحرام من الهدايا مُقَلَّدَةً كانت أو غير مقلَّدةٍ.

٧- نهى اللهُ رسولَه ﷺ وأصحابَهُ عند نزول الآية عن الاعتداء على من قصد البيت الحرام للحج والعمرة والتجارة في مواسمها، ثم نَسَخَ اللهُ ذلك بما أنزلَهُ بعد ذلك.

٨- أباحَ اللهُ لنا إذا حَلَلْنا من إحرامنا أن نستبيحَ ما حرَّمه علينا من الصيد.

٩- كان لا يجوزُ للمؤمنين أنْ يمنعوا المشركين من الوصول إلى المسجد الحرام كما فعل المشركون بالمسلمين في غزوة الحديبية، ثم نَسخ اللهُ ذلك عندما أمر اللهُ بقتال المشركين، ومنعهم من الحجِّ والعمرة.

١٠- أمر اللهُ تعالى بالبر والتقوى، وهو أمرٌ شاملٌ للإتيان بالخير كله، ونهى عن ﴿الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، و﴿الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ اسمانِ جامعان للشر كلِّه.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الثاني من سورة المائدة
المحرَّم علينا من بهيمة الأنعام

أولاً: تقديم

بيَّن اللهُ -تعالى- في هذا النص المحرمات من بهيمة الأنعام، وقد تحدثنا عن هذه المحرمات في سورة البقرة، وفي هذه الآيات مزيدُ بيان لما ذكره الله هناك، وبهذا البيان أكملَ اللهُ لنا ديننا، وأتمَّ علينا نعمَهُ، ورضي لنا الإسلامَ دينا.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة:٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- المحرماتُ من الأطعمة:

سبقَ أن تحدَّثنا عن المحرمات من الأطعمة في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة:١٧٣].

وذكر اللهُ في هذه الآية من سورة المائدة المحرمات الأربع التي ذكرها في البقرة، فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة:٣].

ثم زاد في هذه الآية خمسةً من المحرمات، فقال: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ [المائدة:٣] وهذه الخمسة داخلةٌ في الميتة، ولكنَّ لكل واحد منها سبباً في موته.

وزاد في هذه الآية على ما في البقرة ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة٣]. والميتةُ من الحيوان ما مات حَتْفَ أنفه من غير ذكاةٍ ولا اصطيادٍ، وقد كان أهلُ الجاهلية يستحلّون أكْلَها، وقد

جنـــــة السـنـــــة

استثنى اللهُ من الميتة طعامَ البحر الذي لا يعيشُ إلا في البحر، كما استثنى رسولُنا ﷺ الجرادَ كما سبق بيانه. و﴿وَٱلدَّمُ﴾ الذي حرَّمَهُ اللهُ هو الدم المسفوحُ، أما الدم الذي خالطَ اللحم في القِدْرِ فلا بأس به، قال تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام:١٤٥]. وقال رب العزة: ﴿وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ ولم يقل: الخنزيرَ، ليدلَّ على حُرمةِ ذلك اللحم، ذُبح أو لم يُذْبَح، ولحمُ الخنزير يشملُ شحْمَهُ، وقد صرح ربُّ العزة -تبارك وتعالى- بأن لحم الخنزير رجْسٌ ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ [الأنعام:١٤٥] و﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة:٣] الذي ذُبح باسم الآلهة المعبودة من دون الله، كالذي ذُبح للأصنام، أو باسم الآب والابن وروح القدس، والإهلالُ رفعُ الصوت عند الذبحِ.

والخمسةُ التي ذكرها اللهُ في هذه الآية زيادة عما ذكره في آية البقرة، كلُّها داخلةٌ في الميتة، وإنما تعددَّتْ لتعدُّدِ أسباب موتها، ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ هي التي ماتت بسبب الخنق، سواءٌ أكان الخنقُ بفعل الإنسان، أو فعلها. ﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ هي التي تُضربُ بالعصا حتى تموتَ، وكانوا في الجاهلية يضربونها بالخشب حتى تموت ويأكلونها، ومن الحيوان الوقيذِ الذي يحرُمُ أكْلُه أن يرمي الصائدُ صيدَه برمحٍ أو سهمٍ فيقتلَهُ بعَرْضِهِ، ولا يجْرَحُهُ، وقد سأل عدي بنُ حاتمٍ الرسولَ ﷺ عن المِعْراضِ، فقال: «إذا أصبتَ بحدِّهِ فكُلْ، فإذا أصاب بعَرْضِه فقتل فإنه وقيذٌ، فلا تأكل» [البخاري: ٥٤٧٦. ومسلم: ١٩٢٩]. ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ هي التي تسقُطُ من شاهقٍ فتموتُ، لا فرق بين التي تتردَّى بنفسها أو يُرَدِّيها غيرُها. ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ التي ماتتْ بسبب نطح غيرها لها، فهي حرام، ولا تحِلُّ بحالٍ، ولو كانت التي نطَحَتْها ذاتَ قَرْنٍ، وخزقتْ المنطوحَة وأدْمَتْها، فلا يحِلُّ أكْلُها.

وقوله: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ أي ما عدا عليه السبعُ، كالأسد والنمر والذئب والثعلب فإنها حرام، ولو سالتْ منها الدماءُ، وقد كان أهلُ الجاهلية يأكلون ما بقي مما عدا عليه السبعُ.

٢- استثناءُ الله من الخمسِ السابقة ما ذُكّي:

استثنى اللهُ -تبارك وتعالى- من المحرمات الخمس السابقة ما أدركناه حيّاً حياة مستقرةً، فذبحناه، فيجوزُ أكْلُه، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ قالَ عليُّ بنُ أبي طالب: «إنْ مَصَعَتْ بذَنَبها أو رَكَضَتْ برجلها، أو طَرَفَتْ بعينها فكُلْ» [ابن كثير: ٢/ ٤٦٢] أي إن أدْرَكْتَها وفيها هذا الذي ذَكَره، فذَبَحْتَها، فهي حلالٌ، أما إذا أدْرَكْتَها وقد زالتْ الحياةُ منها فهي ميتةٌ.

جنـــــة السـنـــــة

٣- وما ذبحَ على النصب:

النُّصُبُ حجارةٌ كانت منصوبةً حول الكعبة، وهي غيرُ منقوشةٍ ولا تُشْبِهُ الأصنام، وكان أهل الجاهلية يذبحون عندَها، وينْضَحُون بدمائها الكعبة، ويُشَرِّحُونَ اللحم على تلك الأنصاب، فحرَّم الله تلك الذبائح ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾.

ولا تزالُ النصبُ قائمةً في كثير من دول العالم، كنُصْبِ الجنديِّ المجهول، والنصبِ التي تقامُ للرياضة، أو لمعنى آخر، وتُعَظَّم هذه النصبُ، وتقدَّمُ لها الهدايا من الورود والرياحين، وكلُّ ذلك حرامٌ، لا يجوزُ.

٤- تحريمُ الله الاستقسام بالأزلام:

حرَّم اللهُ -تعالى- علينا أن نستقسم بالأزلام، كما كان يفعلُ أهلُ الجاهلية، فقد كان أهلُ الجاهلية إذا أرادَ الواحدُ منهم أن يفعل أمراً لا يتوجَّهُ إلى عالم الغيب والشهادة، فيدعوه، ويستغيث به، كي يهديهُ إلى الخير والصواب، وإنما يلجأ إلى ثلاثة أزْلام، وهي ثلاثةُ سِهام، مكتوبٌ على أحدها: «أمَرني رَبِّي» وعلى الثاني: «نهاني ربي» والثالث: ليسَ مكتوباً عليه شيءٌ، فيضعها في مكانٍ يخفيها، ثم يُخرج واحداً منها، فإن خرج الذي فيه: أمرني ربي، فَعَلَ ما استخارَ فيه من سفر أو زواج أو بيع، وإن خرج السهمُ المكتوبُ فيه: نهاني ربي، تركَ ما استخارَ فيه، وإن خرج السهمُ الذي لم يُكتب عليه شيء، كان بالخيار.

ومن الاستقسام بالأزلام ما فعله سراقةُ بنُ مالكٍ عندما تَبعَ الرسولَ ﷺ وأبا بكر عندما خرجا من مكة مهاجرين، فلما دَنا منهما استخرج أزْلامَهُ فاستقسمَ بها، فخرج السهمُ الذي يَكْرَهُهُ، ولكنه لم يُطِعِ الأزلامَ، ومضى لمقصدِهِ [البخاري: ٣٩٠٦].

ولقد دخل الرسولُ ﷺ الكعبة، فوجَدَ أهلَ الجاهلية صوَّروا إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلام في أيديهما الأزلامُ، فقال رسولُ الله ﷺ: «قاتلهم اللهُ، أما والله، لقد عَلِمُوا أنهم لم يسْتَقْسِما بها قط» [البخاري: ١٦٠١].

وكان أهل الجاهلية يستقسمون في القضايا العظيمة بسبعة أزلام كانت داخل الكعبة عند صنم من أعظم أصنامهم، هو هُبَلُ، كان منصوباً داخل الكعبة على بئرٍ، توضعُ فيه الهدايا والأموال التي يهدونَها للكعبة ويخصُّونها بها، وكانوا يتحاكمون إلى تلك الأقداح، ويرضون بحكمها.

وقد عدَّ اللهُ الاستقسام بالأزلام رِجْساً من عمل الشيطان، وأمرنا باجتنابه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾

جنـــــة السـنة

[المائدة:٩٠] وأخبرنا ربُّنا في هذه الآية أن الاستقسام بالأزلام فِسْقٌ ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ أي: خروجٌ عن طاعة الله عز وجل.

وقد أبدلنا الله -تبارك وتعالى- بهذه الخرافة الجاهلية التي كان يلجأ إليها أهل الجاهلية بدعاء الاستخارة، ففي حديث جابر بن عبدالله، قال: كان رسولُ الله ﷺ يعلِّمُنا الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: «إذا همَّ أحدُكم بالأمر، فليركَعْ ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرُك بعِلْمِكَ، وأسْتَقْدِرُكَ بقُدْرَتِكَ، وأسألُكَ من فضلكَ العظيم، فإنكَ تقدرُ ولا أقدرُ، وتعلمُ ولا أعلمُ، وأنتَ علاَّمُ الغيوبِ.

اللهم إن كنت تعلمُ أن هذا الأمرَ خيرٌ لي، في ديني ومعاشي وعاقبةِ أمري، أو قالَ: عاجِلِ أمري وآجِلِه، فاقدُرْهُ لي، ويسِّره لي، ثم بارِكْ لي فيه، وإن كنت تعلمُ أنَّ هذا الأمرَ شرٌّ لي، في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال: في عاجلِ أمري وآجِلِه، فاصْرِفْهُ عني واصْرِفْني عنه، واقْدُرْ لِيَ الخيرَ حيثُ كان، ثم أرْضِني به. قال: ويُسَمِّي حاجَتَهُ» [البخاري: ١١٦٢].

٥- ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ :

أخبر اللهُ -تبارك وتعالى - رسولَه ﷺ وأصحابَه في اليوم الذي أُنزلتْ فيه هذه الآية أنَّ الكفارَ في ذلك اليوم يئسوا من رجوع المسلمين عن دينهم، ونهى اللهُ رسولَه والمؤمنين عن أن يخافوا الكافرين، وأمَرَهُم بخشيته سبحانه، وأخبرَ سبحانه أنه في ذلك اليوم الذي أُنزلتْ فيه هذه الآية أنه أكمل للمؤمنين دينهم وهو الإسلامُ، فلا يحتاجونَ إلى دينٍ غيره، وأتمَّ عليهم نِعْمَتَه، فلا يحتاجون إلى غيرها، ورضيَ لنا الإسلام ديناً، فإذا كان اللهُ رضي لنا الإسلامَ ديناً، فعلينا أن نرضى لأنفسنا ما رضي الله لنا ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة:٣].

لقد نزلتْ هذه الآية في حجة الوداع في يوم الجمعة في عَرَفَةَ، وقد حجَّ مع الرسول ﷺ ما يزيدُ على مائة ألفٍ، وقد بلغَ المسلمون الغايةَ في القوة والمنعة والسلطان، وأصبحوا مرْهوبين من بقايا الكافرين في الجزيرة العربية، بل من الكفار في خارج الجزيرة العربية، وقد بلغ الحالُ بالشيطان في ذلك الوقت أنه أيس من أن يعبدَه المصلونُ في جزيرة العرب، فعن جابرٍ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُ: «إن الشيطانَ قدْ أيِسَ أن يعبُدَه المصلُّون في جزيرة العرب، ولكن في التحْريشِ بينهم» [مسلم:٢٨١٢].

والدليلُ على أن هذه الآية نزلت في حجةِ الوداع في يوم الجمعة يومَ عرفة، ما رواه طارقُ بن شهاب عن عمر بن الخطاب، أن رجلاً من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين، آيةٌ في

جنـــة الســـــنة

كتابكُم تقرؤونها، لو علينا معشرَ اليهودِ نزلتْ، لاتخذنا ذلك اليومَ عيداً. قال: أيُّ آية؟ قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] قال عمرُ: قد عرفنا ذلك اليوم، والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ، وهو قائم بعرفة يوم جمعة [البخاري:٤٥. ومسلم: ٣٠١٧].

٦- ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ③﴾:

قال ابنُ كثير: «فمن احتاجَ إلى تناول شيءٍ من هذه المحرمات التي ذكرها اللهُ تعالى لضرورةٍ ألجأته إلى ذلك، فله تناوله واللهُ غفورٌ رحيم، لأنه تعالى يعْلَمُ حاجةَ عبْدِهِ المُضطَرِّ، وافتقارَه إلى ذلك، فيتجاوزُ عنه، ويغفرُ له».

وفي المسند وصحيح ابن حبانَ عن ابن عمرَ قال: «إنَّ اللهَ يحبُّ أن تُؤْتَى رُخَصُهُ كما يكرهُ أن تُؤْتَى معصيتُه» [ابن كثير: ٢/ ٤٦٩. والحديثُ قال فيه محقق ابنِ كثيرٍ: جيدٌ، أخرجه أحمد وابن حبانَ، وإسنادُهُ جيد].

وقد سبقَ ذكرُ الله تعالى لهذه الحالة في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾ [البقرة:١٧٣] فذكر هناك أن المضطر إذا لم يكن باغياً ولا عادياً، أي: غيرَ قاطعٍ للسبيل، ولا مفارقاً للأئمة، ولا خارجاً في معصيةٍ، فلا إثم عليه، وهنا قال: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ أي: غير مائلٍ للإثم، والإثم: المعصيةُ.

رابعاً: ما تهدينا إليه الآياتُ من علمٍ وعمل:

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أبانَ اللهُ -تعالى- لعباده المؤمنين ما حرَّم عليهم من الأطعمة، وهي الميتةُ والدمُ، والحرامُ منه المسفوحُ، ولحم الخنزير، وما ذُكر عليه عند ذبحه أسماءُ آلهة الكفار، والمنخنقة، والموقوذةُ، والنطيحةُ، وما أكل السبعُ، وما ذبحَ على النصب.

٢- أحلّ اللهُ -تعالى- أكْلَ المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع من المحرمات إذا أدْرَكها الإنسانُ حية حياةً مستقرةً، وقام بتذكيتها.

٣- تحريمُ إقامة النُّصُبِ التي تُعَظَّم لمعنى من المعاني، كنُصبِ الجنديِّ المجهولِ، والنصب التي تقامُ للرياضة، وكما تحرم إقامَتُها، يَحْرُم تقديمُ الهدايا لها.

جنـــــة السـنـــــة

٤- يحْرُم علينا ما كان عليه أهلُ الجاهلية من الاستقسام بالأزلام، وهو اللجوء إلى السِّهام المكتوب على أحدها افعلْ، وعلى الثاني لا تفعل، ويترك الثالثُ خالياً من الكتابة، وقد أبْدَلنا اللهُ بدعاء الاستخارة.

٥- عند نزول هذه الآيات يئس الكفار عن رجوع المسلمين عن دينهم، فقد عَظُمَ الإسلام واكتمل، وأمر اللهُ المؤمنين بأن لا يخشوا الكافرين، ويخشوه وحده.

٦- امتنَّ الله -تعالى- على المؤمنين عندما نزلتْ هذه الآياتُ بأنه أكْملَ لهم دينه، وأتمَّ عليهم نعْمَته، ورضي لهم الإسلامَ ديناً.

٧- إذا اضطّر المسلمُ إلى تناول شيءٍ من المحرمات المذكورات في أول هذا النص، فلا حَرَجَ عليه أن يتناولَ منها ما يحتاجُ إليه، بشرط أن يكون غير مُتلبِّسٍ بمعصيةٍ.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الثالث من سورة المائدة

أحل اللهُ لنا الطيبات

أولاً: تقديم

بيّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- لنا في آية النص السابق ما حرَّمه علينا من الأطعمة، وفي هذه الآيات بيّن لنا ما أحلَّه لنا من الطيبات والصيد وطعامِ الذين أوتوا الكتاب، والزواج من نساء أهل الكتاب العفيفات.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ [المائدة:٤-٥].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أحلَّ الله لنا الطيبات:

أخبرنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنَّ صحابةَ رسولِه ﷺ سألوهُ عما أحَلَّهُ اللهُ -عز وجل- لهم، وأمَرَه -سبحانه- أنْ يقولَ لهم: أُحلَّ لكم الطيباتُ، وأُحِلَّ لكم ما علَّمْتم من الجوارح مكلِّبين ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ﴾ [المائدة:٤]. قال ابنُ الجوزيّ: «قال الزَّجَّاجُ: ومعنى الكلام يسألونَك أي شيءٍ أُحِلَّ لهم؟ قل أُحِلَّ لكم الطيباتُ، وأُحِلَ لكم صيدُ ما علَّمتُم من الجوارح، والتأويلُ: أنهم سألوا عنه، ولكن حَذَفَ ذكر «صيد ما علَّمْتم»، لأنَّ في الكلامِ دليلاً عليه» [زاد المسير: ٢/ ٢٩٠].

وقد بيَّنتْ هذه الآيةُ قاعدةَ الحلالِ من الأطعمة والأشربة، فقد أباحَ اللهُ لنا الطيبَ منها، وحرَّمَ علينا الخبيثَ، وقد حرَّم اللهُ على بني إسرائيلَ بعض الطيبات، وأخبرَ أنَّ النبيَّ الأميَّ سيحلُّ لبني إسرائيل ما حُرِّم عليهم من الطيبات، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ

جنــــة الســــــنة

﴿ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧]. «والطيبُ -كما يقول الفيروزُ آبادي- ما تَسْتَلذُّه الحواسُ من الأطعمة والأشربةِ وغيرها، قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة:١٦٨] أي من المباحات المأكولة والمشروبة، ونحوه ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة:٥٧]» [بصائر ذوي التمييز: ٣/ ٥٣١].

«وفي الصحاح: الطيبُ خلافُ الخبيثِ. وقال ابن سِيْدَه: طابَ الشيءُ طِيباً لذَّ وزكا. وقال ابنُ بَرِيّ: وطعْمَةٌ طيبةٌ إذا كانتْ حلالاً» [لسان العرب: ٢/ ٦٣٢] ولا يكونُ الطعامُ ولا الشرابُ طيباً إلا إذا كان حلالاً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة:١٦٨].

أخبرنا اللهُ تعالى فيما سبق أنه أحل لنا الطيبات، وأخبرنا بعد ذلك أنه أحل لنا صيد الكلاب والصقور ونحوها التي علَّمناها أن تصطادَ لنا، وسماها ربنا الجوارحَ، والجوارحُ الكواسبُ من سباعِ البهائم والطيرِ، سُمِّيَت جوارحَ، لجَرْحِها لأربابها، أي: كَسْبها لهم من الصيد، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ [المائدة:٤]، وقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم﴾ أي: صيد ما علمتم من البهائم والطيور كالكلب أو الفهد أو الصقر أو البازيِّ والعقاب ونحوها. وقوله: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ المُكَلِّبُ الذي يُغْرِي الكلابَ على الصيد، ويقال للذي يُعَلِّمُ الكلابَ أيضاً مُكَلِّب.

وقولُه تعالى: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة:٤] «التعليمُ هو أن يوجد فيها ثلاثةُ أشياء: إذا أُشيلَتْ اسْتَشْلَت، وإذا زُجِرتْ انزَجَرَت، وإذا أَخذَت الصيدَ أمْسَكتْ، ولم تأكلْ، وإذا وُجد ذلك منه مراراً، وأقلُّهُ ثلاثَ مراتٍ كانت مُعَلَّمةً يَحِلُّ ما قتلَتْهُ إذا خرجتْ بإرسالِ صاحبِها» [البغوي: ٣/ ١٦].

فإن صادَ الرجلُ بكلبه غير المعلَّم فأدْرَكَ فيه حياةً فذكَّاهُ جازَ أكْلُه، ففي حديث عدي ابن حاتم، قال الرسول ﷺ: «وما صِدْتَ بكلبِكَ غيرِ مُعَلَّمٍ فأدْرَكْتَ ذَكاتَهُ فكُلْ» [البخاري: ٥٤٧٨. ومسلم: ١٩٣٠].

وقد ذهب جمهورُ أهل العلم وهو الصحيح من مذهب الشافعي إلى أنه إذا أكل الكلبُ من الصيد فإنه يحرُمُ المُصادُ مطلقاً للآية ولما ورد في الأحاديث [ابن كثير: ٢/ ٤٧٤].

٣- يُشترطُ في الحيوان الصائد أن يُمسِكَ على صاحبِهِ:

قولُه تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:٤].

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أننا إذا صِدْنا بكلابِنا التي علَّمْناها، فيجوزُ لنا أن نأكل منها إذا لم يأْكل الكلبُ الصائدُ منها شيئاً، وقد سأل عديُّ بن حاتم الطائي رسولَ الله ﷺ عن

جنـــــة السـنـــــة

كلبِهِ الذي أرسله للصيد إن هو أكَلَ من الصيدِ الذي أمْسَكه، فقالَ ﷺ: «فلا تأكُلْ، فإنه لم يُمْسِك عليكَ، إنما أمْسَكَ على نفسه» [البخاري: ٥٤٧٦. ومسلم: ١٩٢٩]. وأمرنا ربنا -عزَّ وجلَّ- أن نذكر اسمَ الله تعالى عندما نُطلقُ الكلبَ للصيد ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ﴾ [المائدة:٤].

وقد أمر الرسولُ ﷺ في حديث أبي ثعْلَبَةَ الخُشَني بذكر اسمِ الله على ما نصيدُه بأقواسِنا وكلابِنا، ففي الحديث: «وما صِدْتَ بقَوْسِكَ، فذكرْتَ اسمَ الله فكُلْ، وما صِدْتَ بكَلْبِكَ المُعَلَّم، فذكرتْ اسمَ الله فكلْ» [البخاري: ٥٤٧٨. ومسلم: ١٩٣٠].

ونهى رسولُ الله ﷺ عن أكل ما صادَهُ الكلبُ إنْ وَجَدَ مع كلْبِهِ كلباً آخرَ قال: «وإن وَجَدْتُ مع كلبِكَ أو كِلابِكَ كلباً غيرَهُ، فخشيتَ أن يكونَ أخَذَه معه، وقد قَتَلَهُ فلا تأكُلْ، فإنما ذكرتَ اسْمَ الله على كَلْبِكَ، ولم تَذْكُرْه على غيره» [البخاري: ٥٤٧٥. ومسلم: ١٩٢٩].

٥- أوْجَبَ اللهُ علينا العملَ بما أمرنا به وتركَ ما نهينا عنه:

وخَتَمَ ربُّ العزة الآية بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٤﴾ [المائدة:٤].

أمر اللهُ -تبارك وتعالى- عبادَه بتقواهُ بفعلِ ما أمرهم به، وترْكِ ما نهاهم عنه، وذلك بأكْلِهم من الطيباتِ التي أحلَّها لهم، وأكْلهم من الصيد الذي أمْسَكَتْه عليهم كلابُهم المُعَلَّمةُ إذا ذكروا اسمَ الله عليها، واللهُ سريعُ الحساب، وسيظهرُ ذلك عندما يحاسبُ اللهُ عبادَه يوم القيامةِ.

٦- أحلَّ اللهُ لنا طعام أهل الكتاب:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- مرةً أخرى أنه أحلَّ لنا الطيباتِ، من باب التأكيد على إحْلالها، فقال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ﴾ [المائدة:٥]. وأخبرنا ربّنا -تبارك وتعالى- أنه أحلَّ لنا طعام أهل الكتاب من قبلنا، وهم اليهودُ والنصارى، كما أحلَّ لنا الزواجَ من النساء المؤمنات ونساءِ أهل الكتاب إذا كنَّ محصناتٍ، والمحصنة هنا العفيفةُ التي لا تتعاطى الزنا ولا تستبيحُهُ ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [المائدة:٥].

وقد أكَلَ رسولُنا ﷺ من طعام اليهود، فقد ثبت في الصحيح أن يهودَ خيبر أهدوا لرسول الله ﷺ شاةً مَصْلِيَّةً، ووضعوا فيها سُمّاً، فأكل رسول الله ﷺ منها وأكل القوم، فمات بِشْرُ بن البراءِ بن معْرورٍ [انظر سنن أبي داود (٤٥١٢) قال الألباني: حسن صحيح].

جنـــــة الســــــنة

والمرادُ بطعامِ أهل الكتاب ذبائحُهم، فأما غير الذبائح كالفواكه والحبوب من القمح والشعير والأرز ونحوها، فهي حلالٌ مطلقاً، لا فرق في ذلك بين ما كان للمسلمين أو لأهل الكتاب أو غيرهم.

٧- **أحلَّ اللهُ لنا نكاحَ نساء أهل الكتاب بشروطٍ:**

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه أحَلَّ لنا أن نتزوج من نساء أهل الكتاب، ويُشترطُ لجواز نكاح المؤمن من نساء أهل الكتاب ما يأتي:

أ- أن تكون مؤمنةً بدينها، فإنْ كانت كافرةً به، فلا تحلُّ لنا، وكثيرٌ من النصرانيات في عالم الغرب اليومَ كافراتٌ بدينهنّ، فلا يحلُّ الزواجُ منهنَ.

ب- أن يكنَّ عفيفاتٍ لا يتعاطينَ الزنا، ولا يسْتَحْلِلْنَه، وهذا النوعُ من النساء قليلٌ في النصرانيات في عالم الغرب اليوم، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: العفيفاتُ، وقال أيضا: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [المائدة:٥] أي: متزوجين يريدون الاستعفاف، المسافحُ: الزاني، والمسافحاتُ: الزانياتُ، وقولُه: ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة:٥] أي: ولا متخذات أصدقاءَ، فلا تضاجعُ إلا صديقاً واحداً.

ج- أن يُعطي الرجلُ المتزوجُ المرأة التي تزوّجها أجْرَها، أي: مَهْرَها ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة:٥] أي: مهورَهُنَّ، فإذا دَخَلَ بها ولم يُسَمِّ لها مهرها وَجَبَ لها مهرُ المثلِ بدخولِهِ بها.

د- أن يجريَ الزواجَ على الطريقة الإسلامية، وأن تسير الحياة الزوجية وفق النهج الإسلامي، فلا يجوزُ للزوجة أن تشترط أن يُعقد الزواج في الكنيسة، ولا يجوز لها أن تشترط أن تجري الحياةُ الزوجية وفق المنهج النصراني.

وختم اللهُ -تبارك وتعالى- الآية بقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ [المائدة:٥].

خَتَمَ اللهُ هذه الآية لينفيَ ما قد يتَوهَّمُهُ بعضُ المؤمنين أو أهلُ الكتاب من أن للكتابيات خصوصيةً في إباحة الزواج منهنَّ، فالكتابياتُ كافراتٌ مشركاتٌ، وعملهُنَّ في الآخرة باطلٌ، وهنَّ خاسراتٌ في يوم الدين، فالذي يتزوجُ منهن ينبغي أن يعلم ذلك ويعرفَهُ.

جنـــــة السـنـــــة

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - قاعدةُ الحلال والحرام في شَرْعنا أنَّ اللهَ -تعالى- أحلَّ لنا الطيبات، فما من طيِّب إلا وقد أحَلَّه، وما من خبيثٍ إلا وقد حرَّمه.

٢- لحم الخنزيرِ والميتةُ وكلُّ المحرمات من الأطعمة خبيثةٌ.

٣- يجوزُ أكْلُ ما اصْطَدْناه بوساطة الكلاب والعقاب ونحوها من الحيوانات والطيور المفترسة إذا كانت معلَّمة، وأمْسَكْن على أصحابِها، وذكر مُرْسِلوها اسمَ الله عليها عندَ إرسالها.

٤- أَحَلَّ اللهُ ذبائحَ أهل الكتاب من اليهود والنصارى، كما أحلَّ لنا أنْ نطعمهم من ذبائِحنا.

٥- يجوزُ للمؤمنِ أن يتزوجَ من الكتابية إذا كانت مؤمنةً بدينها، وكانتْ عفيفةً لا تتعاطى الزنا، وأعْطاها زوجُها مهرَها.

٦- لا يجوزُ الزواج من الكتابية إذا كانت ممن تتعاطى الزنا أو تستحلُّهُ.

٧- الزوجةُ الكتابيةُ لا يُخْرِجُها الزواجُ بها عن كونها كافرةً، وعملُها باطلٌ بسبب كُفْرِها، وهي في الآخرة من الخاسرين.

٨- إذا وجدْنا طعاماً أو شرابا جديداً، فعلينا أن نبحث في مكوناته وخصائصه، فإن كان طيباً فهو حلالٌ، وإن كان ضاراً فهو حرامٌ، مثل الدُّخانِ.

جنـــــة السـنة

النص القرآني الرابع من سورة المائدة
وجوبُ الوضوء لمن أرادَ الصلاةَ

أولاً: تقديمٌ

علمنا ربُّنا في آية هذا النص كيفَ نتوضأُ حين نُريدُ الصلاةَ إذا كنَّا محدثين، وأمرَنا بالغسل من الجنابة إذا حَضرتِ الصلاةُ، فإذا كُنَّا مرضى لا نستطيعُ استعمالَ الماء، أو لا نجدُ الماء، وجب علينا التيممُ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾ [المائدة:٦].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الأمرُ بالوضوءِ عند القيامِ إلى الصلاة:

نادى اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنين آمراً إياهم بالوضوء عند إرادتِهم القيامَ إلى الصلاة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ [المائدة:٦] وقد دلَّتْ السّنةُ النبويةُ على أنَّ الذي يجبُ عليه الوضوءُ عند إقامة الصلاة هو المُحْدِثُ، فأما غيرُ المحدثِ فلا يجب عليه الوضوءُ، بل يستحبُّ له، عن سليمانَ بن بُرَيْدَةَ عن أبيه أنَّ النبيَّ ﷺ صلَّى الصلواتِ يومَ الفتح بوضوءٍ واحدٍ، ومَسَحَ على خُفَّيْهِ، فقالَ له عُمَرُ: لقدْ صَنَعْتَ اليومَ شيئاً لم تكنْ تصْنَعُهُ، قال: «عَمْداً صَنَعْتُه يا عُمَرُ» [مسلم: ٢٧٧].

وعن أنس بن مالك قال: «كان النبي ﷺ يتوضَّأ عند كُلِّ صلاةٍ، قلتُ: كيفَ كنتم تصْنَعونَ؟ قال: يُجْزي أحدَنا الوضوءُ ما لم يُحْدِثْ» [البخاري: ٢١٤].

والوجهُ الذي أمَرَنا بغَسْلِهِ ما واجَهَ الناظرَ وقابَلَهُ، وحَدُّهُ من منابتِ شعرِ الرأسِ فوقَ الجبهة إلى آخرِ الذقْنِ طولاً، ومن الأُذنِ إلى الأُذنِ عَرْضاً.

جنـــــة الســــــنة

٢- وجوبُ غسل اليدين إلى المرفقين:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- بغَسْلِ اليدين إلى المرفقين بعد غَسْلِ الوجْهِ ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ وقوله: ﴿إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ أي: مع المرافق.

٣- وجوب مَسْحِ الرأسِ في الوضوء:

أمَرَ اللهُ المتوضئ أنْ يمسحَ برأسِه فقال: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ وقد ذهب طائفةٌ من أهل العلم إلى أنَّ الواجبَ مَسْحُ بعض الرأْسِ، والصوابُ أنَّ الواجبَ مَسْحُه كُلِّه، وقد نَقَل لنا الصحابةُ الذين وَصَفُوا لنا وضوءَ رسولِ الله ﷺ أنَّ الرسولَ ﷺ كانَ يمسحُ رأسَه كلَّه، ففي حديثِ عبدالله بن زيدٍ ثم مسح رأسَه بيديه، فأقبل بهما وأدْبَر، بدأ بمُقَدَّم رأسه حتى ذهب بهما إلى قَفاهُ، ثم رَدَّهُما إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غَسَلَ رجليه [البخاري: ١٨٥. ومسلم: ٢٣٥].

ويجوزُ مسحُ الناصية إذا كان لابساً عمامةً، ففي حديث المغيرة بن شعبة يصفُ وضوء رسولِ الله ﷺ: «فغَسَلَ ذِراعيْه، ومَسَحَ بناصيتِهِ، وعلى العمامةِ، وعلى خُفَّيْهِ» [مسلم: ٢٧٤].

٤- غَسْلُ الرجلين إلى الكعبين:

وأمَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- إذا نحنُ توضَّأْنا أنْ نغسِلَ أرْجلنا إلى الكعبين ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ وقد ذهب الشيعةُ إلى جواز مسحِ الرجلين، وهو قولٌ مردودٌ، دلَّتْ الأحاديثُ الصحيحةُ على بطلانِهِ، ومن الأحاديث الدالة على بطلانِهِ حديثُ عبدالله بن عمرٍو قال: «تخلَّفَ النبيُّ ﷺ عنَّا في سَفْرَة سافرْناها، فأدْرَكَنا وقد أرْهَقْنا العصرَ، فجعلنا نتوضأ ونمْسَحُ على أرْجُلنا، فنادى بأعلى صوته: «وَيْلٌ للأعقاب من النار». مرتين أو ثلاثاً» [البخاري: ١٦٣. ومسلم: ٢٤١].

وعن محمد بن زيادٍ قال: سمعتُ أبا هريرةَ، وكان يمرُّ بنا والناس يتوضَّؤُونَ من المِطْهَرَةِ، قال: أسْبِغوا الوضوءَ، فإن أبا القاسم ﷺ، قال: «ويلٌ للأعقابِ من النار» [البخاري: ١٦٥. ومسلم: ٢٤٢].

وعن جابر قال: أخبرني عمر بن الخطاب أنَّ رجُلاً توضَّأ، فترك موضعَ ظُفُر على قَدَمِهِ، فأبْصرهُ النبيُّ، فقال: «ارْجِعْ، فأحْسِنْ وُضُوءَكَ» فرَجَعَ، ثم صلَّى [مسلم: ٢٤٣].

ووجْهُ الدلالة من هذه الأحاديث أنه لو كان الواجبُ في الرجلين، هو مَسْحَهُما دونَ غَسْلِهما لما توعَّدَ الرسولُ ﷺ على تركِ بقعةٍ، لأنَّ المسحَ لا يستوعبُ جميعَ الرجل، بل يجري فيه ما يجري في مسحِ الخفِّ. والكعبانِ: هما العظمانِ الناتئان في جنبي الرجل.

جنـــــة السـنة

٥- وجوب اغتسال الجنب إذا حضرتِ الصلاةُ:

أوجب الله على من كان جنباً أن يغتسلَ إذا حضرتِ الصلاةُ: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ﴾ [المائدة:٦].

٦- إذا لم يجد من يريد الصلاة الماءَ أو لم يستطع استعمالَه وَجَبَ التيمم:

إذا كان الذي يريدُ الصلاة مريضاً أو مسافراً ولا ماءَ معه، أو كان مُحْدِثاً حدثاً أصغرَ، كالذي يخرجُ منه البول أو الغائط أو الريح، أو لامسَ زوجتَهُ، أي: عاشرها فعليه أن يتيمَّمَ صعيداً طيباً ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة:٦] وقد سَبَقَ أنْ بينتُ تفسير هذه الآية في سورة النساء، عند تفسير الآية الثالثة والأربعين، فهذه الآية كتلك، لم تزد عنها إلا حرف ﴿مِّنْهُ﴾ في آخرها.

سبب نزول هذه الآية:

عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: «خرجنا مع رسولِ الله ﷺ في بعض أسْفارِهِ، حتى إذا كنا بالبَيْداءِ، أو بذات الجيش، انقطَعَ عِقْد لي، فأقام رسولُ الله ﷺ على التماسِهِ، وأقام الناسُ معه، وليسوا على ماءٍ.

فأتى الناس إلى أبي بكر الصديق، فقالوا: ألا ترى ما صَنَعتْ عائشةُ؟ أقامت برسولِ الله ﷺ والناسِ، وليسوا على ماءٍ، وليس معهم ماءٌ، فجاءَ أبو بكر، ورسولُ الله ﷺ واضعٌ رأسَه على فخذي قد نامَ، فقال: حَبَسْت رسولَ الله ﷺ والناسَ، وليسوا على ماء، وليس معهم ماءٌ.

فقالت عائشة: فعاتبني أبو بكر، وقال ما شاء اللهُ أن يقولَ، وجعلَ يطعنُني بيده في خاصرَتي، فلا يمنعني من التحرُّك إلا مكانُ رسولِ الله ﷺ على فخذي، فقام رسولُ الله ﷺ حين أصبحَ على غير ماءٍ، فأنزلَ اللهُ آيةَ التيمُّم فتيمَّموا، فقال أُسَيْدُ بنُ الحُضَيْرِ: ما هي بأوَّل برَكَتِكُمْ يا آلَ أبي بكر، قالت: فبعثنا البعيرَ الذي كنتُ عليه، فأصَبْنا العِقْدَ تحتَهُ» [البخاري: ٣٣٤. مسلم: ٣٦٧].

٧- توسعةُ الله تعالى على هذه الأمة فيما شرع لها:

سَهَّلَ اللهُ -تبارك وتعالى- ويسَّرَ فيما شَرَعَهُ لنا، إذ أباحَ لنا التيمم عند المرض أو عند فقدِ الماء، توسعةً ورحمةً بنا ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:٦] والحرجُ: الضيقُ، والحَرْجَة: الشجرُ الملتفُّ المتضايقُ.

جنـــــة السـنــــة

وقوله: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ أي: من الأحداث والجنابات والذنوب، وقوله: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ أي: بما شَرَعَه اللهُ تبارك وتعالى من أحكامِ الوضوءِ والتيمم.

٨- **الحثّ على الدعاء عقبَ الوضوء:**

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾ [المائدة:٦] أي لعلكم تشركونَ نعمةَ الله عليكم فيما شَرَعَه لكم من التوسعة والرأفة والرحمة، وقد جاءت الأحاديث مرغبةً في الدعاء عقبَ الوضوء، فعن عقبة بن عامر، قال: كانت علينا رعايةُ الإبل، فجاءت نوْبَتي، فروَّحْتُها بعشيٍّ، فأدركتُ رسولَ الله ﷺ قائماً يُحدِّثُ الناسَ، فأدركتُ من قوله: «ما من مسلم يتوضأ فيُحسنُ وُضُوءَه، ثم يقومُ فيُصلّي ركعتين، مقبلٌ عليهما بقلبه ووجهه، إلا وجبت له الجَنة».

قال: فقلتُ: ما أجودَ هذه! فإذا قائلٌ بين يدي يقول: التي قبلها أجودُ. فنظرتُ فإذا عمرُ، قال: إني قد رأيتُكَ جئتَ آنفاً، قال: «ما منكم من أحد يتوضأ فيُبلِغُ (أو فيُسْبغُ) الوَضوءَ ثم يقولُ: أشهدُ أن لا إله إلا اللهُ، وأن محمداً عبدُ الله ورسولُه، إلا فُتحت له أبوابُ الجنة الثمانيةُ، يدخلُ من أيِّها شاء» [مسلم: ٢٣٤].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- إذا أرادَ المؤمنُ الذي أصابَهُ حَدَثٌ أن يُصَلِّيَ وَجَبَ عليه أن يتوضأ.

٢- علَّمنا ربُّنا صفةَ الوُضُوءِ الذي يجب علينا إذا أردْنا الصلاة وكنا محدثينَ أن نفعله فقد أمرنا بغسل وجوهنا، وغسل أيدينا إلى المرافق، ومسح رؤوسنا، وغسْل أرجلنا إلى الكعبين وهذه الأربعُ داخلةٌ في فروض الوضوء.

٣- الصوابُ من القول أنه يجب الوضوء لمن أرادَ الصلاة إذا كان مُحْدِثاً، ويستحبُّ له الوضوءُ إن كان على طهارةٍ.

٤- يظنُّ كثيرٌ ممن ينسبُ إلى الإسلام أن من الفضائل أن يصلي أكثر من صلاة بوضوءٍ واحد، ويقولون: فلانٌ يصلي الفجر بوضوء العشاء، والصحيح أنه يستحبُّ الوضوءُ لكلِّ صلاةٍ.

٥- الصواب من القول أنه يجبُ الوُضُوءُ على الصفة التي ذكرتها الآيةُ، فالآيةُ ذكرتها مرتبةً، ولم يُؤْثَرْ عن الرسولِ ﷺ ولا أحدٍ من أصحابِهِ أنه خالفَ هذا الترتيب.

جنـــة الســــنة

٦- الصوابُ من القول أنَّ المرافقَ داخلةٌ في الأيدي التي يجبُ غسْلُها، والكعبان داخلان في الأرجل التي أمرَ اللهُ بغسْلها.

٧- يجبُ على الجنب أنْ يغتسلَ إذا حَضَرَتْهُ الصلاةُ.

٨- المريضُ الذي لا يستطيعُ استعمالَ الماءِ، وكذلك الذي فقدَ الماءَ يجبُ عليهما التيممُ للصلاةِ.

٩- التيممُ يكونُ بضربِ المتيمم يديه بالترابِ الطاهر، ثم يمسحُ بهما وجْهَهُ وكفَّيهِ، كما سبقَ بيانه.

١٠- يُستحبُّ الدعاءُ عقبَ الوضوءِ بالدعاء المأثورِ الذي سبقَ ذكره في شرح الآيات.

١١- الوُضُوءُ ومثْلُه التيمم كلاهما عبادَةٌ، وكلُّ عبادةٍ لا بد لها من النيَّة، لقوله ﷺ: «إنما الأعمالُ بالنياتِ».

١٢- يستحبُّ لمن أرادَ وضوءاً أن يغسلَ كفيه قبل أن يُدْخِلهما في الإناء، ويتأكدُ ذلك عند القيام من نوم الليل، فعن أبي هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا استيقظ أحدُكم من نومه، فليغسِلْ يدهُ قبل أن يُدْخِلها في وضوئه، فإن أحدَكُم لا يدري أين باتت يدُهُ» [البخاري: ١٦٢. ومسلم: ٢٣٧].

١٣- الصوابُ من القول أن الفم والأنف من الوجه، ولذلك يجب على المتوضئ أن يتمضمض ويستنشق ويستنثر، ويدلُّ لصحة هذا القول أنه لم يُؤْثر عن الرسول ﷺ أنه ترك واحداً منها، وصحَّ عنه أنه أمر بها، ففي حديث عثمان الذي توضأ فيه وضوءَ الرسول ﷺ «فمَضْمَضَ واسْتَنْشَق» [البخاري :١٥٩. ومسلم: ٢٢٦]. وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من توضَّأ فليستنثر» [البخاري: ١٦١. ومسلم: ٢٣٧].

١٤- الصوابُ من القول أنه يجبُ أن يعُمَّ المتوضئُ رأسَهُ كلَّه بالمسح، وقد صحَّ أنَّ الرسولَ ﷺ كان يفعلُ ذلك، إلا إذا كان لابساً عمامةً، فيمسَحُ على مقدمةِ الرأس، ويتمُّ المسحَ على العمامة.

١٥- إذا كان المتوضئُ لابساً خُفّاً أو نعلين على طهارةٍ، فيجوزُ له أن يمسحَ على خُفَّيْه أو نَعْليه يوماً وليلةً في الحضرِ، وثلاثةَ أيام بلياليها في السفر.

١٦- الوضوءُ فيه أجر عظيم، وثوابٌ كثيرٌ، فمن ذلك أنَّ عمرَو بن عبسة السُّلَمي، قال: قلت: يا نبيَّ الله! فالوُضُوءَ؟ حدِّثني عنه. قال: «ما منكم رجلٌ يُقرِّبُ وَضُوءَهُ

جنـــــة السـنـــــة

فيتمضمضُ ويستنشقُ فينتثرُ، إلا خرَّتْ خطايا وجهه وفيه وخياشيمه، ثم إذا غسل وجهه كما أمره اللهُ إلا خرَّت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثم يغسلُ يديه على المرفقين إلا خرَّت خطايا يديه من أنامله مع الماء، ثم يمسحُ رأسه إلا خرَّت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء، ثم يغسلُ قدميه إلى الكعبين إلا خرَّت خطايا رجليه من أنامله مع الماء، فإن هو قام فصلَّى، فحَمِدَ الله وأثنى عليه، ومجَّدَهُ بالذي هو له أهْلٌ، وفرَّغَ قلبه لله، إلا انصرفَ من خطيئتِهِ كهيئته يومَ ولدته أمُّهُ» [مسلم: ٨٣١].

١٧- **صفةُ وضوء رسولِ الله ﷺ**: ذكر لنا أكثر من صحابي صفة وضوء رسولِ الله ﷺ، قال البخاريُّ حدَّثنا عبدالله بن يوسفَ قال: أخبرنا مالِكٌ، عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه: أن رجلاً قال لعبدالله بن زيدٍ، وهو جدُّ عمرو بن يحيى: أتستطيعُ أن تُريني كيف كان رسولُ الله ﷺ يتوضأ؟ فقال عبدالله بن زيد: «نعم، فدعا بماء، فأفرغَ على يديه فغسل مرتين، ثم مضمض واستنثر ثلاثاً، ثم غسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يديه مرتين مرتين إلى المرفقين، ثم مسح رأسه بيديه، فأقبل بهما وأدبر، بدأ بمُقدَّم رأسه حتى ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردَّهما إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غسل رجليه» [البخاري:١٨٥. ومسلم: ٢٣٥].

وعن حُمْرانَ مولَى عثمان أنه رأى عثمان بن عفان: دعا بإناء، فأفرغ على كفَّيه ثلاثَ مِرار فغسلهما، ثم أدخل يمينه في الإناء، فمضمض واستنشق، ثم غسل وجهه ثلاثاً، ويديه إلى المرفقين ثلاث مرار، ثم مسح برأسه، ثم غسل رجليه ثلاث مرار إلى الكعبين، ثم قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من توضأ نحو وُضُوئي هذا، ثم صلَّى ركعتين لا يُحدِّثُ فيهما نفسَه، غُفِرَ له ما تقدَّمَ من ذنْبِهِ» [البخاري: ١٥٩. ومسلم: ٢٢٦].

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني الخامس من سورة المائدة

﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾

أولاً: تقديم

أمَرَنا اللهُ -تبارك وتعالى- بذكر نِعَمِه علينا، والالتزام بما أخذه علينا من مواثيق، وأمر بالعدل والإنصاف في الحكم والشهادة، لا فرق في ذلك بين الأعداء والأولياء، ووعد المؤمنين بجنات النعيم، وأوْعَد الكفارَ النار، وأخبرنا أننا إن حَفِظْنا دينه وشَرْعَه حفظنا وحمانا من خُصومنا وأعدائنا.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [المائدة:٧-١١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير هذه الآيات من القرآن

١- أمرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بذكر نعمته علينا وميثاقِهِ الذي واثَقَنا به:

أمرنا ربُّنا -عز وجل- أنْ نذكُر نِعَمَهُ التي أنعمَ به علينا، وميثاقَه الذي واثقنا به، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ [المائدة:٧].

ونِعَمُ الله التي أنْعم بها علينا كثيرةٌ، فأعلاها إنزالُهُ القرآنَ علينا، وإرسالُ رسوله الخاتم ﷺ فينا، ومن نِعَمه العظيمة الدينُ الذي جاءَنا به رسولُنا ﷺ مِنْ عند الله، ونعمُ الله لا تعدُّ ولا تحصى ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [النحل:١٨].

جنـــة السـنـــة

وأمرنا -تبارك وتعالى- أن نكونَ على ذِكْرٍ من المواثيق التي أُخذتْ علينا وعلى السابقين منا، ويدخلُ في المواثيقِ التي أمرَنا اللهُ بذكرها كلُّ ما أمرنا اللهُ به أو نهانا عنه، وقلنا فيه لربِّنا: سمعنا وأطعنا، ومن ذلك ما رواه عبادةُ بن الصامت، قال: فقال فيما أَخَذَ علينا: أن بايَعَنا على السمعِ والطاعة، في مَنْشَطِنا ومَكْرَهِنا، وعُسْرِنا ويُسْرِنا وأثَرَةٍ علينا، وأن لا نُنازِعَ الأمرَ أهْلَهُ: «إلا أن تروْا كُفْراً بَواحاً، عِنْدَكُمْ من الله فيه بُرْهانٌ» [البخاري: ٧٠٥٥، ٧٠٥٦. ومسلم: ١٧٠٩].

وروى عبادةُ بن الصامت أيضاً وكان شَهِدَ بدراً، وهو أحد النُّقَباء ليلةَ العقبة: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال، وحوْلَهُ عِصابةٌ من أصحابِهِ: «بايِعُوني على أن لا تُشْرِكوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببُهْتان تفْتَرونَه بين أيديكم وأرجُلِكُمْ، ولا تعصُوا في معروف، فمن وَفَى منكم فأجرُهُ على الله، ومن أصابَ من ذلك شيئاً فعُوقِبَ في الدنيا فهو كفَّارَةٌ له، ومن أصابَ من ذلك شيئاً ثم سَتَرَهُ اللهُ فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه وإن شاءَ عاقبَهُ». فبايعْناهُ على ذلك [البخاري: ١٨. ومسلم: ١٧٠٩].

وختَمَ ربُّ العزَّةِ الآية بقوله سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾ [المائدة:٧] أمَرَنا ربنا في خاتمة الآية بتقواه، وحذَّرنا بأنه عالِمٌ بما في قلوبنا، ومحلُّ التقوى القلبُ، كما أخبرنا رسولُنا ﷺ، فهو عالِمٌ بمنْ حلَّت التقوى في قَلْبِهِ، ومَلَكَتْ عليه نفْسَهُ، وهو عالمٌ بمن كانت تقواه شِقْشِقَةَ لسانٍ، ودعوى ليس لها مضمونٌ، والله المستعان.

٢- أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنين أنْ يكونوا قوامين لله شهداءَ بالقسط:

نادى ربُّ العِزَّة عبادَه المؤمنين آمراً إياهم أنْ يقوموا لله، وأن يشهدوا بالقِسْطِ، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [المائدة:٨] وقوَّامُ: صيغةُ مبالغة تدلُّ على الإكثار من القيام، وقد أمَرَ سبحانه بأنْ يكونَ القيامُ لله، ولا يكونَ للعبادِ، أي: لا يكونُ رياءً وسمعةً، فيشهدُ بالعدلِ، يطلب رضوانَ الله، ويحكمُ بالعدل يريدُ رضوانَ الله تعالى. و﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ أي: العدلُ.

ويجبُ على المؤمن أن يقومَ لله، ويشهدَ بالقسط، أي: بالعدل حتى مع الأعداء، ولذلك قال ربُّ العزة: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة:٨]، ومعنى ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾ أي: لا يحملنكم بغض قوم على تركِ العدل وكتم الشهادة، فالمؤمنُ يقومُ لله، ويحكمُ بالعدلِ ويشهدُ به، ولو كان الشخْصُ يهودياً أو نصرانياً أو بوذياً، وقد بلغ المسلمون القمةَ في إجراءِ العدل في محاكمهم ودور القضاء.

جنـــــة السـ ــــنة

وقوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أمرنا سبحانه بالعدل، وأخبرنا أنَّ الذين يقيمونَ العدل أقربُ لتقوى الله وطاعَتِهِ، ومن كان ظالماً في حُكْمِهِ وشهادتِهِ، كان قريباً إلى الجور ومعصية الله.

وختمَ ربُّ العزة الآيةَ بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة:٨] أي: اتقوا اللهَ عز وجل وخافوه، في الشهادة على عبادِ الله، واللهُ خبيرٌ بما تعملون، وسيجازيكم على جَوْرِكُم وظلمكم يوم الدين.

٣- جزاءُ المؤمنين وجزاءُ الكافرين في يوم الدين

بيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- جزاءَ المؤمنين وجزاء الكافرين في يوم الدين، فقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾ [المائدة:٩-١٠].

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه وَعَدَ المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالمغفرة لذنوبهم وخطاياهُم وبالأجر العظيم. ويكونُ الأجرُ العظيم بإدخالهم في جنات النعيم في يوم الدين.

أما الذين كفروا بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، والذين عبدوا مع الله آلهةً أخرى، وكذبوا بآيات الله فإنَّ مصيرهم إلى النارِ، يلازمونها، وتلازمهم، بحيث يصبحون أصحابَ الجحيم، والجحيمُ: النارُ.

٤- أمَرَ الله تعالى المؤمنين أنْ يذكروا نعمته عليهم في تخليصِهِمْ من شرِّ الكفارِ وعدوانهم:

نادى اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنين آمراً إياهم أنْ يذكروا نعمةَ الله عليهم، إذْ حفظهم ونجَّاهم من الأعداءِ الذين أرادوا السوءَ بهم، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [المائدة:١١].

وقد حفظتْ لنا كتبُ السنّة النبوية كيف هَمَّ كثيرٌ من المشركين واليهود بالفتك بالرسول ﷺ وأصحابه، فمن ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، أخبره: أنه غزا مع رسول الله ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ فلما قَفَلَ رسولُ الله ﷺ قَفَلَ معه، فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العِضاه، فنزل رسولُ الله ﷺ وتفرَّقَ الناس في العِضاهِ يستظلُّون بالشجر،

جنـــة السـنـــة

ونزل رسولُ الله ﷺ تحت سَمُرَة، فعلَّقَ بها سيفَه. قال جابرٌ: فنمْنا نومة، ثم إذا رسولُ الله ﷺ يدعونا فجئناه، فإذا عنده أعرابيٌّ جالسٌ، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ هذا اختَرطَ سيفي وأنا نائمٌ فاستيقظتُ وهو في يده صَلْتاً، فقال لي: مَن يمْنَعُكَ مني؟ قلتُ: اللهُ، فها هو ذا جالسٌ» ثم لم يعاقبه رسولُ الله ﷺ [البخاري: ٤١٣٥. ومسلم: ٨٤٣] واسم الأعرابي الذي وقعتْ له هذه الواقعة: غَوْرَثُ بنُ الحارث [البخاري: ٤١٣٦].

وقد حاولَ اليهودُ في المدينة وفي خيبرَ أن يفتِكوا برسولنا ﷺ أكثر من مرةٍ، فكان اللهُ ينجيه من كيدِهِمْ، وحاولَ مثلَ ذلك المنافقون فلم يُمكِّنْهُمُ اللهُ منه والمرادُ ببسط أيديهم أيْ بالقتلِ والجرح والسُّمِّ، وكفّ الله أيديهم عنهم، أي: بحفظ الله رسولَه ﷺ وأصحابَه، وأمَرَ اللهُ المؤمنين بتقواه، وأمَرَهُمْ بالتوكل عليه سبحانه، فالمتوكلُ على الله سبحانه يحصلُ له بتوكُّله جَلْبُ الخيرات، ودفعُ المضَرَّات، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ﴾ [الطلاق: ٢-٣] والحسبُ الكافي.

رابعاً: ما تهدينا إليه الآيات من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أمرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بذكر نعمه علينا، فذِكْرُ النِّعمِ يغري العبادَ بشكره وعبادَتِه.

٢- أمرنا اللهُ -تبارك وتعالى أن نذكر ميثاق الله الذي أخذه علينا، وكلُّ ما فَرَضَه اللهُ علينا، وقبلناه، فهو داخلٌ في الميثاق.

٣- يجب على المؤمن أن يكونَ قائماً بالعدلِ في القضاء والشهادة، وأن يفعل ذلك ابتغاءَ مرضاةِ الله.

٤- أوْجَبَ اللهُ علينا أن نحْكُم بالعدل، وأنْ نقيمَ الشهادة بالقسطِ، فهذا واجبٌ حتى مع الخصم، وإذا كانَ العدلُ واجباً مع الخصم، فإنه أعظمُ وجوباً مع أهل الإسلام.

٥- اللهُ يحكمُ بين العبادِ في يومِ المعاد فيجزي المحسنين جناتِ النعيم، ويدخلُ الكفار النار.

٦- إذا أحسن المؤمنون التوكلَ على الله، فإن الله يكفُّ عنهم بأسَ عَدُوِّهم.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني السادس من سورة المائدة
الميثاقُ الذي أخذه اللهُ على بني إسرائيلَ ونقضهم له

أولاً: تقديم

بعد أنْ أمَرَ اللهُ المؤمنين بإقامةِ ما أخَذَهُ اللهُ عليهم من عهدٍ وميثاقٍ، أطْلعنا على الميثاقِ الذي أخَذَهُ على بني إسرائيل، وكيف نقضوه، فلعنهم اللهُ -تعالى- من جراء ذلك، وخَبَّثَ نفوسَهم وأعمالهم، ومن ظُلْمِهم كُفْرهم بالرسول الذي أُمروا بالإيمان به واتباعه، وفي هذا تهديدٌ ووعيدٌ للمؤمنين كيلا يفعلَ بهم مثل فِعْلِه ببني إسرائيلَ، إنْ هم نقضوا عهودَهُم مع ربهم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [المائدة:١٢-١٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أخْذُ الله تعالى ميثاقَ بني إسرائيل:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه أخَذَ ميثاقَ بني إسرائيل، وبعثَ فيهم اثني عشرَ نقيباً، والنقيبُ كما يقول الأصفهانيُّ: «الباحثُ عن القوم وعن أحوالهم» [المفردات: ٥٠٣].

وأصلُ النَّقْبِ: الطريقُ في الجبل، هذا أصْلُه، وسمي به نقيبُ القومِ، لأنه طريقٌ إلى معرفةِ أمورِهم، والنقيبُ أعْلى مكاناً من العريفِ.

وكان عددُ النقباء على عدد أسباط بني إسرائيل الاثني عشر، أخَذَ من كلِّ سبطٍ نقيباً، وقال اللهُ -تعالى- عند أخذِه الميثاقَ من بني إسرائيل: ﴿إِنِّى مَعَكُمْ﴾ أي: مؤيِّدُكم وناصِرُكُم ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ ﴾ [المائدة:١٢].

جنـــــة الســـــنة

وأعْلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بالعهد الذي أخَذَه عليهم، وهو يَضُمُّ خمسةَ أمور، ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة:١٢] الأول: إقامةُ الصلاة وتكون بالإتيان بها وِفْقَ ما شَرَعَه الله عليهم بشروطها وفرائضها في أوقاتها. والثاني: إخراجُ المقدار الذي أوْجَبَ اللهُ على الأغنياء إخراجه من أموالهم. والثالثُ: الإيمان بالرسل الذين أرْسَلهم ربُّ العزة إليهم، والرابع: تعزيرُهُم، أي تعظيمهم، وتوقيرهم، ونصْرُهم، والخامس: إقراضُ الله قرضاً حسناً وذلك بإخراج بعض من أموالهم في مجالات الخير التي حدَّدها ربُّ العزة.

٢- جزاءُ الذين وفوا بميثاق الله تعالى والذين كفروا به:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه عرَّف بني إسرائيل بأن الذين يفون بما أخذ عليهم من الميثاق، سيُكفِّر عنهم سيئاتهم، والسيئات: المعاصي والذنوبُ، وسيدخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، ومن كفر بعد ذلك منهم، فقد ضلَّ وحادَ عن سواء السبيل، أي: عن الطريق المستقيم ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة:١٢].

٣- ذمَّ اللهُ بني إسرائيل بسبب نَقْضِهم عهودَهُم مع ربِّهم:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- في الآيات السابقة المؤمنين من هذه الأمة بأن يفوا بعهودِهِم مع ربهم، وحدَّثنا في هذه الآية بالجزاء الرهيب الذي أحلَّه بالذين نَقَضوا عهودَهم مع ربِّهم من بني إسرائيل، ليكون موعظةً للمؤمنين من هذه الأمة.

وقوله تعالى ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾ [المائدة:١٣] أي: فبسبب نقضِهم ميثاقهم الذي أخذه عليهم ربُّهم لعنهم اللهُ تعالى، أي: طَرَدهم من رحمتِهِ وجنتِهِ وجعل قلوبَهم قاسيةً، والقسوةُ: الشدِّةُ والصلابةُ، والقلبُ القاسي: الذي لا يقبلُ الحق، ولا يلينُ إذا سَمِعَ آيات الله تُتْلى عليه، وقد حدَّثنا اللهُ تبارك وتعالى عن شدة وقسوة قلوبهم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٧٤].

وأخبرنا ربُّنا أن بني إسرائيل الذين أخذ عليهم الميثاق ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة:١٣].

وتحريفُهم الكلمَ عن مواضعه وقع عندما غيَّروا نصوص التوراة، وغيروا معانيها وأحْكامَها، وقولُه: ﴿وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ أي: تركوا العمل بما أَلْزمهم اللهُ به من الشرائع، فكانَ كثيرٌ منهم لا يقيمُ الصلاةَ، ولا يؤْتي الزكاة، ولا يوقِّر رسل الله، ولا ينصرهم، وامتدَّ بهم الحالُ حتى بُعِثَ رسولُنا محمدٌ ﷺ . وكانوا أُمِرُوا في التوراة والإنجيل بالإيمان به، فكفروا به، وحاولوا قَتْلَه، وخانوا عهودَهم التي أخذها الله عليهم فيه، ولم يزل رسولُنا ﷺ يطَّلع على خائنةٍ منهم، فلم يفِ له إلا القليلُ منهم، وقد أمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ في وقت نزولِ هذه الآيات بأن يعفو عنهم، ويصفحَ عن جرائمهم وزلاّتِهِمْ، وختمَ الآيةَ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ .

ثم نسخ هذا الحكم، وأمرَ الله رسولَه ﷺ بقتالِهِمْ، فقاتلهم في المدينة وخيبرَ، فقتلَ فريقاً منهم، وفريقاً أَخْرجهم من جزيرةِ العربِ.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أخَذَ اللهُ على بني إسرائيلَ أنْ يقيموا الصلاةَ ويؤتوا الزكاةَ ويؤمنوا بالرسل.

٢- وَعَدَ اللهُ بني إسرائيلَ إن هم أقاموا الميثاقَ أن يُعِزَّهُمْ ويَنْصُرَهُم في الدنيا، ويدخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار في الآخرةِ، ومن كفر بما أُخِذَ عليهم فقد ضلَّ سواءَ السبيل في الدنيا والآخرة.

٣- أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ بني إسرائيل نقضوا ميثاقَهُمْ مع ربهم -تبارك وتعالى- فطَرَدَهُمْ من رحمته، وحَرَمَهُمْ من جنتِهِ، وجعل قلوبهم قاسيةً فلا تتأثرُ بما يَعِظُهُمْ به، ووصل بهم الحال إلى تحريف التوراةِ، وتركِ الأحكامِ التي أمرهم بها.

٤- كفر بنو إسرائيلَ برسولنا محمد ﷺ وقد أُمِروا في التوراة والإنجيل بالإيمان به واتِّباعه، وكان رسولُ الله ﷺ يكتشفُ دائماً ما يُدَبِّرونَه من خيانةٍ له ولأصحابِهِ، ولم يَخْلُصْ منهم من الخيانة إلا طائفة قليلة.

٥- أمر الله رسولَه ﷺ أن يَعْفُوَ عن بني إسرائيل في أول الأمر، ويصْفَح عنهم، ثم أُمِرَ بعد ذلك بحربهم وقتالِهِمْ، فقتلَ طائفةً منهم، وأخرج أخرى من جزيرة العرب.

جنـــة السـ‍ــــنة

النص القرآني السابع من سورة المائدة
نقض النصارى عهودَهم مع ربِّهم

أولاً: تقديم

أخبرنا ربنا تبارك وتعالى أنه أخَذَ ميثاقَه على المؤمنين من هذه الأمة، وعلى اليهود من قبلنا، وأخبرنا في هذه الآيات أنه أخذ الميثاقَ أيضاً على النصارى، فنقضوا عهدَهُم مع الله كما فعلَ اليهودُ، وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ رسولَنا ﷺ بيَّن لليهود والنصارى كثيراً مما كان يُخْفيهِ أحبارُهم ورهبانُهم مما أنزلَه اللهُ عليهم في كتبهم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة:١٤-١٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- نقضُ النصارى عُهودَهم مع ربهم تبارك وتعالى:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه أخذ من الذين سموا أنفسهم بالنصارى ميثاقَهمْ، والميثاق الذي أخَذَهُ عليهم أن يعبدوه وحده لا شريك له، ومتابعةُ نبيِّه محمدٍ ﷺ عندما يُبْعَث ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ﴾ [المائدة:١٤].

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنهم ﴿فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة:١٤] أي: تركوا ما عَهِدَ اللهُ به إليهم، فقد تركوا التوحيد، وألَّهوا عيسى، وكذَّبوا محمداً ﷺ، فأغرى اللهُ بينهم العداوةَ والبغضاءَ إلى يوم القيامة، أي: أوْقَعَها فيما بينهم، ولذا اختلفوا، وتفرَّقُوا، ووقع

جنـــــة الســــــنة

بينهم العداوةُ والبغضاءُ، وقامتِ الحروبُ فيما بينهم ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [المائدة:١٤]. وأخبرنا ربُّنا أنه سيفْصِل بينهم يومَ القيامة، ويُقرِّر الحق الذي كانوا يختلفون فيه ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المائدة:١٤]، ومعنى: ﴿يُنَبِّئُهُمُ﴾ أي: يُخْبِرُهم، فإذا أنبأهم حاسَبَهم.

٢- بيَّنَ رسولُنا ﷺ لأهل الكتاب كثيراً مما كانوا يخفونَه من كتابهم:

نادى اللهُ -تعالى- أهْلَ الكتاب من اليهود والنصارى مخبراً إياهم أن رسولَه الخاتِمَ محمداً ﷺ جاءَهم ليبين لهم كثيراً مما أخْفوه من كتابهم، أرادَ به ما أخفوه من التوراة والإنجيل، وترك اللهُ بعض الذي أخْفوْه فلم يُبيِّنْه ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [المائدة:١٥]. ومما أخْفَوْه وبيَّنَه رسولُنا ﷺ حُكْمُ الزانية والزاني وأنه الرجمُ، ومما حرَّمه اللهُ على بني إسرائيلَ من قبل أن تنزل التوراة وما حوَتْهُ كُتُبُهم من الأخبار عن محمدٍ ﷺ وبعْثَتِهِ ومبْعَثِهِ ومهاجَره وكتابِهِ وأمَّتِهِ وغير ذلك ويدلُّ على أنه لم يبين كل ما أخفوه قولُه: ﴿كَثِيرًا﴾ فلو كان بيَّنَهُ كلَّه لقالَ: يبيِّن لكم ما تخفون، ويدلُّ لذلك قولُه: ﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾. وختم اللهُ تعالى الآيةَ بقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة:١٥] والنورُ الذي جاءَنا من عندِ الله هو محمدٌ ﷺ، والكتابُ القرآنُ الكريمُ.

٣- هدايةُ الله تعالى بالنور والكتاب المنير من اتَّبعَ رضوانَه سبلَ السلام:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنّه يهدي بالنور الذي جاءَنا من عندِهِ وهو نورُ نبيِّه محمدٍ ﷺ ونورُ الكتابِ المبين، وهو القرآنُ الكريمُ - يهدي الذينَ اتبعوا رضوانَ الله تعالى سبلَ السلامِ، وهو الدينُ الإسلاميُّ الحنيفُ، الذي يجلب السلامَ للفرد والأسرةِ والمجتمعِ والعالمِ كله، ويُخرِجُ الناسَ من ظلماتِ الشركِ والباطلِ والذنوبِ والمعاصي إلى النور، والمرادُ به التوحيدُ، والأعمالُ الصالحةُ ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [المائدة:١٦].

وخَتَمَ اللهُ تعالى الآية بقوله: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة:١٦] والصراطُ المستقيمُ الذي يهدينا الله تعالى إليه الدينُ الإسلاميُّ الحنيفُ.

جنـــــة السـنـــة

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا أمعنا النظر في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - أَخَذَ اللهُ من النصارى ميثاقَهم كما أخذَه من مؤمني هذه الأمة ومن بني إسرائيل، وأعظمُ ما أَخَذَه عليهم التوحيدُ، فجعلوا أصْل دينهم الشرك، وادَّعوا أنَّ عيسى ابنُ الله، تعالى اللهُ عما يقولونَه علوّاً كبيراً.

٢ - يزعمُ النصارى اليومَ أنهم أنصارُ دينِ الله تعالى، ولقد كذبوا فيما ادَّعَوْه.

٣- تَرَكَ النصارى كثيراً من الشرائع التي أَنْزَلَها إليهم، فألقى اللهُ بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة.

٤ - في يوم القيامة يحْكم الله بين الناس فيما كانوا يتنازعون فيه في الدنيا.

٥ - يدُلُّ على صحة رسالةِ رسولنا ﷺ وهو الرسولُ النبيُّ الأميّ لليهود والنصارى ما أَخْفَوْهُ من الكتاب الذي أنزله الله إليهم.

٦ - أرسل الله إلينا رسولَه ﷺ نوراً مبيناً، وأنزلَ إلينا قرآناً كريماً، ليهديَ الناسَ الذين اتَّبَعُوا رضوانَهُ إلى الدين القويم، ويخرجَهُمْ من الظلمات إلى النور.

٧- رسولُنا ﷺ مُرْسَلٌ إلى الناس كافةً، وفيهم اليهودُ والنصارى، وقد أَمَرَتْهُمْ كُتُبُهمْ المنزلة من قبل بمتابعَتِهِ.

جنـــة السـنـــة

النص القرآني الثامن من سورة المائدة
حكم الله -تبارك وتعالى- بكفر الذين زعموا أن الله هو المسيح ابن مريم

أولاً: تقديم

ردَّ اللهُ على النصارى الذين زعموا كاذبين أنَّ عيسى ابنَ مريمَ هو اللهُ، وردَّ على اليهودِ والنصارى الذين زَعَموا أنَّهم أبناءُ الله وأحباؤه، وأرسل اللهُ رسوله محمداً ﷺ ليقيم الحُجَّةَ على اليهود والنصارى وبقية البشر إلى يوم الدين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [المائدة:١٧-١٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- كفر الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابنُ مريم:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الذين زعموا أنَّ اللهَ هو المسيح ابنَ مريمُ كفارٌ ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ ﴾ [المائدة:١٧]. وقد ردَّ اللهُ -تبارك وتعالى- عليهم ما ادَّعوه وافْتَروهُ، فالمسيح ابنُ مريمَ عبدٌ مخلوقٌ مربوبٌ ضعيفٌ، لو شاء ربُّ العزة -سبحانه- أنْ يُهْلِكَ المسيحَ ابنَ مريمَ وجميعَ من في الأرض لفعلَ، والذي لا يستطيعُ أن يدفع الهلاك عن نفسه لا يصلح أن يكون إلهاً ومعبوداً ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ ﴾ [المائدة:١٧].

جنـــــة السـنـــــة

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن لَهُ ملكَ السمواتِ والأرض وما بينهما، يخلقُ ما يشاءُ، وكلُّ ما يزعمُ البَشَرُ أنه آلهة من دون الله، هو جزءٌ من السموات والأرض أو هو جزءٌ مما بين السماوات والأرض، فمن ذلك تلك الآلهةُ المزعومةُ المخلوقة المربوبةُ كعيسى والعزير والشمس والقمر والنجوم والجبال وغير ذلك ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ [المائدة:١٧] فالله هو الخالقُ لهذه الآلهة المزعومة المربوبة، وهو القادرُ على الذهاب بها وتدميرها وإزالتها، وختمَ اللهُ تعالى هذه الآية بقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٧﴾ [المائدة:١٧] فلا يُعْجِزُه شيءٌ في الأرضِ ولا في السماء سبحانه.

٢- دعوى اليهود والنصارى أنهم أبناءُ الله وأحباؤُه:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ اليهودَ والنصارى زَعَموا كاذبين مُفْتَرين أنَّ لهم مكانةً عظيمةً عند الله، فهم أبناءُ الله وأحباؤه ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ [المائدة:١٨].

وقد أكذبهم ربُّنا -تبارك وتعالى- في دعواهم، والدليلُ على كذبهم فيما افْتَروهُ وزعَموهُ أنه يُعَذِّبهم بذنوبهم كما يُعَذِّب غيرهم من البشر، والقاعدةُ التي يُجريها اللهُ على البشر كلهم أنه يغفرُ لمن يشاءُ، ويعذِّبُ من يشاءُ: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ [المائدة:١٨] وختَمَ اللهُ -تبارك وتعالى- الآية بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝١٨﴾ [المائدة:١٨] وهؤلاء الذين ادَّعوا أنهم أبناءُ الله تعالى هم جزءٌ من خلق الله في أرض الله، وهم صائرون إلى الله تعالى، فيجزيهم بما قدَّموا، حالُهم حالُ غيرهم من البشر.

٣- محمد ﷺ مرسلٌ إلى اليهود والنصارى كما هو مرسلٌ إلى غيرهم:

نادى اللهُ اليهودَ والنصارى مخبراً إياهم أنَّ خاتمَ رُسُلِهِ وأنبيائه مرسلٌ إليهم بعد فترةٍ زمنية انقطع فيها الوحيُ، حتى يقيمَ الحجةَ على العباد، فلا يدَّعي مدعٍ، ولا يقولُ قائلٌ: ما جاءَنا من بشيرٍ ولا نذيرٍ، فقد جاءَهم البشير النذيرُ ببعثةِ المصطفى المختار، واللهُ على كل شيءٍ قدير ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٩﴾ [المائدة:١٩].

وآخرُ الرسل قبل محمد ﷺ هو عيسى عليه السلام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «أنا أَوْلَى الناسِ بابن مريمَ، والأنبياءُ أولادُ عَلاَّتٍ، ليس بيني وبينه نبيٌّ» [البخاري:

جنـــة السـنـــة

٣٤٤٢. ومسلم: ٢٣٦٥]. وأولادُ العلاّتِ أولادُ الأب الواحد من أمهاتٍ شتى، وكان الأنبياءُ أولاد عَلاّتٍ، لأن دينهم واحدٌ، وشرائعهم متعددةٌ.

والمدةُ الزمنيةُ بين عيسى ﷺ وبين محمدٍ ﷺ قرابة ستمائة سنة وما ورد من أحاديث تدلُّ على وجود نبي أو أنبياء بين عيسى ومحمد ﷺ غيرُ صحيحة.

وكانت الفترة التي بين عيسى ﷺ ومحمدٍ ﷺ فترةً مظلمةً، وأصْدقُ ما وُصفتْ به أنها جاهلية، قال ابنُ كثيرٍ: «بعثَ اللهُ محمداً ﷺ على فترة من الرسل، وطُموسٍ من السُّبل، وتغيُّر الأديانِ، وكثرة عبادةِ الأوثان والنيران والصلبان، فكانت النعمةُ به أتمَّ نعمةٍ، والحاجةُ إليه أمْرٌ عَمَمٌ، فإن الفسادَ كان قد عَمَّ جميعَ البلاد، والطغيانُ والجهلُ قد ظهر في سائر العباد، إلا قليلاً من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين، من بعض أحبار اليهود، وعباد النصارى والصابئين» [ابن كثير: ٢/ ٥٠٨].

وجاءَ في الحديث الذي يرويه عياضُ بنُ حمارٍ الذي قال فيه الرسولُ ﷺ : «وإنَّ اللهَ نظرَ إلى أهْلِ الأرضِ فمقتهم عَرَبَهُمْ وعَجَمَهُم إلا بقايا من أهل الكتاب» [مسلم: ٢٨٦٥].

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا أمعنَّا النظر في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - الذين زعموا أنَّ عيسى ابنَ مريمَ هو اللهُ كفَّارٌ، ومِثْلُهُم الذين زعموا أنه ابنُ الله، أو ثالثُ ثلاثةٍ.

٢ - الردّ على الذين زعموا أنَّ عيسى هو اللهُ أنَّ اللهَ قادرٌ على إهلاكِ عيسى وإهلاكِ أمِّه وإهلاكِ من في الأرض، ولا يستطيعُ عيسى أن يردَّ عذابَ الله إنْ وَقَعَ به.

٣- كذِبُ اليهودِ والنصارى في دَعْواهم أنهم أبناءُ الله وأحباؤُه، والدليلُ على كذبهم فيما ادَّعوه أنه يُعَذِّبهم بذنوبهم.

٤ - القاعدةُ التي يُجْريها اللهُ في خلقِه جميعاً أنه يُعَذِّبُ من يشاءُ، ويغفرُ لمن يشاء فهم جميعاً خلْقُه ومُلْكُه، ويجري عليهم قَهْرُه وتصريفُه كما يشاءُ سبحانه.

٥ - الله له ملكُ السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، والآلهةُ التي يعبدُها البشرُ جميعها جزءٌ مما في السمواتِ والأرضِ، فهي مخلوقة لا تستحق العبادة.

٦ - محمد ﷺ مرسلٌ إلى اليهودِ والنصارى كما هو مرسلٌ للناس كافة.

٧- جاءَ رسولُنا ﷺ بعدَ انقطاع الوحي فترةً من الزمانِ، فآخرُ الرسلِ قبلَ رسولنا ﷺ هو عيسى ﷺ .

جنـــــة الســــــنة

النص القرآني التاسع من سورة المائدة

ما جرى بين نبي الله موسى وقومه

أولاً: تقديم

قصَّ اللهُ علينا في هذه الآيات قصة الذين رفضوا دخول الأرض المقدسة من بني إسرائيل، فحرَّم اللهُ عليهم دخولَ تلك الديار أربعينَ سنة، تاهوا فيها في صحراء سيناء.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المائدة: ٢٠-٢٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- موسى يَعِظُ قومَه بتذكيرهم بنعم الله عليهم:

أمر اللهُ تعالى في الآية الأولى من هذا النص رسولَه محمداً ﷺ أن يَذْكُر ما قالَهُ نبيُّ الله موسى عليه السلام لبني إسرائيلَ عندما وَقَفَ بهم على أبواب الديار المقدسة بعد خروجهم من مصر، آمراً إياهم أن يذكروا نِعَمَ الله التي أنْعَمَ بها عليهم ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المائدة: ٢٠].

أمر موسى قومَهُ أن يذكروا نِعَمَ الله عليهم، ونِعَمُ الله عليهم كثيرةٌ، وأعْظَمها ما بعثَ فيهم من الرسل والأنبياء، فقد كان أبوهم يعقوبُ رسولاً نبيًّا، وكذلك ابنُهُ يوسفُ عليه السلام، كذلك موسى وهارون كانا رسولين، وجعلهم ملوكاً، ومن الذين آتاهم اللهُ المُلْكَ نبيُّ الله

جنـــــة الســــــنة

يوسف ﷺ، وأعْطَى اللهُ موسى الآية الكبرى، وهي العصا التي تتحوَّلُ إلى ثعبانٍ مبين من لحمٍ ودم، وإذا أدخَل يده في جيْبِهِ تصبحُ بيضاء للناظرينَ، ومن آياتِهِ التي أرْسَلَ بها موسى إلى فرعونَ وقومِهِ الجرادُ والقُمَّلُ والضفادِعُ والدمُ، وأهْلَكَ فرعونَ وجُنْدَهُ في البحرِ وهم ينظرونَ، وآتاهم ما لم يُؤْتِ أحداً من عالمي زمانهم. ذَكَّرهم موسى بذلك كُلِّه قبل أنْ يأمُرهم بجهادِ أعدائهم، ودخولِ الأرضِ المقدسةِ التي كتبها اللهُ لهم، لترقَّ قلوبُهُم، ويسارعوا إلى الاستجابةِ لأمرِ الله بدخولهم تلكَ الديارِ، ولا يرتَدُّوا على أعْقابِهِم.

٢- **دعوةُ موسى قومَهُ إلى دخولِ الأرضِ المقدسة:**

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ كليمَهُ موسى ﷺ نادى قومَه آمراً إيَّاهم بدخولِ الأرضِ المقدَّسةِ التي كتبها لهم، أي: فَرَضَها لهم، ونهاهم أن يرتدُّوا على أدْبارِهِم، أي: نهاهُمْ عن النكوصِ عن الجهاد، فينقلبوا خاسرين، فكُلُّ من لم يستجبْ لحكم الله تعالى، فهو خاسر ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١ ﴾ [المائدة:٢١].

والأرضُ المقدسةُ هي بيتُ المقدس وما حولها، وهي التي أُسْرِي برسولنا ﷺ إليها ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ ﴾ [الإسراء:١]. والمقدسة: المطهَّرة، التي تُخرِجُ العبدَ من ذنوبه إذا قَصَدَها لعبادةِ الله تعالى، وقد وَعَد اللهُ بها نبيَّهُ وخليلَهُ إبراهيمَ والرُّسُلَ والأنبياءَ من بَعْدِه من ذريته، وقد أعطاها لآخر الرسلِ من أبناء إبراهيمَ، وهو نبيُّنا محمد ﷺ.

وقد أبْعَدَ كُتَّابٌ وباحثون في زماننا لم يهتدوا بما أخبر اللهُ به في قرآنِنا عندما زعموا أنَّ بني إسرائيل كانوا في اليمن أو الجزيرة العربية أو إفريقيا، وليس في الأرض المقدسة فلسطين.

٣- **رفض بنو إسرائيل الاستجابةَ لربِّهم ورسولهم:**

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن بني إسرائيل ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢ ﴾ [المائدة:٢٢].

لقد رفض بنو إسرائيل أمْرَ ربِّهم ورسولهم الذي أمرهم بدخول الأرض المقدسة التي منحهم اللهُ إيَّاها، وعلَّلُوا رفْضَهم دخولَها بأنَّ فيها قوماً جبَّارين، والجبارُ من البشر الطاغي العاتي، الذي يُجْبِرُ الناسَ ويكرههم على ما يريدُ، وقالوا في رَدِّهم على نبيِّهمْ: إنّا لنْ ندخلَ هذه الأرض حتى يخرجَ الجبَّارُون منها، فإذا خَرَجُوا منها، فإنَّا عند ذاك داخلون فيها.

جنـــــة الســـــنة

وقد ذَمَّ اللهُ القومَ الذين كانوا يسكنون الأرضَ المقدسةَ قبل بني إسرائيل بتسميتهم بالجبارين، وقد دَنْدَنَ بعضُ البارزين اليوم بالفخر بانتسابهم إلى الجبارينَ، مُدَّعينَ أنهم أبناءُ الجبارين، ويا لسوء ما انتسبوا إليه، فنحن أبناء الفاتحين من الصحابة الكرام الذين أثنى الله عليهم ومَدَحَهُمْ، ولسنا أبناءَ الجبارين.

٤- موقفُ الذين يخافون الله تعالى:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ رجلين من بني إسرائيل من الذين يخافون اللهَ تعالى ويخشونَهُ أنْعم عليهما بنعمةِ الإيمانِ، وطاعةِ الرحمن قالا لقومهما: ادخلوا على هؤلاء الجبارين باب مدينتهم، فإذا دَخَلْتُمُوه عليهم فإنكم تغلبونهم، وقالوا لهم: توكلوا على الله تعالى، أي: اعتمدوا عليه إن كنتم مؤمنين، وفي هذا تهييج لهم على الطاعة. ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة:٢٣].

وقد جعلت الآية التوكُّلَ شرْطاً في الإيمانِ، فدلَّ على انتفاءِ الإيمان عند انتفاء التوكل.

٥- قُبْحُ ما أجابَ به بنو إسرائيل نبيَّهُمْ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ بني إسرائيل ردُّوا على نبيهم ردّاً قبيحاً، زاد في قُبْحِهِ على الردِّ السابق، فقالوا مخاطبينَ نبيَّهُمْ باسمه ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾، ولم يقولوا: يا رسول الله، أو يا نبيَّ الله، وقرَّرُوا جازمينَ أنهم لنْ يدخلوا تلك الديارَ ما دامَ الجبارون فيها، وقالوا لرُسُولهم، ويا لقبحِ ما قالوه: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ها هنا قاعدون، وقالوا: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة:٢٤] وقد أحْسَنَ ابن القيم رحمه الله تعالى في تفسيره للآيات السابقة من هذا النص بقوله: «تأمل: تَلَطُّفَ نبيِّ الله تعالى موسى عليه السلام بهم، وحُسْنَ خطابِهِ لهم، وتذكيرَهُم بنعمِ الله عليهم، وبشارَتَهُمْ بوعْدِ الله لهم: بأنَّ القريةَ مكتوبةٌ لهم، ونهيهم عن معصيته بارتدادهم على أدبارهم، وأنهم إن عَصوا أمره، ولم يمتثلوا: انقلبوا خاسرينَ، فجمَعَ لهم بين الأمر والنهي، والبشارَةِ والنذارةِ، والترغيب والترهيب والتذكير بالنعم السالفة، فقابلوه أقبحَ المقابلة، فعارضوا أمرَ الله تعالى بقولهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ فلم يُوَقِّروا رسولَ الله وكليمَه، حتى نادَوْهُ باسمه، ولم يقولوا: يا نبيَّ الله، وقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ ونَسَوْا قدرةَ جَبَّارِ السمواتِ الأرضِ الذي يُذِلُّ الجبابرة لأهل طاعته، وكان خوفهم من أولئك الجبارينَ -الذين نَواصِيهم بيدِ الله- أعظمَ من خوفهم من الجبَّارِ الأعْلى سبحانه، وكانوا أشدَّ رهبةً في صدورِهِمْ منه.

جنـــــة الســـــــنة

ثم صرَّحوا بالمعصية والامتناع عن الطاعة، فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾ فأكَّدوا معصيتَهُمْ بأنواعٍ من التأكيد:

أحدها: تمهيدُ عذر العصيان بقولهم: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾.

والثاني: تصريحُهم بأنهم غير مطيعين، وصدَّروا الجملةَ بحرفِ تأكيد، وهو ﴿إِنَّ﴾ ثم حقَّقوا النفيَ بأداة ﴿لَن﴾ الدالة على نفي المستقبل، أي: لا ندخلها الآن، ولا في المستقبل.

ثم علَّقوا دخولها بشرط خروج الجبارين منها فـ ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بطاعته والانقياد إلى أمره، من الذين يخافونَ الله، هذا قولُ الأكثرين، وهو الصحيحُ.

وقولُه: ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾ أي: بابَ القرية، فاهجموا عليهم، فإنهم قد مُلِئوا منكم رُعْباً ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ ثم أرشدهم إلى ما يحقق النصرَ والغلبةَ لهم وهو التوكُّل.

فكان جوابُ القومِ أن ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾. فسبحانَ من عَظُمَ حِلْمُهُ حيث يُقابلُ أمرُهُ بمثل هذه المقابلة، ويواجَهُ رسولُه بمثلِ هذا الخطابِ، وهو يَحْلُمُ عنهم، ولا يعاجِلُهُم بالعقوبة، بل وَسِعَهُمْ حِلْمُهُ وكَرَمُهُ، وكان أقصى ما عاقبهم به أن ردهم في بَرِّيَّةِ التِّيهِ أربعين عاماً، يُظَلِّلُ عليهم الغمامَ من الحرِّ، وينزلُ عليهم المنَّ والسلوى» [بدائع التفسير: ٢/ ١٠٧].

وفي الصحيحين: عن عبدالله بن مسعودٍ ﷺ قال: «شهِدْتُ من المِقْدادِ بن الأسود مشهداً لأن أكونَ صاحِبَهُ أحبُّ إليَّ مما عُدِلَ به، أَتَى النبيَّ ﷺ وهو يدْعُو على المشركينَ، فقال: لا نقولُ كما قال قومُ موسى: اذهبْ أنتَ وربُّك فقاتلا، ولكنَّا نُقاتِلُ عن يَمينِكَ وشِمالِكَ، وبين يديكَ وخلْفَكَ».

فرأيتُ رسولَ الله ﷺ أشْرَقَ وجْهُهُ وسَرَّه، يعني قولَه [البخاري: ٣٩٥٢].

٦- موقفُ موسى عليه السلام مما واجهه به قومُهُ:

لما سَمِعَ موسى هذا الردَّ القبيحَ من قومِهِ، قال مخاطباً ربَّه -تبارك وتعالى: ﴿إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [المائدة:٢٥] أي: ليس أحدٌ

جنـــــة السـنـــــة

يطيعني منهم، فلا أَمْلِكُ إلا نفسي ونفسَ أخي، وطلبَ من الله تعالى أن يقضي بينه وبين هؤلاء الفاسقين، أي: الخارجين عن طاعة الله.

٧- حرَّم اللهُ على بني إسرائيل دخولَ الأرضِ المقدسة وحكم عليهم بأن يتيهوا في صحراء سيناء أربعين سنة:

لما قالَ موسى ما قالَه لربِّه، قال الله له: إنَّه حرَّمَ عليهم دخول الأرض المقدسة أربعينَ سنةً، وفي هذه المدة سيتيهون في الأرضِ، وقد تاهوا هذه الأربعين في برية سيناء، ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة:٢٦].

لقد ذهب في الأربعين سنة الجيلُ الذي تربَّى على الذل تحتَ طغيانِ فرعونَ، ونشأ جيلٌ جديدٌ تربَّى على العِزَّةِ، وشظفِ العيشِ، وبهذه القوة الجديدة فتحَ نبيُّهم يوشعُ بنُ نون الأرضَ المقدسةَ التي كتب اللهُ لهم.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ فيه مواساة لنبيِّه موسى ﷺ، فقد نهاه أن يأسى، أي: يحزن، على القومِ الفاسقين، أي: الخارجين عن طاعةِ الله.

رابعاً: ما تهدينا إليه هذه الآيات من علم وعمل

إذا تدبرنا هذه الآيات وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- هذه الآيات تحدثنا عن وقائع جرتْ لبني إسرائيل، وما عند بني إسرائيل في هذه الفترة فيه خَلَلٌ وانحرافٌ، فالله أوحى لنا بالحقِّ عن بني إسرائيل.

٢- أحسنَ نبيُّ الله موسى ﷺ في استجاشة قومه إلى فِعْل ما أمرهم به، من دخول الأرض المقدسة، وذلك بتذكيرهم بنعم الله عليهم، وإيتائهم ما لم يؤْتِه أحداً من العالمين.

٣- رفض بنو إسرائيل الاستجابة لما أمَرَهم به نبيُّهُم، وردُّوا على نبيِّهم أقْبَحَ ردٍّ، وأصَرُّوا على عدَم دخولهم الأرض المقدسةَ التي كتب الله لهم حتى يُخْرِجَ اللهُ الجبارين من تلك الأرض.

٤- موسى يشكو عَجْزَه لربه، ويدْعوه أنْ يحكم بينه وبين القوم الفاسقين.

جنـــــة السـنــــــة

٥- حرَّم الله على بني إسرائيل دخولَ الأرض المقدسة أربعين عاماً، وحكم عليهم أن يتيهوا في الأرض، فذهب فيها الجيلُ الذي تربَّى على الذلَّةِ، ونشأ جيلٌ جديدٌ تربّى على العزَّة، وفتحَ الله بهم الأرض المقدسة.

٦- كثير من الأمة الإسلامية تربى على الذلة، فلا يصلُحُ لمقاومةِ الأعداء.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني العاشر من سورة المائدة
قصة ابنيْ آدمَ الذي قتَلَ أحدهما الآخر

أولاً: تقديم

قصَّ اللهُ -تبارك وتعالى- علينا في هذه الآيات قصة ابنيْ آدمَ لصُلْبه، عندما قتل أحدهما الآخر، لأن الله تَقبَّلَ قربانَ أخيه ولم يتقبّلْ قربانَهُ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ ۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [المائدة:٢٧-٣٢].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أمرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أن يَقُصَّ على الناس قصةَ ابني آدم:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه محمداً ﷺ أنْ يقصَّ على بني إسرائيل أو على الناس قصة ابنيْ آدم، وهما وَلَداه لصُلْبِه، وهذا من أخبار الغيب الماضية، وعند بني إسرائيل منها علمٌ مدخولٌ ﴿ ۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ﴾ [المائدة:٢٧].

ومعنى ﴿وَاتْلُ﴾ أي: قُصَّ وأخبِرْ. و﴿نَبَأَ﴾ أي: خَبَرَ. والدليلُ على أنَّ المرادَ بابني آدمَ وَلَداه من صُلْبِهِ أنَّ القاتلَ جهل كيف يواري جثةَ أخيهِ، حتى رأى الغرابَ يواري غراباً ميتاً، فقال: ﴿يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾ [المائدة:٣١] فلو كان هذا القاتلُ من بني إسرائيلَ لما جَهِلَ كيفَ يواري سوأة أخيه بدَفْنِهِ.

جنـــــة السـنـــــة

ويدلُّ لصحة هذا القول ما رواه عبد الله قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْماً إلا كانَ على ابن آدَمَ الأول كِفْلٌ من دَمِها، لأنه أوَّلُ من سَنَّ القَتْلَ» [البخاري: ٣٣٣٥. ومسلم: ١٦٧٧].

ووجهُ الدلالة في الحديث أنَّ الرسولَ ﷺ وَصَفَ القاتل بأنَّه الأول، ولأنه قال: «لأنَّه أولُ من سنَّ القَتْلَ».

وقولُهُ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: تلاوةً كائنةً بالحق، أي: الصِّدْقِ، ليسَ فيه زيادةٌ أو نَقْصٌ، وهي بذلك تُصَوِّبُ وتصححُ ما ورد في القصة من خللٍ عند بني إسرائيل. ولذلك فعلينا أن نقتصرَ في فِقْهنا لهذه القصة على ما وردَ في القرآنِ، ولا نَخْلِطُه بما في التوراة، فخبرُ التوراةِ فيه تغييرٌ وتحريفٌ.

٢- خبرُ هذه الواقعة:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بالواقعة التي جرتْ بين ابني آدم، والتي أدَّتْ إلى قتلِ أحدهما أخاه، أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ ابنيْ آدم اللذين جَرَتْ لهما هذه الواقعةُ قَرَّبا قرباناً لِربِّهما، وكان هَدْيُ الله أن يتخيَّرَ الرجلُ شيئاً من مالِهِ، ثم يسجدَ لله، فإن قَبِلَ اللهُ قربانَهُ نزلَتْ نارٌ من السماء فأكَلَتْهُ، فلما قَرَّبَ كلٌّ منهما قرباناً، نزلتْ نارٌ من السماء فأكلتْ قربانَ أحدِهما، ولم تَمسَّ قربانَ الآخر، فحَسَدَ الذي لم تأكلِ النارُ قربانَه أخاه، فقالَ له: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ فقال الذي قُبِلَ قُرْبانه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: إنما يتقبلُ اللهُ عملَ من اتَّقاه في ذلك العمل، قال تعالى: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة:٢٧].

٣- موقفُ الذي قُبِلَ قربانُه من تهديد أخيه:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ ابنَ آدمَ الصالحَ عندما سمعَ تهديدَ أخيه له بالقتل، قال له: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المائدة:٢٨-٢٩].

قال له: إذا مَدَدْتَ يَدَكَ إليَّ لتبطشَ بي، فما أنا بباسطٍ يديَ إليك لأقتلكَ، وعَلَّلَ ذلك بكونه يخافُ اللهَ ربَّ العالمين وقد قرَّر أنَّ الذين يؤمنون بالله ويخافونه يَكُفُّونَ أيديهم عن إيذاء الناس وقتلِهِمْ، أما الذين يكفرون بالله ولا يخافونَه، فيُفْسِدون في الأرض، ويؤذون العبادَ.

جنـــــة الســــــنة

وقال ابنُ آدمَ الصالحُ لأخيهِ: إني أُريد أن تبوءَ، أي: تَرْجِعَ بإثْمي وإثْمِكَ، أي: إثم قتلي، وما حَمَلْتَهُ أنت من آثام، وبذلك تكونُ من أصحابِ النار، وهذا هو جزاءُ الظالمين المعتدين، وقد أخبرنا رسولنا ﷺ في حديث المُفْلِسِ أنَّ المعتدي يُؤخَذُ من حسناتِهِ يومَ القيامةِ، فتُعْطَى لمن اعتدى عليه، فإذا أفْلَسَ، أخذ من سيئاتهم، فوضعتْ فوقَ ظهره.

وقد أمرنا رسولُنا ﷺ في الفتنِ بالاعتزالِ والصبر على القتلِ كصبرِ ابنِ آدَم، فعن سعد ابن أبي وقاص قال عند فتنة عثمان: أشْهدُ أنَّ رسولَ ﷺ قال: «إنَّها ستكونُ فتْنَةٌ، القاعِدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائم خيرٌ من الماشي، والماشي خيرٌ من الساعي». قال: أفريتَ إنْ دخلَ عليَّ بيتي، فبَسَطَ يده إليَّ ليَقْتُلَني، قال: كن كابن آدم. [صحَّحَ محقق ابن كثير: ٢/ ٥٢٠) سنده وعزاه لأحمد، والترمذي].

وروى أبو ذرٍّ قال: «رَكِبَ النبيُّ ﷺ حماراً وأردفني خَلْفَه، وقالَ: يا أبا ذَرٍّ، أرأيتَ إنْ أصابَ الناسَ جوعٌ شديدٌ لا تستطيع أن تقومَ من فراشِكَ إلى مسجدك، كيف تصنَع؟ قال: قال: الله ورسولُه أعلم. قال: تعفَّفْ. قال: يا أبا ذَرٍّ، أرأيتَ إنْ أصابَ الناسَ موتٌ شديد، يكون البيتُ فيه بالعبْدِ -يعني القبر- كيف تَصْنَعُ؟ قلتُ: الله ورسولُه أعلم. قال: اصبر. قال: يا أبا ذرٍّ، أرأيت إنْ قَتَلَ الناسُ بعضُهم بعضاً، يعني حتى تَغْرِقَ حجارةُ الزيتِ مِنَ الدماء، كيف تصنعُ؟ قال: الله ورسوله أعلمُ. قال: اقعُد في بيتك، وأغلِقْ عليكَ بابكَ. قال: فإن لم أُتْرَك؟ قال: فائتِ مَنْ أنت منهم، فكُنْ فيهم، قال: فآخذ سلاحي؟ قال: إذاً تشاركهم فيما هم فيه، ولكن إن خَشِيتَ أنْ يروعَكَ شعاعُ السيفِ، فألقِ طرفَ ردائك على وَجْهِكَ حتى يبوءَ بإثمه وإثمِك» [حكم عليه محقق ابنُ كثيرٍ بالصحة (٢/ ٥٢١) وعزاه لأحمد وابن حبان وأبي داود وابن ماجه والحاكم والبيهقي].

٤- ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾:

أخبرنا العزيزُ العليم -سبحانه- أنّ ابنَ آدم الظالم زينت له نفسه قتل أخيه فقتله ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المائدة:٣٠] أي: سَهَّلَتْ له نفْسُهُ عليه قتلَ أخيه، وشجَّعَت عليه، قتله، ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: من الخاسرين عند ربِّه، وذلك بحرمانِه من الجنة، ودخولِهِ النارَ، وكان من الخاسرينَ لأنه أوَّلُ من سَنَّ القتلَ، فلا يُقتَلُ قتيلٌ بعد ذلك إلا كان عليه كِفْلٌ من دمِهِ.

جنـــــة السـنـــــة

٥- تعليم الغراب للقاتل كيفَ يواري سوأةَ أخيه:

كان قَتْلُ ابن آدمَ لأخيهِ أوَّلَ واقعة قتلٍ وقعتْ في الأرض، فاحتارَ القاتلُ كيف يتصرَّفُ في جثَّة أخيه ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة:٣١].

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه أرْسَلَ غراباً قتلَ غراباً آخر، أو وجد غراباً ميتاً، فنَقَّبَ بمنقارِهِ الأرضَ حتى أحدثَ فيها فَجوَةً، فألقى الغرابُ أخاه القتيل أو الميتَ، فدفنه فيها، فقالَ القاتلُ عند ذلك، ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ وهي كلمةُ تَفَجُّعٍ وتَحَسُّر، والوَيْلَةُ: الهلكة، والكلامُ خرج مَخرَجَ التعجُّبِ منه، لعدم اهتدائه لمواراةِ أخيه كما اهتدى الغرابُ إلى ذلك.

٦- ما الذي كتبَه اللهُ على بني إسرائيل بخصوص القتل؟

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه مِنْ أجلِ قتل ابنِ آدمَ أخاه ظلماً وعدواناً كتبَ على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير سببٍ من قصاصٍ، أو فساد في الأرض، واستحلَّ قَتْلَها بلا سببٍ ولا جنايةٍ، فكأنما قتلَ الناسَ جميعاً، لأنه لا فرقَ عنده بين نفسٍ ونفس، ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي: حرَّم قتْلَها، وعملَ على إحيائها كالذي ينقذُ غيرَهُ من الحَرْقِ أو الغرقِ أو الأسْر أو من الظَّلَمَةِ الذين أرادوا قَتْله ﴿فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ﴾ وفي هذه الآية تعظيم لقتل الناس، وتعظيمٌ للعمل على إحيائهم.

وقد قيل للحسن في هذه الآية: «أهيَ لنا يا أبا سعيدٍ كما كانتْ لبني إسرائيل، فقال: إيْ، والذي لا إله غيره، كما كانتْ لبني إسرائيل، وما جعلَ اللهُ دماءَ بني إسرائيل أكرمَ على الله من دمائِنا» [الطبري: ٤/ ٢٨٤٠] وخَتَمَ اللهُ تعالى الآية بقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة:٣٢].

أقْسَمَ ربُّ العزة -سبحانه- بنفسِهِ أنَّ رُسَلَهُ قد جاءت بني إسرائيل بالبينات، أي: بالآيات الواضحات، والحجج الظاهرة الدالة على صحة ما دَعَوْهُم إليه من الإيمان والفرائض، ثم إنَّ كثيراً من بني إسرائيل بعد ما جاءَتهم البيناتُ لمسرفونَ في الأرض بما اقترفوه من الشركِ والذنوبِ والمعاصي.

٧- هذه القصةُ في التوراة:

هذه القصةُ لا تزالُ موجودةً في التوراة، وقد صوَّبَ القرآنُ ما فيها من خلل، وهي موجودةٌ في سفر التكوين، الإصحاح الرابع، فقرة (١-٢٤).

جنـــــة السـنـــــة

وقصة التوراة تحدثنا عن ابنيْ آدم هابيلَ وقايينَ، وكان هابيلُ راعياً للغنم، وقايينُ فلاحاً يعملُ في الأرض.

وتذكرُ التوراةُ أنَّ الأخوين قرَّبَ كلُّ واحدٍ منهما لربِّه قرباناً، الفلاحُ قدَّمَ من ثمارِ الأرض، والآخر قدَّم من سمان غنمه، فتقبَّل اللهُ قربانَ هابيل، ولم يقبلْ قربانَ قايينَ، فاغتاظَ قايين، وقتلَ أخاه هابيلَ، وقرَّع الربُّ سبحانه الأخَ القاتل بسبب قَتْلِهِ أخاه، فاعترفَ بما كان منه، وقال للرب: «ذنبي أعظمُ من أن يُحْتَمل، وقال لله: إنَّك قد طَرَدْتني من الأرض، ومن وجْهِك أختفي، وأكونُ تائهاً في الأرض، ويكونُ كلُّ من وجدني يقتلني».

فأخبره اللهُ أنه لم يوجبْ قتلَهُ، ومن قتله فيكونُ عقابُه سبعةَ أضعافٍ، وينتقمُ منه، وأخبرت التوراةُ أن قايين سَكَنَ في أرضِ «نود» شرقيّ عَدْن.

وأخبرتنا التوراةُ أن قايين عاشرَ زوجته، وولدتْ له ابنَهُ حَنُّوك، وبنى مدينةً سماها باسم ابنه حَنُّوك، وذكرتِ التوراةُ الذرية التي تناسلتْ من ابنه حَنُّوك.

وقد صَدَّق القرآنُ خبرَ التوراةِ في أن الأخوين المتحدَّثَ عنهما هما ابنا آدمَ، وقد سمَّتْ التوراة اسمي الأخوين، فهما هابيلُ وقايينُ، وحدَّدَتْ عمل كلِّ واحدٍ منهما، فالأولُ كان راعياً، والثاني كان فلاحاً يعمل في الأرض، ولم يلتفت القرآن لشيء من هذا الذي ذكرته التوراةُ.

وكثيرٌ من المفسرين يسمون الأخوين هابيلَ وقابيلَ، مع أنه لم يرد خبر لا في القرآن، ولا في صحيح السنّة يحددُ اسميهما.

وصدَّق القرآنُ ما أخبرتْ به التوراةُ من أن كلَّ واحد منهما قربَ قرباناً، فتُقُبِّلَ من أحدهما، ولم يتقبلْ من الآخر، ولم يعرض لماهية القربان الذي قدَّمه كلُّ واحد منهما كما فعلت التوراةُ. وذكر القرآنُ أن الذي لم يُتَقَبَّلْ قربانُه تهدَّد أخاه الذي تُقُبِّل قربانُهُ بالقتل، فقال له: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧﴾ [المائدة:٢٧] وصرّح له بأنه إذا هاجمه واعتدى عليه، فإنه لن يتعرض له ولن يدافعَ عن نفسه، وهو في هذا يريدُ أن يبوءَ أخوه بإثمهما، فيكونَ من أصحابِ النار، وذلك جزاءُ الظالمين.

وصرَّحَ النصُّ القرآني بأنه قتل أخاه، فأصبح من الخاسرين.

وصدَّقَ النصُّ التوراةَ في أنَ أحدَهما قتل أخاه، ولم يذكر النص القرآني ذلك الحوار الذي جرى بين القاتل وبين الرب، ولم يذكرْ أن الله قضى أنَّ من يقتل قايين، فإنه يعاقبُ بسبعةِ

جنـــــة الســــــنة

أضعاف من العقوبة، ولم يذكرْ ما ذكرتْه التوراة من معاشرة قايين لزوجته، كما لم يذكر ما رزق قايين من الذرية، وإعماره مدينة حنوك.

وأظهر النص القرآني عظم جريمة القتل العمد، فابنُ آدم الصالحُ عندما تهدَّده أخوهُ بالقتل، قال له: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾ [المائدة:٢٩].

واللهُ سبحانه عقَّب على هذه الجريمة مبيناً عظمها قائلاً: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ [المائدة:٣٢].

ورسولُنا ﷺ حَذَّر من الاقتتال وبيَّن عِظَم جرْم المتقاتلين، فعن أبي بكرةَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتلُ والمقتولُ في النار» فقلتُ: يا رسولَ الله، هذا القاتلُ، فما بالُ المقتولِ؟ قال: «إنَّه كانَ حريصاً على قتل صاحبه» [البخاري: ٣١. ومسلم: ٢٨٨٨].

وعن عبدالله قالَ: قال رسولُ الله ﷺ : «لا تُقتل نَفْسٌ ظُلْماً، إلا كان على ابنِ آدم الأولِ كِفْلٌ من دَمِها، لأنه أوَّلُ من سَنَّ القتل» [البخاري: ٣٣٣٥. ومسلم: ١٦٧٧].

والمتأملُ في خاتمةِ هذه القصة في التوراة، يجد أنَّ الجزاءَ الذي ذكرته التوراةُ لا يتناسبُ مع الجريمة التي ارتكبها قايين، فقد أخبرتِ التوراةُ أنَّ الله حفظ حياةَ قايين، وأثمرت ذريته، وتكاثرت، وعمَّر الأرضَ، هذا الذي ذكرته التوراة لا يردع الذين يرتكبون مثل هذا الجرم الفظيع، وانظر إلى هذا التعقيب الإلهي الرباني الذي عَقَّب به القرآن على تلك الواقعة الشنيعة ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾ [المائدة:٣٢].

إن هذا التعقيبَ القرآنيَّ ليخلع قلوبَ الذين يريدونُ ارتكابَ هذا الجرمِ الشنيع، فالذي يقتلُ نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض حالُهُ حالُ الذي قتلَ الناسَ جميعاً، والذي يحييها فكأنما أحيا الناس جميعاً.

وقد انفردَ القرآنُ عن التوراة بذكره أنَّ القاتلَ لم يَدْرِ كيف يواري سوأةَ أخيه، وتحيَّرَ في هذا الأمر، فبعث اللهُ غراباً، فوارى غراباً ميتاً، بأن حَفَرَ في الأرض، فوارى سوأة أخيه، فقال القاتل متندماً متحسراً: يا ويلتا أعجزْتُ أن أكونَ مثل هذا الغراب، فأواري سوأة أخي [راجع كتابي: قصص التوراة والإنجيل في ضوء الكتاب والسنّة: ص٣١].

جنـــــة السـنـــــة

رابعاً: ما تهدينا إليه هذه الآيات من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن واقعة من علم الغيب جرتْ في الماضي الغابر، وفي هذا آيةٌ دالة على صِدْقِ رسولِنا ﷺ.

٢- أعلمنا ربُّنا أنَّ أوَّلَ واقعةِ قَتْلٍ كانت من أحد ابني آدمَ لصُلْبِهِ لأخيه، وكانت حسداً منه، لأن الله قَبِلَ قربانَ أخيه، ولم يقبل قربانه.

٣- سوءُ موقف القاتلِ، وحُسْنُ موقفِ الأخِ الذي امتنع عن مقاتلةِ أخيه، لأنَّ الله حَرَّمَ ذلك، فهو يخافُ اللهَ أن يقتلَ أخاه.

٤- كان أبناءُ آدم يعرفون الحلالَ والحرام، ويعرفون أن عاقبةَ القتلِ النارُ.

٥- البشرُ يتعلمون من الحيوانات والطيور أحياناً، ومن جملةِ ذلك ما تعلَّمه الأخ القاتلُ من الغراب، فقد تعلم منه كيف يدفن أخاه.

٦- كان الغرابُ من الطيور الموجودة في الأرض عندما أَهْبَطَ اللهُ آدمَ إلى الأرض.

٧- عِظَمُ جريمة القتل، فمن قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناسَ جميعاً، ومن عمل على إحيائها فكأنما أحيا الناس جميعاً.

٨- لقد جاءتِ الرسلُ بني إسرائيلَ بالآياتِ البينات، فعصى بنو إسرائيل وطغوا وأفسدوا.

جنـــة الســـــنة

النص القرآني الحادي عشر من سورة المائدة
جزاءُ الذين يحاربون الله ورسوله

أولاً: تقديم

بيّنَ اللهُ -تعالى- في آياتِ هذا النص جزاءَ المحاربين الذين يخرجون على الإمام المقيم لشرع الله في المجتمع المسلم، وبيّنَ لنا أنَّ الذين يتوبون من المحاربين قبل أن نقْدِرَ عليهم، يغفرُ لهم، ولا يقامُ عليهم الحدُّ، وأمرنا ربُّنا بسلوكِ طريق المفلحين، وهم المتقونَ الذين يتقربون إلى الله بالعمل الصالح، ويجاهدونَ في سبيله، وأخبرنا بأنَّ أهل النار خالدون فيها، ولشدةِ عذابهم في النار لو كانت لهم الدنيا ومثلها معها لافتدوا بها من عذابها.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المائدة:٣٣-٣٧].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الذين يحاربون اللهَ ورسولَه:

بيّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- حكمَ الذين يحاربون اللهَ ورسولَهُ، ويسعون في الأرض فساداً، فقال: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [المائدة:٣٣].

والمحاربونَ لله ورسولِهِ ﷺ هم عصابةٌ خَرَجُوا على الخليفةِ المسلمِ الذي يحكم بشريعةِ الله، فيُرَوِّعونَ أهلَ الإسلام في مدنهم وقراهم، ويقتلونَ الأنْفُسَ، وينهبون الأموالَ، ويقطعون الطرقات، وهم الذين يسمَّوْنَ اليومَ بقطَّاعِ الطُّرقِ والمحاربين.

جنـــــة الســـــنة

٢- **حُكْمُ المحاربين:**

بيَّن اللهُ -تبارك وتعالى- حكمَ المحاربين الذين يخرجون على الإمام المسلم في المجتمع الإسلامي، فيُرَوِّعونَ الآمنين، ويقطعونَ السبيلَ، ويفسدونَ في الأرض، فقال: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [المائدة:٣٣].

قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما، والحسنُ، وأبو مِجْلزٍ، وقتادةُ، وغيرهم من العلماء: «من أخافَ الطريقَ فقط، فعقوبتُهُ النفيُ، ومن أخذ المالَ ولم يقتلْ، فعقوبتُهُ القطعُ من خلافٍ، بأن تُقْطَعَ يدُهُ اليمنى ورجلُه اليسرى، ومن قتل دون أخْذِ المال فعقوبته القتلُ، ومن جمعَ الكلَّ قُتِلَ وصُلِبَ» [المحرر الوجيز: ٣/ ١٥٥]. وقوله: ﴿أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ وذلك بإرسال الجيوش في إثرهم، حتى يتشتتوا في بقاع الأرض، أو يخرجوا من ديار الإسلام.

٣- **سبب نزول هذه الآية:**

روى البخاريُّ ومسلمٌ في صحيحيهما عن أنسٍ قال: «قَدِمَ أناسٌ من عُكْلٍ أو عُرَيْنَةٍ، فاجْتَوَوْا المدينةَ، فأمَرَهم النبيُّ ﷺ بلقاحٍ، وأن يشربوا من أبوالِها وألبانِها، فانطلقوا، فلما صَحُّوا، قَتَلُوا راعِيَ النبيِّ ﷺ، واسْتاقوا النَّعَمَ، فجاءَ الخبرُ في أول النهارِ، فبَعَثَ في آثارِهِمْ، فلما ارتفعَ النهارُ جيءَ بهم، فأمَرَ فقَطَعَ أيديهم وأرجُلَهُمْ، وسُمِرَتْ أعْيُنُهُمْ، وألقوا في الحَرَّةِ، يستَسْقُون فلا يُسْقَوْنَ. قال: أبو قِلابَةَ: فهؤلاءِ سَرَقُوا وقتَلُوا، وكَفَرُوا بعد إيمانِهِمْ، وحاربوا اللهَ ورسولَه» [البخاري: ٢٣٣. ومسلم: ١٦٧١].

وفي البخاري عن أنس «فأرسَلَ رسولُ الله ﷺ، فأُتِيَ بهم، فقَطَّعَ أيديهم وأرجلَهُمْ، وسَمَرَ أعْيُنَهُمْ، وتركهم بالحَرَّة يَعُضُّونَ الحِجارة» [البخاري: ١٥٠١].

وفي البخاري ومسلمٍ عن أنس بن مالك أيضاً: «أنَّ رَهْطاً من عُكْلٍ، ثمانيةً، قدِموا على النبي ﷺ، فاجتووا المدينة، فقالوا: يا رسولَ الله ابْغِنا رِسْلاً، قال: «ما أجِدُ لكم إلا أن تَلْحقوا بالذَّوْدِ». فانطلقوا فشربوا من أبوالها وألبانها، حتى صَحُّوا وسَمِنوا، وقتلوا الراعي واسْتاقوا الذَّوْدَ، وكفروا بعد إسلامهم، فأتى الصَّريخُ النبيَّ ﷺ، فبعث الطلبَ، فما ترجَّلَ النهارُ حتى أُتِيَ بهم، فقطَّعَ أيديهم وأرجلهم، ثم أمر بمسامير فأُحمِيَتْ فكَحَلَهُمْ بها، وطرحهم بالحَرّة، يستسقون فما يُسْقَوْنَ، حتى ماتوا».

قال أبو قِلابَةَ: «قتلوا وسرقوا وحاربوا اللهَ ورسوله ﷺ، وسعوا في الأرض فساداً»

[البخاري: ٣٠١٨. ومسلم: ١٦٧١].

جنـــة السـنـــة

٤- **عقوبة المحاربين في الدنيا لا تُسقِطُ عقوبةَ الآخرة:**

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ العقوبةَ التي تنزل بالمحاربين في الدنيا لا تُسقِطُ عقوبة الآخرة إلا إذا تابوا ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [المائدة:٣٣]. فجمع اللهُ لهم بين العقوبتين: عقوبة الدنيا، والعذاب العظيم في الآخرة، وقد أخْبَرَ اللهُ -تعالى- أن عقوبةَ الدنيا، توقعُ بهم الخِزْيَ، وهو الذلُّ والهوانُ والانكسارُ.

وذهبَ ابنُ كثيرٍ إلى أن هذه العقوبة في الكافرين دونَ عصاة المؤمنين، لأنه صحَّ في صحيح مسلم أن رسولَ الله ﷺ قالَ: «من أصابَ من ذلك شيئاً فعُوقِبَ، فهو كَفَّارةٌ له» [ابن كثير: ٢/ ٥٣٤] أي: من أصاب شيئاً من المعاصي كالزنا والقتل.

٥- **سقوطُ عقوبة المحاربين الدنيوية إذا تابوا قبل أن نقدرَ عليهم:**

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ المحاربين إذا تابوا قبل أن نقدرَ عليهم فلا عقوبة عليهم ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ۖ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة:٣٤].

وذهب بعَضُ أهلِ العلم إلى أن حُكْمَ القصاصِ لا يَسقُطُ، وكذا لا تَسقُطُ عقوبةُ قطع اليدِ عن المحاربين، إنما يَسقُطُ قطعُ الرجلِ والصلبُ فحسبُ، والصواب من القولِ أن العقوبةَ المنصوص عليها في الآية تَسقطُ كلُّها لنصِّ الآية عليها من غير تفصيلٍ.

٦- **أمرنا اللهُ -تعالى- بتقواهُ وابتغاء الوسيلة إليه والجهاد في سبيله:**

نادى اللهُ -تعالى- عبادَهُ المؤمنينَ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة:٣٥] وأمرهُمْ بتقواه، وابتغاء الوسيلة إليه، والجهاد في سبيله، وعلَّلَ ذلك بقوله: لعلكم تفلحون ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المائدة:٣٥] وتقوى الله تكون بفعل ما أَمَرَ به، وترْكِ ما نهى عنه، وابتغاءِ الوسيلةِ إليه، أي: بطلب القربِ منه.

والطرقُ التي تحقق الوسيلةَ إلى ربِّ العزة سبحانه أربع طرقٍ:

الأول: الإيمانُ، فالإيمانُ أعظم طريقٍ يوصلنا إلى ربِّنا سبحانه وتعالى، ولذلك علَّمنا ربُّنا سبحانه أنْ ندعوه طالبين القرب منه قائلين: ﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾ [آل عمران:١٩٣].

فقد توسَّلَ الداعون إلى الله بإيمانهم ليغفرَ لهم ذنوبَهُمْ ويكفِّر عنهم سيئاتهم ويتوفاهم مع الأبرار.

جنـــــة السـنـــــة

الثاني: ابتغاءُ الوسيلة إلى الله بالأعمال الصالحة، كما توسَّل الذين انطبقت صخرةٌ على باب الغار الذي كانوا فيه، فدعا كلُّ واحدٍ منهم اللهَ عز وجل بعملٍ صالحٍ عمله مخلصاً لله، فانزاحتْ الصخرةُ، وخرجوا يَمْشُون.

الثالث: التوسُّلُ إلى الله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، كما قال الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

الرابعُ: التوسلُ إلى الله تعالى بدعاء الصالحين الأحياء، كما علمنا اللهُ أن ندعوا لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر:١٠].

فهذه أربعُ طرق تحقق لنا الوسيلة عند الله، لا خامسَ لها.

وأمرنا الله في الآية بالجهاد في سبيله، لنكون من المفلحين ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾ والجهاد في سبيل الله يكون بقتال أعدائه، والالتزام بما أمرنا الله تعالى به في الآية يحقق لنا الفوز والنجاح في الدنيا والآخرة.

٧- شدة عقوبة الكافرين في يوم الدين:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه لو كان للواحد من الكافرين في يوم الدين ما في الأرض جميعاً ومِثْلَه معه لافتدى به من عذابِ يوم القيامة، وأخبرنا اللهُ -عز وجل- أنه لو كان لهم مثلُ ذلك، وافتدَوْا به، ما تُقُبِّلَ منهم، ولهم عذابٌ أليم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [المائدة:٣٦].

ونظيرُ هذه الآية ما سبق في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ [آل عمران:٩١].

وقد روى أنس بن مالكٍ يرفعه: «إنَّ اللهَ يقولُ لأهْوَنِ أهلِ النارِ عذاباً: لو أنَّ لكَ ما في الأرض من شيءٍ كنتَ تفتدي به؟ قال: نعم، قال: فقد سألتُكَ ما هو أهونُ من هذا وأنت في صُلْبِ آدمَ: أن لا تُشْرِكَ بي، فأبَيْتَ إلا الشركَ» [البخاري: ٣٣٣٤. ومسلم: ٢٨٠٥].

جنـــــة السـنـــــة

٨- **أهلُ النار محاصرون في النار لا يستطيعون الخروجَ منها:**

أخبرنا اللهُ -تعالى- أنَّ أهلَ النار محاصرون في النار، يريدون الخروج منها، ولكنهم مَغْلوبونَ مقهورونَ لا يستطيعونَ الخروجَ منها، ولهم فيها عذابٌ مقيم، أي: دائمٌ لا ينقطعُ ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة:٣٧].

وقد أرادَ بعضُ المعتزلة حملَ الآية على خلود عصاةِ المؤمنين في النار، وغفلَ هؤلاءِ عن أنَّ الآيةَ صريحة في أنها في الكفارِ، لا في عصاةِ المؤمنين

رابعاً: ما تهدينا إليه الآياتُ من علم وعمل

إذا أمعنا النظر في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- بيَّنَ اللهُ في هذه الآيات حكمَ الذي يخرج على إمام المسلمين المقيم لشرع الله في المجتمع الإسلامي، فحكمهم أن يُقتَّلوا أو يُصَلَّبُوا أو تقطَّعَ أيديهم وأرجلهم من خلافٍ أو يُنْفَوْا من الأرض.

٢- المحاربون الذين أقيم عليهم الحدُّ في الدنيا لا تسقط عنهم العقوبةُ يومَ القيامة، ما لم يتوبوا.

٣- العقوبةُ الدنيويةُ التي تنزلُ بالمحاربينَ توقعُ بهم الخزيَ، وهو الذلُّ والخسار والهوانُ.

٤- المحاربون الذين يتوبون عن محاربتهم لله ورسولِه قبل أن نُمْسِكَ بهم يسقطُ حدُّ العقوبةِ عنهم.

٥- المفلحون هم الذين اتقوا الله، وابتغوا إليه الوسيلة، أي: القربةَ، بفعل الواجبات والمستحبات وترك المحرمات، وجاهدوا أعداءَه.

٦- عِظَمُ عذابِ يوم القيامة، فالكافرون لو كان لهم ما في الأرض كلِّها ومثلها معها لافتدوا به من عذابها، ولكنَّ اللهَ لا يقبل منهم.

٧- الكفارُ خالدونَ في النار، لا يستطيعونَ الخروجَ منها مهما حاولوا، وعذابُهم فيها أبَدِيٌّ سرمديٌّ.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الثاني عشر من سورة المائدة
وجوب قطع يد السارق والسارقة

أولاً: تقديم

بيَّنَتْ آياتُ هذا النص حُكْمَ السارق والسارقة، فأوجب اللهُ قطْعَ يد من سَرَقَ منهما «وقد قُطِعَ السارقُ في الجاهلية، وأولُ من حكم بقطعه في الجاهلية الوليد بن المغيرة، فأمر اللهُ بقطع يد السارق في الإسلام، فكان أوَّلَ سارقٍ قَطَعَهُ رسولُ ﷺ في الإسلام الخيارُ بن عديّ ابن نوفلٍ بن عبد منافٍ، ومن النساء مُرَّةُ بنتُ سفيانَ بن عبد الأسد من بني مخزوم» [تفسير الماوردي: ١/ ٤٦٤].

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [المائدة:٣٨-٤٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- حكم السارق والسارقة:

السرقةُ: أخذُ المرءِ مالَ غيرِه خفيةً من حِرْزٍ، والحرز هو الموضع الذي تُحْفَظُ فيه الأموالُ كلٌّ بحسبِهِ.

وقد حكم العزيز الحكيم بقطع يد من سرق من الرجال والنساء، قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة:٣٨].

٢- مقدارُ المال الذي يجبُ فيه القَطْعُ:

لا بدَّ أنْ يكونَ المالُ المسروقُ ذا قيمة حتى تُقْطَعَ فيه اليدُ، وقد حَدَّد الرسول ﷺ المالَ المسروقَ الذي تقطع فيه اليد برُبْعِ دينارٍ، فعن عائشةَ قالت: قال النبيُّ ﷺ: «تُقْطَعُ اليدُ في رُبْعِ دينارٍ فصاعداً» [البخاري: ٦٧٨٩. ومسلم: ١٦٨٤].

جنـــــة الســــــنة

والدينارُ بوزن اليوم يساوي أربعةَ غراماتٍ وربعاً تقريباً، فإذا سرق السارقُ ذهباً مقدارُه ربع دينار، أو سرق فضةً أو بضاعة قيمتها رُبع دينار وجب قطع يده، فإن كان الذهبُ أو قيمةُ ما سرقَهُ أقلَّ من ربع دينارٍ لم تقطع، وقد ذهبَ بعض أهل العلم إلى تقدير المسروقِ بثلاثة دراهم، واحتجوا بحديث ابن عمر رضي الله عنهما «أنَّ رسولَ الله ﷺ قَطَعَ في مِجَنٍّ قيمتُهُ ثلاثة دراهم» [البخاري: ٦٧٩٥. ومسلم: ١٦٨٦].

والثلاثةُ دراهم كانتْ تساوي في عهد الرسول ﷺ رُبْعَ دينارٍ.

وقد اختلَّت العلاقةُ اليومَ بين الذهب والفضة اختلالاً كبيراً، فأصبحت الثلاثةُ دراهم لا تساوي ربعَ دينار من الذهب، فيجب تقديرُ المال المسروق من الفضة بربع دينار مهما بلغ خلافاً لمن جعل الفضة أصْلاً مستقلاًّ بذاته.

٣- مذهبُ الذين يوجبون القطع في القليل والكثير:

ذهب الظاهريةُ إلى أن السارق تُقْطَعُ يده، لا فرق في ذلك بين أن يكون المسروق قليلاً أو كثيراً، واحتجُّوا بعموم الآية، فإنها لم تفرِّق بين القليل والكثير، كما احتجوا بما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَعَنَ اللهُ السارقَ، يسرِقُ البيضةَ فتُقْطَعُ يدُهُ، ويسرق الحَبْلَ فتقطع يده» [البخاري: ٦٧٩٩. ومسلم: ١٦٨٦].

والصوابُ من القول أن قيمةَ المسروق تُحَدَّدُ بربع دينار، أو ما قيمته ربع دينار من الفضة أو البضاعة، للأحاديث الناصَّة على ذلك، فإنها خصَّتْ عمومَ الآية، أما الحديث الذي فيه سرقة البيضة أو الحبل، فقد قال الأعمش: «كانوا يرونَ أنها بيضةُ الحديد، والحَبْلُ كانوا يرون أنه منها ما يساوي الدراهم» [انظره في البخاري بعد الحديث: ٦٧٨٣. وفي مسلم بعد حديث ١٦٨٧].

٤- لا يكونُ القطع إلا إذا سَرَقَ السارقُ من حرْزٍ:

لا يكونُ القطعُ إلا إذا سَرَقَ المالَ من موضعٍ تُحْفَظُ فيه الأموال، وموضعُ حفظ الذهب والفضة والنقود الخزائنُ في البيوت، وموضعُ حفْظِ الأثاثِ البيوتُ، وموضعُ حفظ البقر والغنم الحظائر، وموضع حفظ الحبوب صوامعُ الغِلال، وهكذا، فلا يُقْطَعُ من وَجَد مالاً ملقىً على الأرضِ، أو وجد بهيمةً في الطريق، أو أخذ رُطَباً من نخلةٍ لا حائطَ لها، ولا حارسَ يحرُسُها.

٥- قطعُ يد جاحد العارية:

ذهب كثير من أهل العلم إلى عدم قطع يد جاحد العارية، وذهب الحنابلة والليث بنُ سعدٍ، وسعيدُ بن المسيَّبِ إلى وجوبِ قطع يده [زاد المسير: ٢/ ٣٥٢]. ودليلُ من ذهب إلى وجوب

جنـــــة الســــــنة

قطع يد الذي يجحَدُها ما رَوَتْه عائشةُ قالت: «كانت امرأةٌ من مَخْزومٍ تَسْتَعيرُ المتاعَ وتَجْحَدُه، فأمرَ النبيُّ أن تُقطعَ يَدُها» [مسلم: ١٦٨٨].

وعن عروة بن الزبير أنَّ امرأةً سرقت في عهد رسول الله ﷺ في غزوة الفتح، ففزع قومُها إلى أسامة بن زيدٍ يستشفعونَهُ.

قال عروةُ: فلما كلَّمَهُ أسامةُ فيها تلوَّن وجهُ رسولِ الله ﷺ، فقال: «أتُكلِّمُني في حدٍّ من حدود الله». قال أسامةُ: استغْفِر لي يا رسولَ الله، فلما كان العشيُّ قام رسولُ الله خطيباً، فأثنى على الله بما هو أهلُهُ، ثم قال: «أما بعدُ، فإنما أهْلَكَ الناسَ قبلَكُمْ: أنَّهُمْ كانوا إذا سرق فيهمُ الشريفُ تركوهُ، وإذا سرق فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحد، والذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ، لو أن فاطمةَ بنتَ محمدٍ سرقت لقطعتُ يدها. ثم أمر رسولُ الله ﷺ بتلك المرأة فقُطعتْ يدُها، فحَسُنت توْبَتُها بعد ذلك وتزوَّجتْ، قالت عائشة: فكانت تأتي بعد ذلك، فأرْفَعُ حاجتَها إلى رسولِ الله ﷺ» [البخاري: ٤٣٠٤. ومسلم: ١٦٨٨].

٦- إذا سرق رجلٌ مالاً له فيه شبهةٌ فلا قطع فيه:

إذا سرق امرؤٌ مالاً له فيه شبهةٌ فلا قطعَ فيه، كالعبد يسرقُ من مالِ سيِّده، والولدُ يسرقُ من مالِ والده، والوالدُ يسرقُ من مال ولده، أو أحدُ الشريكين يسرق من المال المشترك شيئاً، ومن اضطرَّهُ الجوع إلى السرقة لم يُقْطعْ عند مالكٍ لتحليل الميتةِ له، وكذا من سرق من غير حرز، أو سرق أقلَّ من النصاب.

٧- الحكمةُ من وراء قطع يد السارق:

قال ربُّ العزة مبيناً الحكمة من وراء قطع يد السارق ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨﴾ [المائدة:٣٨] أي: مجازاةً على صنيعهما السيئ في أخذ أموال الناس بأيديهم، فناسبَ أن يُقْطعَ العُضْوُ الذي استعانا على السرقة به، وقولُهُ: ﴿نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ أي: تنكيلاً من الله بهما على ارتكاب ذلك، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: قويٌّ غالبٌ منتقم، و﴿حَكِيمٞ﴾ في أمْرِه ونهيِهِ وشرعِهِ وقدَرِهِ.

قال الأصمعي: «قرأتُ هذه الآية، وإلى جنبي أعرابيٌّ، فقلت: والله غفور رحيم، سهواً، فقال الأعرابيُّ: كلام من هذا؟ قلتُ: كلام الله، قال: أعِدْ، فأعَدْتُ: واللهُ غفورٌ رحيم، فقال: ليس هذا كلامَ الله، فتنبهت، فقلت: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨﴾ فقال: أصبتَ، هذا كلامُ الله، فقلتُ له: أتقرأُ القرآن؟ قال: لا، قلت: فمن أينَ علمتَ أني أخطأتُ. فقال: يا هذا عَزَّ فحكم فقطع، ولو غفر ورحِم لما قطع» [زاد المسير: ٢/ ٣٥٤].

جنـــــة السـنـــــة

وقد اعترضَ الذين ضَلَّتْ عقولهم على هذا التشريع الإلهي الرباني، فمن هؤلاء في القديم أبو العلاء المعري أعْمى البصر والبصيرة الذي قال:

يَـدٌ بِخَمْـسِ مِئِـينٍ عَسْـجَدٍ وُدِيَـتْ ... مـا بالُهـا قُطِعَـتْ في رُبـعِ دينـارِ

وقد أجابه من فقه الحكمةَ من وراءِ هذا التشريع فقال:

عِـزُّ الأمانـةِ أغلاهـا وأرخصـها ... ذلُّ الخيانـةِ فافقـه حكمـةَ البـاري

وقال القاضي عبدالوهاب المالكي رحمه الله تعالى: «لما كانتْ أمينةً كانت ثمينةً، فلما خانت هانت» [ابن كثير: ٢/ ٥٤٢].

وقد استبدلت القوانينُ الوضعيةُ عقوبةَ القطع في السرقة بالحبسِ، وزعموا أنَّ القطعَ لا يناسبُ الحضارةَ والمدنيةَ، وأنَّ فيه قسْوةً وهمجيةً، وها هي عقوبةُ الحبس لم تُجْدِ شيئاً، ولم تقطع دابرَ الجريمة، لا في المجتمعات الغربية، ولا في المجتمعات الإسلامية، فما فائدةُ هذه العقوبة التي ساعدت على نشر الجريمة، أما العقوبة الإلهية الربانية فقد أوجدت الوازعَ للقضاء على الجريمة، وكادت أن تقضي على جريمة السرقة، وتزيلها. فأيُّ العقوبتين أولى بالتطبيق والرعاية والتنفيذ!!

٨- **توبةُ السارق:**

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ من تابَ من السرقة، فإنَّ اللهَ يتوبُ عليه، إنَّ اللهَ غفور رحيم ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [المائدة:٣٩]. قال ابن جُزَيٍّ الكلبي: «توبةُ السارق هو أن يندمَ على ما مضى، ويُقلعَ عما يُستَقْبَلُ، ويردَّ ما سرق إلى من يستحقه، واختلفَ فيه إذا تابَ قبل أن يصل إلى الحاكم، هل يسقطُ عنه القطعُ، وهو مذهبُ الشافعي لظاهر الآية، أو لا يسقط عنه، وهو مذهب مالكٍ، لأن الحدود عندَه لا تسقطُ بالتوبة إلا عن المحارب للنصِّ عليه» [كتاب التسهيل: ٢/ ١٧٦].

والصوابُ من القول أنَّ صاحب المال إذا عفا عن السارق قبل أن ترفعَ القضيةُ إلى الحاكم، فلا قطعَ عليه، فقد أمر رسولُ الله ﷺ بقطع يد سارقٍ سرقَ خميصةً لصفوان بن أُميَّةَ، فعفا عنه صفوانُ، فقال له الرسولُ ﷺ: «هلاَّ قَبْلَ أن تأْتِيَني به» [قال فيه المجد ابن تيمية في المنتقى: (٦٥٢) رواه الخمسة إلا الترمذي].

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: صَلُح عمله، واستقامَ على طاعة الله.

جنـــــة السـنــــة

٩- اللهُ له مُلْكُ السموات والأرض:

أخبرنا العزيزُ العليم سبحانه وتعالى أنَّ له ما في السموات والأرض، يتصرفُ فيهما بما يشاءُ، كيف يشاءُ، فيعذِّبُ من يشاءُ تعذيبه، ويغفرُ لمن يشاء، واللهُ تبارك وتعالى قادرٌ على كل شيء، لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [المائدة:٤٠] وهذا التعقيبُ من ربِّ العزة سبحانه لمناسبة ما حكَمَ به من قطعِ يد السارقِ والسارقةِ، فهو يحكمُ فيما يملكه من عبادِهِ بما شاءَ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أوجبَ العزيزُ الحكيم قطع يد السارق ويد السارقة.

٢- خَصَّتِ السنَّةُ النبويةُ هذه الآية بأن يكون المسروقُ مالاً لا تقل قيمته عن ربع دينار، وأن يكون مسروقاً من موضع تحفظُ فيه الأموالُ، وهو المسمى بالحِرْز.

٣- الحكمةُ من وراء عقوبة السرقة أنَّ قطْعَ يد السارق يوجدُ دافعاً قويًّا لدى السارق أو من يريدُ السرقة لتركِ السرقة والبعد عنها، أما عقوبةُ الحبس التي جرتْ عليها القوانينُ الوضعية فإنها نشرت هذه الجريمة.

٤- إذا رفعتْ قضية السرقة إلى القاضي فلا يجوز له العفوُ عن السارق، فإذا عفا المسروقُ عن السارقِ قبل أن يرفَعَ القضية إلى القاضي جازَ له العفو عنه.

٥- العبادُ الذين حكَمَ اللهُ بقطعِ أيديهم إذا سرقوا مملوكون لله رب العالمين، وهو يتصرفُ فيهم كما يشاءُ، ولذلك فلا أظلمَ من الذين اتَّهموا حكم قطع يد السارق بالوحشية والهمجية.

٦- جاحدُ العارية كالسارق تقطعُ يده.

٧- لا تقطعُ يدُ من أخَذَ مالاً له فيه شُبهةٌ، كمن أخذ مالاً من ولده أو والده أو شريكه.

٨- يجبُ قطعُ يد السارق ولو أظهر أنه قد تابَ، وتوبةُ السارق مقبولةٌ إذا كانت صادقةً.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني الثالث عشر من سورة المائدة

نهي الله -تعالى- رسولَهُ ﷺ عن الحزن على الذين يسارعون في الكفر

أولاً: تقديم

نهى اللهُ رسولَه ﷺ -مواسياً له- عن الحزن على الذين يسارعون في الكفر من المنافقين واليهود، وقد وَصَفَ الله تعالى هؤلاء الخبثاء وبيّنَ ضلالَهُمْ، وخيَّر رسوله ﷺ إذا ما تحاكم هؤلاء إليه بين الإعراض عنهم أو الحكم بينهم بالعدل.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [المائدة: ٤١-٤٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- مواساةُ اللهِ لرسولِهِ ﷺ في نهيِهِ له عن الحزن على الذين يسارعون في الكفر:

واسى اللهُ تعالى رسولَهُ محمداً ﷺ ناهياً إيَّاهُ عن الحزنِ على الذين يسارعون في الكفر ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ [المائدة: ٤١].

والمسارعةُ في الكفر تكونُ بالتعجُّلِ في السعي بما يقتضيه الكفرُ، فالكفارُ من اليهود والنصارى والمشركين يستمسكون بدينهم، ويفخرون بالانتساب إليه، ويبذلون أموالهم لنصرته وعِزَّته، ويحاربونَ المؤمنين لنشره وإقامته.

جنــــة الســــــنة

٢- **التعريفُ بالذين يسارعون في الكفر:**

وعرَّفنا الله تعالى بالذين يسارعون في الكفر الذين نَهَى اللهُ رسولَه عن الحزنِ عليهم، فقال: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ [المائدة:٤١]. وقد أخبرنا اللهُ تعالى أنَّ مراده بالذين يسارعون في الكفر طائفتان: الأولى: المنافقون الذين ادَّعوا الإيمان بأفواهِهِمْ، ولم تؤمن قلوبهم. والثانية: اليهودُ الذين اعتادوا سماعَ الكذب، وهو الباطلُ، وهم في الوقت نفسه سمّاعون، أي: كثيرو السَّماعِ لقومٍ آخرينَ، والقومُ الآخرون لا يأتون مجالسَ الرسول ﷺ، وهؤلاء بعضُ زعماء اليهود من أحبارهم وسادَتِهم، لأنه قال فيهم: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ [المائدة:٤١] أي: يُحرِّفون كلام الله تعالى، من بعد أنْ وضَعه اللهُ مواضِعه، كما سيأتي بيان ما فعلوه بشأن حكم الزانية والزاني المنصوص عليه في التوراةِ.

٣- **سبب نزول هذه الآية:**

نزلت هذه الآية في اليهوديين اللذين زنيا، فرفع اليهودُ أمرهُما إلى النبي ﷺ، وقالَ لهم أحبارُهُم وسادَتُهُم: إن حكم فيكم محمدٌ بمثل ما تحكمون فيهم، فاقلبوه، وخُذُوا به، وإنْ حكم فيهم بغير ذلك، كأن يحكم فيهم بالرجم، فاحذروا ما حكم به، ولا تقبلوه ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْۚ﴾ [المائدة:٤١].

روى نافعٌ عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: أنَّ اليهودَ جاؤوا إلى النبي ﷺ برجلٍ منهم وامرأةٍ قد زنيا، فقالَ لهم: «كيف تفعلونَ بمن زنَى منكم؟». قالوا: نُحَمِّمُهُما ونَضرِبُهُما، فقال: «لا تجدون في التوراة الرجم؟». فقالوا: لا نجد فيها شيئاً، فقال لهم عبدالله بن سلام: كذبتُمْ، فائتوا بالتوراة فاتْلُوها إن كنتم صادقين، فوضع مِدْراسُها الذي يُدرِّسُها منهم كَفَّهُ على آية الرجم، فطفِقَ يقرأُ ما دون يده وما وراءَها، ولا يقرأُ آيةَ الرجمِ، فنزع يدَهُ عن آية الرجم، فقال: ما هذه؟ فلما رأوا ذلك قالوا: هي آيةُ الرجم، فأمر بهما فرُجِما قريباً من حيثُ موضعُ الجنائز عند المسجد، فرأيتُ صاحبها يَحْني عليها، يَقيها الحجارة [البخاري: ٤٥٥٦. ومسلم: ١٦٩٩ بدون ذكر موضع الجنائز].

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أيضاً قال: أُتِيَ النبيُّ برجلٍ وامرأةٍ من اليهود قد زَنَيا، فقال لليهود: «ما تصنعون بهما؟». قالوا: نُسَخِّم وجوههما ونخزيهما، قال: « فائتوا بالتوراة، فاتلوها إن كنتم صادقين » فجاؤوا، فقالوا لرجل ممن يرضون يا أعْوَرُ: اقرأ، فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها فوضع يده عليه؛ قال: «ارفع يَدَكَ» فرفع يده فإذا فيه آية الرجم

جنـــــة الســـــنة

تلوحُ، فقال: يا محمدُ، إنَّ عليهما الرَّجمَ، ولكنا نُكاتِمُهُ بيننا، فأمر بهما فرُجما، فرأيته يُجانئ عليها الحجارة [البخاري: ٧٥٤٣].

وعن نافع أن عبدالله بن عمر أخبره، أن رسولَ الله ﷺ أُتيَ بيهوديٍّ ويهودية قد زنيا، فانطلق رسولُ الله ﷺ حتى جاء يهودَ، فقال: «ما تجدون في التوراة على من زنى؟»، قالوا: نسوِّدُ وجوهَهُما ونُحمِّلُهُما، ونُخالِفُ بين وجوههما، ويُطافُ بهما، قال: «فائتوا بالتوراة، إن كنتم صادقين»، فجاؤوا بها فقرؤوها، حتى إذا مرُّوا بآية الرجم، وضع الفتى، الذي يقرأ، يده على آية الرجم، وقرأ ما بين يديها وما وراءها، فقال له عبدالله بن سلام، وهو مع رسول الله ﷺ : مُرْهُ فليرفعَ يده، فرفعها، فإذا تحتها آية الرجم، فأمر بهما رسولُ الله ﷺ ، فرُجما.

قال عبدالله بن عمر: «كنت فيمن رجمهما، فلقد رأيتُهُ يقيها من الحجارة بنفسه» [مسلم: ١٦٩٩].

وعن البراء بن عازب، قال: مُرَّ على النبي ﷺ بيهودي محمَّماً مَجْلوداً، فدعاهم ﷺ فقال: «هكذا تجدون حَدَّ الزاني في كتابكم؟». قالوا: نعم، فدعا رجلاً من عُلمائهم، فقال: «أنشدُكَ بالله الذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟». قال: لا، ولولا أنك نشدْتني بهذا، لم أخبركَ، نجدُهُ الرجم، ولكنه كَثُرَ في أشرافِنا، فكُنّا، إذا أخَذنا الشريف تركناهُ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله ﷺ : «اللهم! إني أولُ من أحيا أمرك إذ أماتوه». فأمر به، فرُجم، فأنزلَ الله عز وجل: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ ﴾ [المائدة:٤١] يقول: ائتوا محمداً ﷺ ، فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفْتاكم بالرجم فاحذروا. فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة:٤٤]، ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المائدة:٤٥]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المائدة:٤٧]. في الكفار كلها [مسلم: ١٧٠٠].

٤- ومن يرد الله إضلاله فلا تستطيع أن تستنقذه من الكفر والضلال:

قال اللهُ -تعالى- لرسوله ﷺ : ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ ﴾ [المائدة:٤١]، أي: إضلاله، ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ [المائدة:٤١] لا تقدرُ على استنقاذه من الكفر والضلال.

جنـــــة السـنـــــة

وقد أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنه لم يُرِدْ أن يُطهِّر قلوبَ هؤلاء المنافقين واليهود من قاذورات الشرك والكفر والذنوب والمعاصي التي حلّت فيها وخالطتها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [المائدة:٤١] وأعلمنا ربنا -تبارك وتعالى- أنَّ هؤلاء المنافقين واليهود ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٤١﴾ [المائدة:٤١] وقد أخزى المنافقين في الدنيا، ففضح أسرارهم، وأطلع النبي ﷺ وصحابته على كُفرهم الذي أضْمَروه وأخْفَوْه، وأخزى اليهود، وأظهر ما كتموه من الدين الذي أنزله الله إليهم، ثم بعد ذلك أخزاهم بقتال الرسول ﷺ وأصحابه لهم، وهزيمتهم، وإخْراجهم من ديارهم، وقَتَلَ المقاتلةِ من اليهود منهم، وسبى نساءَهم وأبناءهم.

وأخبرنا ربُّنا -العلي الأعلى سبحانه- أن هؤلاء المنافقين لهم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٞ ٤١﴾ في يوم الدين، فيزيدهم في ذلك اليوم خزياً على خزيهم.

٥- ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أن اليهود ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾ [المائدة:٤٢] وسمَّاع صيغةُ مبالغةٍ، يعني أنهم يُكثرون من الحديث بالكذب، ويكثرون من الاستماع للأحاديث الباطلة المكذوبة، و﴿أَكَّٰلُونَ﴾ صيغةُ مبالغةٍ، يدلُّ على كثرة أكْلِهم لما حرَّمه اللهُ عليهم. ومن الكذب الذي يدور فيهم، ويكثرون من الاستماع إليه أنّ محمداً كاذبٌ، وليس بنبيٍّ، وكتمانهم الآيات المبشِّرة برسولِنا ﷺ في توراتهم، وكتمانُهُمْ للأحكام الشرعية التي ألزمهم اللهُ تعالى بها كحكم الزنا وحكم القصاص، ومع كثرة دوران الكذب عليهم بينهم فإنهم أكّالون للسُّحْت، أي: يكثرون من أكل السُّحْتِ، والسُّحْتُ: كلُّ ما لا يحلُّ كَسْبُه من المال، سمَّى الله تعالى المالَ الحرام سُحْتاً، لأنه يُذهبُ المالَ، ويهلكه، ويَفْنيه. قال مكيٌّ: «سُمِّي المالُ الحرامُ سحتاً، لأنه يذْهَبُ من حيث يُسْحِتُ الطاعات، أي يذهبُ بها قليلاً قليلاً» [المحرر الوجيز: ٣/ ١٧١].

وقد فسَّر كثير من المفسرين السحتَ بضرب الأمثلة له، فقال بعضهم: هو الرشوةُ، وقال آخرون: هو مهرُ البغيِّ، وقال بعضهم: هو الخمر، وكلُّ ذلك ضربٌ للأمثال، والسحتُ أوْسَعُ من ذلك، وهو كلُّ ما لا يحلُّ كَسْبُه.

جنـــــة الســـــنة

٦- **خيِّر الرسولُ ﷺ إذا تحاكم إليه اليهودُ أنْ يحكُم فيهم أو يُعْرِض عنهم:**

أمر اللهُ رسولَه ﷺ مُخيِّراً له أنه إذا تحاكم إليه اليهودُ في أمْر خاصٍّ بهم كما تحاكموا إليه في الرجلِ والمرأة اللذين زنيا أنْ يحكُمَ بينهم بالعدل أو يُعْرِض عنهم ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ﴾ [المائدة:٤٢].

وأخبر اللهُ رسولَه ﷺ أنه إنْ أعرضَ عنهم، فلم يحكم بينهم، فلن يضُرُّوه شيئاً، وإن حكم بينهم فيجبُ عليه أن يحكُم بينهم بالقسط، أي: بالعدل، ﴿وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ [المائدة:٤٢] وحكم الرسول ﷺ في اللذين زنيا وأمَرَ برجمهما، فرُجِما، وحثَّ الله تعالى على الحكم بالعدل بإخباره سبحانه أنه ﴿يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٤٢﴾ [المائدة:٤٢].

وقد ذهب جمعٌ من أهل العلم إلى أنَّ التخييرَ الموجودَ في الآية منسوخٌ بقوله تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [المائدة:٤٨] والصوابُ من القول أنه لا نسخ، وأنَّ المأمورَ به هنا هو حالةُ اختيارِ الرسولِ ﷺ الحكم بينهم، فإنه يجبُ عليه أن يحكم بينهم في هذه الحالة بالعدل.

٧- **تعجيبُ الله رسولَه ﷺ من تحكيم اليهود له وعندهُمُ التوراة فيها حُكْم الله:**

وجَّه اللهُ -تعالى- السؤالَ إلى رسولِهِ ﷺ قائلاً له: ﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٤٣﴾ [المائدة:٤٣] قال ابنُ الجوزي: «هذا تعجيبٌ من الله -عز وجلّ- لنبيه من تحكيم اليهود إياه بعد علمهم بما في التوراة من حكم ما تحاكموا إليه فيه، وتقريعُ اليهود إذ يتحاكمون إلى من يجحدون نبوتَه، ويتركون حكمَ التوراة التي يعتقدون صحتها» [زاد المسير: ٢/ ٣٦٢].

وقوله تعالى: ﴿فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾ أي: حُكْمُ الله فيما تحاكموا فيه إلى رسولِنا ﷺ، وقولُه سبحانه: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ﴾ أي: من بعد تحكيمك. وقوله: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٤٣﴾ أي: لتحريفهم التوراة، وعدم رضاهم بحكم الله فيها.

٨- **حكم الله بالرجم لا يزال مسطوراً في التوراة:**

لا يزالُ حكمُ الله الذي حكم فيه برجم الزانية والزاني موجوداً في التوراة إلى اليوم، جاء في (سفر التثنية) فقرة: (٢٢-٢٧): «٢٢ إذا وُجِدَ رجلٌ مضطجعاً مع امرأةٍ زوجةِ بعلٍ

جنـــــة السـنـــــة

يُقتَل الاثنان، الرجلُ المضطجعُ مع المرأة والمرأة، فتنزعَ الشرَّ من إسرائيل. ٢٣ إذا كانتْ فتاةٌ عذراءُ مخطوبةٌ لرجلٍ فوجدها رجلٌ في المدينة واضطجع معها. ٢٤ فأخرجوهما كليهما إلى باب تِلْكَ المدينةِ، وارجموهما بالحجارةِ حتى يموتا، الفتاة مِنْ أجلِ أنها لم تصرخْ في المدينة، والرجلُ من أجل أنه أذلَّ امرأةَ صاحبِهِ، فتُنزع الشرَّ من وسطك. ٢٥ ولكن إن وَجَدَ الرجلُ الفتاةَ المخطوبة في الحقل، وأمسكها الرجلُ واضطجعَ معها يموتُ الرجلُ الذي اضطجع معها وحدهُ، ٢٦ وأما الفتاة فلا تفعل بها شيئاً، ليس على الفتاة خطيةٌ للموت بل كما يقوم رجل على صاحبِهِ ويقتلهُ قتلاً هكذا هذا الأمر، ٢٧ إنه في الحقلِ وجدَها فصَرَختِ الفتاةُ المخطوبة، فلم يكن من يخلِّصها».

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- واسَى اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ بنهيِهِ عن الحُزْنِ على الذين يسارعون في الكفر من المنافقين واليهود.

٢- أراد اللهُ بالذين يسارعونَ في الكفرِ في الآية المنافقين نفاقاً أكبر بإظهارهم الإيمانَ، وإبطانِهم الكفرَ، واليهودَ الذين هم أخْبَثُ خلقِ الله تعالى.

٣- اليهودُ الذين يسارعونَ في الكفر خبثاءُ، وأهمُّ معالمِ شخصيتهم أنَّ الكذبَ يدورُ في مجالسهم كثيراً، ويحرفون كلامَ الله عن المواضع التي وضعها اللهُ فيها، ولا يأخذون من الرسول ﷺ إلا ما وافق أهواءَهم.

٤- الذي يضلُّه اللهُ تعالى لا يستطيعُ أحدٌ هدايته.

٥- هذا الصنفُ من الناس قلوبُهُم مريضةٌ مليئةٌ بالشرك والذنوبِ والمعاصي وقد أخزاهم الله في الدنيا، وأعدَّ لهم العذابَ الأليم في الآخرة.

٦- هذا الفريقُ من البشر يُكْثِرون من الاستماع إلى الكذبِ، ويكثرون من أكْلِ السحتِ وهو الحرام.

٧- إذا ترافعَ اليهودُ ومثلهم النصارى إلى الدولة الإسلامية كان الخليفةُ أو القاضي مخيّراً بين أمرين: أن يعرض عنهم، ولا يحكُمُ فيهم فيما رفعوه إليه. والثاني: أن يحكمَ بينهم بالعدلِ.

جنـــــة السـنــة

٨- كان تحاكمُ اليهود إلى رسولنا ﷺ أمراً يُسْتَحقُّ التعجّبُ منه، فإنهم تحاكموا برغبتهم إلى الشخص الذي يعادُونَهُ، والحكمُ الذي تحاكموا فيه موجود في توراتِهِم، وهم عنه مُعْرِضونَ.

٩- بعض ما أنْزَلَهُ اللهُ في التوراة لا يزالُ على حاله لم يتغير، ولم يُحَرَّف، ومنه حُكْمُ الله في الزاني والزانية، وأنه الرجْمُ.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الرابع عشر من سورة المائدة
أنزل الله التوراة فيها هدى ونور

أولاً: تقديم

أثنى اللهُ -تعالى- على التوراة، وهي الكتابُ السماويُّ الذي أَنْزَلَه على رسولَيْه موسى وهارون، وكانت آياتُها تهدي إلى الصواب، وتنيرُ للعباد قلوبَهُم، وتدلُّهُمْ على الحقِّ، وكان يحكم بها أنبياءُ بني إسرائيل للذين هادوا، كما كان يحكمُ بها الربانيون والأحبار، وأعلمنا اللهُ -تعالى- في الآية الثانية من هذا النص ما كتبه اللهُ على بني إسرائيل من القصاص في التوراة.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المائدة:٤٤-٤٥].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ثناءُ الله عز وجل على التوراة:

أثنى ربُّنا -عز وجل- على كتابه: «التوراة» التي أنزلها على الرسولين الكريمين موسى وهارون عليهما السلامُ فقال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة:٤٤] فقد أنزل اللهُ -تعالى- التوراة فيها هُدىً ونور، والهدى والنورُ، ما أنزلَه اللهُ تعالى في التوراة من النصوص المعرِّفة به، وبملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والمعرفة بدينه وشريعته.

٢- وجوبُ تحاكم اليهود إلى شريعة التوراة قبل بعثة رسولنا ﷺ:

أخبرنا ربُّنا -وهو العليمُ الحكيم- أنه كان يحكم بالتوراة النبيون من بني إسرائيل والربانيون والأحبار ﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة:٤٤] والنبيون الذين أسلموا هم جميعُ أنبياء بني إسرائيل من

جنـــــة السـ ــــنة

موسى إلى نبي الله عيسى عليهما السلام، وقولُهُ: ﴿أَسْلَمُواْ﴾ يدلُّ أنَّ جميعَ أنبياءِ ورسلِ بني إسرائيل كانوا على دين الإسلام، فإبراهيمُ ﷺ قال له ربُّه: ﴿أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٣١﴾ [البقرة:١٣١] وقال إبراهيمُ وإسماعيل عليهما السلام وهما يدعوان اللهَ حالَ بنائهما الكعبة ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة:١٢٨] وليس عند الله دينٌ غيرِ الإسلام ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، ومن طلب ديناً غير الإسلام فلن يقبل اللهُ منه ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥].

وكما كلَّفَ اللهُ النبيين بالحكم في اليهود بشريعة التوراة، كذلك كَلَّف بذلك علماءَهم وهم الربانيون والأحبارُ، قال ابن عطية: «ويَحْكُم بها الربانيون، وهم العلماءُ، وفي البخاريِّ قال: الربانيُّ: الذي يُرَبِّي الناس بصغارِ العلم قبلَ كبارِه، وقيلَ الربانيُّ: منسوبٌ إلى الربِّ، أي: عنده العلمُ به وبدينه، والأحبارُ: العلماءُ أيضاً، واحدُهم حِبْر» [المحرر الوجيز: ٣/ ١٧٥].

٣- عهدُ الله للربانيين والأحبار بحفظ التوراة:

أخبرنا مولانا سبحانه وتعالى أنه عهدَ إلى الربانيين والأحبار بالحكم بكتابه التوراة، كما عهد إليهم بحفظ ذلك الكتاب ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٤٤] أي: استودَعهُمُ اللهُ كتابَهَ، وأمرهُمْ بحفظه، فضيَّعُوه، وغيَّروهُ، وبدَّلوه وحرَّفوه، بخلافِ القرآن الكريم، فإن اللهَ تعالى تولَّى حِفْظَه بنفسه، فبقي محفوظاً لم يضع منه شيء ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجرات:٩]. وقوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ﴾ أي: كان الربانيونُ والأحبارُ شهداءَ على ما في التوراةِ من الهدى والشرائع والأحكام.

وإنما وَكَلَ الله حفظه إلى الربانيين والأحبار، لأنه أُنْزِل لأمَّةٍ بعينها، ولأجل محدودٍ، أما القرآنُ فهو للبشر كلِّهم إلى أنْ تقومَ الساعةُ، فلا بدَّ أن يبقى محفوظاً، كي تبقى الحجةُ قائمةً به إلى آخر الوقت.

٤- أمر اللهُ تعالى الربانيينَ والأحبار بعدم خشية الناس وأمرَهم بخشيته هو:

أمَرَ اللهُ الربانيين والأحبارَ من اليهود الذين استحفظهُمْ كتابَهُ التوراةَ أنْ يتَّبِعُوا الحق الذي أَنْزَلَهُ الله إليهم، ونهاهم أنْ يخشوا الناسَ، كما نهاهم عن أن يشتروا بآياته ثمناً قليلاً، فقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًاۚ﴾ [المائدة:٤٤] وهذه الآية تدلُّ على أنَّ الذي يحولُ بين العلماء وبين الحكم بالحق الذي أَنْزَلَهَ اللهُ إليهم أمْرانِ: الأول: مخافةُ أصحابِ السلطان وأصحاب المال، والثاني: أَخْذُهم الرِّشا من أصحاب السلطان

جنـــة السـنـــة

وأصحاب المال، ليحكموا لهم بالباطل، فإذا خاف العالمُ ربَّه، وخاف وقوفَه بين يديه، حكمَ بالحق غيرمبالٍ بالمال أو السلطان، واللهُ المستعان.

٥- الذي يحكمُ بغيرِ ما أنزلَ اللهُ فهو كافر:

أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّ الذي يحكُمُ بغير ما أنْزَله اللهُ من القوانين الوضعية، والشرائع الباطلة، وأهواءِ البشر فإنه كافر ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة:٤٤] ووصف اللهُ تعالى الذين يحكمون بغير ما أنزلَهُ في الآيات التالية بأنَّهم ظالمون، وفاسقون. والصوابُ من القول أنَّ هذه الآية عامةٌ في اليهودِ والنصارى وغيرهم من الأمم، فاللهُ تعالى كفَّر كلَّ من أنزلَ إليهم شريعةً فتركوها إلى غيرها مما وضعوه واخترعوه، فإذا كان الحاكمُ بغير شريعةِ الله -عز وجل- كارِهٌ لهذه الشريعة، يرى أنها شريعةٌ همجيةٌ، لا تصلحُ لحكمِ الحياةِ، ويرى أنَّ ما قَنَّنَهُ البشرُ ووضعوه هو الذي يجبُ أن يَحْكُمَ ويسودَ، فهذا كافرٌ كفراً أكبرَ، وهو خالدٌ في نارِ جهنَّم.

أما إذا كان يرى أنَّ الشريعةَ الإسلامية هي الشريعةُ الصالحةُ لحكمِ الحياةِ، ولكنه حكمَ بغير حُكْم الله اتباعاً للهوى، فهذا لا شكَّ أنَّه آثِمٌ وجُرْمُهُ عظيمٌ، ولكنه لا يصلُ إلى الشركِ الأكبرِ.

٦- أقوالُ أهلِ العلمِ المحقِّقةُ لهذه المسألة:

قال الطبريُّ: قال ابن عباس: «من جَحَدَ ما أنزلَ الله فقدْ كَفَرَ، ومن أقرَّ به ولم يَحْكُم، فهو ظالمٌ فاسق» وقال الطبري: «من لم يحكم بما أنزلَ اللهُ جاحداً به فهو بالله كافرٌ، كما قال ابن عباس، لأنه بجحوده حُكْمَ الله بعدَ علمه أنَّه أنزله في كتابه نظير جُحُودِهِ نبوة نبيِّهِ بعد علمه أنَّه نبيٌّ» [تفسير الطبري: ٤/ ٢٩٠٠].

وقال ابنُ الجوزيِّ: «وفَصْلُ الخطاب: أنَّ من لم يحكم بما أنزل الله جاحداً له، وهو يعلم أنَّ الله أنزلَهُ، كما فعلتِ اليهودُ فهو كافر، ومن لم يحكم به مَيْلاً إلى الهوى من غير جحودٍ فهو ظالمٌ فاسقٌ» [زاد المسير: ٢/ ٣٦٦].

وقال ابن القيمِ: «والصحيحُ أنَّ الحكمَ بغير ما أنزلَ اللهُ يتناولَ الكُفْرَيْنِ: الأصغرَ والأكبرَ، بحسبِ حالِ الحاكم، فإنه إن اعتقدَ وجوبَ الحكم بما أنزلَ الله في هذه الواقعة، وعَدَلَ عنها عصياناً، مع اعترافِهِ بأنَّه مستحقٌّ للعقوبة، فهذا كفرٌ أصغر، وإن اعتقد أنَّه غيرُ واجبٍ، وأنَّه مُخَيَّرٌ فيه، مع تيقنه حكمَ الله، فهذا كفرٌ أكبرُ، وإن جَهِلَهُ وأخطأه، فهذا مخطئٌ، له حكم المخطئين» [بدائع التفسير: ٢/ ١١٢].

جنـــــة الســـــنة

وخلاصةُ القول أن الذي يرفض حكم الله ويكرهه وينكره كافر لا شكَّ في كفره، ومن آمن به، وتركه اتباعاً للهوى، فهو ظالمٌ فاسقٌ، وليس كافراً.

٧- كتبَ اللهُ على اليهود في التوراة القصاصَ في النَّفْسِ والأعضاءِ والجروح:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- بما كتبَهُ على بني إسرائيل في القصاص بالنفس فما دونه، فقال: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة:٤٥].

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه كتبَ على بني إسرائيلَ في التوراة، أنَّ النفسَ التي قتلتْ نفساً، فإنها تُقتَلُ بها، ثم ذكَرَ سبحانه أنّ الذي يعتدي على آخر بإذهاب عُضْوٍ من أعضائه، فإنَّه يُقْتَصُّ منه بإذهاب ذلك العُضْوِ، فقدْ ذكرَ سبحانَه وتعالى أنَّ العينَ بالعينِ، والأنفَ بالأنفِ، والأذنَ بالأذنِ، والسنَّ بالسنِّ، والجروح قصاصٌ، وأعلمنا ربُّنا تبارك وتعالى في خاتمة النصِّ، أنَّ من لم يَحْكُمْ بما أنزلَ الله فأولئك هم الظالمون.

وهذا الحكم الذي تضمنتْهُ الآيةُ مقرَّرٌ في شريعتنا جرى عليه العملُ منذُ العهد النبوي، ففي الصحيحين عن أنس بن مالكٍ أنَّ الرُّبَيِّعَ، وهي ابنةُ النَّضْر كَسَرتْ ثنيَّةَ جاريةٍ، فطلبوا الأرْشَ، وطلبوا العفو فأبَوْا، فأتوا النبي ﷺ فأمرهم بالقصاص، فقال أنسُ بنُ النَّضْرِ: أتُكسَرُ ثنيةُ الرُّبَيِّعِ يا رسولَ الله؟ لا، والذي بَعَثَكَ بالحق لا تُكْسَر ثنيَّتُها، فقال: «يا أنسُ، كتابُ الله القصاصُ». فرضي القومُ وعفوا، فقال النبي ﷺ: «إنَّ من عبادِ الله، من لو أقسَم على الله لأبَرَّهُ».

زادَ الفزاريُّ: عن حميدٍ، عن أنس: «فرِضي القومُ، وقَبِلُوا الأرْشَ» [البخاري: ٢٧٠٣. ومسلم: ١٦٧٥ باختلاف].

ووجهُ الاستدلالِ بالحديث أنَّ الرسولَ ﷺ قال لأنسِ بن النُّضْرِ: «يا أنسُ، كتابُ الله القصاصُ».

وقوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة:٤٥] أي: فمن عفا عن القصاص، أي: عفا عمَّنْ قَلَع عينَه، أو قطعَ أَنْفَهُ أو أُذنَهُ، أو قلعَ سِنَّهُ، أو جَرَحَهُ، فإنَّه يحطُّ من ذنوبِهِ وخطاياه بمقدارِ ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة:٤٥] الظلمُ أوْسَعُ من الكفرِ، فقد يكونُ الظلمُ كفراً، وقد يكونُ معصيةً أو ذنباً دونَ الكُفرِ.

جنـــة الســـــنة

٨- **هذا الحكم لا يزالُ موجوداً في التوراة إلى اليوم:**

لا يزال هذا الحكم باقياً في التوراة حتى اليوم، ففي سفر الخروج، الإصحاح الحادي والعشرين فقرة (٢٣-٢٥): «وإنْ حَصَلَتْ أَذِيّةٌ تُعْطِي نَفْساً بِنَفْسٍ، ٢٤ وعَيْناً بعَيْنٍ، وسِنّاً بسِنٍّ، ويَداً بيَدٍ، ورِجْلاً برِجْلٍ، ٢٥ وكَيّاً بكَيٍّ، ورضاً بِرَضٍّ».

وجاءَ في سِفر اللاويين، الإصحاحُ الرابعُ والعشرين: «١٧ وإذا أمات أحدٌ إنساناً فإنَّه يُقْتَل»، «١٩ وإذا أَحْدَث إنْسانٌ في قَريبِهِ عَيْباً فكَما فَعَلَ يُفْعَلُ بِهِ، ٢٠ كَسْرٌ بكَسْرٍ، وعَيْنٌ بعَيْنٍ، وسِنٌّ بِسِنٍّ، كما حَدَثَ عَيْبٌ في الإنسانِ، كَذلِكَ يُحْدَثُ فيه».

وجاء في سفر التَّثْنِيةِ، الإصحاح التاسع عشَرَ، فقرة (٢١): «لا تُشْفِقْ عَيْنُك، نَفْسٌ بِنَفْسٍ، عَيْنٌ بعَيْنٍ، سِنٌّ بِسِنٍّ، يَدٌ بيَدٍ، رِجْلٌ بِرِجْلٍ».

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا أمعنَّا النظرَ في آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- التوراةُ كتابٌ عظيمٌ أنْزَلَه اللهُ من عنده على رسولِه موسى ﷺ يهدِي بني إسرائيلَ إلى ربِّه، ويدُلُّهم على شريعَتِهِمْ.

٢- كان الأنبياءُ جميعاً من موسى إلى عيسى عليهم السلامُ يحكمونَ بينَ بني إسرائيلَ بشريعةِ التوراة، وكذلك علماءُ بني إسرائيلَ الذين ائْتَمَنَهُمْ اللهُ على التوراةِ كانوا يحكمون بها.

٣- كلُّ أنبياءِ بني إسرائيلَ ورسلِهِمْ وأتباعِهِم الذين اتَّبعُوهم بصِدْقٍ كانوا مسلمين.

٤- وَكَّلَ اللهُ تعالى حفظَ التوراةِ إلى الربانيين والأحبارِ فأضاعُوها، وتولَّى اللهُ حفظَ القرآنِ، فبقيَ سالماً محفوظاً.

٥- وَقعَ الخَلَلُ في تحكيمِ الشريعةِ لدى اليهودِ بسببِ مخافةِ علمائِهم من سادَتِهِمْ وأثريائِهم، ولقبولِهِم الرشوة في الحُكم بغيرِ الشريعة.

٦- الذين يحكمونَ بغير ما أنزل الله جاحدينَ شريعةَ الله كفارٌ، أما الذين يقرُّون بالشريعة، ويحْكُمون بغيرها اتباعاً للهوى، فقد ارتكبوا إثماً عظيماً، ولكنّهم لا يبلغون مبلغَ الشركِ الأكْبَرِ.

٧- حَكَمَ اللهُ على بني إسرائيلَ بالقصاصِ في القتلى، وإتلافِ مثلِ العضوِ المُتْلَفِ، وكان الواجبُ على بني إسرائيلَ القصاصَ أو العفوَ، وليسَ هناك ديةٌ.

٨- هذا الحكمُ بقي في شريعَتِنا، ولكنَّه خُصَّ، فلا يُقْتَلُ مُسْلمٌ بكافر، ولا حُرٌّ بعبدٍ، جاءَ في شريعتنا القصاصُ، أو العفوُ إلى الدِّيةِ، والعفوُ مطلقاً من غير قصاص، ولا ديةٍ.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الخامس عشر من سورة المائدة

أنزل الله الإنجيلَ فيه هدى ونور

أولاً: تقديم

أخْبَرَنا اللهُ -تبارك وتعالى- فيما سبق أنَّه ألزَمَ اليهودَ بالحكم بالتوراةِ التي أنزلها على موسى، وبيَّن لنا في هذه الآيات أنه ألْزَمَ النصارى بالحكم بالإنجيل الذي أنزله على عيسى، وسيأتي أمْرُه لرسولِنا ﷺ بأنْ يحكَم بما نَزَّلَهُ عليه فيما شَجر بيننا.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة:٤٦-٤٧].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آيات هذا النص من القرآن

١- تقفيةُ الله على آثارِ أنبياءِ بني إسرائيل بعيسى ؑ:

أعْلَمَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه قَفَّى على آثارِ بني إسرائيلَ برسولِهِ عيسى ابن مريم، عليه وعلى أُمِّه الصلاةُ والسلامُ، ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:٤٦]، والمرادُ بِتَقْفِيَةِ الله بعيسى إتْباعُهُ سبحانَهُ بعيسى ليكونَ آخِرَ رسولٍ أُرسلَ إلى بني إسرائيلَ، وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ أنَّه لَيْسَ بَيْنَه وبينَ عيسى نَبِيٌّ، ومِنَ التَّقْفِيَةِ مجيءُ الله بأنبياءِ بني إسرائيلَ بعد موسى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ [البقرة:٨٧]، أي: أتْبَعْناه بالرسل من بعده.

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ عيسى ؑ كان مُصَدِّقاً لما بين يَدَيْهِ من التوراةِ، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [المائدة:٤٦]. وسيأتي أيضاً إخبارُ الله لنا أنَّ الإنجيلَ الذي أنزله على عيسى كان مصدِّقاً لما بين يديه من التوراةِ، فعيسى كان مُصَدِّقاً بالتوراةِ، والإنجيلُ الذي جاءَ به كان مصدِّقاً بها أيضاً.

وأعلمنا العزيزُ العليمُ -سبحانه- أنَّهُ آتى عبدَه ورسولَه عيسى ؑ كتابَهُ العظيمَ الإنجيلَ ليكونَ هدىً ونوراً لبني إسرائيلَ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة٤٦].

جنـــــة الســـــنة

وأعْلمنا مولانا -سبحانه- أنَّه جعلَ الإنجيلَ مصدِّقاً للتوراةِ التي أُنزلت قبلهُ على رسولِهِ موسى عليه السلام، وجعله هدى وموعِظَةً للمتقين ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة:٤٦].

فالإنجيلُ أنزله هدى للمتقين، وواعظاً لهم، والمتقون: الذين يخافون الله تعالى، فيعملون بطاعته، ويَنْزَجِرُون عن معاصيه ومحارِمِهِ.

٢- أوْجَبَ اللهُ تعالى على أهل الإنجيل أنْ يحكموا بما أنزل اللهُ فيه:

أمر اللهُ بني إسرائيلَ الذين أرسل إليهم عيسى عليه السلام أن يحكموا بما أنزل اللهُ فيه: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة:٤٧].

وهذا يدلُّ على أنَّ شريعةَ الإنجيلِ خاصةٌ بقومٍ معينين هم بنو إسرائيل، وليست عامةً للبشريةِ كُلِّها، وقد بقيتْ لازمةً لبني إسرائيل حتى بُعِثَ نبيُّنا محمدٌ ﷺ للناسِ كافةً، فأصبحَ اليهودُ والنصارى ملزمين بمتابعته، ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة:٤٧]، والفاسق: الخارجُ عن طاعةِ الله تبارك وتعالى، المائلِ إلى الباطلِ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- عيسى عليه السلام رسولٌ أرسله إلى بني إسرائيلَ، وهو آخرُ رسولٍ أُرسل إليهم.

٢- عيسى عليه السلام مُصَدِّقٌ للكتابِ الذي أُنْزِلَ من قبله وهو التوراةُ.

٣- امتنَّ اللهُ -تبارك وتعالى- على عيسى ومن أرسل إليهم بإيتائهم الإنجيلَ فيه هدى ونورٌ ومصدقاً لما بين يديه من التوراة، وهدىً وموعظةً للمتقين.

٤- عندما أنْزَلَ اللهُ الإنجيلَ أوجب الله تعالى على بني إسرائيلَ أن يتحاكموا إلى شريعته، وبقي ذلك مستمراً إلى أن بُعِثَ محمدٌ ﷺ، فنَسَخَ اللهُ بالقرآنِ التوراةَ والإنجيلَ.

٥- الذين رفضوا التحاكمَ إلى شريعةِ الإنجيلِ من بني إسرائيل فسقة خارجون على أمْرِ الله تعالى.

جنـــــة الســــــنة

النص القرآني السادس عشر من سورة المائدة
وجوبُ تحاكم المسلمين إلى ما أنْزله الله على رسوله ﷺ

أولاً: تقديم

أَمَرَ اللهُ تعالى اليهودَ والنصارى أن يحكم كلُّ فريقٍ بما أَنْزَلَ اللهُ إليه من الكتاب، وقد أَنْزَل الله لكلِّ فريقٍ كتاباً خاصّاً به، وأَمَرَ اللهُ رسوله محمداً ﷺ وخلفاءَه من بعده أنْ يحْكُمُوا بما أَنْزَلَهُ على رسولِهِ، وحذَّرَهم من التحاكم إلى أهواء البَشَر، حُكْم الجاهلية، وهي تعني كلَّ حكمٍ خالفَ شريعةَ الله تعالى، وقد نَسَخَ اللهُ بالقرآنِ كلَّ الشرائعِ السماويةِ السابقةِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة:٤٨-٥٠].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أنْزَلَ اللهُ -تعالى- القرآنَ على عبدِهِ ورسولِهِ محمد ﷺ مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه:

أخبرنا اللهُ تبارك وتعالى فيما سبق أنّه أَنْزَلَ التوراةَ على موسى، والإنجيلَ على عيسى عليهما السلام، ثم خاطبَ اللهُ عبدَهُ ورسولَهُ محمداً ﷺ قائلاً له: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [المائدة:٤٨] والكتاب المنزل عليه هو القرآن الكريم، أنْزَلَهُ اللهُ عليه -سبحانه- إنزالاً كائناً بالحقّ، ومصدِّقاً لما بين يديه من الكتابِ، أي من جنس الكتابِ الذي أنزله اللهُ من قبل، فيدخل في الكتاب صحفُ إبراهيمَ، وتوراةُ موسى، وزبورُ داود، وإنجيلُ عيسى عليهم السلام.

جنـــــة السـنــــة

قوله تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨] قال العلاَّمةُ الشوكانيُّ رحمه الله تعالى في هذا الجزء من الآية: «المعنى على قراءة الجمهورِ: أنَّ القرآنَ صارَ شاهداً بصحةِ الكتب المنزلةِ، ومقرِّراً لما فيها، مما لم ينسخ، وناسخاً لما خالفَهُ فيها، ورقيباً عليها، وحافظاً لما فيها من أُصول الشرائعِ، وغالباً لها لكونه المرجعُ في المُحْكَمِ منها، ومُؤْتَمناً عليها، لكونهِ مشتملاً على ما هو معمولٌ به منها، وما هو متروك» [فتح القدير: ٢/ ٦٨].

٢- وجوبُ تحكيمِ الرسولِ ﷺ وخلفائِه من بعده بما أنْزَلَ اللهُ:

أمر اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه محمداً ﷺ أن يحكم بين المؤمنين بما أنْزَلَ اللهُ إليه من القرآن العظيم، وما أوحاه اللهُ إليه في سنّته، ونهاه أن يتّبع أهواءَ البشر من اليهود والنصارى ومشركي العرب وغيرهم، وكلُّ حُكْمٍ شَرَعهُ البشرُ فإنه مخالفٌ لحكمِ الله تعالى، وهو مُتَّبعٌ لأهواءِ البشر الباطلةِ التي تَصْرِفُ عن الحقِّ الذي أنْزَلَه العليمُ الخبيرُ، ومن ذلك ما حكم به الناسُ من عادات، وما وضعوه من قوانينَ وتشريعات ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٤٨].

٣- جعل اللهُ -تبارك وتعالى- لكلِّ أمةٍ شِرْعةً ومنهاجاً:

أعلمنا ربُّنا ومولانا أنه جَعَلَ لكل أُمَّةٍ شِرْعَةً ومنهاجاً ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

«والشِّرْعَةُ -كما يقول الشوكانيُّ- الطريقةُ الظاهرةُ التي يتوصل بها إلى الماء، ثم استعملتْ فيما شَرَعَهُ لعبادِهِ من الدين، والمنهاجُ الطريقةُ الواضحةُ البيِّنَةُ» [فتح القدير: ٢/ ٦٨] وقد جعل اللهُ لكل أُمَّةٍ شِرْعةً ومنهاجاً، فاليهودُ لهم شريعةُ التوراةِ، والنصارى لهم شريعةُ الإنجيلِ، أما القرآنُ فهو شريعةٌ للبشرِ كلِّهم، وقد نسخ اللهُ به الشرائعَ السابقةِ.

٤- لو شاءَ ربُّ العزَّةِ لجعلنا أُمّةً واحدةً:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه لو شاءَ لجعلنا أُمةً واحدةً ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [المائدة:٤٨] أي: لو شاء لجعلكم أُمَّةً واحدةً، بشريعةٍ واحدةٍ، وكتابٍ واحد، ورسولٍ واحدٍ، ولكنه -تبارك وتعالى- لمْ يشأْ ذلك، بل شاءَ أن يبتلينا باختلافِ الشرائعِ، أي: يختبرُنا بالشرائعِ المتعددةِ المختلفةِ التي تتنزَّلُ على الرسلِ باختلافِ الأزمنةِ.

جنـــة الســـــنة

٥- **أمرنا اللهُ -تبارك وتعالى- باستباقِ الخيرات:**

أمرنا اللهُ -تعالى- باستباق الخيراتِ فقال: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المائدة:٤٨] والمراد به التنافسُ في فِعْلِ الأعمالِ الصالحة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة:١٠-١١] أي: المُتقدِّمون إلى ثوابِ الله وجنتهِ بالأعمالِ الصالحة، وقال تعالى: ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [آل عمران:١١٤].

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- سبحانه أننا سنرجعُ إليه، ونعودُ إليه سبحانه في يوم القيامة، فيخبرنا بما كنا مختلفين فيه، وسيقضي بيننا سبحانه، ويجزي كلاً بما يستحقُّه ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة:٤٨].

٦- **أمرَ اللهُ رسولَه ﷺ أنْ يحكم بين الناسِ بما أنزله إليه:**

أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ مرةً أُخرى أن يحكم بين المتنازعين بما أنْزَلَهُ إليه، وهو شاملٌ للكتابِ الذي أنْزَلَه، وهو القرآنُ، وما أوْحاهُ إليه في سنته ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة:٤٩].

ونهاه أن يحكم بينهم بأهواء البشر: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المائدة:٤٩] وأهواءُ البشر شاملةٌ لكل العادات والتقاليد والتشريعات المخالِفة لما أنْزَلَ اللهُ تعالى، وقد وقع اليهودُ فيما حَذَّرَ اللهُ منه، فتركوا حُكْمَ الله في جريمة الزنا، والقصاص، وقَتَلَ بعضُهم بعضاً، وغير ذلك مما تركوه من شرع الله.

وكثيرٌ من هذه الأمة استباحتِ الخمرَ، وأباحت الزنا، وتركوا القصاص، وشرَّعوا بأهوائهم تشريعاتٍ مخالفةً لما أنْزَلَهُ اللهُ تعالى.

وقد حَذَّرَ اللهُ رسولَه ﷺ أن يفْتِنَهُ الضالون من البشر عن بعض ما أنْزَلَهُ اللهُ تعالى إليه ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة:٤٩]. وقد أخبر اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أنَّ هؤلاء الذين يحاولون أنْ يفتنوه عن بعضِ ما أنْزَلُه إليه إن ﴿تَوَلَّوْا۟﴾ عما أنزله اللهُ إليه، أي: أعرضوا عنه، وتركوه إلى أهواء البشر، فإنَّ اللهَ لا يرضى عنهم، وسينزلُ بهم المصائبَ بسبب ما ارتكبوه من الذنوب ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة:٤٩].

وختَمَ اللهُ -تعالى- هذه الآيات بقولِهِ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المائدة:٤٩] وهذا حال كثير من المسلمين اليوم، فقد تولَّى كثيرٌ منهم عمَّا أنزله اللهُ تعالى إليهم، وحكَّموا القوانين الوضعيَّةَ، فعَضَّهُمُ الفقرُ بنابِهِ، وألقى اللهُ بينهم العداوةَ والبغضاءَ.

جنـــــة الســـــنة

٧- ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾:

قال الله تعالى منكراً على اليهود والنصارى والمسلمين الذين تركوا الحكم بكتابِ الله تعالى، وعملوا بأهوائِهم، وسياسات زعمائهم، وما وضعه لهم رجالُ القانونِ، وكلُّ هذا من حُكْمِ الجاهلية، وقد أساءَ هؤلاء جميعاً عندما تركوا حُكْمَ خالقِ الأرض والسموات، وأخذوا حكم حثالاتِ البشر ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة:٥٠].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص فإننا نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أنزل اللهُ العظيم كتابَه الكريم، على خيرِ رسلِهِ وأنبيائِهِ مصدِّقاً لما بين يديه من الكتب كلِّها، فوجب علينا تعظيمُهُ، وتكريمُهُ، والعملُ به.

٢- القرآنُ الكريمُ مهيمنٌ على جميعِ الكتب من قبله، فهو مصدِّقٌ للحقائقِ التي حَوَتْها، ومصححٌ لما وقعَ فيها من تحريفٍ، وناسخٌ لبعض ما تضمنته من أحكام، ومقرِّرٌ لأحكامٍ أخرى، وحافظٌ لأصول الشرائع.

٣- يجبُ على المسلمين تحكيمُ كتاب الله تعالى فيما شَجَرَ بينهم، وعليهم أنْ يتركوا ما تركَهُ الآباءُ من عاداتٍ، وما قرَّرَهُ أهلُ الرأي من تشريعاتٍ، إذا خالفت ما أنزلَهُ الله.

٤- الأنبياءُ إخوةٌ لعلاّتٍ، دينهم واحدٌ، وهو الإسلام، وشرائعهم مختلفةٌ، حالهم حالُ أبناءِ الرجل الواحد من أمهاتٍ شتَّى.

٥- لله الحكمةُ البالغةُ في تعدُّدِ شرائع الرُّسُل، فقد غايرَ بين الشرائعِ في بعض ما تضمَّنتْه، وجاءت به.

٦- وجَّهَ اللهُ عبادَه إلى التنافسِ في أعمال الخير، التي توصِلُ إلى رضوانِ الله تعالى، وتدخلُ جناتِ النعيم.

٧- حذَّرَ اللهُ رسولَه ﷺ -وفي ذلك تحذيرٌ لأُمته- من اتباع شيءٍ من تشريعاتِ البشرِ المضادَّةِ والمحادَّةِ لما أنْزَلَه اللهُ تعالى.

٨- الذين يتركونَ شرعَ الله ويتعدُّونَ حدودَهُ، يُوقِعُ اللهُ بهم المصائبَ بسبب ما ارتكبوه من ذنوبٍ، وما اقترفوه من آثامٍ.

٩- حذَّرنا ربُّنا من الصيرورةِ إلى حكم الجاهلية القائم على اتباع الأهواءِ، وتركِ حكم العزيزِ العليم الخبير الحكيم سبحانه.

جنـــة السـنـــة

النص القرآني السابع عشر من سورة المائدة
النهي عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياءَ

أولاً: تقديم

نادى اللهُ تعالى المؤمنينَ ناهياً إياهم عن اتخاذ اليهودِ والنصارى أولياءَ، مخبراً إياهم أنَّ اليهودَ والنصارى بعضُهُمْ أولياءُ بعضٍ، ومحذِّراً لهم بأنَّ الذي يتولاهم من المؤمنين فإنه يصبحُ منهم، ويصبحُ من الظالمين، واللهُ لا يهدي القومَ الظالمين، وأخْبَرَ أنَّ الذين يتولَّوْنهم، يريدون أن يتخذوا يداً عندهم، فيحفظون أنْفُسَهم وأموالهم وأولادهم عندما تنزل الدوائر بالمسلمين، ولكنَّ هؤلاء سيندمون عندما ينزل اللهُ نصره بالمؤمنين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة:٥١-٥٤].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- نهيُ الله -تعالى- المؤمنين أن يتخذوا اليهود والنصارى أولياء:

نادى اللهُ -تعالى- المؤمنين ناهياً إيّاهم عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياءَ، مخبراً أنَّ بعضهم أولياءُ بعضٍ، مرَهِّباً إياهم بأنَّ من تولاَّهم فإنه منهم، وحكم ربُّ العزة أنه لا يهدي القومَ الظالمين، قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة:٥١].

قال ابن جريرٍ الطبريُّ: «إنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه نهى المؤمنين جميعاً أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصاراً وحلفاءَ على أهل الإيمان بالله ورسوله وغيرهم، وأخْبَرَ أنه من اتَّخَذَهم

جنـــــة الســـــنة

نصيراً وحليفاً ووليًّا من دون الله ورسولِهِ والمؤمنين، فإنه منهم في التحَزُّبِ على الله ورسولِهِ والمؤمنين، وأن الله ورسولَه منه بريئان» [الطبري: ٤/ ٢٩٢١].

وقولُه: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة:٥١] أخبر اللهُ تعالى أنَّ اليهودَ والنصارى بعضُهُم أولياءُ بعضٍ، فإنْ قيل: كيف يكونُ بعضهُم وليّاً لبعضٍ مع ما بينهم من النِّزاعِ والاختلافِ والاقتتالِ، والجوابُ: أنَّهم يتولى بعضُهم بعضاً في حَرْبِهم للمؤمنين، وإنْ كانوا متعادين فيما بينهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة:٥١] أي: من يتولاهم بالنُّصْرَةِ والتحالفِ والمودَّةِ والمحبَّةِ، فإنه منهم، وفي هذا وعيدٌ شديدٌ للمنافقين ولضعافِ الإيمان من المؤمنين الذين يتولَّونَ اليهود والنصارى، وقد حكم ربُّ العزِ في ختامِ الآية بأنه لا يهدي القومَ الظالمين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥١﴾ [المائدة:٥١].

وعنى بالقوم الظالمين الذين تولَّوا اليهودَ والنصارى، فكانوا سلماً لهم، وحرباً على المؤمنين، وهذا ظُلْمٌ وضلالٌ.

٢- مسارعة الذين في قلوبهم مرضٌ في موالاةِ ومصانعةِ اليهود والنصارى:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن الذين في قلوبِهِمْ مرضٌ، أي: مرضُ النفاقِ والشكِّ في الدين، يسارعون في موالاةِ ومصانعةِ اليهودِ والنصارى، وأخْبرنا أنَّ هؤلاء الذين يسارعون في موالاةِ اليهودِ والنصارى يقولونَ معَلِّلين للسبب الذي دعاهم لموالاتهم: إنما نسارعُ في موالاةِ هؤلاء خوفاً من دائرةٍ تدورُ علينا من عدُوِّنا، والدائرة الحوادثُ والنكباتُ التي قد تُحوِجُهُمْ لليهودِ والنصارى ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ [المائدة:٥٢] وقد أمرَ الله -تعالى- رسوله ﷺ أنْ يقولَ لهؤلاء: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ۝٥٢﴾ [المائدة:٥٢].

وفي هذا ردٌّ على الذين في قلوبِهِمْ مرضُ الذين قالوا ذلكَ القولِ، وعلَّلوا ذلكَ التعليل، وقوله: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ﴾، و(عسى) من الله وَعْدٌ صادقٌ لا يتخلَّفُ، و(الفتح) ما أنْزَلَه اللهُ على رسولِهِ ﷺ في حروبهم من انتصاراتٍ، فقد انتصرَ الرسولُ ﷺ على يهودِ المدينةِ مرة بعد مرة، حتى طهَّرها منهم، ثم انتصر على يهودِ خيبرَ، ولم يزلْ يحاربُ المشركين حتى فتح مكَّةَ، ثم فتحتْ أُمَّتُهُ من بعده الجزيرةَ العربية كلها، وحاربوا فارسَ والرومَ وفتحوهما، وأخْبَرَ

جنـــــة السـنـــــة

أنْ هؤلاءِ الذين حلَّ مَرَضُ النفاقِ في قلوبِهِمْ يصبحون على ما أصرُّوا في أنفسهم نادمين، أي: يصبحون نادمينَ على ما كانوا قدَّرُوه وعلَّلُوه في أنفسهم، ويتبيَّنُ لهم أنَّهم كانوا مخطئين.

٣- تعجب المؤمنين من أمر المنافقين عندما ينكشف لهم حالهم:

أخبرنا عالمُ الغيبِ والشهادةِ العليمُ الحكيمُ بما سيقوله المؤمنون عندما ينكشفُ لهم حالُ المنافقين الذين أضْمَرُوا في صدورِهم موالاة اليهود والنصارى في حالِ دعواهم للمؤمنين كاذبين أنَّهم معهم، وحَلَفُوا لهم أنَّهم صادقون فيما يدَّعُونَه، فأعلمنا ربُّنا بما قاله المؤمنون في قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ٥٣﴾ [المائدة:٥٣].

أي: يقولُ المؤمنون متعجبين من حال المنافقين عندما زعموا كاذبين أنهم مع المؤمنين، وحلفوا لهم الأيمان المغلظة بالله على صِدْقِهم فيما زعموه، وكانت العاقبة في الآخرة أن حبطت أعمالهم، أي: بطلت، وبذلك أصبحوا خاسرين.

٤- إذا ارتدّ قومٌ عن الإسلام فلن يضُرُّوا الله شيئاً والله قادرٌ على أن يبدِّلهم بآخرين صالحين:

إنَّ هذا الدينَ لله ربِّ العالمين، وقد تكفَّلَ اللهُ بحفظه، فلا يستطيعُ أحَدٌ تغييرَهُ، وتكفَّلَ بأن يهدي إليه من يقيمُهُ ويحفظُهُ ويحافظُ عليه، وقد نادى اللهُ المؤمنين مُحَذِّراً إياهم أنهم إنْ تركوا دينَهُم فسيأتي اللهُ بأقوامٍ غيرهم، يحبُّهُمْ ويحبونه، أذِلَّةٍ على المؤمنين، أعِزَّةٍ على الكافرين، يجاهدون في سبيلِ الله، ولا يخافونَ لومةَ لائم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾ [المائدة:٥٤].

إنَّ هذا الدينَ باقٍ إلى يوم القيامةِ، فإنِ ارتدَّ بعضُ معتنقيه في فترةٍ من الفترات، فقد تكفَّلَ اللهُ تعالى أنْ يأتي بقومٍ يحملونه، يتَّصِفُونَ بصفاتِ المؤمنين الصادقين، وقد ارتدَّ بعضُ العربِ بعد وفاةِ الرسولِ، فجاءَ اللهُ بغيرهم من العربِ، ودخلَ غيرُ العربِ في الإسلامِ من الفرس والروم والقبط وغيرهم.

وجاءَ اللهُ بآل زنكي فقاوموا الصليبيين، ثم جاءَ بصلاحِ الدين الأيوبي الكرديِّ، فوقفَ في وجههم واسترجعَ القُدْس منهم، وجاءَ بالمماليك في مصر، ووقفوا في وجه التَّتارِ، وهزموهم في «عين جالوت». وأخيراً قامت الدولةُ العثمانية وحمتْ حمى الإسلامِ أكثر من أربعمائة سنة، فنصرةُ هذا الدين ليستْ وقفاً على العربِ دون غيرهم.

جنـــــة السـنة

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- لا يجوزُ للمؤمنين أن يوالوا اليهودَ والنصارى وغيرَهُمْ من المشركينَ، أي: لا تجوزُ محبَّتُهُمْ ونصرتُهُمْ وإحسانُ الظنِّ بهم.

٢- مقتضى تحريم الموالاةِ بين المؤمنين والكافرين، أنه لا توارث بين المؤمنين والكافرين، ولا عَقْلَ، ولاَ ولاية نكاحٍ.

٣- اليهودُ والنصارى يوالي بعضُهم بعضاً، ويناصرُ بعضُهم بعضاً.

٤- إذا والى المؤمنُ اليهودَ والنصارى، فأحبَّهم، وتمنى لهم النصرَ، فإنَّه منهم، وحُكْمُهُ حكمُهُمْ في الكفر.

٥- المنافقونُ الذين أعْلَنوا الإيمانَ، وأبطنوا الكفرَ، يتولَّوْنَ الكفارَ، ويبغضون المؤمنين.

٦- علَّل الذين يتولَّوْنَ الكفارَ بأنهم يتولَّوْنَهُمْ خشيةَ أن تصيبهم المصائبُ والكوارثُ، فيريدون أن تكونَ لهم يدٌ عند اليهودِ والنصارى حتى ينالوا حُظْوَةً عندهم.

٧- اللهُ تعالى أبْطَلَ ظنَّ المنافقين، فكبتَ اليهودَ والنصارى والمشركين، وأنزلَ نصره بالمؤمنين.

٨- انكشف باطنُ المنافقين وأعْلَمَ اللهُ المؤمنين، بما كان يُكِنُّه هؤلاءِ، ففضح اللهَ المنافقين في الدنيا والآخرة.

٩- إذا ارتدّ بعضُ الذين ينسبون إلى هذا الدين، فاللهُ قادرٌ على أن يأتي بغيرهم ينصرونه ويؤيدونه.

جنـــــة الســــــنة

النص القرآني الثامن عشر من سورة المائدة
وليُّ المؤمنينَ اللهُ ورسولُه والذين آمنوا

أولاً: تقديم

نهانا ربُّنا تبارك وتعالى في النص السابق عن تولِّي اليهود والنصارى، وبيَّنَ لنا في آيات هذا النص أنَّ ولينا على وجه الحقيقة اللهُ ورسولُه والذين آمنوا، فلا يجوزُ لنا أن نتولى أعداءَنا الذين اتخذوا ديننا هزواً ولعباً من أهل الكتابِ والكفارِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المائدة:٥٥-٥٩].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- على المؤمنين تولّي الله ورسولهُ والذين آمنوا:

نهانا ربُّ العزةِ -تبارك وتعالى- في آياتِ النصِّ السابق عن تولِّي اليهودِ والنصارى، وبيَّن لنا في آيات هذا النص الوَليَّ الحقيقيَّ للمؤمنين، فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة:٥٥]. فالمؤمنُ وليُّه على وجْهِ الحقيقةِ ربّه تبارك وتعالى، ورسولُهُ محمدٌ ﷺ، والذين آمنوا، وبيَّنَ اللهُ نوعيةَ المؤمنين الذين يسْتَحِقُّونَ التولِّي، وهم الذين يقيمونَ الصلاةَ أي: يأتون بها على وجهها كما شرعها اللهُ تعالى، بشروطِها وأركانها وهيئاتها، ويؤتون الزكاةَ التي فرضها اللهُ عليهم، وينفقونها في الوجوهِ التي حدَّدها اللهُ تعالى ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة:٥٥].

وقوله: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ عنى بالركوعِ هنا الخشوعَ والخضوعَ لله تعالى، وقد أوردَ كثير من المفسرين أنَّ الآية عَنَتْ عليَّ بن أبي طالبٍ عندما تصدَّقَ وهو راكعٌ، ولم يصحَّ حديث في ذلك، ودَفْعُ الزكاة في الصلاةِ فعلٌ ينافي السكونَ الذي أُمِرْنا به في الصلاةِ، فلا يليقُ بعليٍّ أن يفعله.

جنـــــة السـنـــــة

٢- الذين يتولَّوْنَ اللهَ ورسولَهُ والمؤمنين هم حِزْبُ الله وهم الغالبون:

الناسُ حِزْبانِ: حزبُ الله، وحزبُ الشيطانِ، وحزبُ الله تعالى هم الذين يتولَّونَ اللهَ ورسولَه والذين آمنوا ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المائدة٥٦] فإنهم حِزْبُ الله الغالبُ ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة:٥٦].

وقد ظهر عَبْرَ التاريخ الإسلاميِّ أنَّ حِزْبَ الله تعالى هم أنصارُهُ وأحبابُهُ وهم الفئة الغالبةُ المنتصرةُ، وهم الذين هزموا اليهودَ في العهد النبويِّ، وفتحوا أكثر الجزيرة العربية، وفتحوا في عهد الخلفاء الراشدين، بقية الجزيرة العربية، وحاربوا المرتدين كما فتحوا فارس والروم، ووصلوا إلى أوروبا، وفتحوا أكثر دول العالم.

٣- نهى اللهُ المؤمنين عن اتخاذ اليهود والنصارى والكفار أولياء:

نادى اللهُ -تعالى- المؤمنين ناهياً إيَّاهم عن اتخاذ الذين اتخذوا ديننا هزءاً ولعباً من اليهود والنصارى والكفارِ أولياء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة:٥٧].

وقبيحٌ بنا أن نحبَّ ونناصرَ الذين لم يحترمونا، ولم يحترموا ديننا، واتخذوا ديننا موضع هزءٍ وسخريةٍ، وقد كان اليهودُ يسخَرون برسولِنا ﷺ كلَّما سنحتْ لهم الفرصةُ، وكان الكفار يُكَذِّبون رسولَنا، ويزعمون أنَّه ساحرٌ، أو كاهنٌ، وقد تفنَّنَ العالمُ الغربيُّ اليومَ بالسخريةِ والاستهزاءِ برسولِنا ﷺ، وقد كتبوا لا إله إلا الله محمد رسول الله على أسْفلِ النعالِ المعدّة للبيع، وكتبوها على الملابس الداخلية التي تلامس العورةَ، وكرَّم بعضُ رؤساء الدول الغربية هؤلاء الساخرين المستهزئين، ووضعوا اسم «مكة» على الأماكن المعدّة للفسقِ والفجورِ، وبنى بعضهم في الحدائق العامةِ مسجداً أطلقوا عليه اسم: «بيت الساحر» وحَشَوْهُ بكل ما هو مخيف ومرعبٌ، ليُكرِّهوا بني قومِهِمْ بالمساجِدِ.

وقد خَتَم اللهُ تعالى الآية آمراً إيانا بتقواه ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [المائدة:٥٧] أي: أمرنا بخشيته ومخافتِهِ، ومعاداة هؤلاء الضالين الذين اتَّخَذُوا ديننا هزواً ولعباً.

٤- اتخاذُ الكفار الصلاةَ هزواً ولعباً عندما ينادى إليها:

أخْبرنا ربُّنا -عز وجل- في الآية السابقة أنَّ أهلَ الكتابِ والكفارَ اتخذوا ديننا هزواً ولعباً، وبيَّنَ في الآيةِ التالية بعض ما اتخذوه هزواً ولعباً وهو الصلاةُ ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [المائدة:٥٨].

جنـــة الســـــنة

أخبرنا ربنا -تبارك وتعالى- أننا عندما نرفعُ الأذانَ، فإنهم يتخذون الأذانَ الذي نُؤَذِّنُ به، والصلاة التي ننادي إليها موضعَ هزءٍ وسخريةٍ ولعبٍ، وقد حَكَمَ ربُّ العزةِ على هؤلاءِ الساخرينَ اللاعبين بصلاتنا ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المائدة:٥٨].

وحقٌّ على المؤمنين أن يتخذوا هؤلاء الذين اتخذوا صلاتنا هُزُواً ولعباً أعداءً، ولا نتخذُهُمْ أحباباً وأولياءَ.

٥- ما ينقمه أهل الكتاب منا:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ أن يخاطب أهلَ الكتاب قائلاً: هل تنقمون مِنَّا، أي: هل تكرهون مِنَّا، وتنكرون علينا إلا إيماننا بالله، أي: توحيدنا له، وعبادتنا له مخلصين له الدين، وإيماننا بما أنزلَ اللهُ إلينا، وبكلِّ ما أنزلَهُ اللهُ على من قبلنا، وأننا نصِمُكم بالكفر، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المائدة:٥٩].

وقد كان أهلُ الكتابِ منذ عهدِ الرسول ﷺ ولا يزالون إلى اليوم يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعض، فاليهودُ يكفرون بعيسى ومحمدٍ عليهما الصلاة والسلام، والنصارى يكفرون بمحمدٍ ﷺ، وتلك جريمة نكراءُ، جرَّت عليهم الكفرَ والبلاءَ، فالكفرُ ببعضِ الرسل كفرٌ بالرسلِ كلهم، ودعواهم أنهم أصحابُ التقى والصلاحِ، كذبٌ وفجورٌ، وواقعُ حالهم أنَّ أكثرهم فاسقون خارجون عن طاعةِ الله.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- نهانا ربُّنا فيما سبق عن تولي اليهود والنصارى والكفار، وقرر في آيات هذا النص أن وليَّنا حقاً وصدقاً اللهُ ورسولُه والذين آمنوا.

٢- المؤمنون الذين يجبُ تولِّيهم هم الصادقون الذين يقيمون الصلاةَ ويؤتونَ الزكاةَ، ويخشون الله، ويتواضعون لجلالِهِ، وليسوا الذين يدَّعون الإيمان من غير عمل.

٣- المؤمنون الذين يتولَّوْنَ اللهَ ورسولَهُ والذين آمنوا هم حزبُ الله، وحزبُ الله دائماً هم الغالبون.

٤- قبيحٌ بالمسلمين أن يتولوا اليهودَ والنصارى الذين اتخذوا دينَنا هُزُواً ولعباً، فلهؤلاء منا الحربُ والعداءُ، لا الصحبةُ والولاءُ.

جنـــــة السـنـــــة

٥- من صورِ استهزاءِ الكفارِ بديننا أنهم يتخذون صلاتَنا موضعَ سخريةٍ، وهؤلاء وصمهمُ القرآنُ بعدم العقلِ.

٦- بيَّنَ لنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ سببَ كراهيةِ أهلِ الكتابِ تتمثل في إيماننا بالله تعالى، وإيماننا بجميع رسلِ الله، ووَصْمِنا لأهل الكتاب بأنهم فاسقون.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني التاسع عشر من سورة المائدة

أولاً: تقديم

شنَّ ربُّ العزة حملةً عنيفةً شديدةً على اليهود الذين يقفون موقفَ الساخرِ بديننا وصلاتِنا، وأظهَرَ ربُّنا ما تلطَّخوا به من عيوبٍ وقاذورات وصفات دنسة، وأبان كُفرَهُم ونفاقَهُم، ومسارعَتهم في الإثم والعدوان وأكلهم الحرام.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة:٦٠-٦٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ذمَّ اللهُ اليهودَ بإظهارِ الصفات المذمومة الكامنة فيهم:

أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أن يواجِهَ اليهودَ الذين اتخذوا ديننا هزواً ولعباً، ويقولَ لهم: أيُّها اليهودُ: أنتم شرٌّ مثوبةً عند الله، والمثوبةُ الثوابُ، لا فرقَ في ذلك بين مثوبةِ الخير ومثوبة الشر، والمرادُ بها هنا مثوبة الشر، ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ﴾ [المائدة:٦٠].

ثم بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ الذين هم أشرُّ مثوبةً عنده الذين لعنهم وغَضِبَ عليهم، وجَعَلَ منهم القردةَ والخنازير وعبَدَ الطاغوتِ ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ﴾ [المائدة:٦٠].

ولعْنُ الله تعالى لهم طرْدُه لهم من رحمته، وإحلالُ سخطه بهم، وغضبه عليهم، ومَنْ غَضِبَ الله عليه أذلَّه وأهانَهُ، والقرآنُ حافلٌ بذكر اللعْنِ والغضبِ الذي أحَلَّهُ تعالى باليهودِ، فمن ذلك قولُهُ تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ﴾ [البقرة:٦١] وقوله فيهم: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ﴾ [النساء:٤٧] وأخبرنا أنهم لُعِنوا على لسانِ

جنـــــة السـنـــة

نبيِّه: داود وعيسى ابنِ مريم ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ﴾ [المائدة:٧٨].

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بأنه مسخ طوائفَ منهم قردةً وخنازيرَ، وجعل منهم عبَّادَ الطاغوت: ﴿ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ ﴾ [المائدة:٦٠] ومن الذين مَسخَهم اللهُ قردةً الذين اعتدوا بالصيد في يوم السبت ﴿ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [البقرة:٦٥]. وسيأتي الحديثُ عن هذه الواقعة في سورة الأعراف إن شاء الله تعالى.

وجعل اللهُ من بني إسرائيلَ عبدَ الطاغوتِ، أي: عُبَّادَ الطاغوت، والطاغوت الذي نَصَبَهُ البشرُ إلهاً يعبدونَهُ من دون الله، كالأصنام والأوثان والشمسِ والقمرِ والنجومِ والبقر والشجر، وأعظمُ الطواغيتِ الشيطانُ.

وقوله تعالى في خاتمة الآية: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾ [المائدة:٦٠] أي: هؤلاء الذين تحدَّث عنهم من اليهود شرٌّ مكاناً فيه إثباتُ الشر للمكان، والمرادُ أهلُهُ من اليهود، وقوله: ﴿ وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾، أي: أكثر ضلالاً عن الصراط المستقيم.

٢- دعواهم الإيمانَ وهم كافرون:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ طائفةً من اليهود كانوا منافقين، يزعمون عندما يدخلون على المؤمنين أنهم مؤمنون، وأعلمنا العليمُ الخبيرُ أنهم كاذبون فيما يزعمونه، فهم عندما دخلوا على المؤمنين دخلوا مصاحبين الكفرَ، وعندما خرجوا خرجوا مصاحبين له، واللهُ تعالى عليمٌ بما كتموه وأخْفَوْه، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [المائدة:٦١].

قال قتادةُ: «هؤلاء أناسٌ من اليهود كانوا يدخلون على النبيِّ فيخبرونه أنهم مؤمنون راضون بالذي جاء به، وهم مستمسكون بضلالتهم وكفرِهم، وكانوا يدخلون بذلك، ويخرجون به من عند نبيِّ الله ﷺ» [تفسير الطبري: ٤/ ٢٩٤٣].

٣- مسارعةُ اليهود في الإثم والعدوان وأكلهم السحتَ:

أخبر اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ أنه يرى كثيراً من اليهود يسارعونَ في الإثم والعدوان وأكْلِ السحتِ، والإثمُ الكفرُ والذنوبُ والمعاصي، والعدوان مجاوزة الحدِّ الذي حدَّه اللهُ لهم، ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ ﴾ [المائدة:٦٢] وقد ذمَّهُم

جنـــــة السـنـــــة

اللهُ تعالى بقولِه تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٦٢﴾ و(بئس) كلمةُ ذمٍّ، أقْسَم الله تعالى أنه بئسَ العملُ ما كان يعمله هؤلاء اليهود الذين كانوا يسارعون في الإثم والعدوان وأكلِ السحتِ.

٤- حَضَّ اللهُ الربانيين والأحبارَ على الإنكار على قومهم قولَ الإثمِ وأكلَ السحتِ:

حَضَّ اللهُ -تبارك وتعالى- الربانيين والأحبارَ، وهم علماءُ اليهودِ على نَهْيِ قومهم من اليهود عن قولهم الإثمَ، وأكلهم السحتَ ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ [المائدة:٦٣].

وقد ذمَّ اللهُ الربانيين والأحبارَ بقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ۝٦٣﴾ [المائدة:٦٣]. وفي هذا توبيخٌ شديدٌ للربانيين والأحبارِ، وقد نقل ابنُ جريرٍ الطبريِّ عن ابن عباسٍ قولَهُ: «ما في القرآن آية أشدُّ توبيخاً من هذه الآية» [تفسير الطبري: ٤/ ٢٩٤٥].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- اليهودُ الذين يواجهوننا ويحاربوننا فيهم صفاتُ الضلال والنقص، فقد لعنهم اللهُ، ولعنتْهُمُ الأنبياءُ، وغضِبَ اللهُ عليهم، ومسخَ بعضَهم قردةً وخنازيرَ، وعبدوا الطاغوتَ، ومن اجتمعتْ فيهم هذه البلايا كانوا من أشرِّ خلق الله.

٢- كثيرٌ من الذين ادَّعَوْا الإيمانَ من اليهود في العهد النبوي كانوا كاذبين منافقين.

٣- ذمَّ اللهُ اليهودَ لمسارعتهم في الكفرِ، وتجاوزهم الحدَّ فيما شرعَهُ اللهُ لهم، وأكلِهِمْ ما حرَّم اللهُ عليهم من الرشا وغيره.

٤- أنكرَ اللهُ على علماء اليهود ووبَّخَهم لعدم نهيهم قومَهُمْ عن قولِ الإثم وأكلِ السحتِ.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني المتمم للعشرين من سورة المائدة
دعوى اليهود الضالين أن يد الله مغلولة

أولاً: تقديم

لم يقف الفسقُ والضلال باليهود عند رَمْيهم الرسولَ ﷺ والمؤمنين بها رموهم به، بل تعداه إلى وصف الله بها لا يليقُ، وشتمهم رب العزة، وزعمهم كاذبين أن يد الله مغلولةٌ، وأنه فقيرٌ وهم أغنياءُ، فكان جزاؤُهم أن يحكم اللهُ عليهم بأن تُغَلّ أيديهم، فيصبحوا أكثرَ شعوب الأرض بخلاً، ولعنهم، وأكذبهم فيها زعموه، فيداه مبسوطتان ينفقُ كيف يشاء.

ومع كذب اليهود على رب العزة وافترائهم عليه، فإنه دعاهم إلى الإيهان به، ورغَّبَهم فيه، وبيَّن لهم ما سيجنونَه من خيراتٍ في الدنيا والآخرة، وتعهَّدَ اللهُ لرسولِه ﷺ بعصمته ممن يريد به شرًّا، وأمره أن يبلِّغ ما أوحاه الله إليه، فلا يكتم منه شيئاً.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة:٦٤-٦٧].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- دعوى اليهود أن يد الله مغلولةٌ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن اليهودَ ادَّعوْا كاذبين أنَّ يد الله مغلولة ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ﴾ [المائدة:٦٤] ومرادُهم بالمغلولة: البخيلةُ التي لا تُنفق، ولليهود مقالاتٌ شنيعةٌ في حق الله تعالى غير هذه المقولة لقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ﴾ [آل عمران:١٨١]. وقد ردّ اللهُ عليهم فيها قالوه، وقابَل قولَهُمْ المفترى المختلقَ بالحكمِ عليهم بالبُخلِ واللَّعن، وأعلمنا أن

جنـــــة السـنـــــة

يديه سبحانه مبسوطتان، ينفق كيف يشاء ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة:٦٤].

ولا شك أنَّ اليهودَ الذين قالوا هذه المقالة الخبيثة يستحقُّون ما وصَمَهُمْ به رب العزة، فقد قال فيهم: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة:٦٤] وقد لبستهم هذه الصفة، فهم أبخل الناس، قال الشوكاني: «البخلُ لَزِمَ اليهود لزوم الظل للشمس، فلا ترى يهوديًّا، وإن كان مالُه في غاية الكثرة، إلا وهو أبخل خلق الله» [فتح القدير: ٢/ ٨١].

وقوله: ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة:٦٤] أي: طرَدَهم الله من رحمته وجنته، وأفسد قلوبهم وخبَّثها، بسبب كذبهم على ربِّهم وافترائهم عليه.

٢- يدا ربِّنا -تبارك وتعالى- مبسوطتان ينفقُ كيف يشاء:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- في ردِّه على اليهود أنَّ ﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ قال البغوي: «يدُ الله صفةٌ من صفاته، كالسمع والبصر والوجه، وقال جلّ ذكره: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] وقال النبي ﷺ: «كلْتا يديه يمينٌ» [مسلم: ١٨٢٧] واللهُ أعلم بصفاته، فعلى العباد الإيمانُ والتسليم» [تفسير البغوي: ٣/ ٧٦].

وقد حدّثنا رسولُنا ﷺ في الحديث الذي يرويه أبو هريرة، قال: «إنَّ يمينَ الله ملأى، لا يغيضُها نفقةٌ، سَحَّاءُ الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم ينقص ما في يمينه، وعرشه على الماء، وبيده الأخرى الفيض، أو القبض يرفع ويخفض» [البخاري:٧٤١٩. ومسلم: ٩٩٣].

٣- ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾:

أخبر اللهُ وهو العليم الحكيم رسولَه محمداً ﷺ أن ما أنزله اللهُ عليه، وهو هدىً ورحمةٌ للمؤمنين، سيزيدُ اليهودُ طغياناً وكفراً، والطغيانُ: المبالغةُ والمجاوزةُ للحد، والكفرُ التكذيبُ ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة:٦٤].

وقد وردت كثيرٌ من الآيات تبين هذا المعنى وتؤكِّده، فمن ذلك قوله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت:٤٤]. وقال سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا

جنـــــة السـنـــــة

﴿خَسَارًا ۝٨٢﴾ [الإسراء:٨٢]. ومن نظر في حال اليهود قديماً وحديثاً وجد فيهم مصداقَ ما جاء في هذا النص، فهم في طغيانٍ مستمرٍ، وفي كفرٍ مضاعفٍ.

٤- ألقى اللهُ العداوة والبغضاء بين اليهود والنصارى:

أخبرنا ربنا -تبارك وتعالى- أنه ألقى العداوة بين اليهود والنصارى، فاليهودُ متعادون فيما بينهم، والنصارى متعادون فيما بينهم، واليهودُ والنصارى متعادون فيما بينهم ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة:٦٤].

وهذه العداوةُ التي ألقاها الله فيما بينهم، لأنهم حرّفوا الحق الذي بين أيديهم، وخالفوهُ وكذّبوه، واختصموا فيما بينهم في الدين.

٥- اليهودُ موقدو نيران الحروب:

أخبرنا ربنا -تبارك وتعالى- أنَّ اليهودَ موقدو نيران الحروب بين الناس، وهم في ذلك يريدون الإفسادَ في الأرض، وكلُّ ذلك ليرضوا أهواءَهم، ويحققوا رغبات نفوسهم ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٦٤﴾ [المائدة: ٦٤].

واليهودُ قديماً وحديثاً يقومون على مصانع السلاح، ويوقدون نيران الحروب، ويوجدون الأسباب التي تؤدي إلى ثورانها، كي تتدفق أسلحتهم إلى الخصوم المتقاتلين، وتنسابُ أموال المتقاتلين إلى خزائنهم، والله -تبارك وتعالى- يطفئُ نيرانَ الحروب التي يشعلونها، وأخبرنا اللهُ -عز وجل- أن اليهودَ يسعون إلى إفساد الأرض على المستوى العالمي، ولذلك ترى آثار إفساد اليهود في مختلف أقطار العالم، واللهُ لا يحبُّ المفسدين.

٦- ترغيب أهل الكتاب بالإيمان:

رغَّب اللهُ -تبارك وتعالى- أهل الكتاب بالإيمان وتقوى الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٦٥﴾ [المائدة:٦٥]

يقولُ ربُّ العزة: لو أن اليهودَ والنصارى آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، واتبعوا رسولَنا محمداً ﷺ، واتَّقوا اللهَ بفعلهم الطاعات، وتركِهِمُ المنكرات، لكفَّرنا عنهم ذنوبهم التي اقترفوها، ولأدخلناهم جنات النعيم في الآخرة.

وزادهم ترغيباً بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ۝٦٦﴾ [المائدة:٦٦].

جنـــــة السـنـــــة

وإقامة اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل وإقامتهم لما أنزل إليهم من الدين الذي أنزلَه على رسولنا ﷺ توجِبُ عليهم الإيمانَ برسولنا ﷺ واتباع ما جاءَ به، فالتوراة والإنجيل والقرآنُ كلُّها تأمر اليهودَ والنصارى باتباع محمدٍ ﷺ واتباع ما جاء به ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٧].

وأخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أنهم لو أقاموا التوراة والإنجيلَ على النحو الذي ذكرناه، لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، عنى بالذي من فوقهم المطر النازل من السماء، وبالذي من تحت أرجلهم الرزق النابت من الأرض، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف:٩٦] ومنه قولُ نوحٍ لقومه: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [نوح:١٠-١٢] وقوله: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ ﴾ أي: مؤمنةٌ، وهم الذين دخلوا في الإسلام ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ وهم الكفارُ من اليهود والنصارى.

٧- أمرُ الله رسوله ﷺ أن يبلّغ جميع ما أوحاه الله إليه:

نادى ربُّ العزة رسولَه ﷺ آمراً إياه أن يبلِّغ جميع ما أوحاه اللهُ إليه ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ ﴾ [المائدة:٦٧] وأعلمه سبحانه أنه إنْ كتم شيئاً مما أنزله إليه فما بلَّغ رسالته ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ ﴾ [المائدة:٦٧] وتعهَّد له بأن يعصمه من الناس، أي: يمنعَهُ ممن أراد به سوءاً ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾ [المائدة:٦٧] وأعلمنا ربنا -تبارك وتعالى- أنه لا يهدي القومَ الكافرين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة:٦٧] أي: لا يوفِّقُهُم، ولا يدُلُّهم على طريق الخير.

وهذه الآية تدلُّ على أنَّ رسولَنا ﷺ بلَّغ جميعَ ما أوْحاه اللهُ إليه، ولم يكتم منه شيئاً، فمن زعم أن رسولَنا كتم شيئاً من الوحي، فقد كذَّب الله فيما أخبر -تعالى- به، تقولُ عائشة رضي الله عنها: «من حدَّثَكَ أن محمداً كَتَمَ شيئاً مما أنْزَلَ اللهُ إليه، فقد كذب، والله يقولُ ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ ﴾» [البخاري: ٤٦١٢. ومسلم: ١٧٧ مطولاً]. وعنها أيضاً قالت:

جنـــــة الســــــنة

«من زعَمَ أن رسولَ الله كَتَمَ شيئاً من كتابِ الله فقد أعظم على الله الفِرْيَة» [البخاري: ٤٦١٢. ومسلم: ١٧٧ واللفظ لمسلم].

وقد تكفَّل اللهُ لرسوله ﷺ أن يحفظه من الناس، فلا يصل إليه أحد يريد قتله ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة:٦٧]، وقد كان الصحابةُ يحرسون الرسولَ ﷺ قبل نزول هذه الآية، فلما نزلت أمرهم بالانصراف عنه، وأخبرهم أن الله عصمه.

روى عبدالله بن عامر بن ربيعة قال: سمعتُ عائشة رضي الله عنها تقولُ: كان النبي ﷺ سَهِرَ، فلما قَدِمَ المدينة، قال: «ليتَ رجلاً من أصحابي صالحاً يحرُسُني الليلة». إذ سمعنا صوتَ سلاحٍ، فقال: «من هذا». فقال: أنا سعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ جئتُ لأحرُسَكَ ونامَ النبيُّ ﷺ [البخاري: ٢٨٨٥. ومسلم: ٢٤١٠].

فلما أنْزَلَ اللهُ هذه الآية أمَرَ الذين كانوا يحرسونَهُ بترك الحراسة، وقد حاولَ اليهودُ قتلَه أكثر من مرَّة، وحاول بعضُ العرب من قريشٍ وغيرها أن يفْتُكُوا به، فحماه ربُّ العزة، وحفظه، وأذهبَ كيْدَهُمْ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- تجرأ اليهودُ على ربِّ العزة، ووصفوه بقبيح الصفات، فقالوا: يدُ الله مغلولةً، وقالوا: إنَّ اللهَ فقيرٌ ونحن أغنياءُ، وقالوا: إنه تعبَ عندما خَلَقَ السموات والأرض، فاستراحَ في اليوم السابع، تعالى الله عما يقولونهُ علواً كبيراً.

٢- أعْلمنا اللهُ ربُّنا أن اليهودَ بخلاءُ، وهم ملعونونُ بسبب ما وصفوا اللهَ به.

٣- اللهُ جوادٌ كريمٌ، كثيرُ العطايا والهباتِ، لا يعجزُه شيء من البذل والعطاء.

٤- اللهُ -تبارك وتعالى- له يدان، كما له ذاتٌ ووجهٌ، وهو لا يشبه أحداً من خلقِهِ، وصفاتُه لا تشبه شيئاً من صفات خلقه.

٥- اليهودُ والنصارى يكفُرون بما أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فيزدادون طغياناً وكفراً.

٦- كثرةُ النزاع والاختلاف بين طوائف اليهود، وبين طوائف النصارى، وبين اليهود والنصارى.

جنـــــة السـنـــــة

٧- دعا اللهُ أهل الكتاب إلى الإيمان به وبرسوله، وأخبر أنهم لو آمنوا واتقوا لكفَّر عنهم سيئاتهم ولأدخلهم الجناتِ في الآخرة، ولأنزلَ اللهُ لهم الخير من السماء، وأنبت لهم نباتَ الأرض في الدنيا.

٨- أمر اللهُ رسولَه ﷺ أن يُبَلِّغَ جميعَ ما أنزله الله إليه، وتكفَّلَ له بحفظه، فلا يستطيع أحدٌ أن يُهْلِكَه قبل إبلاغِهِ الرسالة.

٩- الرسولُ ﷺ لم يكتم شيئاً مما أوحاه الله إليه، كما يدّعي بعضُ الذين ينسبونَ إلى الإسلام.

جنـــــة السـنــــة

النص القرآني الحادي والعشرون من سورة المائدة
لا قيمة لليهود والنصارى عند الله حتى يقيموا ما أنزل من عند الله

أولاً: تقديم

لا يزالُ الخِطابُ في آياتِ هذا النص جارياً مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وقد أمر اللهُ -تبارك وتعالى- رسوله ﷺ أنْ يخاطبَ أهْلَ الكتاب، ويعلمهم أنه لا قيمةَ لهم ولا وزنَ عند الله تعالى، حتى يقيموا التوراة التي أُنزلتْ على موسى، والإنجيل الذي أُنزلَ على عيسى عليهما السلام، ويقيموا ما أُنزل إليهم من ربهم، والمرادُ بالذي أنزل إليهم من ربهم القرآن الذي أنزل على محمدٍ ﷺ، فإنه منزلٌ للعرب واليهود والنصارى والناس جميعاً.

وقد أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ القرآن المنزلَ على عبده ورسوله محمد لا يزيدُ أكثرهم إلا طغياناً وكفراً، بسبب رفضهم له، وتكذيبهم ومحاربتهم للرسول الذي جاء به، وللصحابة الذين آمنوا.

وأشادَ اللهُ بالفئة المؤمنة الخيرة الفاضلة، وفي ذلك ردٌّ على بني إسرائيل الذين يدَّعون أنهم الأفضلُ والأكملُ، وذمَّ الله بني إسرائيل لنقضهم ميثاقهم مع ربهم واعتدائهم على رسله بالتكذيب والقتل، ورسوبهم فيما امتحنهم الله -تعالى- به.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ
وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ
رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟
وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

[المائدة:٦٨-٧١].

جنـــة السـنـــة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اليهودُ والنصارى ليسوا على شيءٍ حتى يقيموا التوراة والإنجيل والمنزل إليهم من ربهم:

أمَرَ الله -تعالى- رسولَه محمداً ﷺ أنْ ينادي اليهودَ والنصارى قائلاً لهم: لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة:٦٨].

وقوله: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي: ليس لكم وزنٌ ولا مكانةٌ عند الله تعالى، وإقامَتهم للتوراة والإنجيل تكونُ بأخْذِهم ما فيهما، وقد أمرهم فيهما بالإيمان برسولنا ﷺ عندَ بعثتِهِ، واتباعِهِ، واتباع ما جاء به.

وقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ المرادُ به ما أنزله على عبده ورسوله محمدٍ ﷺ، فإنه منزلٌ للناس جميعاً، لا فرق بين العرب واليهود والنصارى وغيرهم، وهو يأمرهم باتباع هذا الدين، وتحقيقه في حياتهم.

وأخبر اللهُ -تعالى- رسوله محمداً ﷺ أنَّ المنزلَ إليه من ربِّه سيزيدُ اليهودَ طغياناً وكفراً ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة:٦٨] والطغيانُ تجاوزُ الحدّ في العصيان، والكفرُ هنا الإغراقُ بتكذيب الله ورسوله ﷺ، وإنما زادهم المنزلُ من عندِ الله طغياناً وكفراً، لأنه يزيدُهم تكذيباً للحق، ويزيدهم إغراقاً في مقاومته وردِّه ودفعه، ومحاربة أهله، وقد واسى اللهُ رسولَهُ ﷺ ناهياً إياه أن يأسى على القوم الكافرين، ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المائدة:٦٨].

والأسى الذي نهى اللهُ رسولَه ﷺ عنه الحزن، وحقيقته: اتباع الفائت بالغمِّ.

٢- الطائفة الخيِّرةُ من الناس:

ادَّعى كلُّ طائفةٍ من الناس بأنهم الأفضل والأكمل، وقد ادَّعى هذه الدعوى كلٌّ من المسلمين واليهود والنصارى والصابئين، وقد حكى اللهُ فيما سبق أن اليهود والنصارى ادَّعوا أنهم أبناءُ الله وأحباؤه، وأنَّ كلَّ فريقٍ منهم أصحابُ الجنة دون غيرهم، وقد أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أن الطائفة الخيِّرة الفضلى هي التي تتصف بأمرين: الأول: الإيمانُ بالله واليوم الآخر، ومن آمن بالله آمن بكل ما أخبر به، ومن ذلك الإيمانُ بالملائكة والرسل والكتب واليوم الآخر. والثاني: عملُ الصالحاتِ من الواجبات والمستحبات التي شرعها اللهُ، كالصلاة

جنـــــة السـنـــــة

والزكاة والصوم والحج وغيرها. فكلُّ الطوائف من المؤمنين والذين هادوا والنصارى والصابئين وغيرهم إذا آمنوا وعملوا الصالحات، فهم من الفئة الخيرة الصالحة، وهؤلاء في حفظ الله تعالى، فلا خوفٌ عليهم في الدنيا، ولا هم يحزنون في الآخرة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المائدة:٦٩].

﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ محمولٌ على التأخير، مرفوعٌ بالابتداء، والمعنى: أنَّ الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً، فلا خوفٌ عليهم، ولا هم يحزنون والصابئون والنصاري كذلك أيضاً [زاد المسير: ٢/ ٣٩٩].

وقد سبق تفسيرُ نظير هذه الآية في سورة البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة:٦٢] وقوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما خلَّفوه من الذرية، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على من سيأتي عليهم بعد الموت.

٣- موقفُ بني إسرائيل من الميثاق الذي أخذه عليهم والرسل الذين أرسلهم إليهم:

أخبرنا العليم الخبير -سبحانه وتعالى- عن الموقف الذي وقفَهُ اليهود من الميثاق الذي أخذه اللهُ عليهم، والرسل الذي أرسلهم إليهم ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [المائدة:٧٠].

والميثاقُ: «عَقْدٌ مُؤَكَّد بيمينٍ وعَهْدٍ» [المفردات: ص٥١٢]. وقد أخذ الله على بني إسرائيل جملةً من المواثيق، أعظمُها أن يعبدوه وحده لا شريك له، ويدخل في هذه المواثيق كل التكاليف التي كلفهم اللهُ تعالى بها، وأرسل إليهم رُسُلَهُ، يحملون إليهم دينَه وشريعتَهُ، فنقضوا عَهْدهم مع ربِّهم، وكلما جاءَهم رسولٌ مخالفاً لأهواءِ نفوسهم، ردُّوا عليه ما جاءَهم به، فكذَّبوه، بل جاوزوا ذلك إلى سفك دماء الرسل، وإزهاق أرواحهم.

٤- عمى بني إسرائيلَ وصَمَمُهمْ مرةً بعد مرة:

أخبرنا ربُّنا العليمُ الحكيمُ- سبحانه وتعالى- أنَّ بني إسرائيل ظنوا أنَّ الله -تعالى- لن يبتليهم، ولن يختبرهم بالشدائد والعقوبات، فعموا عن الحق الذي أنزله إليهم، وصمُّوا عن

جنـــــة السـنــــة

سماع الوحي الذي جاءَهم من عنده، فأصابهم اللهُ بالمصائب والنكبات، وسلَّط عليهم نبوخذ نصر وجندَه، فقاتلوهم، وهزموهم، وهَدَمُوا دولَتهمُ، وسبوا رجالهم ونساءَهم، ثم تابَ الله عليهم، وأعادهم إلى ديارهم، وأعادَ لهم دولتهم، ثم عَمُوا وصمُّوا كثيرٌ منهم مرةً أخرى، فسلَّط اللهُ عليهم عدوهم بعد رفع المسيح، فدمَّرهم وأبادَهم، وطُردوا من أرضهم، وأخذ الرومان مدينتهم، وهدموا هيكلهم، وحَلَّت نقمةُ الله بهم ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ٧١﴾ [المائدة:٧١].

والمراد بقوله: ﴿عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ أي: عميتْ بصائرهم عن الحق، ورفضوا الدين المنزلَ إليهم من ربِّهم، فأصبح حالهم حالُ الذي فقد حاسَّة السمعِ فهو لا يسمع.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- قيمةُ كل قوم عند ربِّهم بحسب إقامتهم للكتب التي أنزلها اللهُ تعالى إليهم، واليهودُ والنصارى ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراةَ والإنجيل علماً وعملاً.

٢- بعد بعثة محمدٍ ﷺ أوجبَ على اليهود والنصارى الإيمانَ به ومتابعته، أمَرَهم بذلك في التوراة والإنجيل، ورسولُنا مرسلٌ إلى الناس كُلِّهم وفيهم أهلُ الكتاب.

٣- أرسلَ اللهُ رسولَهُ محمداً، وأنزلَ اللهُ عليه القرآنَ، لهداية الناس وصلاحِهم، فأعرضَ عنه أهلُ الكتاب ورفضوه، فزادهم ذلك طغياناً وكفراً وضلالاً.

٤- الفئة الخيِّرةُ المقبولة عند الله هم المؤمنون بالله واليوم الآخر لا فرق في أن يكون هؤلاء من الأمة الإسلامية أو اليهود أو النصارى أو الصابئين.

٥- يشترطُ في الفئة الخيرة أن يكونوا مؤمنين بالله، والمؤمنُ بالله مؤمنٌ بكل ما جاء من عنده فيلْزَمُ أن يؤمنَ برسلِ الله وملائكته وكتبه واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه من الله تعالى.

٦- المؤمنون بالله واليوم الآخر الذين يعملون الصالحات هم الفئة الخيرةُ، واللهُ حافظٌ لهم في الدنيا، وليس عليهم حُزْنٌ في الآخرة.

٧- ذمَّ الله بني إسرائيل لنقضهم عهودَهم مع ربهم، وكُفرهم برسله، فقد كذَّب بنو إسرائيل طائفةً من الرسل، وقتلوا آخرين منهم.

٨- اختبر اللهُ بني إسرائيل بأنواعٍ من الاختبارات، فعموا عن الحق، وأصمُّوا آذانهم عما جاءَهم من عند الله، ثم تابَ الله عليهم، ثم عادوا إلى عماهم وصمَمِهِمْ، والله بصيرٌ بهم، عالمٌ بما يعملونه.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني الثاني والعشرون من سورة المائدة الذين يزعمون أن عيسى ابن الله كُفَّارٌ

أولاً: تقديم

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الذين ادَّعوا أنَّ عيسى ابنَ مريم هو ابنُ الله كفارٌ، وهم مخالفون لما جاء به المسيحُ عليه السلام ، فالمسيحُ أمرهم بعبادة الله وحدَهُ، وأخبرهم أنَّ من أشركَ بالله فقد حرَّمَ اللهُ عليه الجنةُ، ومأواهُ النارُ، وهو من الظالمين، وليس للظالمين من أنصارٍ.

وأخبرنا سبحانه بكفر الذين قالوا: إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثة، وأعلمنا ربنا أنّ اللهَ إلهٌ واحدٌ، وتهدَّدَ الذين يشركون به، وبين حقيقة عيسى وحقيقة أمِّه، وأنَّهما كانا من البشر يأكلان الطعام.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾ [المائدة:٧٢-٧٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- كُفْرُ الذين قالوا إنَّ اللهَ هو المسيحُ ابنُ مريمَ والذين قالوا إنَّ الله ثالثُ ثلاثةٍ:

أخبرنا الحقُّ -تبارك وتعالى- أنَّ الذين يزعمونَ من النصارى أنَّ اللهَ هو المسيحُ ابنُ مريمَ كفار، وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن المسيح ابن مريم عليه السلام تبرأ من هذه الفرية التي افتراها عليه أتباعُهُ، فقد قال في حياته لبني إسرائيل: اعبدوا اللهَ ربي وربكم، وقال لهم: إنَّه من

جنـــــة الســـــنة

يشركْ بالله فقد حرَّمَ اللهُ عليه الجنةَ ومأواه النارُ، وما للظالمين من أنصار ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ [المائدة:٧٢].

وأعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن كُفْرِ الذين قالوا: إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ، ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ [المائدة:٧٣] يريدون بالآلهة الثلاثة: الله، وعيسى، ومريم، وقد ردَّ اللهُ على ضَلالهم وبهتانهم فيما ادَّعوه وزعموه فقال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ ﴾ [المائدة:٧٣] فليس هناك ثلاثةٌ من الآلهة، والإلهُ الحق هو إلهٌ واحدٌ، وهو اللهُ سبحانه، وتهدَّد الذين قالوا هذه المقالةَ الشركية ورهَّبهم فقال: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [المائدة:٧٣] أي إن لم يتركوا هذا الكذب الذي يفترونه ويقولونه فإنه سيمسُّ هؤلاء الكفارَ عذابٌ أليمٌ.

٢- سعةُ مغفرةِ الله عز وجل:

يغفرُ اللهُ تبارك وتعالى الذنوبَ مهما عظمتْ وكبرتْ، فقد أخبرنا أنَّ الشركَ أعظمُ الذنوب، ومن الشرك الأعظم نسبةُ الولد إلى الواحد الأحد، فلعظم هذاالذنب تكادُ السموات تتفطرُ، وتكادُ الأرض أن تنشقُّ، وتكادُ الجبالُ أن تدكّ وتزولَ ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ ﴾ [مريم:٨٨-٩١].

ومع عظم جريمة هؤلاء فإنَّ اللهَ تعالى دعا هؤلاءِ الذين ارتكبوا هذه الجريمة النكراء إلى التوبة والاستغفار، ولم يَدْعُهم ربُّ العزة إلى ذلك إلا وهو يريدُ أن يغفر لهم إذا تابوا، فهو الغفورُ الرحيم سبحانه، ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [المائدة:٧٤].

٣- حقيقةُ عيسى ابن مريم عليه السلام:

بيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- في هذه الآيات حقيقة عيسى عليه السلام وحقيقةَ أمِّه مريمَ، فقال: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ﴾ [المائدة:٧٥] فالمسيحُ عيسى عليه السلام خَلْقٌ مِن خَلْقِ الله، مخلوقٌ لعبادةِ الله، وحاله كحال

جنـــــة الســـــنة

الرسل الذين خَلَوْا من قبله، أي: الذين مَضوا من قبله، فهو ليس كما يقولُ اليهودُ: إنه ابن زنى، وإنه كاذبٌ في دعواه الرسالة، وليس كما يزْعُمُ النصارى أنَّه اللهُ أو ابنُ الله، وأمُّه مريمُ عليها السلام صدِّيقَةٌ، والصديقُ مرتبةُ تأتي بعد النبوَّة، ومن الصديقين أبو بكر ﷺ، وهذا يردُّ على ابن حزم في دعواه أن مريمَ نبيَّة، ومثلها عنده سارةُ أمّ إسحاق، وكذلك أمُّ موسى، واحتجَّ على ذلك بمخاطبة الملائكة لهنَّ، وهذا غيرُ صحيح، فقد خاطبت الملائكةُ الأقرعَ والأبرصَ والأعمى والمذكورين في الحديث، وقد كفر الأقرع والأبرصُ، ويدلُّ على عدم صحة القول بنبوتهم قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم ﴾ [يوسف:١٠٩].

وقد أخبر اللهُ تعالى أنَّ عيسى وأُمَّه مريمَ ﴿ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ﴾ [المائدة:٧٥]. وهذا يدلُّ على أنهما لا يصلحان للألوهية من وجهين: الأولُ: أن المحتاجَ إلى الطعام والغذاء لا يصلح أن يكون إلهاً لأنه فقير محتاج إلى غيره. والثاني: أن الذي يأكلُ الطعامَ ويشربُ الشرابَ يخرجُ منه الفضلاتُ والقاذوراتُ، ومن كان كذلك لا يصلح أن يكون إلهاً.

وقوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥﴾ [المائدة:٧٥] أي: انظر وتأمل كيف نبيِّنُ الآيات الواضحات الظاهرات الدالة على الحقِّ، ثم انظر كيف يؤفك هؤلاء، أي: يصرفون عن هذا الحقِّ.

٤- الذي لا ملك لغيره نفعاً ولا ضرًّا لا يصلحُ أن يكون إلهاً:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ أن يخاطبَ الذين يعبدون من دون الله آلهةً باطلةً، وفيهم الذين يعبدون عيسى ﷺ، فيقولُ لهم: أتعبدون من دون الله ما لا يملكُ لكم ضرّاً ولا نفعاً، فالأصنامُ والأوثانُ والأمواتُ التي يعبدها بعضُ الجهلة لا تملك لنا ضرّاً ولا نفعاً، والذي لا يملك لنا ضرّاً ولا نفعاً لا يصلحُ أن يكون إلهاً، وألوهيتُه باطلةٌ ﴿ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٦ ﴾ [المائدة:٧٦] أي: السميع لأقوال عباده، العليمُ بأعمالهم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الذين يقولونَ: إن الله تعالى هو المسيح ابنُ مريم كفار، وهم مخالفون لما جاء به المسيح، فقد أمرهم المسيحُ عندما كان بينهم بأن يعبدوا اللهَ وحده، ولا يشركوا به شيئاً.

جنـــــة الســـــنة

٢- المشركُ بالله حرَّم الله عليه الجنة، ومصيرُهُ النار، ولا ناصرَ له يومَ القيامة.

٣- الذين زَعموا أنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ كفَّار، فاللهُ هو المعبودُ الذي يستحقُّ العبادةَ دون غيره.

٤- الله واسعُ الرحمةِ والمغفرة، وقد دعا ربُّ العزة الذين نسبوا الولدَ إليه إلى التوبة والاستغفار، فالله تعالى لا يعجزهُ أن يتوبَ على أحدٍ مهما عظُم ذنبه.

٥- عيسى من بني آدم، خَلَقه اللهُ، وأرسله إلى بني إسرائيل، وكان وأمُّه يأكلان الطعامَ، ومن احتاجَ إلى الطعام لا يصلحُ لأن يكون إلهاً، فآكلُ الطعام فقير محتاجٌ إلى غيره، ومن أكل الطعام خرجَ منه البولُ والعذرةُ، فكيفَ يكون إلهاً.

٦- الآلهةُ المزعومةُ، وهي كلُّ ما عُبِد من دون الله لا تملكُ لغيرها نفعاً ولا ضرّاً، والذي لا يملكُ لغيره نفعاً ولا ضرّاً لا يصلح أن يكون إلهاً.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني الثالث والعشرون من سورة المائدة
نهى اللهُ أهلَ الكتابِ عن الغلوِّ في الدين

أولاً: تقديم

نهى اللهُ -تبارك وتعالى- أهَلَ الكتابِ عن الغلوِّ في الدين، ونهاهم عن اتباعِ الأمم الضالة من قبلهم، وأخبرنا ربُّنا بلعن نبييه داود وعيسى عليهما السلامُ للذين كفروا من بني إسرائيلَ، وعدَّد ربُّ العزة جملة من الجرائم التي ارتكبها أهل الكتاب، فاستحقوا بها اللعن.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟
مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا
يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ
يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ
خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ
كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة:٧٧-٨١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أنْ ينهى أهلَ الكتاب عن الغلو في دينهم:

أَمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- أن ينادي أهلَ الكتابِ من اليهود والنصارى، وينهاهم عن الغلوِّ في دينهم غلوًّا يبعدهم عن الحق، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٧٧].

والغلوُّ: تجاوزُ الحد، وقد غلا اليهودُ في دينهم فقالوا: عزيرٌ ابنُ الله، وقالوا: نحنُ أبناءُ الله وأحباؤُه، وغلا النصارى في دينهم، فقالوا: اللهُ هو عيسى ابن مريم، وقالوا: اللهُ ثالثُ ثلاثةٍ، تعالى اللهُ عما يقولونه علوّاً كبيراً.

ونهى اللهُ أهلَ الكتابِ عن اتباع أهواءِ القومِ الضالين من قبلهم، فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة:٧٧].

جنـــة السـنـــة

«والأهواء: جمعُ هوى، وهو ما تدعو إليه شهوةُ النَّفْسِ» [فتح الرحمن: ٢/ ٣٢٨] والمرادُ بالقوم الذين نهى اللهُ أهلَ الكتاب عن اتباعهم الأممُ الضالةُ من قبل اليهود والنصارى الذين نسبوا إلى الله الولدَ فهؤلاء قد ضلُّوا وانحرفوا في أنفسهم، وأضلوا غيرهم، وضلوا عن سواء السبيل، أي: عن الطريق المستقيم، وهو الدينُ الذي أنزله اللهُ تعالى.

٢- لعنُ الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الكفرة من بني إسرائيل لُعِنُوا على لسان نبيِّ الله داود ونبيه عيسى ابن مريم، وذلك بسبب عصيانِهم وعدوانهم ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المائدة: ٧٨].

«واللَّعْنُ: الطردُ والإبعادُ على سبيل السَّخَطِ، وذلك من الله تعالى عقوبةٌ، وفي الدنيا انقطاعٌ من قبولِ رحمتِهِ وتوفيقه» [المفردات: ٤٥١].

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ داودَ وعيسى دعا كلٌّ منهما ربَّه أنْ يلعنَ الكفار من يهود زمانِهِمْ، بسبب كثرةِ معاصيهم لربِّهم، وبسبب عدوانهم، والعدوانُ: مجاوزةُ الحقِّ.

٣- من جرائم اليهود والنصارى عدم تناهيهم عن المنكر:

أعْلَمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن من جرائم اليهود والنصارى التي لُعِنوا بها عدم تناهيهم عما يفعلونه من المنكرات ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة:٧٩].

والمنكر: ما أعلمَ اللهُ عبادَه بقبحِهِ ووجوبِ الابتعاد عنه وتَرْكِهِ، كالشركِ والربا والزنى، وقد جعل الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قوامَ الأمة الصالحة، فإذا تركت الأُمَّةُ الأمر بالمعروفِ والنهيَ عن المنكر ضلَّت وغوَتْ، وكَثُرَ فيها الفسادُ والضلالُ، قال الشوكاني: «الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم القواعد الإسلامية، وأجلّ الفرائض الشرعية، ولهذا كان تاركُهُ شريكاً لفاعل المعصية، ومستحقاً لغضب الله وانتقامِهِ» [فتح القدير: ٢/ ٩٤].

وأوجب رسولُنا ﷺ على من رأى منكراً أن يغيِّره بيده إن كان مستطيعاً، فإنْ لم يستطعْ فبلسانِهِ، فإن لم يستطعْ فبقلبه، أما الذي لا ينكرُ قلبه المنكر، فاللهُ أعلمُ بإيمانِهِ، قال أبو سعيد الخدري: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «من رأى منكم منكراً فلْيغيِّرْه بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» [مسلم:٤٩].

وقوله تعالى: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ ذمَهم اللهُ تعالى لعدم نهيهم عن المنكر.

جنـــــة الســـــنة

٤- **ذمَّ الله أهل الكتاب لتوليهم الذين كفروا:**

ذمَّ اللهُ -تبارك وتعالى- أكثر أهل الكتاب لتولِّيهم الذين كفروا ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [المائدة:٨٠].

ذمَّ الله تعالى أهل الكتاب الذين كانوا يتولَّوْنَ الذين كفروا، كما فعلَ اليهودُ عندما تحالفوا مع قريش لقتال المؤمنين في غزوة الخندق، وقد أقْسَمَ الله تبارك وتعالى في قوله ﴿لَبِئْسَ ﴾ فاللامُ هنا واقعة في جواب قسم مقدر.

يقولُ ربُّ العزة، أُقْسِمُ لبئس الشيء الذي قدَّمَتْ لهم أنفسهم أمامهم إلى معادِهِم في الآخرة ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [المائدة:٨٠]. والذي قدَّمتْهُ أنفسُهُمْ لهم سخط الله عليهم ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ وحَكَمَ اللهُ عليهم بأنهم خالدون في عذابه يوم القيامة ﴿وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [المائدة:٨٠]. وأخبرنا العزيز العليمُ -سبحانه- أنَّ الذين تولَّوْا أهلَ الشركِ من اليهود والنصارى لو كانوا يؤمنون بالله والنبي ﷺ وما أُنزلَ إليه ما اتخذوهم أولياءَ، أي ما اتخذوهم أصحاباً وأنصاراً من دون المؤمنين ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [المائدة:٨١] وختمَ اللهُ الآية بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ أي: خارجون عن طاعة الله إلى معصيته والكفر به.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا أمعنَّا النظر في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- نهى اللهُ تعالى أهل الكتاب عن الغلو في دينهم، فمن ذلك دعوى اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه، ودعوى اليهود أن عزيراً ابنُ الله، ودعوى النصارى أنَّ المسيحَ ابنُ الله، تعالى اللهُ عما يقولونه علوًّا كبيراً.

٢- نهى اللهُ أهلَ الكتاب أن يتَّبعوا أهل الضلال من قبلهم، فقد نسبت بعض الأمم من قبلهم الولدَ إلى الله، واتخذوا الرهبانية ديناً.

٣- لَعَنَ بعضُ أنبياءِ بني إسرائيل الذين كفروا من بني إسرائيل، ومن هؤلاء الأنبياء داودُ وعيسى عليهما السلام، ولعنهما لهم طلبٌ من الله أن يطردهم من رحمته وجنته.

جنـــــة السـنـــــة

٤- ارتكب الذين لعنهم داود وعيسى عليهما السلام جملةً من الجرائم استحقوا بها اللعن، منها عصيانهم ربهم وعدوانهم وظلمهم لغيرهم، وتركهم الأمر بالمعروف والنهيَ عن المنكر، وتولِّيهم الذين كفروا، وكفرهم بالله، وتكذيبهم لرسوله الخاتم.

٥- لو آمن أهل الكتاب برسولنا ﷺ وما أنزل الله عليه ما اتخذوا الكفار أولياء.

٦- على المسلمين أن يحذروا فعل الجرائم التي ارتكبها أهلُ الكتاب حتى لا يصيبهم ما أصابهم.

٧- عيسى عليه السلام مرسلٌ إلى بني إسرائيل.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الرابع والعشرون من سورة المائدة
أشدُّ الناس عداوةً للمؤمنين وأقربهم مودة لهم

أولاً: تقديم

خاطبَ اللهُ رسولَه ﷺ مُعلماً إياه أنه إن تفكَّر في نفسه، فإنه سيجد أن أشد الناس عداوةً للمؤمنين اليهودَ والمشركين، وتقديم اليهود على المشركين في الآية يدلُّ على أن عداوتهم أشدُّ من عداوة المشركين، وأعْلمه أنَّ أقربَ الناس مودةً للذين آمنوا الذين قالوا: إنا نصارى، وبيَّنَ السبب في ذلك، ووصفَ لنا ربُّنا في الآيات حالَ بعض النصارى عندما اجتذبَ الإسلامُ قلوبَهُمْ، فآمنوا، وعيونُهُمْ تفيضُ من الدمعِ، وبيَّن لنا ما قالوه، وحدَّثنا عن مصيرهم الطيبِ في يوم الدين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾ [المائدة:٨٢-٨٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تفاوتُ عداء الكفار للمؤمنين:

بيَّنَ اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ أن عَداء أعدائنا لنا متفاوتٌ قوةً وضعفاً، فأشدُّ العداء عداءُ اليهود والمشركين للمؤمنين، وأقربُ الأعداء مودةً للمؤمنين الذين قالوا إنَّا نصارى، وبيَّنَ السببَ في كونهم أقربَ الناس مودةً إلينا أنَّ فيهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [المائدة:٨٢].

جنـــة السـنـــة

والمراد بالمشركين في العهد النبوي مشركو العرب، والفرس، ويدخلُ فيهم اليوم الشيوعيون، والبوذيونَ ونحوهم.

وقد ذهب بعضُ المفسرين إلى أن المرادَ بالنصارى في النص القرآني الذين دخلوا منهم في الإسلام، لأنه قال فيهم ربُّ العزة في الآية الثانية من هذا النص ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ [المائدة:٨٣]. وممن ذهب هذا المذهب سيدُ قطبٍ رحمه الله تعالى، وأطالَ في الاستدلال له، وهذا غير صحيح لأمرين: الأول: أنه لا يقال للذين دخلوا في ديننا من النصارى أنهم أقرب إلينا في المودة من غيرهم، لأنهم إذا دخلوا في ديننا أصبحوا مسلمين مؤمنين، ويَدُلُّكَ على هذا أنه إذا أسلم بعضُ المشركين وبعض النصارى وبعض اليهود، فلا يجوزُ لنا أن نفاضل بينهم في مودَّتهم لنا، إلا بمقدار إيمانهم وتقاهم وحسْبُنا أن نعلم أن بلالاً الحبشي، وسلمان الفارسي، وصهيبَ الرومي، وعبدالله بنَ سلام اليهودي، كانوا في المودة للمؤمنين سواءً، لا فرق بينهم في ذلك إلا بالتقوى، لأنهم جميعاً مسلمون.

وعلى ذلك فإن اللهَ تعالى يفاضلُ يبن عداء اليهود والذين أشركوا وبين عداءِ النصارى لنا، وهم على دينهم، يقول الفاضلُ بنُ عاشور: «المراد بالنصارى هم الباقون على النصرانية لا محالة، لقوله تعالى: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ﴾» [التحرير والتنوير: ج٧، ص٦].

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ﴾ ما ذاك إلا لأن كفر اليهود عنادٌ وجحودٌ ومباهتةٌ للحق، وغَمْطٌ للناس، وتنقُّصٌ بحملة العلم، ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى همُّوا بقتل الرسول ﷺ غير مرَّةٍ، وسحروه، وألَّبوا عليه أشباههم من المشركين، عليهم لعائنُ الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

«وقوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ﴾، أي: الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله، فيهم مودةٌ للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك إلا لما في قلوبهم، إذ كانوا على دين المسيح، من الرقة والرأفة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد:٢٧]، وفي كتابهم: من ضربك على خدِّك الأيمن فأدِرْ له خدَّكَ الأيسر، وليس القتالُ مشروعاً في مِلَّتهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾، أي: يوجد فيهم

جنـــة الســـــنة

القسيسون -وهم خطباؤهم وعلماؤهم، واحِدُهم: قِسِّيسٌ وقسٌّ أيضاً، وقد يجمع على قُسوس- والرهبانُ: جمع راهبٍ، وهو: العابدُ. مشتقٌّ من الرهبة، وهي الخوفُ، كراكب ورُكبان، وفارس وفرسان» [ابن كثير: ٢/ ٥٩١].

ثانياً: ليس المرادُ مما بيَّنه اللهُ -تعالى- في هذه الآية أن يوجِد علاقة الأُخوة والمحبة بيننا وبين النصارى، فقد حدَّثنا اللهُ تعالى في هذه السورة وفي غيرها من السور عن حال النصارى وما تلبسوا به من باطل، وحدَّثنا عن كُفْرِهم وضلالهم وشرْكِهم، ومن ذلك قوله تعالى فيما سبق من هذه السورة ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [المائدة:١٤]. وقال فيهم أيضاً: ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾ [المائدة:١٧] ونهانا ربُّنا -عز وجل- عن اتخاذ النصارى أولياء كما نهانا عن اتخاذ اليهود أولياء، وأخبرنا أن بعضهم أولياءُ بعض ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١﴾ [المائدة:٥١].

لقد عرَّفنا اللهُ تعالى بالنصارى، وكشف لنا كفرهم وضلالهم، ولكنه أعلمنا أن عداوتهم لنا أخفُّ من عداوة اليهود، نعم، قد يقاتلوننا، ويحاربوننا، ويأخذون خيرات بلادنا، ويقتلون رجالنا، ومع ذلك ففي رجال الدين منهم من القسيسين والرهبان بقية خيرٍ لا توجد في أحبار اليهود، ﴿وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ﴾ [الحديد:٢٧].

لقد تألَّم المسلمونَ عندما انتصر الفرسُ المشركون على النصارى من الروم، وأخبر اللهُ تعالى أن الرومَ سيغلبون الفرس في بضع سنين، وأن المؤمنين سيفرحون في ذلك اليوم بنصر الله، ويقالُ: إن الرومَ انتصروا على الفرس في اليوم الذي انتصرَ فيه المسلمون في بدرٍ.

ومن نظر في تاريخنا الغابر، وفي واقعنا المعاصر، علم أنه ما آمن من اليهود عبر التاريخ إلا فئةٌ هي أقل من القليل، بينما آمن من النصارى عددٌ كبير، ولا يزال يدخل في الإسلام أعداد كبيرة منهم في كل وقتٍ وحين.

٢- حالُ الذين آمنوا من النصارى في عهد الرسول ﷺ:

بعد أن أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ النصارى أقرب الناس مودةً إلينا، أخبرنا عمن آمن منهم في عهد الرسول ﷺ ، وهم طائفةٌ من القسيسين والرهبان من الحبشة جاؤوا إلى

جنـــــة السـنــــة

المدينة، وقرأ عليهم رسولنا ﷺ القرآن فآمنوا، فقالَ اللهُ فيهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣)﴾ [المائدة:٨٣].

لقد تلا عليهم رسولُنا ﷺ القرآنَ، واستمع القسيسون والرهبان إلى ما أنزل اللهُ على رسوله ﷺ، فآمنوا، وعرفوا أن الذي تُلي عليهم هو من عند الله، وأنه الذي حدَّثهم الله عنه في التوراة والإنجيل، ففاضتْ أعينهم بالدموع، لاستيقانهم من أن هذا الذي تلي عليهم هو الحق المنزل من عند الله، ومع الدموع التي فاضتْ بها عيونهم، وأخضلوا بها لحاهم انطلقت ألسنتهم بالدعاء لربهم قائلين ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣)﴾ يريدون بالشاهدين المؤمنين من أمة محمد، لأنهم يشهدون في يوم القيامة للرسل السابقين الذين حدَّثنا في القرآن أنهم بلَّغوا أقوامهم ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣].

وعندما أنكر بعضُ كفار قريشٍ على المؤمنين من النصارى إيمانهم، وسَفَّهوهُم بسبب مسارعتهم إلى الإيمان قالوا: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤)﴾ [المائدة:٨٤] أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أن هؤلاء المؤمنين من النصارى ردوا على من أنكر عليهم إيمانهم وقالوا: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾، يريدون به الحق الذي أُنزل من عند الله على رسولِ الله ﷺ، وهم يطمعون أن يُدخِلَهم اللهُ -عز وجل مع المؤمنين الصالحين في جنات النعيم.

٣- جزاءُ المؤمنين من النصارى الذين سبق ذكرُهم:

أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- بجزاء المؤمنين من النصارى فقال: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥)﴾ [المائدة:٨٥]. أما الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم، فقال الله تعالى مخبراً بمصيرهم في يوم الدين: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦)﴾ [المائدة:٨٦].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أشد الناس عداوةً للمؤمنين اليهودُ والذين أشركوا، وأقرب الأعداء مودةً للمؤمنين الذين قالوا إنّا نصارى.

جنـــــة السـنـــــة

٢- السببُ في كون النصارى أقربُ لنا من اليهود والذين أشركوا وجودُ القسيسين والرهبان فيهم، وفيهم شيءٌ من التسامح، وليس فيهم كبرُ اليهود والمشركين.

٣- آمن كثيرٌ من النصارى في عهد الرسول ﷺ وبعد عهده، بخلافِ اليهود فلم يؤمن منهم إلا قليلٌ.

٤- وصف اللهُ حال الذين دخلوا في الإيمان من النصارى، وهو وصفٌ يدلُّ على صدق إيمانهم، كما بيَّنَ عظم تأثرهم عندما آمنوا.

٥- جزاءُ المؤمنين يومَ الدين جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، والذين كفروا وكذبوا بآيات الله أولئك أصحابُ الجحيم، أي: النار.

٦- أوجب اللهُ -تعالى- علينا أن نبغض أعداءَه من اليهود والنصارى، ولذا فإن زعماء الكفر الذين يدعوننا إلى مودتهم ومحبتهم مخطئون ضالون.

جنـــــة الســــــنة

النص القرآني الخامس والعشرون من سورة المائدة
النهي عن تحريم الطيبات والأمرُ بأكل الحلال

أولاً: تقديم

نادى اللهُ تعالى المؤمنين في آيات هذا النص ناهياً إياهم أن يُحرِّموا شيئاً مما أحلَّه لهم من الطيبات، فإن ذلك من العدوان، والله لا يحبُّ المعتدين، وهذا التوجيهُ الإلهيُّ الرباني يعالجُ الفوضى التشريعية التي كان يعيشُ فيها أهلُ الجاهلية، ولا يزالُ يعيشُ فيها الكفارُ في مختلف البلاد والأزمان.

وبيَّن اللهُ -تبارك وتعالى- لنا في هذه الآيات الأيمانَ التي لا يؤاخِذُنا بها، والأيمانَ التي يؤاخِذُنا بها، وبيَّنَ لنا كفارة الأيمانِ المنعقدة إذا نحن حَنِثْنا بها.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْۚ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المائدة:٨٧-٨٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- نهى اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنين أن يُحرِّموا على أنفسهم شيئاً مما أحلَّه لهم:

نادى ربُّ العزة المؤمنين ناهياً إياهم أن يحرِّموا على أنفسهم شيئاً مما أحلَّه لهم، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة:٨٨].

قال ابن جرير: ﴿ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ يعني: الطيباتِ اللذيذاتِ التي تشتهيها النفوسُ، وتميلُ إليها القلوبُ، فتمنعوها إياها، كالذي فعله القسيسون والرهبانُ، فحرَّموا على أنفسهم النساءَ والمطاعمَ الطيبةِ، والمشاربَ اللذيذة، وحبسَ في الصوامع بعضُهُم أنفسَهُمْ، وساحَ في الأرض بعضُهم، يقول تعالى ذكره: فلا تفعلوا أيها المؤمنون كما فعل

جنـــة الســـــنة

أولئك، ولا تعتدوا حدَّ الله الذي حدَّ لكم فيما أحلَّ لكم، وفيما حرَّم عليكم، فتُجاوِزوا حدَّه الذي حدَّه، فتُخالفوا بذلك طاعته [تفسير الطبري: ٤/ ٢٩٧٧].

وهذه الآية تُصوِّبُ الخطأ الذي وقع فيه بعضُ الصحابة، عندما أرادوا أن يغلو في التعبد، ويحرِّموا على أنفسهم بعض الطيبات المستلذات، فنهاهم اللهُ عن ذلك، وقوَّم الرسولُ ﷺ هذا الانحراف، فأقامهم على الجادَّة، روى أنس بن مالك قال: «جاء ثلاثةُ رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ ، فلما أُخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأينَ نحنُ من النبي ﷺ ؟ قد غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، قال أحدُهُم: أما أنا فإني أُصلي الليل أبداً. وقال آخر: أنا أصومُ الدهرَ ولا أُفطِر. وقال آخر: أنا أعتزلُ النساء فلا أتزوجُ أبداً. فجاء رسولُ الله ﷺ ، فقال: أنتُم الذين قلتُم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأُفطِر، وأُصلي وأرقُدُ، وأتزوج النساء، فمن رغِبَ عن سنَّتي فليس مني» [البخاري: ٥٠٦٣].

وقد أراد بعضُ الصحابة أن يختصي حتى لا تبقى له شهوةٌ للنساء، فنهاهم الرسولُ ﷺ عن ذلك [البخاري: ٤٦١٥].

٢- تحريم ما أحلَّ اللهُ عدوانٌ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ تحريمَ ما أحلَّ لنا عدوانٌ ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [المائدة: ٨٧]، وقوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ أي: لا تُحرِّموا ما أباحَ اللهُ من الطيبات، فإنه عدوانٌ، والله لا يحبُّ المعتدين، وقد ذهب جمهورُ أهلِ العلم إلى أنَّ من حرَّم على نفسِهِ شيئاً مما أحلَّه اللهُ فلا يحْرُمُ عليه، وقد أمرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أن نأكل مما رزقنا حلالاً طيباً، فإنَّ التحريمَ حقُّ الله وحده، وقد أمرنا الله بتقواه، ومن تقواه تحليلُ ما أحلَّه، وتحريم ما حرَّمه ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المائدة: ٨٨].

٣- الأيمان اللغو والأيمان المنعقدة:

سبق الحديثُ عن الأيمانِ اللغوِ والأيمانِ المنعقدة عند قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ﴾ [البقرة: ٢٢٥] والمرادُ باليمينِ اللغوِ: اليمينُ التي يتلفَّظ بها المرءُ من غير قصد، كقولك: لا والله، وبلى والله، واليمينُ التي يؤاخذ اللهُ بها هي اليمينُ التي انعقد عليها قلبُ صاحِبِها، وهي اليمينُ المتعمَّدةُ المقصودةُ، قال ربُّ العزة تبارك وتعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَۖ﴾ [المائدة: ٨٩] أي: ولكن يؤاخذكم بأيمانكم المنعقدة بالقصد والنيَّة إذا حَنِثْتُمْ بها.

جنـــــة السـنـــــة

٤- كفارة الذي يحنثُ في يمينه:

إذا حَلَفَ المرءُ على فعل شيءٍ أو تركه، ثم ترك ما حَلَفَ عليه، فعليه أن يُكفِّر عن يمينه الذي حَنَثَ فيه، قال تعالى: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [المائدة:٨٩].

خيَّرنا اللهُ تبارك وتعالى في كفارة اليمين بين ثلاثة أمور: إطعامُ عشرةِ مساكين، أو كِسْوَتُهم، أو تحريرُ رقبةٍ، فإن لم نستطعْ واحداً من الثلاثة كان علينا صيامُ ثلاثةِ أيام، وقد أطالَ أئمةُ التفسير في تحديد مقدار الإطعام أو الكسوة، وهذا الذي تعبوا في تحديده هو طَعامُ زمانهم وكسوةُ زمانهم، ومقدارُ الطعام يتغير بتغير الأزمنة والأمكنة، والواجب الذي دلَّ عليه النصُّ أن يطعم عشرة مساكين أَكْلَةً واحدةً من أوسط ما نطعمُ أهلنا، فلا نطعمهم من أعلاه وأجوده، ولا نطعمهم من أدناه وأردئه، وكذلك يقال في الكسوة، ليست بالأجود، ولا بالأردأ.

ومقدارُ الكسوة ما يكسو بَدَنَ المسكين أو المسكينة، والمرادُ بتحرير الرقبة عتقُ المملوك، والتحريرُ: الإخراجُ من الرقِّ، والأصحُّ أن الرقبة التي تجزئُ في الكفارة الرقبةُ المؤمنةُ، حملاً على الرقبة في كفارة القتل.

والصوابُ أيضاً أن الأيامَ الثلاثة التي يجب صيامها لا يجبُ أن تكون متتابعة، بل يصحُّ أن تكون متفرقة، واللهُ أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ أشار بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما ذكره ربُّ العز من كفارة الأيمان، وأمَرَ اللهُ تعالى بحفظ الأيمان. وعدم المسارعة إلى الحنث بها، فإنْ حنث فعليه المبادرةُ إلى التكفير قبل أن تُنْسى.

وقوله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة:٨٩] أي: مثل هذا البيان الذي بيناه في هذا الموضع، نبين لكم آياته لعلكم تشكرون ما أنعم اللهُ به عليكم من شرائعه وأحكامه.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- لا يجوزُ لأحدٍ أن يُحرِّم شيئاً مما أحلَّه الله تعالى لعباده.

جنـــــة السـنـــــة

٢- من الجرائم الكبار ما غيَّرَتْهُ القوانين الوضعية من أحكام ديننا وشريعتنا، فأحلَّت، وحرَّمتْ، عدواناً وجهلاً.

٣- هذه الآية نهتْ عن أفضل ما عند الصوفية، وهو تحريمهم المتاعَ الدنيويَّ من الطعام والشراب واللباس، والمغالاة في العبادة.

٤- قوَّم الرسولُ ﷺ بهذه الآية أصحابه وأمَّتَه عندما نهاهم عن أن يحرموا على أنفسهم ما أحلَّ اللهُ لهم.

٥- هذه الآية نهت عن رهبانية النصارى، وبيَّنَتْ أنها ليست بصوابٍ.

٦- من حرَّم على نفسه طعاماً، أو شراباً، أو لباساً مما أحلَّه تعالى، فإنه لا يحرُمُ عليه، وعليه أن يرجع عما حرَّمه اللهُ على نفسِه.

٧- لغو اليمين الذي يتلفظُ به المؤمنُ من غير قصدٍ لا تجب فيه الكفارةُ، أما اليمينُ المتعمدةُ المقصودةُ، وهي اليمينُ المعقودة، فيجب فيها الكفارةُ إذا حنث صاحبها فيها.

٨- إذا حَنَثَ المرءُ في يمينه المنعقدة، فعليه إطعامُ عشرة مساكين وجبةً واحدة، من أوسط ما يأكله، أو يكسوهم كسوة تسترُ أبدانهم، أو يعتقُ رقبةً مؤمنةً، فإذا كانَ لا يجدوا واحداً من الثلاث وَجَبَ عليه صيامُ ثلاثةِ أيامٍ، لا فرقَ بين أن يكنَّ متتابعاتٍ أو غير متتابعات.

٩- يجب على المرء أن يحفظ يمينه، فإن حنث في يمينه، فعليه أن يكفر عنها وفق ما بيَّنَه اللهُ تعالى.

١٠- الأفضل لمن أراد أن يخرج كفارة عن يمينه أن لا يخرجَها نقداً، ولكن طعاماً، فإن عَسُر عليه إخراجها طعاماً، فعليه أن يحدِّدَ قيمةَ الطعام الوسط الذي يطعمُهُ أهل بيته، ثم يخرجُ قيمتَه نقداً للفقراءِ.

جنـــــة الســــنة

النص السادس والعشرون من سورة المائدة
الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجْسٌ من عمل الشيطان

أولاً: تقديم

أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- في آيات هذا النص أنه حرَّم علينا أربعاً من كبائرِ الذنوبِ، هي الخمرُ والميسر والأنصابُ والأزلامُ، وأخبرنا أنَّها رجسٌ، وأمرنا باجتنابها، وحدَّثنا عما في الخمر والميسر من آفاتٍ، وأمرنا اللهُ بطاعته وطاعة رسولِهِ، وأعلمنا أن الذين ماتوا وهم يشربون الخمر من قبل أن تحرَّم عليهم، لا إثم عليهم لأنهم شربوا ما لم يكن محرماً عليهم في ذلك الوقت.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [المائدة:٩٠-٩٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تحريمُ الخمرِ والميسرِ تحريماً قاطعاً:

الخمرُ: ما خامَرَ العقلَ وغطَّاه وأضاعَهُ، لا فرق بين ما صنع من العنب وغيره، وقد تحدَّثتُ عن الخمرِ طويلاً عند قوله تعالى: ﴿ ۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ ﴾ [البقرة:٢١٩] وعرَّفتُ هناك الخمرَ والميسرَ، وتحدثت هناك عن مدى ولع أهل الجاهلية بالخمر والميسر، كما تحدثت عن مراحل تحريم الخمر، وقد جاء في آيات هذا النص تحريمُ الخمر والميسر والأنصاب والأزلام تحريماً قاطعاً، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المائدة:٩٠-٩١].

جنـــة السـنـــة

والميسرُ: القمار، قال سفيان: «كلُّ شيءٍ من القِمار فهو من الميسر، حتى لعب الصبيان بالجوز» [ابن كثير: ٢/ ٦٠١].

والأنصاب: حجارةٌ كان أهل الجاهلية ينصبونها، ويذبحونَ ذبائحهم عندها، وينشرونَ لحوم الذبائح عليها، ولم تكن منقوشةً على شكْل الأصنام، وذهب ابنُ القيم رحمه الله تعالى إلى أنَّ الأنصاب: «كلّ ما نُصِبَ ليعبدَ من دون الله من حجرٍ، أو شجرٍ، أو وثن، أو قبرٍ» [بدائع التفسير: ٢/ ١١٨].

والأزلام: قداح كانوا يستشيرونها عندما يريدون أن يفعلوا فعلاً كالزواج والسفر، مكتوبٌ على أحدها افعل، والآخر لا تفعل، والثالث غُفْلٌ لم يكتب عليه شيء، والرِّجسُ في اللغة اسمُ ما استُقْذِرَ من عمل، فبالغَ اللهُ في ذمِّ هذه الأربعة وسمَّاها رجساً، وأخبر أنها من عمل الشيطان وتزيينه، وقد أمرنا ربُّنا باجتنابها، ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ أي: لا تقربوا هذا الرجس الذي سُمِّيتْ هذه الأشياء به.

٢- وجه دلالة هاتين الآيتين على تحريم الخمر والميسر:

هاتان الآيتان بينتا حكم الخمرِ والميسر بياناً شافياً، وقد جاءت هاتان الآيتان بفيضٍ من الأدلة الدالة على التحريم، وهي:

١- حَكَمَ اللهُ تعالى أنَّ الخمرَ والميسرَ والأنصاب والأزلام رجْسٌ، وما سماها رجساً إلا لأنها مستقذرةٌ.

٢- أخبرنا اللهُ تعالى أنَّ الخمر والميسرَ من عمل الشيطان، وعملُ الشيطان خبيثٌ سيءٌ.

٣- أمرنا اللهُ -تبارك وتعالى- باجتناب الخمر والميسر، والمأمورُ باجتنابه محرَّمٌ.

٤- علّق ربُّ العزة الفلاحَ على اجتناب الخمر والميسر ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ .

٥- أعلمنا الله تعالى أن الشيطانَ يريدُ أن يوقعَ العداوةَ والبغضاءَ بين شاربي الخمر ولاعبي الميسر، فمن شرب الخمر فَقَدَ عقلَه، وآذى جليسَهُ ونديمَهُ، ولاعبو الميسر يرى الواحدُ منهم مالَهُ مع من قامره، فتقعُ العداوةُ والبغضاءُ في قلبه بسبب ذلك.

٦- الخمرُ والميسر يصُدّان عن الصلاة، ويصدان عن ذِكْر الله تعالى.

٧- قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ سؤال المراد به تهييجُ العباد على ترك الخمر والميسر.

جنـــــة السـنـــــة

٣- الأحاديثُ المُرَهِّبةُ من شرب الخمر:

جاءت أحاديثُ كثيرة ناهيةٌ عن شرب الخمر ولعب الميسر، منها:

١- عن جابرٍ ﷺ أنَّ رجلاً سأل الرسول ﷺ عن شرابٍ يشربونَهُ بأرضهم من الذُّرةِ، يقال له المِزْر؟ فقال النبيُّ ﷺ: «أوَ مُسْكرٌ هو؟» قال: نعم. قال رسول الله ﷺ: «كلُّ مسكرٍ حرامٌ. إنَّ على الله -عز وجل- عهداً، لمن شَرِبَ المسكر أنْ يَسْقِيَهُ من طينةِ الخَبالِ» قالوا: يا رسولَ الله وما طينة الخبالِ؟ قال: «عَرَقُ أهلِ النارِ، أو عُصارَةُ أهل النار» [مسلم: ٢٠٠٢].

٢- عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قالَ: «من شَرِبَ الخمرَ في الدنيا لم يشربْها في الآخرة إلا أن يتوبَ» [مسلم: ٢٠٠٣].

٣- عن أبي هريرة ﷺ قال: قالَ النبي ﷺ: «ولا يزْني الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ، ولا يشربُ الخمرَ حين يشربُ وهو مؤمن، ولا يسرقُ حين يسرقُ، وهو مؤمن» [البخاري: ٢٤٧٥. ومسلم: ٥٧].

٤- عن عبدالله بن عمرَ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثةٌ لا ينظُرُ اللهُ إليهم يوم القيامة: العاقُّ لوالديه، والمُدْمِنُ الخمرَ، والمَنَانُ بما أعْطى» [قال محقق ابنُ كثير: (٢/ ٦١١) أخرجه النسائي، وأحمد، والبيهقي، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وإسناده صحيح، رجاله ثقات].

٥- وعن ابن عمر رضي الله عنهما: قام عمر على المنبر، فقال: «أما بَعْدُ، نَزَلَ تحريمُ الخمر، وهي من خمسةٍ: العنب، والتمر، والعسل، والحِنْطة، والشعير، والخمرُ ما خامر العقلَ» [البخاري: ٥٥٨١. ومسلم: ٣٠٢٢].

٤- الخمر ما خامرَ العقلَ:

ذهب بعضُ الذين ينسبونَ إلى العلم إلى أن الذي يسكِرُ من غير العنب يجوزُ شربُ القليل منه إنْ لم يُسْكِرْ، أما المسكرُ من العنبِ، فيحرمُ كثيرهُ وقليلُهُ، وهذا غيرُ صحيحٍ، فالخمرُ هو المُسْكِر، لا فرق في ذلك بين ما صنع من العنب أو من غيره، وقد جاءت الأحاديث كثيرةٌ طيبةٌ دالةٌ على ذلك، فمن ذلك الحديثُ الذي رواه مسلمٌ عن جابرٍ، وأوردتُهُ في الفقرة السابقة، قال الرسولُ ﷺ في الشراب المسكر المصنوع من الذرة: «كلُّ مُسْكرٍ حرامٌ»، وقال ﷺ: «كلُّ شرابٍ أسْكَرَ فهو حرامٌ» [البخاريُّ: ٢٤٢. ومسلمٌ: ٢٠٠١].

وقد سأل أبو موسى الأشعري رسولَ الله ﷺ عن شرابٍ يصنعُ في اليمنِ من الشعير، يقال له: المِزْرُ، وشرابٍ يقال له: البِتْعُ من العسل، فقال: «كلُّ مسكرٍ حرام» [البخاري: ٣٠٢٨.

جنـــــة الســــــنة

ومسلم: ١٧٣٣]. وفي حديث عمر بن الخطاب ﷺ الذي سبق ذكره أنه نزل تحريمُ الخمر، وكانت تصنع من خمسة موادّ: العنبِ، والتمرِ، والعسل، والحنطة والشعير.

٥- لا يجوزُ بيع الخمر، ولا التداوي بها، ولا تحويلُها خلاً:

حرَّم اللهُ -تعالى- شربَ الخمر، وأوجب إراقتها، وحرَّم بيعها، والتداوي بها، وحرَّم الله تعالى تحويلها إلى خلٍّ، فعن أبي سعيد الخدري، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يخطبُ بالمدينة قال: «يا أيها الناس! إنَّ الله تعالى يُعرِّضُ بالخمر، ولعل اللهَ سيُنزِلُ فيها أمراً، فمن كان عندَه منها شيءٌ فليبِعْهُ، ولينتفع به». قال: فما لبِثْنا إلا يسيراً حتى قال النبي ﷺ: «إن الله تعالى حرَّمَ الخمر، فمن أدركته هذه الآية وعنده منها شيءٌ، فلا يشربْ، ولا يبعْ» قال: فاستقبل الناسُ بما كان عنده منها، في طريق المدينة، فسفكوها [مسلم: ١٥٧٨] وقوله: فسفكوها: أي: أراقوها.

وعن عبدالرحمن بن وَعْلَةَ السَّبَئِيِّ (من أهل مصر)؛ أنه سأل عبدالله بن عباسٍ عما يُعْصَرُ من العنب؟ فقال ابنُ عباس: إن رجلاً أهدى لرسول الله ﷺ راويةَ خمرٍ. فقال له رسول الله ﷺ: «هل علمتَ أنَّ اللهَ قد حرَّمها؟» قال: لا، فسارَّ إنساناً، فقال له رسول الله ﷺ: «بِمَ سارَرْتَهُ؟» فقال: أمَرْتُهُ ببيْعِها، فقال: «إن الذي حرَّمَ شُربَها حرَّم بيعَها» قال: ففتح المزاد حتى ذهب ما فيها [مسلم: ١٥٧٩] ورواية الخمر: قربةٌ ممتلئة خمراً. والمزاد أو المزادة: هي الراوية.

وعن جابر بن عبدالله، أنه سمع رسولَ الله ﷺ يقول عام الفتح وهو بمكة: «إنَّ اللهَ ورسولَه حرَّمَ بيعَ الخمرِ والميتة والخنزير والأصنام» فقيل: يا رسولَ الله! أرأيتَ شحومَ الميتة فإنه يُطلى بها السفنُ ويُدْهَنُ بها الجلودُ ويستصْبِحُ بها الناسُ؟ فقال: «لا. هو حرامٌ» ثم قال رسولُ الله ﷺ عند ذلك: «قاتَلَ اللهُ اليهودَ. إنَّ اللهَ عز وجل لمَّا حرَّم عليهم شحومَها أجْمَلُوهُ ثم باعوهُ فأكلوا ثَمَنَهُ» [البخاري: ٢٢٣٦، ٤٢٩٦،٤٦٣٣. ومسلم: ١٥٨١] وقوله: أجملوه: أذابوه.

وعن أنس أن النبي ﷺ سئل عن الخمر تُتخَذُ خلاً؟ فقال: «لا» [مسلم: ١٩٨٣].

وسأل طارقُ بن سويدٍ الجُعْفِيُّ النبيَّ ﷺ عن الخمر؟ فنهاهُ أو كره أن يصنعها، فقال: إنما أصنعها للدواء، فقال: «إنَّه ليس بدواء، ولكنه داء» [مسلم: ١٩٨٤].

٥- الأمر بطاعة الله وطاعة رسولِه ﷺ:

بعد أن نهانا ربُّنا عن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام أمرنا بطاعتِهِ وطاعة رسولِهِ ﷺ، وحذَّرنا من معصية الله ورسوله، ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ﴾ [المائدة:٩٢] وأولُ

جنـــــة السـنـــــة

ما يدخلُ فيما أمرنا بالتزامه ما نهانا اللهُ عنه من المحذورات الأربعة التي نهانا الله تعالى عنها، وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ [المائدة:٩٢] أي: فإن تولَّيْتُمْ، أي: أعْرَضْتُمْ عما نهيتم عنه، فاعلموا أنكم لن تضروا رسولَنا شيئاً، فالرسولُ عليه البلاغُ، وقد بلغكم ما أنزلُ إليكم من ربِّكم بلاغاً مبيناً، أي: في غاية الظهور والوضوحِ.

٦- **ليسَ على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناحٌ فيما طعموا:**

اختلفَ المفسرون كثيراً في المعنى المراد من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [المائدة:٩٣].

ويدلُّ على المعنى المراد بالآية سبب نزولها، فعن البراء قال: ماتَ رجالٌ من أصحاب النبي ﷺ قبل أن تُحرَّم الخمر، فلما حُرِّمت الخمرُ قال رجالٌ: كيف بأصحابنا وقد ماتوا يشربون الخمر؟ فنزلت ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [المائدة:٩٣] [الترمذي: ٣٠٥٠، وقال: هذا حديث حسن صحيح].

وقال البراءُ: مات ناسٌ من أصحاب النبي ﷺ وهم يشربون الخمر، فلما نزل تحريمها، قال ناسٌ من أصحاب النبي ﷺ: فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها؟ فنزلت ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ [المائدة:٩٣] [الترمذي: ٣٠٥١، وقال: حديث حسن صحيح].

وعن ابن عباس قال: قالوا: يا رسولَ الله، أرأيتَ الذين ماتوا وهم يشربون الخمرَ لَمَّا نَزَلَ تحريمُ الخمر، فنزلت ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [المائدة:٩٣] [الترمذي: ٣٠٥٢، وقال: حديث حسن صحيح].

وعلى ذلك، فالمعنى المرادُ بالآية أنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وماتوا قبل أن يُحرِّمَ اللهُ عليهم الخمرَ والميسرَ، فكانوا يشربون الخمرَ، ويلعبونَ الميسر، ليس عليهم جناحٌ، ولا إثمٌ، لأنَّ الخمرَ والميسرَ لم تُحرَّما في ذلك الوقت، «والذمُّ والجناح إنما يَلْحَقُ من جهة المعاصي، وأولئك الذين ماتوا قبل التحريم، لم يَعْصُوا في ارتكاب مُحرَّم بعدُ، بل كانت هذه الأشياءُ مكروهةً لم ينصّ عليها بالتحريم، والشرعُ هو الذي قَبَّحَها، وحَسَّنَ تجنبها، والجناحُ: الإثمُ والحَرَجُ، وهو كلُّه الحكم الذي يتّصفُ به فاعلُ المعصية» [المحرر الوجيز: ٣/ ٢٥٠].

جنـــــة السـنـــة

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [المائدة:٩٣] أي: ليس على الذين ماتوا من المؤمنين الذين عملوا الصالحات جناح فيما طعموه، ولو كانوا شربوا الخمر، إذا كانوا قد اتَّقوا ربهم، أي: خافوه، وآمنوا به، وعملوا الصالحات، ولا يدخل شرب الخمر فيما يُذَمُّونَ به، لأن اللهَ -تعالى- لم يُحرِّمه في ذلك الوقت.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [المائدة:٩٣] كرَّرَ اللهُ تعالى الثناء على هذه الطائفة الذين ماتوا وهم يشربون الخمرَ ويلعبون الميسر، لأنها لم تكن حُرِّمت، وأخبر عن أولئك الأخيار بأنهم اتقوا وآمنوا، ثم اتقوا وأحسنوا، وأَخْبَرَ سبحانه أنه يحبُّ المحسنين ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ وبذلك أبانَ أن الذين ماتوا وهم يشربون الخمر قبل أن تُحَرَّمَ عليهم الخمرُ هم في الدرجات العَلى، ولا يضيرُهُمْ شُرْبها لعدم حرمتها عليهم قبل موتهم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذ تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- هذه الآيات آخرُ ما نزلَ في الخمر والميسر، وقد حرَّمها الله تحريماً لا رجعة فيه.

٢- شُرْبُ الخمر ولعبُ الميسر واتخاذُ الأنصاب والأزلام تأخُّرٌ وضَلالٌ، وليس بحضارةٍ ومدنية، وقد غرق الغربيون اليوم في تعاطي الخمر والاحتفال بالميسر.

٣- الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رجسٌ وقذارةٌ، تنجِّسُ نفسَ صاحبها، وتقذِّرُه، وهي من عمل الشيطان التي يضيرُ بها الإنسانَ ويوبقُهُ ويهلكه.

٤- أمَرَ اللهُ تعالى باجتناب الخمر والميسر والأنصاب والأزلامِ، وعلَّق الفلاحَ باجتنابها.

٥- جاءَ في الأحاديث أنَّ الخمرَ ما خامَرَ العقلَ، لا فرقَ بين ما صُنِعَ من العنب وغيره، يحرُمُ مما أسكرَ القليلُ والكثيرُ.

٦- شربُ الخمر، ولعبُ الميسر، يفسدان العلاقات بين الناس في المجتمع الإسلامي، فبهما يوقعُ الشيطانُ العداوةَ والبغضاءَ بين المسلمين، ويصدُّ المؤمنينَ عن ذكر الله وعن الصلاة.

جنـــــة الســــــنة

٧- على العلماء والدعاة أن يُحذِّروا المسلمين من الآفات التي نهى الله عنها في هذه الآيات.

٨- على المؤمنين أن يحذروا تعاطيَ الخمر ولعبَ الميسرِ، ولا ينْخدِعوا بما عليه الغربيون، فما هم بأسوةٍ ولا قدوة.

٩- لا إثمَ على الذين ماتوا من المؤمنين قبل أن تُحرَّمَ الخمرُ والميسرُ، ولا عقابَ عليهم، فإنَّ اللهَ -تعالى- لا يُعذِّبُ العباد حتى يُبيِّنَ لهم ما يتَّقون.

١٠- لعبُ الميسرِ حرامٌ قطعاً، وقد ضلَّ فريقٌ من المسلمين، تعاملوا بالميسر زاعمين أنهم يجمعون المالَ ليفعلوا به الخيرَ، وهذا من الضلال الذي أضلَّ به الشيطان بعضَ العباد.

١١- ضلَّ بعضُ المسلمين الذين أقاموا نصباً، كنُصُب الجنديِّ المجهولِ، وتراهم يقدِّمون لهذه الأنصاب الهدايا، ويحتفلون بها، وهذا من بقية الضلال الذي يجبُ أن يحذر منه العبادُ.

جنـــــة الســـــنة

النص السابع والعشرون من سورة المائدة
تحريم صيد البر على من أحرم بالحج والعمرة

أولاً: تقديم

ابتلى اللهُ -تعالى- صحابةَ رسولِهِ ﷺ فمن بَعْدَهُم، بالصيد يقتحم عليهم المنزلَ الذي نزلوا فيه في أثناء إحرامِهِمْ بالعمرة، ليعلم مدى مخافَتِهِمْ لرِّبهم، فما امتدَّتْ أيديهم ولا رِماحُهُمْ إلى الصيد الذي عرض لهم، مع شدة ولَعِهِمْ بالصيد. وبيّنَ اللهُ لنا في آيات هذا النص كيف يفعلُ الذي قتلَ الصيد وهو مُحْرِمٌ، كما بيَّنَ لنا أن الذي حرَّمه علينا هو صيدُ البرِّ، أما صيد البحر، فلا يحرم على المحرم بالحجِّ والعمرة.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [المائدة:٩٤-٩٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن:

١- اختبار الله الحجاجَ بالصيد:

نادى اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنين، وكان المؤمنون الذينَ ناداهم اللهُ تعالى في العهد النبويِّ يمثِّلون الصحابةَ دون غيرهم، وأخبرهم أنه سيبْتَليهم بشيءٍ من الصيد تنالُه أيديهم ورماحُهُمْ، والصيدُ الذي تنالُه أيدينا صغارُ الحيواناتِ كالأرنب، والذي تنالُه رماحُنا الغزلانُ وبقرُ الوحشِ والحُمر الأهليةُ ونحوها، فيرميه الصائد برُمْحِهِ وقد يلاحِقُه مَنْ على فَرَسِهِ، ويطعنُه برمحه، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ [المائدة:٩٤].

ونقل ابنُ كثير عن مقاتلِ بنِ حيانَ أنَّ هذه الآية نزلتْ في عمرةِ الحديبية، فكانت الوحشُ والطير والصيدُ تَغْشى الصحابةَ في رحالهم، لم يروْا مثلَهُ فيها خَلا، فنهاهم اللهُ عن قتْلِهِ وهم مُحْرِمون [ابن كثير: ٢/ ٦١٣].

جنـــــة الســـــنة

والابتلاءُ: الاختبارُ والامتحانُ، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلصَّيۡدِ﴾ (من) هنا للتبعيض، وهو صيدُ البر، أما صيدُ البحر فهو حلالٌ للمحرم، ولغير المحرم.

واختبارُ الله الصحابة فمن بعدهم بالصيد شبيهٌ بما اختبر اللهُ به بني إسرائيل في قريتهم التي كانت حاضرةَ البحر، فكانت الحيتانُ تأتيهم شُرَّعاً في يومِ السبتِ حيث كان العمل، ومنه الصيدُ محرَّماً عليهم، أي: ظاهرةً لا تختفي منهم، وفي غير يوم السبت لا تأتيهم، فاحتالوا على صيدِها في يوم السبت، فمسخَ الله الذين احتالوا على الصيد في ذلك اليوم قردةً خاسئين [انظر قصتهم في الأعراف: ١٦٣-١٦٦].

أما الصحابةُ، وكان لهم ولعٌ شديدٌ بالصيد، فلم تمتدَّ أيديهم ورماحُهُمْ إلى شيءٍ من الصيد الذي غَشِيَهم في المنازلِ التي نزلوا فيها وهم محرمون.

٢- **الحكمةُ من وراء هذا الابتلاء:**

أخبرنا اللهُ -تعالى- عن الحكمة من وراء هذا الابتلاء، فقال: ﴿لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٩٤﴾ [المائدة:٩٤].

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنه ابتلانا بالصيد يغشانا في رحالنا، حالَ كونِنا قادرين على أخْذِه بأيدينا ورماحنا لِيُظْهِرَ طاعةَ من يطيعُ اللهَ ويخشاه بالغيب، وتوعَّدَ الذين اعتدوا في صيدهم وهم محرمون، فلهم عذابٌ أليم.

٣- **جزاءُ من قتل الصيدَ وهو محرمٌ:**

نهى اللهُ -تعالى- الحجّاجَ والعمّار عن قتل ما يصادُ مما يباحُ أكْلُهُ، وحكَمَ على من قتل صيداً متعمِّداً أن يذبح مثل ما قتل من بهيمة الأنعام، ويُحدِّدُ مثل الصيد الذي يجب ذبحه اثنان من المسلمين يتَّصِفان بصفة العدالة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ [المائدة:٩٥].

وقد نصَّت الآيةُ على أن الذي يجبُ عليه جزاءُ المثل هو العامدُ لقتلِ الصيد الذاكرِ لإحرامه، «وذهبَ جمهورُ العلماء إلى أنَّ العامدَ والناسي سواءٌ في وجوب الجزاء عليه»، وقال الزهريُّ: «دلَّ الكتابُ على العامِدِ، وجَرَت السنَّة على الناسي» [ابن كثير: ٢/ ٦١٥].

٤- **الحيوانات التي يجوزُ للمحرم قتلها:**

الصيدُ الذي لا يجوز للمحرم قتله هو المباحُ الأكلِ، وقد جاءت عدَّةُ أحاديث تبيحُ للمحرم أن يقتل الحيوانات الفواسقَ، فعن عائشةَ رضي الله عنها، عن النبي ﷺ أنه قال:

جنـــــة السـنــة

«خَمْسٌ فواسِقُ يُقْتَلْنَ في الحِلِّ والحَرَمِ: الحيَّةُ، والغرابُ الأبْقَعُ، والفأْرَةُ، والكَلْبُ العَقورُ، والحُدَيَّا» [مسلم: ١١٩٨].

وعنها قالتْ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «أربعٌ كُلُّهنَّ فواسِقُ، يُقْتَلْنَ في الحِلِّ والحرمِ: الحَدأةُ، والغرابُ، والفأرةُ، والكَلْبُ العقورُ» [مسلم: ١١٩٨].

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «خَمْسٌ من الدوابِّ من قتلهنَّ وهو مُحْرِمٌ فلا جناحَ عليه: العَقْرَبُ، والفأْرَةُ والكَلْبُ العَقورُ، والغرابُ، والحَدَأةُ» [البخاري: ٣٣١٥. ومسلم: ١١١٩].

والمرادُ بالغراب الأبْقَعُ: الذي في بطْنِهِ وظهْرِهِ بياضٌ، دونَ الغرابِ الأدْرَعِ ، وهو الأسْوَدُ، والأعْصَمُ: وهو الأبيضُ الرِّجْلَين.

وألحق الإمام مالكٌ وأحمدُ بالكلب العقور الذِّئْبَ، والسبعَ، والنَّمِرَ، والفَهْدَ، لأنها أشدُّ ضرراً منه، وقال الشافعي: «يجوزُ للمحرم قتلُ كلِّ ما لا يؤكل لحمه، ولا فرقَ بين صغارِهِ وكباره، وجَعَلَ العِلَّةَ الجامعةَ كونها لا تؤكل»، وقال أبو حنيفة: «يقتلُ الكلبُ العقورُ والذئب، لأنه كلبٌ بريٌّ، فإن قتلَ غيرهما فداه، إلا أن يصولَ عليه سبعٌ غيرهما، فيقتله فلا فداءَ عليه» [ابن كثير: ٢/ ٦١٤].

٥- كيف يتصرَّفُ بالحيوان الذي حَكَمَ به ذوا عدل:

إذا حَكَمَ ذوا عدل على من قتل صيداً بحيوانٍ مماثلٍ لما قتله من الصيد، فعلى المُحْرِمِ أن يرسلَ ذلك الحيوان هدياً إلى الكعبة ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة:٩٥] والمرادُ ببلوغه الكعبة، وصولُه الحرمِ، فيُذْبَحُ هناك، ويفرِّقُ لحمه على مساكين الحرم، وإذا اشترى المحرمُ الحيوانَ الذي حكم به عليه من مكة وذبحه هناك أجزأه.

فإذا لم يجد المحرم مثلَ ما قتلَ من النعم، أوْ لم يكن الصيدُ المقتول من ذواتِ الأمثال، أو أحبّ قاتلُ الصيد أن يُخرِجَ بَدَلَ الحيوان طعاماً أو يصوم عَدْلَ ذلك صياماً جاز له ذلك ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ [المائدة:٩٥]. وقد ذهب جمعٌ من أهل العلم إلى أن قاتلَ الصيد مخيَّرٌ بين الذبح أو إطعام مساكين، أو الصيام، وممن ذهب إلى ذلك مالكٌ وأبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد بن الحسن وهو أحدُ قولي الشافعي والمشهور عند أحمد، واستدلوا بظاهر الآية فـ ﴿أَوْ﴾ للتخيير [ابن كثير: ٢/ ٦١٧].

وكان ابنُ عباسٍ يرى أنَّ الإطعام أو الصيامَ يكون عند عدم وجود حيوانِ المثل، وقد قال في تفسير الآية: «إنْ قَتَلَ ظَبْياً أو نحوه، فعليه شاةٌ تذبحُ بمكةَ، فإنْ لم يجدْ فإطعامُ ستةِ

جنـــــة السـنـــــة

مساكين، فإن لم يجدْ فصيامُ سِتَّة أيام، فإن قتل أيِّلاً عليه بقرةٌ، فإن لم يجدها أطعم عشرين مسكينا، فإن لم يجد صامَ عشرين يوماً، وإنْ قتل نعامةً أو حمارَ وحشٍ أو نحوه، فعليه بَدَنَة من الإبل، فإن لم يجد فعليه إطعامُ ثلاثين مسكيناً، فإن لم يجدْ صام ثلاثينَ يوماً» [ابن كثير: ٢/ ٦١٨].

٦- أكْلُ المُحْرِمِ من الصيد الذي صادَه غيرُ المحرم:

قال البغويِّ: «ذهبَ أكثرُ أهل العلم إلى أنه يجوزُ للمحرم أكْلُ الصيدِ إذا لم يصدْهُ بنفسه، ولا صِيدَ لأجْلِهِ، أو بإشارَتِهِ، وهو قولُ عمرَ وعثمانَ وأبي هريرة، وبه قال عطاءٌ ومجاهدٌ وسعيدُ بنُ جبير، وهو مذهبُ مالكٍ والشافعيِّ وأحمدَ وإسحاق وأصحاب الرأي» [تفسير البغوي: ٣/ ٩٩].

وقد ردَّ الرسولُ ﷺ على الصَّعْبِ بنِ جَثَّامَةَ الليثيِّ هديَّته له من صيد صادَه، ففي صحيحي البخاري ومسلم أنَّ الصَّعْب أهْدى لرسولِ الله حماراً وحشياً، وهو بالأبواء أو بوَدَّان، فردَّهُ عليه، فلما رأى ما بوجهه قال: «إنَّا لم نَرُدَّهُ عليكَ إلا أنَّا حُرُمٌ» [البخاري: ١٨٢٥. ومسلم: ١١٩٣]، وإنما ردَّه الرسول ﷺ على الصَّعْب، لأنه صادَهُ من أجلِ الرسول ﷺ.

والدليل على جواز أكلِ المُحْرم من الصيد الذي صادَهُ غيرُهُ، إذا لم يصِدْهُ للمحرمِ، ولم يُعِنِ المحرمُ على صيده، ما رواه البخاري ومسلم عن أبي قتادة الأنصاريِّ، حدثنا عثمان، هو ابن مَوْهَب، قال: أخبرني عبدالله بنُ أبي قتادة: أن أباهُ أخبره: أن رسولَ الله ﷺ خرج حاجّاً، فخرجوا معه، فصرف طائفةً منهم فيهم أبو قتادة، فقال: «خُذُوا ساحِلَ البحر حتَّى نلتقيَ». فأخذوا ساحلَ البحر، فلما انصرفوا، أحْرَموا كُلُّهُمْ إلا أبو قتادة لم يُحرِم، فبينما هم يسيرون إذ رأوا حُمُرَ وحشٍ، فحمل أبو قتادة على الحُمُر فعقَرَ منها أتاناً، فنزلوا فأكلوا من لحمها، وقالوا: أنأكُلُ لحم صيد ونحن محرمون؟ فحملنا ما بقي من لحمِ الأتانِ، فلما أتوا رسولَ الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، إنا كنا أحرمنا، وقد كان أبو قتادة لم يُحرِم، فرأينا حُمُرَ وحشٍ، فحمل عليها أبو قتادة، فعقر منها أتاناً، فنزلنا فأكلنا من لحمها، ثم قُلْنا: أنأكلُ لحم صيد ونحن محرمون؟ فحملنا ما بقي من لحمها. قال: «أمنكم أحدٌ أمَرَهُ أن يحمِلَ عليها أو أشار إليها». قالوا: لا، قال: «فكلوا ما بقي من لحمها» [البخاري: ١٨٢٤. ومسلم: ١١٩٦].

٧- عقوبة الذي صادَ مرةً ثانية:

وقولُه تعالى: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ [المائدة:٩٥] أي: أوجَبْنا عليه الكفارةَ ليذوقَ وبالَ أمْرِهِ، أي: ليذوقَ عقوبةَ فِعْله الذي ارتكب فيه المخالفةَ: وقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أي في زمانِ الجاهلية، ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ [المائدة:٩٥] أي: ومن صادَ بعد بلوغِه التحريمَ فينتقمُ

جنـــة الســـــنة

الله بفرضِ العقوبةِ عليه مرةً أخرى، وذهَبَ جمهورُ العلماء إلى أنَّ من قتل الصيد مرةً ثانيةً وثالثةً فعليه جزاءُ مثل ما قتله في المرة الأولى، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ [المائدة:٩٥] أي أنه -تبارك وتعالى- قويٌّ غالبٌ منيعٌ في سلطانِهِ، لا يقهرهُ قاهرٌ، وقوله: ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ يعني: أنه ذو معاقبةٍ لمن عصاه على معصيته إياه.

٨- أحلَّ اللهُ لنا صيد البحر وطعامَهُ:

أحلَّ اللهُ تعالى للمحرم ولغير المحرم صيد الحيوان البحري، الذي لا يعيش إلا في البحر، والمرادُ بقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾: الحيوانُ الذي لفظهُ البحر، قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ [المائدة:٩٦].

وقد أرسل الرسولُ ﷺ جيشاً يتلقَّوْن عيراً لقريشٍ، وزوَّدهم جِراباً من تمرٍ، فجاعوا جوعاً شديداً، فلفظ البحرُ حوتاً عظيماً، فأكلوا منه شهراً، وأخذوا منه معهم إلى المدينة، وأكل منه الرسولُ ﷺ فعن جابرٍ قال: «بعثنا رسولُ الله ﷺ وأمَّرَ علينا أبا عبيدة، نتلقى عيراً لقريشٍ، وزوَّدنا جِراباً من تمرٍ لم يجد لنا غيرَهُ، فكان أبو عبيدةَ يُعطينا تمرةً تمرةً، قال: فقلتُ: كيف كنتم تصنعون بها؟ قال: نمصُّها كما يمصُّ الصبيُّ، ثم نشربُ عليها من الماء، فتكفينا يومنا إلى الليل، وكنا نضربُ بعصيِّنا الخَبَطَ، ثم نَبُلُّهُ بالماء فنأكُلُهُ.

قال: وانطلقنا على ساحل البحر، فرُفِعَ لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم، فأتيناه فإذا هي دابةٌ تُدْعى العَنْبَرَ، قال: قال أبو عبيدة: ميتَةٌ، ثم قال: لا بل نحن رُسُلُ رسولِ الله ﷺ، وفي سبيل الله، وقد اضطررتم فكُلوا، قال: فأقمنا عليه شهراً، ونحن ثلاثُ مائةٍ حتى سمنّا.

قال: ولقد رأيتُنا نغْتَرِفُ من وقْبِ عَيْنه، بالقلالِ الدُّهْنَ، ونقْتَطِعُ منه الفِدَرَ كالثَّوْرِ (أو كَقَدْرِ الثورِ) فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثةَ عشرَ رجلاً، فأقْعَدَهُمْ في وَقْبِ عيْنِهِ، وأخذ ضِلعاً من أضلاعه، فأقامها، ثم رحل أعظمَ بعيرٍ معنا، فمرَّ من تحتها، وتزودّنا من لحمه وشائق.

فلما قدمنا المدينة أتينا رسولَ الله ﷺ، فذكرْنا ذلك له، فقال: «هو رزقٌ أخرجه اللهُ لكم، فهل معكم من لحمه شيءٌ فتطعِمونا؟»، قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه، فأكله» [مسلم: ١٩٣٥].

وقوله تعالى: ﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة:٩٦]، أي: أحلَّه اللهُ -تعالى- لكم تستمعون بأكل ذلك الصيد، كما يستمتع بأكله السيارةُ، وهم المسافرون، أي: الناس كلُّهم.

جنـــة الســــنة

وأكَّد اللهُ -تعالى- بقوله: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة:٩٦] تحريمُ صيد البر على المحرم بالحج والعمرة، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المائدة:٩٦]. أمَرَنا اللهُ -تبارك وتعالى- بتقواه، أي: بفعل ما أمرنا به، وترْكِ ما نهانا عنه، وقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي: في يوم الدين الذي يحاسبنا فيه على أعمالنا.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- اختبر ربُّ العباد المحرمين بالحج والعمرة، فحرَّم عليهم الصيد ما داموا حرماً، كما اختبر بني إسرائيل بتحريم صيد البحر والبر عليهم في يوم السبت.

٢- الحكمةُ من وراء تحريم الصيد على المحرمين إيجادُ الخوف من الله ومهابته، فمن اعتدى بمخالفة أمر الله فلَهُ عذابٌ أليم.

٣- إذا قتل المحرمُ صيداً، فيجبُ عليه أن يذبحَ في الحرم حيواناً من الأنعام، وهي الجِمالُ أو البقرُ أو الغنمُ وعليه أن يحكِّم رجلين عدلين، فيحكمان بالحيوان المماثل الذي يكون جزاءً للحيوان الذي صادَهُ.

٤- على من صادَ الحيوانَ أن يذبحَ الحيوانَ المماثِلَ الذي حكم به ذوا عدلٍ، في الحرم، وله أن يُخْرِجَ بَدَلَ الحيوان الذي حَكَمَ به طعاماً يوزعه على المساكين، أو يصومَ عدةَ الأيام التي يساويها ذلك الحيوان.

٥- إذا عاد المحرم الذي صادَ حيواناً إلى صيد آخر مرةً أخرى، وَجَبَ عليه أن يفعلَ في المرة الثانية كفعله في الأولى.

٦- الذي حرَّمهُ الله تعالى علينا هو صيدُ البرِّ، فأما صيدُ البحر فهو حلالٌ للمحرم، ولغير المحرم.

٧- الذي لا يجوز للمحرم قتلُه هو الحيوانُ البريُّ الذي يجوزُ أكلُه، أما الحيوانات الفواسق التي لا يجوز أكلُها كالحية، والعقرب، والغراب الأبقع، والحُدَيَّا، والكلب العقور، فلا حَرَجَ على من قتلها.

٨- يجوزُ للمحرم أن يأكل من لحم صيْدٍ لم يُصَدْ له بشرط أن لا يعينَ على الصيد، ولا يدُلَّ عليه.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الثامن والعشرون من سورة المائدة
جعل الله الكعبة والشهر الحرام والهدي والقلائد قياماً للناس

أولاً: تقديم

لم يكن للعرب في الجاهلية في الجزيرة العربية مَلِكٌ يحْكُمُهُمْ، ويمنعُ عدوانَ بعضِهمْ على بعضٍ، وكانوا قبائلَ متفرقةً، يغيرُ بعضُهُمْ على بعضٍ، ويسلبُ بعضُهم بعضاً، وقد شَرَعَ اللهُ -تباركَ وتعالى- منذ عهد إبراهيم تشريعاتٍ تحفظُ لهم الأمن في الحرم المكيِّ، وعلى مدى أربعة أشهرٍ من كُلِّ عامٍ، وقد التزمَ العربُ بهذه التشريعات، فحفظتْ لهم بعض الأمن، وقامتْ مقامَ المَلِكِ الذي يجلبُ الأمنَ للناسِ، ويمنعُ العدوانَ فيما بينهم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [المائدة:٩٧-١٠٢].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- جَعَلَ اللهُ الكعبةَ البيتَ الحرامَ والشهرَ الحرامَ والهديَ والقلائِدَ قياماً للناس:

أعلمنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنه ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ﴾ [المائدة:٩٧] وسميتِ الكعبة بهذا الاسم، لأنها مربَّعةٌ، فكلُّ بيتٍ مربَّعٍ فهو كعبةٌ، وسماها بيتاً، لأن لها سَقْفاً وجُدراً، والمرادُ بالكعبة هنا الحرمُ، وجعل اللهُ الكعبةَ حراماً، لأنه حرَّم أن يعتديَ الإنسانُ أو يقْتَصَّ من غيره في الحرم، وحرَّم أن تصادَ الطيورُ والحيواناتُ في الحرم، وحرَّم أنْ يُختَلَى خَلاهُ، أو يُعْضَدَ شوْكُهُ.

جنـــــة السـنـــــة

﴿وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ المرادُ به جنسُ الشهر الحرام، والأشهرُ الحرم أربعةٌ، وهي: رجبٌ، الذي بين جمادى وشعبان، وذو القعدة، وذو الحجة، وشهر الله المحرم، واحد فرد وثلاثة سَرْدٌ، وهذه الأشهرُ الأربعةُ لا يجوزُ أن يبدأ المسلمون فيها الحربَ والقتالَ.

﴿وَٱلۡهَدۡيَ﴾ ما يُهدي للحرم من بهيمةِ الأنعام، وهي الإبلُ، والبقرُ، والغنمُ، ﴿وَٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾ جَمْعُ قلادةٍ، والمراد بها ما كان يتقلده العمار والحجاج من قلائد مصنوعة من وَرَق الشجر.

وقد جعل اللهُ تعالى الأربعَ المذكورة في الآية، وهي البيتُ الحرام، والشهرُ الحرامُ، والهَدْيُ، والقلائدُ، قياماً للناس، أي: جعلها مصالحَ تقيمُ لهم أمورَهُمُ الدنيويةَ في الجزيرة العربية منذ عهدِ إبراهيمَ ﷺ حتى مجيء رسولنا ﷺ، فأبقى الأمْرَ على ما كان مشروعاً من عهدِ إبراهيم. ووجْهُ كونها قياماً للناس أنَّ العربَ في الجزيرة العربية لم يكن لديها ملكٌ أو حاكمٌ يحجُز قويَّهم عن ضعيفهم ومسيئهم عن مُحْسِنِهم، وظالِـمَهم عن مظلومهم، فصيَّر اللهُ الكعبةَ، والشهرَ الحرامَ، والهديَ والقلائدَ بمثابة الحاكم أو الملك الذي يطيعُهُ الناس، ويلتزمونَ بأمره، فالعربُ في جاهليتها كانت تعظِّمُ الحرم، ومن ذلك أنَّ الرجلَ كان يلقى قاتلَ أبيه في الحرم، فلا يُهيِّجُهُ، ولا يؤذيه، قال الطبري بعد أن نقل كلامَ أهل العلم في تفسير الآية الكريمة: «وهذه الأقوالُ وإن اختلفتْ من قائليها ألفاظها، فإنَّ معانيها آيلة إلى ما قلنا في ذلك من أنَّ القوامَ للشيء هو الذي به صلاحه، كما الملكُ الأعظمُ قوام رعيته ومن في سلطاته، لأنه مدبِّر أمرهم، وحاجز ظالمهم عن مظلومهم، والدافع عنهم مكروه من بغاهم وعاداهم».

وكذلك كانت الكعبةُ والشهرُ الحرامُ والهديُ والقلائدُ قوامُ أمرِ العرب الذي كان به صلاحهم في الجاهلية، وهي في الإسلام لأهله معالمُ حجهم ومناسِكِهِمْ ومتوجَّهِهِمْ لصلاتِهِمْ وقبلتهم التي باستقبالها يتم فرضهم.

ونقل عن قتادة أنه قال: «﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾ حواجز أبقاها الله بين الناس في الجاهلية: فكان الرجل لو جَرَّ كلَّ جريرةٍ ثم لجأ إلى الحرم لم يُتَناول ولم يُقرب، وكان الرجلُ لو لقي قاتل أبيه في الشهر الحرام لم يَعْرِضْ له ولم يقربه، وكان الرجل إذا أراد البيتَ تقلد قلادةً من شعر، فأحمته ومنعته من الناس، وكان إذا نفر تقلد قلادةً من الإذخر أو من لحاء السمر فمنعته من الناس حتى يأتي أهله، حواجزُ أبقاها الله بين الناس في الجاهلية».

جنـــة السـنـــة

ونقل عن ابن زيد في قوله: «﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ﴾ قال: كان الناس كلهم فيهم ملوكٌ تدفعُ بعضَهم عن بعضٍ، قال: ولم يكنْ في العربِ ملوكٌ تدفعُ بعضَهم عن بعضٍ، فجعل الله تعالى ذكره لهم البيتَ الحرامَ قياماً يدفع بعضَهم عن بعضٍ به، والشهرَ الحرام كذلك يدفع الله بعضَهم عن بعض بالأشهر الحُرُم والقلائد. قال: ويلقى الرجلُ قاتلَ أخيه أو ابن عمه فلا يعرض له. وهذا كله قد نسخ» [الطبري: ٤/ ٣٠٥٦] والصواب أنه لم ينسخ.

٢- اللهُ عالمٌ بكل ما في السموات والأرض:

يخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه تعالى إنما شرَّع هذه الشريعة في جعْلِهِ هذه الأربعة قواماً للناس ليعلمَ الناسُ أن الله تعالى يعلمُ ما في السموات وما في الأرض، وأنه بكل شيءٍ عليم.

إن الذين ينظرون في أسرار التشريع، ويعلمون بدائعه وحِكَمَهُ، يعلمون موقنين أن الذي شَرَعَ هذه التشريعات عليم بكل شيءٍ، ولو لم يكن علياً لم يستطع أن يُشرِّع مثلَ هذا التشريع.

٣- عقابُ الله تعالى شديدٌ وهو غفور رحيم:

قال ابن جرير الطبريُّ في قوله تعالى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٨﴾ ﴾ [المائدة:٩٨] «اعلموا أيها الناسُ أنَّ ربكم يعلمُ ما في السمواتِ وما في الأرض، ولا يخفَى عليه شيءٌ من سرائِرِ أعمالِكُمْ وعلانيتها، وهو يحصيها عليكم ليجازيكم بها، شديدٌ عقابُهِ من عَصَاهُ، وتمرَّدَ عليه، على معْصَيتِهِ إياه.

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٨﴾ ﴾ [المائدة:٩٨] وهو غفورٌ لذنوب من أطاعَهُ وأنابَ إليه، فساتِرٌ عليه، وتاركٌ فضيحَتَهُ بها، رحيمٌ به أن يعاقِبَهُ على ما سَلَفَ من ذنوبه بعد إنابته وتوبتِهِ منها» [الطبري:٤/ ٣٠٥٧].

٤- الرسولُ ليسَ عليه إلا البلاغ:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [المائدة:٩٩].

فالرسول ﷺ يجب عليه إبلاغُ ما أنزله اللهُ إليه، وليس عليه إجبارُ الناسِ على الإيمان، وليسَ عليه حسابُهُمْ، واللهُ -سبحانه- هو الذي يعلمُ ما نبديهِ، أي: ما نظهِرُهُ، وما نكْتُمُهُ، أي: ما نخفيه، وسيحاسبنا على ذلك كلِّه.

جنـــــة الســـــنة

٥- لا يستوي الخبيث والطيب:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى أنه لا يستوي الخبيثُ والطيبُ ولو أعجبنا كثرةُ الخبيث ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة:١٠٠] وهذه الآيةُ تدلُّ على قاعدةٍ عظيمةٍ، وهي عَدَمُ استواءِ الخبيثِ والطيب في كلِّ شيءٍ، في الاعتقاد والأقوال والأفعال والأطعمة والأشربة.

والخبيث: هو الرديءُ، وهو يتناولُ الباطلَ في الاعتقاد، والكذبَ في المقال، والقبيحَ في الفعال، والمحرمَ من الطعام والشراب، ويدخُل في الخبيثِ الكافرُ والمنافقُ، والطيب: الحسنُ والجيدُ، ويدخلُ فيه المؤمنُ، كما يدخلُ فيه ما أحلَّهُ اللهُ من الطعام والشراب، وقد يكونُ البلدُ طيباً، وقد يكونُ خبيثاً.

وقد دلَّنا اللهُ -تبارك وتعالى- على الطيبِ والخبيثِ، وعلينا دائماً أنْ نأخذَ بالطيب ونرتضيه، ونبعدَ عن الخبيثِ، وننأى عنه، ولذلك قال ربنا -تبارك وتعالى-: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المائدة:١٠٠] أي: اتقوا الله تعالى في لزومِ الطيب في المعتقدِ والعمل والمأكل والمشرب، واجتنبوا الخبيثَ من ذلك كلِّه، وقال: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لأن أصحابَ العقول الراجحة هم الذين يميِّزون بينَ الطيبِ والخبيثِ، ويلتزمون الطيبَ، ويجتبون الخبيثَ.

٦- المسائل التي نهينا عنها:

هنا مسائل نهانا ربُّنا -عز وجل- عن السؤال عنها، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [المائدة:١٠١]. وليس كلُّ سؤالٍ مذموماً، فالذي يسألُ عن الإيمان والإسلام، أو يسألُ ليعرفَ كيف يُصلِّي ويزكي ويحجُّ ونحو ذلك، سؤاله ممدوحٌ مثنى عليه. وإنما ينهى عن السؤال في أحوالٍ منها:

الأول: الأسئلة التي تسوءُ صاحِبها إذا ظهر الجواب:

وقد قال اللهُ تعالى في هذا النوع: ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة:١٠١] أي: إذا ظهر المسؤول عنه ساءَ السائلَ، وقد وقع مثلُ هذا في أسئلة وُجِّهتْ للرسولِ ﷺ، فمن ذلك ما رواه أنسُ بنُ مالكٍ: أن النبي ﷺ خرج حين زاغَتِ الشمسُ فصلَّى الظهر، فلما سلَّمَ قام على المنبر، فذكر الساعة، وذكر أن بين يديها أموراً عِظاماً.

جنــــة الســــــنة

ثم قال: «من أحبَّ أن يسألَ عن شيء فليسألْ عنه، فوالله لا تسألوني عن شيءٍ إلا أخبرتُكُم به ما دُمْتُ في مقامي هذا».

قال أنسٌ: فأكثر الناسُ البكاءَ، وأكثر رسولُ الله أن يقولَ: «سَلُونِي».

فقال أنسٌ: فقام إليه رجلٌ فقال: أين مدخلي يا رسولَ الله؟ قال: «النارُ». فقام عبدالله ابن حذافة، فقالَ: من أبي يا رسول الله؟ قال: «أبوكَ حُذافة». قال: ثم أكثر أن يقولَ: «سَلوني، سَلوني». فبَرَكَ عمر على ركبتيه فقال: رضينا بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً، قال: فسَكَتَ رسولُ الله ﷺ حين قال عمرُ ذلك. ثم قال رسولُ الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لقد عُرِضَتْ عليَّ الجنةُ والنارُ آنفاً في عُرْضِ هذا الحائط، وأنا أصلي، فلم أرَ كاليومِ في الخير والشر» [البخاري: ٧٢٩٤، ومسلم: ٢٣٥٩].

وعن أنس بن مالك قال: قال رجلٌ: يا نبي الله، من أبي؟ قال: «أبوكَ فُلانٌ». ونزلتْ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ ﴾ الآية [المائدة:١٠١] [رواه البخاري: ٧٢٩٥. ومسلم: ٢٣٥٩].

وجاء في بعض روايات الحديثِ أنه قام آخرُ، فقال: مَن أبي يا رسول الله؟ قال: «أبوك سالمٌ مولَى شَيْبَةَ» [مسلم: ٢٣٦٠].

فأحد هؤلاء الثلاثة فضحَ نفسَه أمامَ الملأ عندما أخبرَه الرسولُ ﷺ أنَّ مدخلَه النارُ يومَ القيامة، والاثنان الآخرانِ كانا سيفضحانِ نفسَيْهما لو كان أبُ كلٍّ منهما غيرَ الأبِ المعروف، ولذلك قالتْ أمُّ عبدالله بن حُذافَة لابْنِها: «ما سمعتُ بابنٍ قطُّ أعقَّ منكَ، أأَمِنْتَ أن تكونَ أمُّكَ قد قارَفَت بعضَ ما تُقارِفُ نساءُ أهل الجاهلية فتفضَحَها على أعينِ الناس» [مسلم: ٢٣٥٩].

ثانياً: الأسئلة التي كانت تُسأل على وجه السخرية:

ومن ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان قومٌ يسألون رسولَ الله ﷺ استهزاءً، فيقول الرجلُ: مَن أبي؟ ويقول الرجلُ تَضِلُّ ناقتُه: أينَ ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ حتى فرَغَ من الآية كلها [البخاري: ٤٦٢٢].

ثالثاً: من سئل عن شيءٍ فحُرِّم من أجل مسألته:

فرضَ اللهُ تعالى علينا أموراً، وحرَّم علينا أموراً أخرى، وسكتَ عن أشياء رحمةً بنا من غير نسيان، فيجبُ أن لا نسألَ عما سكتَ اللهُ تعالى عنه، خشيةَ أن يُحرَّمَ علينا، ومن ذلك ما

جنـــــة السـنــــة

فعله بنو إسرائيل عندما أمَرَهم موسى عليه السلام بذبح البقرة، فلو أنهم أخذوا بقرةً ما فذبحوها لأجزأ عنهم، ولكنهم طفقوا يسألون عن صفاتها، حتى ضاقَ عليهم الأمرُ، فكادوا أن لا يذبحوها.

وفي الحديث الصحيح قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى فرض فرائضَ فلا تُضيِّعوها، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وحرَّم أشياءَ فلا تنتهكوها، وسكتْ عن أشياء رحمةً بكم غيرَ نِسيانٍ فلا تَسألوا عنها» [انظر جامع العلوم والحِكَم: الحديث الثلاثون].

وقال أبو ثعلبة الخشني: «إنَّ اللهَ فرض فرائضَ فلا تُضيِّعوها، ونهى عن أشياءَ فلا تنتهكوها، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وعَفا من غير نسيانٍ عن أشياءَ فلا تبحثوا عنها» [المحرر الوجيز: ٣/ ٢٧٣].

وقد نهى رسولُ الله ﷺ عن الأسئلة التي هي من باب العفو، فعن سعد بن أبي وقاصٍ أن النبي ﷺ قالَ: «إنَّ أعظمَ المسلمين جُرْماً من سأل عن شيءٍ لم يُحَرَّمْ، فحُرِّمَ من أجل مسألَتِهِ» [البخاري: ٧٢٨٩. ومسلم: ٢٣٥٨].

وقد استجابَ الصحابةُ رضوانُ الله تعالى عليهم للتوجيهات القرآنية والنبوية، فكانوا يُقِلُّون من الأسئلة، وكانوا يُسَرُّون عندما يأتيَ الرجلُ العاقلُ من أهل البادية فيحسنُ السؤالَ، فعن أنس بن مالك، قال: نُهينا أن نَسألَ رسولَ الله ﷺ عن شيءٍ، فكان يُعجِبُنا أن يجيءَ الرجلُ من أهل البادية العاقلُ، فيسألُه، ونحن نسمع [مسلم:١٢].

ومما عابَهُ رسولُنا ﷺ على بعضِ أصحابه سؤالَهم عن وجوب الحجّ أفي كلِّ عام؟ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خَطَبنا رسولُ الله ﷺ فقال: «أيها الناسُ! قد فرض اللهُ عليكُمُ الحجَّ فحُجُّوا». فقال رجلٌ: أكُلَّ عامٍ يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثاً، فقال رسولُ الله ﷺ: «لو قلتُ: نعم، لوجبتْ ولما استطعتُم». ثم قال: «ذَروني ما تركْتُكُمْ، فإنَّما هَلَكَ من كان قبلَكُمْ بكَثْرَة سؤالِهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمَرْتُكُمْ بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم، عن شيء فدعوهُ» [مسلم: ١٣٣٧].

٧- السؤال عما أشْكَلَ من القرآن:

بعد أن نهى اللهُ -تعالى- صحابةَ رسولِهِ ﷺ عن السؤال عن أشياء إن تُبْدَ لهم تسؤْهُمْ، قال سبحانه: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [المائدة:١٠١].

جنـــــة السـنة

المرادُ إن تسألوا عنها حين ينزلُ القرآن بفرضٍ أو إيجابٍ أو تحريم، فتسألون عما أشْكَلَ عليكم، تُبيَّنُ لكم، أي بنزولِ آية أخرى، أو ببيانٍ من الرسول ﷺ يوضِّحُ المشكلَ، ويفسِّر الخفيَّ.

وقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ﴾ أي: عفا الله -تعالى- عن مسألَتِكُم عن الأشياء التي سألتم عنها رسولَ الله ﷺ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ أي واللهُ ساترٌ ذنوب من تابَ منها ﴿حَلِيمٞ﴾ ولسعة حلمه تبارك وتعالى فإنه لا يعاقبُ من سأل، لتغمده التائب منها برحمته وعفوه.

٨- ﴿قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ١٠٢﴾:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أن الأُمم السابقة سألوا رُسُلَهم أموراً، فلما استجابَ الله تعالى لهم فيما سألوه كفروا، فقومُ صالحٍ سألوا نبيَّهم أن يأتيهم بناقةٍ، فبعث اللهُ تعالى لهم ناقةً هائلة على النحو الذي سألوه، فقتلوها، وأرادوا قتلَ ابنها، وسأل بنو إسرائيل موسى أن يريهم الله جهرةً، وسأل النصارى عيسى أن ينزلَ عليهم مائدة من السماء، ثم كفر بعضُهُم بما أنزل اللهُ إلى عيسى، وهذه الآية تشير إلى ما كان من الأمم السابقة من طلبهم الآيات، ثم كفر الذين سألوها ﴿قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ١٠٢﴾ [المائدة:١٠٢].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- شرع اللهُ تعالى على عهد نبيه إبراهيمَ تشريعاتٍ تحفظُ الأمن للناس، فقد جعل الكعبة والشهر الحرام والهدْيَ والقلائد قياماً للناس، فقد التزمتِ العربُ بهذا التشريع إلى أن بُعِثَ محمدٌ ﷺ، فجاءَ الإسلامُ مقرِّراً هذا التشريع.

٢- إذا قَبِلَتِ الدولُ الكافرةُ بعدم القتالِ في الأشهرِ الحرمِ، فإنَّ هذا التشريعُ يصبحُ عالمياً، وتزدهرُ التجارةُ والسياحةُ في هذه الأشهرِ من كلِّ عامٍ.

٣- ما شَرَعَهُ اللهُ في المسجد الحرام والشهر الحرام والهدي والقلائد يدلُّ على مدى علمِ الله الذي يُشرِّعُ للعباد ما فيه صلاحهم، واللهُ عالمٌ بكلِّ ما في السمواتِ والأرض.

٤- أمرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أن نعلم أنه شديدُ العقابِ، وأنه غفورٌ رحيم، وقد أمرنا اللهُ في مواضع كثيرٍ أن نعلمَ صفاتِهِ وأسماءَه وأفعاله.

جنـــــة السـنـــــة

٥- مهمةُ الرسول ﷺ الأولى أن يتلقى الوحي من ربه، ثم يبلغُ الناسَ ما جاءَهم به، مقيماً الحُجَّةَ عليهم، وليس عليه أن يُدْخِلَ الإيمانَ في قلوبهم، ولا أنْ يحاسِبَهُمْ على أعمالِهِمْ.

٦- أعلمنا ربُّنا -عز وجل- أنه لا يستوي الخبيثُ والطيبُ، لا في المعتقدات، ولا الأقوالِ، والأفعالِ، والمخلوقاتِ، فعلينا قبولُ الطيب، ورفضُ الخبيثِ.

٧- أوجَبَ اللهُ علينا أن ننتهي عن توجيه بعض الأسئلة إلى الرسول ﷺ ، وقد بينت فيما مضى بعض أنواع الأسئلة التي حرَّمها الله علينا.

جنـــــة السـنــــة

النص القرآني التاسع والعشرون من سورة المائدة
تشريعُ البشر لأنفسهم ما يخالفُ شريعةَ الله ضلالٌ وباطل

أولاً: تقديم

ذمَّ الله -تعالى- ما كانَ عليه أهلُ الجاهلية من تشريع شَرَعَهُ لهم زعماؤُهُم وأهلُ الرأي فيه، كتحريمهم البحيرة والسائبة والوسيلة والحامي، وأخبرنا أن أولئك الكفرة افتروا الكذب على الله تعالى، وأخبرنا عنهم أنهم كانوا يلتزمون ما عليه الآباءُ، ويعرضون عما جاءَنا من الله ورسوله، وأمرنا بأن نعني بصلاح أنفسنا، فلا يضرُّنا ضلالُ من ضلَّ من عباد الله إذا نحنُ اهتدينا إلى الله، واللهُ يجمعُ الناسَ في يوم القيامة، ويخبرُهم بما كانوا يعملون.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [المائدة:١٠٣-١٠٥].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- بطلانُ ما شَرَعَه أهلُ الجاهلية في تحريم بعض الأنعام:

كان بعضُ سادةِ أهلِ الجاهلية قد شرَّعوا لأقوامِهم ما يخالفُ دينَ الله الذي ورِثوهُ عن أبيهم نبي الله إسماعيل ، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة قالَ: قال رسولُ الله ﷺ : «رأيتُ عمرو بن عامرٍ الخُزاعيَّ يجُرُّ قُصْبَه في النار، كان أول من سيَّبَ السوائبَ» [البخاري: ٤٦٢٣].

وعن عائشة رضي اللهُ عنها قالتْ: قالَ رسولُ الله ﷺ : «رأيتُ جهنَّمَ يحطِمُ بعضُها بعضاً، ورأيت عمراً يجُرُّ قُصْبَهُ، وهو أول من سَيّبَ السوائب» [البخاري: ٤٦٢٤ ومسلم: ٩٠١].
وعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول لأكْثَم بن الجَوْنِ: «يا أكْثَمُ، رأيتُ عمرَو ابنَ لُحَيِّ بن قَمَعَةَ بنِ خِنْدِفٍ يجُرُّ قُصْبَهُ في النار، فما رأيتُ أشْبَهَ برجلٍ منك به، ولا به منك» فقال أكثمُ: أخشى أن يضُرُّني شبهُهُ يا رسول الله؟ فقال الرسولُ ﷺ : «لا، إنك مؤمنٌ، وهو

جنـــــة السـنـــــة

كافر، إنه أولُ مَن غيَّر دينَ إسماعيلَ، وبَحَر البحيرةَ، وسيَّبَ السائبة، وحَمَى الحامي» [الطبري: ٤/ ٣٠٦٦، وقد حكم محقق ابن كثير عليه بالصحة (٢/ ٦٣٣)].

وقد عرَّف العلماء البحيرةَ والسائبةَ والوصيلةَ والحامي بتعريفات متقاربةٍ، وأقرب ما عُرِّفتْ به ما عزاه البخاري إلى سعيد بن المسيب، قال:

البحيرةُ: التي يُمنَع دَرُّها للطواغيتِ، فلا يحْلِبُها أحدٌ من الناس.

والسائبةُ: كانوا يُسَيِّبونَها لآلهتهم، ولا يُحْمَلُ عليها شيءٌ.

والوصيلة الناقة البِكْرُ، تُبَكِّرُ، في أول نِتاجِ الإبلِ، ثم تُثَنِّي بعدُ بأُنثَى، وكانوا يُسَيِّبونَها لطواغيتِهم، إن وَصَلَت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكرٌ.

والحام: فَحْلُ الإبل يَضرِبُ الضِّرابَ المعدودَ، فإذا قَضَى ضِرابه، وَدَعُوهُ للطواغيت، وأعْفَوْهُ من الحَمْلِ، فلم يُحْمَلْ عليه شيءٌ، وسمَّوْهُ الحامِيَ.

وقال لي أبو اليَمان: أخبرنا شُعيبٌ، عن الزُّهرِيِّ، سمعتُ سعيداً قال: يُخْبِرُهُ بهذا [البخاري: ٤٦٢٣].

وقال الرازي الجصاص: «كان أهلُ الجاهلية يحرِّمون البحيرةَ، وهي أن تُنْتِجَ خمسة أبطنٍ يكونُ آخرُها ذكراً، بحَروا أُذُنَها، وحرَّموها، وامْتَنعوا من ركوبِها ونحْرِها، ولم تُطْرَدْ عن ماءٍ، ولم تمنعْ عن مرعًى، وإذا لَقِيَها المُعْيي لم يرْكَبها.

والسائبة: المِخْلاةُ، وهي المُسَيَّبَةُ، وكانوا في الجاهلية إذا نَذَرَ الرجلُ لقدومٍ من سفرٍ أو بُرْءٍ من مَرَضٍ، أو ما أشبه ذلك قال: ناقتي سائبةٌ، فكانت كالبحيرة في التحريم والتخلية، وكان الرجلُ إذ أعتقَ عبداً، فقال: هو سائبةٌ، لم يكن بينهما عَقْل، ولا ولاءٌ، ولا ميراثٌ. أما الوصيلةُ، فإنَّ بعضَ أهل اللغة ذكر أنها الأنثى من الغنم، إذا وُلِدَتْ مع ذكرٍ، قالوا: وصلت أخاها، فلم يذْبحوها، وقال بعضهم: كانت الشاةُ إذا ولدت أنثى فهي لهم، وإذا وَلَدَتْ ذكراً ذبحوه لآلهتهم في زعْمِهم، وإذا وَلَدت ذكراً وأنثى قالوا: وَصَلَتْ أخاها، فلم يذبحوه لآلهتهم، وقالوا: الحامي: الفَحْلُ من الإبل إذا نَتَجتْ من صُلْبِهِ عشرةُ أبْطنٍ، قالوا: حَمَى ظهْرَهُ، فلا يُحْمَلُ عليه، ولا يُمْنَعُ من ماءٍ ولا مرْعًى» [أحكام القرآن: (٤/ ٤٨٥). وانظر: أحكام القرآن للشافعي: (١/ ١٤٢) ففيه تفصيلٌ جيدٌ].

٢- استمساكُ الكفار بما كان عليه الآباءُ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الكفارَ إذا دُعُوا إلى ما أنْزَلَ اللهُ تعالى وإلى ما جاء به رسولُنا الكريم ﷺ قالوا: حَسْبنا، أي: يكفينا ما وجدنا عليه آباءَنا، فجعلوا تراثَ الآباء

جنـــة الســـــنة

وسيرتهم صادَّةً لهم عما جاءَهُمْ من عند الله وعند رسوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [المائدة:١٠٤]. ومن ذلك ما أخبرنا ربُّنا أن آباءَهم حرَّمُوهُ على أنفسهم في الآية السابقة، وهو تحريمُ البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحامي. وقد ردّ ربُّ العزة عليهم قائلاً: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة:١٠٤] أي: أتتبعون ما كان عليه الآباءُ من العقائد والسير والقيم والأخلاق، ولو كان آباؤُهم جهلةً، ليس عندهم شيءٌ من الهداية والصلاح؟!

٣- ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾:

نادى اللهُ -تباركَ وتعالى- عبادَهُ المؤمنينَ آمراً إياهم بإصلاحِ أنفسهم، مقرِّراً أنه لا يضرنا من ضل عن الإيمان وشريعةِ الرحمن إذا كنا ملتزمين بالهدى المتمثل بالكتاب والسنّة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٥] وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أننا سنرجعُ جميعاً إلى ربِّنا -تبارك وتعالى- في يوم القيامة، فيجازي كلَّ عاملٍ بعمله، إن خيراً فخيرٌ، وإن شرّاً فشر.

وليس في الآية ما يظنُّه بعضُ الناس أنَّ الآية تدلُّ على تركِ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنَّ ما أمرت به الآيةُ ممكن فعلُه مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد يقالُ: إنَّ ذلك، وهو الاقتصارُ بالاعتناء على أنفسنا يكون عندما تأتي فتنٌ عمياءُ، لا يكادُ المرءُ فيها يملكُ زمامَ نفسِهِ، ففي سنن الترمذيِّ عن أبي أمية الشعْباني، قال: أتيتُ أبا ثعلبة الخُشَنِيَّ فقلتُ له: كيفَ تصنعُ بهذه الآية؟ قال آيةُ آية؟ قلتُ: قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٥]، قال: أما والله لقد سألتَ عنها خبيراً، سألتُ عنها رسولَ الله ﷺ، فقال: «بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيتَ شُحّاً مطاعاً، وهوىً متبعاً، ودنيا مُؤْثَرَةً، وإعجابَ كل ذي رأي برأيه، فعليكَ بخاصَّة نفسِك، ودَعِ العوامَّ فإنَّ من ورائِكُمْ أياماً الصبرُ فيهنَّ مثلُ القبضِ على الجَمْر، للعامِلِ فيهنَّ مثلُ أجرِ خمسين رجلاً يعملون مثلَ عملكم». قال عبدالله بن المبارك: وزادني غير عُتْبَةَ: قيل: يا رسول الله: أجرُ خمسين منا أو منهم؟ قال: «بل أجرُ خمسين منكم» [الترمذي: ٣٠٥٨. وقال: هذا حديث حسن غريب].

جنـــــة الســـــنة

رابعاً: ما تهدينا إليه هذه الآيات من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- التشريعات التي يُحَرِّمُ البشرُ فيها ما أحلّه اللهُ تعالى، ويحلوا ما حرَّمَهُ تشريعاتٌ جاهليةٌ باطلةٌ، كالذي حرَّمه أهْلُ الجاهليةِ من الأنعام.

٢- ذَهَبَ بعضُ أهلِ العلم إلى عَدمِ جوازِ الوَقْفِ، ظانّين أن الوقفَ كالبحيرةِ والسائبةِ والوصيلةِ والحامِ، وهذا غير صحيح، فقد وقف رسولُ الله ﷺ ، ووقفَ أصحابُه من بعده، وإنما يكون الوقفُ غير جائزٍ إذا وقف الرجل أرضاً، ومَنَعَ مِن جَنْي ثمرها، وزرْعِ أرْضِها، ونحو ذلك.

٣- ذكر الشافعيُّ أن أهْلَ الجاهلية كانوا يرْجُون بأداء هذه الأربع وهي البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، البركةَ في أموالهم، وينالونَ به عندهم مَكْرَمةً في الأخلاقِ مع التَّبَرُّرِ بما صنعوا فيه [أحكام القرآن: ١/ ١٤٤] وهذا الذي رجوه باطلٌ وزورٌ.

٤- المشركونَ الذين جعلوا البحيرةَ والسائبةَ والوصيلةَ والحامي افتروا على الله الكذب في شرْعِهم لها، وأكثرُ هؤلاء لا يعقلون في تحريمهم ما أحلَّه اللهُ تعالى.

٥- تعظُم عند كثير من الناس العاداتُ والتقاليدُ، فتصبحُ بمثابة الدين الذي لا ينازَعُ فيه، فتراهم عندما يُدْعَوْنَ إلى الله ورسولِهِ، يُعْرِضونَ، ويتمسكون بما كان عليه آباؤُهم، وقد يكونُ آباؤُهم ضالين.

٦- ضلالُ كلِّ إنسانٍ على نفسه، ولا يصيبكَ من ضلالِ غيرك شيءٌ إذا كنتَ مهتدياً، ومصيرُ العباد إلى الله تعالى، فينبئ اللهُ كلَّ عبدٍ بعمله ويحاسبه.

٧- القاعدةُ السابقةُ لا تمنع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني المتمم للثلاثين من سورة المائدة
إشهادُ من حضره الموتُ في السفر على وصيَّته *

أولاً: تقديم

بيَّنَتْ لنا هذه الآياتُ كيف يتصرَّفُ مَن حضرهُ الموتُ في سفره بعيداً عن أهله، وأنه يجبُ عليه إشهاد اثنين من المسلمين، فمن لم يجدْ أشهدَ غيرَهما من الكفار، وأبانَتْ الآياتُ كيف يُتصرَّف ورثة الميت في حال ارتيابهم في شهادة الشهود.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [المائدة:١٠٦-١٠٨].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إشهادُ من نَزَلَ به الموتُ في سفره اثنين على ما تركه من مال:

نادى اللهُ تعالى في الآية الأولى من هذا النص عبادهُ المؤمنين مبيناً لهم كيف يتصرَّفُ الواحدُ منهم إذا حضرَهُ الموتُ وهو مسافرٌ، ومعه مالٌ، فعليه أنْ يوصي إلى اثنين عدْلين من المسلمين، ويكونُ هذان الاثنان وصيَّيْنِ على المال، وهما في الوقت نفسه شاهدان على ما تحمَّلاه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ ﴾ [المائدة:١٠٦] فإن لم يجدْ من نزلت به مصيبةُ الموت مُسْلِمَيْنِ يوصي إليهما ويُشهدهما، فآخرانِ من غير المسلمين ﴿ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ ﴾ [المائدة:١٠٦].

ولا يجوزُ الإيصاءُ إلى الكفار إلا بالشرطين اللذين ذكرتْهما الآية: الأول: أنْ يكون هذا في السفر. والثاني: أن يكونَ في وصيةٍ على ما معه من مالٍ.

فإذا كان الذي حَضَرَهُ الموتُ في دارِ إقامةٍ، ولديه من يعهد إليه من المسلمين، فلا يجوز أن يوصي إلى الكفار، ويشهدهم.

فإذا سلَّم الوصيَّان الشاهدان ما تحمَّلاهُ من مالٍ إلى ورثةِ الرجل الذي أوصاهما، وقبل ورثتهُ ما استلموه من الشاهدين ، انتهت القضيةُ، وذهب كلُّ واحدٍ في طريقه.

فإن ارتابَ الورثةُ لعلمها أنَّ المالَ الذي كان مع مورثهم أعظمُ مما حمله الموصيان الشاهدان، فإنَّ الحاكم يحبسهما في المسجد بعد إحدى الصلوات، ويحضر المصلون في المسجد الواقعة، فيقسمان بالله أنهما ما خانا، ولا كذبا، ولا غلاَّ، ولا اشتريا بأيمانهما ثمناً قليلاً، ولا كتَما شهادة الله، وقد أضافَ ربُّنا -تبارك وتعالى- الشهادة إلى نفسِهِ، تشريفاً للشهادة، وتعظيماً لها، ثم يقولان: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْأَثِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ أي: إن فعلنا ذلك، قال تعالى: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْأَثِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [المائدة:١٠٦].

٢- إذا ظهرتْ الخيانةُ من الشاهدين:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه إذا اطَّلع أهلُ الميت على أن الشاهدين استحقَّا إثماً، أي: كَذِباً في شهادتهما، أو خانا فيها، فيقومُ آخرانِ مقامَهما، أي: يقومُ رجلانِ من أهل الموصي المتوفى مقام الشاهدين فيقسمان بالله -تعالى- لشهادتُنا أحقُّ من شهادتِهما، ومعنى: أحقُّ، أي: أصحُّ، وأثبتُ من شهادتهما التي تقدَّمَتْ، وما اعتدينا عليهما في تخويننا لهما ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ [المائدة:١٠٧]، وقوله: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المائدة:١٠٧] أي: إن كنا كذبنا عليهما، فنحن ظالمونَ فيما رميناهما به، وحِلْفانُ اثنين من أهل الميِّتِ شبيهٌ بما يجري في (القسامة) حيث يحلفُ أهلُ القتيل خمسين يميناً على من يدعى عليه أنه قتل صاحبَهُمْ، فيُدفَعُ إليهم، فيقتلونه به.

٣- سبب نزول الآية:

روى البخاري في صحيحه عن ابن عباسٍ، قال: «خَرَجَ رجلٌ من بني سهمٍ مع تميم الداريِّ وعديِّ بن بَدَّاءٍ، فمات السهميُّ بأرضٍ ليس بها مسلمٌ، فلما قَدِما بتَرِكته، فقدوا جاماً

جنـــة السـنـــة

من فضة مخوَّصاً من ذهب، فأحلفهما رسولُ الله ﷺ ثم وُجد الجامُ بمكة، فقالوا: ابتعْناهُ من تميمٍ وعديٍّ، فقام رجلان من أوليائه، فحلفا لشهادتنا أحقُّ من شهادتهما، وإنَّ الجامَ لصاحِبِهم، قال: وفيهم نزلتْ هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [المائدة:١٠٦]» [البخاري: ٢٧٨٠].

وقد وقع مثل هذه الواقعة في عهد الخلفاء الراشدين، وكان أبو موسى الأشعري والياً على الكوفة، قال ابن كثير: «ومن الشواهد لصحة هذه القصة أيضاً ما رواه أبو جعفر بن جرير، قال: حدثني يعقوبُ، حدثنا هُشيم، أخبرنا زكريا، عن الشعبي: أنَّ رجلاً من المسلمين حضَرْته الوفاةُ بدَقوقا(١)، قال: فحضَرَتْهُ الوفاة، ولم يجِدْ أحداً من المسلمين يُشْهِدُه على وصيَّته، فأشهد رجُلين من أهل الكتاب، قال: فقَدِما الكوفةَ، فأتيا الأشعريَّ -يعني أبا موسى الأشعريَّ ﷺ- فأخبراه، وقَدِما بترِكَته ووصيَّته، فقال الأشعريُّ: هذا أمرٌ لم يكن بعدَ الذي كان في عهد النبي ﷺ . قال: فأحلفهما بعد العصر: بالله ما خانا ولا كَذَبا ولا بدَّلا ولا كتما ولا غيَّرا، وإنها لوصيَّةُ الرجلِ وترِكَتُه، قال: فأمضى شهادتهما. ثم رواه عن عمرو بن عليٍّ الفلاس، عن أبي داود الطيالسي، عن شعبة، عن مغيرةَ الأزرق، عن الشعبي أن أبا موسى قضى به بدَقوقا. وهذان إسنادان صحيحانِ إلى الشعبي، عن أبي موسى الأشعري. فقوله: هذا أمْرٌ لم يكن بعد الذي كان على عهدِ رسول الله ﷺ ، الظاهر -والله أعلم- أنه إنما أراد بذلك قصة تميم وعديّ بن بَدَّاء» [ابن كثير: ٢/ ٦٤٢].

وقد كَشَفَ سبب النزول كثيراً من الأمور وحقَّقها، فقد بيَّنَ أن المرادَ بقوله تعالى: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾، أي: من غير دينكم، فقد كان الشاهدان اللذان تحمَّلا ميراث السهميِّ وهما تميمٌ وعديٌّ نصرانيين، وقد دلَّ الحديث على أنَّ الشاهدين يحلفان، ولو كانا كافرين، ففي الحديث أنَّ الرسولَ ﷺ أحْلَفَ تميماً وعديّاً.

٤- الحكمة من وراء هذا التشريع:

بيَّن الله -تبارك وتعالى- الحكمةَ من وراء هذا التشريع بقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [المائدة:١٠٨].

---

(١) مدينةٌ في العراق بين بغداد وإربل.

جنـــــة السـنة

أخبرنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَّ تحليفَ الشاهدين اللذين شهدا بما كان منهما بعدَ الصلاة أقربُ على أنْ يأتوا بالشهادة على وجهِها، تعظيماً لله ربِّ العالمين الذي أقسما به، وقوله: ﴿أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ﴾ أي: يكونَ الحاملُ لهم بالإتيان بالشهادة على وجْهِها خوفهم من الفضيحة بين الناس إذا رُدَّت اليمينُ على الورثة فحلفوا، واستحقُّوا ما ادَّعوه.

وأمر اللهُ -تعالى- في ختام الآية بتقواه، أي: بالعمل بطاعته، وأمرهم بالسمعِ، أي: سَمْعِ الطاعةِ، وأخبر أنه لا يهدي القومَ الفاسقين، أي: الخارجين عن طاعة الله تعالى.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من عمل وعمل:

١- يجب على من غاب عن أهله، فحضرَتْهُ الوفاةُ أن يوصي بما معه من مال إلى رجلين مسلمين عَدْلين، فإنْ لن يجد مسلمَيْنِ، فعليه تحميلُ الوصية إلى من كان كافراً.

٢- لا يكفي الشخصُ الواحد في تحمل الشهادة، بل لا بد من شاهدين.

٣- يجب أن يتَّصفَ الشاهدان بالعدالة، أما غير المسلمين، فلا تلزم العدالةُ، لأن كفرهما ينفي عدالتهما.

٤- إذا رضي أهلُ المتوفى بشهادةِ الشاهدينِ كفى ذلك ووفَّى، فإن ارتابَ أهلُ المتوفى حلَّفا الشاهدين بعد إحدى الصلواتِ المفروضة على أنهما لم يخونا شيئاً اؤتمنا عليه.

٥- إذا ظهرتْ أدلةٌ بعد حِلف الشاهدين تدلّ على عدم صدقهما وخيانتهما قامَ اثنانِ من أهل المتوفى فحلفا على خيانةِ الشاهدينِ، وحَلَفا على أن شهادتهما أولى وأحْرى من شهادة الشاهدين الموصَى إليهما، وعند ذلك يلزم الشاهدين أن يدفعا ما عليهما.

٦- بيَّنَ اللهُ تعالى وَجْهَ الحكمةِ من هذا التشريع الإلهي الرباني، فهذا التشريعُ يجعلُ الشاهدين أقرب إلى الإتيان بالشهادةِ على وجهها.

٧- جواز شهادةِ كافرين في حالة الوصية المذكورة في هذه الآيات، بشرط أن يكون ذلك في السفر، ولا يوجد أحدٌ من المسلمين.

٨- هذه الآيات لست مشكلة في الفهم كما ذهب إليه بعضُ علمائنا، فهي بذكر سبب النزول في غاية الظهور والبيان، والله أعلم.

جنـــــة السـنــــــة

النص القرآني الحادي والثلاثون من سورة المائدة
بعض أنباء الغيب التي ستكون يوم القيامة

أولاً: تقديم

أخبرنا ربُّنا في آيات هذا النص عن أمرين غيْبِيَّيْن سيكونان يومَ القيامة، الأولُ منهما: أنَّ اللهَ -تعالى- سيجمعُ الرسل الذين أرسلهم إلى البشر، فيسألُهُم قائلاً: ماذا أُجِبتُمْ، فيقولون: لا علم لنا إنك أنت علّامُ الغيوب.

والأمرُ الثاني: أن الله تعالى يُذكِّر عبْدَه ورسولَه عيسى عليه السلام بما أنعم الله به عليه وعلى والدته، وقد أعلمنا ربُّنا في هذه الآية بالنِّعَمِ التي سيذكرها له.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًاۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِىۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِىۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِىۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [المائدة:١٠٩-١١١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- يجمعُ الله -تعالى- الرسلَ في يوم الدين ويسألهم عما أجابتهم به أممهم:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنه تعالى يجمعُ الرسلَ يوم القيامة، فيسألُهم عما أجابتهم به أُمَمُهم التي أرسلوا إليها ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْۖ ﴾ [المائدة:١٠٩] وهذا كقوله تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأعراف:٦].

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الرُّسُلَ يقولون عندما يسألون: ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [المائدة:١٠٩] أي: يقولون على وجه التأدُّب مع الله تعالى في ذلك اليوم الذي

جنـــــة الســــــنة

يُجعَلُ الولدان شيباً، لا علم لنا، فعِلْمُنا بجانب عِلْمُكَ لا يعدُّ شيئاً، فأنت علاَّمُ الغيوبِ، و﴿عَلَّمُ﴾ صيغَةُ مبالغةٍ دالَّةٍ على سعةِ علم الله تعالى، والغيوبُ ما غاب عن البشر، وفي هذه إشارة إلى أن عِلْمَ الرسل مهما كان واسعاً، فإن هناك ما لا يعلمونَه عن أممهم، وقد أحاط اللهُ به علماً.

٢- تذكير الله عيسى عليه السلام بنعم الله عليه وعلى والدته:

أخبرنا اللهُ -تعالى- في آيات هذا النص أنه سينادي عيسى عليه السلام ، وسيذكِّرُه بنعمه التي أنعم بها عليه وعلى والدته ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ [المائدة:١١٠].

وقد عدَّد اللهُ على عيسى بعضَ نِعَمِهِ عليه بقوله: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ [المائدة:١١٠].

وقد ذكَّر اللهُ تعالى كثيراً من نعمه التي أنعم بها على مريمَ والدة عيسى في سورة آل عمران، وذكر هنا من نِعَمِهِ على عيسى أنه أيَّدَهُ بروح القدس، وروح القدس الذي أيَّد اللهُ به عيسى عليه السلام هو جبريل عليه السلام .

ويذكِّرُ الله عيسى يوم القيامة بإقداره على تكليم الناس وهو في المهد، أي: وهو طفلٌ صغير، لا يُحْسِنُ مثلُهُ الكلام، واستمرَّ على إقدارِه على الكلام حتى بلغَ مرحلةَ الكهولة، فعيسى رفع إلى السماء وهو كَهْلٌ، والكهلُ: من وخَطَهُ الشيبُ، ومما سيذكُرُه لعيسى عليه السلام في يوم القيامة مما أنعم عليه في الدنيا أنه علَّمه الكتابَ والحكمةَ، علَّمه أن يخطَّ بالقلم، وعلَّمه الحكمة، وهي فقه الخطاب على أحسنِ وجهٍ، وعلَّمه التوراة التي أنزلها تعالى على موسى عليه السلام، والإنجيلَ الذي أنزله عليه.

وذكَّره أنه أنعم عليه بإقدارِهِ على أنْ يصنعَ بيده من الطين كهيئة الطير بإذن الله تعالى، فينفخُ فيها، فتصبحُ طيراً بإذنه سبحانه، وأعطاه ربُّ العباد القدرةَ على شفاء المرضِ العضال بإذن الله تعالى، فكان يبرئ الأكْمَهَ، وهو الذي ولد أعمى، أو زال بصره بعد أن وُلد، ويشفي الأبرص، وهو مرض يصعب شفاؤه، وذكّره بأنه أعطاهُ القدرة على إخراج الموتى وإحيائهم بإذنه تبارك وتعالى.

جنـــة الســـــنة

ومما أعلمنا اللهُ تعالى أنه سيقولُه لعيسى في يوم الدين ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ [المائدة:١١٠] يذكِّر اللهُ عيسى عليه السلام بما كان منه سبحانه من عِصمة عيسى عليه السلام عندما أراد بنو إسرائيل إهلاكَهُ وقتْلَهُ بعد أن جاءَهم بالآيات البينات من عند الله، فقالَ الذين كفروا من بني إسرائيل: ما هذا الذي جئتَ به يا عيسى إلا سحرٌ مبين، أي: سحرٌ ظاهرٌ معروفٌ.

وآخر النعم التي سيُذكِّرُ الله تعالى بها رسولَه عيسى عليه السلام ما أوحى الله به إلى الحواريين، فقد قَذَفَ في قلوبِهِمْ، أو أوحى إليهم بالرؤيا الصادقة آمراً إياهم أن يؤمنوا به سبحانه، وبرسوله عيسى عليه السلام ، فاستجابوا لما أوحى اللهُ به إليهم، فآمنوا بالله تعالى، وطلبوا ممن سمعوهم أن يشهدوا بأنهم مسلمون ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة:١١١] وقال عز وجل في سورة الصف: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ﴾ [الصف:١٤].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- من أنباء الغيب التي ستقع في يوم القيامة جَمْعُ الله -تعالى- الرسل، ويسألهم عما أجابهم به أقوامهم، فيقولون: لا علم لنا إنك أنت علاّم الغيوب.

٢- يُذكِّرُ الله -تعالى- يومَ القيامة بما أنعمه اللهُ على عيسى ابن مريم عليهما السلام وعلى والدته في الحياة الدنيا.

٣- أمَرَ اللهُ -تعالى- الحواريين أنْ يؤمنوا به وبرسوله عيسى عليه السلام، فآمنوا واستجابوا.

جنـــــة السـّــــنة

النص القرآني الثاني والثلاثون من سورة المائدة
إنزال الله تعالى على عيسى وأتباعه مائدةً من السماء

أولاً: تقديم

تتضمن آيات هذا النص الكريم قصةَ المائدة التي أنزلها الله تعالى من السماء بطلب من الحواريين، فدعا اللهُ عيسى ربَّه، فأنزلها الله تعالى عليهم لتكون عيداً لأوّلهم وآخرهم وآيةً منه سبحانه.

وقصةُ نزولِ المائدة لم تذكر في القرآن إلا في هذا الموضع، وبها سميت هذه السورة الكريمةُ، وليس عند النصارى خبرٌ عن نزول المائدة إلا ما أخبر به القرآن في هذا الموضع.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة:١١٢-١١٥].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

أنزل اللهُ تعالى على عيسى وحوارييه مائدةً من السماء:

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أن يذكر ما قاله الحواريون لعيسى عليه السلام وهم في صحبته، ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة:١١٢] وقصةُ نزولِ المائدة لم تُذكرْ في الإنجيل، ولم تُذكر في القرآن إلا في هذا الموضع، وسميت هذه السورة باسم المائدة التي ذُكِرَتْ فيها قصتها.

وقد وجَّهَ الحواريون -وهم الأخيارُ الخُلَّصُ من الذين آمنوا بعيسى- سؤلاً إلى رسولهم عيسى ابن مريم، قائلين له: هل يستطيعُ ربُّك أن يُنزِّل علينا مائدةً من السماء؟ وصيغةُ السؤال فيها كثيرٌ من الاستغراب، فما كان لمثل الحواريين أن يسألوا بهذه الصيغة الموهِمَةِ، ولذلك بادرَ عيسى عليه السلام إلى أمْرِهِمْ بتقوى الله ومخافتِهِ، وقال لهم بعد ذلك: ﴿إن

جنـــــة السـنـــــة

كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ وهي عبارة مناسبةٌ للكيفية التي سألوا بها ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [المائدة:١١٢].

عند ذلك توسَّعَ الحواريون في بيان الأمر الذي طلبوه، وكشفوا عن مقاصدهم وأغراضهم من وراء طلبهم ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المائدة:١١٣].

بيَّنَ الحواريون مقْصِدَهُمْ من وراء طلبهم إنزال الله عليهم مائدة من السماء، فكانت أربع مقاصد:

الأول: أنهم كانوا بحاجة إلى الطعام، فأرادوا من وراء إنزالها أن يأكلوا من هذه المائدة المنزلة من عند الله ما يشبعُ جوعَهُمْ.

الثاني: يريدون بإنزالها أن تطمئن قلوبهم إلى الحق الذي جاءَهم من عند الله، وطلبهم هذا شبيه بطلب خليل الرحمن إبراهيم عندما طلب من ربه أن يريَهُ كيف يحيي الموتى، فقال له: أَوَلَمْ تؤمنْ؟ فقال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي، وهذا مقصودٌ مشروعٌ مقبول، وتتحقق طمأنينة القلب، عندما يرى الحواريون المائدة، وهي هابطة من السماء، مستقرة بين أيديهم.

الثالث: أنهم يريدون أن يعلموا أن رسولَهم عيسى عليه السلام قد صدَقَهم، ويتحققُ هذا عندما يستجيب عيسى عليه السلام، فيدعو ربَّه بإنزال الله المائدة، فينزلُها عليهم على النحو الذي طلبوه.

المقصد الرابع: أن يكونوا عليها من الشاهدين، فيتخذونها دليلاً يقدِّمونه للناس دالاًّ على صدق ما يدعون إليه، وذلك بإخبارهم الناس بأنهم رأوا نزول المائدة على النحو الذي نزلت عليه.

ويبدو أن عيسى عليه السلام قد اقتنع بما بيَّنوه من أهدافٍ ومقاصدَ، فتوجَّهِ إلى ربِّه تبارك وتعالى داعياً إياه أن ينزل عليهم مائدةً من السماء، وقد أعلمنا الله تعالى بما دعا به عيسى ربه، قال تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [المائدة:١١٤].

ابتدأ عيسى عليه السلام بدعاء الله بقوله: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ الدالِّ على الثناء على الله بجميع أسمائه وصفاته، ثم قال: ﴿رَبَّنَآ﴾ فدعا الله تعالى بألوهيته وربوبيته، وهكذا يسأل العبدُ ربَّه عند دعائه له.

جنـــــة السـ‍ـــــنة

وطلب من الله تعالى أن يُنزِل عليه وعلى حوارييه مائدةً من السماء، والمائدة: كل خوَّانٌ عليه طعام، فإنْ لم يكن عليه طعامٌ، فليس بمائدة، وقال عيسى عليه السلام في وصفه للمائدة التي دعا اللهُ بها ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ﴾ [المائدة:١١٤].

ومعنى: ﴿عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ أي: تكفينا كُلَّنا، فيأكل منها أوَّلُنا وآخرُنا، قال ابنُ عباس: «أكَلَ منها -يعني المائدة- حين وضعتْ بين أيديهم آخرُ الناسِ كما أكل منها أوَّلُهُمْ» [الطبري: ٤/ ٣١١٤].

والمراد بكونها عيداً، أي: يكونُ نزولها موضعَ فرحٍ وبهجةٍ وسرور، وقوله تعالى: ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ معناه: وحجة منك على عبادِك، تدل على وحدانيتك، وتدلُ على صدقي فيما أدعو إليه، وما أرسلتني به. وقوله تعالى: ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ طَلَبَ من الله تعالى أن يرزقَهُم بإنزالها ما يحتاجونه من طعام، وأنت يا رب خير الرازقين.

واستجاب اللهُ دعاء عيسى عليه السلام ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة:١١٥] وفي هذه الآية ردٌّ على الذين زعموا أن الله تعالى لم ينزل المائدة، فاللهُ قال: إني منزلُها عليكم، وتهدَّد اللهُ الذين يكفرون بهذه الآية العظيمة، ووعد بأن يعذِّبَهُ عذاباً لا يعذِّبُ مثلَه أحداً من العالمين، فقد جَرَتْ سنَّةُ الله في الذين يطلبون الآيات، ثم لا يؤمنون بها بأنْ يعذِّبَهم عذاباً شديداً، كما فعل بقومِ صالحٍ الذين طلبوا الناقة، ثم كفروا بها.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل

١- الحواريون، وهم الخُلَّص من أتباع عيسى عليه السلام، يطلبون منه آيةً من عند الله، تكونُ متمثلة في مائدة منزلةٍ من السماء.

٢- عيسى عليه السلام يُنكرُ على حواريه طلبهم، ويطلب منهم أن يتقوا الله، ويتركوا ما طلبوه.

٣- الحواريون يُبيِّنون لعيسى عليه السلام وجه طلبهم الآية المتمثلة في المائدة، وقد حدَّدوا لطلبهم المائدة أربعة أمور ذكرتها الآية.

جنـــــة السـنـــــة

٤- دعا عيسى عليه السلام ربَّه طالباً مائدة تنزلُ عليهم من السماء، تكون كافيةً لهم جميعاً، وتكون آية من الله تعالى.

٥- استجابَ اللهُ دعاءَ نبيِّه عيسى عليه السلام ، فأنزلَ لهم مائدةً من السماء، وكانت متصفة بالصفات التي حدَّدها عيسى عليه السلام .

٦- أعلم اللهُ عيسى وحوارييه أنَّ الذي يكفر بالآية التي ينزلها، فإنه يوقع به عذابه، هكذا فعل الله بالمكذبين بآياته من أقوام الرسل فيما سبق

جنـــة الســــنة

النص القرآني الثالث والثلاثون من سورة المائدة
ما أمر عيسى الناس إلا أن يعبدوا الله ربَّه وربهم

أولاً: تقديم

كانت النعم التي ذكَّر الله تعالى بها عيسى عليه السلام في النص السابق بمثابة التمهيد لما سأل اللهُ تعالى عيسى عنه في هذا النص القرآني الذي قال له فيه: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:١١٦] وذكر اللهُ تعالى في آيات هذا النص الإجابة السديدة التي سيجيبُ بها عيسى عليه السلام في الموقف العظيم، وهي إجابةٌ مسدَّدةٌ موفَّقةٌ، استحقَتْ من الله أن يشيدَ بها، ويُذكِّر جزاءَ صاحبِها في ذلك الموقف العظيم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة:١١٦-١٢٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- سؤال الله -تعالى- عيسى عن مدى أمْرِهِ الناس بتأليهه وأمه:

بعد أن ذكَّر الله تعالى عيسى عليه وعلى أمِّه السلام بما أنعم اللهُ عليه وعلى أمِّه من فضل ونِعَم، وجّه إليه السؤال عن مدى أمره للناس باتخاذه وأُمِّه إلهين من دون الله ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:١١٦].

٢- جواب عيسى عليه السلام:

وقد أخبرنا ربُّنا -العليم الحكيم سبحانه- أن عيسى عليه السلام يقول في جوابه: ﴿سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ

جنـــــة السـنــــة

أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة:١١٦-١١٨].

وقد نزَّه عيسى ربَّه في إجابته له فقال: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: أُنزِّهُكَ وأُعظِّمُكَ عن كلِّ نقصٍ أو عيبٍ، وقال لربه: ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ﴾ فعيسى عبدٌ مربوبٌ مخلوقٌ، لا يستحقُّ أنْ يكون إلهاً، ولا يستحقُّ أنْ يدعو الناسَ إلى عبادَتِهِ وعبادةِ أُمِّه، وقال عيسى لربه -تبارك وتعالى- إن كنتُ قلتُ هذا الذي سألتني عنه، فقد علِمْتَهُ، وقرَّر أنَّ اللهَ سبحانه يعلم ما نفسه، وهو لا يعلمُ ما في نفس الله، وقال لربه: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ فأنت العليم بالغيوب كلها، ولو قلتُ للناس هذا القول لعلِمْتَهُ، فعِلْمُكَ محيطٌ بكل شيءٍ، لا يخفى عنك شيءٌ في الأرض، ولا في السماء.

وقال عيسى في جوابه لربه تبارك وتعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾، والذي أمَرَهُ اللهُ أن يقولَه لقومه أن يعبدوا الله تعالى وحده، وهو ربُّه تعالى وربُّهم، وقد أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى في سورة مريم أن عيسى عليه السلام عندما جاءَت به أمّه صبيًّا بعد ولادتِهِ ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم:٣٠] وقال لهم أيضاً: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [مريم:٣٦].

وقالَ عيسى عليه السلام في إجابته لربِّه: وكنتُ عليهم شهيداً طيلةَ المدة التي كنت حيًّا فيهم، فلما رَفَعَ اللهُ عيسى عليه السلام إليه، انقطعَ عِلْمُهُ بما كان عليه قومُهُ، وبقي اللهُ وحدَهُ هو الرقيبُ على قومه سبحانه، واللهُ سبحانه على كل شيءٍ شهيد، لا يخفى عليه شيءٌ من أمور العباد.

وقال لربه -تبارك وتعالى- في ذلك اليوم العظيم: إن تعذِّبْ هؤلاء الذين أُرسلتُ إليهم، فإنهم عبادك، وأنت سيِّدُهم ومالِكُهُمْ، وإن تغفر لهم ذنوبهم، وإسرافهم في أمرهم، فإنك أنت العزيز، أي: المنيعُ الغالبُ، الحكيم الذي يجري أمره في عباده وفق حكمته سبحانه وتعالى.

ولا شك أن هذا السؤال وما حواه جوابُ عيسى أظهر مدى ضلال الذين ألَّهُوا عيسى وأمَّه من دون الله، وأظهر أنهم كاذبون في دعْواهم أنَّ عيسى هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، وهذا الذي يدَّعيه النصارى ليس منزلاً من عند الله، ولا أمر به عيسى عليه السلام ، وإنما هو كلامٌ مخترعٌ مكذوبٌ على الله وعلى رسول الله.

جنـــــة السـنــــــة

٣- ثناءُ الله على جواب عيسى وتصديقه له:

وقد أثنى اللهُ -تبارك وتعالى- على جواب عيسى، ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة:١١٩] صدَّقَ اللهُ -عزَّ وجلَّ- ما قاله عيسى عليه السلام، فقال: هذا يومُ ينفعُ الصادقين صِدْقُهُمْ، وأعْلَمنا أن عيسى عليه السلام ومن اتَّبعُوه على منهجه لهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار، وهم خالدون في تلك الجنات خلوداً أبديًّا دائماً لا ينقطع أجرُها وثوابُها، وأعْلَمنا عن هؤلاء المؤمنين الموحدين بأنَّ الله سبحانه راضٍ عنهم، وهم راضون عن ربِّهم تبارك وتعالى، وهذا هو الفوزُ العظيم.

٤- من أعظم الأدلة على وحدانية الله أنَّ كل ما عبده البشر مخلوق مربوبٌ

وخَتَمَ اللهُ تبارك وتعالى هذه السورة العظيمة بقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة:١٢٠] فاللهُ تعالى مالكُ السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، وهو على كل شيءٍ قدير سبحانه، وفي هذا ردٌّ على النصارى الذين ألَّهوا عيسى ابنَ مريمَ وأُمَّه، فعيسى وأمُّه عليهما السلام هما جزءٌ مما في هذه الأرض، والله تعالى يملكهما كما يملكُ غيرها مما في السمواتِ والأرض، وفي الآية ردٌّ على المشركينَ جميعاً، فكل ما عَبَدَهُ المشركون في السماء والأرض من الملائكة والجنِّ والشمس والقمر والنجوم والشجر والجبال والبحار والأوثان والأصنامِ كلها مملوكة لله مخلوقةٌ له، لا تصحُّ أن تُعْبَدَ من دون الله.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- سيسألُ اللهُ -تعالى- عبدَه ورسولَه عيسى عليه السلام يومَ القيامة هل أمَرَ الناسَ بعبادتِهِ وعبادةِ أُمِّه، فيتبرأُ من ذلك، ويخبرُ أنه لم يكن له أن يقولَ ما ليس له بحقٍّ، ولو كانَ قال ذلك، لعلمه ربه، فهو عالمٌ به، وعالم بالغيوب كلِّها.

٢- أخْبرَ عيسى في جوابه على سؤال ربِّه أنه لم يقُلْ للناس إلا ما أمره به ربُّه، فقد قال لهم: اعبدوا اللهَ ربي وربكم.

٣- أثبت عيسى عليه السلام النفسَ لله تعالى في قوله: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ﴾.

٤- كان عيسى شهيداً على قومه عندما كان مصاحباً لهم، فلما توفَّاه الله، ورفعه إلى السماء كان اللهُ وحْدَهُ الرقيبَ على قومه، وهو سبحانه شهيدٌ على كل شيء.

جنــــة الســـــنة

٥ - ردَّ عيسى عليه السلام الأمرَ في قومه إلى ربّ العزة، فهو إن شاء عذَّبهم، وإن شاء غفر لهم.

٦ - صدَّق اللهُ -تعالى- عيسى فيما أخبر به، وأخبر أنَّ الصادقين سينتفعون بصدقهم في ذلك اليوم، وعاقبةُ الصدِّقِ الجنةُ.

٧- اللهُ له ملكُ السموات والأرض، وكل ما عبده الكفارُ، ومنهم عيسى هم جزء من ملكوت السموات والأرض، فهم مخلوقون مربوبون.

جنـــــة الســـــنة

سُورَةُ الأَنْعَامِ

التعريف بهذه السورة

ذكر كثير من المفسرين أن هذه السورة الكريمة مكية في الجملة، وذكر بعضُ المفسرين أن هذه السورة اختصت من بين سور القرآن بنزولها من أولها إلى آخرها مرةً واحدةً ليلاً، وقد أورد ابنُ كثيرٍ كثيراً من الأحاديث الدالة على ذلك، وقد بيَّنَ محقِّقُ ابن كثيرٍ أن هذه الأحاديث ضعيفة [ابن كثير: ٣/ ٥].

وقال أبو عمر الداني في هذه السورة: «كَلِم هذه السورة ثلاثةُ آلافٍ واثنتان وخمسون كلمةً، وحروفها اثنا عشر ألفاً وأربعمائة واثنان وعشرون حرفاً، وهي مائةٌ وخمسةٌ وستون آية بالكوفيِّ، وستٌ في البصريِّ والشاميِّ، وسبعٌ في المدنيين والمكي» [البيان في عدِّ آي القرآن: ١٥١].

وقال القرطبي: «قال العلماء: هذه السورة أصلٌ في محاجَّةِ المشركين، وغيرهم من المبتدعين، ومن كذَّبَ بالبعث والنشور، وهذا يقضي إنزالها جملةً واحدةً، لأنها في معنى واحد من الحجة، وإن تَصَرَّفَ ذلك بوجوهٍ كثيرة، وعليها بنى المتكلمون أصول الدين» [القرطبي: ٣/ ٧٠٣].

جنـــــة السـنـــة

النص القرآني الأول من سورة الأنعام

حمدُ الله تعالى نفسَهُ تعليماً لعباده على خلقه السموات والأرض

أولاً: تقديم

حَمِدَ ربُّنا -تبارك وتعالى- نفسَهُ على خلقِهِ السماوات والأرض، وجعْلِهِ الظلماتِ والنور، وذمَّ الكفارَ الذين عدلوا آلهتهم بالله ربِّ العالمين، ومعنى يعدلون، أي: يُسَوُّونَ.

وأعلمنا ربُّنا بالأصل الأول الذي خلقنا سبحانه وتعالى منه، فقد خلقنا بخلق أبينا آدم ﷺ من طين، وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه جعَلَ لنا أجلاً تنتهي حياتُنا بانقضائه، وجعل لنا أجلاً آخر ينتهي فيه بقاؤنا في الأرض التي غيبنا فيها، ونقومُ بعد الأجل الثاني المسمى عند الله لله ربِّ العالمين، وأخبرنا ربُّنا -عز وجل- في آيات هذا النص أنه المعبود الحقُّ لأهل السماوات وأهل الأرض، وأعلمنا أنه يعلم بأسرارِنا التي نخفيها، وأعمالِنا التي نُبْدِيها، ويعلمُ كلَّ ما نقومُ به.

وذمّ الحقُّ -تبارك وتعالى- الذين يعرضون عن آيات الله التي جاءَتهم من عنده، وتهدَّد هؤلاء بأنه سيأتيهم ما كانوا يستهزئون به.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن من سورة الأنعام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأنعام:١-٥].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الحمد لله خالق السموات والأرض وجاعل الظلمات والنور:

حَمِدَ العليُّ الأعلى -تبارك وتعالى- نفسَه على خلْقِه السموات والأرض، وجعْلِهِ الظلمات والنور، والسماواتُ والأرضُ مخلوقان عظيمان، والأرضُ موطننا الذي نعيش فيه، وقد جعل

جنـــــة السنـــــة

اللهُ تعالى فيها الآيات البينات والحجج الظاهرات، ففيها الجبالُ والسهولُ والأنهارُ والبحارُ، وجعل الله فيها الحيوان والطيور والنبات، والسماء مخلوقٌ أعظمُ من الأرض، ونحن نشاهدُ شمسَها وقمرَها ونجومَها، وحدَّثنا ربُّنا أنها سبعٌ، وهي مسْكَنُ الملائكة، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام:١].

وذهب أكثرُ المفسرين إلى أن المراد بالظلمات ظلمات الليل والمرادُ بالنور نورُ النهار، وذهب الشوكاني إلى أن المرادَ بالظلمات كلُّ ما يطلقُ عليه اسمُ الظلمة، ويدخل فيها ظلمةُ الليل، وظلمةُ الشرك والكفر، وأدخل في النور نورَ النهار، ونورَ الإيمان [فتح القدير: ٢/ ١٣٩] وقول الجمهور أوْلى وأصوب.

وقد ذمَّ اللهُ تبارك وتعالى في خاتمة الآية الأولى الكفارَ بكونهم يعْدِلون أصنامهم وأوثانهم وآلهتهم بالله ربِّ العالمين، ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾.

وهؤلاء الكفرة ضالون جاهلون إذ يُسَوُّون آلهتَهُم المخلوقة المربوبة الآفلة الضعيفة بالله ربِّ العالمين الذي خلق السموات والأرضينَ، وجعل الظلمات والنور ومعنى ﴿يَعْدِلُونَ﴾ أي: يسَوُّون آلهتهم بالله تعالى.

وقد نبهنا الإمامُ مجاهدٌ رحمه الله تعالى إلى أن الآية الأولى من سورة الأنعام تردُّ على ثلاثةِ أديانٍ، فقد أخرج أبو الشيخ من طرق عن مجاهد، قال: «في هذه الآية ردٌّ على ثلاثة أديان: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فيها ردٌّ على الدهرية، ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ ردٌّ على المجوس الذين زعموا أن النورَ والظلمة هما المُدَبِّران، ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ فيه ردٌّ على مشركي العرب ومن دعا من دون الله إلهاً» [الإكليل. للسيوطي: ص١١٧].

٢- خلقنا ربُّنا تبارك وتعالى من طين:

بعد أن أخبرنا تباركَ وتعالى بأنه وحده الذي خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، أتبع ذلك بإخبارنا بالأصل الذي منه خُلقنا، فاللهُ خلقنا بخلق أبينا آدم عليه السلام من طين ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام:٢] وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ في الحديث الذي رواه عنه أبو موسى الأشعري قال: «إنَّ اللهَ خلق آدم من قَبْضَةٍ قَبَضَها من جميع الأرض، فجاءَ بنو آدمَ على قَدْرِ الأرض، فجاءَ منهم الأحمرُ، والأبيض، والأسودُ، وبين ذلك، والسهلُ، والحَزْنُ، والخبيثُ، والطيبُ» [صحيح سنن الترمذي: ٢٣٥٥. وخرجه الألباني في المشكاة: ١٠٠، وسلسلة الصحيحة: ١٦٣٠].

جنـــــة السـنة

وإذا علمنا أن الله خلقنا من طين، فإنه يجبُ علينا أن نعبُدَ الله ونوحده ونثني عليه، ونمجِّدَهُ سبحانه على ما أنْعَم به علينا في خلقه السموات والأرض، وخلقِنا من طينٍ، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ﴾ [الأنعام:٢] فالأجلُ الأول يتحقق بموت الواحد منا في الحياة الدنيا، أو يكونُ بموت الجميع عندما تقومُ الساعةُ، والأجلُ الثاني يتحقق بالبعث والنشور، وقيام الناس لله ربِّ العالمين.

وقوله: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ﴾ أي: مخفِيٌّ عنده، لا يُطْلِعُ عليه نبيّاً مرسلاً، ولا ملكاً مقرَّباً، فإن الله تعالى قال في الساعة: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [الأعراف:١٨٧] وقال سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ [النازعات:٤٢-٤٤].

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنعام:٢] أي: تشُكُّون، وفي هذا توبيخٌ للكفرة الذين يشُكُّون فيما أخبرنا به العليمُ الحكيمُ من وقوع الساعة، وأنَّ ذلك حتم لازم لا شك فيه.

٣- اللهُ -تعالى- هو المعبودُ الواحدُ في السموات والأرض:

أخبرنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنه هو المعبودُ وحدَهُ في السماوات وفي الأرض ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [الأنعام:٣] أي: هو معبودُ أهل السماءِ ومعبودُ أهل الأرض، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ ۚ﴾ [الزخرف:٨٤] وهو كقولنا: كان عمر بن عبدالعزيز حاكم بلادِ الشام، وحاكم الجزيرة العربية، وحاكمَ مصر، وحاكمَ العراق.

ومع أن الله سبحانه هو معبودُ أهل السماء ومعبود أهل الأرض فهو يعلم سِرَّنا وجهْرنا، لا يخفى عليه خافيةٌ من أمرنا، ويعلم سعينا وكسبنا ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنعام:٣] وإذا أيقنا أن اللهَ يعلمُ سِرَّنا وجهرنا، ويعلم كسْبَنا راقبناه، وأطعناه، بفعل ما أمرنا به، وترْكِ ما نهينا عنه.

٤- ذم اللهُ تعالى الذين يُعْرِضون عن آيات الله عز وجل:

ذمَّ اللهُ -تعالى- الكفارَ الذين يُعْرِضون عن الآيات التي تأتيهم من عند الله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأنعام:٤] ومن الآيات التي جاءت بها الرسلُ، وأعرضَ عنها الناسُ، ناقةُ صالح، وعصا موسى، وإبراءُ عيسى الأكْمَهَ والأبرص وإحياؤه الموتى، ومنها القرآنُ المنزلُ على نبينا محمدٍ ﷺ ، وإعراضُ الناسِ عن

جنـــــة السـنــــــة

الآيات التي جاءتهم من عند الله تكون بكفرهم بها، وتكذيبهم لها، قال تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥﴾ [الأنعام:٥] وعنى اللهُ بالذين كذبوا بالحقِّ جميعَ الذين كفروا برسولنا ﷺ وبما جاءَ به، وهو القرآنُ، وقد تهدَّدَ اللهُ هؤلاء الذين كذَّبوا الحق، واستهزؤوا به، وأخبرَ أنه سيأتيهم أنباءُ ما كانوا به يستهزئون، فقد استهزأ المنافقونُ بما أخبرهم به الرسولُ ﷺ من فتوحاتٍ لبلاد الشام واليمن والعراق وفارسَ وغيرها، وقد تحقَّق صِدْقُ ما أخبر به الرسولُ ﷺ، وفي يومِ القيامةِ سيعلمُ الكفارُ أنَّ الرسولَ الذي كانوا يسخرون منه، والقرآنَ الذي اتخذوه هُزواً، والدينَ الذي اتخذوه لعباً، ليس بموضعِ سخريةٍ واستهزاءٍ ولعبٍ، بل كُلُّه حقٌّ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- حَمِدَ اللهُ -تبارك وتعالى- نفْسَهُ لخلقه السموات والأرض، وجعله الظلمات والنور، وفي ذلك تعليمٌ لخلقه أن يحمدوه دائماً وأبداً على نعمه التي لا تعدُّ، ولا تحصى.

٢- اللهُ له المحامدُ كُلُّها، فهو اللهُ الذي يستحقُّ الحمدَ والثناءَ والتمجيدَ والتعظيم.

٣- في الآية الأولى من سورة الأنعام ردٌّ على الذين يزعمون أنَّ السماوات والأرض أزليتان أبديتان، وفيها ردٌّ على الذين قالوا بألوهية الظلام والنار، وفيها ردٌّ على المشركين الذين سوَّوْا آلهتهم المكذوبة المفتراة بالله ربِّ العالمين.

٤- سوَّى الكفارُ آلهتهم بالله رب العالمين، وآلهتُهُم مربوبةٌ مخلوقةٌ، وتسويةُ الخالق بالمخلوق في العبادة والتعظيم والمحبة ظلمٌ وافتراء وشركٌ.

٥- نحنُ البشر جميعاً مخلوقون من طينٍ بخلق أبينا آدم عليه السلام، ثم خلقنا من سلالةٍ من ماءٍ مهين، وفي هذا ردّ على الذين زعموا كاذبين أن أصل الإنسان قردٌ أو فأر.

٦- لكل مخلوقٍ في هذه الدنيا أجَلٌ قضاهُ الله وحدَّده، ولكل واحدٍ أجلٌ يقومُ فيه لربِّ العالمين لا يعلمُ موْعِدَهُ إلا ربُّ العالمين.

٧- الكفارُ يشكُّون في قيام الساعة، وهم يكذبون بما أخبرنا به الله، وما أخبرنا به رسلُهُ.

٨- اللهُ هو معبودُ أهل السماء ومعبود أهل الأرض، ولا يستحقُّ غيره أن يُعْبَدَ، ولا أنْ يستعانَ، ولا يستغاث بغيره.

٩- اللهُ -تبارك وتعالى- عليم بأسرارنا وأخبارنا وأحوالنا وأعمالنا وسيحاسبنا على ذلك كله.

١٠ - الكفارُ يرون آيات الله التي جاءَت بها الرسل، ثم يعرضونَ عنها، ويكفرونَ بها.

١١ - الكفارُ كذَّبوا بالحق الذي جاءَهم من عند الله، وسيريهم اللهُ -تبارك وتعالى- في مقبلِ الزمانِ في الدنيا والآخرة أنباء ما كانوا به يستهزئون.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني الثاني من سورة الأنعام

الله -تعالى- يدعو الكفار إلى الاعتبار بالهالكين السابقين

أولاً: تقديم

حثَّ اللهُ تعالى في آيات هذا النص المكذِّبينَ على النظرِ في مصارع الغابرين الذين أهلكهم الله بسبب كفرهم وضلالهم، وأمرهم بالسير والنظر في مصارع الغابرين، وأخبر أن الآيات البينات لا تهدي دائماً المكذبين، فكثيراً من الذين عاصروا موسى وعيسى عليهما السلام لم ينتفعوا بما أنزل عليهما من آيات.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنعام:٦-١١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- حَثَّ اللهُ الكفارَ على الاعتبار بغيرهم:

حَثَّ اللهُ -تعالى- المكذِّبين برسولنا ﷺ أن ينظروا في القرون التي أهلكها اللهُ تعالى من قبلهم كي يعتبروا بما وقع لهم، فقد مكَّن اللهُ تعالى لأهل تلك القرون في الأرض، فتلك ديار ثمود قائمة تدلُّ على مدى قوتهمْ وجبروتهم، وتَكَشَّفتْ في أيامنا مدينة إرَمَ ذاتِ العِماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، وتلكَ آثارُ قوم لوطٍ التي جعلَ اللهُ عاليها سافِلَها ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾ [الأنعام:٦].

وقد أكثرَ اللهُ تعالى في كتابِهِ من الحثِّ على النظر في أحوال القرون الماضية، وهي الأممُ التي أرسل إليها الله رسله، فدمَّرهم عندما كفروا وكذَّبوا ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ [ق:٣٦]. وقال: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء١٧]. وقال:

جنـــة السـنــــة

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [المؤمنون:٤٢-٤٣]، والآياتُ في ذلك كثيرة.

وقد حدَّثنا ربنا -عزَّ وجلَّ- عما منحه للقرون الماضية من خيرات وما أحلَّ بهم من نكباتٍ لما كفروا وكذبوا، فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأنعام:٦] قال ابنُ جريرٍ الطبريُّ: «أمطرت فأخرجتْ لهم الأشجارُ ثمارَها، وأعْطَتْهُم الأرضُ ريعَ نباتِها، وجابوا صخورَ جبالها، ودَرَّت عليهم السماءُ بأمطارها، وتفجَّرتْ من تحتهم عيونُ المياه بينابيعها بإذني، فغَمَطُوا نعمةَ ربِّهم، وعصوْا رسولَ خالِقهم، وخالفوا أمْرَ بارئهم، وبغوا حتى حقَّ عليهم قولي عليهم، فأخذتهم بما اجترحوا من ذنوبهم، وعاقبتُهُمْ بما اكْتَسَبَتْ أيديهم، وأهلكتُ بعضهم بالرَّجْفَةِ، وبعضَهم بالصيْحَةِ، وغير ذلك من أنواع العذاب» [جامع البيان للطبري: ٤/ ٣١٣٣].

٢- تكذيبُ الكفار بما أنزل اللهُ عليهم مِنَ الآيات:

أخبرنا ربَّنا -عزَّ وجلّ- بأن الآيات التي يُنزِلُها على الكفار قد لا تهديهم، ولا تدخلُ الإيمانَ في قلوبِهِمْ ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ [الأنعام:٧] أخبرنا العليمُ الخبيرُ أنه لو أنزلَ على الكفرة المكذبين لرسولنا كتاباً من السماءِ مكتوباً في صُحُفٍ، وعاينوا تلك الصحف، ولمسوها بأيديهم، لقالَ الكُفّارُ هذا الذي أنزلَ علينا من السماء سحرٌ مبين، ليس له حقيقةٌ، وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن المدى الذي وَصَلَ إليه الكفارُ في تعَنّتِهِمْ ومطالبهم في قوله: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء:٩٠-٩٣].

٣- طلب الكفارُ من رسولنا ﷺ أن يؤيدَه اللهُ بملَكٍ ينزلُهُ معه:

أخبرنا ربنا -تبارك وتعالى- أن المشركينَ الذين كفروا بنبينا محمدٍ ﷺ قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ [الأنعام:٨] وقال في موضع آخر عنهم: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ﴾ [هود:١٢]، وقالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ [الفرقان:٧].

جنـــــة الســـــنة

وهذا الطلبُ من الكفار يدلُّ على مدى جَهْلِهِمْ وقلَّة علمهم، فلو أنَّه أنزلَ عليهم ملكاً في صورتِهِ الحقيقية التي خلقَهُ اللهُ عليها فإنهم يهلكون لأنهم لا يطيقون رؤيته.﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحجر:٧-٨] ومعنى ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾ أي: إذا أَنْزَلَ ملكاً أو ملائكةً على قوم في صورِهم الحقيقية، فإنَّ ذلك يؤذن بنزول العذاب بالذين نزل الملائكةُ عليهم، ولذا قال ربُّ العزة في هذه السورة: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنعام:٨].

وأخبرنا ربُّنا -سبحانه- في الآية التالية أنه لو أرسل ملكاً يدعو البشرَ إلى الله تعالى، فإنه سيجعلُه في صورة البشر، ليُمْكنه التواصل مع الناس، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام:٩] وفي هذه الحالة، أي: في إنزاله في صورة رجلٍ يلتبسُ الأمْرُ على المدعوينَ، لأنهم لا يدْرَوْنَ أَمَلَك هو أو إنسي.

قال ابنُ جريرٍ الطبريِّ في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم﴾ «ولو أنْزَلنا ملكاً من السماء مُصدِّقاً لك يا محمدُ، شاهداً لك عند هؤلاء العادلينَ بي، الجاحدينَ آياتِكَ على حقيقة نُبُوَّتِكَ، فجعلناه في صورة رجلٍ من بني آدمَ إذ كانوا لا يطيقون رؤية الملك بصورته التي خلقتُه بها، التبسَ عليهم أمْرُه فلم يدْرُوا أَمَلَكٌ هو أم إنسي! فلم يُوقِنوا به أنه ملكٌ ولم يصدقوا به، وقالوا: ليس هذا مَلَكاً، وللبسنا عليهم ما يَلْبِسُونه على أنفسهم مِن حقيقة أمرِكَ وصحةِ بُرهانكَ، وشاهدكَ على نُبُوَّتِك. يقال منه: لَبَسْتُ عليهم الأمرَ أَلْبِسُه لَبْساً: إذا خَلَطْتُهُ عليهم، ولَبِسْتُ الثوبَ أَلْبَسُه لُبْساً، واللَّبُوس: اسمُ الثياب» [جامع البيان: ٤/ ٣١٣٧].

وإنما يرسلُ اللهُ رسولَه من الملائكة على صورته الملائكية، لو كان المرسل إليهم في الأرض هم الملائكة، قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء:٩٥].

٤- تهديدُ الله الكفارَ بأن يفعل بهم كما فعله بالذين من قبلهم:

أخبر اللهُ -تعالى- أنَّ كل أمة من الأمم الماضية استهزأتْ برسولِها، فحاقَ بالذين سَخِروا برسولهِمْ ما كانوا يستهزئون به. ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام:١٠].

ومن المستهزئين برسلهم قومُ نوحٍ، فإنه كان وهو يصْنَعُ الفُلْكَ كلما مرَّ عليه ملأ من قومه سَخِروا منه ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾ [هود:٣٨] ويومَ

جنـــــة السـنــــة

القيامة يقولُ اللهُ عز وجل للكفار أهل النار: ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ١١٠﴾ [المؤمنون:١٠٨-١١٠].

ومعنى: ﴿فَحَاقَ﴾ فأحاط بالساخرين منهم ما كانوا به يستهزئون، كما قال نوحٌ ﷺ لقومه: ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ٣٩﴾ [هود:٣٩].

٥- أمر اللهُ تعالى المكذبين بالسير في الأرض والنظر في حال المكذبين:

أَمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- الناس بالسير في الأرض، والنظر في عاقبة الذين كذَّبوا اللهَ ورسلَه ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١١﴾ [الأنعام:١١] وقد أكثر ربُّ العزةِ في كتابِهِ من أمرِ الناس مؤمنهم وكافرهم أن يسيروا في الأرض، وينظروا كيف كان عاقبةُ الذين كذَّبوا رُسُلَ الله تعالى، قال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾ [يوسف:١٠٩]، وقال: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج:٤٦]. وقال: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم:٩]. والآياتُ الآمرةُ بالسيرِ والنظر في عاقبة المكذبين كثيرةٌ في كتاب الله، والغربيون اليوم مولَعون بالسير والنظر في أحوال الغابرين، ولكنهم لا يعتبرون بمصارعهم، وما جرى لهم، فسيْرُهُم فيه خَلَلٌ، ولا يستفيدون منه.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا في آيات هذا النص الكريم وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- حثَّ اللهُ الذين كفروا برسولنا ﷺ أنْ ينظروا نظرةَ تبصُّرٍ واعتبارٍ في القرون التي أهلكها الله من قبلهم، فإنهم إن لم يؤمنوا فإنَّ مصيرهم كمصير الغابرين، فالهالكون من القرون أعطاهم اللهُ أعظم مما أعطى الكفارَ برسولنا ﷺ.

٢- الآياتُ التي يُنْزِلُها على مكذِّبي الرسل، قد لا تقودُ إلى الإيمان، ولا تهدي إلى الرشاد، وتكون موضع تكذيب، ففرعون وقومُه لم تهدهم الآيات التي أنزلها على موسى، ولو نزَّل على الكفارِ برسولنا ﷺ كتاباً مكتوباً من السماء، لما آمنوا، ولقالوا: هذا سحر مبين.

جنـــــة الســـــنة

٣- اقترحَ بعضُ الكفارِ على نبينا محمد ﷺ أنْ ينزلَ اللهُ عليه مَلَكٌ يعاينُه الناسُ، ويشهدُ لرسولنا ﷺ بأنه رسولٌ صادقٌ، ولو أنزل اللهُ تعالى ملكاً في صورتِهِ الملائكية لهَلَكَ الذين يَرَوْنَهُ، لأنهم لا يطيقون رؤيتَه، ولو جَعَلَهُ في صورة رجلٍ لالتبس الأمرُ على الكفار، لأنهم لا يدرون أنه مَلَكٌ.

٤- أرسل اللهُ رُسُلَهُ من البشر كي يُمْكِنَهم التواصلُ مع الناسُ، ويتمكنَ البشرُ من الأخذ منهم.

٥- الذين يستهزئون بالرسل يحيط بهم العذاب الذي سخروا به.

٦- أمَرَ اللهُ عبادَه بالسير في الأرض، والنظر في مصارع الغابرين.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني الثالث من سورة الأنعام
الله له ما في السموات والأرض

أولاً: تقديم

عرَّفنا العليُّ العظيمُ -سبحانه وتعالى- في هذه الآيات بنفسه، فهو المالكُ للسموات والأرض، ورحمتُه سبقت غضبَهُ، وسيجمعُ العبادَ في يوم الدين، وله -سبحانه- ما سكن في الليل والنهار، وهو فاطرُ السموات والأرض، أي: خالقهما على غير مثالٍ سابقٍ، وهو الذي يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ، وهو -سبحانه- الضارُّ النافعُ، وهو القاهرُ فوق عبادِهِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ
وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ
أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا
كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ
ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنعام:١٢-١٨].

ثالثا: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اللهُ -تعالى- له ما في السموات والأرض:

أَمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يُوَجِّه السؤالَ إلى المشركين الذين يعبدون الأوثانَ والأصنامَ قائلاً لهم: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام:١٢]، ثم أجاب سبحانه نفسَه بنفسِه قائلاً: ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ [الأنعام:١٢].

والعربُ الذين كانوا يعبدونَ الأوثانَ كانوا يقرُّون بأنَّ الله تعالى هو وحدَهُ الخالقُ للسموات والأرض دون غيره، قال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ

جنـــــة السـنـــــة

﴿عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٩] والكفارُ عندما يُقرُّونَ بأنَّ اللهَ هو الخالقُ للسمواتِ والأرضِ ومالكها يتناقضون عندما يعبدونَ غيره، ولا يُفْردونه بالعبادة.

٢- اللهُ -تعالى- كَتَبَ على نفسِهِ الرحمةَ:

أخبرنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنه كتب على نفسه الرحمة، ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ﴾ [الأنعام:١٢] أي: أوجبَ وفرض على نفسِهِ -سبحانه- الرحمة، وروى أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قَضَى اللهُ الخَلْقَ كتبَ في كتابِهِ، فهو عنْدَهُ فوق العرشِ: إنَّ رحمتي غَلَبَتْ غضبي» [البخاري: ٣١٩٤. ومسلم: ٢٧٥١]. وعن أبي هريرة أيضاً، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ: «جَعَلَ اللهُ الرحمةَ مائةَ جزءٍ، فأمْسَكَ عنده تسعةً وتسعين جزءاً، وأنزَلَ في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء يتراحمُ الخلقُ، حتى ترفعَ الفَرَسُ حافرَها عن ولدها، خشيةَ أن تُصيبَهُ» [البخاري: ٦٠٠٠. ومسلم: ٢٧٥٢].

٣- سيجمعُ اللهُ -تعالى- عبادَه في يوم القيامة:

أقْسَمَ ربُّ العزة -تبارك وتعالى- بنفسه الكريمة أنه سيجمعُ عبادَهُ يوم القيامة، لا يتخلَّفُ منهم أحَدٌ، ولا يُفْلتُ منهم أحد ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنعام:١٢] وهذا اليومُ أمْرٌ مستيقنٌ لا ريبَ فيه، ولا شكَّ فيه، والمؤمنون يُصَدِّقون بذلك من غير شكٍّ، ولذلك فإن ربَّ العزة قال: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ﴾ [الأنعام:١٢] أما الذين يخسرون أنفسهم في ذلك اليوم بإدخال الله لهم النارَ فهؤلاء لا يؤمنون ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأنعام:١٢]، وهذا الخسرانُ هو الخسرانُ الأعظم.

٤- اللهُ -تعالى- له ما سَكَنَ في الليل والنهار:

أخبرنا ربُّنا -سبحانَه وتعالى- أنَّ ﴿۞ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ﴾ [الأنعام:١٣]، أي: ما استقرَّ في الليل والنهار، وأصْلُ السكونِ: ثبوتُ الشيء بعد تحرُّكِهِ.

وختم سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾ [الأنعام:١٣] فاللهُ -تبارك وتعالى- سميعٌ لأقوالِ عبادِهِ، لا يخفى عليه منها خافيةٌ، وعليم بأعمالهم وحركاتهم وما انطوت عليه قلوبهم.

٥- اللهُ -تعالى- وحدَهُ المعبودُ الذي يستحقُّ العبادة:

أمَرَ ربُّ العزة -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ أنْ يوجِّهَ للمشركين سؤال إنكار، فيقولُ لهم: أغيرَ الله أتَّخِذُ إلهاً ومعبوداً، وهو فاطرُ السماوات والأرض، أيْ: خالقُها وفاطرُهُما على

جنـــــة السـنـــــنة

غير مثالٍ سابق، وهو سبحانه الذي يُطعِمُ ولا يُطْعَمُ، ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام:١٤].

والمرادُ بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي: هو الذي يرزقُ عبادَه، ولا يحتاجُ إلى من يرزُقُهُ ويطعمُهُ، وهذه الآية كقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨]، وقوله: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج:٣٧]. وقد كان رسولنا ﷺ يثني على ربه تعالى بأنه يُطعِمُ ولا يُطعَمُ، فعن أبي هريرة قال: دعا رجلٌ من الأنصار من أهل قُباء النبي ﷺ قال: فانطلقنا معه، فلما طَعِمَ النبي ﷺ وغَسَل يديه قال: «الحمدُ لله الذي يُطعِمُ ولا يُطعَمُ، ومنَّ علينا فهدانا، وأطعَمَنا وسَقانا، وكُلَّ بلاءٍ حَسنٍ أبلانا، الحمدُ لله غير مُوَدَّعٍ ربي ولا مكافأً ولا مكفورٍ ولا مُستغنىً عنه، الحمدُ لله الذي أطعَمَنا من الطعام، وسقانا من الشراب، وكسانا من العُرْيِ، وهدانا من الضلال، وبصَّرنا من العمى، وفضَّلنا على كثير ممن خَلَق تفضيلاً، الحمدُ لله ربِّ العالمين» [قال فيه محقق ابن كثير: صحيح (١٠١٣)، أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (ص٣١٥)، وابن أبي الدنيا في الشكر (ص١٥)، وابن السني (ص٤٨٥)، وصححه ابن حبان (٥٢١٩)، والحاكم: ١/ ٥٤٦ على شرط مسلم، ووافقه الذهبي].

والمعنى المرادُ بـ ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أنه سبحانُه خالقها ومبْدِعُها، روى ابن جرير عن مجاهد، قال: سمعت ابنَ عباس يقولُ: «كنت ما أدري ما فاطرُ السموات والأرض، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئرٍ، فقال أحدهما لصاحبِهِ: أنا فطرتها، يقول: أنا ابتدأتها» [جامع البيان: ٤/ ٤١٤٣].

٦- الموقفُ الذي يجبُ على رسولنا ﷺ أنْ يقفه من ربِّه:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولنا ﷺ أنْ يقولَ للناس: أمَرني ربِّي أنْ أكونَ أول من أسلَم لله ربِّ العالمين، ونهاه عن أن يكونَ من المشركين ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٤﴾ [الأنعام:١٤].

وأمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ أنْ يقولَ للناس: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥﴾ [الأنعام:١٥] فرسولُنا ﷺ عَبْدٌ مربوبٌ يخافُ اللهَ، ويخشى إن عصاه أن يوقعَ به عذابَهُ في يومٍ عظيم، هو يومُ الدين.

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه من يُصْرَفُ عنه العذابُ في ذلك اليوم، فقد رَحِمَهُ -سبحانه- وفازَ فوزاً عظيماً ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ١٦﴾ [الأنعام:١٦].

وقد أخبر اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أنه إن يمسسه بضُرّ فلا كاشفَ له إلا هو، وإن يمسسهُ بخيرٍ فهو على كل شيءٍ قدير: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧﴾ [الأنعام:١٧] قال مكيُّ بنُ أبي طالب: «المعنى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾ فلا يكشفُه إلا هو، والضرُّ هنا الشدَّةُ في العيش والضيق، ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ﴾، أي: برخاءٍ في عيشٍ وسعةٍ، فهو على ذلك وغيره قدير» [الهداية إلى بلوغ النهاية: ٣/ ١٩٧٦].

٧- اللهُ -تباركَ وتعالى- القاهرُ فوقَ عبادِهِ:

أخبرنا ربُّنا العليُّ الأعلى سبحانَهُ أنه القاهرُ فوق عبادِهِ وأنه الحكيمُ الخبير، ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١٨﴾ [الأنعام:١٨].

قال العلامةُ ابنُ كثير رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية الكريمة: «﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾، أي: هو الذي خضعتْ له الرقاب، وذَلَّتْ له الجبابرة، وعَنَتْ له الوجوه، وقهر كل شيء، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلالِهِ وكبريائِهِ وعَظَمته وعُلُوِّه وقُدْرَتِهِ الأشياء، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت حكمه وقهره. ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾، أي: في جميع ما يفعله، ﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾ بمواضع الأشياء ومحالِّها، فلا يُعطي إلا لمن يستحقُّ، ولا يمنعُ إلا من لا يستحقُّ» [ابن كثير: ٣/ ١١].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- اللهُ -تعالى- له ما في السموات والأرض، فكلُّ ما فيهما وما بينهما مخلوقٌ لله مملوك له، وكلُّ آلهة المشركين من الأصنام والأوثان والأشجار والأحجار مخلوقون لله، مملوكون له سبحانه.

٢- كتبَ اللهُ تعالى على نفسِهِ الرحمة، وأخبرنا سبحانُه أن رحمته تسْبِقُ غَضَبَهُ.

٣- يومَ القيامة كائن لا بد من وقوعِهِ، وسيجمع اللهُ فيه الأولينَ والآخرينَ، والذين يخسرون أنفسَهم في ذلك اليوم، ويهلكونها في النار هم الذين لا يؤمنون.

جنـــــة السـنة

٤- اللهُ -تبارك وتعالى- له ما سَكَنَ في الليل والنهار.

٥- الرسولُ ﷺ اتخذ الله تعالى إلهاً معبوداً، فإنه سبحانه فاطرُ السموات والأرض، وهو الذي يرزق العباد، ولا يحتاج إلى من يرزُقُه ويطعُمُه.

٦- رسولُنا ﷺ أول المسارعين إلى الإسلام من هذه الأمة، وهو بعيد عن الشرك والكفر.

٧- المسلم الحقُّ يخشى إن عَصَى ربَّهُ أنْ يحلَّ اللهُ بِهِ العذابَ العظيم.

٨- المؤمنُ الصالحُ هو الذي يصرِفُ اللهُ عنه عذابَهُ في يوم الدين، وهو بذلك يكونُ من الفائزين في ذلك اليوم.

٩- الله هو الذي يتصرف بعباده، فهو قادرٌ على ضُرِّهم ونفعهم.

١٠- اللهُ تعالى هو العظيمُ الجليل، القاهرُ فوقَ عبادِهِ، فهو الذي خضعتْ له الرقاب، وعَنَتْ له الوجوه، ودانتْ له الخلائق سبحانه.

١١- اللهُ -تعالى- له نَفْسٌ، لا تشبه نفوس المخلوقات، لقوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:١٢].

١٢- الله -تعالى- عالٍ على عبادِهِ لقوله تعالى: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨].

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الرابع من سورة الأنعام

شهادةُ الله تعالى لرسوله ﷺ أعظم شهادة

أولاً: تقديم

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ شهادته لرسوله ﷺ بأنه مرسل من ربه أعظمُ شهادةٍ، فلا أعظمَ وأكرمَ منها، وأعلمنا أنَّ القرآنَ حجةٌ على من بَلَغَه، وأخبرنا أن الآلهة التي تُعْبَدُ من دون الله آلهةٌ باطلةٌ، فلا يوجد دليلٌ يدلُّ على جواز عبادَتها. وأخبرنا أن أهل الكتاب يعلمون بما أنزل الله في كتبهم أن محمداً مرسلٌ من ربه، يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءَهم، ومن لم يؤمن به منهم فهو من الخاسرين، وأخبرنا أنه سيسأل المشركين عن شركهم يوم القيامة، فيحلفون كاذبين أنهم ما كانوا مشركين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام:١٩-٢٤].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- شهادةُ الله تعالى لرسوله ﷺ أعظم شهادة:

كذَّبت العربُ واليهودُ والنصارى بنبوَّةِ محمدٍ ﷺ، وطلبوا منه أن يأتي بمن يشهدُ له، فأمرَ الله -تعالى- رسولَه ﷺ أنْ يوجِّهُ السؤال إلى المشركين قائلاً لهم: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ﴾ [الأنعام:١٩].

وأمرَ اللهُ تعالى رسولَه أن يقولَ في الجواب: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ﴾ [الأنعام:١٩]. قال ابنُ جرير في تفسيره لهذه الآية: «قلْ يا محمدُ لهؤلاء المشركين الذين يكذبون ويجحدون نبوتك من قومِك: أيُّ شيء أعظمُ شهادةً وأكبرُ، ثم أَخبِرْهُم بأن أكبرَ الأشياء شهادةُ الله الذي لا

جنـــــة السـنـــــة

يجوزُ أن يقعَ في شهادته ما يجوزُ أن يقع في شهادة غيره من خلقِهِ من السهو والخطأ والغلط والكذب، ثم قلْ لهم: إن الذي هو أكبرُ الأشياء شهادةُ شهيدٍ بيني وبينكم» [جامع البيان: ٣١٤٦/٤].

وقد أخبرنا ربُّنا -عز وجل- في موضع آخر أن الله تعالى شَهِدَ لرسوله، وشَهِدَ له ملائكته، ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء:١٦٦].

فإنْ قيلِ: إن شهادةَ الله تعالى غيبٌ، فما فائدة شهادته لرسوله ﷺ، وهي غيب بالنسبة إلى البشر؟ والجوابُ: أنَّ اللهَ صدَّق رسولَه ﷺ في كتابِهِ، وصرَّح بصحة نبوته، وقال له: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد:٤٣].

دلَّ اللهُ تعالى على صدق رسولِهِ ﷺ بنصره وتأييده، ونصر أمته، والتمكين لها في الأرض، ومن قَصَدَ إهانة رسوله، فإن الله -تعالى- يهينه وينكِّل به.

٢- أنزل اللهُ تعالى القرآنَ ليقيم به الحجة على العباد:

أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أن يُخْبِرَ قومَه ومن دعاهم إلى الله تعالى أنه أُوحِيَ إليه القرآنُ لينذرَهم به، وينذر به من بَلَغَه من الناس في الحياة الدنيا في عصره وبعد عصره ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام:١٩]. فكلُّ من بلغه القرآنُ، وفَقِهَهُ فقد قامت الحجةُ عليه به.

وهذا يدلُّ على خطأ الذين يزعمون أن حُجَجَ القرآن غيرُ كافيةٍ في دعوةِ الناس إلى الله تعالى، ويذهبون إلى إيراد الأدلة العقلية بعيداً عن هدي القرآن الكريم.

٣- لا توجد آلهةٌ تستحقُّ العبادةَ مع ربِّ العزة:

أمرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أنْ يخاطبَ المشركينَ سائلاً إياهم ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام:١٩].

وهذا الذي أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أنْ يخاطبَ به المشركين، فيه توبيخٌ لهم، وأمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ، أن لا يشهَدَ معهم، فشهادتُهم باطلةٌ، وأمَرَهُ أن يقرِّر الحقّ بقوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ أيْ: هو معبودٌ واحدٌ، وغيره معبوداتٌ باطلة، وأمَرَهُ أن يتبرأ مما يشركون الله به من الأوثان والأصنام.

جنـــــة الســــــنة

٤- أهلُ الكتاب من اليهود والنصارى يعرفون رسولَنا ﷺ كما يعرفون أبناءَهم:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ اليهودَ والنصارى الذين آتاهم اللهُ الكتابَ، والمرادُ به التوراةُ والإنجيلُ يعرفون أنَّ محمداً ﷺ مرسلٌ من ربه كما يعرفون أبناءَهم ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُ﴾ [الأنعام:٢٠]. وإنما يعرفونه كما يعرفون أبناءَهم، لأن الله تعالى عرَّفهم به في التوراة والإنجيل، وأمَرَهُمْ بالإيمان به، واتباعه.

«وقد قال بعضُ من أسْلَم من أهل الكتاب، واللهُ لنحنُ أعرَفُ به من أبنائِنا، لأن صفته ونعتَهُ في الكتاب، وأما أبناؤنا فلسنا ندري ما أحدث النساءُ فيهم» [الهداية إلى بلوغ النهاية: ٣/ ١٩٨١].

وأخبرنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠﴾ [الأنعام:٢٠] والذين خسروا أنفُسَهُمْ اليهودُ والنصارى الذين يعلمون أنَّ محمداً رسولُ الله ﷺ، علِمُوهُ من كتبهم المنزلة من عند الله، ولكنهم كفروا به، فخسروا أنفسَهم في الدنيا والآخرة، فهم لا يؤمنون، والخسرانُ يكونُ بغضب الله عليهم، وإدخالِهم النار.

٥- أظلمُ الناس الذين افْتَرَوْا الكذب على الله تعالى:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه لا أحَدَ أظْلَمُ من الذي افترى على الله الكذبَ أو كَذَّبَ بآياتِ الله تعالى، والذين اختلقوا الكذب على الله تعالى كثيرون، منهم المشركون الذين قالوا: الملائكةُ بناتُ الله، واليهودُ الذين قالوا: عزير ابنُ الله، والنصارى الذين قالوا: المسيحُ ابنُ الله، أو هو اللهُ أو ثالثُ ثلاثةٍ تعالى الله عما يقولونه علوًّا كبيراً ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢١﴾ [الأنعام:٢١]. والذين كذَّبوا بآياته هم الذين كذَّبوا بحججه وأدلته التي أعطاها رُسُلَه الدالة على صحة نبوتهم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢١﴾ أي: لا يُفْلِحُ القائلونَ على الله الباطلَ، والجاحدونَ بنبوةِ أنبيائِه.

٦- سؤالُ الله تعالى المشركينَ عن شِرْكهم في يوم الدين:

أخبرنا ربُّنا تقدَّسَتْ أسماؤُه أنه سيحشُر الناسَ إليه جميعاً في يوم القيامة، ثم يقولُ للمشركين منهم: أينَ شركاؤُكم الذين كنتم تدعونهم في الدنيا ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ۝٢٢﴾ [الأنعام:٢٢]. والشركاءُ الذين اتخذوهم أنداداً هُمُ الأصنامُ والأوثانُ التي كانوا يعبدونها في الحياة الدنيا.

جنـــــة السـنــــة

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أن هؤلاء الضُلاَّل المشركين لم تكن فِتْنَتُهم في يوم الدين ولا مَعْذِرتهم إلا أن قالوا: والله ربِّنا ما كنا مشركين، ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام:٢٣]. وهؤلاء زعموا كاذبين أنهم كانوا في الحياة الدنيا غير مشركين، لأنهم رأوا أنه لا ينجو في الآخرة إلا الموحدون، العابدون لله ربِّ العالمين، وقد أخبرنا ربُّنا - تبارك وتعالى- أنهم كذبوا على أنفسهم، وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام:٢٤]. واللهُ تعالى يُظهِرُ كذبهم عندما يختمُ على أفواههم ويُشهِدُ عليهم أيديهم وأرجُلَهم بما كانوا يفعلونه.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- شهادةُ الله -تعالى- أعظمُ شهادةٍ، فالله تعالى لا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، فمن شهد الله له كما شهد لرسوله بالرسالة، فشهادتُهُ أعظمُ شهادةٍ.

٢- كلُّ من يفقه اللغة العربية، ويبلغُهُ القرآنُ، فإن الحجة تقومُ عليه.

٣- اللهُ تعالى إلهٌ واحد، وليسَ هناك من حجةٍ تدلُّ على صحة آلهة المشركين.

٤- أهلُ الكتابِ من اليهود والنصارى عندهم في كتبهم ما يدُلُّهم على أنَّ محمداً مرسلٌ من ربه، فهم يعرفونه كما يعرفون أبناءَهم.

٥- الذين يكفرون بمحمدٍ ﷺ في النار وغضب الجبار فهم خَسِروا أنفسهم، وهذا أعظمُ الخسران.

٦- أعظمُ الناس ظلماً هم الذين افتروا على الله الكذبَ أو الذين كذَّبوا بآيات الله تعالى، إنه لا يفلحُ الظالمون.

٧- يسألُ الله يوم القيامة المشركين عن الآلهة التي كانوا يعبدونَها، فيحلفون زاعمين أنهم لم يكونوا مشركين، وهم في ذلك كذبوا على أنفسهم، وغابت عنهم الآلهة التي كانوا يعبدونها.

٨- سمَّى اللهُ -تبارك وتعالى- نفسَه شيئاً في قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ﴾ [الأنعام:١٩] ولكنه تبارك وتعالى شيءٌ لا يشبهُهُ شيء من الأشياء، و﴿شَىْءٍ﴾ ليس اسماً من أسماءِ الله تعالى، فلا يقالُ فلان عبدُ الشيء، ولا يصحَّ أنْ ندعوَا الله، فنقول: يا شيءُ.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الخامس من سورة الأنعام
حالُ الكفار في الدنيا والآخرة

أولاً: تقديم

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن حال الكفار عندما كانوا يستمعونَ القرآنَ من فم الرسول ﷺ، فقد كانوا يستمعون إليه، وقلوبُهم مغشَّاة، عليها أكنَّةٌ، فلا يفقهون ما يتلى عليهم، وفي آذانهم وَقْرٌ، أي: ثِقَلٌ، وعندما يُشاهدونَ الآيات التي أيَّد اللهُ بها رسولَه ﷺ فلا تأثُّر فيهم، ولا يؤمنون بها، وهم في مجادلتهم للرسول ﷺ يحكمون على القرآن بأنه أساطيرُ الأولين.

وأخبرنا ربُّنا أن هؤلاء ينهونَ الناس عن اتباع القرآن ويبعدون أنفسَهم عنه، وبذلك يُهْلِكونَ أنفسَهُم، ولا يشعرون.

ووصف لنا ربُّنا حالَ الكفارِ عندما يقفون بين يدي الله في يوم الدين، فيُبكِّتُهمْ قائلاً لهم: ﴿هُوَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ فيقرون قرارَ المغلوبِ المقهور، فيقول لهم ربُّ العزة: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنعام:٢٥-٣٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- كان الكفار يستمعون تلاوةَ الرسولِ ﷺ القرآن ولا يفقهون ما يسمعون:

أخبرنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أن كفَّارَ قريشٍ كانوا يأتونَ الرسولَ ﷺ، فيستمعون تلاوتَه القرآن، وأخبر سبحانه أنه جعل على قلوبهم أكنَّة، فلا يفقهونَه، وجعل في آذانِهِمْ وقْراً،

جنـــــة الســـــنة

فلا يحسنون سماعه ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الأنعام:٢٥].

والأكِنَّة: جمع كِنان، كأسنَّة وسنان، والأكنّة: الأغْطِيَةُ، واللهُ أعلم بحقيقة هذه الأكنَّةِ، وينشأُ عن الأكنَّة التي على القلوب والوِقر الذي في الأسماع شدة بغضهم لرسول ﷺ وبُغْضِ ما جاء به، ومع البغض النفرةُ منه، والإعراض عنه، ويلزمُ من ذلك كلِّه عدمُ استطاعتِهم فقه ما تلاه عليهم.

وأخبرنا العليمُ الحكيمُ سبحانَهُ عن هؤلاء الكفار الذين على قلوبهم أكنةٌ وفي آذانهم وقر أنهم إن يروا كلَّ آيةٍ من الآيات المنزلة على عبده ورسوله ﷺ مهما كان فيها من الدلالات والحجج الواضحات، فإنهم لا يؤمنون بها، أي: لا يصدقون بها، ولا يقرُّون بدلالتها على ما دلَّتْ عليه ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ [الأنعام:٢٥]، ومن ذلك أن الله تعالى شقّ لهم القمر فلم يؤمنوا، وقالوا: هذا سحرٌ. وأخبرنا -تبارك وتعالى- أن هؤلاء الكفارَ الذين حُرِموا الفقهَ والإنصافَ يأتون يجادلون الرسولَ ﷺ واصفين الكتابَ الذي جاءَ به أنّه أساطيرُ الأولين ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام:٢٥].

قال الشوكاني: «أساطيرُ الأولين: ما سطَّرَهُ الأولونَ في الكتب من القصص والأحاديث، قال الجوهري: الأساطيرُ: الأباطيلُ والترهاتُ» [فتح القدير: ٢/ ١٥٣].

٢- حالُ كفار قريشٍ مع رسولنا ﷺ:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ كفار قريشٍ ينهون الناس عن مجالسة الرسول ﷺ، وينهونهم عن اتباع الحقِّ الذي جاءَ به، و﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ أي: يبتعدون عنه، ولا يجالسونَه، فجمعوا بين عدم انتفاعهم بما جاءهم به، ونهْيهم الناسَ عن الانتفاع به ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ [الأنعام:٢٦] وهم بذلك يُهْلِكون أنفسهم، لأنهم كفروا بالله تعالى، وصَدُّوا الناس عن سبيل الله تعالى وأسخطوا الله عليهم، وهم لا يشعرون بما أوْقَعُوا أنفسهم فيه ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنعام:٢٦].

٣- حالُ الكفارِ حين يوقَفون على النار في يوم القيامة:

صوّر الله -تبارك وتعالى- لنا حالَ الكفار عندما يقفون على النار في يوم القيامة، فيرونَها يحطِمُ بعضُها بعضاً، ويشاهدون نيرانها السوداء الشديدة، وما فيها من السلاسل

جنـــة السـنــة

والأغلال، أعلمنا بما يقولونه في تلك الأحوال الصعبة الشديدة؛ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام:٢٧] يقولُ هؤلاءِ الكفار عندما يُحْبَسون على شفير جهنَّم، فيرون أهوالَها: يا ليتنا نردُّ إلى الدنيا، فنعودُ عما اقترفناه من تكذيبِ بآيات الله، ونؤمنُ بربنا وبرسوله وبما جاءَ به. وقوله تعالى: ﴿إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟﴾ فعلان ماضيان، وقد أجرى الله تعالى كل ما هو كائنٌ بمنزلةِ ما كان، لأنه سيقع كما أخبر سبحانه.

وقد ردَّ اللهُ -تباركَ وتعالى- عليهم قائلاً: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام:٢٨] أخبرَ اللهُ -تعالى- في ردِّه على الكافرين الذين تمنَّوا الرجعةَ إلى الدنيا ليؤمنوا ولا يكذِّبوا أنه ليس في طبائع هؤلاء وسجاياهم الإيمانُ، بل سجيتهم الكفرُ والشركُ والتكذيبُ، وأنهم لو رُدُّوا إلى الدنيا لعادوا إلى ما كانوا فيه من الضلال والتكذيب، أخبر أنهم كاذبونَ في دعواهُم أنهم لو رُدُّوا لأنابوا وآمنوا.

وهؤلاء الكفارُ كانوا يعلمونَ أنهم كانوا في الدنيا على باطل، وأن الرسل صَدَقُوهم فيما بلَّغُوه عن الله، فتيقنوه وتحققوه، ولكنهم أخْفَوْه، ولم يُظْهِروهُ بينهم، بل تواصوْا بكتمانه، فلم يكن الحاملُ لهم على تمني الرجوع والإيمانِ معرفةَ ما لم يكن يعرفونَه من صدق الرسل، فإنهم كانوا يعلمون ذلك ويخفونه، وظهرَ لهم يومَ القيامة ما كانوا ينطوون عليه من علمهم أنهم على باطلٍ، وأنَّ الرسلَ على حقٍّ، فعاينوا ذلك عياناً بعد أنْ كانوا يكتمونه، ويُخْفونَه، ولو ردُّوا لعادوا إلى كفرهم، وتمنوا العودة لا لعلمهم أنه الحق، بل لأنهم عاينوا العذابَ الذي لا طاقةَ لهم باحتمالِهِ [بدائع التفسير: ٢/ ١٤٦].

٤- إنكارُ الكفار أنَّ الله تعالى يحيي الناسَ بعد موتهم:

أخبرَ العليمُ الحكيمُ سبحانَهُ أنَّ الكفارَ يُكذِّبون ربَّ العزة فيما أخبرَ به أنه يحيي الناسَ بعد أن يميتَهمْ ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام:٢٩].

فالدنيا عندهم نهايةُ المطاف، وليس بعد هذه الحياة حياةٌ، ولا جنةٌ ولا نارٌ، ولذلك تراهم يعُبُّونَ من الدنيا عبَّاً غير آبهين بعذابٍ ولا عقاب.

وقد أخبرنا العزيزُ العليم بحال هؤلاء عندما يقفون بين يديه في يوم القيامة، وقد بعثوا إلى الدار التي كذَّبوا بها، وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه يُبكِّتُ هؤلاء، ويقولُ لهم: أليس هذا بالحق، فيجيبون صاغرين حالِفينَ قائلين: بلى، وربِّنا، فيقولُ لهم: فذوقوا العذابَ بما كنتم تكفرون ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنعام:٣٠].

جنـــــة السـنـــــة

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- جَعَلَ اللهُ -سبحانه- أكنَّةً على قلوب الكفار تمنعهم من فقه القرآن، وجعلَ في آذانهم ثِقَلاً وصمماً، فلا يسمعونَه على الوجه الحقِّ.

٢- الكفارُ لا يستفيدون من الآيات التي أنزلها اللهُ على رسله، ولا يؤمنون بها.

٣- ادَّعى الكفارُ كاذبين أن القرآن أساطيرُ الأولين، وهذا يدلّ على مدى جهْلِهِمْ.

٤- الكفارُ ينهونَ الناسَ عن الإيمان، في الوقت الذي يكفرون به، وهم بذلك يُهْلِكونَ أنفسهم في الدنيا والآخرة.

٥- يتمنَّى الكفارُ المكذبونَ بيوم الدين عندما يقفون على شفير جهنم العودة إلى الحياة ليؤمنوا.

٦- كان الكفارُ يعلمون أنّ الرسولَ حقٌّ، وما جاء به حق، ولكنهم يكتمونَه فيما بينهم، وفي يوم القيامة يظهر هذا الذي يكتمونَهُ، ويتمنّوا العودة إلى الدنيا ليؤمنوا.

٧- الكفارُ يكذبون الله تعالى فيما أخبر به من البعث بعد الموت، وسيُقِرُّونَ في يوم القيامة فيما كذَّبوا به من قبل، ويذوقوا العذابَ بسبب كفرهم.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني السادس من سورة الأنعام

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾

أولاً: تقديم

حدَّثَنا اللهُ تعالى في آيات هذا النص عن الذين خسِروا أنفسَهُمْ في النار يوم القيامة، وهم المكذبون بالآخرة، وأخبرنا عن حالِهِمْ وحسْرَتهم في ذلك اليوم، وأنهم يحملون فيه آثامَهم على ظهورهم، وقلَّلَ اللهُ تعالى من شأن الدنيا التي غرَّت الذين كذبوا بالآخرة.

وبصَّر اللهُ تعالى رسولَهُ بالموقف الذي يجبُ أن يقِفَهُ من المكذبين، فنهاه عن الحزن عليهم، فإنهم يعلمون أنه رسولَ الله حقّاً، ولكنهم يجحدونَ، وأمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ أن يصبرَ على مشقَّاتِ الطريق، ويتحمل اللأواء، كما فعل الرسلُ من قبله، فالنصرُ آتٍ آتٍ، ولا مبدِّل لكلمات الله.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام:٣١-٣٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- خسرانُ الذين كذَّبوا بلقاء الله تعالى:

أخبرنا العليم الخبير -سبحانه- أن الذين كذَّبوا بلقاء الله خاسرون، والمرادُ بلقاء الله اليوم الذي يلقوْنَ فيه ربَّهم، وهو يوم القيامة، الذي يقومُ فيه الناس لربِّ العالمين ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:٣١].

جنـــــة الســـــنة

وأخبر ربُّنا سبحانه أنَّ هؤلاء المكذبين بالبعث والنشور عندما تأتيهم الساعةُ بغتةً أي: فجأةً، يقولون: يا حسْرَتنا على ما فرَّطنا فيها ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ [الأنعام:٣١]. والساعةُ: القيامةُ، سُمِّيتْ بهذا الاسم لسرعة الحسابِ فيها، وبغتةً: فجأةً، وقوله: ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ أوْقعُوا النداء على الحسرة، وليست بمنادى في الحقيقة، ليدلَّ ذلك على كثرة تحسُّرهم، والعربُ إذا اجتهدتْ في المبالغة في الإخبار عن عظيم ما تقعُ فيه، جعلته نداءً، فتدخل عليه (يا) للتنبيه [زاد المسير: ٣/ ٢٥]، وهذا كقولهم: يا للعجب، ويا للرجل.

وقولهم: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ أي: على تفريطنا في الساعة، أي: في عدم الاعتدادِ لها، والاحتفالِ بشأنها، والتصديق بها، فقد ضيَّعوا في الدنيا عمل الآخرة.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٣١﴾ [الأنعام:٣١] أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أن أولئك الخاسرين المتحسرين يقولون ما قالوه، وهم يحملون أوْزارَهم، أي: آثامهم، وأصلُ الوزر: الحملُ على الظهر، فإذا حملوا أوْزارَهُم على ظهورِهِمْ، فضحهم اللهُ تعالى في يوم الدين على رؤوسِ الأشهادِ وأخزاهم.

٢- الحياة الدنيا لعبٌ ولهو:

ضربَ اللهُ -تعالى- لنا مَثَلَ الحياةِ الدنيا في سرعة انقضائها، وقِصَرِ عمرِها بالشيء الذي يُلعَبُ به، ويُلْهي، فإنه سريعاً ما يذهبُ ويزولُ، والدارُ الآخرة، وهي يوم القيامة، خيرٌ للذين يتَّقون الله عز وجل، أي: يتقونَ الله بابتعادهم عن الشرك والذنوب والمعاصي ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٣٢﴾ [الأنعام:٣٢]، وقوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٣٢﴾ أي: أفلا تعقلون أن الآخرة خير من الدنيا.

٣- اللهُ يعلمُ ما يحزنُ رسولَه:

أخبر اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ مواسياً له أنه يعلم أنه يحزنه ما يقولُه قومُه له، وأعلمه أنهم لا يكذِّبونه، ولكنَّ الظالمين بآيات الله يجحدون ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣﴾ [الأنعام:٣٣] فالكفار يصدِّقونَ الرسولَ ﷺ في قرارة أنفسهم، ويعلمون أنه مرسلٌ من عند ربه، وإن كانوا يُعْلِنون أنه كاذبٌ، كما قال موسى ﵇ لفرعونَ وآله: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾

جنـــــة السـنـــــة

[الإسراء:١٠٢] وقال تعالى في فرعون وآله: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل:١٤] وكذلك قريش كانت تعلم أنَّ محمداً ﷺ صادقٌ، ولم يُجرِّبوا عليه كذباً قط، ولكنهم يكفرون مكابرين جاحدين، وقد لقي أبو جهل الرسولَ ﷺ ، فقال له: إنا لا نكذِّبك، ولكن نُكذِّبُ الذي جئت به، فنزلتْ هذه الآية [قال محقق زاد المسير ما خلاصَتُه: رواه الطبري عن ناجية مرسلاً، ورواه الترمذي أيضاً مرسلاً، ورواه الحاكم بإسنادٍ موصولٍ غير إسناد الترمذي وصححه على شرط الشيخين، وكونه على شرطهما غير صحيح، فإنهما لم يخرجا لناجيةَ بن كعبٍ، وهو وإن لم يكن على شرط الشيخين فإنه صحيح، لأنَّ ناجية تابعيٌّ ثقةٌ، كما قال الشيخ أحمد شاكر].

٤- واسى اللهُ تعالى رسولَه ﷺ بإخبارِهِ بتكذيبِ الأمم لرسلهم فصبروا:

أخبر العزيز العليم -سبحانه- رسولَه مواسياً له أن الرسلَ الذين أرسلَهم اللهُ تعالى من قبله كُذِّبوا كما كُذِّبَ هو، فصبروا على ما كُذِّبوا به، وأوذوا فيه، حتى جاءَهم نصرُ الله تعالى، فعليه أن يصبر كصبرهم فيما كُذِّبَ وأُذي فيه حتى ينزلَ اللهُ عليه نصره ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾ [الأنعام:٣٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام:٣٤] وكلماتُ الله تعالى لا يمكنُ تبديلها وهي الكلماتُ التي حكم فيها بنصرِهِ لرسله، ومنها قولُه تعالى: ﴿ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾ [المجادلة:٢١] فلا أحد يستطيع أن يغيِّر كلماتِ الله أو يبطلها، فإنها قانونٌ نافذٌ. وقوله: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنعام:٣٤]. فقد قَصَّ اللهُ -تعالى- على رسولِهِ ﷺ في كتابِهِ قصص المرسلين وأخبارهم، كيف أرسلوا، فكذَّبَهُمْ أقوامُهُم، وآذوهم، وكيف نصرهُمْ الله، وأذلَّ الكافرين بهم، ومن هؤلاء الرسل نوحٌ وهودٌ وصالحٌ وإبراهيمُ وموسى وغيرهم عليهم الصلاةُ والسلام.

٥- عاتَبَ اللهُ رسولَه ﷺ عندما كَبُرَ عليه إعراض قومهُ عنه:

محمدٌ ﷺ عَبْدٌ رسولٌ، وكان يَشُقُّ عليه إعراضُ قومِهِ عنه، وكُفْرهم برسالته، وقد خاطبَ اللهُ رسولَه ﷺ قائلاً له: ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾ [الأنعام:٣٥]. يقولُ لرسولِه: إن كان كَبُرَ عليك إعراضُهم عنك وكُفْرِهم بك، ومناوأتهم إيَّاكَ، فإن كنتَ تستطيعُ أن تبتغي نفقاً في الأرض، أو سُلَّماً في السماء، فتأتيهم بآيةٍ تشدُّهم إلى الإيمان، وتدخلهم فيه، فافعل.

والنفَقُ: الطريقُ النافذُ في الأرض، وهو السَّرب، والسُّلّم: الدرجُ الذي يرتقي به إلى السماء، مشتقٌّ من السلامة، وهو المِرْقاةُ.

والرسولُ ﷺ لا يملِكُ نفقاً في الأرض، ولا سُلَّماً يرقاه إلى السماء، ليأتي بآيةٍ، ولذلك فعليه أن لا يكبُر عليه إعراضُهُمْ.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنعام:٣٥] أي: لو شاء الله -سبحانه- أن يجمع عبادَه على الهدى لفعل، ولكنه لم يشأْ، وله في ذلك الحكمةُ البالغة سبحانه وتعالى، ونهى الله رسولَه ﷺ أن يكون من الجاهلين، أي: لا تَجْهَل أنَّ الله سبحانه لو شاءَ لجمعهم على الهدى.

وأعْلَم اللهُ رسولَه ﷺ أنَّ الذي يستجيبُ للرسول ﷺ الذين يسْتَمعونَ، أي يستمعونَ سماعَ قبولٍ، وهم المؤمنون، أما الكفار وقد سمَّاهم ربُّ العزة بالموتى، فيبعثهم اللهُ تعالى كما يبعث المؤمنين، ومرجعُ الجميع إلى الله تعالى، فيحاسبهم ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام:٣٦].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الذين كذبوا بالبعث والنشور خاسرون، ويظهرُ خسرانهم عندما تقوم الساعة، فتأخذُهم الحسرة على ما فرطوا فيها حال كونهم يحملون أوزارهم على ظهورهم.

٢- الحياةُ الدنيا لعبٌ ولهو، وهي إلى انقطاعٍ وزوالٍ، والدار الآخرة خيرٌ للذين يتقون ربَّهم، فهي الدارُ الباقية الدائمة.

٣- واسى اللهُ تعالى رسوله ﷺ في حزنه على تكذيب الكفار له، وأخبر اللهُ رسولَه ﷺ أن الكفار يعلمونَ أنه صادقٌ، ولكنهم يجحدون نبوتَه عالمين بصدقه.

٤- أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ بالصبر على مشقات الطريق كما صبر الرسل من قبله، ووعده الله تعالى أن يُحِلَّ به نصرَه، كما نصر الرسل من قبله.

٥- قاعدةُ نصر الرسل بعد تكذيبهم قاعدةٌ ثابتة، وهي سُنَّةٌ إلهيةٌ، لا تقبلُ التغيير والتبديل، وقصص الرسل في القرآن تدلُّ على صحة هذه القاعدة العظيمة.

جنـــــة الســـــنة

٦- تكذيبُ مكذبي الرسل أمْرٌ قدَّرَهُ اللهُ تعالى وقضاه، وعلى الرسل والدعاة أن يصبروا لأمر الله تعالى.

٧- الذين يستجيبون لله ورسوله ﷺ هم الذين وفَّقَهُم لاستماع القرآنِ أما الموتى الذين ماتت قلوبهم وعميتْ، اللهُ يبعثهم يوم القيامة.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني السابع من سورة الأنعام
اللهُ قادرٌ على أنْ ينزل الآيات على عباده

أولاً: تقديم

أخبرنا ربنا -عز وجل- أن المشركين طلبوا آيةً تدلُّ على صدقِ الرسول ﷺ، وأعلمنا أنه قادرٌ على أن يُنْزِلَ آيةً باهرةً، ولكنه لا يفعل لحكمةٍ يعلمها، ووجَّه أنظار الكفرة إلى ما في الأرض من الدواب والطيور، فإنها أُمَمٌ أمثالنا، وذمَّ اللهُ -عز وجل- المكذبين بآياته، فهم صُمٌّ بُكْمٌ أحاطت بهم الظلماتُ، فهم لا يهتدون، وأعلمنا أنَّ المشركين كانوا عندما تحلُّ بهم الأهوالُ، يلجؤون إلى الله وحْدَهُ، ويضلُّ عنهم ما كانوا به يشركون.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأنعام:٣٧-٤١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- المشركون يطلْبون أن يُنزّلَ اللهُ على رسولِهِ آيةً تدلُّ على صِدْقه:

أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أن المشركين يطلبون أن يُنزِّل الله تعالى آيةً تدل على صِدْقِ رسولِهِ ﷺ وصِدْقِ ما جاء به ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ ﴾ [الأنعام:٣٧].

والذين قالوا هذا القول هُمُ المشركون، وقوله: ﴿ لَوْلَا ﴾ بمعنى: هلاَّ، والآيةُ التي يطلبون إنزالها: المُعجزُ الخارقُ الذي يُلْجِئُهم إلى الإيمانِ، وقد أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى بأنه قادرٌ على أن يُنزِّل آيةً ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً ﴾ [الأنعام:٣٧]. وهذا كقوله تعالى: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشعراء:٤] أي: إن نشأ ننزِّلْ عليهم من السماء آيةً عظيمةً، تَبْهرُ أبصارَهم، فتظلُّ أعناقهم ملويَّةً، تنظرُ إلى تلك الآية العظيمة.

جنـــــة الســـــنة

وقولُه سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنعام:٣٧]، أي: لا يعلمون أن الله قادرٌ على إنزالها، ولا يعلمون ما يترتب على إنزالها من البلاء وقد بيَّن اللهُ تعالى المانعَ له من إنزالها، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء:٥٩]

٢- دوابُّ الأرضِ والطيورُ أُمَمٌ أمثالنا:

طَلَبَ الكفار آيةً عظيمةً ينزلُها اللهُ على رسولِه ﷺ، فأخبرنا ربُّنا عما بثَّه في الأرضِ مِنَ الدوابِّ والطيورِ، فكُلُّها أُمَمٌ أمثالُنا ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨].

والدابةُ: ما يَدِبُّ على الأرضِ، أي: يمشي عليها، وذَكَرَ اللهُ أنَّ الطائر يطيرُ بجناحيه للتأكيد، كما تقولُ نظرتُ بعينيَّ، وسمعتُ بأُذُنَيَّ، وضربتُ بيديَّ، ونحو ذلك، وقوله: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ أي: أمثالُنا في الخَلْقِ والرزْقِ والأكلِ والتخاطبِ، ونحو ذلك، ومن تأمَّلَ في عالمِ الحيوانِ والطيورِ رأى في خَلْقِها كثيراً مِنَ الآياتِ الباهرة، وقال ربُّ العزةِ في الدوابِّ ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود:٦] وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [العنكبوت:٦٠].

وقولُه تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام:٣٨] أي: ما غَفَلْنا عنهُ، ولا ضيَّعْنا فيه من شيءٍ، والمرادُ بالكتابِ القرآنُ، فإن الله تعالى ما تَرَكَ من شيءٍ يحتاجُ الناسُ إلى ذكره إلا ذَكَرَهُ اللهُ تعالى فيه، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، وقال بعضُ المفسرين: المرادُ بالكتابِ اللوحُ المحفوظُ.

٣- الدوابُّ والطيورُ تُحشَرُ إلى ربِّها يومَ القيامة:

قال تعالى في خاتمة الآية: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام:٣٨]. وحَشْرُ الدوابِّ والطيورِ يكونُ بموتها في الدنيا، ثم بعثها في يوم الدين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾﴾ [التكوير:٥].

وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ أنه في يوم القيامة: «يقادُ للشاةِ الجَلْحاءِ مِنَ الشاةِ القَرْناءِ» [رواه مسلم: ٢٥٨٢ من حديث أبي هريرة]. والجَلْحاء: التي لا قرون لها، والقَرْناء: ذاتُ القرونِ.

جنـــــة السـنة

٤- **الذين كذَّبوا بآيات الله صمٌّ وبُكْمٌ في الظلمات:**

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الذين كذَّبوا بآيات الله، وهي آياتُ القرآن صُمٌّ وبُكْمٌ في الظلمات ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ [الأنعام:٣٩] وإنما كان هؤلاء صُمٌّ، أي: لا يسمعون، وبُكْمٌ، أي: لا يتكلمون، لأنهم فَقَدوا نورَ القرآنِ وهدايَته، فالمؤمنون يُبْصِرونَ في ضوءِ القرآنِ طريقَهم الحقَّ، ويعرفون ربَّهم كما يعرفونَ رسولَهُم، ويعلمونَ الحلالَ والحرامَ، ويعلمونَ كيف يعبدُون الله تعالى، أما الذين كَذَّبوا بالقرآنِ، فإنَّهم يعيشون في الظلماتِ، ظلماتِ الجهلِ والكفرِ والشركِ، والذي تُظْلِمُ عليه الدنيا، بسبب غيبةِ الشمس، ولعدمِ وجودِ نورٍ يضيءُ له المكانَ، فإنَّه لا ينتفِعُ بناظرَيْهِ، والذي يغيبُ عنه نورُ القرآنِ لا ينتفعُ بعقله حقَّ الانتفاع.

وأخبرَ ربُّنا عن نفاذ مشيئته في عبادِه، فإنها نافذة لا تتخلَّفُ، فمن شاءَ اللهُ أن يضلَّه ضَلَّ، ومن شاءَ هدايتَهُ استقامَ على أمرِ الله وطاعَتِهِ ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنعام:٣٩].

٥- **كان المشركون عندما تحلُّ بهم المصائبُ العظامُ يخلصون الدعاءَ لربِّهم:**

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يوجِّهَ سؤالاً للمشركين قائلاً لهم: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام:٤٠-٤١].

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ للمشركينَ: أرأيتم إنْ نَزَلَ بكم عذابُ الله، أو نزلتْ بكم الساعةُ، أتدْعُونَ غيرَ الله إن كنتم صادقين؟

وقد قرَّرَ ربُّ العزة في الآيةِ التاليةِ أنَّهم في هاتين الحالتين يدْعُونه وَحْدَه، وينسونَ الآلهةَ التي كانوا يعبدونها مِنْ دونه.

وقد أخبرنا ربنا -عز وجل- في غير هذا الموضع كيفَ يُخْلِصُ المشركون دينَهم لله، ويدعونه وَحْدَه، عندما يكونون في السفن، فتأتيها الريحُ العاصفُ، ويأتيهم الموجُ من كلِّ مكانٍ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس:٢٢] وقالَ سبحانه في آيةٍ أخرى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ﴾ [الإسراء:٦٧].

جنـــــة السـنـــــة

وأخبرنا ربُّنا سبحانه وتعالى في آيات هذا النص أنه إذا دَعَوْهُ على النحو الذي حدَّثنا به سبحانه، فإنه قادرٌ على أن يكشفَ العذابَ الذي أحاطَ بهم، وإنْ شاءَ لم يُجِبْ دعوتَهُمْ، وترَكَ العذابَ يحلُّ بهم، وأخبرنا أنَّه في حال نزولِ العذاب العظيم بهم يَنْسَونَ الآلهةَ التي كانوا يعبدونها ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- كان المشركونُ يطالِبُونَ بأن ينزلَ اللهُ لهم آيةً تدلُّ على صدقِ الرسولِ ﷺ، فكان اللهُ يستجيبُ لطلبهم في بعضِ الأحيانِ، ومِنْ ذلك شقُّ الله القمرَ لهم، وأحياناً لا يستجيبُ.

٢- الدوابُّ والطيورُ أُمَمٌ أمثالنا في الخلقِ والرزقِ والتخاطبِ، وفيها آياتٌ عظيمةٌ لمن أحسنَ النظرَ والتدبُّرَ.

٣- الدوابُّ والطيورُ تُحْشَرُ إلى يوم القيامةِ، ثم يقتصُّ لبعضِها من بعضٍ، ثم تصيرُ تراباً.

٤- الذين كذَّبُوا بآيات الله، لا يفقهونَ الحقَّ، ولا يعقلونَهُ.

٥- مشيئةُ الله نافذةٌ في عبادِه، فمن شاءَ أضلَّهُ، ومن شاء هَداه.

٦- إذا أحاطَتِ الأهوالُ العظامُ بالمشركين دَعَوا الله وَحْدَه، وتركوا دعاءَ آلهتهم وأصْنامِهِمْ.

٧- إذا دَعا المشركونَ ربَّهم حينَ تحلُّ بهم الأهوال فإنَّه إنْ شاءَ كَشَفَ عنهم ما أحاطَ بهم، وإن شاءَ دمَّرهم.

جنـــة الســـــنة

النص القرآني الثامن من سورة الأنعام
سنَّةُ الله تعالى في أخْذِهِ الكفرة بالبأساءِ والضراءِ لعلهم يتضرَّعون

أولاً: تقديم

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- كيفَ أخَذَ الأُمَم التي أرسَلَ إليها رُسُلَهُ بالبأساءِ والضراءِ، لعلهم يؤوبونَ إلى الله، ويرجِعونَ إليه، فإذا استمرُّوا على ضلالهم فتحَ الله عليهم الدنيا، حتى إذا فَرِحُوا بها آتاهم أخذهم العذاب بغتةً، فإذا هُمْ يائِسون من رحمة الله. وقد أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يُوجِّه للمشركينَ من الأسئلةِ ما يُظْهِرُ قدرةَ الله عليهم، وقدرتَهُ على إيقاعِ العذابِ بهم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنعام:٤٢-٤٩].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آياتِ هذا النص من القرآن

١- سنَّةُ الله في الأُمَمِ المُكذِّبَةِ لرُسُلِها:

حدَّثنا اللهُ -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ عن سُنَّتِهِ التي أخذَ اللهُ بها الذين كَذَّبوا رُسُلَه من الأُممِ السابقة، فإنَّ تلكَ الأُمم كان يأخذها بالبأساءِ الضراءِ إذا هم كَذَّبوا، ليَؤوبُوا إلى الله، ويتَضرَّعوا لَهُ، فإنْ لم يفعلوا فتحَ اللهُ عليهم أبوابَ المسرَّاتِ والخيرات، ثم أهْلَكَهُمْ. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنعام:٤٢].

جنـــــة السـنـــــــة

يقولُ اللهُ لرسولِهِ ﷺ: ولقدْ أرسَلْنا إلى الأُمَمِ التي خَلَتْ مِنْ قبلكم رُسُلاً، فكَذَّبوا رُسُلَنا، فأخذناهم بالبأساءِ والضرَّاءِ لعلهم يتضرَّعون، والبأساءُ: الفقرُ والضيقُ في العيش، والضَّراءُ: الأمراضُ، والأسقامُ والآلامُ.

وقولُه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: لعلَّهم يَدْعون اللهَ متضرعينَ، أي: خاشعينَ، ومعنى (لعل) تَرَجٍّ، وهذا الترجِّي للعبادِ، أخذهم اللهُ بذلكَ ليكونَ ما يَرْجُوهُ العبادُ مِنه التَّضَرُّعُ.

وقالَ تعالى مخبراً عما كان مِنَ المكذبين للرُّسُلِ من إعراضٍ، وتَرْكِهِمُ التضرعَ: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام:٤٣].

ومعنى (لولا) هنا: هَلاَّ، أي: فهلاّ إذا ابتليناهم بالبأساء والضراءِ تضرَّعوا لربِّهم، ولكنهم لم يفعلوا، وقَسَتْ قلوبُهُم، أي: صَلُبت، واشتدَّت على باطلهم وكفرِهِمْ وتكذيبهم، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: حَسَّن لهم الشيطانُ ما هم عليه من كفرٍ وشِرْكٍ وذنوبٍ ومعاصٍ.

وبعد أنِ ابتلاهُمُ اللهُ بالشدائِدِ، فلم يُنيبوا، ولم يُخْبِتُوا، ولم يتضرَّعوا، ابتلاهُمْ اللهُ تعالى بالسرّاءِ والنعم ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام:٤٤-٤٥].

أَخْبَرَنا العزيزُ العليمُ سبحانَه أنَّ المكذبين بالرسلِ بعد قساوةِ قلوبِهِم، واشتدادِ كُفْرِهم، وعَدَم تضرُّعهم ونسيانِهم ما أُمِرُوا بِهِ، فتحَ اللهُ عليهم زهرةَ الدنيا، فجاءَتهم الأموالُ والأرزاقُ، وكثرتْ عندهم الخيراتُ، وبدَّل اللهُ بأْساءَهم رخاءً وسعةً في العيشِ وهذا استدراجٌ مِنَ اللهِ -تعالى- لهم، فلَمّا لم يَشْكُرُوا اللهَ تعالى في الرخاءِ، كما لم يَتَضَرَّعوا في البأساءِ، أخذَهُم اللهُ بَغْتَةً، أي: فجأةً على غفلةٍ منهم، فإذا هم ﴿مُّبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من كلِّ خيرٍ، وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأعراف:٩٤-٩٥].

قال الحسنُ: «مَكَرَ بالقومِ وربِّ الكعبة، أُعْطوا حاجَتَهُمْ، ثم أُخِذُوا» [رواه ابنُ أبي حاتم].
وقال قتادةُ: «بَغَتَ القومَ أمرُ اللهِ، وما أخذ اللهُ قوماً قط إلا عند سَكْرَتِهِمْ وغِرَّتهم ونعمتهم، فلا تَغْتَرّوا بالله، إنَّه لا يغترُّ بالله إلا القومُ الفاسقون» [رواه ابن أبي حاتم. أيضاً: ابن كثير: ٣/ ٢٠].

جنـــــة السـنـــــة

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ ومعنى ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ﴾ أي: اسْتُؤْصِلوا جميعاً، فلم يبقَ منهم أحدٌ، «وحَمِدَ ربُّنا -تعالى- نَفْسَهُ في ختامِ الآيةِ على أنْ قَطَعَ دابِرَهُمْ، واستأصَلَ شأفتَهم، لأنه جَلّ وعزّ أرْسَلَ إليهم الرُّسلَ، وأنظرهم بعدَ كفرهم، وأخذَهم بالبأساءِ والضراءِ، فبالغَ -جَلَّ وعزَّ- في إنذارهم وإمهالهم، فحمدَ نفسَه، لأنَّه محمودٌ في إمهالِهِ مَنْ كَفَر بِهِ وانتظارِه توبَتَهُ» [معاني القرآن للزجاج: ٢/ ٢٤٩].

٢- الاحتجاجُ على الكفرةِ المشركين:

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يَحْتَجَّ على المشركين فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنعام:٤٦].

أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أنْ يقولَ للمشركينَ محتجًّا عليهم مُهَدِّداً لهم: أرأيتم إن سَلَبَكُم اللهُ النِّعَمَ التي أعطاكُمْ إيَّاها، مِنَ السَّمْعِ والأبصارِ، وختمَ على قلوبكم، فلا ينفُذ الحقُّ إليها، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال:٢٤].

وقولُه تعالى: ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ﴾ أي: مَنْ الذي يردُّ عليكم ما أخَذَهُ اللهُ منكم مِنَ الأسماعِ والأبصارِ والأفهام، وهذا الذي ذكَرَهُ اللهُ تعالى حجّةٌ على المشركينِ بالله، فالآلهةُ التي يعبدونَها لا تملكُ لهم ضرّاً، ولا نفعاً، والذي يستحقُّ العبادَةَ النافعُ الضارُّ القابضُ الباسطُ القادرُ الذي لا يُعْجِزُه شيءٌ.

ثم قالَ اللهُ لرسولِهِ ﷺ في خاتمةِ الآيةِ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ انظرْ كيف نُتابع عليهم الحجَجَ، ونضربُ لهم الأمثالَ والعبرَ، ليَعْتَبِروا ويتذَكَّروا فيُنيبُوا، وقولُه: ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: يُعْرِضونَ ويَعْدِلُون عنِ الحقِّ.

٣- تهديدُ المشركينَ بإنزالِ عذابِ الله بهم:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ للمشركينَ مُهَدِّداً إياهم: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنعام:٤٧]، أي: قُلْ يا محمدُ لهؤلاء المشركين المكذِّبين: أرأيتم إنْ جاءَكم عذابُ الله وعقابُهُ على ما تشركون به مِنَ الأصنامِ والأوثانِ، ولا فرقَ بين أن يأتي هذا العذابُ ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأة، فيأخذهم على غِرَّةٍ، وهم لا يشعرونَ، أو يأتيهم ﴿جَهْرَةً﴾ أي: ظاهراً عياناً، وقوله: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ

جنـــــة السـنـــــة

﴿ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: لا يُهْلِكُ اللهُ بعَذابِهِ النازلِ إلاَّ القومَ الظالمين، وهم الذين كانوا يعبدونَ مع الله غيرَهُ.

٤- الغايةُ من إرسالِ الرُّسُل:

أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أنه لا يرسلُ المرسلينَ إلا مبشرين ومنذرين ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي: يُبَشِّرون عبادَ الله المؤمنين بالخيراتِ والنعيم في الجناتِ، ومنذرينَ الكفرةَ المشركين بالنقمِ والعقوبات، ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنعام:٤٨]. وأخبرنا تعالى أنَّ الذي آمنَ بالله، وما أوجب علينا ربُّنا الإيمانَ به، وأصْلَح قلْبَهُ ونفْسَهُ وعمَلَهُ، فلا خوفٌ عليهم فيما يستقبلونَه مِنْ أمرِ الآخرة، ولا يحزنون على ما تركوه مِنَ الأهلِ والذريَّةِ في الدنيا، أما الذين رَفَضوا البشارةَ وكفروا وكذَّبوا، فقال الله تعالى فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنعام:٤٩] أي: أنَّ الذينَ كذَّبوا آياتِ الله، وكذَّبوا الرُّسُلَ، ورفضوا حجَّة الله تعالى، فهؤلاءِ يحلُّ بهم العذابُ بسبب خروجِهم عن شرعِ الله ووحْيِهِ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- سنَّةُ الله في المكذبين أنْ يرسلَ إليهم الرسلَ، فيأْخذ المكذبين بهم بالبأساءِ والضراءِ، فإنْ لم يؤمنوا فتحَ اللهُ عليهم الدنيا، فإن لم يؤمنوا أوْقَع بهم العذابَ.

٢- لا تقومُ الحجَّةُ على العبادِ إلا بإرسالِ الله الرسلَ إليهم.

٣- التضرُّع إلى ربِّ العبادِ يرفَعُ الشدَّةَ والعذابَ عن العبادِ.

٤- فَتْحُ الدنيا على عَبْدٍ من عبادِ الله أو أُمَّةٍ مِنَ الأُمم قد يكونُ استدراجاً لهم، ليبيدَ اللهُ خضراءَهم، وليسَ محبةً فيهم.

٥- قد يعاقبُ اللهُ المكذبين في الدنيا بعدمِ انتفاعهم بأبْصارِهِمْ وأسماعِهِمْ وقلوبِهِمْ، ولا يستطيعُ أحدٌ غيرُه أنْ يعيدَ لهم ما أخذه منهم.

جنـــــة السـنــــة

٦- على الدُّعاةِ أنْ يقيموا الحجَّةَ على مَنْ يدعونَهُمْ، ويُبَصِّرونَهُمْ بقدرةِ اللهِ، وضَعْفِ آلهتهم، وعدمِ قدرتِها على شيءٍ.

٧- يجبُ على الدُّعاةِ والعلماءِ أن يُرَهِّبُوا المدعوينَ ويُخَوِّفونَهم غضبَ اللهِ وبأْسَهُ وانتقامَهُ.

٨- حُسْنُ خاتمةِ المؤمنين، وسوءُ خاتمةِ المكذبينَ.

جنـــــة الســـــنة

النصُّ القرآني التاسع من سورة الأنعام

محمدٌ ﷺ بَشَرٌ رسول ليس فيه شيءٌ من خصائصِ الألوهية أو الربوبية

أولاً: تقديم

أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يُعْلِنَ للناس، ويقولَ لهم: ليسَ عندي خزائنُ ربِّ العزة، ولا أعلمُ الغيب، ولا أقولُ لكم إنِّي مَلَكٌ، وهذا يعني أنَّه بَشَرٌ، فيه خصائصُ البشر، وليس فيه شيءٌ من خصائصِ الأُلوهية أو الربوبية، ولا من خصائص الملائكة، وكُلُّ الذي اختصَّه اللهُ به ما أوْحاهُ اللهُ تعالى إليه في كتابِهِ الكريم وسُنَّتِه المطَّهرةِ، ليعمل بهِ.

وأمره تعالى أن يُنْذِرَ بالقرآنِ الذين يخافون أنْ يُحْشَروا إلى الله تعالى، لَعلَّهمْ يتَّقونَ اللهَ، ويرهبونَه، ونهاهُ أن يطردَ ضعفاءَ المؤمنين من مجالِسِه، كما أمَرَه سادةُ قريشٍ، وأمَرَهُ أنْ يُرَحِّبَ بالمستَضْعفِينَ من المؤمنين، ويُبَشِّرُهُمْ برحمة الله الواسعةِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأنعام:٥٠-٥٥].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- طبيعةُ النبيِّ وحُدودُ صلاحياته:

أمرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَنا ﷺ أنْ يُعلِنَ للناسِ حقيقةَ أمْرِه، وحُدودَ ما يملكه من مزايا وخصائص، فهو بشرٌ رسول، ليسَ عندَهُ خزائنُ اللهِ مِنَ الأموالِ يُصَرِّفها كيف يَشاءُ، ولا يَعْلَمُ مِنَ الغيب إلا ما علّمه اللهُ، فاللهُ وَحْدَهُ له خزائنُ السماواتِ والأرضِ، والله وَحْدَه له غيبُ السماواتِ والأرضِ، ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾ [الأنعام:٥٠].

جنـــــة السـنـــــة

ومع نفي الرسولِ لكلِّ ما يُشْعِرُ بأنَّ له شيئاً من الأُلوهيةِ، فإنَّ اللهَ أَمَرَهُ أن يُعْلِنَ أَنَّه ليسَ مَلَكاً، يتصرَّفُ تصرُّفَ الملائكة ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ﴾ [الأنعام:٥٠].

ثم أمَرَه أن يقولَ للناس: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ [الأنعام:٥٠] فهو نبيٌّ رسولٌ، أنزلَ اللهُ تعالى عليه وَحْيَه، مِنَ القرآنِ والسنَّةِ، فهو يتَّبعُ المنزلَ عليه، فيفعلُ ما أمره بِهِ، وينتهي عما نهاه عنه.

وأمَرَهُ تعالى أن يقولَ للناسِ: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ﴾ [الأنعام:٥٠] أيْ هل يستوي المؤمنُ والكافرُ، والمهتدي والضالُّ، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿۞أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩﴾ [الرعد:١٩].

وفي قولِهِ تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ٥٠﴾ [الأنعام:٥٠] في خاتمةِ الآية، دعوةُ الكفارِ ليتفكروا فيما يتْلوهُ عليهم رسولُنا ﷺ من آياتٍ.

٢- إنذارُ الرسولِ ﷺ الذين يخافونَ الحشر إلى الله تعالى:

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يُذكِّر بالقرآنِ الذي أُوحي إليه بِهِ المؤمنينَ الذين يخافون أنْ يحشروا إلى ربِّهم ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ [الأنعام:٥١]. قال الزجَّاج: «إنَّما ذكَّر الذين يخافون الحشْرَ دونَ غيرهم، وهو منذرٌ لجميعِ الخلقِ، لأنَّ الذين يخافونَ الحَشْرَ الحُجَّةُ عليهم أوْجَبُ، لأنَّهم أفْهَمُ بالميعادِ» [معاني القرآن: ٢/ ٢٥١].

وقوله تعالى في ختامِ الآيةِ: ﴿لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٥١﴾ [الأنعام:٥١] أيْ: ليسَ لهم في يومِ القيامة وليٌّ يتولى أمْرَهُمْ ويدافعُ عنهم، ولا شفيعٌ يشفعُ لهم، ويُخلِّصُهُمْ مِنْ عذابِ الله، لعلَّهم يتَّقون اللهَ بفعلِ الصالحاتِ وتركِ المنكراتِ، وقوله: ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٥١﴾ أي: يتَّقونَ عذابَه بفعلِ ما أمَرَهُمْ بِهِ، وترك ما نهاهم عنه.

٣- نهى اللهُ رسولَه ﷺ عن طرْدِ ضعفاءِ المؤمنين عن مجالِسه:

أنِفَ الملأُ من قريش من مجالسةِ الضعفاءِ من المؤمنين أمثال صهيبٍ وعمارٍ وبلالٍ وخبَّابٍ، فطلبوا مِنَ الرسولِ ﷺ أنْ يخصَّهم بمجلسٍ بعيداً عن هؤلاءِ الضعفاءِ، فنهى اللهُ رسولَه ﷺ عن طرْدِهم، ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٢﴾ [الأنعام:٥٢].

جنـــة الســــنة

وقد روى مسلمٌ في سبب نزولِ هذه الآية: عن سعدٍ، قال: «كنا مع النبيِّ ﷺ ستّةَ نَفرٍ، فقالَ المشركون للنبيِّ ﷺ: اطْرُدْ هؤلاءِ لا يجْتَرِئونَ علينا.

قال: وكُنت أنا وابنُ مسعودٍ، ورجلٌ من هُذَيْل، وبلالٌ، ورجُلان لستُ أُسَمِّيهما، فوقَعَ في نَفْسِ رَسول الله ﷺ ما شاءَ اللهُ أنْ يَقعَ، فحَدَّثَ نَفْسَهُ، فأنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام:٥٢]» [مسلم: ٢٤١٣].

وقد نَهى اللهُ تعالى في هذه الآية رَسُولَه ﷺ عن طَرْدِ هؤلاءِ الضعفاءِ الأخيارِ الذين يدْعُونَ رَبَّهم بالغداةِ، وهي أولُ النهارِ، والعَشِيِّ، وهو آخرُ النهارِ، يريدونَ وَجْهَ الله تعالى بدعائِهم، واللهُ تعالى لا يعبأ بالظالمين المستكبرين، وهو غَنِيٌّ عنهم، وهو يُحِبُّ هؤلاءِ المؤمنينَ المخبتينَ، وقد بيَّنَ اللهُ لرسولِهِ ﷺ أنَّ كلَّ إنسان يحاسبُ عن نفسه.

فحسابُ هؤلاء الذين طَلَبَ الكفارُ منه طَرْدَهُم هو على أنْفُسِهم ما عليه منه شيءٌ، وحسابُهُ هو على نَفْسِهِ ما عليهم منه شيءٌ، وقولُهُ في خاتمةِ الآية: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥٢﴾ أي: إن طَرَدْتَهُمْ كنتَ مِنَ الظالمين.

٤- جَعَلَ اللهُ الناسَ بعضَهم لبعضٍ فتنةً:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنه جَعَلَ المؤمنين فتنةً للكافرين، كما جَعَلَ الكافرين فتنةً للمؤمنين ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ۝٥٣﴾ [الأنعام:٥٣].

والفتنةُ: الاختبارُ، وقد اختبرَ اللهُ المؤمنين بالكفار الذين عَذَّبُوهم وسَفَّهُوهم، والاختبارُ هو في مَدَى صَبْرِهم عمّا حَلَّ بهم مِنَ العذابِ والإيذاءِ، وابتلى اللهُ الكفارَ بالمؤمنين، ومِنْ ذلكَ ما ذَكَرَهُ اللهُ عنهم أنَّهم قالوا: ﴿أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ بالهُدى والرُّشْدِ، وهم فقراءُ ضعفاءُ أذلاَّءُ ونحنُ أغنياء أقْوياء.

وقال ربُّ العزةِ رادّاً مقالةَ هؤلاءِ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ۝٥٣﴾ فاللهُ تعالى أعْلَمُ بالذينَ يشكرونَهُ، ويحبُّونَهُ من عبادِه، وهُمْ الذين يستحقُّونَ كرامةَ الله تعالى وفضْلَهُ ونِعمَهُ.

٥- أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ بالترحيب بالضعفاءِ مِنَ المؤمنين:

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ إذا جاءَهُ المؤمنون بآيات الله أنْ يُرحِّبَ بهم، ويُبلِّغَهم السَّلامَ مِنْ ربهم -تبارك وتعالى- ويبشِّرَهُمْ برحمةِ الله تعالى الواسعة، ويخبرَهم أنّه مَنْ عمل منهم

جنـــــة الســـــنة

سوءاً بجهالةٍ، وكُلُّ مَنْ عمل سوءاً فقد عَمِلَهُ بجهالةٍ، لا فرقَ بين المُتعمِّدِ وغيره، ثم إنه إذا تاب مِنْ ذنبِهِ الذي اقْتَرفَه، وأصلَحَ عمله، فالله غفورٌ رحيم ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٤﴾ [الأنعام: ٥٤].

تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

وقد بيّن لنا رسول الله ﷺ معنى ما ورد من قوله تعالى ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ فقد رَوَى أبو هريرةَ عن الرسولِ ﷺ أنه قال: «لما قضى الله الخلقَ كتبَ في كتابِهِ، فهو عِنْدَهُ فوقَ العرشِ؛ إنَّ رحمتي سَبَقَتْ غَضَبي» [البخاري: ٣١٩٤. ومسلم: ٢٧٥١].

وعن أبي هريرةَ ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إنَّ اللهَ خلقَ الرحمةَ يومَ خَلَقها مائةَ رحمةٍ، فأمْسَكَ عندَهُ تسعاً وتسعينَ رحمةً، وأرْسَلَ في خلْقِهِ كُلِّهِمْ رحمةً واحدةً، فلو يَعْلَم الكافِرُ بكلِّ الذي عندَ الله مِنَ الرحمةِ لم يَيْأَسْ مِنَ الجنَّةِ، ولو يَعْلَمُ المؤمنُ بكُلِّ الذي عندَ الله مِنَ العذابِ لم يأمَنْ مِنَ النار» [البخاري: ٦٤٦٩].

وقولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥] أي: كما فصَّلنا وبيَّنا لك حُجَجنا على المشركين في هذه السورة، كذلك نفصِّل لك في كل حق [illegible] الكفارُ، ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [illegible] بطردِ المؤمنين.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إنَّ تدبُّرَ آياتِ هذا النصِّ وجدناه تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

[illegible] ﷺ [illegible] فيه شيءٌ من صفاتِ الألوهية، فليس عندَهُ خزائنُ الله، ولا يعلمُ

جنـــــة السـنــــة

سوءاً بجهالةٍ، وكُلُّ مَنْ عملَ سوءاً فقد عَمِلَهُ بجهالةٍ، لا فرقَ بين المُتعمِّدِ وغيره، ثم إنه إذا تابَ مِنْ ذنبِهِ الذي اقْتَرفَه، وأصلَحَ عمله، فالله غفورٌ رحيم ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٤﴾ [الأنعام:٥٤].

وقد بيّنَ لنا رسولنا ﷺ المعنى المرادَ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ فقد رَوَى أبو هريرةَ عن الرسولِ ﷺ أنّه قالَ: «لما قَضَى اللهُ الخلقَ كتبَ في كتابِهِ، فهو عِنْدَهُ فوقَ العرشِ؛ إنَّ رحمتي سَبقَتْ غَضَبي» [البخاري: ٣١٩٤. ومسلم: ٢٧٥١].

وعن أبي هريرةَ ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إنَّ اللهَ خلقَ الرحمةَ يومَ خَلَقَها مائةَ رحمةٍ، فأمْسَكَ عندَهُ تسعاً وتسعينَ رحمةً، وأرْسَلَ في خلْقِهِ كُلِّهِمْ رحمةً واحدةً، فلو يَعْلَم الكافِرُ بكلِّ الذي عندَ الله مِنَ الرحمةِ لم يَيْأَسْ مِنَ الجنَّةِ، ولو يَعْلَمُ المؤمنُ بكُلِّ الذين عندَ الله مِنَ العذابِ لم يأمَنْ مِنَ النار» [البخاري: ٦٤٦٩].

وقولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٥٥﴾ [الأنعام:٥٥] أي: كما فصَّلنا وبيَّنّا لك حُججنا على المشركين في هذه السورة، كذلك نفصِّلُ لك في كلِّ حقٍّ ينكرُه الكفارُ، ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٥٥﴾ أي: طريقهم، ومنها سبيلُ أولئك الذين أمَروكَ بطردِ المؤمنين.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الرسولُ ﷺ ليس فيه شيءٌ من صفاتِ الأُلوهية، فليس عندَهُ خزائنُ الله، ولا يعلمُ الغيبَ، وليسَ هو بمَلَك.

٢- أعظمُ خصائصِ الرسولِ ﷺ الوحيُ الذي أنزله اللهُ عليه وأمَرَه باتباعه.

٣- الذينَ يستفيدونَ مِنَ الوحي الإلهيِّ هم الذين يخافون حَشْرَهُم إلى الله ووقوفهم بين يديه.

٤- على العلماء والدعاةِ أن يُسَوُّوا بين الناس في مجالِسهم، فلا يجوزُ أنْ يُخَصَّ الزعماءُ والرؤساءُ بمجلسٍ يُطردُ منه الضعفاءُ.

جنـــــة الســــــنة

٥- اختبرَ اللهُ الأغنياءَ والوجهاءَ بسبقِ الضعفاءِ لهم إلى الإيمانِ، فعَظُم عليهم أن يتَّبِعوا الحقَّ الذي اتبعُوه.

٦- يجبُ على العلماءِ أن يُرَحِّبوا بطلبة العلم وإنْ كانوا ضعفاءَ، وعليهم أن يُسَلِّموا عليهم، ويبشِّروهم بما أعدَّ اللهُ لهم مِنَ الرحمةِ.

٧- هذا القرآن يُفَصِّل القولَ ويُبَيِّنُه فيما نحتاجُ إليه، وفي بيان ما أورَدَه الخصومُ من شبهاتٍ.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني العاشر من سورة الأنعام

موقف الرسول ﷺ مما دعاه إليه المشركون

أولاً: تقديم

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ في آيات هذا النصِّ أنْ يُبيِّنَ موقفَهُ مما دَعاه إليه المشركونَ، فبيَّنَ لهم أنَّه على التوحيدِ، وهو لا يعْبُدُ الآلهة التي يعبدونها، وبيَّن لهم أنه لا يتَّبعُ أهواءَهم فيما يعبدونَهُ، ويُشَرِّعونَهُ، وصرَّحَ لهم بأنَّه موقِنٌ بالحقِّ الذي جاءَه من عندِ الله، وهم يكذِّبون بِهِ، وبيَّن لهم أنَّه بَشَرٌ، ولا يملكُ أن يُنْزِلَ بهم العذابَ الذي يستعجلون بنزولِهِ، ولو كانَ يملك إنزالَ العذابِ لأوقعه بهم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنعام:٥٦-٥٨].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لا يجوز عبادةُ غيرِ الله تعالى:

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ محمداً ﷺ أن يقولَ للمشركين: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنعام:٥٦]. والمعنى: «إنَّ اللهَ نهاني أنْ أعبدَ الذين تَدْعُونَ منْ دونِهِ، فلنْ أتَّبعَ ما تدعونني إليه من ذلك، ولا أُوافقكم عليه» [الطبري: ٤/ ٣١٩٦]. وهذا النهيُ شاملٌ لما يعبُدُه الكفارُ مِنَ الأصنامِ وغيرِها، ومعنى ﴿تَدْعُونَ﴾ تعبدون.

وأمره تعالى أنْ يقولَ لهم: ﴿قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنعام:٥٦] والهوَى: اتباعُ كُلِّ ما خالفَ دينَ الله المنزلَ، وقد اتَّخَذَ الذين رَفَضُوا دينَ الله تعالى الهوى إلهاً ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان:٤٣] ومِنْ ذلك ما يُشَرِّعه أعضاءُ المجالسِ النيابيةِ مِنْ تحليلٍ لما حَرَّمَهُ اللهُ، وتحريمِ لما أحلَّه تعالى، ومِنْ ذلكَ اتباعُ قولِ القضاةِ والحكَّامِ المخالفونَ للشَّرع.

جنـــــة الســـــنة

وقوله: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ أي: إن اتَّبعتُ أهواءَكُم فيما تَدْعُونَني إليه قد ضَلَلْتُ عن الحقِّ الذي جاءَني من ربِّي، ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: مِنَ الذين سلكوْا سبلَ الهدى.

٢- المتبعونَ لدينِ اللهِ تعالى على بصيرةٍ:

وأمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ للمشركين: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنعام:٥٧]. أي: قلْ لهم: إني على بيِّنة من ربي، والبيِّنة: الحجةُ والبرهانُ، والبيِّنةُ التي هو عليها القرآنُ الكريم، قالَ تعالى: ﴿بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام:١٥٧]، وقد أعْطى اللهُ رسلَهُ الآياتِ البيِّنات ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الأعراف:١٠١].

وقولُه تعالى: ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ أي: بالقرآنِ، الذي جاءَهم الرسولُ ﷺ به.

٣- الرسولُ ﷺ لا يستطيعُ إيقاعَ العذاب بمن يطلبُهُ:

وقوله: ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ والذي استعجلوا به هو العذابُ الذي تهدَّدَهم اللهُ تعالى به، ومِن ذلك ما حكاه اللهُ عنهم في قولِهِ: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال:٣٢].

وقولُه تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: إنما يرجعُ أمْرُ الذي استعْجَلْتُم بِهِ إلى الله تعالى، إنْ شاءَ عجَّله، وإن شاءَ أخَّره، ولَهُ في ذلك كلِّه حكمةٌ بالغةٌ، وقولُهُ سبحانه: ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: يقصُّ القَصَصَ الحَقَّ، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣].

واللهُ خيرُ الفاصلين سبحانه، أي: بيَّنَ الحقَّ والباطلَ بما يقضي بِهِ سبحانه بينَ عبادِه، وينزلُهُ في كتابه.

وقد دلَّ قولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنعام:٥٨].

على أنَّ العذابَ الذي طلبوه مستعجلين وقوعَهُ قبل وقته، لو كان أمْره إلى الرسولِ ﷺ لأوْقَعَهُ وأنزلَهُ بهم.

جنـــــة السـنـــــة

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - على المسلم أنْ يوضِّحَ موقفَهُ مما يَدْعُوه إليه أعداؤُه ومخالفوه، وقد أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه أن يَرُدَّ على الكفارِ بما علَّمه إياه في هذه الآيات.

٢- على المسلمِ أن يستَوْعِبَ ما كان المشركونَ يَدْعُون الرسولَ ﷺ إليه، وعليه أن يستوعِبَ الأجوبةَ القرآنية التي هَدَى اللهُ رسولَهُ ﷺ إليها، فكثيرٌ مِنَ شبهاتِ أعداءِ الإسلام متشابهةٌ فيما بينها وإنْ اختلفت العصور والأمكنة.

٣- لا يجوزُ للمسلمِ أنْ يستجيبَ لدعوةِ المشركين له بعبادةِ آلهتهم، واتِّباعِ شَريعَتِهِمْ، وعليه أن يعبدَ اللهَ وَحْدَه لا شريكَ له.

٤ - لا يجوزُ للمسلم أن يتَّبعَ أهواءَ المشركين فيما يعبدُونَه ويشرِّعونه.

٥ - نحنُ على يقينٍ مما جاءَنا من عندِ ربِّنا، ولا يضيرُنا تكذيبُ الكفارِ لما جاءَنا منْ عندِ الله.

٦- الرسولُ ﷺ بَشَرٌ، ولا يستطيعُ أن يُنْزِلَ بالمشركينَ العذابَ الذي يطلبونَ منه إيقاعَهُ بهم، والأمرُ كُلُّه بيدِ الله سبحانَهُ.

٧- اللهُ حليمٌ يتأنَّى بعبادِهِ، ولو كان الأمْرُ بيدنا لأوقعنا العذابَ بأعدائِنا، ولم نتأنَّ بهم.

جنـــة السـنـــة

النص القرآني الحادي عشر من سورة الأنعام
تعريفُ الله -تعالى- لنا بنفسِه سبحانه

أولاً: تقديم

بيّنَ اللهُ تعالى لنا في آياتِ هذا النصِّ ما اختصَّ به نفْسَهُ، فعندَهُ مفاتحُ الغيبِ لا يعلمها غيرُهُ، وهو العالِمُ بما في البرِّ والبحر، وهو الذي يتوفانا بالليل ويعلم ما جَرَحْنا بالنهارِ، وهو القاهرُ فوقنا، ويرْسِلُ علينا مِنَ الملائكة مَنْ يحفظنا، ويحفظُ أعمالنا، وغير ذلك مما سيأْتي بيانَه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ
إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم
بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ
رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن
يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ
يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن
تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾
وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأنعام:٥٩-٦٧].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- سعةُ علمِ الله تعالى وما اختصَّ بعلمه سبحانه:

أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى ما اختصَّ بعلمه دونَ سائر خَلْقِهِ، فقال: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾ [الأنعام:٥٩].

ومفاتحُ الغيبِ خمسةٌ، تضمَّنتها آية سورة لقمان، ففي الحديث عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قالَ النبيُّ ﷺ: «مفاتحُ الغيبِ خَمْسٌ، ثم قرأ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾ [لقمان:٣٤]» [البخاري:٤٧٧٨]. وسيأتي بيانُها بحولِ الله وقوّتِهِ في سورةِ لقمانَ.

جنـــــة السـنـــــة

والمفاتحُ: جمع مِفْتح، وهو المِفتاحُ، أو مخازنُ الغيبِ.

واللهُ سبحانَهُ علمهُ واسعٌ لا يخفى عليه شيءٌ ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام:٥٩] أي: علمُهُ محيطٌ بجميعِ الكائنات برِّيها وبَحْرِيِّها.

فـــلا يَخْفَـــى عليـــهِ الـــذَّرُّ إمَّـــا تَـــرَاءَى للنَّـــوَاظِرِ أو تَـــوَارَى

وأعلمنا ربُّنا بأنه لا يخفى عليه شيءٌ، ولا يغيب عنه شيءٌ فقال: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام:٥٩]، أي: ما تسقط من ورقةٍ في الصحارى والبراري والأمصارِ والقرى إلا ويعلمها الله، وانظر إلى الأرض كم فيها من أشجارٍ، وكم على كلّ شجرةٍ من أوراقٍ، وما من ورقةٍ في البراري والقفار، والحقول والحدائق والجبال تسقط إلا وعِلْمُ الله تعالى محيطٌ بها، وما من حبَّةٍ تَنْدَثِرُ في ترابِ الأرض فتنبتُ، أو نبتة تصْفَرُّ وتَذْوي وتموتُ إلا وعلمُ الله محيطٌ بها، وكلُّ ذلك مَدَوَّنٌ في كتابٍ مبينٍ، وهو اللوحُ المحفوظُ.

٢- الله تعالى يتوفانا بالليل ويعلمُ ما جرحنا في النهار:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه يتوفانا بالليلِ، ويعلمُ ما جَرَحْنا في النَّهار، قال سبحانَه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام:٦٠] وتوفِّيه لنا في الليلِ، أيْ: بالنوم، لأنَّه يقبضُ سبحانه أرْواحنا عن التصرفِ بالنوم، وهذا التوفي هو التوفي الأصغرُ، قالَ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر:٤٢].

وقولُه تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ أيْ: ما كَسَبْتُموهُ بجوارِحكُمْ مِنَ الخيرِ والشرِّ. وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام:٦٠] أي: يوقِظُكُمْ في النهارِ مِنْ منامكم وقولُه: ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام:٦٠] أي: ليقضي اللهُ الأجلَ الذي سمَّاه لحياتِكُمْ، وذلك بالموتِ. وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [الأنعام:٦٠] أيْ: إلى الله مصيرُكُمْ ومعادُكم ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنعام:٦٠] أي: يخبرُكُمْ في يوم الدين بما عَمِلْتُموهُ في الحياةِ الدنيا، ثم يحاسِبُكُم، ويَجْزيكُم عما عَمِلْتُموهُ.

وهذا الذي تضمنتْه الآيةُ وإن كان خبراً من الله عن قُدْرَتِهِ وعلمِهِ، إلا أنَّ فيه احتجاجاً على المشركين، الذين كانوا ينكرون قُدْرَتَهُ على إحيائِهم بعدَ مماتِهم وبعثهم بعد فنائهم فالذي

جنـــــة السـنــــة

يقبضُ أرواحهم بالليل، ويبعثُهُمْ في النهار، ليبلُغُوا أجلاً مسمى، قادرٌ على إحيائهم بعد الموت [الطبري: ٤/ ٣٢٠٢].

٣- اللهُ هو القاهرُ فوقَ عبادِهِ:

أعلمنا ربُّنا -عز وجلَّ- أنه القاهرُ فوقَ عبادِهِ ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:٦١] أيْ: هو الغالبُ خَلْقَه، العالي عليهم بذاته وقُدْرَتِهِ، ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام:٦١]. والحفظةُ الذين يرسلهم اللهُ علينا الملائكةُ الذين يحفظون أجْسادَنا وأعمالَنا، قالَ السُّدي في الحفظةِ: «هي المعقباتُ مِنَ الملائكة، يحفظونه، ويحفظونَ عمَلَهُ» [الطبري: ٤/ ٣٢٠٤].

وقد ذكر الله تعالى الملائكةَ الذين يحفظونَ العباد في قوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١]. وفي قولِهِ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار:١٠-١٢] وفي قوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق:١٧-١٨].

«وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [الأنعام:٦١] أي: إذا احتضَرَ وحانَ أجلُهُ ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام:٦١] أي: ملائكةٌ موكلونَ بذلك، قال ابنُ عباس وغيرُ واحدٍ: لملكِ الموت أعوانٌ مِنَ الملائكةِ، يُخرجونَ الروح مِنَ الجسدِ، فيقبضها مَلَكُ الموتِ إذا انتهتْ إلى الحلقوم. ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: في حفظ روحِ الموتى، بل يحفظونَها وينزلونها حيث شاءَ اللهُ -عزَّ جلَّ- إن كان من الأبرار ففي عليين، وإن كان مِنَ الفجّارِ ففي سِجِّين عياذاً بالله من ذلك» [ابن كثير: ٣/ ٢٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام:٦٢]. أي: رَدَّ اللهُ الخلائقَ مِنَ الملائكةِ والجنِّ والإنس بالموت إليه، فاللهُ موْلاهُم الذي يملكهم ويتوّلى أُمورَهُم سبحانَه، وهو أَسْرَعُ الحاسبينَ، فيحكمُ فيه -سبحانه- بعَدْلِهِ.

٤- اللهُ -تعالى- الذي يُنْجي عبادَهُ من ظلمات البرِّ والبحر:

أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أن يقولَ للمشركين سائلاً إياهم عن الذي يُنْجيهم من ظلمات البر والبحر إذا أحاطتْ بهم ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنعام:٦٣].

جنـــــة السـنـــــة

والمرادُ بالظلماتِ في الآية الشدائدُ والأهوالُ والكرباتُ التي تحيقُ بالإنسانِ في البرِّ والبحر، والعربُ تقولُ: عامٌ أسودُ، ويومٌ مظلِمٌ، وقد اعتادَ الإنسانُ حتى لو كان مشركاً إذا أحاطت به ظلماتُ البرِّ والبحرِ أن يدعوَ ربَّه تضرّعاً وخُفيَةً، أي: يدْعوهُ مظهراً الضَّراعَةَ، وهي شدةُ الفقرِ والحاجةِ إلى ربه، ويدعوه خُفْيَةً، أي: سِرّاً، وأعْلَمنا ربُّنا أنّه يقولُ في مناجاتِهِ ربَّهُ: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾ .

والإنسانُ عندما تحيطُ به المصائبُ العِظامُ والكوارثُ التي لا يستطيعُ لها دفعاً يتوجَّهُ إلى ربِّه مخلصاً له الدينَ، لأنه في حالةِ الاضطرارِ يعلمُ أنّه لا ملجأ من الله إلا إليه، وأنه لا يُنْجيهُ مما حَلَّ به إلا الحيُّ القيومُ، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ﴾ [يونس:٢٢-٢٣].

وقد تحدَّثَ بعضُ رُكّابِ الطائراتِ عن حالِ الركابِ عندما وقع خللٌ في طائرتهم، وهي تطيرُ بهم في الفضاءِ، وتكادُ تسقطُ بهم، وبيَّن كيف تضرَّعوا إلى ربِّهم مخلصينَ له الدين، لا فرقَ بين الفاسِقِ والعالِمِ بالله.

وأخبرنا ربُّنا -سبحانَهُ- أنّه وحْدَهُ القادرُ على إنجاءِ عبادِه مِنَ الكوارثِ والكروبِ التي تحيطُ بهم، ولكنّ هؤلاءِ بعد أن ينجيهم ربُّهُمْ مما أصابهم يعودون إلى شِرْكِهم وكفرهم ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ .

٥- الله تعالى قادرٌ على أنْ يأخُذَ عبادَه بعذابٍ يحيطُ بهم:

أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أن يُخَوِّفَ الناسَ عذابَهُ وانتقامَهُ ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنعام:٦٥].

والعذابُ الذي تَهَدَّدَ اللهُ بِهِ عبادَه قد يكونُ آتياً مِنْ فوقهم كعذابِ قوم لوط، وعذاب أصحابِ الفيل وقد يكون بالصيحة أو الغرق أو الريح أو الحجارة، وقد يكونُ مِنْ تحتهم كالخَسْفِ والزلازلِ، وقد يكونُ بتسليطِ بعضِهِمْ على بعضٍ. قال الربيع بن أنس: «﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾: يعني: يثبت فيكم الأهواء المختلفة، فتصيرون فرقاً، يقاتِلُ بعضكم بعضاً، ويخالف بعضكم بعضاً» [التفسير البسيط: ٨/ ٢٠٤].

جنـــــة السـنـــــة

ومن يقرأ التاريخَ بعد عَهْدِ الرسولِ ﷺ إلى اليومِ يجدُ سِجِلاً حافلاً بما أصابَ البشرية من خسفٍ وزلازلَ وبراكين وصواعقَ، وما ثارَ بين الناسِ من حروبٍ ذاقَ فيها بعضُهم بأسَ بعضٍ، وقد وَقَع في هذه الأيام التي أكتب فيها تفسيرَ هذه الآية [يوم الجمعة، الثامن من ربيع الأول عام ١٤٣٢هـ الذي يوافقه الحادي عشر من شباط (مارس) ٢٠١١] زِلْزالٌ عظيم في اليابان، لم تُصَبْ بمثله تلك الديار منذ مائةٍ وخمسينَ عاماً، وقد امتدتْ آثارُه إلى دولٍ كثيرة مجاورةٍ، وارتفعتْ أمواجُ البحرِ في بعض مُدُنِ اليابان إلى عشرة أمتار، ودخلتْ مياهُ البحر إلى العمرانِ، وسقط ألوف القتلى، وانهارَتِ العماراتُ، وخربتِ الأسواقُ، وثارت الحرائقُ، وأصبحتْ بعضُ المحطاتِ الكهربائية النووية في خطر.

وقد دعا رسولُ الله ﷺ لأُمته أن لا يصيبَها بالعذاب، فأعطاه اثنتين، ومنعه واحدة، ففي صحيح مسلم عن عامر بن سعد، عن أبيه، أنَّ الرسولَ ﷺ أقبلَ ذاتَ يوم من العاليةِ، حتى إذا مَرَّ بمسجدِ بني معاويةَ، دخلَ فركعَ فيه ركعتين، وصلَّيْنا معه، ودعا ربَّه طويلاً، ثم انصرفَ إلينا، فقال: «سألتُ ربي ثلاثاً، فأعطاني ثنتين، ومَنَعَني واحدةً، سألتُ ربي أن لا يهلك أُمتي بالسَّنَةِ، فأعطانيها، وسألتُه أن لا يُهْلِكَ أُمتي بالغرقِ فأعطانيها، وسألته أن لا يجعلَ بأسهم بينهم، فمنعنيها» [مسلم: ٢٨٩٠].

والذي أعطاه اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ أنْ لا يُهْلِكَ أُمَّتَه بعذابٍ عامٍّ أو بغرقٍ عامٍّ، أمّا أن يعذبَ طائفةً منهم بالقحط، أو يهلك بعضَهَمْ بالغرقِ، فهذا قد وقع، ولا يزال مستمراً.

وعن ثوبان، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأرضَ، فرأيتُ مشارِقَها ومغارِبَها، وإنَّ أمتي سيبلُغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لي منها، وأعطيتُ الكنزينِ الأحمرَ والأبيضَ، وإني سألتُ ربي لأمتي أن لا يُهْلِكَها بسَنَةٍ عامةٍ، وأن لا يُسلِّطَ عليهم عدواً من سِوَى أنفسهم، فيستبيحَ بيضَتَهُمْ، وإنَّ ربي قال: يا محمدُ! إني إذا قضيتُ قضاءً فإنه لا يُرَدُّ، وإني أعطيتُكَ لأُمتكَ أنْ لا أهلِكَهُمْ بسَنَةٍ عامةٍ، وأن لا أُسَلِّطَ عليهم عدوًّا من سِوَى أنفُسِهم، يستبيحُ بيضَتَهُمْ، ولو اجتمعَ عليهم من بأقطارِها -أو قال من بين أقطارها- حتى يكونَ بعضُهُمْ يُهْلِكُ بعضاً، ويسْبي بعضُهُمْ بعضاً» [مسلم: ٢٨٨٩].

وعن جابر بن عبدالله قال: لما نزلتْ هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام:٦٥] قال النبيُّ ﷺ: «أعوذُ بوجْهِكَ» فقال: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ فقالَ النبي ﷺ: «أعوذُ بوجْهِكَ» قال: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ قال النبيُّ ﷺ: «هذا أيسَرُ» [البخاري: ٧٤٠٦ وانظر الحديث رقم: ٤٦٢٨].

جنـــــة الســـــنة

وقولُه تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنعام:٦٥] أي: كيف نُبيِّنُ لهم آيات القرآن ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أيْ: يعلمون.

٦- **تكذيبُ العربِ بالقرآن:**

قالَ اللهُ -تعالى- مخاطباً رسولَهُ ﷺ: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنعام:٦٦]. قالَ له ربُّه: لقد كَذَّبَ قومُكَ بالقرآنِ الذي جاءَكَ مِنْ عندِ الله تعالى، وهو - أي: القرآنُ- حقٌّ وصِدْق، لا باطلَ فيه، وأمرَهُ تعالى أنْ يقولَ لقومِهِ المشركين من قريشٍ والعرب: ﴿لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾ أي: «لَسْتَ عليكم بحافظٍ حتى أُجازيكم على تَكْذيبِكُمْ وأعمالِكُمْ، إنما أنا مُنْذِرٌ، واللهُ المجازي لكم بأعمالِكُمْ» وعزاه الواحِديُّ إلى الحسن، [التفسير البسيط: ٨/ ٢٠٥].

وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنّ الضميرَ في قولِهِ: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ﴾ عائدٌ إلى العذابِ الذي أُنْذِرُوا بهِ، وهذا صحيحٌ، لأنَّ القرآنَ هو الذي أَنْذَرَ بهذا العذابِ، فتكذيبُهُم بالعذابِ تكذيبٌ بالقرآنِ الذي أُنْذِرُوا بِهِ.

٧- **لكلِّ خبرٍ أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- به وَقْتٌ ينتهي إليه:**

أعْلمنا ربُّنا - عزَّ وجلَّ- أنَّ كلَّ نبأ أخبرنا اللهُ بأنه سيقع في الأيام الآتية سيكونُ له مكانٌ يقعُ فيه، ووقتٌ ينتهي إليه ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنعام:٦٧] فقد أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ بأنّ الرومَ سيغلبون في بضع سنين من بعد غلب الفرس لهم، وجاءَ الوقتُ الذي وقعَ فيه ما أخبرنا اللهُ به، وأخبرنا ربُّنا عن خروجِ يأجوجَ ومأجوجَ ووقوع الساعةِ، وسيأتي الوقتُ الذي يقعُ ما أخبرنا اللهُ -سبحانه- به.

ونقلَ الواحديُّ عن الكلبيِّ أنه قالَ في تفسير الآية: «لكُلِّ قولٍ حقيقة ما كانَ منه في الدنيا، فستعرفونَهُ، وما كانَ في الآخرةِ فسوفَ يبدو لكم» [التفسير البسيط: ٨/ ٢٠٨].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- اللهُ -تبارك وتعالى- وحدَهُ يعلمُ مفاتحَ الغيبِ، وهي خزائنُهُ، وهي المذكورةُ في آخر سورةِ لقمان.

٢- علمُ الله تعالى واسعٌ شاسعٌ، لا يخفى عليه خافيةٌ لا في البرِّ ولا البحر.

جنـــــة السـنـــة

والمرادُ بالظلماتِ في الآية الشدائدُ والأهوالُ والكرباتُ التي تحيقُ بالإنسانِ في البرِّ والبحر، والعربُ تقولُ: عامٌ أسودُ، ويومٌ مظلِمٌ، وقد اعتادَ الإنسانُ حتى لو كان مشركاً إذا أحاطت به ظلماتُ البرِّ والبحرِ أن يدعوَ ربَّه تضرّعاً وخُفيةً، أي: يدْعوهُ مظهراً الضَّراعَةَ، وهي شدةُ الفقرِ والحاجةِ إلى ربِه، ويدعوه خُفْيَةً، أي: سِرّاً، وأعْلَمنا ربُّنا أنَّه يقولُ في مناجاتِهِ ربَّهُ: ﴿لَئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

والإنسانُ عندما تحيطُ به المصائبُ العِظامُ والكوارثُ التي لا يستطيعُ لها دفعاً يتوجَّهُ إلى ربِّه مخلصاً له الدينَ، لأنه في حالةِ الاضطرارِ يعلمُ أنَّه لا ملجأ من الله إلا إليه، وأنه لا يُنْجِيَهُ مما حَلَّ به إلا الحيُّ القيومُ، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ﴾ [يونس:٢٢-٢٣].

وقد تحدَّثَ بعضُ رُكَّابِ الطائراتِ عن حالِ الركابِ عندما وقع خللٌ في طائرتِهم، وهي تطيرُ بهم في الفضاءِ، وتكادُ تسقطُ بهم، وبيَّن كيف تضرَّعوا إلى ربِّهم مخلصينَ له الدين، لا فرقَ بين الفاسِقِ والعالمِ بالله.

وأخبرنا ربُّنا -سبحانَهُ- أنَّه وحْدَهُ القادرُ على إنجاءِ عبادِه مِنَ الكوارثِ والكروبِ التي تحيطُ بهم، ولكنّ هؤلاءِ بعد أن ينجيهم ربُّهُمْ مما أصابهم يعودون إلى شِرْكِهم وكفرهم ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

٥- الله تعالى قادرٌ على أنْ يأخُذَ عبادَه بعذابٍ يحيطُ بهم:

أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أن يُخَوِّف الناسَ عذابَهُ وانتقامَهُ ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنعام:٦٥].

والعذابُ الذي تَهَدَّدَ اللهُ بِهِ عبادَه قد يكونُ آتياً مِنْ فوقهم كعذابِ قومِ لوط، وعذاب أصحابِ الفيل وقد يكون بالصيحة أو الغرق أو الريح أو الحجارة، وقد يكونُ مِنْ تحتهم كالخَسْفِ والزلازلِ، وقد يكونُ بتسليطِ بعضِهِمْ على بعضٍ. قال الربيع بن أنس: «﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾: يعني: يثبت فيكم الأهواء المختلفة، فتصيرون فرقاً، يقاتِلُ بعضكم بعضاً، ويخالف بعضكم بعضاً» [التفسير البسيط: ٨/ ٢٠٤].

جنـــــة السنـــــة

ومن يقرأ التاريخَ بعد عَهْدِ الرسولِ ﷺ إلى اليومِ يجدُ سِجلاً حافلاً بما أصابَ البشريةَ من خسفٍ وزلازلَ وبراكينَ وصواعقَ، وما ثارَ بين الناسِ من حروبٍ ذاقَ فيها بعضُهم بأسَ بعضٍ، وقد وَقَعَ في هذه الأيامِ التي أكتبُ فيها تفسيرَ هذه الآيةِ [يوم الجمعة، الثامن من ربيع الأول عام ١٤٣٢هـ الذي يوافقه الحادي عشر من شباط (مارس) ٢٠١١] زِلْزالٌ عظيمٌ في اليابانِ، لم تُصَبْ بمثله تلك الديار منذ مائةٍ وخمسينَ عاماً، وقد امتدتْ آثارُه إلى دولٍ كثيرة مجاورةٍ، وارتفعتْ أمواجُ البحرِ في بعض مُدُنِ اليابان إلى عشرة أمتار، ودخلتْ مياهُ البحر إلى العمرانِ، وسقط ألوف القتلى، وانهارَتِ العماراتُ، وخربتِ الأسواقُ، وثارت الحرائقُ، وأصبحتْ بعضُ المحطاتِ الكهربائية النووية في خطر.

وقد دعا رسولُ الله ﷺ لأُمته أن لا يصيبَها بالعذابِ، فأعطاه اثنتين، ومنعه واحدة، ففي صحيح مسلم عن عامر بن سعد، عن أبيه، أنَّ الرسولَ ﷺ أقبلَ ذاتَ يوم من العاليةِ، حتى إذا مَرَّ بمسجدِ بني معاويةَ، دخلَ فركعَ فيه ركعتين، وصلَّيْنا معه، ودعا ربَّه طويلاً، ثم انصرفَ إلينا، فقال: «سألتُ ربي ثلاثاً، فأعطاني ثنتين، ومَنَعَني واحدةً، سألتُ ربي أن لا يهلك أُمتي بالسَّنَةِ، فأعطانيها، وسألتُه أن لا يُهْلِكَ أُمتي بالغرقِ فأعطانيها، وسألته أن لا يجعلَ بأسهم بينهم، فمنعنيها» [مسلم: ٢٨٩٠].

والذي أعطاه اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ أنْ لا يُهْلِكَ أُمَّتَه بعذابٍ عامٍّ أو بغرقٍ عامٍّ، أمّا أن يعذبَ طائفةً منهم بالقحط، أو يهلك بعضَهَمْ بالغرقِ، فهذا قد وقع، ولا يزال مستمراً.

وعن ثوبان، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأرضَ، فرأيتُ مشارِقَها ومغارِبَها، وإنَّ أمتي سيبلُغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لي منها، وأعطيتُ الكنزينِ الأحمرَ والأبيضَ، وإني سألتُ ربي لأمتي أن لا يُهْلِكَها بسَنَةٍ عامةٍ، وأن لا يُسلِّطَ عليهم عدواً من سِوَى أنفسهم، فيستبيحَ بيضَتَهُمْ، وإنَّ ربي قال: يا محمدُ! إني إذا قضيتُ قضاءً فإنه لا يُرَدُّ، وإني أعطيتُكَ لأُمتكَ أنْ لا أهلِكَهُمْ بسَنَةٍ عامةٍ، وأن لا أُسَلِّطَ عليهم عدوًّا من سِوَى أنفُسِهم، يستبيحُ بيضَتَهُمْ، ولو اجتمعَ عليهم من بأقطارِها -أو قال من بين أقطارها- حتى يكونَ بعضُهُمْ يُهْلِكُ بعضاً، ويسْبي بعضُهُمْ بعضاً» [مسلم: ٢٨٨٩].

وعن جابر بن عبدالله قال: لما نزلتْ هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام:٦٥] قال النبيُّ ﷺ: «أعوذُ بوجْهِكَ» فقال: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ فقالَ النبي ﷺ: «أعوذُ بوجْهِكَ» قال: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ قال النبيُّ ﷺ: «هذا أيْسَرُ» [البخاري: ٧٤٠٦ وانظر الحديث رقم: ٤٦٢٨].

جنـــــة السـ ـــــنة

وقولُه تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ٦٥﴾ [الأنعام:٦٥] أي: كيف نُبيِّنُ لهم آيات القرآن ﴿لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ٦٥﴾ أيْ: يعلمون.

٦- **تكذيبُ العربِ بالقرآن:**

قالَ اللهُ -تعالى- مخاطباً رسولَهُ ﷺ: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ٦٦﴾ [الأنعام:٦٦]. قالَ له ربُّه: لقد كَذَّبَ قومُكَ بالقرآنِ الذي جاءَكَ مِنْ عندِ الله تعالى، وهو - أي: القرآنُ- حقٌّ وصِدْق، لا باطلَ فيه، وأمرَهُ تعالى أنْ يقولَ لقومِهِ المشركين من قريشٍ والعرب: ﴿لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ٦٦﴾ أي: «لَسْتَ عليكم بحافظٍ حتى أُجازيكم على تَكْذيبِكُمْ وأعمالِكُمْ، إنما أنا مُنْذِرٌ، واللهُ المجازي لكم بأعمالِكُمْ» وعزاه الواحِديُّ إلى الحسن، [التفسير البسيط: ٨/ ٢٠٥].

وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنّ الضميرَ في قولِهِ: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ﴾ عائدٌ إلى العذابِ الذي أُنْذِرُوا بهِ، وهذا صحيحٌ، لأنَّ القرآنَ هو الذي أنْذَرَ بهذا العذابِ، فتكذيبُهُم بالعذابِ تكذيبٌ بالقرآنِ الذي أُنْذِرُوا بهِ.

٧- **لكلِّ خبرٍ أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- به وَقْتٌ ينتهي إليه:**

أعْلمنا ربُّنا - عزَّ وجلَّ- أنَّ كلَّ نبأ أخبرنا اللهُ بأنه سيقع في الأيام الآتية سيكونُ له مكانٌ يقعُ فيه، ووقتٌ ينتهي إليه ﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٦٧﴾ [الأنعام:٦٧] فقد أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ بأنّ الرومَ سيغلبون في بضع سنين من بعد غلب الفرس لهم، وجاءَ الوقتُ الذي وقعَ فيه ما أخبرنا اللهُ به، وأخبرنا ربُّنا عن خروجِ يأجوجَ ومأجوجَ ووقوع الساعةِ، وسيأتي الوقتُ الذي يقعُ ما أخبرنا اللهُ -سبحانه- به.

ونقلَ الواحديُّ عن الكلبيِّ أنه قالَ في تفسير الآية: «لِكُلِّ قولٍ حقيقة ما كانَ منه في الدنيا، فستعرفونَهُ، وما كانَ في الآخرةِ فسوفَ يبدو لكم» [التفسير البسيط: ٨/ ٢٠٨].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- اللهُ -تبارك وتعالى- وحدَهُ يعلمُ مفاتحَ الغيبِ، وهي خزائنُهُ، وهي المذكورةُ في آخر سورةِ لقمان.

٢- علمُ الله تعالى واسعٌ شاسعٌ، لا يخفى عليه خافيةٌ لا في البرِّ ولا البحر.

جنـــــة السـنـــــة

٣- تَردُّ هذه الآيةُ على الذين يزعمونَ أنَّ أئمتهم يعلمونَ ما في السماوات والأرض، فمفاتحُ الغيبِ لا يعلمها إلا اللهُ.

٤- حياةُ العبادِ ومماتُهُمْ بيدِ الله تعالى، فهو يتوفَّى أرْواحَنا بالليلِ، ويعلمُ ما جَرَحْنا بالنهارِ، ثم يبعثنا فيه، حتى تنقضي آجالُنا، وهو القاهرُ فوقنا، ويُرْسِلُ علينا ملائكةً تحفظنا وتحفظُ أعمالنا، حتى إذا انْقَضَتْ آجالُنا قبضت الملائكةُ أرواحَنا.

٥- كُلُّنا سنؤوبُ إلى الله تعالى يومَ القيامةِ، ويحاسبُنا على ما قَدَّمْنا.

٦- اللهُ تعالى وحده هو الذي ينجينا من الكوارثِ والمصائبِ في البرِّ والبحرِ إذا شاءَ عندما نَدْعُوه مخلصينَ له الدين.

٧- اللهُ قادرٌ على أنْ ينزلَ عذابَهُ بنا، فقد ينْزِلُ عذابَهُ مِنْ فوقنا، وقد يخْسفُ الأرضَ من تحتنا، وقد يذيقَ بعضَنا بأسَ بعضٍ.

٨- كذَّبَ الكفارُ بما تَوَعَّدَ اللهُ بِهِ المشركينَ، وتهَدَّدهم بما يَحِلُّ بهم فيما يأتي مِنَ الزمانِ.

٩- كلُّ خبرٍ أخْبَرَنا ربُّنا بوقوعِهِ في مقبلِ الأيام، فإنَّ له وقتاً يقعُ فيه كما أخبرَنا ربُّنا عزَّ وجلَّ في الدنيا أو في الآخرةِ.

جنـــة الســـــنة

النص الثاني عشر من سورة الأنعام

نهيُ المؤمنينَ عن قتالِ المشركينَ في مكة قبل الهجرة

أولاً: تقديم

أَعلمَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أنَّ قوْمَهُ، وهم قريشٌ والعربُ كذَّبوا بهذا القرآن، وهو الحقُّ، وأَعْلَمَهُ أنَّ كُلَّ خبرٍ أَعْلَمَ الله به عبادَه له وقت لا بدَّ أن يحلَّ فيه، ونهاهُ عن مجالسةِ المشركين في حالِ استهزائهم بآياتِ القرآنِ أو بالرسولِ ﷺ أو الدِّينِ حتى يخوضوا في حديثٍ غيره، وأمَرَهُم بعدم قتالِ الكفارِ في الفترة المكيّة، وأخبرنا عن المشركين أنَّهم اتخذوا دينَهُمْ لعباً ولهواً وغرَّتْهم الحياةُ الدنيا.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنعام:٦٨-٧٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- نهي الله -تعالى- رَسُولَه ﷺ عن مجالسةِ المشركين إذا هم خاضوا في آيات الله:

كان المشركونُ إذا جالَسوا المؤمنينَ آذوهم باستهزائهم بآيات القرآنِ ورسولِ الإسلام ﷺ ، فنهاه اللهُ -تعالى- عن مجالَستِهِمْ حتى يخوضوا في حديثٍ غيره، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنعام:٦٨].

قال الشوكانيُّ -رحمه الله تعالى- في تفسيرِ هذه الآية: «قوله: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ [الأنعام:٦٨] الخطابُ للنبيِّ ﷺ ، أو لكلِّ من يَصْلُحُ له، والخوضُ: أصلُهُ في الماءِ، ثمَّ استعملَ في غَمَراتِ الأشياء التي هي مجاهلُ تشبيهاً بغمرات الماء، فاستعير من

جنـــــة السـنـــــة

المحسوسِ للمعقولِ. والمعنى: إذا رأيتَ الذين يخوضون في آياتِنا بالتكذيبِ والردِّ والاستهزاءِ، فدَعْهُمْ ولا تقْعُدْ معهم لسماعِ مثل هذا المنكر العظيم، حتى يخوضوا في حديثٍ مغايرٍ له، أمَرَهُ اللهُ سبحانه بالإعراض عن أهلِ المجالس التي يستهانُ فيها بآيات الله إلى غاية هي الخوضُ في غيرِ ذلك.

وفي هذه الآية موعظةٌ عظيمةٌ لمن يتَسَمَّحُ بمجالسةِ المبتدعة، الذين يُحَرِّفون كلامَ الله، ويتلاعبون بكتابِهِ وسُنَّةِ رسوله، ويَرُدُّون ذلك إلى أهوائهم المضلَّةِ وبِدَعِهِمُ الفاسدةِ، فإنه إذا لم يُنْكِرْ عليهم، ويغيِّرْ ما هم فيه، فأقلُّ الأحوالِ أن يتركَ مجالَسَتَهُمْ، وذلك يَسير عليه غيرَ عسيرٍ، وقد يجعلون حُضُورَهُ معهم مع تَنَزُّهِهِ عما يَتَلَبَّسونَ به شبهةً يُشَبِّهونَ بها على العامة، فيكون في حضورِهِ مَفْسَدَةٌ زائدةٌ، على مجردِ سماعِ المنكر، وقد شاهدنا مِنْ هذه المجالسِ الملعونةِ ما لا يأتي عليه الحَصْرُ، وقمنا في نُصْرة الحق ودفع الباطل بما قَدِرْنا عليه وبَلَغَتْ إليه طاقَتُنا، ومن عَرَفَ هذه الشريعةَ المُطَهَّرةَ حَقّ معرفَتِها علمَ أنَّ مجالسةَ أهلِ البدعِ المضِلَّةِ فيها مِنْ المَفْسَدَةِ أضعافُ أضعافِ ما في مجالسةِ مَنْ يعصى اللهَ بفعل شيءٍ من المحرمات، ولا سيما بمن كانَ غيرَ راسخ القدمِ في علم الكتابِ والسنّةِ، فإنه ربما يَنْفُقُ عليهِ مِنْ كذباتِهِمْ وهذيانِهِمْ، ما هو من البطلانِ بأوضحِ مكانٍ، فيَنْقَدِحُ في قلْبِهِ ما يصعبُ عِلاجُه، ويَعْسُرُ دَفعه، فيعلمُ بذلك مدةَ عمره، ويَلْقَى اللهَ به معتقداً أنه مِنَ الحقِّ، وهو مِنَ أبطلِ الباطلِ، وأنكر المُنْكَرِ.

قوله: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأنعام:٦٨] (إما) هذه هي الشرطية، وتلزمها غالباً نون التأكيد.

والمعنى: إنْ أنْساك الشيطانُ أن تقومَ عنهم، فلا تقعد بعد الذكرى إذ ذكرتَ ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٦٨﴾ [الأنعام:٦٨] أي: الذين ظَلَمُوا أنفسهم بالاستهزاءِ بالآياتِ والتكذيبِ بها، قيل: وهذا الخطاب وإن كان ظاهره للنبيِّ ﷺ؛ فالمرادُ التعريضُ لأُمَّتِهِ لتنزهه عن أن ينْسِيَهُ الشيطانُ، وقيل: لا وجه لهذا، فالنسيانُ جائزٌ عليه كما نطقت بذلك الأحاديثُ الصحيحةُ: (إنما أنا بشر أنسى كما تَنْسَوْنَ، فإذا نسيتُ فذكِّروني)» [قال محقق الشوكاني: جزء من حديث رواه عبدالله ابن مسعود، وهو عند: أحمد ١/ ٣٧٩، ٤٢٤، ٤٢٨، وأبو داود في الصلاة (١٠٢٢) والنسائيُّ في السهو ٣/ ٢٨، ٢٩، ٣٣، وابنُ ماجه في إقامة الصلاة والسنّة فيها (١٢٠٣)] [فتح القدير: ٢/ ١٨١].

٢- ليسَ على المؤمنينَ شيءٌ من وِزْرِ المستهزئين:

أخبرنا العزيزُ العليم -سبحانه- أنَّ الذين يتقون اللهَ في أوامِرِه ونواهيه ليس عليهم من حسابِ الكفار فيما فعَلوه من الاستهزاءِ والتكذيبِ مآثم يؤاخذون بها، ولكنْ عليهم أنْ

جنـــــة الســـــنة

يذكِّروهم بالله وآياتِهِ لعلهم يتقون ما هم عليه من الاستهزاءِ والتكذيب [تفسير الماوردي: ١/ ٥٣٥] قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنعام:٦٩].

وقد ظَنَّ بعضُ أهلِ العلمِ أنَّ هذه الآية تفيد أنَّ النهيَ عن مخالطةِ المشركين في حالِ خوضهم في آياتِ الله خاصٌّ بالرسولِ ﷺ دونَ بقيةِ أصحابِهِ، وهذا غيرُ صحيحٍ، قال تعالى مشيراً إلى هذه الآية ناهياً أصحاب رسوله ﷺ عن القعود مع الخائضين في آيات الله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ [النساء:١٤٠].

٣- نهيُ الرسولِ ﷺ عن قتالِ المشركين في مكةَ:

أَمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أن يَذَرَ الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرَّتهم الحياةُ الدنيا، فلا يقاتلهم: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام:٧٠].

والمشركونَ واليهودُ والنصارى وغيرهم مِنَ الكفار اتخذوا -كما قال ربُّ العِزّةِ- دينهم هُزُواً ولعباً، وغرَّتْهم الحياةُ الدنيا، فتجدُهُمْ في أعيادِهِمْ الدينية في مُدُنِهِمْ ومجامِعِهِمْ يُعَلِّقون أبصارَهم بالساعةِ، فإذا دقّت عند منتصف الليل من عيد الميلاد إذا هم يبادرون إلى عبِّ الخمر الذي جَلَبُوه معهم لهذه المناسبة، وإذا دَخَلْتَ الكنائسَ تجدْ صلاتَهُمْ غناءً وموسيقى، بخلافِ صلاةِ المسلمين التي هي صلاةٌ وذكرٌ وقراءة قرآنٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ [الأنعام:٧٠] أَمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يُذكِّر بالقرآن قبل أن تُبْسَلَ كلُّ نفس بما كسبتْ، أي: قبل أن تُرْتَهَنَ وتُؤخَذَ بما كَسَبَتْهُ من الكفر والذنوب والمعاصي التي ارتكبتْها، وليس لها في ذلك اليوم الذي تُبْسَلُ وتُرْتَهَنُ فيه من دونِ الله وليٌّ يلي أمْرَها، ولا شفيعٌ يشفعُ لها، ويحامي عنها، ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ أي: وإن بذلت النفسُ التي أُخذتْ وارتهنتْ المالَ العظيمَ لا يُقبل منها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٩١] وقد تهدَّدَ اللهُ تعالى الذين ارتُهنوا بما كَسَبوا من المجرمين بالعذابِ الأليم في يوم الدين ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنعام:٧٠].

جنـــــة السـنــــة

رابعاً: ما تهدي إليه آيات النص من علم وعمل

إذا ما تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- استدلَ السيوطيُّ رحمه الله تعالى، بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ [الأنعام:٦٨] على وجوبِ اجتناب مجالسِ الملحدين وأهل اللغو [الإكليل: ص١١٨].

٢- واستدلَّ بقوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ [الأنعام:٦٨] «على أنَّ الناسي غير مُكَلَّفٍ، وأنه إذا ذُكِّرَ عاد إليه التكليفُ، فيقلعُ عما ارتكبه في حالِ نسيانِهِ» [الإكليل: ص١١٨].

٣- نَقَلَ القاسميُّ عن بعض مفسري الزيديَّةِ أنَّه يجوزُ مجالسةُ الكفار مع عَدِمِ الخوضِ، لأنه إنما أُمِرْنا بالإعراضِ مع الخوضِ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ [الأنعام:٦٨].

٤- لا يَتَحمَّلُ الأتقياءُ شيئاً من وزْرِ الذين يخوضون في آيات الله، ولكن عليهم أن يُذَكِّروا العبادَ بالله ويُذكِّروهم بوقوفِهِمْ بين يديه.

٥- منعَ اللهُ رسولَه ﷺ وأصحابه من قتالِ المشركين في مكة، وأَمَرَهُ بتبليغِ الناسِ وتذكيرهم بالله تعالى.

٦- كلُّ نفسٍ بما كسبتْ رهينة في يوم الدين، وكلٌّ يحاسبُ بما عمله، ومصيرُ الكفارِ في يوم الدين إلى النار.

جنـــــة السـنـــــة

النص الثالث عشر من سورة الأنعام
لا أحدَ يستحقُّ العبادةَ إلا اللهُ وحده

أولاً: تقديم

بيَّنَ اللهُ -سبحانه- لنا في آياتِ هذا النصِّ أنه هو الذي يستحقُّ العبادةَ وَحْدَه، فهو النافعُ الضارُّ، والآلهةُ غيره آلهةٌ باطلةٌ، لا تَضرُّ ولا تَنْفع، وقد أَمَرَنا اللهُ تعالى بأن نُصَلِّيَ له، ونَتَّقِيَهُ، وعرَّفَنا -سبحانه- بنفسه، فهو خالقُ السمواتِ والأرضِ بالحقِّ، وهو الذي يقيمُ القيامةَ بقوله: كن، فيكون كما أراد، ويظهر في ذلك اليومِ مُلْكُه، وهو عالمُ الغيبِ والشهادةِ، وهو الحكيم الخبير.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنعام:٧١-٧٣].

ثانياً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- كيفَ نُرَدُّ على الذين يدعوننا لعبادةِ غيرِ الله:

أَمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أنْ يقولَ للمشركين الذين يدْعونه لعبادةِ أصنامهم وأوثانهم: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ ﴾ [الأنعام:٧١].

أَمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ أنْ يخاطِبَ المشركين الذين يدْعُونه لعبادة أصنامهم منكراً عليهم، قائلاً: لهم: أندعو من دونِ الله آلهتكمُ المصنوعةَ مِنَ الشجر والحجرِ والتمرِ والخشب؟ فهي لا تنفعُنا، ولا تَضُرُّنا، ولا تسمعُ، ولا تَفْقَهُ، ولا تتحرك، ولا تجيبُ عابديها، فإن فَعَلْنا، فقد رُدِدْنا على أعقابِنا، أي: كَفَرْنا وأَشْرَكْنا بعدَ أن رَزَقَنا اللهُ الهدى.

جنـــة السـنـــة

وضَرَبَ اللهُ -تعالى- المثَلَ للكافرِ المشركِ الذي يدْعُو الأصنامَ والأوثان، بحالِ رجلٍ أضَلَّته الشياطينُ عن الطريقِ، فهو حَيْرانٌ، لا يدري أين يتوجَّه، وله أصحابٌ قائمون على الطريقِ الحقِّ، ينادونه: هَلُمَّ إلينا، هَلُمَّ إلى الطريقِ الحقّ، فإن أقام على حاله في الاستجابةِ إلى الشياطينِ ضَلَّ في أوْديةِ الهلاكِ، وإنْ أجابَ أصحابَه المهتدين اهتدى.

وعَقَّبَ رَبُّ العِزَّةِ على هذا المثال الذي ضَرَبَهُ بأمره للرسولِ ﷺ أنْ يقولَ للمشركين: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام:٧١] أي: قُلْ لهم: إنَّ هدى الله هو الهدى، وهو الصوابُ الذي لا ضلالَ مَعَهُ، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة:٣٣].

وقوله: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنعام:٧١] وأُمرنا لنُخْلِصَ ديننا لله وحده، بعبادته وَحْدَه لا شريك له، والآمرُ لنا هو ربُّنا، فكيف نخالفُ أمْرَه، ونتبْع آلهتكم من دونِه.

٢- أمرَ اللهُ عبادَه -تعالى- بإقامِ الصلاةِ والتقوى:

وأمَرَنا ربُّنا تعالى في الآية التالية أن نقيمَ الصلاةَ ونتَّقيَهُ ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنعام:٧٢] وإقامُ الصلاةِ الركنُ الأعظمُ في الإسلام بعدَ الشهادتين، وتتحقق إقامتُها بالإتيانِ بها على وَجْهِها بأركانها وفرائضها في أوقاتها، وأمَرنا بتقواه سبحانه، أي: بتعظيمه، وتوقيرِه، وخوْفِه، وخشيتِه، والإتيان بما أمَرنا به، وتَرْك ما نهانا عنه وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه الذي يستحقُّ وَحْدَه أن نصليَ لَهُ، ونتَّقيَهُ، دونَ غيرِه، فهو الذي نُحْشَر إليه، أي: نجمعُ إليه في يومِ الدين، فيُثيبُنا إن عبدناه، ويعاقبنا إن كفرنا به.

٣- تعريف ربِّ العبادِ العبادَ بنفسه سبحانه:

عرَّفنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- بنفسِهِ، فأخبرنا أنه هو الذي خَلَقَ السموات والأرضَ بالحق ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:٧٣]، والسمواتُ والأرضُ مخلوقان عظيمان، مِنْ أعظم مخلوقاتِ الله، ومتى أقرَّ العبدُ بأنهما مخلوقان، انْتَفى أنْ يكون شيءٌ مما فيهما إلهاً فالأصنامُ والأوثانُ والأشجارُ والأحجارُ والأنعامُ والبحارُ والشمسُ والقمرُ والنجوم ونحوها كلُّها أجزاءٌ من السماوات والأرض، وهي كُلُّها مخلوقةٌ مربوبةٌ لله ربِّ العالمين.

وقد خَلَقَ اللهُ الأرضَ والسماءَ بالحقّ، أيْ: خلقهما لغايةٍ، ولم يخلقهما باطلاً وعَبَثاً، فكلُّ ما في السمواتِ والأرضِ عابدٌ لله مسبحٌ له ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ﴾

جنـــــة الســـــنة

[الإسراء:٤٤] ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ [الحشر:١]. وخَلَقَ اللهُ الأرضَ لتكون مسكناً لبني آدمَ ليعْبدُوه ويوحِّدوه ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩] ولو خَلَقَ الله السمواتِ والأرضَ لغير غايةٍ، لكان خلقهما لعباً وعبثاً ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنبياء:١٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ [الأنعام:٧٣] يقولُ اللهُ لرسولِهِ ﷺ: واذكرْ يومَ يقولُ اللهُ عز وجل: كُنْ، فيكونُ، وهذا اليومُ يومُ القيامةِ، ويومُ القيامةِ يكونُ بأمْرِ الله كما يريدُ الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنعام:٧٣]. ولما كانَ قولُه سبحانه حقّاً، فإنَّ يومَ القيامةِ يكونُ كما يريدُه اللهُ تعالى، وفي يوم القيامةِ يكونُ المُلْكُ كُلُّهُ لله وَحْدَه، فالعبادُ -كما صحّ في الحديث- يحشرونَ حُفاةً عُراةً غُرْلاً، أما في الدنيا فالعباد يملكون ملكاً عارضاً، لا يلبثُ أنْ يزولَ، قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ [الأنعام:٧٣] والصورُ هو البوقُ الذي ينفخُ فيه النفخةُ الأولى فيُدَمَّرُ الكون، ثم ينفخُ فيه النفخةُ الثانيةُ، فيقومُ الناسُ لربِّ العلمين، وعرَّفنا ربنا في خاتمةِ الآيةِ بأنه سبحانه العالمُ بما غابَ عنَّا وبما نشاهده، وأنه هو الحكيم الخبير ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنعام:٧٣].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- لا يجوزُ دعاءُ ما يعبدُ من دون الله تعالى، فهي آلهةٌ باطلةٌ، لا تضرُّ، ولا تنفعُ.

٢- الدعاءُ من العبادات التي لا يجوزُ صَرْفُها إلى غيرِ الله تعالى.

٣- الذي يدْعو رَبّاً غير الله كافرٌ مُشْرِكٌ.

٤- ضرب الله مثلاً للمشركين المعرضينَ عن الصراط المستقيم بالذي أضَلَّتْه الشياطينُ عن الطريقِ، فهو حيرانٌ، لا يدري أين يسيرُ، وأصحابُه يدعونَه إلى الهُدى.

٥- المؤمنون الصادقونَ، يقيمونَ الصلاةَ، ويتَّقونَ الله، رجاءَ ثوابِ الله.

٦- اللهُ تباركَ وتعالى خَلَقَ السمواتِ والأرضَ وما بينهما لتكونَ معبداً لله ربِّ العالمين.

٧- يومَ القيامةِ كائنٌ بأمرِ الله، ويكونُ الملكُ في ذلك اليوم لله وحده.

جنـــــة السـنـــــة

٨- يُدَمَّرُ الكونُ في نهاية العالم بنفخِ إسرافيلَ في الصورِ، وعندما ينفخ فيه أخرى يقومُ الناسُ لرب العالمين.

٩- اللهُ وحْدَهُ عالمُ الغيبِ والشهادةِ وهو الحكيمُ الخبيرُ.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني الرابع عشر من سورة الأنعام

طرفٌ من قصةِ إبراهيم عليه السلام

أولاً: تقديم

يقصُّ اللهُ -تبارك وتعالى- في آيات هذا النص طرفاً من قصة نبيِّه وخليله إبراهيم عليه السلام، وهذا القصصُ فيه بيانٌ واضحٌ للغرض الذي سيقتْ من أجله القصة، فلا يحتاج هذا القصصُ إلى مزيدِ بيانٍ لتتضح معانيهِ ومقاصِدُهُ. وقد سوَّد كثير من المفسرين صفحاتٍ لبيان أُمورٍ خارجةٍ عن القصةِ، بعضُها أقربُ إلى الأسْطورَةِ أو الخرافةِ، وبعضها يصادمُ القرآن وينافيه فيما أخبر به، وكلُّ الذي جاؤوا به ليس فيه نصٌّ صحيح لا من الكتاب ولا السنّة النبوية.

فقد أنْكرَ بعضُهم أن يكونَ اسمُ والد إبراهيم آزرَ، ورجَّحَ ما أخبرت به التوراةُ من أنَّ اسمه (تارح)، وبعضُهُمْ رجّح غير ذلك، وذكر بعضُهُم أنَّ إبراهيمَ انفرجتْ له السمواتُ السبعُ والأرضونَ السبعُ حتى عَرَفَ أسرارَها، وذكرَ بعضُهم أنَّ السمواتِ والأرضَ التي أراها اللهُ إبراهيمَ كانت قائمةً على صخرةٍ، والصخرةُ قائمة على حوتٍ، والحوتُ قائمٌ على خاتمِ ربِّ العالمين، وبعضُ هذه الأخبار ذَكَرَتْ أنَّ إبراهيم رأي في حالِ اطِلاعِه على ما في السمواتِ والأرضِ رجالاً يزنون، فدعا عليهم الواحد بعدَ الآخرِ، فأهلكهم اللهُ تعالى، فأنْكرَ اللهُ عليه، وبيَن له أنَّ معالجةِ العبادِ بالهلاكِ السريعِ لا يصْلَحُ.

وذكر بعضُهم أنَّ والدةَ إبراهيمَ بعدما ولَدَتْهُ أخْفَتْه، في غارٍ خوفاً عليه من الجبابرةِ، الذين أخبرُهم الكهانُ بأنَّ ولداً سيولد في ذلك العام، سيكون هلاك طاغيةِ ذلك العصر على يَدِه، وكانت أصابعُ إبراهيمُ تُدرُّ له عندما يضعها في فمه عَسَلاً ولبناً وماءً، وأنَّ نَظَرَ إبراهيم في السمواتِ والأرضِ كان وعمرهُ خمسةَ عشرَ شهراً [راجع: تفسير الطبري: ٤/ ٣٢٣٢-٣٢٣٨. وتفسير ابن عطية: ٣/ ٣٩٨، ٤٠٢. وتفسير البغوي: ٣/ ١٥٩-١٦١].

وقد شوَّهت هذه الأخبارُ التي ليس عليها دليلٌ ولا برهانٌ القصة القرآنية، وأوجدتْ فيها تناقضاً، وكان ينبغي أن لا تذكر بحال، وينزه القرآن، عن أن يُفسَّرَ بها، والله أعلم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾
وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا

جنـــــة السـنة

كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ
قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا
أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا
أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾
وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا
فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ
وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ
عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ
وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ
وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾
وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ
مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ
وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ
اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنعام:٧٤-٩٠].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إبراهيمُ عليه السلام ينكرُ على أبيه وقومِهِ عبادتَهم الأصنام:

أخبرنا ربُّنا العليمُ الخبيرُ أنَّ نبيَّهُ وخليلَهُ إبراهيم عليه السلام أنكرَ على أبيه (آزر) اتخاذَهُ الأصنامَ آلهةً يعبدُها من دون الله تعالى، وصرَّحَ له أنَّه يراهُ وقومَهُ الذين يفعلون فِعْلَهُ في ضلالٍ مبين ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنعام:٧٤].

وقد أعلمنا ربُّنا في هذه الآية أنّ اسمَ والدَ إبراهيم (آزر)، فلا يجوز لأحدٍ من الناس مهما بلغَ عِلْمُهُ أن يقول: هذا ليس اسمه، أو أنَّ اسمه تارح، غَفَرَ اللهُ لمن قالَ ذلك مِنَ المفسرين.

٢- اللهُ يُرِي نبيَّهُ إبراهيمَ عليه السلام ملكوتَ السموات والأرض:

أعْلَمنا ربُّنا العليمُ الخبيرُ سبحانَهُ أنَّه أرى عبدَهُ ورسولَهُ إبراهيمَ عليه السلام ملكوت السماواتِ والأرضِ، ليكونَ من الموقنين ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنعام:٧٥].

جنـــــة السـنة

و﴿مَلَكُوتَ﴾ بمنزلةِ المُلْكِ، إلا أن المَلَكوتَ أبلغُ في اللغةِ، لأنَّ الواوَ والتاءَ يزادانِ للمبالغةِ، ومثلَ الملكوتِ: الرَّغَبُوتُ والرَّهَبُوتُ.

وملكوت السماواتِ والأرضِ الذي أراه اللهُ لإبراهيم ﷺ، يعني بِهِ الشَّمْسَ والقمرَ والنجومَ والجبالَ والبحارَ والحيوانَ والأشجارَ ونحو ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: ليبلغَ درجةَ اليقين، فالنَّظَرُ في السمواتِ والأرضِ وما فيهما من شمسٍ وقمرٍ ونجوم، وجبالٍ وسهولٍ وبحارٍ وأنهارٍ، يغرسُ الإيمانَ في القلوبِ، وقد سَبَقَ أن بَيَّنْتُ أنَّ اليقينَ يتحقق بورودِ المعاني والدلائل الكثيرة المتنوعة على القلبِ، فتنغرسُ فيه، وتصبحُ لازمةً له، وهذا يتحقَّقُ عَبْرَ تدبرِ آياتِ الله المنزلةِ في القرآنِ، وآياتِ الله المشهودةِ في الكونِ.

٣- إبراهيم يحتجُّ على قومِهِ:

أخبرنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَّ إبراهيمَ احتجَّ على قومِهِ، وبيَّنَ لهم ضَلالَهُمْ فيما عَبَدُوه من النجومِ والقمرِ والشمس، وأخبرنا أنَّ إبراهيمَ ﷺ لما جَنَّ عليه الليل أي: أظْلَمَ عليه وتغشَّاهُ وسَتَرَه، رأى كوكباً، فقال: هذا ربي الذي يصلُحُ للعبادة، فلما غابَ ذلك النجمُ قال: لا أحبُّ الآفلين، فاللهُ لا يجوزُ له أن يظهر على خَلْقِهِ، ثم يختفي عنهم ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنعام:٧٦].

فلما رأى إبراهيمُ ﷺ القمر بازغاً، أي طالعاً، قال: هذا ربي، فلما أفَلَ، قال لقومِهِ: لئن لم يهْدِني ربي لأكونن من القوم الضالين ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنعام:٧٧] «لقد اعْتبَرَ إبراهيمُ ﷺ في القمر مثل ما اعتبر في النجم، وكانت حُجَّتُهُ على قومِهِ كالحجّة في النجم، وقولُ إبراهيم ﷺ: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾ لا يدلُّ على أنه لم يكن مهتدياً، لأن معناه: لئن لم يُثبِّتْني ربي على الهدى، والأنبياءِ لم تزلْ تسألُ الله ذلك، وتعلمُ أنه لولا هداية الله ما اهتدتْ» [التفسير البسيط للواحدي: ٨/ ٢٤٩].

وأخبرنا العزيزُ العليم أنّ إبراهيمَ لما رأى الشمسَ بازغةً قال: هذا ربي، هذا أكبرُ، لما غابَتْ قال: يا قوم إنني بريءٌ مما تشركون. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنعام:٧٨].

جنـــــة الســـــنة

لقد احتجَّ إبراهيمُ على قومه بأن النجومَ والقمرَ والشمس جميعها لا تَصْلَحُ أنْ تكونَ ربّاً ولا إلهاً، وقد بيَّن ابنُ كثيرٍ رحمه الله تعالى كيفَ احتجَّ إبراهيم على قومه، فقال: «والحقُّ أنَّ إبراهيمَ عليه السلام كان في هذا المقام مناظراً لقومِهِ، مبيِّناً لهم بطلانَ ما كانوا عليه من عبادة الهياكلِ والأصنام، فبيَّن في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادةِ الأصنام الأرضية، التي هي على صورة المَلائكة السماوية، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذي هم عند أنْفُسِهِمْ أحقَرُ من أن يعبُدُوه، وإنما يتوسَّلون إليه بعبادة ملائكته، ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر، وغير ذلك مما يحتاجون إليه، وبيَّن في هذا المقام خطأهم وضلالَهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكبُ السيارة السبعةُ المتحيِّرة، وهي: القمرُ، وعُطارِدُ، والزُّهرةُ، والشمسُ، والمريخ، والمشتري، وزُحَلَ. وأشدُّهن إضاءةً وأشرقهن عندهم الشمسُ، ثم القمرُ، ثم الزهرة.

فبيَّن أولاً صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزهرةَ لا تصلُحُ للإلهية، لأنها مسخرة مقدَّرة بسيرٍ معيَّنٍ، لا تزيغ عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تملِكُ لنفسها تصرُّفاً، بل هي جُرْمٌ مِنَ الأجرام خلقها اللهُ منيرة، لما له في ذلك من الحِكَم العظيمة، وهي تطلعُ مِنَ المشرقِ، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيبَ عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثلُ هذه لا تصلح للإلهية، ثم انتقل إلى القمر فبيَّن فيه مثل ما تقدَّم في النجم، ثم انتقل إلى الشمس كذلك، فلما انتفتِ الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنورُ ما تقع عليه الأبصارُ، وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨﴾، أي: أنا بريءٌ من عبادتِهِنَّ وموالاتهنَّ، فإن كانت آلهةً فكيدوني بها جميعاً ثم لا تُنظرون، ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٧٩﴾، أي: إنما أعبدُ خالقَ الأشياء ومخترِعَها ومُسَخِّرها ومقدِّرها ومدبِّرها، الذي بيده ملكوتُ كل شيءٍ، وخالقُ كل شيءٍ وربُّه ومليكُه وإلهه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمْرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف:٥٤]» [ابن كثير: ٣/ ٥٠].

٤- تخويفُ قوم إبراهيم له بآلهتهم:

أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّ قومَ إبراهيمَ خاصَموه فيما قرَّرَهُ من وحدانية الله، وخوَّفوه آلهتَهُمُ التي تبرأ منها، وأعلمنا بما أجابَهُمْ، وبيَّن لهم، فقال: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ أَفَلَا

جنـــــة السـنة

تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨٠-٨٢].

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ نبيَّهُ إبراهيم عليه السلام قال لقومِهِ: أَتُحاجُّوني في الله، أي: تجادلوني في وحدانية الله، وتزعمون أنَّ له أنداداً وشركاء، وقد هداني ربِّي إلى الحقِّ، وبصَّرني به، فأنا على بينةٍ من أمري، وأعْلَنَ لهم غيرَ خوَّافٍ ولا وَجِلٍ أنَّ آلهتهم التي خوَّفوه بها زاعمين أنَّها ستُنْزِلُ به العقابَ والعذابَ لا تخيفه، ولا تُفْزِعه، فإنها لا تَضُرُّ ولا تنفعُ، ولكنْ إذا حلَّ به أمْرٌ فهو من الله وحْدَهُ، وهذا الذي تهدَّدَ به إبراهيمَ قومُهُ، فَعَلَهُ قومُ هودٍ، فلم يُفزِعْهُ تهديدُهم، وجابَهَهُمْ وواجَهَهُم معلناً لهم أنَّ آلهتهم لا تخيفهُ ولا تفزعه ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ﴾ [هود:٥٣-٥٦]، وقوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ﴾ أي: أحاطَ علمُ ربي بكل شيءٍ، وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ أي: أفلا تعتبرون وتعلمون أنَّ آلهتكم حجارة منحوتةٌ، وأخشابٌ منصوبةٌ، لا تضرُّ، ولا تنفع.

وعندما خوَّفوه بآلهتهم أنْ تُخْبِلَه أو تمرضَهُ، قالَ لهم: كيف أخاف الآلهةَ التي جعلتموها شركاءَ لله تعالى، وهي لا تضرُّ ولا تنفع، ولا تتكلمُ ولا تسمعُ، أنتم لا تخافونَ الله الواحدَ الأحدَ القويَّ القاهرَ، الذي أشركتم به أصنامَكُمْ وأوْثانكم، وقولُه: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ﴾ أي: لم ينزلْ حجَّةً ولا برهاناً، يُقِرُّ لكم بألوهية معبوداتِكُم.

وقد سأل إبراهيمُ عليه السلام قومَهُ في خاتمةِ خطابِهِ موبخاً إياهم، قائلاً لهم: ﴿فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ عنى بالفريق الأول نفسَهُ، وعنى بالفريق الثاني قومَهُ المشركين، ثم قرر الحقَّ في هذه المسألة، وقال لهم: الذين آمنوا بالله وحده، ولم يَخْلِطوا إيمانَهُمْ بظلم، أي: بشركٍ لهم الأمْنُ في يوم القيامة، وهم المهتدون ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨٢]، عن عبدالله قال: «لما نزلت ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢] قال أصحابُ رسولِ الله ﷺ: «أيُّنا لم يَظْلِمْ نفسه؟»

جنـــــة السـنــــة

فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣]» [البخاري: ٣٢. ومسلم: ١٢٤ بزيادة].

وعن عبدالله أيضاً قال: «لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢] قلنا: يا رسول الله، أيُّنا لا يظلم نفسه؟ قال: ليس كما تقولون، ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢] بشرْكٍ، أو لم تسمعوا إلى قولِ لقمان لابنه: ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣]» [البخاري: ٣٣٦٠. ومسلم: ١٢٤].

٥- إيتاءُ الله -تبارك وتعالى- رسولَهُ إبراهيم حُجتَهُ على قومِهِ:

قولُهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام:٨٣].

أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أنه آتى إبراهيم حجَّتَهُ على قومِهِ في مُحاجَّتهم له، والمشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ [الأنعام:٨١].

وقد خَصَمَ بها قومَهُ، وانتصرَ عليهم في مجالِ الحجاج، وقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ وأول من يدخل في الذين رفع درجتهم نبيُّه إبراهيم عليه السلام، فقد رفع اللهُ درجتَه في الدنيا فيما آتاهُ الله من حجةٍ انتصر بها على قومه، ورفعه بالنبوة وبالرسالة، وله في الآخرة الدرجاتُ الرفيعة العالية.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ أي: حكيم في أفعاله وأقواله، وعليم بمن يهديه ويُضلّه.

٦- الرسل والأنبياء من ذرية إبراهيم عليه السلام:

كلُّ الرسل والأنبياء الذين ابتعثهم اللهُ -عز وجلَّ- بعد إبراهيم هم من ذرية إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ﴾ [العنكبوت:٢٧].

وقد ذَكَرَ اللهُ -تعالى- في هذا الموضع خمسةَ عشر رسولاً ونبياً والرسلُ والأنبياءُ الذين أعلمنا اللهُ -تعالى- أنَّهم من ذريةِ إبراهيمَ في مواضع أخرى أكثر من هذا العدد.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام:٨٤] أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنه وَهَبَ لعبدِهِ إبراهيمَ عليه السلام ولَدَهُ إسحاق، وهو رسولٌ

جنـــــة السـنـــــة

نبيٌّ، كما وَهَبَه من إسحاقَ حفيدَه يعقوب، وهو أيضاً نبيٌّ رسولٌ، ويعقوبُ هو إسرائيلُ، الذي هو والدُ بني إسرائيل، وأثْنى اللهُ تعالى على إسحاقَ وابنِهِ يعقوبَ بقوله: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾، ثم أثْنى سبحانه على عبدِه ورسوله نوحٌ ﷺ بقوله: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾، ونوحٌ من آباءِ إبراهيم عليهما السلام، فكلُّ الرسلِ والأنبياءِ بعد نوحٍ كانوا من ذرية نوحٍ.

ثم ذكر اللهُ تعالى جملةً من الرسل والأنبياء كُلِّهم من ذرية إبراهيم، وهم داودُ وسليمانُ، وهما نبيان ملكان، وداودُ والد سليمانَ، وأيوبُ ويوسفُ، وموسى وهارون، وأثنى اللهَ عليهم جميعاً بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝٨٤﴾. والمحسنونَ الذين بلغوا الغايةَ في عبادةِ ربهم.

وذكر اللهُ تعالى أن من ذرية إبراهيم ﷺ: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝٨٥﴾ [الأنعام:٨٥] والصالحون الذين بلغوا القمة في الصلاح. وذكر من ذرية إبراهيم أيضاً: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ۝٨٦﴾ [الأنعام:٨٦].

وهذه الآية صريحة في أنه فضَّل أنبياءه ورسُلَهُ على العالمين وقد أخطأت بعض الفرق التي تُنْسَبُ إلى الإسلام عندما فضَّلت أئمتها على بعض الأنبياءِ والرسلِ، كما أخطأ بعضُ الذين فضَّلوا خاتمَ الأولياء على خاتم الرسل والأنبياءِ، وكلُّ هؤلاء ضَلُّوا ضلالاً عظيماً، فقد خالفوا ربَّ العزة فيما صرَّح به في الآية.

وقد ذَهَبَ بعضُ المفسرين إلى أن الرُّسُلَ والأنبياء المذكورين من بعد داود وسليمان هم من ذرية نوحٍ، لا من ذرية إبراهيمَ، لأن لوطاً ﷺ كان من ذرية نوح، ولم يكن من ذرية إبراهيم.

وما قالوه من أنَّ لوطاً لم يكن من ذرية إبراهيم ﷺ صحيح، ولكنه ذكره في ذريته من باب التوسع، فقد كان لوطٌ ابن أخي إبراهيم، وهذا شبيه بما حكاه الله عن أولاد يعقوب عندما سألهم يعقوبُ وهو يموتُ عن الإله الذي يعْبُدونه من بعده، قالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة:١٣٣].

فذكروا إسماعيل في آباء إسرائيل، وهو عمُّه، ذكروه في آبائه من باب التوسع، فإنَّ العمَّ بمثابة الأب.

وعندما يتأملُ القارئ للآياتِ يجد الآيات مسوقةً للحديثِ عن إبراهيم، لا عن نوحٍ، فحملَ ما ذكره الله عن الذرية أنها ذرية نوحٍ بعيد، لأنها غير مسوقة للحديث عنه.

جنـــــة السـنـــــنة

وما ذكره بعض المفسرين أن بعض الأنبياء المذكورين في هذا النص ليسوا من ذرية إبراهيم كيونسَ وإلياسَ ليس عليه دليلٌ، بل ينبغي أن يُستدلَّ بالآية أنَّ كل هؤلاء الأنبياء من ذرية إبراهيمَ باستثناء لوط عليهم جميعاً السلام.

٧- ثناء الله -تعالى- على المؤمنين من آباء الرسل والأنبياء وذرياتهم وإخوانهم:

أثنى اللهُ تعالى على المؤمنين من آباء الرسل والأنبياء الذين ذكرهم وذرِّياتهم وإخوانهم وأخبر أنه اصطفاهم وهداهم إلى صراطه المستقيم، وهو دينُ الله المتمثلُ في عبادة الله وَحْدَه ﴿وَمِنْ ءَابَآبِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنعام:٨٧].

وقد أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ ما حَصَلَ لمن ذكرهم اللهُ تعالى من التوفيق والهداية إلى الدين الحق، حصل لهم بتوفيق الله وهدايته ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:٨٨] وأخبر أنهم لو أشركوا لحبطت أعمالهم، أي: بطلت ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام:٨٨].

٨- ثناءُ الله تعالى على رسله وأنبيائه بما آتاهم من الكتاب والحُكْم والنبوة:

أثنى اللهُ على أنبيائه ورسلِهِ الذين آتاهم الكتابَ والحكم والنبوة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام:٨٩] والأنبياءُ والرسل جميعاً آتاهم الله تعالى الحكم والنبوة، أما الكتاب، فقد آتاه بعضهم دون بعضٍ، فممن آتاه -تعالى- الكتابَ إبراهيمُ عليه السلام، فقد آتاه صحف إبراهيم، وأنزل على موسى صحف موسى، وهي التوراةُ، وآتى داود الزبور، وأنزل على عيسى الإنجيل، وآخر كتبه وأعظمها القرآنُ الذي أنزله على عبده ورسولِهِ محمدٍ ﷺ.

وأعلم اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أنه ﴿يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنعام:٨٩] وأرادَ بقوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ كفارَ قريشٍ ومشركي العرب، والمرادُ بالذين وكلَّهم اللهُ بها المهاجرونُ والأنصارُ، وإذا تخلَّى المسلمون عن الإسلام في أي عصرٍ من العصور، فإنَّ اللهَ تعالى يهدي إلى الإسلام من يَحْمِلُهُ، وينصرُهُ، ويجاهدُ في سبيله، فقد دخلَ في الإسلام ونصرهُ الأتراكُ العثمانيون، والأكرادُ، وغيرهم.

٩- أمرَ الله تعالى نبيَّهُ محمداً ﷺ أن يقتديَ بهديِ الرسل والأنبياء من قبله:

أثنى اللهُ -تبارك وتعالى- على رسله وأنبيائه، وهم المشارُ إليهم بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:٩٠] وأمر اللهُ رسولَه ﷺ أنْ يقتدي بهداهم ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾

جنـــــة السـنـــــة

[الأنعام:٩٠] وأمَرَهُ أن يقولَ للناس: لا أسألكم على ما أُبلِّغكُمْ به أجراً، وأنْ يُعْلِمَهم أنَّ ما يُبَلِّغُهم إياهُ إنما هو ذكرى للعالمين، يُذكِّرهُمْ بالله ربِّهم، ويدُلُّهم عليه، ويرشِدهم إليه ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام:٩٠] يريدُ أنَّ القرآنَ موعظةٌ للخلقِ أجمعين.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- يجب على العلماء والدعاةِ أن يبدؤوا بالإنكار على ضلال آبائهم وأقربائهم، فقد سارعَ إبراهيمُ في الإنكارِ على أبيهِ في عبادتِهِ الأصنامَ، وأخبره أنه يراه هو وقومه في ضلالٍ مبين.

٢- أعظمُ الضلالِ والفسادِ هو الشركُ بالله تعالى، وعلى المسلم أن لا يتهاونَ في إنكاره، وبيان ضلال الذين يفعلونَهُ، كما فعل ذلك نبيُّ الله إبراهيمُ.

٣- الهدايةُ تأتي من طريقين: الأول: النظرُ في آيات الله المسطورة، والثاني: النظرُ في آيات الله المنظورة، وقد امتنَّ اللهُ تعالى على نبيه إبراهيم عليه السلام، فقد أراه آياتِهِ المنظورة المبثوثة في ملكوتِ السموات والأرض.

٤- الإكثارُ من النظر الصحيح في آيات الله المبثوثة في السموات والأرض فإنه يجْلبُ اليقين لصاحبها، فاللهُ -تعالى- أرى إبراهيمَ ملكوتَ السموات والأرض، ليكونَ من الموقنين.

٥- ناظرَ إبراهيمُ عليه السلام قومَهُ، واستدلَّ على أنَّ ما يعبدونه من النجوم والقمر والشمس وغيرها آلهة باطلة، لأنها تأفلُ وتغيبُ، والإلهُ الذي يأفلُ أو يغيبُ ليس بإله، أو هو إلهٌ باطلٌ.

٦- أعلنَ إبراهيمُ في نهاية مناظرتِهِ لقومه أنه بريءٌ من الآلهة التي يعبدونَها من دون الله تعالى، وكذلك يجبُ أن يفعلَ العلماءُ والدعاة.

٧- المؤمن الحقُّ هو الذي يُخلِصُ دينَهُ لله عز وجل كما فعلَ نبيُّ الله إبراهيمُ في إعلانِهِ أنه وَجَّهَ وَجْهَهُ للذي فطرَ السمواتِ والأرضِ، أي: خلقهما على غير مثالٍ سابق.

٨- أحْسَنَ نبيُّ الله إبراهيمُ حيثَ ساقَ من الحججِ والبيناتِ ما أبْطَلَ حُججَ قومِهِ، وانتصرَ عليهم في الحجاجِ.

جنـــــة السـنـــة

٩- خَوَّفَ قومُ إبراهيمَ إبراهيمَ عليه السلام عندما هاجمَهُمْ، فحذَّروهُ مما ستوقِعُه آلهتُهُم به من العذابِ والهوانِ، فأعلنَ لقومِهِ أنَّه لا يخافُ آلهتهم التي يُخوِّفونه بها، إلا أن يشاءَ اللهُ شيئاً.

١٠- عَكَسَ إبراهيم الحجةَ على قومِهِ، فالآلهةُ التي يعبدونَها لا تَضُرُّ، ولا تَنْفَعُ، والإلهُ الذي يستحقُّ أنْ يُخافَ هو اللهُ الذي أشركوا به ما لم ينزلْ به عليهم سلطاناً.

١١- الذي يُحقِّقُ التوحيدَ في الدنيا له الأمْنُ التامُّ في يوم القيامة، والمشركونَ في الآخرة هم الذين يحلُّ بهم الخوفُ في ذلك اليوم.

١٢- رَفَعَ اللهُ -تعالى- مقامَ إبراهيمَ عليه السلام في الدنيا بنصره في الحجاج على قومه، وسيرْفَعُ اللهُ -تعالى- درَجَتَهُ في يوم الدين.

١٣- جَعَلَ اللهُ -تعالى- في ذريةِ إبراهيمَ النبوةَ والكتابَ، فما من نبيٍّ من الأنبياء، ولا رسولٍ من الرسل، بعد إبراهيم إلا وهو من ذريته.

١٤- ذكر اللهُ من الأنبياء والرسل -في هذا الموضع- خمسة عشر رسولاً، كُلُّهم من ذريته إلا لوطاً، فإنه ابنُ أخيهِ.

١٥- كلُّ الأنبياء والرسلِ من المحسنين الصالحين، وكُلُّهم فضَّلَهُمُ اللهُ على غيرهم من الصديقين والشهداء والصالحينَ، وقد ضلَّ من فضَّل بعضَ الذين يُظَنُّ أنه من الصالحين على الأنبياءِ والمرسلين.

١٦- أثنى الله تعالى على آباءِ الرسل وذرياتهم وإخوانهم إذا كانوا من المؤمنين وأخبرنا أنه اجتباهم وهداهم إلى صراطٍ مستقيم.

١٧- المشركُ يُحْبَطُ عمَلُهُ يوم القيامة بسبب شركه.

١٨- أثنى اللهُ على الرسلِ الذين ذَكَرَهُم، بأنه آتاهُمُ الكتابَ والحكم والنبوة.

١٩- أثنى اللهُ تعالى على المؤمنين من هذه الأمة، وفي مقدِّمتهم المهاجرون والأنصار، لإيمانهم بالأنبياء والرسل وما جاؤوا به.

٢٠- حَكَمَ اللهُ على الرسل والأنبياء الذين ذكرهُم بأنه هداهُمْ، وأمر رسولَنا ﷺ أن يقتدي بهم.

٢١- لا يجوزُ أخذُ الأجر على تعليم العلم والدعوة إلى الله ربِّ العالمين.

جنـــــة الســــــنة

النص الخامس عشر من سورة الأنعام

الردُّ على الذين زعموا أنَّ اللهَ لم يُنَزِّل كتاباً على واحدٍ من البشر

أولاً: تقديم

ردَّ اللهُ -تعالى- على الذين يُنْكِرون أنْ يكونَ اللهُ -تعالى- أَنْزَلَ على واحدٍ من البشر كتاباً من عنده، وقد سألهم اللهُ عن الكتاب الذي جاءَ به نبيه موسى ﷺ وهو التوراة، وذمَّ اليهودَ بإخفائهم لبعض ما جاءَهم من هذا الكتاب. وذَكَرَ اللهُ تعالى في ردِّه على المكذبين بالكتب كتاباً آخر أنزله مباركاً لينذرَ بِهِ، وهو القرآنُ، وبيَّن -سبحانه- أنَّه لا أحد أظلم مِنَ الذين يفْتَرونَ ويكذبون على الله، وبيَّنَ حالهم عندما تقبضُ أرواحُهُم، وكيفَ يكونُ مصيرهم يوم القيامة.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام:٩١-٩٤].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لم يُعَظِّمِ اليهودُ اللهَ حقَّ تعظيمِه عندما أنكروا إنزالَ الكتب على الرسل:

أخبرنا ربُّنا عز وجل أنَّ اليهودَ لم يُعَظِّموا اللهَ حقَّ تعظيمِهِ، عندما زَعَموا كاذبين أنَّ اللهَ تعالى وتقدَّس ما أنزل على بشر من شيءٍ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٩١]. وهؤلاء الذين قالوا هذه المقالة لم يعرفوا اللهَ حقَّ معرفته، فاللهُ الحكيمُ الخبيرُ خلقَ

جنـــة السـنــة

البشَرَ، وأرْسل إليهم رسله، وأنزلَ عليهم كُتُبَهُ، ليعبدُوه، ويوحِّدُوه، وذلك مقتضى فضْلِهِ ورحمتِهِ وحكمتِهِ سبحانه.

وقد أمَرَ اللهُ تعالى أن يجيبَ هؤلاءِ بما يعرفونَهُ من دينهم: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام:٩١].

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ لهؤلاءِ: من الذي أنزلَ الكتابَ الذي جاء بِهِ موسى ليكونَ نوراً وهدى، وليكشفَ الضلالَ، ويبينَ الحقَّ للناس، والكتابُ كتابُهُمْ، والرسولُ الذي أُنزل عليه رسولُهم، وقد ذمَّ اللهُ أحْبارَهم لأنهم كَتَبوهُ في قراطيسَ، فأظهروا بعضَه، وأخْفوا كثيراً منه، وقد جاء رسولُنا ﷺ فأظهر كثيراً مما أخفاه اليهودُ من الكتاب ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ﴾ [المائدة:١٥].

وقد أخبر اللهُ تعالى يهودَ المدينة بأنهم علِمُوا ما لم يكونوا يعلمونه هم وآباؤهم ومصدرُ هذا العلم هو ما جاءَهم به نبينا ورسولنا من عند ربِّنا ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ﴾ [الأنعام:٩١]، ثم أمَرَ اللهُ تعالى رَسُوله ﷺ أنْ يقولَ لهم مجيباً على السؤالِ الذي سألهم إياه: اللهُ، أي: اللهُ هو الذي أنْزَلَهُ على موسى.

وقوله: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام:٩١] أي: قُلْ لهم: اللهُ أنزله، ثم دعْهُمْ في جهْلِهِمْ وضلالتِهِمْ.

٢- ثناءُ اللهِ -تعالى- على كتابه الذي أنْزَلَه على رسولِهِ ﷺ:

بعد أن أثنى اللهُ -سبحانه- على الكتابِ الذي أنْزَلَهُ اللهُ تعالى على نبيِّه موسى عليه السلام، ثنى بذكر الكتابِ الذي أنْزَلَهُ على عبدِهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ وهو القرآنُ، فقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام:٩٢].

وقولُهُ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ هو القرآنُ، أنْزَلَه مباركاً، والمبارك الذي بارك اللهُ فيه، وأصْلُ البركة: الزيادةُ والنماءُ، ومن بركةِ هذا الكتاب أنه نورٌ، لعقولنا، وحياةٌ لقلوبنا، وبه تُغْفَرُ الذنوبُ، خيرُهُ كثيرٌ، ومنفعتُه دائمةٌ، يبشرُ بالمغفرة والثوابِ، ويزجُرُ عن المعصية والقبيح، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى:٥٢].

جنـــــة السـنـــــة

وكما جَعَلَهُ اللهُ تعالى مباركاً جعله مصدِّقَ الذي بين يديه، فهو يُصدِّقُ ما جاءت به الرسل والأنبياءُ من قبلِهِ، ويصدِّقُ الكتب السماوية، ومنها التوراةُ والزبُورُ والإنجيلُ، قال تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [آل عمران:٣] وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم ﴾ [النساء:٤٧].

وقد أنْزَلَ اللهُ تعالى القرآنَ ليُنذِرَ به الرسولُ ﷺ وأصحابُهُ من بعده وعلماءُ أُمَّتِهِ أُمَّ القرى، وهي مكةُ، وما حولها من القرى والأمصارِ، ودائرةُ الإنذار تتسع بمقدار ما يطيقُهُ المسلمون حتى تشمل العالمَ كُلَّه.

وسُمِّيت مكةُ أمَّ القرى، لأن المسلمين يؤمونها في صلاتِهِمْ حيثما كانوا، وأينما وُجدوا، وهي أعظم مدن العالم.

وأخبرنا ربُّنا أنَّ الذين يؤمنون باليوم الآخر يؤمنون بهذا الكتاب العظيم، وهؤلاء هُمُ الذين يحافظون على صلاتِهِمْ، أي: يقومون بما افترضَ اللهُ عليهم مِنَ الصلاة في أوقاتها ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ .

٣- أشدُّ الناس ظلماً الذين يدَّعون النبوة والرسالة كاذبين:

أخبرنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنه لا أحد أظْلَمُ ممن افترى على الله الكَذِبِ، أو قال: أوحي إليَّ عن طريقِ الملائكة، وهو لم يُوحَ إليه شيءٌ، أو قالَ: سأُنزلُ مثل ما أنزل الله على رسولِهِ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام:٩٣].

ويدخُلُ في هذه الأصناف طوائفُ كثيرةٌ، فمنهم النصارى الذين زعموا أنَّ عيسى ابنُ الله، والعربُ الذين زعموا أنَّ الملائكة بناتُ الله، وكلُّ من زعم مثل هذا الزَّعم من الذين كذبوا على الله دخلَ في الآية.

ويدخلُ في الذين قالوا: أوحيَ إلينا ولم يُوحَ إليهم شيء الأنبياءُ الدجالون المفترون كمُسيْلمة والأسودِ العنسي وسَجاحَ، وكلُّ من ادَّعى مثلَ هذه الدعوى على مرِّ العصور وفي مختلف الأمكنة.

ويدخُلُ في الذين قالوا: سأُنزلُ مثلَ ما أَنْزَلَ الله، كلُّ الذين يسخرون هازئين زاعمينَ أن لديهم القدرة على أن يُنزِلوا مثلَ ما أنزلَ الله، جاهلين أنّ إنْزال الوحي منحةٌ ربانيةٌ.

جنـــــة السـنـــــة

٤- حالُ الظالمين عندما تأخُذُهم سكراتُ الموتِ:

بيَّنَ لنا ربُّنا بكلماتِهِ حالَ الظالمين عندما ينزلُ بهم الموتُ وتحلُّ بهم سَكَراتُهُ، قالَ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام:٩٣].

وهذه الآيةُ حديثٌ عن خَبَرٍ من أخبارِ الغيب، فنحنُ نحْضُرُ الميتَ عندما ينزلُ به الموتُ، ولا نرى الملائكةَ التي تَنْزِلُ لنزعِ روحِه، وقد أخبرنا ربُّنا في هذه الآية بما يحلُّ بالكفرة الظالمينَ عندما تنزلُ بهم غمراتُ الموت، وغمراتُ الموت شدائِدُهُ وسكراتُه، وهؤلاءِ تحْضُرُهُمْ الملائكةُ لنزع أرواحِهِمْ، وتبسطُ لهم أيديهم يضربونَهُمْ ويعذِّبونَهُمْ، وتقولُ لهم: أخْرجوا أنْفُسَكُم، فَتَفَرَّقُ في أجسادِهم، فينزعونَها كما يُنْزَعُ الصوفُ مِنَ السفُّود.

وتقولُ لهم الملائكةُ: اليومَ تُجْزَون عذابَ الهونِ، أي: العذابَ الذي يوقع بكم الهوانَ والخزيَ، قال ابنُ كثير: «الكافرُ إذا احْتُضِرَ بشَّرَتْه الملائكةُ بالعذابِ والنكالِ، والأغلالِ والسلاسلِ، والجحيم والحميم، وغضبِ الرحمن الرحيم، فتَتَفَرَّقُ روحُه في جَسَدِه، وتَعْصَى وتأبى الخروجَ فتَضْرِبُهم الملائكةُ، حتى تخرجَ أرواحُهُمْ من أجسادِهِم، قائلينَ لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ أي: اليومَ تهانونَ غايةَ الإهانةِ، كما كنتم تكذبون على الله، وتستكبرون عن اتباع آياتِه، والانقيادِ لرُسُلِهِ» [ابن كثير: ٤/٥٩].

٥- استقبالُ الظالمين في يوم الدين:

أخبرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- كيفَ يُسْتَقْبَلُ الظلمةُ الكفرةُ في يوم الدين، فأخبرنا سبحانه أنَّه يقالُ لهم في ذلك اليوم: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام:٩٤].

أيْ: يقالُ لهم: لقد جئتمونا في هذا اليوم فُرادى، أيْ: واحداً واحداً، ليس معكم أهلٌ، ولا مالٌ، ولا أثاثٌ، ولا ولدٌ، ولا حُرّاسٌ، ولا أعوانٌ، ويأتونَ كما خَلَقَهُمُ الله أول مرةٍ، فالعبادُ يأتون في يوم القيامة حُفاةً عُراةً غُرْلاً ويقالُ لهم: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أي: تركتم ما وَهَبَكُمُ اللهُ إياه في الدنيا من المتاعِ والمالِ والمواشي وراءَكم، ويقالُ لهم أيضاً:

جنـــــة الســـــنة

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: لم يأت معكم الآلهةُ التي جعلتموها شفعاءَ، زاعمين أنَّها شفعاءُ تشْفَعُ لكم في الدنيا والآخرة، ففي ذلك اليوم يظهر كَذِبُهُمْ فيما زعموه، فلا تجيءُ تلك الآلهةُ المزعومة لنصرهم والشفاعة لهم، وقوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ أي: لقد تقطَّع ما بينكم من الوُصْلاتِ والأسبابِ والوسائل، ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ أي: غابَ ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ أي: ما كنتم تدَّعونه في الدنيا من أنَّ الآلهةَ التي تعبدونها تنصرُكُمْ وتعينكم وتقرب بينكم، وقريبٌ من هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة:١٦٦-١٦٧].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الذين زعموا أن اللهَ عز وجل لم يُنزِلْ شيئاً من الكتب على رسلِهِ لم يقدُروا اللهَ حقَّ قدْره ولم يُعظِّمُونَه حقَّ تعظيمه.

٢- ردَّ اللهُ على اليهودِ الذين زعموا أنَّ الله لم ينزلْ كتاباً على رسولٍ من رُسُلِهِ بسؤالهم عن مصدرِ الكتابِ الذي أُنزلَ على موسى عليه السلام، وهو ردٌّ قويٌّ مُفْحِمٌ.

٣- من جرائم اليهودِ إخفاءُ بعضِ ما أنزلَهُ من الحقِّ في التوراة.

٤- ثناءُ الله تعالى على التوراةِ، ففيها الهدى والنور، وثناؤه على القرآن.

٥- أنزلَ اللهُ تعالى القرآنَ ليصدِّقَ ما أنْزَلَه على رسلِهِ، ولينذرَ به العالمين.

٦- لا بدَّ للذين يؤمنون بالآخرة، ويقيمونَ الصلاةَ من الإيمان بالقرآنِ.

٧- أعْظم الناسِ جُرْماً الذين يفْتَرونَ الكذبَ على الله كالذين قالوا: اتخذَ الله ولداً، والذين زعموا أَنَّ اللهَ أوحى إليهم، وهو لم يوحِ إليهم شيئاً، والذين زعموا أنهم سينزلونَ قرآناً كالقرآنِ الذي أُوحي اللهُ به.

جنـــــة السـنة

٨- تعريفُ ربِّ العباد إيانا بالعذابِ والنكالِ الذي يَحِلُّ بالظالمين عندما ينزلُ بهم الموتُ.

٩- تعريفُ الله لنا بما يقالُ للظالمين عندما يقومونَ من قبورهم في يوم البعث والنشورِ.

١٠- يأتي الكفارُ في يوم القيامةِ فرادى قد غابت عنهم آلهتهمُ التي كانوا يعبدونَها، ويكونون في ذلك اليومِ متفرقين لا ينصرُ بعْضُهم بعضاً.

جنـــــة الســـــنة

النص السادس عشر من سورة الأنعام

ذلكم الله فأنَّى تؤفكون

أولاً: تقديم

وجدت أن خير ما يُقدَّم له في آيات هذا النص ما قاله سيد قطب رحمه الله تعالى في تفسيرها في ظِلالِه، قال: «نحن -في هذا الدرس - أمام كتاب الكون المفتوح، الذي يمرُّ به الغافلون في كلِّ لحظةٍ، فلا يقفون أمام خوارقِهِ وآياتِهِ، ويمرُّ به المطموسون، فلا تتفتَّحُ عيونُهم على عجائبِهِ وبدائعِهِ..، وها هو ذا النسق القرآنيُّ العجيبُ يرتادُ بنا هذا الوجودَ، كأنما نهبط إليه اللحظة، فيقفنا أمامَ معالِمِهِ العجيبةِ، ويفتحُ أعينَنا على مشاهده الباهرةِ، ويثيرُ تطلعنا إلى بدائعِهِ التي يمرُّ علها الغافلونَ غافلين!

ها هو ذا يقِفُنا أمامَ الخارقةِ المعجزةِ التي تقعُ في كلِّ لحظةٍ مِنَ الليل والنهار..، خارقةُ انبثاقِ الحياة النابضةِ من هذا الموتِ الهامدِ، لا ندري كيفَ انبثقتْ، ولا ندري مَنْ أينَ جاءتَ - إلا أنها جاءت من عندِ الله، وانبثقتْ بقدرٍ مِنَ الله، لا يقدرُ بشرٌ على إدراكِ كُنْهِها بَلْهَ ابتداعِها!

وها هو ذا يقفُ بنا أمامَ دورة الفلك العجيبةِ..، الدورةُ الهائلة الدائبةُ الدقيقةُ..، وهي خارقةٌ لا يعدلها شيء مما يطلبه الناسُ من الخوارقِ..، وهي تتم في كل يومٍ وليلةٍ، بل تتم في كل ثانيةٍ ولحظةٍ..

وها هو ذا يقف بنا أمام نشأةِ الحياةِ البشرية...، من نفس واحدة، وأمام تكاثرها بتلك الطريقة. وهاهو ذا يَقِفُ بنا أمام نشأة الحياةِ في النبات..، وأمامَ مشاهدِ الأمطارِ الهاطلةِ، والزروع الناميةِ، والثمار اليانعةِ، وهي حشدٌ من الحيويات والمشاهدِ، ومجالٌ للتأمل والزيادة، لو نشاهدُها بالحسِّ المتوفز والقلب المتفتح.

وها هو ذا الوجود كلُّه، جديداً كأنما نراه أوَّ مرةٍ، حياً يعاطِفُنا ونعاطِفُه، متحركاً تدبُّ الحركةُ في أوصالِهِ، عجيباً يَشْدَهُ الحواسَ والمشاعرَ، ناطقاً بذاتِه عن خالقِهِ، دالاًّ بآياتِهِ على تفرُّدِهِ وقدرته..

وعندئذ يبدو الشركُ بالله -والسياقُ يواجه الشركَ والمشركين بهذا الاستعراض- غريباً غريباً على فطرة هذا الوجودِ وطبيعته، وشائهاً شائهاً في ضمير مَنْ يشاهد هذا الوجودَ الحافلَ بدلائلِ الهدى ويتأمله. وتسقط حجةُ الشركِ والمشركين، في مواجهةِ هذا الإيمانِ الغامرِ في مجالي الوجودِ العجيب...» [في ظلال القرآن: ٧/ ١١٥٢-١١٥٣].

جنـــــة السـنـــــة

ثانيا: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام:٩٥-١٠٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اللهُ -سبحانه- فالقُ الحبِّ والنوى:

أخبرنا اللهُ -تعالى- عن نفسه أنه ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنعام:٩٥] أعلمنا -عز وجل- أنَّه يَفْلِقُ حَبَّ القمح والشعير والذرة ونحوها، ويفلِقُ نوى التَّمْر والخوخ والدراقِ ونحوها عندما تندثرُ في التراب، وينزلُ عليها الماءُ، فيخرُجُ من الحبوبِ النباتُ، ومن النَّوى الأشجارُ، وقد فسَّر اللهُ تعالى فَلْقَهُ للحبِّ والنَّوى بقوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ﴾ فمن الحبِّ والنوى الميتِ تَخْرُجُ النَّبتةُ الحيَّة والشجرةُ الحيةِ، ومن النبتة الحية، والشجرة الحية تخرجُ الحبوبُ والثمار الصلدة القاسيةُ، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ هذا هو ربُّنا -تبارك وتعالى- الذي يستحقُّ أنْ يُعْبَد دونَ غيره، فكيف تُصْرَفونَ عن الحقِّ بعد هذا البيانِ.

وفي هذا الذي أخبرنا به سبحانَه عن نفسِهِ في هذه الآية حُجَّة على المكذبين بالبعث والنشور، فالقادرُ على أن يفعل هذا بالنبات، قادرٌ على إحياءِ الناسِ بعد موتهم.

جنـــــة الســــــنة

٢- اللهُ سبحانَهُ فالقُ الإصباحِ:

عرَّفنا ربُّنا عز وجل على ثلاثةٍ من أفعالِهِ تدُلُّنا عليه سبحانه: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ [الأنعام:٩٦].

أخْبَرنا ربُّنا عز وجلَّ أنه: «يَفْلِقُ ظلامَ الليلِ عن غُرَّةِ الصباحِ، فيُضِيءُ الوجودَ، ويستنيرُ الأُفُقُ، ويَضمَحِلُّ الظلامُ ويذْهَبُ الليلُ بسوادِهِ وظلامِ رُواقِهِ، ويجيءُ النهارُ بضيائِه وإشراقه» [ابن كثير: ٣/ ٦١].

وقد بيَّنَ سيدُ قطبٍ رحمه الله تعالى العلاقةَ بين فَلْقِ الله الإصباحَ وفلقِهِ الحبِّ والنوى، فقال: «وانفلاقُ الإصباح من الظلام حركةٌ تُشْبِهُ في شَكْلها انفلاقَ الحبَّةِ والنواةِ، وانبثاقُ النُّورِ في تلكَ الحركةِ، كانبثاق البُرْعُم في هذه الحركة، وبينهما من مُشابه الحركة والحيوية والبهاءِ والجمال سماتٌ مشتركةٌ، ملحوظةٌ في التعبير عن الحقائق المشتركة في طبيعتهما وحقيقتهما كذلك.

وبيْنَ انفلاقِ الحبِّ والنوى وانفلاقِ الإصباحِ وسكون الليل صِلَةٌ أخرى، إنَّ الإصباحَ والإمساءِ، والحركةَ والسكونَ في هذا الكون أو في هذه الأرض ذاتُ علاقةٍ مباشرة بالنباتِ والحياة» [في ظلال القرآن: ٧/ ١١٥٧] وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا ﴾ أي: جعل اللهُ الليلَ الذي يغشى الأرضَ بظلامِهِ ليسْكُنَ فيه الناسُ سكونَ راحةٍ، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾ [يونس:٦٧].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ أي: يجريان بحسابٍ مُقدَّرٍ مُقنَّنٍ، لا يتغيرُ، ولا يضطربُ، بل كلٌّ منهما له منازلُ يسْلكها في الصيفِ والشتاء، فيترتبُ على ذلك اختلافُ الليل والنهار طولاً وقصراً ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس:٤٠]. والحسبان جَمْعُ حسابٍ، مثلُ رُكْبانٍ وركاب وشُهْبان وشِهاب، وقوله عز وجل: ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنعام:٩٦] أي: هذا الذي ذكره سبحانه من فلْقِه الإصباحَ، وجعله الليلَ سكناً، وجعله الشمسَ والقمر حسباناً هو تقديرُ الله سبحانه الذي لا يُغالَبُ ولا يُمانَعُ ولا يُخالَفُ، العليمُ بكلِّ شيءٍ، فلا يخفى عنه شيءٌ في الأرضِ ولا في السماء.

جنـــــة السـنـــــة

٣- جعل الله لنا النجوم لنهتدي بها في ظلمات البر والبحر:

وأعلمنا الله -تعالى- أنه جَعَلَ لنا النجومَ لنهتدي بها في ظلمات البر والبحر ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ ﴾ [الأنعام:٩٧] وهذا مما امْتَنَّ اللهُ به علينا في خَلْقِهِ النجومَ لنا، فسالكوا القفارِ وراكبو البحار يهْتَدون بها في ظلمة الليل.

وخَتَمَ سبحانه الآية بقوله: ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٩٧﴾ [الأنعام:٩٧] أي: قد بيَّنا لكم الآيات التي سبق ذِكْرها، لنعْقِل، ونعرفَ الحقَّ، ونتجنبَ الباطلَ.

٤- أنشأ اللهُ تعالى البَشَرَ كلَّهم من نفسٍ واحدة:

امتنَّ اللهُ علينا نحنُ البشر بخلقنا من نفسٍ واحدة ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ﴾ [الأنعام:٩٨] والنفسُ الواحدةُ التي يعود البشرُ كلُّهم إليها هي آدمُ ﷺ، فمنه خَلَقَ اللهُ زوْجَهُ حواءُ، وخَلَقَ بقيةَ البشر من ذكرٍ وأنثى، إلا عيسى ابنَ مريمَ، فإنه خُلقَ من أُنثى هي أُمُّه مريمُ من غير أبٍ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ ﴾ [النساء:١].

وقوله تعالى: ﴿فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ﴾ [الأنعام:٩٨] ذهب كثيرٌ من أئمة التفسير كابن مسعودٍ، وابن عباسٍ، وأبي عبدالرحمن السلميِّ، وقيس بن أبي حازمٍ، ومجاهدٍ، وعطاءٍ، وإبراهيمَ النخعيِّ، والضَّحاكِ، وقتادةَ، والسُّدِيِّ، وعطاءٍ الخراسانيِّ إلى أنَّ المستقرَّ: الأرحام، والمستودَعُ: أصلابُ الرجالِ [ابن كثير: ٣/ ٦٢].

وقد تقدَّم العلمُ اليوم واكتشفَ أنَّ الإنسانَ يوجدُ من الخليةِ الملقحةِ، يقول سيدُ قطب في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ ﴾ : «إنَّها اللَّمسةُ المباشرة في هذه المرة..، اللمسةُ في ذات النفس البشرية، النفسُ البشريةُ الواحدةُ. تبدأ الحياةُ فيها خطوتَها الأولى للتكاثر بالخليةِ الملقحةِ، فنفسٌ هي مستودعٌ لهذه الخلية في صلبِ الرجل، ونفسٌ هي مستقرٌّ لها في رحم الأنثى..، ثم تأخذُ الحياةُ في النمو والانتشارِ، فإذا أجناس وألوان؛ وإذا شياتٌ ولغاتٌ؛ وإذا شعوبٌ وقبائل؛ وإذا النماذج التي لا تُحصَى، والأنماطُ التي ما تزالُ تتنوع ما دامت الحياة.

﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ٩٨﴾ ... فالفقهُ هنا ضروريٌّ لإدراكِ صنعِ الله في هذه النفس الواحدة، التي تنبثقُ منها النماذجُ والأنماطُ، ولإدراكِ الموافقاتِ العجيبةِ الكامنة وراءَ اتخاذ التلاقح وسيلة للإكثارِ، وتوفير الأعداد المناسبة دائماً من الذكورِ والإناثِ -في عالم

جنـــة الســــــنة

الإنسان- لتتم عمليةُ التزاوجِ التي قدَّرَ اللهُ أن تكون هي وسيلةُ الإخصاب والإكثارِ، ووسيلة تنشئة الأطفالِ في ظروفٍ تحفظ (إنسانيتهم) وتجعلهم أكفاءَ للحياةِ (الإنسانية)» [في ظلال القرآن: ٧/ ١١٥٩ بشيء من الاختصار].

٥- **إنزالُ الله -تعالى- الماءَ من السماء وإنباتُ النبات به:**

حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن إنزالِهِ الماءَ من السماءِ، وما يفعلُهُ هذا الماءُ عندما ترتوي به الأرضُ، فلو أنك مررت بأرضٍ يابسةٍ جرْداءَ، جادها الغيثُ فرَواها، ثم مررْتَ بها مرة أخرى بعد فترة ليست بالطويلة فإنك ترى عجباً، ترى تِلْكَ الأرضَ الجَرْداء أصبحتْ مُعْشَوْشِبَةً خضراءَ، تراها تُنبتُ، وتُزْهِر، وتخرِجُ حبَّها، وثَمَرَها، ومَنْ يُحسنُ النظر إلى آثار المياه، ويُحسنُ الوصفَ، يرينا منظراً رائعاً بديعاً، ولا أحد أحسن وصفاً من وصف ربِّ العباد، ومن تأمَّلَ في وصْفِهِ لآثار ما صنعَ المليكُ، يرى صورةً مُبْهِجَةٍ ذات زينةٍ ورونْقٍ، يقولُ ربُّنا الحكيمُ العليم: هو الذي أَنْزَلَ من السماءِ ماءً، وكُلُّ ما عَلاكَ فهو سماءٌ، ومن ذلك الغمامُ الذي ينزلُ منه الماءُ، فأخْرَجَ الله سبحانه به نبات كل شيءٍ، أي: أخْرَجَ به جميعَ أنواع النبات، فلو أنك نظرتَ في القطعة الواحدة من الأرض التي غَذاها الغيثُ، فإنك تجد فيها ما لا يحصى من النبات على شتى أنواعِهِ وألوانِهِ، وأخرجَ سبحانه من ذلك النبات خَضِراً، عبَّر عن الخُضْرةِ التي اتَّصفَ بها النباتُ بقوله: ﴿خَضِرًا﴾، وخضراً أرقُّ وألطفُ من كلمة: أخضر.

وأخبرنا العليمُ الخبيرُ سبحانَه أنه أخرجَ من ذلك النبات الخَضِر حَبّاً متراكباً، وهذا الحبُّ المتراكبُ تراه فيما يُنْبِتُه القمحُ والشعيرُ والذرةُ ونحوها من السنابل، ويخرجُ من النخيل من طلْعِها قِنْوانٌ دانية، والطلعُ أول ما يرى من عِذْق النخلة، الواحدةُ طلْعَةٌ، ويُخرِجُ لنا ربُّنا من طلع النخل قِنْوانٌ دانية، والقنوانُ العِذْقُ الذي يحملُ الثمر، والعِذْقُ في النخلة بمثابة القُطْفِ من العنب، وهذه القِنوانُ دانيةٌ، أي: قريبةُ المتناولِ، وعندما نقفُ ننظرُ إلى النخل وقد تدلَّتْ قطوفُه، وتهدَّلت، نراها كما صف ربُّنا: ﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾.

هذا الذي سبق ذِكْرُه مشهدٌ وصفه مليكنا سبحانه لأرض أنبتتِ النباتَ، ومشهد آخر يُريناه في قطعة أُخرى يتمثل في الجنات، وهي ﴿وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ﴾ والجناتُ البساتينُ، وهي بساتينٌ من أعنابٍ، وقد يكونُ الشجر زيتوناً أو رماناً، وما أنبته الله مِنَ النبات، وما أَخْرَجَهُ من أشجارٍ قد يكونُ مشتبهاً، وقد يكون غير متشابهٍ، وقد يتشابه النباتُ، وقد تتشابه الأشجارُ، وقد يكونُ التشابهُ في الشجر، وقد يكون في الثمر، وقد يكون في الطَّعْمِ، وقد يختلفُ ذلك كله، فلا تشابُه فيه.

جنـــــة الســــــنة

إن هذا الوصفَ الرائع المُبْهِجَ الممتعَ يأسِرُكَ، ويملكُ عليكَ نفسَكَ، ولذا دعانا ربُّنا إلى النظرِ إليه بأبصارنا، ننظر إلى ثماره من النخيل والأعنابِ والزيتونِ والرمانِ، وننظرُ إلى يَنْعِهِ، أي: إلى نُضْجِهِ، وكمالُ النظر وغايتُهُ أن يحصُلَ الاعتبارُ بما نراه ونشاهدُهُ، فإذا هو آياتٌ للمؤمنين، تدلُّهم على ربِّهم، وتهديهم إليه سبحانَهُ.

أعِدِ النظر في هذه الآية التي حدَّثَتْنا عن إنزالِ الماء من السماء، وفِعْلِ المليكِ سبحانَهُ بالأرض التي ارتوَتْ بالغيثِ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام:٩٩].

٦- نَصَبَ المشركون الجنَّ شركاءَ لله سبحانه:

عرَّفَنا اللهُ -سبحانه- فيما مضى من آياتِ هذا النصِّ بنفسه سبحانه، فحدثَّنا عن بديع صُنْعِهِ في هذا الكونِ الذي نعيشُ فيه، ومَنْ فقهَ عن ربِّه ما حدَّثنا اللهُ تعالى به عن نفسِهِ امتلأ قلبُهُ بالإيمانِ واليقينِ، ثم حدَّثنا ربُّنا عز وجل- عن شِرْكِ المشركينَ، وافتراءِ الظالمين، وإذا أنتَ أمْعَنْتَ النظَّرَ في افتراءِ المشركين وَجَدْتَهُ افتراءً ساقطاً كريهاً، إذ لا يجوزُ أنْ يجْعَلوا هذه الأندادَ شركاءَ لله تعالى، وهو الواحدُ فيما أخْبَرَنا أنه خلق هذا الكون، تنزَّه عما يصفه به المشركون ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٠].

يقولُ ربُّنا الواحدُ الأحدُ سبحانه: إنَّ الكفار جَعَلُوا لله شركاءَ، وهؤلاء الشركاءُ هم من الجنِّ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ ﴾ [الصافات:١٥٨] وقد كان العربُ في الجاهلية إذا نزلوا وادياً في سَفَرِهِمْ استعاذوا بزعيم ذلك الوادي من الجنِّ مِنْ سفهاءِ قومِهِ، فزادَ الجنُّ أهْلَ الجاهليةِ رَهقاً ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾ [الجن:٦].

وقد أخبرنا اللهُ -عز وجل- أنَّ كل عبادةٍ لغير الله فإنما هي بأمر الشيطانِ ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَـٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَـٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَـَٔامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَـٰمِ وَلَـَٔامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَـٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ ﴾ [النساء:١١٧-١١٩]، وقال ربُّ العزة: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ

مِن دُونِي ﴾ [الكهف:٥٠] وقد أبْطَلَ ربُّ العزة دعْوى المشركين في جعل الجنِّ شركاء لرب العالمين بكلمةٍ واحدةٍ، فقد قال سبحانَه بعد حكاية قولهم: إنهم جعلوا لله شركاءَ الجن: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ والمخلوقُ لا يصلُحُ للعبادة.

وأخبرنا ربُّنا سبحانه وتعالى أن المشركين لم يكتفوا بجعل الجن شركاء له بل ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠﴾ [الأنعام:١٠٠] ومعنى: ﴿وَخَرَقُواْ﴾ اختَلَقوا وافْتَروا، فاليهود ادعوا أنَّ عزيراً ابنُ الله، والنصارى زعموا أنَّ المسيحَ ابنُ الله، وزعَمَ العربُ أن الملائكةَ بناتُ الله.

وقوله تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ﴾ أي: قالوا ما قالوا بغير حُجَّةٍ ولا دليلٍ ولا برهانٍ، وقد نزَّه الحقُّ نفسَهُ عما افتراه عليه المشركونَ بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠﴾.

وقد ردَّ اللهُ تعالى على الذين خَرَقوا له بنينَ وبناتٍ بغير علمٍ بقوله سبحانه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١﴾ [الأنعام:١٠١].

وقد ردَّ اللهُ تعالى على هؤلاء المفترين من أربعة أوجهٍ: الأول: أنه سبحانه هو الذي أبدع السمواتِ والأرض، أي: خلقهما على غير مثالٍ سابقٍ، فالجنُّ هم مما خلقه في السموات والأرض، والمخلوقُ لا يكون إلهاً. الثاني: أنه سبحانه ليس له صاحِبَةٌ، إذ هو واحدٌ أحَدٌ فردٌ صَمَدٌ، فكيف يكونُ له وَلَدٌ. الثالثُ: أنَّ اللهَ تعالى خالقُ كلِّ شيءٍ، والجنُّ شيء، والرابع: أنَّ اللهَ بكل شيءٍ عليمٍ سبحانه، وقد حدَّثنا ربُّنا -عز وجل- أنَّه عَلِمَ أنَّ الجنَّ ليسوا شركاءَ لله تعالى.

٧- ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾:

بعد أن بيَّنَ اللهُ لنا الآيات البينات والحجج الواضحات الدالة عليه سبحانه، قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾ [الأنعام:١٠٢-١٠٣].

وأشار بقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إلى ما حدَّثنا به عن نفسه من فَلْقِه الحبَّ والنوى، وإخْراجِهِ الحيَّ من الميت، والميتَ من الحيِّ، وفَلْقِهِ الإصباحِ، وجعْله الليل سكناً والشمس والقمر

جنـــــة الســـــنة

حسباناً... إلى آخر ما تحدث به عن نفسِهِ سبحانه، أي: الله وحدهُ الذي فعل ذلك، وقد قرر سبحانه أنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو المعبودُ الذي يستحقُّ العبادةَ وحده لا شريكَ له، وهو ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فهو وحده الخالقُ، وكلُّ شيءٍ غيره مخلوق، كالسماوات والأرض، وما فيهما، وما بينهما، ومن ذلك ما عَبَدَهُ البشرُ من دون الله كالأصنامِ والأوثان والشمسِ والقمر والنجومِ والجبالِ والبحارِ، وهي كلُّها مخلوقةٌ مربوبةٌ، ولذلك يجبُ أن يُفرَدَ اللهُ وحده دون غيره بالعبادة ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾. وقد أخبرنا ربُّنا -سبحانه- ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ أي: حفيظٌ ورقيبٌ، يدبِّر كلَّ ما سواه، ويرزقُهُم ويَكْلَؤُهُم بالليلِ والنهار.

وأخبرنا ربُّنا عن نفسه سبحانَه أنه ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام:١٠٣] ذَهَبَ بعضُ المفسرين إلى أنَّ المرادَ بعدم إدراكِ الأبصارِ لله عدمُ قدرة العباد على رؤيته في الدنيا، وذهبَ المعتزلةُ إلى الاستدلالِ بالآية على عدم رؤْيةِ العباد لربِّهم لا في الدنيا ولا الآخرة، والصوابُ من القولِ أنَّ العبادَ يرونَ ربَّهم في الآخرة كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] وقد جاءت الأحاديثُ الصحيحةُ كثيرةً طيبة مصرِّحةً برؤيةِ المؤمنين ربَّهم في الآخرة، وسنذكرها في سورة القيامة إن شاء الله تعالى. والصحيح أنَّ المرادَ بعدم إدراكِ أبصارِ العبدِ لربّهم عدمُ قدرتِهم على الإحاطة بالله سبحانه.

وعدمُ قدرة العباد على الإحاطة بما يرونه موجودٌ فيما يرونه من المخلوقات، فأبصارُنا ترى الأرض، ولا تستطيع الإحاطةَ بها، وترى السماءَ، ولا تستطيعُ الإحاطة بها، وترى البحرَ، ولا تستطيعُ الإحاطة بِهِ، وترى بعض الجبال العظيمة، ولا تستطيعُ الإحاطةَ بها، ولله المَثَلُ الأعلى، فالمؤمنون يرونه في الجنة، ولكنَّهم لا يستطيعون الإحاطةَ به.

أما الله تعالى فإنه يرى أبصارَ العبادِ، ويحيطُ بها، فهو -سبحانه خالقها، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك:١٤].

وقولُهُ تعالى في خاتمة الآية: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ أي: اللطيفُ الرفيقُ، وهو الذي يوصلُ إليك أرَبَك في رفقٍ، والخبيرُ: العالمُ بكُنْهِ الشيء، المطلعُ على حقيقتهِ.

جنـــة السـنـــة

رابعاً: ما تهدينا إليه هذه الآيات من علم وعمل

إذا تدبرنا هذه الآيات وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل: .

١- اللهُ وحده الذي تفردَ بفَلْقِ الحبِّ والنوى، فأخرج منهما الحياةَ المتمثلة بالنبات والأشجار، وهو الذي تفرَّدَ بفلقِ الإصباحِ، وجعلَ الليل سكناً، والشمسَ والقمر حسباناً، وجعل لنا النجومَ لنهتديَ بها في ظلمات البر والبحر، وهو الذي أنشأنا من نفسٍ واحدةٍ فمستقرٌّ ومستودَعٌ إلى آخر ما ذكر اللهُ تعالى أنه تفرَّد بخلقِهِ وإيجادِهِ.

٢- روْعةُ وصف الله تبارك وتعالى لآثارِ ما أنزله من ماء السماء، وما أخْرَجَهُ من النبات والجنات.

٣- الكفرةُ الظلمةُ الذين لا يقدرونَ اللهَ حقّ قدْرِهِ جعلوا لله شركاءَ الجنّ، وكذبوا على ربِّهم بزعمهم أنَّ له بنينَ وبناتٍ، سبحانهُ عما يصفونَ.

٤- اللهُ خالقُ السماواتِ والأرضِ وما فيهما وما بينهما، وكلُّ ما ادَّعاه المشركون في الأرض أو السماءِ إلهاً فهو مخلوقٌ مربوبٌ لا يصلُحُ للألوهيةِ.

٥- نفى اللهُ تعالى الولدَ عن نفسِهِ، فاللهُ -سبحانه- لا صاحبةَ له، ولا مثيلَ له، ولا نظيرَ، وهو خالقُ كلِّ شيءٍ، وهو بكل شيءٍ عليمٌ.

٦- اللهُ وحدَهُ هو المستحقُّ للعبادة دونَ سواه، فهو الخالقُ لكل شيءٍ، وقد أمَرَنا ربُّنا بإفرادِهِ بالعبادة.

٧- اللهُ وكيلٌ على كلِّ شيءٍ، أي: رقيبٌ على كل شيءٍ، وحفيظٌ على كل شيءٍ، وفي ذلك رَدٌّ على الذين يزعمون أنَّ الكونَ يعملُ من غير أن يقومَ عليه أحَدٌ.

٨- ادَّعى المعتزلةُ أنَّ اللهَ لا يُرى في الدنيا ولا في الآخرة، واحتجُّوا بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ والصوابُ مِنَ القول: أنَّ المرادَ بالآية لا تحيطُ بِهِ الأبصارُ، وليس المرادُ أن المؤمنين لا يرونَهُ في الآخرة.

٩- الله تعالى لطيفٌ بعبادِهِ يوصلُ إليهم أغراضَهُمْ بلطفٍ، وهم لا يشعرونَ.

جنـــــة الســـــنة

النص السابع عشر من سورة الأنعام

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾

أولاً: تقديم

أخْبَرَنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنه قد جاءَنا بصائر مِنْ عندِ الله، وأعلمنا ربُّنا أنه يُصَرِّفُ الآياتِ كي يَفْقَهَ عنه عبادُه، وأمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ باتِّباعِ ما جاءَه من عنده، وأمَرَهُ بالإعراضِ عن المشركين، وعما جاءَه من عندهم، ونَهاهُ ونهى أصحابَه عن سَبِّ آلهةِ المشركين، حتى لا يسْتَثيروا المشركين، فيسبُّوا الله عدواً بغيرِ علم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾
وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ
عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ
عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ
لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ
وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام:١٠٤-١١٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أنزل اللهُ سبحانه علينا بصائرَ مِنْ عندَه:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنه قد جاءَنا بصائرُ من عِنْدِهِ ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الأنعام:١٠٤]. والبصائرُ جمعُ بصيرةٍ، والبصيرةُ للقلبِ كالبصر للعينِ، والبصائرُ التي جاءَنا اللهُ تعالى بها في كتابِهِ العظيم الحِجَجُ والبيناتُ الدالةُ على الهدى، وهذه البصائرُ تَهْدِي العبادَ إلى ربِّهم، وتقيمُهُمْ على الصراطِ المستقيم، وتُدْخِلُهم الجنَّةَ، فمن أخَذَ بها اهتدى، ومَنْ ضَلَّ عنها غَوى ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام:١٠٤] وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء:١٥]. فالاهتداءُ بهذه الحججِ والبيناتِ مرهونٌ بنفس الناظرِ، ولا يتعدَّاه إلى غيره.

جنــــة الســــنة

وقولُهُ تعالى في خاتمة الآية: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ١٠٤﴾ [الأنعام:١٠٤] أيْ: لستُ حافظاً لأعمالكم، بل أنا مبلِّغٌ لكم، والله هو الذي يحفظُ أعمالَكُم، ويُحْفيها عليكم، ويحاسبكم عليها.

وقولُ ربِّ العزَّة: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١٠٥﴾ [الأنعام:١٠٥]. أي: مَثَلُ ما صرَّفنا هذه الآيات فيما مضى من هذه السورة، نُصَرِّف الآيات في غيرها من السورِ، فالقرآنُ فيه التهديدُ والوعيدُ والوعظُ والتنبيهُ، والعَرْضُ والبيانُ والتفسيرُ، وإقامةُ البراهينِ العقلية، وإفحام الخصومِ، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾ [الكهف:٥٤].

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ﴾ هذه اللامُ في قولِهِ: ﴿وَلِيَقُولُواْ﴾ لامُ العاقبةِ أو لامُ الصيرورةِ، أي: لتكونَ عاقبتُهُم أنْ يقولوا: ﴿دَرَسۡتَ﴾ أي: تعلَمتَ وقرأتَ، أي: هناكَ مَنْ علَّمك ودرَّسَكَ من أهلِ الكتابِ أو غيرهم، كما قالَ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ٤﴾ [الفرقان:٤].

وصَدَقَ اللهُ ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ٤﴾ [الفرقان:٤] فنبينا محمدٌ ﷺ هو النبيُّ العربيُّ الأُميُّ، الذي لم يقرأْ من كتابٍ، ولم يَخُطَّ بالقلم، ولم يأخذ علمَهُ من أحدٍ، لا يهوديٍّ، ولا نصرانيّ، وإنْ قال سَفيهٌ من قومِهِ: إنَّه دَرَسَ على غيره، فإنَّ قوْمَه يعلمون أنَّ هذا القولَ قولٌ باطلٌ وزورٌ.

وقولُهُ سبحانه في خاتمةِ الآية: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١٠٥﴾ أي: لنبيِّنَ هذا القرآنَ، ونوضِّحَهُ لقومٍ يعلمون أنَّه الحقُّ، فيتبعون ما جاءَ به، والمرادُ بهؤلاءِ القومِ الذين آمنوا بهذا الدين، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ﴾ [فصلت:٤٤] وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢].

٢- أوجبَ اللهُ تعالى على المؤمنين أنْ يتَّبعُوا ما أُنزل إليهم من ربِّهم:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رَسولَه ﷺ أنْ يتَّبعَ ما أُنْزلَ إليه من ربِّه، فقد أنزلَ اللهُ إليه وحيه في كتابِهِ العظيمِ القرآنِ، وفي سُنَّتِهِ المطهَّرةِ، فعرَّفه بنفسه وملائكتِهِ وكتبه ورسلِهِ واليومِ الآخرِ، وعرَّفه بالتكاليفِ التي كلَّفَه بها، وأمَرَه أنْ يأْخذَ ما هَداه إليه من العلم والعمل، ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٦﴾ [الأنعام:١٠٦] وقولُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ أي: لا أحد يستحقُّ العبادة إلا هو.

جنـــــة السـنة

وأمرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أن يتَّبع ما جاءَه من ربِّه، وأمَرَهُ أن يُعْرِضَ عَنِ المشركين، وهذا الذي أمَرَ اللهُ -تعالى- بِهِ رسولَهُ ﷺ أمَرَ اللهُ به صحابَةَ رسولِهِ ﷺ وأُمَّتِهِ من بَعْدِهِ، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦].

وما أمَرَ اللهُ تعالى به رسولَهُ ﷺ، وصحابةَ رسولِهِ، والأمةَ الإسلامية مِنَ اتِّباعِ الوحي المنزلِ على رسولِنا ﷺ يدلُّ على خطأ الذين يبحثون عن الهدى عندَ الغربيين في أَخْلاقِهِم وعاداتِهِم ودينهم، وعلينا أنْ نَذْكُرَ في هذا المقام قولَه عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

والأمْرُ باتباعِ الوحي المنزل من عندِ الله، يَدُلُّ على أنَّ اتباعَ ما شَرَعَهُ البشرُ شِرْكٌ، يوبُقُ صاحِبَهُ في النار، ومن ذلك سَنُّ القوانينِ الوضعيةِ، وتحكيمُها في المجتمعاتِ الإنسانيةِ.

٣- شِرْكُ المشركين بمشيئةِ ربِّ العالمين:

أَخْبَرَنا ربُّنا -سبحانه- أنه لا يقع شيءٌ في هذا الكون إلا بإذْنِهِ ومشيئتِهِ، حتى شِرْكُ من أشْرَكَ به ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام:١٠٧] فليس هناك خالِقَيْنِ أو خالِقِيْنَ، كما يدَّعي بعضُ الضالين أنَّ الله خَلَقَ الخيرَ، وأن آلهة أُخرى خَلَقَتْ الشرَ، فليسَ هناك إلا إلهُ واحدٌ سبحانه، وهو خالقُ كلِّ شيءٍ، واللهُ أذنَ بوقوعِ الشِّرْكِ في عالَمِ البشر لحكمة يعلمها سبحانه.

وإدراك هذه الحقيقة يصرفُ كثيراً من الهمِّ والغمِّ عن كثيرٍ مِنَ الدعاةِ الأخيار الذين يُؤْلِمهم أنَّ لا يستجيبَ لدعوتهم بعضُ الآباء أو الأبناءِ أو الأقاربِ، فتضيقُ صدورُهُم، وتدمَعُ عيونُهُمْ، وتضطربُ نفوسُهُمْ، فيأتي هذا النصُّ وأمثالُهُ ليُعْلِمَ العبادَ أنَّ مشيئةَ الله ماضية في خَلْقِهِ، فليسَ كل من دُعي إلى الإسلامِ فإنه يُسْلم، ولو شاءَ اللهُ لآمنَ الناسُ كلُّهم جميعاً.

والمطلوبُ من الرسولِ ﷺ ومَنْ اتَّبعه أن يُبَلِّغوا دينَ الله عَزَّ وجلَّ للعالمين، ويقيموا الحجةَ على العبادِ، لم يجعلنا ربُّنا حافظين على خَلْقِهِ ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [الأنعام:١٠٧] أيْ: ما جعلناك حافظاً يحفظ أعمالَهم وأقوالهم، ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنعام:١٠٧] أي: وما أنت بموكَّلٍ على أرْزاقِهِمْ وشأنهم، بل ذلك لربِّ العبادِ وَحْدَهُ سبحانَهُ.

٤- نهى ربّ العالمين عن سبِّ آلهةِ المشركين خشيةَ أنْ يسبَّ المشركون إله المسلمين:

نهى ربُّ العالمينَ -سبحانه- المؤمنين أنْ يَسُبُّوا آلهةَ المشركين خشيةَ أن يحْفِزَ هذا المشركين على سبِّ الله ربِّ العالمين ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٨].

وعن ابن عباسٍ، أنه قال في هذه الآية: «قال المشركون: يا محمدُ، لَتَنْتَهِيَنَّ عن سبِّ آلهتنا، أو لَنَهْجُونَّ رَبَّك، فنهاهُمْ اللهُ أن يسُبُّوا أوْثانَهم، فيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغيرِ علمٍ» [الطبري: ٤/ ٣٣٠٣].

وروى الطبريُّ عن قتادةَ أنه قال في تفسير هذه الآية: «كان المسلمين يَسُبُّون أوثانَ المشركين، فيردُّونَ ذلك عليهم، فنهاهُم اللهُ تعالى أنْ يَسْتَسِبُّوا لربِّهم، فإنهم قومٌ جَهَلَةٌ لا علم لهم بالله» [المصدر السابق].

وقد نهى الرسولُ ﷺ الواحد منَّا أنْ يتسبَّبَ في سَبِّ والديه، فعن عبدالله بن عمرٍو رضي الله عنهما قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنَّ من أكْبرِ الكبائرِ أن يَلْعن الرجلُ والديه» قيلَ: يا رسولَ الله، وكيف يلعنُ الرجلُ والديه؟ قال: «يَسُبُّ الرجلُ أبا الرجلِ، فيُسبُّ أباه، ويَسُبُّ أمَّه، فيسبُّ أمه» [البخاري: ٥٩٧٣. ومسلم: ٩٠].

وقوله تعالى: ﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ عدواً، أي: عُدْواناً وتجاوزاً عن الحقِّ وجهلاً منهم.

٥- تزيينُ الله تعالى لكلِّ أمةٍ عَمَلَهم:

علمنا ربُّنا -جلَّ وعلا- قاعدةً أجراها في عبادِهِ، وهي أنه زيَّن لكلِّ أُمَّةٍ عملهم ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام:١٠٨] أي: أنه زيَّنَ لكل جماعةٍ اجتمعوا على عملٍ من الأعمال عَمَلَهُمْ، سواءً أكانَ طاعةً لله أو معصيةً له، ومَنْ نظَرَ في أحوالِ البشر عَلِم صِدْقَ ما يقولُه ربُّنا، فالغربيون اليومَ يفاخرونَ بما هم عليه من الحريةِ، ويَعُدُّونه حضارةً ومدنيةً، ويدْعُون غيرهم إلى اتباعِهِمْ، مَعَ أنَّ فيه مِنَ الفسْقِ والفجورِ، والظلمِ الشيءَ الكثير.

ثم أخبرَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ أعمالَ الأُممِ التي زُيِّنَتْ لأصحابِها قد تكونُ صالحةً، وقد تكونُ ظالمةً، وسيُحشَرُ العبادُ إلى الله في يوم القيامةِ، ويحاسِبُهم، ويُخْبِرُ كلَّ قومٍ يومَ القيامةِ بما كانوا يعملونه، ويجزِيهم على ما عَمِلُوه ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام:١٠٨].

٦- أقْسَمَ المشركونُ أعظَمَ الأقْسامِ أنّه إن أنْزَلَ اللهُ إليهم آيةً ليؤمنن بها:

أخبرنا ربُّنا سبحانه أنَّ المشركين أقْسَموا بالله أقْساماً مغلظةً أنه إنْ أنْزَلَ عليهم الآياتِ ليُؤْمِنُنَّ برسولِهِ ﷺ، ويتَّبِعونَ ما جاءِ به، فأمر اللهُ رسولَه ﷺ أن يقولَ لهم: إنما مجيءُ الآياتُ من عندَ الله، إنْ شاءَ أنْ ينزلَها أنزلَها، وإنْ شاء أنْ يمنعَها مَنَعَها، وقال لرسولِهِ ولأصحابِه:

جنـــــة السـنـــــة

وما يُدْرِيكُم أنَّه إذا أنْزَلَ اللهُ الآيات لا يؤمنون بها ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٩].

والمرادُ بقولِهِ: ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: أقْسَموا بالله أعْظَمَ الأقسامِ وأشدَّها، وقد أنزل اللهُ تعالى الآيات المعجزات على الأمم من قبلنا، فكفروا بها، وكذَّبوا بها، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [الإسراء:٥٩]. ومع ذلك كلِّه فقد أنزلَ اللهُ تعالى على رسولِهِ الآية العظيمة، وهي القرآنُ، وأرى أهلَ مكة بعض الآياتِ العظيمة، وهي انشقاقُ القمر ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾ [القمر:١].

٧- تقليبُ اللهِ قلوبَ العبادِ لعدمِ إيمانِهِمْ بالقرآن أوَّلَ مرَّة:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه يُقَلِّبُ أفْئِدَةَ العبادِ وأبْصارَهُمْ كما لم يؤمنوا به أوَّلَ مرَّةٍ ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام:١١٠]، أي: نُقلِّبُ قلوبَهم، فنُزيغها عن الإيمانِ، وأبصارهم عن رؤيةِ الحقِّ، كما لم يؤمنوا بالقرآن عندما أُنْزِلَ عليهم أوَّل مرةٍ.

والتَّقْليبُ: تحويلُ الشيءِ من وجْهٍ إلى وجْهٍ، فكان الواجبُ عليهم إذا سَمِعوا الآياتِ القرآنية المنزلة على رسول الله ﷺ أوْ شاهدوا الآيات الكونية كانشقاقِ القمرِ أنْ يُسارِعُوا إلى الإيمانِ بها مِنْ غير تأخيرٍ، فلمَّا كَذَّبُوا بها بعد سماعها أو مشاهدتِها، وتحقُّقِهِمْ صِدْقَها، قلَّبَ اللهُ تعالى قلُوبَهُمْ وأبْصارَهِمْ، فحالَ بينهم وبين الإيمانِ لعدم إيمانِهم بها أوَّل مرةٍ، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [الأنفال:٢٤]، وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أنَّ قلوب العباد بين إصْبَعَيْنِ مِنْ أصابع الرحمنِ يقَلِّبُها كيف يشاءُ، وكان رسولُ الله ﷺ يدعو ربَّه أنْ يُصَرِّفَ قَلْبَهُ على طاعةِ الله.

عن عبدالله بن عمرو بن العاصِ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ قلوبَ بني آدم كلَّها بين أصْبَعَيْنِ من أصابعِ الرحمن، كَقَلْبٍ واحدٍ، يُصَرِّفُهُ حيث يشاءُ» ثم قالَ رسولُ الله ﷺ: «اللهم مُصَرِّفَ القلوبِ، صَرِّفْ قلوبَنا على طاعَتِكَ» [مسلم: ٢٦٥٤].

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [الأنعام:١١٠]، أي: نَتْرُكُهُمْ في كُفْرِهِمْ. يتردَّدُون ويَلْعبُونَ.

جنـــــة السـنـــــة

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أنْزَلَ اللهُ تعالى على رسولِهِ ﷺ بصائرَ، وهي الآيات المسطورَةُ في القرآنِ، والآياتُ الكونيةُ، فمن نَظَرَ فيها نَظَرَ مُعْتَبِرٍ اهتدى، وإلاَّ ضَلَّ وغَوَى.

٢- بيَّنَ اللهُ تعالى في كتابهِ القرآنِ الحقَّ بألوانٍ متعدِّدَةٍ من البيانِ، فكانت العاقبةُ أنَّ قوماً زعموا أنَّه ﷺ دَرَسَ هذا العلمَ على غيْره، وآخرون عَلِمُوه واهتدَوْا به.

٣- يجبُ على المؤمنين أنْ يقْتَصِرُوا على هَدْي ربِّ العالمين المنزلِ على رسولنا محمدٍ ﷺ، ولا يجوزُ الاهتداءُ بهَدْيِ المشركين الضالين.

٤- اللهُ -تعالى- هو المعبودُ الحقُّ الذي لا يجوزُ عبادَةُ غيره.

٥- كلُّ ما يقعُ في الكون حتى الكفر والشركِ، فهو بتقديرٍ من ربِ العبادِ، ومَنْ زَعَمَ غيرَ ذلك، فقد أقَرَّ بوجود أربابٍ غير الله تَخْلُقُ وتوجِدُ.

٦- يجبُ على الداعيةِ أنْ يقيمَ الحجَّةَ على العبادِ بإبلاغهم الحقَّ الذي عَلِمه مِنْ دينِ الله تعالى، أما إحصاءُ أفعالِ العبادِ فهو إلى الله ربِ العالمين.

٧- لا يجوز أن يَسُبَّ المسلمُ آلهَةَ المشركين، حتى لا يتخذَ المشركون ذلك ذريعةً إلى سبِّ الله عَدْواً بغير علمٍ.

٨- طبع اللهُ تعالى البشر مُؤْمِنَهُمْ وكافرهم على الإعجابِ بأعمالهم التي يعملونَها.

٩- طَلَبَ المشركونَ أنْ يُنْزِلَ اللهُ عليهم آيةً تَدُلُّ على صِدْقِ رسولِهِ، وأقْسَموا أغْلَظَ الأيمانِ على أنَّهم سيُؤْمنون إنْ أُنزلتْ عليهم، فأمر اللهُ رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ لهم: إنَّ الآياتِ عند الله تعالى، وإنَّ الآياتِ قد تَنْزِلُ ولا يؤمنون بها.

١٠- الذينَ يُنْزِلُ اللهُ تعالى إليهم الآياتِ، ثم يعْرِفونَ صِدْقَها، ولا يؤمنونَ بها، يحولُ اللهُ بينهم وبينَ الإيمانِ كما لم يؤمنوا بها عند نزولها أول مرة.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني الثامن عشر من سورة الأنعام

مجيءُ الرسلِ بالآياتِ المعجزاتِ لا يدخلُ الإيمانُ القلوبَ دائماً

أولاً: تقديم

أخبرنا اللهُ تعالى في آيات هذا النص أنَّ إنزالَه الآياتِ المعجزاتِ على رسوله لا يهدي إلى الإيمان دائماً، وواسى ربُّنا رسولَه ﷺ بأنه كما جعَلَ له أعداءً جعل لكلِّ نبيٍّ بعثَه أعداءً شياطينَ الإنسِ والجنِ، وأوحى اللهُ تعالى إلى رسوله ﷺ، ناهياً إياه عن اتخاذ حَكَماً غير كتابِ الله تعالى، وبيّن سبحانَه أنَّ الذين آتاهم الكتابَ من اليهود والنصارى يعلمون أنَ القرآنَ منزلٌ من عند الله حقاً، وأعلمنا ربُّنا أنَ القرآنَ كُلُّه صِدْقٌ لا كذبَ فيه، وعدلٌ لا ظلمَ فيه، فعلى عبادِ الله الاحتكام إليه، والمصير إليه، بعيداً عن أهواء البشر التي تحكم أكثر أهل الأرض.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [الأنعام:١١١-١١٧].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إنزالُ الله تعالى الآيات على المشركين لا يهدي دائماً إلى الإيمان:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في الآية التي قبلَ الآية السابقة أنَّ المشركين ﴿أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ﴾ [الأنعام:١٠٩] وأخبرنا ربُّنا في هذه الآية أنه لو أنزل عليهم الآيات العِظامِ ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاءَ اللهُ ﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ

جنـــــة السـنـة

﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام:١١١].

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنه لو أتاهم بجميع ما اقترحوه من الآيات، ومن ذلك إنزالُ الملائكةِ عليهم، فيرونهم عياناً، ويسمعون كلامَهم، ومن ذلك إحياءُ الله -تعالى- الموتى حتى يكلموهم، وحَشْرُ الدوابِّ والنباتِ والجمادِ فكَلموهم قُبُلاً، أيْ: عياناً ومجاهرةً، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاءَ اللهُ إيمانَهم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام:١١١] أي: ولكنَّ أكثر المشركين يجهلون أنَّ الإيمانَ والكفرَ ليس بأيديهم، ولكنَّه بيدِ الله عزَّ وجلّ، فلا يؤمن إلا من شاءَ اللهُ تعالى هدايتَهُ وتوفيقَهُ إلى الإيمان، ولذلك قال ربّ العزةِ في الآية السابقة: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنعام:١٠٩].

وقد أرسل الله تعالى صالحاً بآيةٍ عظيمةٍ مبصرةٍ هي ناقةُ الله، فما آمنَ كثيرٌ من قومِهِ، وأرسلَ موسى بالعصا التي تتحول إلى ثعبانٍ مبين، فما آمن فرعونُ وملؤه، وأرسلَ عيسى عليه السلام بآيات كثيرةٍ باهرةٍ، فكفر كثيرٌ من الذين أرسل إليهم.

٢- سُنَّةُ الله -تعالى- في خلقه أنه جعل لكلّ نبيٍّ عدواً شياطين الإنسان والجنّ:

قال اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ مواسياً له فيما عَرَضَ له في مواجهة أعدائِهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام:١١٢].

أيْ كما جعلنا لك أعداءً يواجهونَك ويجادلونَك جعلنا لكل نبيٍّ بعثناه من قبلك عدوّاً، وقد بيّن الله تعالى أنَّ هذا العدوَّ هم شياطينُ الإنس والجنِّ يوحى بعضهم إلى بعض زخرفَ القولِ غروراً، قال البغوي: «قالَ قتادةُ ومجاهدٌ والحسنُ: إنَّ من الإنسِ شياطينَ كما أنَّ من الجنِّ شياطينَ، والشيطانُ العاتي المتمرِّد من كلِّ شيءٍ، وقال مالك بن دينار: إنَّ شياطينَ الإنس أشدُّ عليَّ من شياطينِ الجنِّ، وذلك أنِّي إذا تعوذتُ بالله ذهب عَنِّيَ شيطانُ الجنِّ، وشيطانُ الإنسِ يجيئني، فيُجرُّني إلى المعاصي عياناً» [تفسير البغوي: ٣/ ١٧٩، ١٨٠]. وروى عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ : «ما منكم من أحَدٍ إلاَّ وقد وُكِّلَ به قرينُهُ من الجنِّ» قالوا: وإيَّاك يا رسول الله، قال: «وإيَّاي، إلاّ أنَّ اللهَ أعانني عليه فأسْلَمَ، فلا يأمرني إلا بخير» [مسلم: ٢٨١٤].

وعن عائشة أنَّ رسول الله ﷺ خَرَجَ من عندها ليلاً، قالت: فغِرْتُ عليه، قال: فجاءَ فرأى ما أصنع، فقال: ما لكَ يا عائشةُ، أغِرْتِ؟ فقلت: وما لي لا يغارُ مثلي على مِثْلِكَ؟ فقال

جنـــة الســـــنة

رسول الله ﷺ: «أَقَدْ جاءَك شيطانُكِ؟» قالت: يا رسول الله، أوَمَعِي شيطانٌ؟ قال: «نعم». قلت: ومع كلِّ إنسانٍ؟ قال: «نعم». قلت: ومعكَ يا رسولَ الله؟ قال: «نعم، ولكنَّ ربي أعانني عليه حتى أَسْلَمَ» [مسلم: ٢٨١٥].

وأَوْرَدَ ابنُ كثيرٍ الحديثَ الذي رواه عبدالرزاق أنَّ الرسولَ ﷺ قال لأبي ذرٍّ: «تعوَّذْ بالله من شياطين الإنسِ والجنِّ» فقال: أوَ إنَّ مِن الإنس لشياطين؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم» وأَوْرَدَ ابن كثير أربعةَ أسانيد أخرى لهذا الحديث، كلُّ واحد منها فيه ضَعْفٌ، ثم قال: «هذه طرق لهذا الحديث، ومجموعُها يفيدُ قوتَه وصحَّتَه» [ابن كثير: ٣/ ٧٤].

وهذه الأحاديث تفيدُ بأنَّ من الجنِّ شياطين، ومن الإنس شياطين، والشيطانُ في لغة العرب: «العاتي المتمرِّدُ من كلِّ شيء» أي سواءً أكان جنياً أو إنساناً، أو حيواناً، وقد جاء في صحيح مسلم عن أبي ذر أنَّ رسول الله ﷺ قال: «الكلبُ الأسودُ شيطانٌ» [مسلم: ٥١٠].

وقوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ والإيحاءُ: الإعلامُ الخفيُّ: ذَكَرَ ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ بعضَ الشياطينِ يوحي إلى بعضٍ زخرفَ القولِ غروراً، أي: قولاً مزيناً بالزخرف، سماه زخرفاً، وهو باطل، لأن صاحبه يزخرفه، ويزينه ما استطاع، ثم يلقيه إلى سمع المغرور، فيغترَّ به، وقوله: ﴿غُرُورًا﴾ أي: قولاً باطلاً.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: لو شاءَ اللهُ تعالى لَمَنَعَ الشياطينَ من تزيين الباطلِ وتزويقِهِ، والإيحاءِ به إلى غيرهم، ولكنَّ اللهَ يمتحن ما يعلم أنَّه الأبلغُ في الحكمةِ، والأجزلُ في الثوابَ، والأصلحُ للعباد.

٣- تهديدُ الذين تميلُ قلوبُهُمْ إلى ما توحي به الشياطينُ من زخرفِ القول:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ قلوبَ الذين لا يؤمنون بالآخرة، تَصْغَى إلى القولِ المزخرفِ الذي توحي به الشياطينُ، ويرْضوه، ويقترفوا ما هم مقترفون، قال تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأنعام:١١٣].

ومعنى تصْغَى: تميلُ، تقول: أصْغَيْت الإناء: أَمَلْتُهُ، وأصلُهُ الميلُ إلى الشيءِ لغَرَضٍ من الأغراضِ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم:٤] وقوله: ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ أي: تتقبلهُ قلوبُهُم، فإنَّ مَنْ مالَ قلبُهُ إلى الشيءِ، فإنه يقبله، ويرضاه، وقوله: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ أي: ليعملوا من الذنوب ما هم عاملون، وفي هذا تهديدٌ ووعيدٌ لهؤلاءِ، فإنهم محاسبون مجزِيُّونَ معاقبون.

جنـــــة السـنـــــة

٤- القرآن هو الحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه:

يبدو أنَّ المشركينَ كانوا قد طلبوا من الرسولِ ﷺ أنْ يجعل بيْنَه وبينهم حكماً، يُحكِّمونَهُ فيما شَجَرَ بينه وبينهم، فأمره الله أن يقول لهم: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام:١١٤] أمَرَهُ أنْ يقولَ لهم: أفغير الله أطلب لكم حكماً، وهو الذي كفاكم مؤونةَ المسألة في الآيات المعجزات بما أنزله إليكم من الكتاب مُفصَّلاً، أي: مُبيَّناً، وهذا يدلُّ على أنَّ كتابَ الله هو الحَكَمُ بين الناس، وفي ذلك يقول ربُّ العزة: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى:١٠]، وقال: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ [البقرة:٢١٣]، وقال: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء:٦٥].

وذكر الماورديُّ أنَّ الفَرْق بين الحَكَم والحاكم: «أنّ الحَكَمَ هو الذي يكون أهلاً للحُكْمِ، فلا يَحْكُم إلا بحقٍّ، والحاكمُ قد يكونَ من غيرِ أهله، فيحكم بغير حَقٍّ، فكان الحَكَمُ أبْلَغُ في المدح من حاكم» [تفسير الماوردي: ١/ ٥٥٦].

وكوْن القرآن نزل مُفصَّلاً يعني أنَّه مبينٌ غايةَ البيان، أي: على وجه التفصيل، وهذا يدلُّ على بطلان قولِ الذين زعموا أنَّ فيه معانٍ لا تفهمُ، ولا يعلمُ المرادُ منها، ويجيزون أنْ تعارضه عقولُ الرجال.

٥- اليهودُ والنصارى يعلمون في قرارة قلوبهم أنَّ القرآنَ مُنَزَّلٌ من عند الله:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ علماءَ اليهودِ والنصارى يعلمون في قرارةِ نفوسِهِمْ أنَّ القرآنَ منزلٌ من عندِ الله بالحقِّ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأنعام:١١٤].

وهذا العلم الذي امتلأتْ به قلوبُ اليهودِ والنصارى جاءَهم من البشاراتِ التي تزْخَرُ بها التوراةُ والإنجيل، فقد تحدَّثَتْ عن رسولنا وكتابنا وقبلتنا، وتحدَّثت عن ديننا، وعن الأمَّة الإسلامية، وقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ أي: من الشاكين.

٦- أتَمَّ اللهُ تعالى كلماتِ كتابهِ صِدْقاً وعَدْلاً:

كلماتُ الله -تعالى- التي أنزلها في كتابه تامَّةٌ، لا يعْرُوها شيءٌ من النَّقْصِ والقصورِ بحال من الأحوال، قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الأنعام:١١٥].

جنـــــة الســـــنة

وقوله: ﴿صِدْقًا﴾ أي: في أخباره، فلا كذبَ فيه، و﴿وَعَدْلًا﴾ أي: في أحكامه، فلا ظُلْمَ في تلك الأحكام، وقوله: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: لا رادَّ لقضائِه، ولا مُغيِّرَ لحكمه، ولا مخلف لوَعْدِه.

٧- تحذيرُ الله رسولَه ﷺ من متابعةِ الغالبيةِ العظمى من الناس:

أعْلَمَ اللهُ -تعالى- نَبِيَّهُ محمداً ﷺ أنّه إن يطعْ أكثر من في الأرض يضلُّونَهُ عن سبيل الله، وسبيلُ الله: الإسلامُ ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام:١١٦] وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الصافات:٧١]، وقوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف:١٠٣].

واتِّباعُهُم الظنّ يكون في ظَنِّهم أنَّ آباءَهم على حقٍّ، والمراد بـ ﴿يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون على الله، فنسبتهم إليه الولد، وادعاؤُهم أنَّ له شركاءَ، والخَرْصُ: الحَزْرُ والتَّخْمينُ، وقد بيَّن الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾ [الأنعام:١١٧] أنَّه أعْلَمُ من كلِّ أحدٍ بالذي يضلُّ عن دينه، وأعلمُ بالمهتدين، فلا يجوزُ لأحدٍ أن يتعالم على الله في ذلك، فيحدِّدَ الفجارَ والأخيارَ بقولٍ من عنده بعيداً عما بيَّنه الله وقرره.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- اللهُ تعالى قادرٌ على إنزالِ الآيات المعجزاتِ كإنزالِ الملائكةِ وتكليم الموتى للناس، ولكنَّ الآياتِ لا تدخل الإيمان في القلوب دائماً إلا أن يشاء الله.

٢- سُنَّةُ الله التي مضت في أنبيائه أنَّه جعل لكلِّ نبيٍّ بعثه عدوّاً من شياطين الإنسِ والجنِّ.

٣- شياطينُ الإنسِ والجنِّ متعاونون فيما بينهم على الشرِّ، يوحي بعضهم إلى بعض زخرفَ القولِ غروراً.

٤- تميلُ قلوبُ الكفارِ الذين لا يؤمنون بالآخرة إلى زخرفِ القولِ الذي تفتريه شياطينُ الإنس والجنِّ، وترضاه.

٥- لا يجوز أن نحتكم إلى غير الله وغير شرعه الذي أنزله على رسوله وهو القرآن، وهو كتابٌ مُفصّل مبينٌ، صالحٌ لأنْ نحتكمُ إليه فيما يثور بيننا من نزاع وخلاف، ومثل ذلك سنّته الصحيحة.

جنـــــة السـنـــــة

٦- علماءُ أهل الكتاب من اليهود والنصارى يعلمون أنَّ القرآنَ حقٌّ منزلٌ من عند الله، فقد أخبرهم الله عنه في التوراة والإنجيل، ولا يزالُ هذان الكتابان يزخران بهذه البشارات.

٧- القرآنُ كاملٌ لا يَعْرُوْهُ نقصٌ بحال من الأحوال، أخْبارُه صِدْقٌ كُلُّها، وأحكامهُ عَدْلٌ كلُّها، وقد أعطاه اللهُ خاصيَّةً في الحفظ، فلا يستطيع أحدٌ تبديلَه ولا تغييرَهُ.

٨- لا يجوز اللجوءُ إلى رأي الغالبية من البشر، فأكثر الناس ضالُّون، تقوم أحكامهم على الظنِّ والتخمين، واللهُ وحده العالمُ بالضلال والهدى.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني التاسع عشر من سورة الأنعام
الأكلُ مما ذكر اسمُ الله عليه وما لم يذكر اسمُ الله عليه

أولاً: تقديم

أمَرَ اللهُ -تعالى- عبادَه أنْ يأْكلوا مما ذكر اسمُ الله عليه من الذبائح، ويبدو أنَّ بعضَ أهلَ الجاهلية كانوا لا يأكلون مما ذكرَ اسمُ الله تعالى عليه، ثم وجَّهَ اللهُ تعالى السؤالَ إلى هؤلاء الذين لا يأكلون مما ذُكِرَ اسمُ الله عليه منكراً عليهم، خاصة وأنَّه فَصَّل لنا ما حَرَّم علينا، أي بينه أحسنَ البيان، ووضَّحه أعظم الإيضاح، وأمرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- بترك الذنوب كلِّها الظاهرِ منها والمستور، ونهانا سبحانه أنْ نأكلَ مما لم يذكر اسمُ الله عليه، وأعلمنا أنَّ الأكلَ مما لم يذكر اسمُ الله عليه فِسْقٌ، أي خروج عن طاعة الله.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام:١١٨-١٢١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إباحةُ الأكلِ من الذبائح التي ذبحت باسم الله تعالى:

أمَرَ اللهُ عبادَهُ المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح التي ذُكِرَ اسمُ الله تعالى عليها حين ذبحها ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام:١١٨] ومفهومه أنَّه لا يباح أكلُ ما لم يذكر اسمُ الله عليه، وهذا صحيحٌ إن كان الذي لم يُذكَر اسمُ الله عليه ميتةً، أو ذُبِح لما يعبدُ من دون الله، كالذي ذُبح للأصنام والأوثان والجنِّ ونحوها، فإنْ ذبحَ المسلمُ وترك التسميةَ عليها عَمْداً أوْ سهواً، ففي المسألة خلاف يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وقوله: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [الأنعام:١١٨] فيه تهييجٌ على الأكلِ مما ذُكِرَ اسمُ الله عليه إذا كانوا مؤمنينِ بآياتِ الله.

جنـــــة الســـــنة

٢- لومُ الذين لا يأكلون مما ذكر اسم الله عليه:

أباح اللهُ لعبادِهِ المؤمنين أن يأكلوا مما ذكر اسمُ الله عليه، ولام اللهُ في هذه الآية الذين يمتنعون عن الأكْلِ مما ذكر اسم الله عليه، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام:١١٩]. والمعنى: أيّ شيءٍ يمنعكم من الأكل مما ذكر اسمُ الله عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأنعام:١١٩] أعلمنا ربُّنا بعد أنْ أباحَ لنا ما ذُكِرَ اسمُ الله عليه، أنَّه فَصَّلَ القولَ في المحرمات التي لا يجوز لنا أكْلُها إلاّ ما اضْطُرِرْنا إليه، وقد بيَّنَ لنا هذا في غير آيةٍ، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ [المائدة:٣] ثم قال في خاتمة الآية: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة:٣].

وقوله: ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ﴾ قال الشافعي: «المضطرُّ: الرجلُ يكونُ بالموضعِ: لا طعامَ معه فيه، ولا شيءَ يَسُدُّ جوعَه من لبنٍ أو ما أشبهه، ويبلِّغه الجوع ما يخاف منه الموتَ أو المرضَ» [أحكام القرآن للشافعي، جمعه البيهقي: ٢/ ٩١]. وقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ ومن هؤلاء الذين يمتنعون عن أكل ما ذكر اسمُ الله عليه، ويأكلون الميتة، وما ذبح باسم الأصنام والأوثان، فهؤلاء يتبعون أهواءَهم بغير علم، واللهُ يعلم بالمعتدين، وهم الذين يتجاوزون الحلالَ إلى الحرام.

٣- أمرنا ربُّنا أنْ نترك ظاهر الإثمِ وباطنَهُ:

أمَرَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أن نترك ظاهِرَ الإثمِ وباطنَهُ ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأنعام:١٢٠] وظاهِرُ الإثمِ ما يفعلهُ الإنسانُ بأعمالِه الظاهرة كالزنا والسرقة وشرب الخمر ولعب الميسر وعبادة الأصنام بالجوارح، وباطنُ الإثمِ ما انعقد عليه القلبُ من الكفرِ والشركِ والغلِّ والحسد ونحو ذلك، ومنه ما يفعله من المعاصي الظاهرةِ في السرِّ والخفاء كالزنا والسرقة. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ﴾ [الأنعام:١٥١].

جنـــــة الســـــنة

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ أي إنَّ الذين يرتكبون ما يؤدي إلى الإثم سواءً أكان ظاهراً أو خفيّاً سيجزيهم اللهُ تعالى بما فعلوه من الذنوب والمعاصي.

٤- نَهْيُ الله -تعالى- عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه:

نهانا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن الأكلِ من الذبائح التي لم يُذْكَرِ اسمُ الله عليها فقال: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام:١٢١]. ولا شكَّ أنه لا يجوز للمسلم أن يأكل الميتةَ، ولا ما ذبح لغير الله تعالى، فهذا مما لم يذكر اسمُ الله عليه، ومنه ما ذُبح للأصنام والجنِّ والمسيح ونحو هؤلاء.

فإنْ ذَبَحَ المسلمُ ذبيحةً ولم يذكر اسمَ الله عليها عمداً أو سهواً، فالأصحُّ أنه يجوز أكْلُها إنْ كان المسلمُ الذابحُ للذبيحةِ ناسياً التسمية، فإن تعمَّدَ تركها فلا يحِلُّ أكْلُها، وهذا هو المشهور من مذهب مالكٍ وأحمد، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابُهُ، وإسحاقُ بن راهويه، ولو قال أحدٌ بقول الشافعيِّ رحمه الله تعالى، وهو أنَّ التسمية عند الذبح مستحبةٌ، وليست شرطاً، والذبيحة التي تركت التسمية عليها سهواً أو عمداً يجوز أكلها، فإنه لا يبعد عن الصواب

[راجع: ابن كثير: ٣/ ٧٨. والتفسير الكبير، لابن تيمية: ٤/ ٢٥١].

والفسقُ: الخروجُ عن طاعة الله، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ أي: إنَّ شياطينَ الجنِّ والإنسِ يُلْقُونَ في آذانِ أوليائهم من المشركين الشبهاتِ ليجادلوا بها المؤمنين، ولعلَّ من هذا دعواهم أنَّ المؤمنين مخطئون، عندما يجيزون أكلَ ما ذبحوه من الأنعام، ويحرمون أكْلَ ما قتله الله بغير سكين.

وقد أخبرنا ربُّنا عزَّ وجل أننا إن أطعنا الكفارَ فيما ذهبوا إليه، فإننا مشركون.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من عمل وعمل:

١- شَرَعَ اللهُ تعالى لعباده أن يأكلوا من الذبائح التي ذُكِرَ اسمُ الله عليها، وقد هيَّجنا اللهُ تعالى إلى الأكل منها بقوله: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

٢- وَبَّخَ اللهُ -تعالى- وقَرَّعَ الذين لا يأكلون مما ذُكر اسمُ الله عليه عندما سألهم منكراً عليهم عن السبب الذي يدعوهم إلى ترك الأكل مما ذكر اسمُ الله عليه.

٣- فَصَّلَ اللهُ تعالى وبيَّنَ لنا ما حَرَّمه علينا، إلا ما اضطرنا إلى أكله، ولا يوجد في المحرمات ما ذكر اسم الله عليه.

٤- حَرَّمَ اللهُ علينا كُلَّ ما يؤدي إلى الإثم من الأعمالِ الظاهرةِ والباطنة من الكفر والذنوب والمعاصي، وكلُّ مَنْ اكتسب إثماً، فسيجزيه اللهُ بها عمله.

٥- حَرَّم علينا أكْلَ ما لم يُذْكَرِ اسمُ الله عليه، كالميتة، وما ذبح للأصنام والأوثان، وما ذبحه الكفارُ، أمَّا ذبيحة المسلم إن نسيَ ذكر اسمِ الله عليها فهي حلالٌ، والأرجحُ عدمُ جوازِ الأكلِ منها إن ترك الذابح المسلمُ الأكلَ منها عمداً.

٦- على المسلم أن يكون بصيراً في دينه، فلا يلتفت إلى الشبهات التي يلقيها الشياطينُ إلى أوليائهم ليجادلوا بها المسلمين، فمن ذلك ما قالوه للمسلمين: أرأيتم الشاةَ تذبحونها بسكين من حديد تقولون: هي حلالٌ، فإذا ذبحها اللهُ بسكين من ذهبٍ، وهي الميتةُ، تقولون: هي حرام، والحقُّ أنَّ الله نهى عنها، فهي حرام.

جنـــة الســـــنة

النص القرآني المتمم للعشرين من سورة الأنعام
المقارنة بين المؤمنين الذين أحيا اللهُ أرواحَهم بالإيمان والكفار الذين ماتت أرواحهم بالشرك

أولاً: تقديم

كان الصراعُ محتدماً بين المؤمنين والكفار حين نزلتْ هذه الآياتُ، وكانَ القرآنُ يتنزَّلُ يُبَيِّنُ حقيقةَ الصراعِ، مغذيّاً التوجه الإيمانيَّ، مزرياً بالتوجُّه الكافر، وقد عَقَدتِ الآياتُ مقارنةً بين المؤمنين الذينَ أحيا اللهُ أرواحَهم بالإيمان، وأنار قلوبهم بالقرآن، وبيْنَ الذين ماتَتْ أرواحُهم، وأظلمتْ قلوبُهم، وأنحى اللهُ باللوْمِ على السادةِ الذين هم أكابرُ المجرمين الذين يمْكُرون ليفسدوا في البلاد والعباد، وهؤلاءُ هم الذين يشترطون لإيمانهم أن يُؤْتوا مثل ما أُوتي الرسلُ، أي يريدون أنْ يكونوا رُسلاً، وقد تهدَّدَهم ربُّ العزة بالذِّلةِ والصَّغارِ والعذابِ الشديد.

وقد قارنَ ربُّ العزةِ بينَ طائفتين في المجتمع في ذلك الوقت، طائفةٍ شَرَحَ صدورَهمْ بالإسلام، وطائفةٍ ضاقت صدورُهُمْ به، فأصبحت حالُهم كالذي يصَّعَّد في السماءِ.

وقد دعا اللهُ عباده إلى الصراط المستقيم الذي هو القرآن، وأخبر أنَّ أهلَ القرآنِ لهم عند ربِّهم دارُ السلام، وهي جناتٌ تجري من تحتها الأنهارُ، وهو وليُّهم في يوم القيامةِ، لأنهم كانوا يتولونه بعملهم في الدنيا.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأنعام:١٢٢-١٢٧].

جنـــــة السـ‍ـــــــنة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الإيمانُ حياةُ الأرواحِ والقرآنُ نورُ القلوب:

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢] يقول: أَوَمَنْ كانتْ روحُهُ ميتةً بكفرِها بالله وشركها به، فأحيا اللهُ تعالى رُوحَهُ بالإيمانِ، فأصبحتْ روحُهُ حَيَّةً، عارفةً بالله، موحدةً له، وكان قلْبُهُ مظلماً بظلماتِ الكفرِ والشركِ والذنوبِ والمعاصي التي عَشْعَشَتْ فيه، فأنارَ اللهُ قلْبَهُ بأنوارِ القرآنِ، كمن مثله في الظلماتِ، أي: ظلماتِ الكفرِ والشرك، أيْ: تحيط به، فلا يستطيعُ الخروجَ عنها، فقد جَمَعَ اللهُ تعالى لعبده الذي ضَرَبَ له مَثَلاً بالحياة والنورِ في قلبه، كما جَمَعَ لعبده المشركِ بين الموتِ والظلمةِ، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى:٥٢].

وقد استفادَ الشاعرُ شيئاً مما تضمنته الآية فقال:

وفي الجهـلِ قبـلَ المـوتِ مَـوْتٌ لأهلِـهِ فأجْســـامُهُمْ قبــلَ القبـــورِ قبـــورُ
وإنَّ امـــرأً لم يَحْـــيَ بـــالعلمِ مَيِّـــتٌ فلـــيسَ لَـــهُ حتـــى النُّشـــورِ نُشُـــورُ

وروى عبدُالله بن عمْرٍو قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ اللهَ خلقَ الخَلْقَ في ظلمةٍ، ثم ألْقى عليهم من نوره يومئذٍ، فمن أصابَهُ من نوره يومئذٍ اهتدى، ومن أخطأه ضَلَّ» [أحمد في مسنده: ٦٦٤٤. وهو حديث صحيح].

وقوله: ﴿يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ أيْ: يمشي بذلك النورِ في الناس في الدنيا، فهو على نورٍ من ربِّه، والناسُ يهتدون بذلك النورِ الذي يصاحبه.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام:١٢٢]، أي: حُسِّنَ للكافرين كفرُهُمْ وشركُهم وأعمالُهم الضالَّة، وهذا نَراهُ اليوم في أمم الغربِ التي تدَّعي أنَّ ما هي عليه من الضلالِ في العقيدةِ والاجتماع والاقتصاد حضارةٌ ومدنيةٌ، وأكثره ضلالٌ وكفرٌ وانحراف.

٢- جعل اللهُ في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه جَعَلَ في كلِّ قريةٍ أكابرَ مجرميها ليمكروا فيها ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا

جنـــة الســـــنة

يَشۡعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٣]. أي كما جعل في أهل مكة أكابرَ مجرميها ليمكروا فيها، كذلك جعل اللهُ في كل قريةٍ أو مدينة أكابر المجرمين ليمكروا فيها، و﴿أَكَٰبِرَ﴾ جمعُ أكْبَر، مثل أفاضلُ جَمْعُ أفضلَ، وهم رؤساءُ القرى وعظماؤُهم، خصَّهم اللهُ بالذكر، لأنَّهم أقدرُ على الفساد، والمكر: صرفُ الغيرِ عمّا يَقْصِدُهُ بالخديعة والحيلة.

وقوله: ﴿وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ لأنَّ عاقبة مكرهم تعودُ عليهم، فقد يعاقبهم ربُّهم في الدنيا، ويحيطُ بهم عذابُهُ، كما نشاهد مَنْ تحلُّ بهم الزلازلُ والصواعقُ والأعاصيرُ في الدنيا، وفي الآخرة يحيطُ بهم العذابُ، وهم لغفلتهم عمَّا يُرادُ بهم، لا يشعرون بعذاب الله الماحقِ الذي يوشكُ أنْ ينطبقَ عليهم.

٣- تعنتُ أكابرِ المجرمين في طلبهم أنْ يُؤْتَوْا مثل ما أوتي رُسُلَ الله:

أعلمنا ربُّنا عن تعنتِ المجرمينِ الكفرةِ الذين ﴿إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾ [الأنعام:١٢٤] أي: إذا جاءَتهم آيةٌ، طلبوا أن يُنْزِلَ اللهُ عليهم مثلَ ما أوتي رسلُ الله، فهم يريدون أنْ يُعْطَوْا مثل عصا موسى التي كان يلقيها، فتتحوَّلُ إلى ثعبانٍ مبينٍ، أو يُعْطَوْا إبراءَ الأكمه والأبرص، كما أُعطي عيسى، أو يُعْطَوْا الناقةَ التي أُعْطيها هود، وقد رَدَّ اللهُ عليهم قائلاً: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعام:١٢٤] يقول ربُّنا تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ فهو يعلم معادنَ الرجالِ، ويعلم الذين قلوبُهُمْ صالحة، ونفوسُهُمْ خيِّرة، فهو يختارُ أصْلَحَ الناسِ وأفْضَلَهمْ، ليكونوا رُسُلَه وأنبياءَه، وليس مقياسُ الصلاح للرسالةِ كثرةُ المالِ، والعزةُ والجاه، قال ابنُ مسعود: «إنَّ الله نَظَرَ في قلوبِ العبادِ، فوَجَدَ قَلْبَ محمدٍ ﷺ خيرَ قُلُوبِ العبادِ، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته» [أحمدُ في المسند: ٣٦٠٠ وإسنادُه حسن].

وقد روى البخاريُّ الحديث الذي سأل فيه هِرَقْلُ ملكُ الروم أبا سفيان عن رسولنا ﷺ، وكان أبو سفيان رئيسَ قريشٍ في ذلك الزمان، واستدلَّ هرقلُ بأجوبةِ أبي سفيان الدالةِ على طهارةِ الرسولِ ﷺ وكريم صفاتِهِ على نبوتِهِ وصحةِ ما جاء به [انظر البخاري: ٧. ومسلم: ١٧٧٣].

ورسولُنا ﷺ خيارٌ من خيارٍ من خيارٍ من خيارٍ، فعن واثِلَةَ بن الأَصْقَعِ، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُ: «إنَّ اللهَ اصْطَفَى كنانةَ من وَلَدِ إسماعيلَ، واصطفى قريشاً من كنانة، واصْطَفَى من قريشٍ بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» [مسلم: ٢٢٧٦].

جنـــة السـنـــة

وعن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «بُعِثْتُ من خيرْ قرونِ بني آدم، قرناً فقرناً، حتى كنتُ من القرْنِ الذي كنتُ منه» [البخاري: ٣٥٥٧].

وحسبنا أنَّ ربَّنا قالَ لرسولِهِ ﷺ : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم:٤]، وتهدَّدَ اللهُ تعالى الذين أجرموا واستكبروا وتعالوا، ورفضوا الإيمانَ إلاَّ إذا أوتوا كما أوتي رسلُ الله، تهدَّدَهم بأنه سيُنْزِلُ بهم عذابَه، وسيحلُّ بهم الصغار بما كانوا يَمْكُرون، والصَّغارُ: الذلَّةُ، وهو يقابل استعلاءَهم واستكبارَهُمْ عن الحقِّ في الدنيا، وقد جاء في بعض الأحاديث أن المستكبرين يُحْشَرون أمثالَ الذَّرِّ يطؤهم الناسُ في يوم القيامة.

٤- مَثَلُ الذي يُريدُ اللهُ هدايتَه ومثلُ الذي يريدُ إضلالَه:

حدَّثنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن الذي يريدُ اللهُ هدايتَهُ، والذي يريد إضلالَهُ، فالذي يريد هدايتَهُ يشرحُ صَدْرَهُ للإسلامِ، والذي يريد إضلالَهُ يجعل صدْرَهُ ضيِّقاً حَرَجاً كأنما يصعَّدُ في السماء ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام:١٢٥].

ويُفْقَهُ من هذه الآية أنَّ الذي يريدُ اللهُ هدايته يشرحُ صدرَهُ للإسلام، فتراه مقبلاً على الإسلام، مسروراً به، مُسْتَرْوِحاً إليه، يتفاعل معه، ويصوغُ حياته به، وأما الذي يريد إضلاله فيجعلُ قلبَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً، والحَرَجُ: أشدُّ الضيق، وشَبَّه الله تعالى الحالةَ النفسية التي يكونُ فيها هذا الذي يريدُ اللهُ إضلالَهُ بحالةِ الذي يصعَّدُ في السماءِ، أي: يصَّعَّدُ في أجواز الفضاءِ، فالإنسانُ هناك يضيق صدره ضيقاً شديداً، لقلَّة (الأكسجين) في طبقات الجو العليا، ولم يكن المفسرون في الماضي يعلمون كيف يكونُ حال الإنسانِ في طبقات الجوِّ العليا، ففسروا الآية تفسيراً يبعُدُ بها عن معناها المراد، قال ابن كثير: «﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ مَثَلُهُ كمثل الذي لا يستطيع أن يصْعَدَ في السماء» [ابن كثير: ٣/ ٨٩] وقال القرطبي: «والمعنى أن الكافرَ من ضيقِ صَدْرِهِ كأنَّه يريد أن يَصَّعَد في السماء، وهو لا يقدر على ذلك» [القرطبي: ٤/ ٧٥]. وقال مكيٌّ: «﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ هذا مثلٌ ضربه اللهُ لصَدْرِ الكافرِ في شدَّةِ ضيقِ صدرِهِ عن قبول الإسلامِ، ونفوره عنه، فهو بمنزلة من تَكَلَّف ما لا يطيقُهُ، كما أنَّ من تكلَّفَ صُعودَ السماءِ تكلَّف ما لا يطاق» [الهداية لمكي أبي طالب: ٣/ ٢١٨٠].

وهذا الذي قاله هؤلاء المفسرون بعيدٌ عن الصواب، والصوابُ أنه شَبَّه الذي يريدُ اللهُ إضلالَهُ بالذي يصَّعَّد في طبقات الجوِّ العليا، فيضيقُ صَدْرُهُ لقلةِ الهواءِ الصالحِ لتنفس الإنسان، واللهُ أعلم.

جنـــة السـنة

وقوله تعالى في خاتمة الآية: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام:١٢٥] أي: كذلك يجعل الرجس وهو النَّجَسُ أو العذابُ والارتكاسُ على الذين لا يؤمنون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:٢٨].

٥- صراطُ الله المستقيم:

وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأنعام:١٢٦] وصراطُ الله: القرآنُ والإسلامُ، وقد وَصَفَ رسولُنا ﷺ القرآنَ بأنَّه الصراطُ المستقيمُ، وحبلُ الله المتين، والذكرُ الحكيم، وقد أوضح اللهُ هذا الصراطَ وبيَّنه بما لا مزيدَ عليه من البيان، ولكنَّ الذي يستفيد من بيانِ الله هم القوم الذين يذَّكرون، أي: يذكَّرون الله، ويعقلون عنه وعن رسوله ولذا قال: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾.

٦- مصيرُ المؤمنين دارُ السلام في جناتِ النعيم:

أَخْبَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ المؤمنين الموحِّدين لهم دارُ السلام عند ربِّهم، وأنه هو الذي يتولاهم بما كانوا يعملونه من الصالحات ﴿۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأنعام:١٢٧] ودارُ السلامِ الجنةُ، وسميتْ بدار السلام، لأن أهْلَها يسلمون فيها من جميع الآفاتِ والمصائبِ والبلايا والأمراض التي كانت تصيب الإنسان في دُنْياه، وأهلُ الجنة يأتيهم السلام من ربهم ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس:٥٨] وتُسَلِّمُ عليهم الملائكة: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل:٣٢]. ويأتيهم السلام من خزنةِ الجنة ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر:٧٣]. ويأتيهم أيضاً من أصحاب الأعراف: ﴿وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ [الأعراف:٤٦]. ويُحيِّي بعضُ أهل الجنة بعضاً بالسلام ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ﴾ [يونس:١٠].

وقوله تعالى في خاتمة الآية: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ أي: هو سبحانه الذي يتولاهم، فيوصِلُ المنافع إليهم، ويدفع المضارَّ عنهم، بسبب ما كانوا عليه في الدنيا من الإيمان والعمل الصالح.

جنـــــة السـنـــــة

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- القرآنُ حياةُ الأرواحِ ونورُ القلوب، ومن لم يؤمن به يكون ميتاً يعيشُ في الظلماتِ.

٢- الكفار زُيِّنَتْ لهم أعمالُهم، ويظنون أنَّهم على حقٍّ، وهم غرقى في الباطل.

٣- السادةُ والزعماءُ في كلِّ مدينةٍ وقريةٍ يقفون في وجه الحقِّ، ويمكرون به.

٤- الكفارُ يشترطون لإيمانهم أن يُؤْتَوْا مثل ما أُوتي رسل الله، واللهُ أعلم بالصالح للرسالة، والكفارُ سيذلُّهم اللهُ ويعذِّبهم جزاءَ تكبّرِهم.

٥- قارنَ ربُّ العزَّة بينَ حالتي من يُرِدْ أنْ يهديه، ومن يُرِدْ أنْ يضلَّه، فالذي يريد له الهداية يشرَحُ صدرَهُ للإسلامِ، والذي يريدُ إضْلالَهُ يضيِّقُ صَدْرُه، فيكون حاله كالذي يَصَّعَد في طبقات الجوِّ العليا.

٦- الكفار أرجاس أنجاس، يعذبون في يوم الدين.

٧- الذين يتَّبعُ القرآنَ الكريمَ يكون سائراً على الصراط المستقيم.

٨- المؤمنونَ في يوم القيامة في دار السلام، وهي الجنة التي تسلم من جميع المصائب والآفات.

٩- اللهُ تعالى يتولى المؤمنين في يوم الدين، فيكرمهم بكلِّ خير، ويدفع عنهم كل ضَيْرٍ.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني الحادي والعشرون من سورة الأنعام
الكفار من الجنّ والإنس في الميزان

أولاً: تقديم

أعلمنا اللهُ تعالى في هذه الآيات أنه سيحشرُ الكفارَ من الإنس والجن في يوم القيامةِ، وسيُقَرِّعُ الجنّ ويوبِّخُهُمْ على كثرة إضلالهم الإنسانَ، وأخبرَنا عما أحابَ الكفرة من الإنس في استمتاع الجن والإنس بعضهم ببعضٍ، وأعلمنا أنه سيقولُ لهم: إنَّ النارَ مِنْزِلُهُمْ في ذلك اليوم.

وأعلمنا أنَّه سيولِّي بعضَ الظالمين من الإنس والجنِّ بعضاً بسبب كفرهم، ويسألُ الكفارَ من الجنِّ والإنسِ عن قيام الحجةِ عليهم في الدنيا بإرسال الرسل، فيُقِرُّون ويعترفون، وقرَّرَ سبحانُه أنه لا ينزل العذاب الماحقَ بالعباد ما لم يُقِمْ عليهم الحجةَ، وأعلمنا أن المؤمنين في درجاتٍ متفاوتةٍ في الجنة، والكفارُ في دركات بعضُها تحتَ بعضٍ في النار.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا
ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ
حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ
يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ
وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ
ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾
وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ
أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾
قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا
يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٨-١٣٥].

جنـــــة السـنـــــة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- توبيخ الله تعالى للجنِّ على كثرة إضلالهم الإنس:

أمرَنا اللهُ -تعالى- أنْ نذكُرَ اليومَ الذي يَحْشُرُ فيه الجنَّ والإنس ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ [الأنعام:١٢٨]، وهذا اليوم الذي يَحْشُرُهم فيه هو يومُ القيامة، والحَشْرُ: الجمع، كما قال تعالى: ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الشعراء:٣٦].

فاللهُ -تعالى- يَجْمَعُ الإنسَ والجنَّ يومَ القيامة، ويقول في ذلك اليوم للجنِّ موبِّخاً ومقرِّعاً لهم: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام:١٢٨]، أي: أكثرتم من إغواء الإنس وإضلالهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس:٦٢] وقوله تعالى: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾ المعشر في لغة العرب: الجماعة، لأنَّ بعضهم يعاشرُ بعضاً.

٢- استمتاع الجن والإنس بعضهم ببعضٍ:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ أولياءَ الجِنِّ من الإنس هم الذين أجابوا على السؤال الذي وجَّهَهُ اللهُ إلى الجنِّ ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام:١٢٨].

وقد نقل ابن تيمية عن البغوي أنه قال: «قال بعضهم: استمتاعُ الإنسِ بالجن ما كانوا يلقون لهم من الأراجيفِ والسِّحْرِ والكهانة، وتزيينُهُمْ لهمُ الأمورَ التي يهوونها وتسهيلُ سبيلِها عليهم، واستمتاعُ الجنِّ بالإنسِ طاعةُ الإنسِ لهم فيما يزينون لهم من الضلالةِ والمعاصي».

ونقل عن ابن السائب قال: «استمتاعُ الإنسِ بالجنِّ استعاذتهم بهم، واستمتاعُ الجنِّ بالإنسِ أن قالوا: قد سُدْنا الإنسَ مع الجنِّ حتى عاذوا بنا، فيزدادون شرفاً في أنفسهم وعظماً في نفوسهم» وهذا كقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ [الجن:٦].

قال ابن تيمية: «الاستمتاعُ بالشيء هو أن يَتَمَتَّعَ به، فينالُ به ما يطْلُبُهُ ويريدُهُ ويهواه، ويدخل في ذلك استمتاع الرجال بالنساء، بعضِهم ببعضٍ».

كما قال: «﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء:٢٤] ومن ذلك الفواحشُ كاستمتاع الذكورِ بالذكورِ، والإناث بالإناث، ويدخل في هذا الاستمتاعُ بالاستخدام وأئمَّةِ الرياسَةِ، كما يتمتع الملوك والسادةُ بجنودهم ومماليكهم».

جنـــــة السـنـــــة

وفي الجملة استمتاعُ الإنسِ بالجنّ والجنِّ بالإنس يشبه استمتاع الإنس بالإنس.

والمشركُ يعبدُ ما يهواه، واتباعُ الهوى هو استمتاعٌ من صاحبه بما يهواه، وقد وقع في الإنس والجنِّ هذا كلُّه.

وتارةً يخدُمُ هؤلاءِ لهؤلاءِ في أغراضهم، وهؤلاء لهؤلاء في أغراضِهم، فالجنُّ تأتيه بما يريد من صورة أو مالٍ أو قتلِ عدُوِّه، والإنسُ تطيعُ الجنَّ، فتارةً يسْجُدُ له، وتارةً يسجد لما يأمره بالسجود له، وتارة يمكنه من نفسه فيفعل به الفاحشة، وكذلك الجنيات منهن من يريد من الإنس الذي يخدمنه ما يريد نساء الإنس من الرجال، وهذا كثير في رجال الجنِّ ونسائهم، فكثير من رجالهم ينال من نساء الإنس ما يناله الإنسي، وقد يفعل ذلك بالذكران.

ومن استمتاع الإنسِ بالجنّ استخدامُهُمْ في الإخبارِ بالأمور الغائبة كما يخبر الكُهَّانُ، فإنَّ في الإنس من له غَرَضٌ في هذا، لما يحصل به من الرياسة والمال وغير ذلك، فإن كان القومُ كفَّاراً -كما كانت العرب- لم تُبالِ بأنْ يقالَ: إنَّه كاهَنٌ كما كان بعض العربِ كُهَّاناً، وقَدِم النبيُّ ﷺ المدينة، وفيها كُهَّانٌ، وكان المنافقون يطلبون التحاكم إلى الكهان، وكان أبو أبرقَ الأسلميُّ أحدَ الكهانِ قبل أن يسلم.

وإن كان القومُ مسلمين لم يُظْهِرْ أنه كاهِنٌ، بل يجعل ذلك من بابِ الكراماتِ، وهو من جنس الكُهَّانِ، فإنَّه لا يخدمُ الإنسي بهذه الأخبارِ إلا لما يستمتع به من الإنسي بأن يطيعه الإنسي في بعض ما يريدُهُ، إمَّا في شِرْكٍ، وإما في فاحشةٍ، وإما في أكْلِ حرامٍ، وإما في قتلِ نفسٍ بغير حق، فالشياطينُ لهم غرضٌ فيما نهى الله عنه من الكفر والفسوق والعصيان، ولهم لذةٌ في الشرِّ والفتنِ، يُحِبُّون ذلك، وإن لم يكن فيه منفعةٌ لهم وهم يقومون بأمر السارقِ أن يسرق، ويذهب إلى أهل المال، فيقولون: فلان سرق متاعكم.

ومن استمتاع الإنس بالجنِّ: استخدامُهُمْ في إحضار بعض ما يطلبونه من مالٍ وطعام وثيابٍ ونفقةٍ، فقد يأتون ببعض ذلك، وقد يدلُّونه على كَنْزٍ وغيره، واستمتاع الجنِّ بالإنس استعمالُهُمْ فيما يريدُهُ الشيطانُ من كفرٍ وفسوقٍ ومعصية، ومن استمتاع الإنس بالجنِّ استخدامهم فيما يطلبه الإنسُ من شركٍ وقتلٍ وفواحشَ، فتارةً يتمثل الجنيُّ في صورة الإنسي، فإذا استغاثَ به بعضُ أتباعِهِ أتاه، فظنَّ أنَّه الشيخُ نفْسُهُ، وتارةً يكونُ التابعُ قد نادى شيخَه وهتفَ به: يا سيدي فلان، فينقل الجنيُّ ذلك الكلام إلى الشيخِ بمثل صوتِ الإنسي، حتى يظنَّ الشيخُ أنه صوتُ الإنسي بعينه، ثم إنَّ الشيخ يقول: نعم، ويشيرُ إشارةً يدفع بها ذلك المكروه، فيأتي الجنيُّ بمثل ذلك الصوت والفعل، يظنُّ ذلك الشخص أنه شيخُه نفسُه، وهو

جنـــــة السـنـــة

الذي أجابه، وهو الذي فعل ذلك[1]، حتى إنَّ تابع الشيخ قد تكون يده في إناءٍ يأكل فيضعُ الجني يده في صورة يد الشيخ، ويأخذ من الطعام، فيظنُّ ذلك التابع أنه شيخُه حاضرٌ معه، والجنيُّ يمثِّل للشيخ نفسِه مثل ذلك الإناء، فيضع يده فيه، حتى يظنَّ الشيخُ أن يده في ذلك الإناء [التفسير الكبير لابن تيمية: ٤/ ٢٦٢-٢٦٦ بشيء من الاختصار].

وقولُ أولياءِ الجن: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام:١٢٨] أي: بقينا هكذا يستمتعُ بعضُنا ببعضٍ حتى بلغنا الأجَلَ الذي أجَّلْتَهُ لنا، وهو الموتُ، فلكلِّ إنسانٍ حياتُه التي تنتهي في الوقت الذي حدَّده اللهُ تعالى، قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأنعام:١٢٨] والمرادُ بالنارِ في الآية نارُ الآخرة، ومثواكم: منزلكم، والمثوى مكانُ الثَّواءِ، وهو مكان الإقامة على الدوام، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [القصص:٤٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ خَتَمَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ بهاتين الصفتين، لأنَّ تخليدَ الله الكفارَ في النارِ صادرٌ عن حِكْمَتِهِ سبحانه وعلمه، و(الحكيم) هو الذي يضع الأمور في مواضعها، وينزلُها في منازِلها، و(العليم) الذي يعلمُ ما انطوى عليه جميعُ خلقه من الأحوال المستحقة للثواب والعقاب.

٣- فناءُ النار:

قالَ اللهُ تعالى للكفارِ مِنَ الإنس والجنِّ ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:١٢٨] وقد ذهب بعضُ أهلِ العلمِ احتجاجاً بالاستثناء في الآية إلى أنَّ النارَ تفْنى، ومِثْلُها قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود:١٠٦-١٠٧] وعُزِيَ هذا القولُ إلى جماعة من الصحابة منهم عمرُ بن الخطابِ، وابنُ مسعود، وعبدالله بن عمرِو بن العاصِ، وقال بعضُهم: «يأتي على النارِ زمانٌ تَصْفِقُ أبوابُها ليسَ فيها أحَدٌ».

والصحيحُ أنَّ طبقاتِ النارِ التي هي دارُ الكفارِ خالدةٌ باقيةٌ، لا تَفْنَى ولا تَبيدُ، ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة:٣٧]، وقال: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾ [فاطر:٣٦].

---

(١) كان الجنُّ قد توصلوا إلى مثل ما توصل إليه البشر اليوم من نقل الأصوات والصور من مكان إلى مكان بواسطة الآلات العلمية، ومن ذلك ما يقع من النقل بالإذاعة (والتلفزيون).

جنـــــة السـنة

والنار التي تَهْلِكُ وتَفْنَى هي التي يدْخُلُها بعضُ عصاةِ المؤمنين، ثم يخرجونَ منها، وقد دلَّتْ على ذلك أحاديثُ صحيحةٌ كثيرة، والله أعلم، ونسبةُ هذه الأقوال إلى من ذكر من الصحابة لا تصحُّ [راجع: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير: ٢/ ٢٤٦].

٤- توليةُ الله بعضَ الظالمين بعضاً:

أعلَمَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه يولِّي بعضَ الظالمينَ بعضاً ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام:١٢٩]، أي: كما سلَّطنا شياطينَ الجنِّ على الكفرة من الإنسِ حتى أغْوَوْهُمْ، واستكثروا منهم، فأدخلوهم النار، فكذلك نسلِّط بعضَ الظالمين على بعضٍ، فيَضُرُّونَهم، ويهلكونَهُمْ، ثم ينتقم اللهُ من الجميع، وهذا الذي بيَّنَهُ اللهُ تعالى مشاهدٌ معروفٌ في كلِّ عَصْرٍ، فترى ظالماً سُلِّطَ عليه ظالمٌ، ثم هذا الظالم المسلَّطُ على غيره سُلِّطَ عليه ظالمٌ آخر، أو سَلَّطَ اللهُ عليه ألوانَ العذابِ، و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جَمْعُ ظالمٍ، والظلمُ وضعُ الشيءِ في غير موْضِعِهِ، ومنه وضعُ العبادةِ التي لا تجوز إلا لله، في الأصنامِ والأوثان وما يعبدُ من دون الله، ومنها الحكم بالقوانين الوضعية، وتركِ الشريعة الإلهيةِ، وهذا ظُلْمُ كُفْرٍ، وهناك ظُلْمٌ ليس بكفر كظلم الذي يشرب الخمْرَ ويزني غير مُسْتَحِلٍّ لذلك، فهذا ليس بكفر.

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾، أي: بما كانوا يكسبونَه من الأعمالِ الكفرية والشركية.

٥- سؤالُ الله الجنَّ والإنسَ عن قيام الحجة عليهم بإرسالِ الرُّسُل:

ينادي ربُّ العزةِ يومَ القيامة الكَفَرَة من الجنِّ والإنسِ فيقول: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأنعام:١٣٠]. يخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عما سينادي به الكفارَ من الجنِّ والإنس يومَ القيامة، فيقول: يا جماعةَ الجنِّ وجماعةَ الإنس الذين كفروا في الدنيا ألم يأتكم في الدنيا رُسَلٌ منكم يقصُّونَ عليكم آياتي، أيْ: يتْلُونَ ويقرؤون عليكم آياتي التي أنزلتها عليكم، ويبينون لكم ما فيها من الإيمانِ والأحكامِ.

والاستفهامُ في الآيةِ استفهامُ تقريرٍ، واستفهامُ التقرير: الاستفهام الذي لا يريدُ المخاطِبُ به أن يُفْهِمَ الشيءَ، وإنَّما يريدُ أنْ يحملَ المخاطَبَ على أن يُقِرَّ ويقول: بَلَى، ويُقِرُّ بالحقيقة [العذب النمير: ٢/ ٢٦٥].

جنـــــة الســــــنة

وقد أخذَ بعضُ أهلِ العلم من قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، أنَّ اللهَ أرسلَ إلى الجنِّ رسلاً منهم، لأنَّ الخطابَ في الآية للجنِّ والإنسِ، وهذا الفهمُ ليس بلازم، فالعربُ تطلق المجموعَ وتريدُ بَعْضَه، والصوابُ الذي عليه جمهورُ أهلِ العلمِ أنَّ جميعَ الرسلِ من الإنسِ.

ومع أنَّ أهلَ العلمِ اختلفوا في كوْنِ الله أرْسَل رسلاً من الجنِّ، فلا خلاف بين العلماءِ في كوْنِ رسولِنا محمدٍ ﷺ مرسَلٌ إلى الإنسِ والجنِّ.

وقولُه: ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أيْ: يُخوِّفونكم هذا اليوم، وفيه ما فيه من الأهوالِ. وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الكفارَ من الجنِّ والإنسِ يقولون: ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا﴾ أي: شهدوا أنَّ الرُّسُلَ بلَّغوهم وحذَّروهم ذلك اليوم، وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجَلَّ- أنَّ الدنيا غَرَّتهم بمتاعها الزائل، وزينتها الفانية، فاشتغلوا بشهواتها ولذاتها، ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام:١٣٠] وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَ- أنَّهم ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأنعام:١٣٠].

قد يقالُ: كيفَ صرَّح اللهُ تعالى في هذه الآية أنَّهم أقرُّوا بكفرهم بما جاءَتهم الرسلُ، بينما أخْبَرنا اللهُ عن الكفارِ أنَّه يقولون في يوم الدين: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام:٢٣]، وقال فيهم: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ [غافر:٧٤] والجواب أنَّ يومَ القيامةِ يومٌ طويلٌ طوله خمسون ألف سنةٍ، ففي بعض الأحيانِ ينكرون، وفي بعضها يعْتَرِفون، ففيه نكران في وقت، واعترافٌ في وقت.

٦- اللهُ تعالى لم يكن مُهلِكَ القرى بظلمها وهي غافلة غيرمنبَّهةٌ على ألسِنَةِ الرسل:

أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنه لن يوقع العذاب الجامعَ الماحقَ بأهل الدنيا حتى ينذرَهُمْ على ألسنةِ رسلِهِ ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعام:١٣١]. فهذه الآية تدلُّ على أنَّ اللهَ ما أنزل عذاباً ماحقاً جامعاً بأهل القرى إلا بعد إنْذارِهِمْ على ألْسِنَةِ الرُّسُلِ، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء:١٥]، وقوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

وهذه الآياتُ تدلُّ على أنَّ أهْلَ الفترةِ معذورونَ، وذهب بعضُ أهل العلم إلى أن المشركين لا يُعْذَرونَ بكفرِهم وشِرْكِهم، فكلُّ من مات مشركاً بالله في النار، واحتجُوا بمثل قوله تعالى: ﴿مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة:٧٢]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨].

جنـــــة السـنــــة

وقد سأل رجلٌ رسولَ الله ﷺ فقال: أين أبي؟ قال: «في النارِ» فلما قَفَّى دَعاهُ، فقال: «إنَّ أبي وأباكَ في النارِ» [مسلم: ٢٠٣]، وفي الحديث: «استأْذَنْتُ ربي أنْ أسْتَغْفِرَ لأمِي، فلَمْ يأْذَنْ لي» [مسلم: ٩٧٦].

ولو كان قوْلُ هؤلاءِ صحيحاً لما امتدحَ الله تعالى نفسه بأنه لا يُعَذِّبَ أحداً إلا بعد إنْذارِهِ في الدنيا ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] فلو عَذَّبَ إنساناً واحداً من غير أن يُبَلِّغَهُ رسولٌ لانخرمت الحكمةُ، والصوابُ من القول: أنَّ أهلَ الفترة يمتحنون في يوم القيامةِ، بنارٍ يأمرهم بالدخول فيها، فمن دخلها دخلَ الجنة، وظَهر عِلْمُ الله فيه أنّه كان يطيعُ الرُّسُل لو جاءَته.

٧- **لكل واحدٍ من المؤمنين والكفار منازل ومراتبُ يستحقّونها بأعمالهم:**

الجنةُ درجاتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ، والنارُ دَرَكاتٌ بعضُها تحتَ بعضٍ: وأهلُ الجنة يتفاوتون فيها، وأهل النار يتفاوتون فيها ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأنعام:١٣٢] أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ لكلِّ واحدٍ من المؤمنين والكفارِ منازلَ ومراتبَ يستحقونها بأعمالهم، ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ٢١]. والمنافقونَ في الدَّرْكِ الأسْفَلِ من النار ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء:١٤٥]، وفي هذا ترغيبٌ للمؤمنين في أن يسعوْا إلى تحصيلِ الدرجاتِ العالياتِ، وترهيبٌ للكفارِ مِنْ أن يوقعوا أنفسهم في دَركاتِ النار النازلاتِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ -نَهى اللهُ عبادَه أن يَظُنُّوا أنَّ الله تأْخُذه الغفلةُ عما يعمله الظلمةُ، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم:٤٢].

٨- **ربنا هو الغنيُّ ذو الرحمة:**

خاطبَ اللهُ تعالى عبدَهُ ورسولَهُ ﷺ خطابَ تشريفٍ بقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ﴾ [الأنعام:١٣٣] والربّ في لغةِ العربِ هو السيِّدُ الذي يَسُوس الناسَ، ويُدَبِّرُ شؤونَهُمْ، و﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ الذي غَنِيَ عن خَلْقِهِ، فلا يحتاج إليهم، وهم محتاجون إليه، فهو لا يأمُرُهُمْ، ولا ينهاهُم لحاجتِهِ إليهم، قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر:١٥]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨].

جنـــــة السـنـــــة

وجاء في الحديث القدسيِّ الذي يَرْويهِ أبو ذرٍّ، عن رسولِ الله تعالى، عن ربِّ العزةِ أنَّه قالَ: «يا عِبادِيَ لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكُمْ وإنْسَكُم وجنَّكُم كانوا على أتقى قَلْبِ رَجُلٍ واحدٍ منكم ما زادَ ذلك في مُلْكي شيئاً، يا عبادِيَ لو أنَ أوَّلكم وآخركُمْ وإنسَكُمْ وجنَّكم كانوا على أفْجَرِ قلبِ رجُلٍ واحدٍ، ما نَقَصَ ذلك من مُلْكِي شيئا» [مسلم: ٢٥٥٧].

ومع أنَّ اللهَ -تعالى- غَنِيٌّ عَنَّا وعن أعمالِنا، فلا تَنْفَعُهُ طاعَتُنا، ولا يَضرُّه مَعْصِيَتُنا، فهو ذو رحمةٍ بالمؤمنين في الدنيا والآخرة، وهو قادرٌ على أنْ يُهْلِكَنا، ويذهبَ بنا، ويَسْتَخْلَفَ غيرَنا، أي يَسْتَبْدِلَنا بغيرنا كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء:١٣٣]، وقال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ [فاطر:١٦].

وقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأنعام:١٣٣]، وهذا كما كان قبلكم ناسٌ غيركم عَمَرُوا الأرضَ أذْهَبْناهُم جميعاً، وجئنا بكم من بعدهم.

٩- إنَّ ما يَعِدُنا بِهِ ربُّنا آتٍ ولَسْنا بمُعْجِزِين:

أخْبَرَنا ربُّنا عزَّ وجلَّ قائلاً: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأنعام:١٣٤] فاللهُ تعالى إذا وَعَدَ عبادَه المؤمنين بخيرٍ، فإنه لا يُخْلِفُ وَعْدَه أبداً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ [الرعد:٣١].

وإن أوْعَد الله بشَرٍّ فإنْ كانَ وعيداً للكافرين، كما أوْعَدهم بالنار وغضب الجبار، فهو وعيد لا يتخلَّفُ بحالٍ، كما قال تعالى: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [ق:١٤]، و﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق:٢٨-٢٩]. وإن كان وعيداً لعُصاةِ المؤمنين من الذين ارتكبوا الكبائر، فهذا إلى الله تعالى إنْ شاءَ عفا عنه، وإن شاءَ أنْفَذَهُ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء:٤٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ أي: لا تستطيعون أن تسْبِقوني وتَفُوتُوني، بل أنتم في قبْضَتِي وتحتَ سُلْطانِيْ، وأنا قادرٌ على أن أُنْفِذَ فيكم ما أوعدتكم به.

١٠- أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أن يُهدِّدَ الكفار بقوله: ﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾:

أمَرَ اللهُ -تعالى- عبدَهُ ورسولَه محمداً ﷺ أنْ يتهدَّدَ الكفارَ من قومه، بأن يقول لهم: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، والقوم: جماعةُ الرجالِ، وأصْلُه: يا قومي حذفت ياء

جنـــة السـنـــة

المتكلم اكتفاءً بالكَسْرة، ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأنعام:١٣٥].

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: اعْمَلوا على طريقَتِكُم، فإنِّي غيرُ مُبالٍ بكم، ولا مُكْتَرِثٌ بكُفْرِكُمْ، وأنا ثابتٌ على مكانَتِي وعملي، وقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، وقد كانت لرسولنا ﷺ عاقبةُ الدارِ في الدنيا، فقد نَصَرَهُ على أهلِ مكةَ ففتحها، وأظهر له دينه قبل وفاته، وفتَحَ اللهُ عليه جزيرةَ العربِ، واليمنِ والبحرينِ، وفتح لأُمته من بعده الأمصار بعد وفاته، ففتحت بلادُ الشامِ، والعراقُ، ومصرُ، وتركيا، والأندلسُ، وإندونيسيا، وماليزيا، وغيرُها ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ [النور:٥٥].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- يقرِّع اللهُ تعالى الجنَّ يوم القيامة لإضلالهم كثيراً من الإنس.

٢- يعترف الإنسُ في يومِ القيامةِ بما وقعَ بينهم وبين الجنِّ من علاقاتٍ أدَّت إلى استمتاع بعضِهِمْ ببعضٍ.

٣- الكفارُ من الجنِّ والإنسِ مأْواهم النَّارُ خالدين فيها يومَ القيامة.

٤- الكفارُ من الإنس والجنِّ يخلدون في النار أبداً، أما عُصاةُ المؤمنين فيدخلون في النارَ بمعاصيهم، ثم يخرجون منها بعد ما قدَّره اللهُ تعالى عليهم فيها.

٥- الظالمونَ يوالي بعضهُم بعضاً بسبب كُفْرِهم وضَلالهم.

٦- اعترافُ الكفرةِ من الجنِّ والإنسِ يومَ القيامةِ بأنَّ الرسلَ بَلَّغَتْهُمْ الحقَّ من ربِّهم، ويشهدُونَ على أنفسهم أنَّهم كانوا كافرين.

٧- غَرَّت الدنيا بزَهْرَتِها وزينَتِها الكفارَ، فضَلُّوا وانصرفوا عن الحقِّ.

٨- لا يُنْزِلُ اللهُ تعالى بالأمم الظالمةِ العذابَ الكُلِّيَّ الماحقَ حتى يرسلَ إليهم رُسَلَه، ويبلِّغهم الحقَّ.

٩- المؤمنون لهم في الجنةِ درجاتٌ، والكفارُ لهم في النارِ دَرَكاتٌ.

١٠- اللهُ تعالى غَنِيٌّ عن عبادِهِ، فليسَ بحاجةٍ إليهم، ولا إلى عبادتهم.

١١- اللهُ قادرٌ على إهلاكِ العبادِ، والإتيانِ بغيرهم، كما أنْشأنا من ذريةِ قومٍ آخرين.

١٢- إنَّ ما أوْعَدَ اللهُ به عبادَهُ مِنَ البعثِ والنشورِ، والجنةِ والنارِ، وغير ذلك آتٍ، لا ريبَ فيه، ولن يُعْجِزَ اللهَ أبداً.

١٣- أمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ أنْ يقولَ للكفار متوعداً إيَّاهم: اعملوا على طريقتكم، وأنا ماضٍ على طريقتي، وسوفَ ترون من تكونُ له عاقبةُ الدارِ، وقد مكَّنَ اللهُ لرسوله ﷺ ولخلفائه من بعده في الأرض، وتحقَّقَ له ما وعده.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني الثاني والعشرون من سورة الأنعام
فوْضى أهل الجاهلةِ في التحليل والتحريم

أولاً: تقديم

يُحَدِّثُنا ربُّنا في هذه الآياتِ عن الفوضى التي كان يعيش فيها أهْلُ الجاهلية في الجانبِ التشريعي، فكانوا يُحِلُّون ويُحَرِّمونَ بأهْوائِهم، وقدْ زَيَّنَ لهم زُعماؤُهُمْ ورؤُساؤُهُمْ قَتْلَ أولادِهِمْ، وكانوا يُحِلُّونَ ما في بطون الأنعامِ من الأجِنَّة لفَريقٍ دون فريقٍ، وقدْ ذَمَّ اللهُ -تعالى- في هذه الآيات الذين قتلوا أوْلادَهُمْ سفهاً بغيرِ علم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [الأنعام:١٣٦-١٤٠].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- فوضى التشريع عند العرب في الجاهلية:

غيَّرَ العربُ دينَ نبيِّ الله إسماعيلَ عليه السلام، الذي كانوا عليه قديماً، ومن جملةِ ما غيَّروه ما جعلوه لأصْنامهم من الحَرْثِ والأنعامِ، وقد أدَّى بهم ذلك إلى فوضى هائلةٍ في مجال التشريع، وقد حدَّثنا الله تعالى عن هذه الفوضى التي غَرِقَ فيها العَرَبُ في آياتِ هذا النص، قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: «إذا سَرَّكَ أنْ تعلم جَهْلَ العربِ، فاقرأْ ما فوق الثلاثين ومائةٍ في سورة

جنـــــة الســـــنة

الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إلى قوله ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠)﴾ [الأنعام:١٤٠]» [البخاري: ٣٥٢٤].

وقولُ ابنِ عباس: «فوق الثلاثين ومائة» أي من الآية السادسة والثلاثين ومائةٍ إلى الآية المتممة للأربعين ومائةٍ.

٢- ضلال مشركي العربِ فيما جَعَلوهُ للهِ وما جعلوهُ لشركائهم:

حدَّثنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن ضلال العرب فيما جَعَلوه لله وما جعلوه لشركائهم من الحرثِ والأنعام، فقال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦)﴾ [الأنعام:١٣٦].

وقوله: ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ أي: مما خَلَقَ وأنشأ وبثَّ في الأرض، و﴿الْحَرْثِ﴾ الزَّرْعُ والأشجارُ، والأنعامُ: الجِمالُ والأبقارُ والأغْنامُ، قال البغويُّ في تفسير هذه الآية: كان المشركون يجعلونَ لله من حُروثهم وأنعامِهم وثمارِهِمْ وسائر أموالهم نصيباً، وللأوثان نصيباً، فما جعلوه لله صَرَفوهُ إلى الضيفانِ والمساكينِ، وما جَعَلوهُ للأصنام أنْفَقُوه على الأصنام وخَدَمِها، فإنْ سقط شيءٌ مما جعلوه لله تعالى في نصيب الأوثان تركوه، وقالوا: إن اللهَ غنيٌّ عن هذا، وإن سقط شيءٌ من نصيب الأصنام فيما جعلوه لله ردّوه إلى الأوثانِ، وقالوا: إنَّها محتاجةٌ، وكان إذا هَلَكَ أو انتقص شيءٌ مما جعلوه لله لم يبالوا به، وإذا هلك أو انتقص شيءٌ مما جعلوا للأصنام جبروه بما جَعَلوهُ لله، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [تفسير البغوي: ٣/ ١٩٢].

وما فسَّر بِهِ البغويُّ به الآية استمدَّهُ من أقوالُ أئمةِ التفسير في الآية كابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم [راجع: تفسير الطبري: ٤/ ٣٣٥٠].

وقوله تعالى: ﴿هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ أي: بدعْواهُم، فإنهم يقولون بغير دليلٍ ولا برهانٍ، وأكثر ما يقالُ الزَّعْمُ في الكذب. وقوله: ﴿وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ عَنَى بالشركاء شياطينَ الجنِّ والإنسِ الذين يُزَيِّنونَ لهم الباطلَ، ومنهم السحرةُ والكهانُ وسَدَنَةُ الأصنام.

وقوله: ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ قال السُّديُّ: «كانوا يقْسِمون من

جنـــــة الســــــنة

أموالهم قِسْماً، فيجعلونه لله، ويزْرعونَ زرعاً فيجعلونه لله، ويجعلون لآلهتهم مثلَ ذلك، فما خَرَجَ للآلهةِ أنْفقُوهُ عليها، وما خرج لله تصدَّقوا به، فإذا هَلَكَ الذي يصنعونُهُ لشركائهم وكثر الذي لله، قالوا: ليس بُدٌّ لآلهتنا من نفقةٍ، وأخذُوا الذي لله فأنفقوه على آلهتهم، وإذا أجْدَبَ الذي لله، وكثر الذي لآلهتهم، قالوا: لو شاءَ أزْكَى الذي له، فلا يَرُدّونَ عليه شيئاً مما للآلهة» [تفسير الطبري: ٤/ ٣٣٥٢].

قال اللهُ تعالى: ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ١٣٦﴾ قال الطبري: «قد أساؤوا في حكمهم إذْ أَخذُوا من نصيبي لشركائِهِمْ، ولم يُعْطوني من نصيب شركائهم» [تفسير الطبري: ٤/ ٣٣٥٣].

٣- تزيينُ سَدَنَةِ الآلهةِ التي يعبدُها المشركون لأتباعِهِمْ قَتْلَ أولادِهِمْ:

أخبرنا ربُّنا -العليمُ الخبيرُ- أنه كما زيَّنَ الذين يُعْبَدونَ من دون الله من الكُهَّانِ والشياطين للمشركين الشركَ في المسألةِ التي بيَّنَها اللهُ -تعالى- في الآية السابقة زيَّنَ الشركاءُ من الكُهَّانِ والشياطين لأتْباعِهِمْ قَتْلَ أولادِهُمْ، فمنهم الذي يقْتُل ابنَهُ خَشْيَةَ الفقر، ومنهم الذي يذْبَحُهُ تقرُّباً إلى الأصنام، ومنهم الذي يئِدُ البناتِ خشيةَ السَّبْيِ والعار ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ﴾ [الأنعام:١٣٧].

وقوله تعالى: ﴿لِيُرۡدُوهُمۡ﴾ أي: ليهْلِكُوهُمْ، وقوله: ﴿وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ﴾ أي: يُشكِّكُوهُمْ في دينهم ويخْلِطوا عليهم، وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١٣٧﴾ [الأنعام:١٣٧] أخْبَرَ اللهُ -تعالى- أنَّه لو شاءَ سبحانُهُ ما فعل الشركاءُ هذا التزْيين، ثم تهدَّدَهُمْ بقوله: ﴿فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١٣٧﴾ أي: دَعْهُمْ وما يَفْتَرونَه بقولهم: إنَّ لله شركاءَ.

٤- تصرُّفُ المشركينَ في الأنعامِ والحرثِ تحليلاً وتحريماً بآرائِهِمُ الباطلة:

أخبرنا اللهُ تعالى عن نوعٍ آخرَ من ضلالِ المشركين، أي: تصرُّفهم في الأنعامِ والغَرسِ والزَّرع، فقال: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣٨﴾ [الأنعام:١٣٨].

أعْلَمنا ربُّنا أنَّ المشركينَ زَعَمُوا كاذبين مُفْتَرينَ على الله -تعالى- أنَّ بعضاً من الإبلِ والبقرِ والغنم وبعضاً من الزرع والغرس حِجْرٌ، أي: حَرامٌ، لا يأْكلُ منها إلاَّ من شاؤوا أن يُطْعِموهُ، لأنَّهم خَصَّصُوا تلكَ الأنعامِ وذلكَ الزرع لآلهتهم التي يَعْبُدوها من دون الله،

جنـــــة السـنـــــة

وسُمِّي الحرامُ حِجْراً، لأنهُ حُجِرَ على الناس أن يُصيبُوهُ، أي: مُنِعوا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان:٢٢] أي: حرامٌ مُحَرَّماً.

والأنعامُ التي جعَلوها حراماً هي ما سبق بيانه في سورة المائدة عند قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المائدة:١٠١].

وكان من هَدْيِهِمْ الضالِّ أنَّهم يُكْرِمونَ الناقة التي يَجُودُ نَسْلها، والفَحْلَ الذي يَكْثُرُ نَسْلُهُ، بأمورٍ شرَّعُوها سَبَقَ ذكرها.

وأخبرنا أنَّ أهلَ الجاهلية منعوا أنْفُسَهُمْ وغيرَهُمْ من ركوبِ بعضِ الأنعام على جهةِ التحريم، وبعضُ الأنعامِ حرَّمُوا ذَبْحَها باسم الله، فلا يذكرون عليها إلا اسمَ آلهتهم.

وقوله تعالى: ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾ أي: كَذِباً على الله تعالى، فقد كانوا يزْعُمونَ أنَّ اللهَ أمَرَهُمْ بالتشريعِ على هذا الوجه الذي اخترعوه.

٥- تحريمُهُمْ الأجِنَّةَ التي في بُطونِ الأنعامِ على النساءِ دون الرجالِ:

أعلمنا ربُّنا أنَّ المشركينَ في الجاهليةِ كانوا يُحرِّمون الأجِنَّةَ التي في بطونِ البحيرةِ والسائبة والوصيلةِ على النساءِ دونَ الرجالِ، فإنْ ولدت نَسْلاً مَيِّتاً أجازوا للنساء أكْلَهُ مع الرجالِ ﴿وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ [الأنعام:١٣٩]. وقوله تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأنعام:١٣٩] أي: سيكافِئُ هؤلاءِ المشركين ﴿وَصْفَهُمْ﴾ أي: كَذِبَهُمْ على الله، كما قال تعالى: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل:٦٢].

وقد عَزا القاسميُّ إلى الشِّهابِ قوْلَهُ في هذه الآية: «هذا من بَليغ الكلام وبديعِهِ، فإنهم يقولون: وَصَفَ كلامُهُ الكَذِبَ، إذا كَذَبَ، وعَيْنُهُ تَصِفُ السِّحْرَ، أي: ساحرةٌ، وقَدُّه يَصِفُ الرَّشاقةَ، بمعنَى رشيق مبالغةً، حتى كأنَّ من سَمِعَه أو رآه وَصَفَ له ذلك بما يشْرَحُهُ له» [القاسمي: ٤/ ٥٠٤]. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ أي: حكيم في تدبيره خلقه، عليم بما يُصْلِحُهُمْ.

٦- ذمَّ اللهُ تعالى أهْلَ الجاهليةِ لما ارتكبوه من قَتْلِ الأولادِ وتحريمِ الأنعامِ:

قال اللهُ تعالى ذامّاً ما ارْتَكَبَهُ أهلُ الجاهليةِ من قَتْلِهِمْ أوْلادَهُم وتحريمِهِمْ ما حرَّموه من الحَرْثِ والأنعامِ افتراءً على الله، أي كذباً على الله، قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ

جنـــة الســـــنة

سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

قال ابن الجوزيُّ: «قال ابنُ عباسٍ: نزلتْ في ربيعةَ ومُضَرَ، والذين كانوا يدْفِنونَ بناتِهِمْ أحياءً في الجاهلية من العَرَبِ، وقال قتادةُ: كان أهلُ الجاهليةِ يقتل أحَدُهم بنْتَهُ مخافةَ السبْيِ والفاقة، ويغْذو كَلْبَهُ، وقال الزَّجاجُ: ﴿سَفَهًا﴾ منصوبٌ على معنى اللام، تقديره: للسَّفهِ، وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ كانوا يفعلون ذلك للسفه من غير أنْ يأتيهم عِلْم في ذلك، وحرَّموا ما رَزَقَهُمْ اللهُ من الأنعام والحرث، وزعموا أنَّ اللهَ أمرهم بذلك» [زاد المسير: ٣/ ١٣٤].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ النصِّ من علمٍ وعملٍ

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- في آيات هذا النص ذِكْرٌ لبعض ما كان عليه العربُ في الجاهلية من جهل في العقيدة والتشريع.

٢- كان أهلُ الجاهلية يجعلون من ثمارِ أشجارهم ومن الأنعام شيئاً لله وشيئاً للأصنام، وكانوا إذا ذهب شيءٌ مما جعلوه لشركائهم لله ردّوه لأصنامهم، وإذا ذهب شيءٌ مما جعلوه لله لأصنامهم لم يردُّوه لله.

٣- من الضَّلال العظيم الذي وقع فيه أهلُ الجاهلية قتْلُ أولادِهِمْ خشيةَ الفقر، أو تقرباً للأصنام، ووأْدُ البناتِ خشيةَ العارِ والسبي.

٤- خصَّ أهلُ الجاهلية ما في بطون البحيرة والسائبة والوصيلة بالذكور منهم دون النساء، فإنْ وَلَدَتْه ميتاً اشترك الرجالُ والنساءُ في أكْله.

٥- ذمَّ اللهُ تعالى أهلَ الجاهليةِ بقتلهم أولادَهُمْ، وتحريمهم ما حرَّموه من الأنعام والحرثِ.

٦- لا يزال كثيرٌ من الكفارِ يفعلون ما كان يفعله أهلُ الجاهلية من تقديم الأنعام قرابينَ للأوثان، ويتقدَّمون بالهدايا من الورود وغيرها للأنصاب والأوثان.

٧- في بعض ديار المسلمين بقايا من الشركِ في النذْرِ للقبور والجنِّ وغيرهم.

جنـــــة السـنــة

النص القرآني الثالث والعشرون من سورة الأنعام
ذِكْرُ ما أبْدَعَهُ الله في الكون مِنْ جناتٍ وأنعامٍ ومناقشة المشركين فيما حَرَّموه من أنعام

أولاً: تقديم

بيَّنَ لنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في آيات النص السابق جهالاتِ أهل الجاهلية فيما حرَّموه على أنفسهم ونسائِهم من الحرثِ والأنعامِ، وبيَّنَ لنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- في آيات هذا النص ما خَلَقَ لنا من الجنات والأنعام وجاءَنا بالأدلة والبراهين الدالة على ضلالِ أهلِ الجاهلية فيما حرَّموه من الأنعامِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

[الأنعام:١٤١-١٤٤].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اللهُ -تعالى- الذي أبْدَعَ لنا ما في الأرض من جناتٍ:

أعلمنا ربُّنا -العليُّ العظيمُ- أنّه ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ ﴾ [الأنعام:١٤١]، أي: هو -سبحانه- الذي أنشأ لنا جناتٍ معروشاتٍ وغير معروشات، والمرادُ بالمعروشات بساتينُ الأعنابِ المرفوعةِ على الأعمدة والعروشِ، وغير المعروشات ما لم يرفع، بل هو ملقىً على الأرض.

جنـــــة السـنة

والجناتُ: البساتينُ التي يحُفُّها الشجرُ، مأخوذةٌ من جَنَّ إذا سَتَرَ، لأنها تَسْتُرُ بأشْجارِها من يكون تحتها.

وقد تكونُ هذه الجناتِ من أشجار النخيل أو الزيتونِ أو الرمانِ، وقد يُزْرَعُ بين الأشجارِ الحبوبُ من القمحِ والشعير والذرة، وقد يُزرع فيها الرياحينُ وغيرُها، وقوله: ﴿مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ أي: مُخْتَلِفاً طَعْمُهُ، فقد يكونُ حُلْواً، وقد يكون حامِضاً، وقد يكون بين ذلك.

والزيتونُ أنواعٌ كثيرةٌ، تتشابَهُ فيما بينها، في منظَرِها وطَعْمِها، وقد تختلفُ فيما بينها، ومثلُ ذلك يقالُ في الرمانِ، تتشابَهُ في المنظرِ، وقد تختلفُ، وقد يكون من الرُّمانِ الحلوُ والحامضُ.

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الأنعام:١٤١].

هذا الأمرُ الذي أمَرَنا به في الآيةِ، وهو الأمْرُ بالأكْلِ من ثمارِ الأشجارِ من العنب والنخل والزيتون والرمان أمْرُ إباحةٍ، وهو يأتي في مقابلِ ما حرَّمه أهْلُ الجاهلية من الحرثِ، وأمَرَنا مع الأكْل أن نؤتي حقَّه يومَ حصادِهِ، والحقُ الذي أُمِرَ المؤمنينَ بإيتائه حقٌّ غير مقدَّرٍ يُخْرِجُهُ صاحبُهُ من ثمارِ الأعنابِ والنخيلِ والزيتون والرمانِ، وليس المرادُ به الزكاةُ، فهذه الآيةُ مكيةٌ، ولم تكن الزكاةُ قد فُرضت بعدُ، ولو كانت الآيةُ في شأنِ الزكاة لما أمر فيها بإخراجِ نصيبٍ من بساتينِ الرُّمان، فإن الرمانَ لا زكاةَ فيه، وكذا لا يَصِحُّ الاحتجاجُ بالآية على وجوب إخراج الزكاةِ من الزيتونِ، ومما يدلّ على أن الآية ليستْ في الزكاة أنَّ الزكاةَ تُؤدَّى في يوم الحصاد.

وقوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ نَهْيٌ عن إخراجِ ربِّ المال ما يَضُرُّ به وبمن يتوَّلى الإنفاقَ عليه من الذريَّة والزوجةِ وغيرهم، وعلَّلَ النهيَ عن الإسراف بأنه ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ .

٢- امتنانُ الله علينا بما خَلَقَهُ لنا من الأنعامِ وتحريمُهُ علينا أنَّ نُحرِّمَ شيئاً منها على أنفسنا:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في الآية السابقة أنّه أنشأ جناتٍ معروشاتٍ وغير معروشاتٍ، ثم عطفَ عليها الآية التالية وهي قولُه سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأنعام:١٤٢].

أي: وهو الذي أنشأَ جناتٍ معروشاتٍ، وغير معروشات، وأنشأ حمولةً وفرْشاً من الأنعامِ،

جنـــــة السـنـــــة

فاللهُ -سبحانه- هو الذي رزقنا أنواعَ الحبوبِ والأشجارِ وأنواعَ الأنعام، والحمولَةُ، الإبلُ الكبارُ التي يُرْكبُ عليها، ويُحْمَلُ عليها، والفَرْشُ الصِّغارُ من الإبلِ، والضأنُ والمعز والبقر مما لا يُحْمَلُ عليه، سمى صَغارَ الإبل والغنمِ والبقرِ فرشاً لقربها من الأرضِ، فهي كالفَرْشِ، وقيل: الفَرْشُ ما يُفْرَشُ على الأرضِ حينَ الذَّبح، وقال ربُّ العزة في الحمولةِ من الإبلِ التي يُحْمَلُ عليها الأثقالُ: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ [النحل:٧] وقال: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [يس:٧٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي كُلُوا مما رزقكُمُ اللهُ من الجناتِ، ومِنَ الأنْعامِ سواءً كانت حَمولةً أو فَرْشاً، ولا تُحرِّموا على أنْفُسِكم شيئاً، ولا تجعلوا منه للأصنام شيئاً.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ نهانا عن اتباع خُطُواتِ الشيطانِ، فإننا إذا اتَّبَعْنا خطواتِهِ أَضَلَّنا وأدْخَلَنا النارَ، فهو عَدوُّنا الذي كاد أبانا آدمَ وأُمَّنا حَوَّاءَ، والخطواتُ: جمعُ خُطْوةٍ، وهي طُرُقُهُ المضلّة، ومنها تلك التشريعاتُ التي يُحِلُّ بها ما حرَّمَ اللهُ، ويُحرِّمُ ما أحَلَّ، كما بيَّن اللهُ تعالى ذلك في آيات النصِّ السابق.

٣- بيانُ ضَلالِ أهْلِ الجاهلية فيما أحلُّوه وحرَّموه من الأنعام:

بَيَّن اللهُ تعالى لنا مدى الضلالِ الذي وَقَعَ فيه أهلُ الجاهلية فيما أحَلُّوهُ وحرَّمُوهُ، فقال: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۖ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ۗ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأنعام:١٤٣].

قولُهُ تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ المرادُ بالأزواجِ: الأصنافُ، وكُلُّ شيءٍ يحتاج إلى أن يجتمعَ مع واحدٍ من جنْسه تُسَمِّيهُ العربُ: زوجاً، كالخُفِّ، فإنه يحتاجُ إلى خُفٍّ آخر، فهو زوجُهُ، وكالذكر فإنه يحتاجُ إلى أنثى.

و﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ بدل من ﴿حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ أي: أنزل لكم من الأنعام حَمولَةً وفرشاً، ثم بيَّنَ الحمولةَ والفرشَ ما هي، فذكر أنها ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾.

وقوله: ﴿مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ الضأنُ الغَنَمُ الذي له صوفٌ، وقوله: ﴿وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ المَعْزُ الغَنَمُ الذي له شعْرٌ، والزوجان من الضأنِ: ذَكَر الضأنِ وأنثاه، وهما الكَبْشُ والنَّعْجَةُ، والزوجانُ من المعزِ، وهما: التَّيْسُ والمَعْزَةُ، فهذه أربعةُ أصنافٍ من الأزواج الثمانية.

جنـــــة السـنـــــة

وبيّن اللهُ تعالى ضلال المشركينَ بقوله: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ . كان أهلُ الجاهلية يزعمون أنَّ اللهَ حرَّمَ بعضَ الذكورِ من الضأنِ والمعز، وبعض الإناثِ منهما، ويحرِّمون بعضَ ما اشتملتْ عليه أرحامُ الأنثيين، فقال لهمُ مقرعاً ومُبكِّتاً: أحرَّم اللهُ الذكرين من الضأنِ والمعزِ، فيكون كل ذكر حراماً، إذا كانت العِلَّةُ الذكورةُ، فإن كانت العلةُ الأنوثةُ، فتكون كلُّ أنثى حراماً، أما تحريمهم لبعض الذكور وبعض الإناث من غير ضابط فإنه ضلالٌ لا ينضبطُ مع ما يهدي إليه العقلُ الصحيحُ، وكذلك في تحليلهم وتحريمهم لما اشتملت عليه أرحامُ الأنثيين، فإن كان المحرَّمُ كلَّ ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، فإنه يشمل الذكر والأنثى من الأجنة، فهذا التفريق بين كلٍّ من الذكرِ والأنثى وما اشتملت عليه أرحامُ الأنثيين لا يقومُ على قاعدةٍ مستمرةٍ وأمرٍ منضبطٍ، وهذا يدلُّ على اضطرابٍ فيما شرَّعُوه وذهبوا إليه.

وبعد هذا البيانُ لضلالهم فيما شرَّعوه قالَ لهم مُبكِّتاً ومُقرِّعاً: ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ أي: أخْبِروني بيقينٍ عن الوجهِ الذي حُرِّمَ عليكم فيما تزعمونَ تحريمه. ثم سألهم في شأن الأزواج من الإبل والبقر مثل ما سألهم في شأن الضأن والمعز، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [الأنعام:١٤٤].

٤- الدليلُ على كَذِبِ الكُفَّار فيما زَعَمُوا أنَّ اللهَ تعالى هو الذي حرَّمَ ما حرَّموه:

بيَّنَ اللهُ -تعالى- ضلالَ المشركين في نسبتهم التحريم إلى ربِّ العزة -سبحانه- فقال: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ﴾ أي: هل كنتم حاضرينَ حين قال اللهُ -تعالى- لكم هذا حلالٌ وهذا حرامٌ على الوجهِ الذي تفترونَهُ وتزعمونه على الله تعالى؟

وقد كان أهْلُ الجاهلية إذا عجزوا وغُلبوا بالدليل قالوا: وَجَدْنا عليه آباءَنا، واللهُ أمرنا بها، فقال الله تعالى لهم: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأنعام:١٤٤]. وفي هذا تكذيبٌ لهم فيما شرَّعُوه بعقولهم، ثم عَزَوْهُ إلى ربِّ العزَّةِ زُوْراً وكَذِباً، ويدخلُ في هذه الآية كلُّ من قال بأمورٍ تخالف الشَّرْعَ، ودعا الناس إلى قوْلِهِ.

فإن قيلَ: كيف يقولُ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ مع أننا نرى في الماضي والحاضر أنَّ بعضَ الكفار، بل بعض رؤسائهم قد آمنوا، والجوابُ: أنَّ الذين لا

يهديهم اللهُ تعالى هُمُ الذين كتبَ عليهم عَدَمَ الإيمانِ، كما قال ربَّنا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - أَبْدَعَ اللهُ -تعالى- لنا ما شاءَ من الجناتِ المكوَّناتِ مِنَ الأشجارِ والزروعِ المختلفة المتنوعة.

٢- أباحَ اللهُ تعالى الأكْلَ مما خَلقَهُ لنا من الثمار، وأمَرنا أن نُخْرِجَ جُزْءاً للفقراء والمساكينِ والمحتاجين نريدُ به وَجْهَ الله، ونهانا عن الإسراف فيما نُخْرِجُهُ.

٣- خَلَقَ اللهُ لنا ربُّنا -تعالى- ثمانيةَ أزواج من الأنعامِ، منها كبيرٌ الذي يصلح لأنْ يُشْربَ حَليبُهُ، ويُؤْكَل لحمُهُ، ويُرْكَبَ ظَهْرُهُ، كالإبل الكبارِ، ومنها صِغارُ الإبل والبقر والضأنُ والمَعْزُ الذي يُشربُ لَبَنُه ويؤكَلُ لحمه.

٤- أهلُ الجاهلية حرَّموا على أنفسهم من الأنعامِ ما لم يسيروا فيه على قاعدةٍ سويةٍ مُنْضَبِطةٍ، فحرَّموا وأحلُّوا بأهوائهم غيرَ متَّبعينَ ما يُلْزِمُ به العلمُ الصحيحُ.

٥ - استعمل القرآنُ ما يسميه الأصوليون السبر والتقسيم لبيانِ ضلالِ الكفار.

جنـــــة السـنــــة

النص القرآني الرابع والعشرون من سورة الأنعام
بيانُ ما حرَّمه على هذه الأمةِ وما حرَّمه على اليهودِ من قبلنا

أولاً: تقديم

بيَّن اللهُ لنا ما حرَّمه علينا في آياتِ هذا النص، وما حرَّمه على اليهودِ من قبلنا، وردَّ اللهُ على المشركين في دَعْواهُمْ أنَّ اللهَ تعالى شاءَ شِرْكهم وما حرموه على أنفسهم ورضيه، وهذا غير صحيح، فلو رضيه فإنه لا يُعَذِّبُهُمْ عليه في الدنيا ولا في الآخرة.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ [الأنعام:١٤٥-١٥٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- بيانُ الله -تعالى- لما حرَّمه على العباد:

أمَرَ اللهُ تعالى عَبْدَهُ ورسولَه محمداً ﷺ أنْ يقولَ للكفار الذين حرَّموا ما سَبَقَ ذِكْرُه بأهوائِهم: ﴿ لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الأنعام:١٤٥].

جنـــــة السـنــــة

وهذه الآيةُ تَدُلُّ على أنَّ التحريمَ لا يكون إلا بالوحي والتنزيل لقوله: ﴿فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ وقوله: ﴿عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ﴾، أي: آكلٍ يأكُلُه، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ [الأنعام:٣٨]، وكقوله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ [البقرة:٧٩].

وقوله: ﴿أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾ الدمُّ المسفوحُ: الدَّمُ المصبوبُ المُراقُ، وهو ما يَخْرُجُ من الأَوْداجِ عند ذَبْحِ الشاةِ أو البقرةِ، فأما الدَّمُ غير المسفوحِ، وهو الذي خالطَ اللَّحْمَ، فلا بأسَ به، وهذا من رحمة الله بهذه الأمةِ، فلو حرَّم عليهم كلَّ دَمٍ لشَقَّ على الناس تَتَبُّعه واستخراجُهُ من أعضاءِ الذبيحةِ.

وقوله تعالى: ﴿أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ والرجْسُ: القَذِرُ النَّجِسُ، وقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ الضميرُ عائدٌ على لَحْمِ الخنزير، خلافاً لما ذهب إليه ابنُ حَزْمٍ في إعادةِ الضمير على المضاف إليه، وهو الخنْزيرُ، قال ذلك ليجْعَلَ النصَّ مُحرِّماً للحم الخنزيرِ وشحمه بلفظه، والصوابُ: أنَّ الضمير يعودُ إلى اللحمِ، لأنَّه المتحدثُ عنه، وأجمعَ العلماءُ على تحريم شحْمِ الخنزيرِ قياساً على لحمه، فإنَّ الشَّحْمَ نظيرُ اللحمِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ والمرادُ بالفسقِ هنا ما ذُبح لغير الله، وأصْلُ الإهْلالِ في لغةِ العرب: رَفْعُ الصوتِ، سُمِّيَ إهْلالاً، لأنهم كانوا إذا ذَبحوا لأصنامهم، رفعوا أصواتَهم باسمها، فصارَ الإهلالُ يُطلَقُ على كلِّ ما ذُبِح لغير الله.

وأصلُ الفِسْقِ: الخروجُ مِنَ الدِّين، ولعظم جريمةِ الذين يذبحون الأنعام باسم أصنامهم جَعْلَ إهلالَهم بذلك عَيْنَ الفِسْق.

٢- أباح اللهُ تعالى أكْلَ المحرماتِ للمضْطَرِّ:

أباحَ اللهُ تعالى للمضْطَرِّ الذي لا يَجِدُ حلالاً يأكُلُهُ أنْ يأكل مِنَ المحرماتِ التي سَبَقَ ذِكْرُها، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٤٥﴾ [الأنعام:١٤٥]، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾ [المائدة:٣]، وقال ربّنا في موضعٍ ثالثٍ: ﴿وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ﴾ [الأنعام:١١٩].

وقولُهُ: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ أي: فمن أُلجِئ إلى أنْ يأكُلَ من هذه المحرماتِ، فإنه يباحُ له، والضروراتُ أنْ لا يَجِدَ ما يأكُلُهُ، ويخشى إن لم يأكُلْ مِنَ المحرماتِ أن يموتَ ويَهْلِكَ.

جنـــة السـنـــة

وقولُهُ: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ الباغي: الذي يَخْرُجُ على إمام المسلمين وسلطانِهِمْ، والعادي: الذي يَخْرُجُ على الناس، ويقطعُ الطريقَ، وينْهَبُ، ويجرحُ، ويقتلُ، فهذان لا يُباحُ لأيٍّ منهما الأكلُ من المحرمات إلا إذا تابوا.

وقوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ أي: غفورٌ رحيم لمن اضطرَّ لأكْلِ المحرمات في حال كونِهِ غير باغٍ ولا عادٍ.

٣- **ما حرَّمه اللهُ تعالى على اليهود:**

أخبرنا ربُّنا عمَّا حرَّمه على اليهود من قبلنا، فقال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ﴾ [الأنعام:١٤٦].

أي: حَرَّم عليهم كلَّ ذي ظُفُرٍ، وهو ما لم يكن مشْقوقَ الأصابعِ كالإبل والنَّعام والإوزِّ والبطِّ. قال ابنُ منظورٍ: «الظُّفُر: مَعروفٌ، وجَمْعُهُ أظْفارٌ، يكونُ للإنسان وغيرِهُ، وقالوا: الظُّفُرُ لما لا يَصيدُ، والمِخْلَبُ لما يَصيدُ، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ۖ﴾ [الأنعام:١٤٦] دَخَلَ في ذي الظُّفُرِ ذواتُ المناسِم من الإبلِ والنَّعامِ، لأنها كالأظفارِ لها» [لسان العرب: ٣/ ٦٤٤].

وحَرَّم عليهم شحومَ البقرِ والغنمِ، واستثنى مما حرَّمه عليهم من شحوم البقر والغنم ما حملت ظهورهُما، وهو ما عَلق بظهرِ البقرةِ والغَنَمِةِ، فإنه حلالٌ، وأحلَّ لهم ما حَمَلَتْهُ الحوايا، والحوايا جُمْعُ حاوية، مثل زوايا جمع زاوية، والحوايا ما تَحَوَّى في البَطْنِ، واسْتدارَ فيه، وتُسَمَّى بالمباعِرِ والمرابِضِ، وتُسَمَّى الدُّوَّارةُ والمصارينُ، فما على الحَوايا مشروعٌ حلالٌ لهم أكله، وأحلَّ لهم من شحومِ البقر والغنم ما اخْتَلَطَ بعظمٍ، ومنه شحمُ الرَّقَبَةِ، وشحمُ الإلْيةِ، فإنه مختلطٌ بعظم العُصْعُصِ، ولا يزال بقايا هذه التشريعات موجودةً في التوراة، جاء في [سفر اللاويين، الإصحاح الحادي عشر: ١-٨]:

«وكَلَّمَ الربُّ موسى وهارونَ قائِلاً لَهُما: (٢) كَلِّما بَني إسرائيلَ قائلين: هذِهِ هِيَ الحيوانات التي تأْكُلُونَها من جميعِ البَهائِمِ التي عَلَى الأَرْضِ: (٣) كُلُّ ما شَقَّ ظِلْفاً وقَسَمَهُ ظِلْفَيْنِ، ويَجْتَرُّ مِنَ البهائِمِ، فإيَّاهُ تَأْكُلُونَ. (٤) إلاَّ هذِهِ فَلا تأْكُلوها مِمَّا يَجْتَرُّ ومِمَّا يَشُقُّ الظِّلْفَ: الجَمَلَ، لأنَّه يَجْتَرُّ لكِنَّهُ لا يَشُقُّ ظِلْفاً، فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ. (٥) وَالوَبْرَ، لأَنَّهُ يَجْتَرُّ لكِنَّهُ لا يَشُقُّ ظِلْفاً، فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ. (٦) والأرْنَبَ، لأَنَّهُ يَجْتَرُّ لكِنَّهُ لا يَشُقُّ ظِلْفاً، فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ، (٧)

جنـــــة السـنــة

والخِنْزِيرَ، لأَنَّهُ يَشُقُّ ظِلْفاً ويَقْسِمهُ ظِلْفَيْنِ، لكِنَّهُ لاَ يَجْتَرُّ، فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ. (٨) مِنْ لَحْمِها لا تأْكُلُوا وجُثَثَها لاَ تَلْمِسُوا. إنَّها نَجِسَةٌ لَكُمْ».

وهذا النصُّ من التوراة يفيد ما يأتي:

أولاً: أحَلَّ اللهُ -تعالى- لبني إسرائيل في التوراة كلَ ما شَقَّ ظِلْفاً، وقسمه ظِلْفَينِ، أما ذو الظُّفُر، فهو حرام.

ثانياً: مَثَّلَ النصُّ لذي الظُّفُر الذي يَحْرُمُ عليهم بثلاثِ حيوانات، وهي: الجملُ، والوَبْرُ، والأَرْنَبُ، لأنها لا تشقُّ ظلفاً.

ثالثاً: نصَّ على حرمة الخنزير، لعلة أخرى.

وقد نصَّ [سفر اللاويين، الإصحاح السابع: ٢٣] على أنَّ «كُلَّ شَحْمِ ثَوْرٍ أو كَبْشٍ أو ماعِزٍ لا تأكلوا» وهذا غيرُ صحيحٍ على إطلاقِه، لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾، فليس كلُّ الشحم كان محرماً عليهم، فقد أحَلَّ اللهُ منه شحْمَ الظهرِ، والشحومُ التي في الحوايا، والشحمُ الذي اختلط بعظمٍ.

وقد بينت التوراة في الإصحاح الأوَّلِ والثالثِ من سفر اللاويين الحيوانات التي يقدمونها قرابين، ويجوزُ لهم أن يأكلوا منها، وهي: البقرُ والضأنُ، ومنه الكَبْشُ والمَعْزُ الذي هو الغَنَمُ.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ [الأنعام:١٤٦]. أي: هذا التحريمُ الذي حَرّمه عليهم من الطيباتِ كالإبلِ والنعامِ والإوزِّ والبطِّ، وبعض شحومِ البقرِ والغنمِ كان ببغيهم، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء:١٦٠-١٦١]، وقوله: ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:٢١]، وقوله: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام:١٤٦] وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء:١٢٢]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء:٨٧]. وصيغة الجمع في قوله: ﴿وَإِنَّا﴾ للتعظيم.

قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام:١٤٧]. أي: وإن كَذَّبَكَ اليهودُ، بقولهم: لم يُحرِّمْ ربُّنا علينا هذه

جنـــــة الســـــنة

المحرماتِ، وقد بيَّنْتُ أنَّ التوراة لا زالتْ تذكر أنَّ اللهَ حرَّمَ عليهم هذا الذي ذكره القرآن، ولذلك طالبهم ربُّنا أن يأتوا بالتوراة فيتلوها ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران:٩٣].

أمَرَ اللهُ تعالى رَسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ للمكذبين منهم: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ [الأنعام:١٤٧] ومن رحمته الواسعة بهم أنَّه لم يعاجلهم بالعقوبة، وتأنَّى بهم، وأفاضَ عليهم من نعمه، مع تكذيبهم الرُّسلَ، وما أنزلَه في الإنجيل والقرآن. وقوله: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام:١٤٧]، وبأْسُهُ: عذابُه، أي: لا يستطيع أحد أن يردَّ ما يريد إنزاله بكم من بأسٍ وعذاب، والمجرمونَ: الذين ارتكبوا عظائم الذنوب من الشركِ والكفرِ وتكذيبِ الرسلِ وقتلِ الأنبياءِ.

٤- دعوى المشركين أنَّ اللهَ -تعالى- رَضِيَ شِرْكَهُمْ وكُفْرَهُمْ:

أَعْلَمَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ المشركينَ احْتَجُّوا على صِحَّةِ شِرْكِهِمْ. وكُفْرِهم وشِرْكِ آبائِهم وكُفْرِهم، وصحة تحريم ما حرَّموهُ بأنَّ اللهَ شاءَهُ وارْتَضاهُ ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨] أما أنَّ اللهَ تعالى شاءَه فهذا صحيح، فإنه لا يقعُ في هذا الكون شيء إلا ما يريدُهُ اللهُ ويشاؤُهُ، ولو وقع في كوْنِهِ ما لا يُريدُهُ ولا يشاؤُه، فإنه يكون مغلوباً مقهوراً.

ولكن لا يلزم من كوْنِهِ تعالى شاءَهُ أنَّه أحبَّه ورَضِيَهُ، فاللهُ قد يشاءُ الشيءَ، ولكنه يكْرَهُهُ، ولا يحبُّه، فقد شاءَ وجودَ إبليسَ، ولكنَّه لا يحبُّه، ويشاءُ وقوعَ الكفرِ، والشِّرْكِ، والزِّنا، وشَرْبِ الخمر، ولكنَّه لا يحبُّ ذلك، ويكْرَهُهُ، وهذه الحجَّةُ الباطلةُ احتجَّ بها الضالون الذين ضَلُّوا من السابقينَ، ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام:١٤٨].

وقد ردَّ اللهُ تعالى على هذه الحجةِ التي احتجَّ بها المشركونَ في القديمِ والحديثِ ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ [الأنعام:١٤٨] أي: لو كانت حُجَّة المشركينَ صحيحةً لما عَذَّبَ اللهُ الذين ارتكبوا الشِّرْكَ وأوْقَعَ بهم عقابَهُ، كما فعل بقومِ نوح وقومِ هودٍ وقومِ صالحٍ وقوم فرعونَ وغيرهم، ولما عَذَّبَ هؤلاء الذين ارتكبوا هذه الجرائم الموبقات في النار في يوم القيامة. ولذا فإنَّ مشيئةَ اللهِ كُفْرَهُمْ وشِرْكَهُمْ مشيئةٌ قَدَرِيَّةٌ، وليستْ مشيئة دينية، والمشيئةُ القدريةُ لا يلزم معها محبةُ اللهِ لها، ورضاهُ عنها.

جنـــــة الســـــنة

وقوله جلَّ وعلا: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام:١٤٨]، أمَرَ الله تعالى رسولَه ﷺ أنْ يقولَ للمشركينَ: هل عِنْدَكُم من عِلْمٌ يدلُّ دلالةً قاطعةً على أنَّ اللهَ رضي شِرْكَكُم وذُنوبَكُمْ ومعاصيكُمْ، فإن كانَ عندكم عِلْمٌ يدلُّ على ذلك فأخْرِجُوه وبيِّنُوه، والصوابُ من القولِ أنهم لا علم عندهم يدلُّ على شيءٍ من ذلك، وكلامهم مبنيٌّ على ظنونٍ وأوْهام، وتخرصاتٍ باطلةٍ، وقوله: ﴿تَخْرُصُونَ﴾ أي: تكذبون.

٥- للهِ الحُجَّةُ البالغةُ على خَلْقِهِ سبحانه وتعالى:

أخْبَرَنا ربُّنا الحكيمُ العليم -سبحانه- أنَّ له الحجةُ البالغةَ على خَلْقِهِ، و﴿ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ هي التي يبلُغ بها صاحِبُها غَرَضَهُ، لإفْحامِ خَصْمِهِ، وإظْهارِ الحقّ، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام:١٤٩] وقد تحققتِ الحجةُ البالغةُ على الخَلْقِ بإرْسالِ اللهِ الرُّسُلَ وإنزالِ الكُتُبِ، وإقامة المعجزاتِ، ولو شاءَ اللهُ تعالى لهدى الناسَ جميعاً إلى دينه القويم، ولكنه لم يَشأْ، كما قال ربُّ العزةِ سبحانه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة:١٣].

٦- دعوةُ المشركينَ إلى أنْ يدْعُوا شركاءَهُمْ إلى شهادةِ أنَّ اللهَ حرَّم ما حرَّموهُ:

أمَرَ اللهُ -سبحانه وتعالى- أنْ يطْلُبَ من المشركينَ أن يدْعُوا شُهَداءَهُمْ، ليشهدوا أنَّ اللهَ تعالى حرَّم ما حرَّموه، من البحيرةِ والوصيلة والحام ونحوها، وقد نهى اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أنْ يَشْهَدَ معهم إنْ شَهِدُوا، ولا يُتابِعَهُمْ فيما شرَّعُوهُ بأهوائِهم، ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنعام:١٥٠].

وقوله تعالى: ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ أي: أَحْضِرُوا شُهَداءَكم وقرِّبُوهُمْ، المرادُ بهم الذين يشهدون لهم أنَّ اللهَ تعالى حَرَّم المحرماتِ التي حرَّمُوها، وقد نهى اللهُ رسولَهُ ﷺ أنْ يَشْهَد معهم، لأنَّ شهادتهم في هذه الحال شهادةُ زورٍ، وهم يَشْهَدون متابعةً لأهْوائِهم، والرسولُ ﷺ لا يتّبعُ أهواء البشر الذين لا يؤمنون بيوم القيامة، وهم يعْدلون آلهتهم بالله في عبادته سبحانه.

جنـــــة السـنـــــة

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- التحريمُ لله تعالى وَحْدَهُ، فلا يجوزُ لرئيسٍ أو زعيم أو طائفةٍ أنْ تُحِلَّ وتحرِّمَ بعيداً عن الوحي الإلهيِّ الربانيِّ المنزل من عند الله.

٢- الذي حرَّمه ربُّ العزّةِ في العهد المكيِّ كان محصوراً في: الميتة، والدم المسفوح، ولحمِ الخنزيرِ، وما أُهِلَّ لغيرِ الله به، وزادَ اللهُ على ذلك في المدينة تحريم الخمرِ، وزادَ الرسولُ ﷺ عليهِ الحُمُرَ الأهلية، وكلَّ ذي نابٍ من السباع، وكل ذي مخلب من الطير وغيرها.

٣- يجوز للمضطر الذي لا يَجِد غيرَ هذه المُحرَّماتِ أنْ يأكل منها بشرط أن لا يكون باغياً ولا عادياً.

٤- أَعْلَمنا ربُّنا عمَّا حرَّمَه على اليهودِ من قبلنا، فقد حرَّم عليهم كلَّ ذي ظُفُر، ومنه الجمالُ، والنعام، والبط والإوز ونحو ذلك، وحرَّم عليهم من البقرِ والغنَمِ شُحومَها إلا شحم الظّهر والشَّحم الذي غطَّى المصارينَ، والشحم الذي خالَط العظمَ.

٥- حرَّم اللهُ على اليهودِ بعضَ الطيباتِ، ومنه ما ذَكَرهُ اللهُ في هذه الآية، وكان هذا التحريم بسبب ما ارتكبوه من ذنوب.

٦- احتجَّ المشركونَ على كُفْرِهِمْ وشركهم بأنَّ اللهَ شاءَه ورضيه، وقد كَذَبوا وضَلُّوا فيما احتجُّوا به، فاللهُ إن شاءَ كُفْرَهُمْ وضَلالَهم، فهو لا يُحِبّه ولا يرضاه، ولذلك نهاهم عنه، وعاقبهم عليه.

٧- اللهُ تعالى له الحجَّةُ البالِغةُ على خَلْقِهِ، فمن هَداه فَقَدْ تَفَضَّلَ عليه، ومَنْ حَرمه من الهدايةِ فقد مَنَعَهُ شيئاً هو له سبحانه.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني الخامس والعشرون من سورة الأنعام

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

أولاً: تقديم

هذه الآيات التي اشتمل عليها هذا النصُّ الكريمُ آياتٌ عظيمةٌ، وهي مِنْ أعظم الآياتِ التي خاطبَ اللهُ بها عبادَهَ من هذه الأُمَّةِ، وقد أوْرَدَ السُّيوطيُّ الحديث الذي أخْرَجَهُ الترمذيُّ بإسنادٍ حَسَنٍ، وأخْرَجه ابنُ المنذر وابن أبي حاتم والطبرانيُّ وأبو الشيخ وابن مَرْدَوَيْهِ عن ابن مَسْعودٍ قالَ: «مَنْ سَرَه أن يَنْظُرَ إلى وَصَيَّةِ محمد التي عليها خاتماً، فلْيَقْرَأْ هؤلاءِ الآياتِ: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام:١٥١] إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣]».

وهذه الوصايا التي أوْصانا اللهُ تعالى بها عَشْرُ وصايا، وهي أعظمُ من الوصايا العشر التي أنزلها على عَبْدِهِ ورسولِهِ موسى عليه السلام ، فالوصايا الثلاثةُ الأولى من وصايا موسى العشر موجودة في هذه الوصايا العشر التي في هذا النصّ، والوصايا الستة الأخرى التي أنْزَلها على موسى ابتداءً من قوله: «لا تزن» تضمنتها وصيةٌ واحدةٌ في هذه الآياتِ، هي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ والوصية الخاصَّة بترك العمل في يوم السبتِ وصيةٌ خاصة ببني إسرائيل دون غيرهم، وعلى ذلك فنكون قد فُضِّلْنا على بني إسرائيل بوصايا غير موجودةٍ في وصاياهم العشر، وهي النَّهْيُ عن قَتْلِ الأولادِ، وعَدَمُ قربانِ مالِ اليتيم إلا بالتي هي أحْسَنَ، والوفاءُ بالكيلِ والميزانِ، والوفاءُ بالعهودِ، واتباع صراط الله المستقيم.

وقد جاءَ ذِكْرُ الوصايا العشرِ في مَوْضِعَيْنِ من التوراةِ، الأوَّلُ في [سفر الخروج، في الإصحاح المتمم للعشرين: ١-١٧] والثاني في [سفر التثنية، في الإصحاح الخامس].

وسأذكر هنا هذه الوصايا من سفرِ الخروجِ، فقد جاءَ فيه:

«(١) ثم تكلَّم الله بجميع هذه الكلمات قائلاً: (٢) أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية (٣) لا يكن لك آلهةٌ أخرى أمامي (٤) لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورةً ما ممَّا في السماءِ من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض. (٥) لا تسجد لهنَّ ولا تعبدهنَّ. لأني أنا الرب إلهك إلهٌ غيور أفتقد ذنوب الآباءِ في الأبناءِ في الجيل الثالث والرابع من مبغضيَّ. (٦) وأصنع إحساناً إلى أُلوفٍ من مُحِبِّيَّ وحافظي

جنـــــة السـنـــــة

وصاياي. (٧) لا تنطقْ باسم الرب إلهك باطلاً. لأن الرب لا يُبرِئُ من نطق باسمِه باطلاً. (٨) اذكر يوم السبت لتقدّسهُ، (٩) ستة أيامٍ تعمل وتصنع جميع عملك. (١٠) وأما اليوم السابع ففيه سبتٌ للرب إلهك. لا تصنع عملاً ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذي داخل أبوابك. (١١) لأن في ستة أيامٍ صنع الرب السماءَ والأرض والبحر وكلَّ ما فيها. واستراح في اليوم السابع. لذلك بارك الرب يوم السبت وقدَّسهُ[1]. (١٢) أكرِم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك. (١٣) لا تقتل (١٤) لا تزنِ (١٥) لا تسرق (١٦) لا تشهد على قريبك شهادة زورٍ (١٧) لا تشتهِ بيت قريبك. لا تشتهِ امرأة قريبك ولا عبدهُ ولا أمتهُ ولا ثورهُ ولا حمارُه ولا شيئاً مما لقريبك».

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النعام

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آيات هذا النصِ مِنَ القرآن

١- أمْرُ الله -تعالى- رسوله ﷺ أنْ يدعُوَ الناسَ ويقُصَّ ما حرَّمَ اللهُ عليهم:

أمر اللهُ تعالى عَبْدَهُ ورسولَه محمداً ﷺ أنْ ينادي الناسَ جميعاً، ويقول لهم: ﴿تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:١٥١]. و﴿تَعَالَوْا﴾ فعل ماضٍ، ومعناه، تعالَوْا إليَّ، واحْضُرُوا عندي. وقولُهُ: ﴿أَتْلُ﴾ أقرأ وأَقُصُّ ما حرَّمَهُ عليكم ربُّكُمْ، ويُطلَقُ التحريمُ في الشَّرْعِ على ما حرَّمَهُ الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ فمعناه: أنَّ

(١) دعوى أن السبت سبت الله غير صحيحة، ودعواهم أنَّ الله استراح في اليوم السابع كذب على الله تعالى، فالله لم يأخذه تعب في خلقه السماء والأرض وليس بحاجة إلى الراحة، فإنَّه لا يَمَسُّه التعب.

جنـــــة الســـــنة

هذا الذي أَتْلُوْهُ عليكم مُحَرَّمٌ، وقوله بعدها: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ عَدَمُ الشِّركِ ليسَ مُحَرَّماً، بل هو واجب، وقوله: ﴿وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ بِرُّ الوالدين ليس بمُحَرَّمٍ، بل هو واجبٌ.

«وأظْهَرُ الأجوبةِ وأحْسنُها -كما يقولُ العلاَّمةُ محمدُ الأمين الشنقيطي- أنَّ معنى قوله: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ فِعْلاً وتَرْكاً، وأنَ التَّحْريمَ فِعْلاً وتَرْكاً هنا مُضَمَّنٌ معنى وَصَّاكُمْ به، فكأنه يقول: أَتْلُوا عليكم ما وصَّاكم به ربكم به تحريماً وإباحة» [العذب النمير: ٢/ ٤٦٤].

٢- **أعْظَمُ المحرمات الشرك بالله تعالى:**

أَعْظَم المحرماتِ التي حرَّمها اللهُ -تعالى- على عبادِهِ الشِّرْكُ بالله تعالى، ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [الأنعام:١٥١]. والشِّرْكُ يقابلُ التوحيدَ، والتوحيدُ أَعْظَمُ ما أمَرَ اللهُ تعالى به، والشِّركُ أعظمُ ما نهى اللهُ تعالى عنه، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣]. والظلم وَضْعُ الشيء في غير موْضِعهِ، ووضْعُ الأصنامِ والأوْثانِ والشَّجرِ والحجرِ والبَشَرِ في مَصافِّ الآلهةِ التي تعبد مع الله أعظم الظُّلْمِ، والنهيُ عن الشِّركِ أعْظَمُ الوصايا العَشْرِ التي أنزلها اللهُ تعالى على موسى، فقد قال له ربُّه فيما أُنزل عليه: «أنا هُوَ الرَّبُّ إلهُكَ الذي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ العُبُودِيَّةِ. لا يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي. لا تَصْنَعْ لَكَ تِمْثالاً مَنْحُوتاً صُورَةً ما مِمَّا في السَّماءِ مِنْ فَوْقُ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ أَسْفَلُ وَمَا في الماءِ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ. لا تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلاَ تَعْبُدْهُنَّ، لأَنِّي أنا الرَّبُّ إلهُكَ إلهٌ غَيُورٌ.... لا تَنْطِقْ باسمِ الرَّبِّ إلهِكَ باطِلاً، لأنَّ الرَّبَّ لاَ يُبْرِئُ مَنْ نَطَقَ باسْمِهِ بَاطِلاً» [سفر التثنية، الإصحاح الخامس: ٧-١١، وقد وردت أيضاً كذلك في سفر الخروج].

٣- **وجوب الإحسان إلى الوالدين:**

هذه هي الوصيةُ الثانية التي أمَرَ الله تعالى رَسولَنا ﷺ أنْ يوصِينا بها ﴿وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأنعام:١٥١] والمعنى: أحسِنوا إلى الوالدين، وقد جَرَت عادةُ القُرْآنِ على الأَمْرِ بالإحسان إلى الوالدين بعد الأمْرِ بعبادةِ الله وَحْدَهُ لا شريكَ لَهُ، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣]، وقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة:٨٣].

وهذه هي الوصية الثانية في الوصايا العشر التي أَنْزَلها اللهُ تعالى على موسى، فقد جاء فيها: «أَكْرِمْ أَباكَ وأُمَّكَ كما أَوْصاكَ الرَّبُّ إلهُكَ، لِكَيْ تَطُولُ أيامُكَ، ولِكَيْ يكونُ لَكَ خَيْرٌ عَلَى الأَرْضِ التي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إلهُكَ» [سفر التثنية، الإصحاح الخامس: ١٦].

جنـــــة الســـــنة

٤- **قَتْلُ المرءِ أولادَه خوفَ الفقْرِ:**

هذه هي الوصيةُ الثالثةُ التي أمَر رسولَهُ ﷺ أنْ يُبيِّنَ لنا أنَّه حرَّمَها علينا، وهي قَتْلُ الأولادِ، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ ﴾ [الأنعام:١٥١].

والإمْلاقُ الذي كانوا يَقْتُلُونَ أولادَهم خشيةً منه: الفقرُ، فكان بعضُهُمْ يقْتُلُ أولادَهُ لأنَّه فقير، وبعضُهُمْ يكون غنيّاً،ويقتلُ وَلَدَهُ خشيةَ أنْ يفْتَقِرَ، وفي هؤلاءِ قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ ﴾ [الإسراء:٣١].

وقوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ ﴾ فيه ضَمانٌ مِنْ ربِّ العبادِ لرزْقِ الآباءِ والأبناءِ، وجاء في الآية الأخرى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ ﴾ [الإسراء:٣١].

والرزقُ عند الجمهور: هو ما رُزِقَهُ الإنْسانُ، سواءً أكان حلالاً أو حراماً، فإنْ كان حراماً عاقبه ربُّه عليه.

٥- **النهيُ عن الفواحِشِ ما ظهر منها وما بطن:**

هذه هي الوصيةُ الثالثةُ التي أمَرَ اللهُ تعالى رَسولَهُ ﷺ أن يوصينا بها، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ ﴾ [الأنعام:١٥١].

والفواحِشُ جمعُ فاحِشةٍ، والفُحْشُ في لُغةِ العربِ: كلُّ شيءٍ بَلَغَ نهايتَهُ في القُبْحِ، وهو في الشَّرعِ: الخَصْلَةُ المتناهيةُ في القُبْحِ، وهي تَشْمَلُ السيئاتِ العظامِ المتناهيةِ في القُبْحِ وقد خَطَّأَ الشيخ محمد الأمين الشنقيطيُّ قولَ من ذَهَبَ إلى أنَّ أكثرَ إطلاقِ الفاحشةِ في القرآنِ على الزنا، فالفاحشة تُطْلَقُ على كلِّ خَصْلَةٍ رديئةٍ بالغةٍ في القبح [العذب النمير: ٢/ ٤٨٢].

والصوابُ أنَّ قوله تعالى: ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ ﴾ [الأنعام:١٥١] تشْمَلُ كُلَّ الذنوبِ التي يُعْلِنُ بها مُرْتكبها، كالذي يَشْرَب الخمرَ عَلَناً، والذي يَزْنِي علانيةً، والذي ينهب أموالَ الناسِ علانيةً، أو الذي يفعل ذلك كُلَّه سِرّاً، ومن الفواحش التي يسرُّ بها المرء ما يخفيه في قلبه من النفاق والعجب والكبر ونحو ذلك.

٦- **نهيُ الله تعالى عن قَتْلِ النَّفْسِ التي حَرَّمَ اللهُ تعالى إلاّ بالحقِّ:**

نهى اللهُ تعالى في آياتِ هذا النصِّ عبادَه عَنْ قَتْلِ النَّفْسِ التي حَرَّمَ اللهُ قَتْلَها إلاّ بالحَقِّ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ﴾ [الأنعام:١٥١] والنَّفْسُ التي حرَّمَ اللهُ تعالى قتلَها

جنـــــة السـنــــة

هي النَّفْسُ المَعْصُومَةُ، وهي النفس المسلمة، والنَّفْسُ التي نأْخُذُ مِنْها الجزيةَ، والنَّفْسُ التي بَيْنَها وبينَ المسلمين معاهَدَةٌ، والمسلم لا يحلُّ دَمَهُ إلاَّ بإحْدى ثلاثةٍ، فعن عبدالله بن مسعود، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا يَحِلُّ دَمُ امرئ مسلم، يَشْهَدُ أنْ لا إله إلا اللهُ وأنِّي رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفسُ بالنَّفْس، والثَّيبُ الزاني، والمفارقُ من الدِّينِ التاركُ للجماعةِ» [البخاري: ٦٨٧٨. ومسلم: ١٦٧٦].

وعن عبدالله بن عمرو رضي اللهُ عنهما، عن النبي ﷺ قالَ: «مَنْ قَتَلَ معاهداً لم يَرَحْ رائحةَ الجنةِ، وإنَ رِيحَها توجَدُ من مَسيرةِ أرْبعينَ عاماً» [البخاري: ٣١٦٦].

وختَمَ اللهُ -تعالى- هذه الآيةَ العظيمةَ بقولِهِ: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام:١٥١] وأشارَ بقولِهِ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إلى الأحْكام الخمسةِ التي تضمنتها الآية، والوصيةُ هي الأمْرُ المؤَكَّد، وقولُهُ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ أيْ: وصَّاكُمْ به، لأجل أنْ تَعْقِلُوا هذه الوصيَّة عنه، فتمْتَثِلُوا أمْرَهُ وتتْرُكُوا نَهْيَهُ.

٧- النهي عن قُربان مالِ اليتيم إلا بالتي هي أحْسَنُ:

هذا هو النهيُّ السادِسُ الذي أمر اللهُ رسولَه ﷺ أن يوصي بِهِ العبادَ، وهو عَدَمُ قُرْبان مالِ اليتيم إلا بالتي هي أحْسَنُ حتى يبلغَ أشدَّه ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام:١٥٢].

وكان أهْلُ الجاهِلِيَّةِ يَظْلِمونَ اليتيمَ والمرأةَ، ويقولون: الذي يستحقُّ المالَ هو من يَحْمي المرأةَ والذِّمارَ، وكانوا يَظْلِمُونَ اليتيمَ، ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾ [الماعون:١-٢]. أي: يدْفعونَهُ بقوةٍ عن حقِّه ويَظْلِمونه، ونَهى اللهُ تعالى الأولياءَ عن قُرْبانِ مالِ اليتيم إلا بالتي هي أحْسَنُ، ويكونُ قُربانُ مالِهِ بالتي هي أحْسَنُ، أي: بالإنفاق عليه من ماله، واستثماره مالِهِ والاتجار له فيه.

وقولُهُ: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ هو بلوغُ اليتيمِ الحُلُمَ مع إيناسِ الرُّشْد، كما قال تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ [النساء:٦].

وقد أعْلَمنا ربُّنا أنَّ أكْلَ أموالَ اليتامى ظُلْماً جريمةٌ كبرى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ﴾ [النساء:١٠].

جنـــــة السـنـــــــة

٨- أمَرَ اللّهُ تعالى بإيفاء الكَيْلِ والميزان بالقِسْط:

أمَرَ اللهُ -تعالى- بالوفاءِ بالكَيْلِ والميزانِ بالقِسْط ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ﴾ [الأنعام:١٥٢].

أمَرَ اللهُ -تعالى- عِبادَهُ أن يوفوا الكيلَ والميزانَ بالقِسْطِ، والمِكْيالُ والميزانُ آلتان تُضْبَطُ بهما المبيعاتُ، ليأخُذَ كُلُّ واحدٍ حَقَّه من أخيه طَيِّبَةً نَفْسُهُ، وقد أكْثَرَ اللهُ تعالى في كتابِهِ مِنَ التوصيةِ بإيفاءِ الكيلِ الميزانِ، كقوله تعالى: ﴿۞ أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾ [الشعراء:١٨١-١٨٢].

وقال شُعَيْبٌ لقومِهِ: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود:٨٥].

وتهدَّدَ اللهُ تعالى الذين يُخْسِرونَ الكَيْلَ والميزانَ بقولِهِ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [المطففين:١-٣].

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالعدلِ التامِ الكامِلِ، بحيثُ لا يزيدُ، ولا يَنْقُصُ، وقولُهُ تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ﴾ أي: طاقَتَها، فإذا اجتهدَ الذي يَقومُ بالكيلِ أو الوَزْنِ بمقدارِ طاقتِهِ، واخْتَلَّ عليه الوَزْنُ أو الكَيْلُ من حيث لا يدري فهو مَعْفُوٌّ عنه، داخلٌ في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ [الأحزاب:٥].

٩- العَدْلُ في القَوْلِ والوفاءُ بعهْدِ الله تعالى:

وصَّانا ربُّنا بالعدْلِ في كُلِّ أُمورِنا، ووصَّانا بالوفاءِ بعَهْدِ الله تعالى، فقال: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ﴾ [الأنعام:١٥٢].

أَوْجَب اللهُ علينا العَدْلَ في كلِّ أمورِنا، فإذا حَدَّثْنا، فيَجِبُ أن يتَّصِفَ حديثُنا بالعَدْلِ، فلا نَكْذِبُ فيه، ولا نميلُ، وإذا كان المرءُ قاضياً فلا يجوز أن يجورَ في قضائِه، وإذا كان شاهِداً، فيجب أن يشهدَ بالعَدْلِ، ولا يجوزُ أن نميلَ في الحُكْمِ أو الشهادةِ لأجْلِ قرابةٍ أو صداقةٍ، فالقاضي يُقيمُ الحكْمَ لله، والشاهِدُ يقيمُ الشهادة لله.

وأمَرَنا اللهُ تعالى بالوفاءِ بعَهْدِهِ ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ﴾ والعَهْدُ قد يكون لله، كالذي يَنْذِرُ نَذْراً ﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾ [الحج:٢٩] وقولُهُ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾

جنـــة السـنة

[الإنسان:٧] وكُلُّ ما فَرَضَهُ اللهُ تعالى عَلَيْكَ فهو عَهْدَ بَيْنَك وبينَ اللهُ. وقد يكونُ العَهْدُ بَيْنَكَ وبَيْنَ عبادِ الله، وهذا عَهْدٌ مع الله أيضاً، لأنَّ اللهَ تعالى أَخَذَ على كُلِّ واحدٍ من المتعاهدين أن يفيَ لصاحِبِهِ.

وقوْلُه تعالى في خاتمة الآية: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام:١٥٢]

أشارَ بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إلى ما وصَّانا به في هذه الآية من عَدَم قُرْبانِ مالِ اليتيم إلا بالتي هي أحْسَنُ حتى يَبْلُغَ أشدَّه، والوفاءُ بالكيل والميزان والعَدْلِ في القولِ والوفاءِ بعهْدِ الله، وقوْلُهُ: ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ أي: هذه الأمور التي وصَّانا بها أمَرَنا وأَلْزَمَنا بها أمراً وإلزاماً مؤكداً، وقوْلُهُ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ أي: لعلكم تتَّعِظُونَ وتَذَكَّرونَ ما يَنْفَعُكُم، ويُبْعِدُكُم عن الضَّلال.

١٠- وصَّانا ربُّنا -تبارك وتعالى- بالالتزام بالصراط المستقيم:

وصَّانا ربُّنا عزَّ وجلَّ بالاستِقامَةِ على الصراط المستقيم، ونهانا عن التَّفرُّقِ والاخْتِلافِ، واتباع السُّبلِ التي يدْعُو إليها شياطينُ الجِنِّ والإنسِ في القديم والحديث، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣].

والصِّراطُ المستقيمُ يَصِحُّ تفسيرُه بالإسْلامِ والقرآنِ وسُنَّةِ الرسولِ ﷺ، فهذا اختلاف تنوع في التفسير، لا اختلاف تضاد.

والسُّبُلُ التي نهانا الله تعالى عن اتِّباعِها هي، السُّبُلُ الضَّالَّةُ المُخْتَلَقَةُ كاليهوديةِ والنصرانية والمجوسيةِ، والصابئةِ، والبوذيةِ، والهندوسيةِ، والشيوعية، وغيرها.

وقد روى ابن مسعود قال: خَطَّ رسولُ الله ﷺ خَطّاً بِيَدِه، ثم قال: «هذا سَبيلُ الله مستقيماً» وخطَّ عن يمينه وشِمالِهِ، ثمَّ قال: «هذِهِ السُّبُلُ، ليسَ منها سبيلٌ إلا عليهِ شيطانٌ يدْعُو إليهِ، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]» [أحمد في مسنده (٤٤٣٧) وإسنادُهُ حَسَنٌ].

واتِّباعُ السُّبُلِ الضالةِ المُنْحَرِفةِ عن الصراطِ المستقيم، يُفرِّقُ الأُمَّةَ، وإذا تفرَّقَتْ تنازعَتْ، وتخاصَمَتْ، وضَعُفَتْ قوَّتُها، وهَزَمَها عَدُوُّها.

وعن النَّواسِ بن سَمْعانِ، عن رسولِ الله ﷺ قالَ: «ضَربَ اللهُ مثلاً صِراطاً مستقيماً، وعن جَنْبَتَي الصِّراطِ سُورانِ فيهما أبوابٌ مُفَتَّحةٌ، وعلى الأبوابِ سُتورٌ مُرْخاةٌ، وعلى بابِ

جنـــة الســـــنة

الصِّراطِ داعٍ يقولُ: يا أيُّها الناس، ادخُلوا الصِّراطَ المستقيمُ جميعاً ولا تَفرَّقُوا، وداعٍ يدْعُو من فوقِ الصِّراطِ، فإذا أرادَ الإنسانُ أن يَفْتَحَ شيئاً من تِلْكَ الأبوابِ، قال: وَيْحَكَ لا تَفْتَحْهُ، فإنَّكَ إنْ تَفتَحْهُ تَلِجْهُ، فالصِّراطُ الإسلامُ، والسُّورانِ حدودُ الله، والأبواب المفتَّحَةُ محَارِمُ الله، وذلك الدَّاعي على رأسِ الصِّراطِ كِتابُ الله، والدَّاعي من فوقِ الصِّراطِ واعِظُ الله في قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ» [أحمد في مسنده (١٧٦٣٤) وهو حديث صحيح].

وقال عزَّ جلَّ في خاتمة الآية: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ أي: تتقوه بفعلِ ما أمركم به، وترك ما نهاكم عنه، وبمخافتِهِ، وتعظيمِهِ، والتَّقوى سبيلُ الفلاح.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النصِ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من عِلْمٍ وعمل:

١- وصَّانا اللهُ تعالى في آياتِ هذا النصِّ بعَشْرِ وصايا لها أثر عظيم في إصلاحِ الفَرْدِ المسلم، وإصلاحِ المجتمع المُسلم.

٢- أوَّل الوَصايا العشرِ وأعظمُها توحيدُ الله وعَدَمُ الشرك بالله، وهذا هو الدِّينُ العظيمُ الذي أرسَلَ اللهُ به جميعَ الرُّسُلِ، وأنْزَلَ بِهِ الكتب كلَّها.

٣- الوَصِيَّةُ الثانيةُ التي تَلي الأولى في أهميتها الإحسانُ إلى الوالدين وعَدمُ عُقوقِهما، وقد جَرَى القرآنُ على اتباعِ الأمْرِ بعبادةِ الله بالأمرِ بالإحْسانِ إلى الوالدين.

٤- قَتْلُ الأبناءِ خوفَ الفقرِ جريمةٌ كُبرَى، تدلُّ على خَلَلٍ في الرَّأيِ، وضلالٍ في التصورِ والاعتقادِ، واللهُ هو الرزَّاق سبحانه، يرْزَقُ الآباءَ والأبناءَ.

٥- نهانا اللهُ تعالى عن قُربانِ الفواحِشِ وهي الذُّنوبُ والمعاصي التي بَلَغَتْ الغايةَ في الفُحْشِ سواءً كانت ظاهرةً مُعْلَنَةً، أو خَفِيَّةً باطِنَةً.

٦- نهانا ربُّنا عن قَتْلِ النَّفْسِ التي حرَّم اللهُ قَتْلَها إلاَّ بالحقِّ، ومرادُ الله بـ (الحق) أي: إذا كَفَرَ المرءُ بعد إسْلامِهِ، أو إذا قتل مُسْلِماً عمداً، أو إذا زنى وهو مُحْصَنٌ.

٧- من الظُّلْمِ والضَّلالِ العُدْوانُ على مالِ اليتيم، ومن أعظمِ القُرُباتِ عندَ الله رعايةُ اليتيمِ والحفاظُ على مالِهِ.

٨- إيفاءُ المِكْيالِ والميزانِ بالعَدْلِ مَظْهَرٌ حضاريٌّ مُشَرِّفٌ يُحِبُّهُ اللهُ تعالى، والتَطْفيفُ في الكَيْلِ والميزانِ جريمةٌ يُعذِّبُ اللهُ أصْحابَها في الدنيا والآخرة.

جنـــــة السـنـــــة

٩- يجبُ على المُسْلِمِ أن يقولَ العَدْلَ ويقْضي به ويَشْهَدَ بِهِ، فالعَدْلُ صفةٌ للأمة، وصفةٌ لرجالها ونِسائِها وحُكامِها ومَحْكُومِيْها.

١٠- من الوصايا العظيمة التي وصَّانا بها ربُّنا، الوفاءُ بعهودِنا معه ومع عبادِهِ.

١١- على المسلمينَ أن يلتزِموا بالإسلامِ ديناً وعقيدةً وشريعةً ومَنْهَجَ حياةٍ، فإن هُمْ اختلفوا واتَّبعوا السُّبُلَ التي اخْتَرَعها شياطينُ الجنِّ والإنسِ، تجزؤوا، وضَعُفُوا، وغَلَبَهُمْ أعداؤُهُمْ.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني السادس والعشرون من سورة الأنعام
أَنْزَلَ اللهُ تعالى القرآنَ ليكونَ حُجَّةً على الخلقِ

أولاً: تقديم

أنزلَ اللهُ كتابين عظيمين، الأول: أَنْزَلَهُ على موسى عليه السلام وهو التوراةُ، وقد جَعَلَه تامّاً، وأَحْسَنَ به إلى عَبْدِه موسى، وفيه تفصيل كلِّ شيءٍ، وهُدىً ورحمةً للمؤمنين.

والثاني: أَعْظَمُ كتبه وأَتَمُّها، وهو القرآنُ الذي أَنزَلَهُ على عبدِهِ ورسولِهِ محمد ﷺ، وهو حُجَّةُ الله على خَلْقِهِ، وسيُعاقَبُ الذين يكْفُرونَ به يوم القيامةِ عذاباً شديداً.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأنعام:١٥٤-١٥٨].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إنْعامُ اللهِ تعالى على موسى بإنزال الكتاب إليه:

أَمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ في آيات النصِّ السابق أنْ يتْلُوَ على الناسِ ما حرَّمَهُ ربُّه عليهم، فقَصَّ عليهم عَشْراً مما وصَّاهُمْ اللهُ تعالى به، ثُمَّ أخْبَرَنا بما آتاهُ اللهُ تعالى لموسى من الكتابِ تماماً على الذي أحْسَنَ، فقال: ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الأنعام:١٥٤].

وقوله: ﴿تَمَامًا﴾ أي: أعطى اللهُ تعالى موسى الكتابَ الذي أَنْزَلَهُ إليه تامّاً كامِلاً جامعاً لجميع ما يُحْتاجُ إليه من شَريعَتِهِ، وقوْلِهِ: ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ أي: جزاءً على إحْسانِهِ في العملِ، وقيامِهِ بأوامرنا وطاعتنا.

جنـــــة السـنـــــة

وقوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: أَنْزَلَ كتابَ موسى مُفَصَّلاً، أي: مُبيَّناً، بيَّنَ فيه العقائدَ والشرائعَ والأخْلاقَ، كما جَعَلَهُ ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ يهدي عبادَه بِهِ للتي هي أقْوَمُ، ويُحقِّقُ لهم بِهِ رحمته بالإيمانِ بالله وطاعته.

وقوله: ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ أي: أَنْزَلَهُ اللهُ تعالى على النحو الذي ذَكَرَهُ لعلهم يؤمنون بالله تعالى، ويؤمنونَ بالبَعْثِ بعد الموتِ.

٢- ثناءُ الله -تعالى- على القرآن الذي أنْزَلَهُ على رسولِنا ﷺ:

بعد أن أثنى اللهُ تعالى على كِتابِ موسى وهو التوراةُ، أَثْنى اللهُ تعالى على الكتابِ الذي أَنْزَلَهُ على عَبْدِه ورسولِهِ محمدٍ ﷺ، فقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام:١٥٥].

واللهُ تعالى يَقْرِنُ كثيراً بين التوراة والقرآن، كقولِهِ تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الأحقاف:١٢].

وقوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ﴾ المشارُ إليه القرآنُ الكريمُ، وقوله: ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ أيْ: أنزَلَهُ تعالى من عِنْدِه، وقوله: ﴿مُبَارَكٌ﴾ أي: كثيرُ البركاتِ والخيراتِ، ومِنْ بركاتِهِ أنَّ لقارئه بكلِ حَرْفٍ عَشْرَ حسناتٍ، ومن بركاته أنه يُعَرِّفُنا على العقائِدِ والأحكامِ والأخلاقِ، ويُعرِّفُنا بربِّنا وملائكتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليوم الآخر والجنةِ والنار، ويُعرِّفُنا بالأنبياءِ والرسلِ من قبلنا، ويهدينا إلى الجنة، ويُنْقِذُنا من النارِ.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ أي: اعملوا به، فأحِلُّوا حَلالَهُ، وحرِّمُوا حَرامَهُ، واعتقدوا عقائِدَه، واعتبروا بأمْثالِهِ.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ أي: اعملوا بطاعته، وذلك بفعل ما أمَرَكُمْ به، وترك ما نهاكم عنه، ليَرْحَمَكُمْ ربُّكم تبارك وتعالى.

٣- إبطالُ الشُّبَهِ التي يحتجُّ بها المشركون على ضَلالِهِمْ وكفرهم:

أخْبَرَنا العليمُ الخبيرُ -سبحانَهُ- أنَّهُ أنزلَ هذا القرآنَ على العَرَبِ بِلُغَتِهِمْ الفُصْحَى وهي العربيةُ، لِيُبْطِلَ ما يَحْتَجُّونَ به من حُجَجٍ ومعاذيرَ لعَدَمِ إيمانهم، قالَ تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام:١٥٦-١٥٧].

جنـــــة الســـــنة

والمعنى أنَ اللهَ تعالى أنزلَ على العربَ هذا الكتابَ العظيمَ بلُغتِهِمْ، وهي العربيةُ كراهية أنْ يحتجُّوا بحُجَجٍ باطلةٍ، فيقولوا: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ وكراهَةَ أنْ يقولوا: ﴿أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ أرادَ به جِنْسَ الكتابِ، والمرادُ به التوراةُ والإنجيلُ، كقوله تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ [آل عمران:١١٩]، أي: بالكُتُبِ كُلِّها. وأكثرُ المفَسِّرينَ على أنَّ المرادَ بالطائفتين اللذينِ من قبْلِنا هُمْ: اليهود والنصارى، والكتابُ الذي أُنْزِلَ عليهما: التوراةُ والإنجيلُ.

وقوله: ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ١٥٦﴾ أي: كُنَّا عن دراسة كُتُبِ هؤلاءِ غافِلين، لأنَّ لسانَ هؤلاءِ مخالِفٌ للسانِنا، فلا نعرفُ لغتهم، ولا نَفْقَهُها، فأنْزَلَ الله تعالى القرآنَ بلُغَتِنا التي نَفْقَهُها، ونَفْهَمُها، وقوله تعالى: ﴿لَغَٰفِلِينَ ١٥٦﴾ أصلُ الغَفْلَةِ السَّهْوُ وقلَّةُ التحفظِ، أيْ: تاركينَ لحقائقِ دينِ اليهودِ والنصارى.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي: إنْ ادَّعيتم هذه الدعوى، واحتججتم بهذه الحجةِ، فقد جاءَكم كتابٌ من ربِّكم بلسانِكم ولُغَتِكُمْ تعرفونَ معناه، والمراد بـ ﴿بَيِّنَةٌ﴾ القرْآن وهو الدليل الواضِحُ الذي لا لَبْسَ فيه. وقد هدَّدَ اللهُ تعالى المشركينَ بقولِهِ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ١٥٧﴾ [الأنعام:١٥٧] أخبرنا اللهُ تعالى في هذه الآية أنّه لا أحَدَ أظْلَمُ، أيْ: أعْظَمُ الناس ظلماً الذين كذَّبوا بآيات الله تعالى، وصَدَفُوا عنها، أي: أعْرَضُوا عنها، وأخبرنا -سبحانه- أنه سيجْزي الذين يَصْدِفونَ عن آياتِهِ، أي: يَصُدُّونَ الناسَ عن الإيمانِ بها سوءَ العذابِ، أيْ: العذاب السيءِ، وهو الشديدُ المضاعَفُ بسببِ إعراضهم عن الحقِّ ومَنْعِهم الناس من اتباعه.

٤- الزمانُ الذي يُقْبَلُ فيه إيمانُ العَبْدِ:

وجَّهَ اللهُ -تعالى- السؤالَ إلى الكُفَّارِ المشركينَ الذين يَصُدّونَ عن آياتِ الله قائلاً: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٥٨﴾ [الأنعام:١٥٨].

والسؤال في قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ معناهُ النفي، أي: أنهم يُكَذِّبونَ بما ذكره اللهُ -تعالى- في الآية، ومعنى: ﴿يَنظُرُونَ﴾ ينتَظِرون،، والعَرَبُ تُطلِقُ (نظر) بمعنى انتظر، كما قال تعالى في آخر الآية: ﴿قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨)﴾ .

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: تأتيهم الملائكةُ بالموتِ لقبضِ أرْواحِهِمْ، ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ قال ابن جرير: «أو أنْ يأْتِيَهُمْ ربُّكَ يا محمدُ بينَ خَلْقِهِ في موْقِفِ القيامةِ» [٤/ ٣٤٠٩]، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢)﴾ [الفجر٢٢]، وقولُهُ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [البقرة:٢١٠]، ويكونُ مجيءُ الله تعالى في ذلك اليوم لفصل القضاء بين العباد.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ والمرادُ ببعضِ الآياتِ المذكورُ في الآيةِ هو الآياتُ التي إذا جاءَتْ لا يُقْبَلُ معها من الكافِرِ إيمانٌ، ولا يُقْبَلُ من عاصٍ توْبَةٌ، لقوله تعالى في هذه الآية بعد ذلك: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ وهذه الآيةُ التي لا يُقْبَلُ من الكافِرِ معها إيمانٌ، ولا يقبل من عاصٍ توبةٌ هي خروجُ الشمسِ من مغربها.

وقد دلَّ على ذلكَ أحاديثُ كثيرةٌ، منها ما رواه أبو هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ : «تقومُ الساعةُ حتى تَطْلُعَ الشَّمْسُ من مغرِبِها، فإذا رآها الناسُ آمَنَ من عَلَيْها، فذاكَ حينَ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ﴾» [البخاري: ٤٦٣٥. ومسلم: ١٥٧].

وعن أبي هريرةَ ﷺ ، قال: قال رسولُ الله ﷺ : «لا تقومُ الساعةُ حتى تَطلُعَ الشمسُ من مَغْرِبِها، فإذا طَلَعَتْ ورآها الناسُ آمَنوا أجمعونَ وذلكَ حينَ لا يَنفَعُ نَفْساً إيمانُها» ثم قرأ الآية [البخاري: ٤٦٣٦. ومسلم: ١٥٧].

وجاء في الحديث الذي يرْويهِ أبو هريرة قال: قالَ رسولُ الله ﷺ : «مَنْ تابَ قبلَ أنْ تَطْلَعَ الشمسُ من مغْرِبها تابَ اللهُ عليه» [مسلم: ٢٧٠٣].

وجاءَ في الحديثِ الذي يُخْبِرُ فيه الرسولُ ﷺ عن اليوم الذي لا يُؤْذَنُ فيه للشمسِ بالشروقِ من جَهَةِ المشرقِ، وتأمرُ بالطلوع مِنَ المغربِ وقالَ رسولُ الله ﷺ مخاطباً أبا ذر: «أتَدْرِي متى ذاكُمْ؟ ذاكَ حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨]» [مسلم: ١٥٩].

جنــــة السـنـــة

وعن صَفْوانَ بن عَسَّالٍ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَ اللهَ فَتَحَ باباً قِبَلَ المَغْرِبِ عَرْضُهُ سَبْعُونَ عاماً للتَّوْبَةِ، قال: لا يُغْلَقُ حتى تَطْلُعَ الشمسُ من مغرِبِها» قال محقق ابنِ كثير: أخرجه الترمذيُّ، وقال: حسن صحيح، وابنُ ماجة وأحمدُ والطبريُّ].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النص وجدْناها تهْدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أثْنَى اللهُ -تعالى- على الكتابِ الذي أنْزَلَهُ على نبيِّهِ موسى، فهو كتابٌ مُبَيَّنٌ فيه الحَلالُ والحرامُ والشرائعُ وهدىً ورحمةً للمؤمنين.

٢- أثنى اللهُ تعالى على الكتابِ الذي أنْزَلُه على عَبْدِهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ ، فذكر أنه كتابٌ مباركٌ، وأمَرَنا باتِّباعِهِ والعملِ بِهِ لعلَّه يرحمنا.

٣- أنزل اللهُ تعالى القرآنَ على العَرَبِ حتى لا يُبْقِي لهم حُجَّةً على الله تعالى، فلا يقولون لله تعالى: لم تُنْزِلْ علينا كتاباً، وإنَّما أُنْزِلَ الكتاب على اليهودِ والنصارى مِنْ قبلنا، ونحن لا نعرف ما أُنْزَلَ إليهم، لأننا نجْهَلُ لغتَهُمْ، ولكي لا يقولوا لو أُنْزِلَ علينا كتابٌ لكنَّا أهْدى مِنْهُمْ.

٤- القرآنُ حُجَّةُ الله على خَلْقِه فمَنْ بلَغهُ فلا تَبْقَى له حُجَّة ولا يُقْبَلُ منهُ اعتراض.

٥- سيُعاقِبُ اللهُ الكفارَ الذين يُكَذِّبُونَ القرآنَ، ويُعرِضُونَ عنه بالعذاب الذي بلغ الغايةَ في السوءِ.

٦- سيقَعُ بالكفار أهوالٌ عظيمةٌ، فالملائكةُ تتنزل عليهم، فتقبض أرْواحَهُم عندما يَحِلُّ بهم الموتُ، واللهُ تعالى سيأْتي للفَصْلِ بين العباد في يوم القيامةِ، وعندما تطلع الشمسُ من مغْرِبِها لا ينفَع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني السابع والعشرون من سورة الأنعام
المنهجُ الأمْثَلُ الذي كان عليه رسولُنا ﷺ

أولاً: تقديم

أَخْبَرنا ربُّنا في هذه الآياتِ أنَّ الناسَ في عالَمِ البَشَرِ مختلفون متنازعون في أدْيانِهِمْ، فمِنْهُمُ الذي يَعْبُدُ شجراً، ومِنْهُمُ الذي يَعْبُدُ حَجَراً، ومنهم الذي يعبدُ النجومَ والشمسَ والقَمَرَ، ورَسولُنا ﷺ لا يَدْخُلُ في شيءٍ من الأدْيانِ المختلفةِ المضطربة المُتنازِعَةِ، واللهُ سيُحاسبُ هؤلاءِ جميعاً يومَ القيامة.

وبَعْدَ أنْ بيَّنَ اللهُ تعالى لنا قاعدة الحِسابِ في يومِ الجزاء، أمَرَ رَسولَه ﷺ أن يبينَّ الدِّينَ الذي يتّبِعُهُ، ويسيرُ عليه، فهو دينٌ مستقيمٌ هداه اللهُ إليه، وهو الدينُ القيِّمُ الذي كان عليه نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام، وهو يجعلُ كُلَّ حياةِ الرسولِ لله تعالى، في الصلاةِ والذَّبح والحياة، والموت لله وَحْدَه. وهو لا يبْغي غيرَ الله ربّاً، وكُلُّ إنسان يُحاسَبُ يومَ القيامةِ على فِعْلِهِ، ولا يَحْمِلُ وِزْرَ غيرْه.

وأعْلَمنا ربُّنا أنَّهُ جَعَلَنا خلائف الأرضِ، ورَفَعَ بعْضَنا فوقَ بعْضٍ درجات، ليَخْتَبِرَنا فيما أعْطانا سبحانه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ
يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ
﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ
إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾
قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ
رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ
فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾

[الأنعام: ١٥٩-١٦٥].

جنـــــة السـ ـــــنة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ذَمَّ الله تعالى الذين افْتَرَقوا واختلفوا في دينهم:

الناسُ في عالمِ البشر مختلفون مُتنازِعون في الأدْيان التي يتَّبِعونها، ورَسُولُنا ﷺ ليسَ في شيءٍ من هذه الأديانِ التي يموجُ بها عالمُ البشَرِ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٥٩]. والأدْيانُ التي انْقَسَمَ إليها الناسُ في عالمِ البَشَرِ كثير، كاليهوديَّةِ، والنصرانيةِ، والمَجوسيَّةِ، وعُبَّادِ الأصنامِ، والصابئةِ، والبوذيةِ، والشيوعية، وغيرها.

والشِّيعُ: جَمْعُ شِيعَةٍ، والشِّيْعَةُ القَومُ يكونون على دينٍ مِنَ الأديانِ، يُعاضِدُ بعضُهُمْ بعضاً فيه.

قال ابنُ كثير: «الظاهِرُ أنَّ الآيَة في كُلِّ من فارقَ دين الله، وكان مخالفاً له، فإنَّ اللهَ بعثَ رسولَه ﷺ بالهُدى ودينِ الحقِّ ليُظْهِرَهُ على الدينِ كلِّه، وشَرْعُهُ واحدٌ لا اختلافَ فيهِ ولا افْتِراقَ» [ابن كثير: ٣/ ١٢٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ معناه: أنتَ بريءٌ منهم، وهُمْ بُرَآءُ منكَ، لستَ على دينهم، وليْسوا على دينِكَ، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: مصيرُهُمْ ومَرْجِعُهُمْ إلى ربِّهم، فيحاسَبُهم على ما عَمِلوهُ، وقدّموه، وقوله: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ أي: يُخْبِرُهُمْ اللهُ تعالى يومَ القيامة بما كانوا يفعلونَهُ، والنبأُ في اللغةِ الخبرُ العظيمُ، ومِنْ أخبارِهِمْ ما ذكره اللهُ تعالى في قولِه: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء:١٤].

٢- قاعدةُ الحِسابِ والجَزاء:

ربُّنا واسعُ العطاءِ عَظيمُ المِنَّةِ، يعطي بالحسنة الواحدة عشرَ حسناتٍ، وقد يزيدُ، فيُعْطِي بالحَسَنةِ سبعَمائةِ ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرة، أما السيئةُ فهو سبحانه عَدْل يجْزي بالسيِّئةِ سيئةً واحدةً قال سبحانه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام:١٦٠].

وقد جاءَتِ الأحاديثُ موضِّحَةً ذلك، ومفصِّلة القولَ فيه، فعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «إنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسناتِ والسيِّئاتِ، ثم بيَّنَ ذلك، فمَنْ هَمَّ بحَسَنَةٍ فلمْ يَعْمَلْها كَتَبها اللهُ له عِنْدَهُ حَسَنَةً كاملةً، فإنْ هُوَ هَمَّ بها فعَمِلَها كَتَبها اللهُ له عَشْرَ حسناتٍ إلى سبعمائةِ ضِعْفٍ إلى أضْعافٍ كثيرةٍ، ومن همَّ بسيئةٍ فلم يعمَلْها كَتَبها اللهُ له عندهُ حَسَنَةً كاملَةً، فإنْ هُوَ هَمَّ بها فعَمِلَها كتبها اللهُ له سيئةً واحدةً» [البخاري: ٦٤٩١. ومسلم: ١٣١].

جنـــــة الســــــنة

وروى أبو ذرٍّ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: مَنْ جاءَ بالحسنةِ فلَهُ عَشْرُ أمثالِها وأزْيَدُ، ومَنْ جاء بالسيئةِ، فجزاءُ سيئةٍ مِثْلُها أوْ أغْفِرُ، ومنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْراً، تقَرَّبتُ منه ذِراعاً، ومن أتاني يَمْشي، أتَيْتُهُ هَرْوَلةً، ومن لَقِيَني بقُرابِ الأرضِ خطيئةً لا يُشْرِكُ بي شيئاً، لَقيتُه بمثْلِها مغْفِرَةً» [مسلم: ٢٦٨٧].

٣- الدينُ الذي هَدَى اللهُ إليه رسولَهُ ﷺ:

أمَرَ اللهُ -تعالى- رَسولَه ﷺ أنْ يُعْلِنَ للناسِ المنهجَ الذي يتَّبِعُهُ، وهذا المنهجُ لَيْسَ مُخْتَرَعاً من عِنْدِهِ، بل هداهُ اللهُ تعالى إليهِ، ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام:١٦١]. أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أن يقولَ للناس: إنَّ اللهَ تعالى هَداني إلى صراطٍ مستقيمٍ، والصراطُ المستقيمُ هو الذي لا عَوَجَ فيه، وهو الذي كان عليهِ الأنبياءُ والمرسلون، وهو الذي أمَرَنا أنْ ندعوه به عندما نقرأ الفاتحة بقوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة] والذين أنْعَمَ اللهُ عليهم هُمْ الذين حدَّثنا عنهم بقوله: ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء:٦٩].

والصراطُ المستقيمُ هو القرآنُ، وهو الإسلامُ الذي جاءَ به القرآنُ.

وقوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ﴾ بيَّن اللهُ تعالى الصراطَ المستقيمَ بقوله: ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ﴾ وأصحُّ ما قيل في إعراب ﴿دِينًا﴾ أنه بَدَلٌ من قوله، ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لأنه مجرورٌ في محلِّ نصبٍ، والأصلُ: هداني ربي صراطاً مستقيماً ديناً.

وقوله: ﴿قِيَمًا﴾ مَصْدَرٌ بمعنى القيامِ نُعِتَ بهِ مبالغة، وبالَغوا فيه حتى جَعَلوه عَيْنَ القَيِّمِ، أي: المستقيم أو المقوِّم لأمور الناسي.

وقوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ المِلَّةُ: الشريعةُ والطريقةُ، و﴿مِّلَّةَ﴾ بدل من الدين، إبراهيم هو عبدُالله ورسولُهُ وخَليلُه، الذي جَعَلَهُ اللهُ تعالى إماماً للناس ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًاۖ﴾ [البقرة:١٢٤] وقد أمَرَ اللهُ رسولَنا ﷺ باتباعِ إبراهيم ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ﴾ [النحل:١٢٣]. وملةُ إبراهيم عليه السلام خيرُ مِلَّةٍ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥۚ﴾ [البقرة:١٣٠].

جنـــــة السـنــــة

وقوله: ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائلاً عن الشِّرْكِ، مستقيماً على الإيمانِ.

وقوله تعالى عن إبراهيمَ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ يدل على غَلَطِ بعضِ كبارِ العلماء كابن جرير الطبريِّ وابن عباس عندما زعموا أنه كان مشركاً عندما رأى الكوْكَبَ فقال: هذا ربي ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام:٧٦]. وهذا القولُ يعارِضُ قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [راجع: العذب النمير: ٢/ ٦٢١].

٤- قَصْرُ الرسولِ ﷺ عبادَتَهُ وحياتَهُ ومماتَهُ على ربِّه:

أمَرَ الله تعالى رسولَهُ ﷺ أن يبينَ للناسِ تمامَ منْهَجِهِ وطريقه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ للكُفَّارِ المجرمينَ الذين كانوا يعْبُدونَ الأصنامَ، ويذْبَحونَ الذبائحَ لها وباسمها: إنَّ جميعَ عبادِتي لله ربِّي، ومِنْ ذلك صَلاتي، فإنَّها لله تعالى، وكذلك نُسُكِيْ فإنِّي أذبحه لله وَحْدَه، وباسم الله سبحانه، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر:٢].

وأمَرَهُ تعالى أنْ يجْعَلَ حياتَهُ وقْفاً على الله تعالى، ويجعل مماتَه في سبيل الله تعالى، فلا يموتُ في سبيلِ شياطينِ الجنِّ والإنسِ، بل في سبيلِ الله تعالى.

وهذا يوجب على العباد أن يخلصوا دينهم لله تعالى، فلا يجعلوا مع الله شريكاً، ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ وبهذا أُمِرَ رسولُنا ﷺ وبهذا أمَرَنا ربُّنا، وأمرهُ اللهُ تعالى أنْ يقولَ: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ فالرسولُ ﷺ سابقُ أُمَّتِهِ إلى الإسلامِ.

وكان رسولنا ﷺ يفتتح بهاتين الآيتين وآيةٍ أخرى من هذه السورة صلاةَ القيام، فعن علي بن أبي طالبٍ، عن رسول الله ﷺ ، أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام:٧٩]، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣]. اللهمَّ! أنتَ المَلِكُ لا إلهَ إلا أنتَ، أنتَ ربي وأنا عبدُكَ، ظَلَمْتُ نفسي، واعترفْتُ بذنبي، فاغْفِرْ لي ذُنوبي جميعاً، إنه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ، واهْدِني لأحْسَنِ

جنـــــة السـ ـــــنة

الأخلاقِ، لا يهدي لأَحْسَنِها إلا أنْتَ، واصرِفْ عني سيئَها، لا يصرِفُ عني سيِّئَها إلا أنتَ، لبَّيْكَ! وسعْدَيْكَ! والخيرُ كُلُّهُ في يدَيْكَ، والشرُّ ليسَ إليكَ، أنا بِكَ وإليكَ، تباركتَ وتعاليْتَ، أستغْفِرُكَ وأتوبُ إليكَ [مسلم: ٧٧١].

٥- كلُّ إنسان يؤاخذ يوم القيامة بعمله ولا يؤاخذ بجريرة غيره:

دعا الكفارُ المشركون الرسولَ ﷺ إلى أنْ يعْبُدَ آلهتَهُمْ وأصْنامَهُمْ، فأمَرَهُ اللهُ -تعالى- أن يخاطبهم مِنكراً عليهم، فيقول: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام:١٦٤].

وهذا السؤالُ الذي أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أن يوجِّهَهُ إلى الكفارِ المشركين، فيه إنكارٌ عليهم، وتوبيخٌ لهم، إذْ كيفَ يجوزُ له أن يطلب رباً غير الله، وهو ربُّ كل شيءٍ، أيْ: هو -سبحانُه- الخالِقُ البارئُ المربِّي المُدبِّرُ، له الخلقُ والأمْرُ، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ أيْ: أنَّ كلَّ نفس تُجْزَى يوم القيامة بعمَلِها، إنْ خيراً فخيرٌ، وإن شرّاً فشرٌّ، ولا يحمِلُ أحَدٌ عن أحدٍ شيئاً، كما قال ربُّ العزة: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر:١٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تُؤخَذُ نَفْسٌ آثمة بإثمِ أخرى، وأصْلُ الوِزْرِ في اللغة: الثِّقْلُ، ثم استعمل فيما يَحْمِلُهُ مِنَ الذنوب ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾ [الشرح:٢-٣].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام:١٦٤] أي: مرجِعُكُمْ جميعاً إلى الله تعالى المؤمنونَ والكفارُ، وسيُخْبِرُ اللهُ تعالى كلَّ واحدٍ من الفريقين فما كانوا فيه يَخْتَلِفونَ، أي: ويَحْكُم بينَهُمْ بالحقِّ، فيَحْكُمُ بينهم بالإله الذي كانوا يعْبُدُونَه، والدِّينِ الذي يدينونَ له، والرسولِ الذي يتَّبِعُونَهُ.

٦- جعل اللهُ تعالى عِبادَه خلائفَ الأرضِ ليبْتَلِيَهُمْ ويخْتَبِرَهُمْ:

أعْلَمنا ربُّنا وهو العليمُ الخبيرُ سبحانه أنه جَعَلَنا خلائفَ الأرضِ، ورفع بعْضَنا فوقَ بعضٍ بدرجاتٍ، ليبلونا فيما أتانا ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام:١٦٥].

جنـــة الســـــنة

وقد تضمَّنَتْ هذه الآيةُ سنَّةً من سُنَنِ الله في خلْقِهِ، فاللهُ خَلَقَ خليفةً في الأرض هو آدمُ ﷺ، وخَلَقَ منه زوجَهُ حواءَ، وبثَّ اللهُ ذرِّيَّتَهما في الأرض، وجَعَلَهُمْ خلائفَ في الأرض، فجَعَلَ اللهُ قومَ نوحٍ أولاً، فلما أهْلكهم أقامَ قومَ هودٍ بعدهم، كما قال نبيُّ الله هودٍ لقومِهِ وهو يعظهم: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف:٦٩]، وقال صالحٌ لقومِهِ: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف:٧٤].

ثم توالَتْ الأُمَمُ يتبعُ بعضُها بعضاً ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ [المؤمنون:٤٤] حتى كانت الأُمَّةُ الإسلاميةُ آخرَ الأُمَمِ بعثاً، ولن تكونَ أمَّةٌ بعْدَها، ولن يُرْسِلَ اللهُ رسولاً بعد رسولها.

وقد جَعَلَ اللهُ تعالى من سنَّته في خلْقِهِ في الحياة الدنيا أنه ﴿رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ أي: فاوت بينهم في المال والجمال والقوة وجوْدَةِ النفس وجوْدَةِ العقل وغير ذلك، ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي: ليَخْتَبِرَكُمْ فيما أنْعَم بِهِ عليكم وامتحنكم به، فيَظْهَرُ الغنيُّ الشاكِرُ، والفقيرُ الصابرُ، والكافرُ الفاجرُ، وقد روى أبو سعيد الخُدريُّ، عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: «إنَّ الدنيا حُلْوةٌ خضِرَةٌ، وإنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُم فيها، فينظُرُ كيف تعملونَ، فاتَّقوا الدنيا، واتقوا النساءَ، فإنَّ أوّلَ فِتْنَةِ بني إسرائيلَ كانت في النساء» [مسلم: ٢٧٤٢].

وختم اللهُ تعالى هذه الآيةَ وهذه السورةَ بقولِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام:١٦٥]. أي: سريعُ العقابِ لمن كَفَرَ به وأشْرَكَ بِهِ، وغفورٌ رحيمٌ لمن أطاعَهُ، وأخْلَصَ الدينَ له، وفي هذا ترغيبٌ وترهيبٌ كما قال تبارك وتعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر:٤٩-٥٠].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا في آيات هذا النص نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الكفارُ منقسمونَ في أديانِهِمْ مختلفونَ فيها، ورسولُنا ﷺ والذين اتبعوهُ على دينِهِ بعيدون عن هؤلاءِ المخْتَلِفين في دينهم.

٢- يُحاسِبُ اللهُ تعالى الناسَ على اختلافِ أديانهم في يوم الدين.

٣- قاعدةُ الجزاءِ عند الله -تعالى- في يومِ الدينِ أنَّ الحسنةَ بعشْرِ أمثالها، والسيئةَ بمثلها، وقد يضاعِفُ اللهُ تعالى الحسنات.

٤- أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أن يُعْلِنَ دينَهُ وطريقَتَهُ التي هي النموذجُ الأرْقَى والأعْلَى الذي رضيَهُ ربُّ العِزَّةِ، فهو سائرٌ على الصراطِ المستقيم، ودينُه دينٌ قويمٌ، وهو متَّبعٌ مِلَّةَ إبراهيمَ مائلاً عن الشِّرْكِ مستقيماً على التوحيد، وعبادَتُه وذَبْحُهُ وحياتُه وموْتُه لله ربِّ العالمين، لا شريكَ له في ذلك، وهو أوَّلُ المسلمين.

٥- المعبودُ الذي لا يَعْبُدُ رَسولُنا ﷺ أحَداً غيرَهُ هو ربُّ كلِّ شيءٍ وخالِقُهُ ومالكه.

٦- القاعدة العظيمةُ عندَ ربِّ العزةِ في الجزاءِ أنْ لا تُؤْخَذُ نَفْسٌ بجَريرةِ أُخرى، ولا يُحَمَّلُ أحدٌ وِزْرَ غيرِهِ.

٧- جَعَلَ اللهُ البشَرَ فَوْقَ ظَهر هذه الأرض خلائفَ، أُمَّةٌ تَذْهَبُ، وأُخرى تأتي، وهو يبْتَلي كلَّ أُمَّةٍ، ويختبِرُها بالدينِ الذي يُنْزِلُهُ إليها.

جنـــــة الســـــنة

سُورَةُ الأَعْرَافِ

التعريف بهذه السورة

قال السيوطيّ: «أَخْرَجَ ابنُ الضريسِ والنَّحاسُ في (ناسِخِهِ) وابنُ مَرْدَوَيْهِ والبيهقيُّ في (الدلائل) من طُرُقٍ عن ابنِ عباسٍ قال: سورةُ الأعراف نَزَلَتْ بمكة».

وأَخْرَجَ ابنُ مَرْدَوَيْه عن عبدالله بن الزُّبيرِ قالَ: «أُنْزِلَ بمكَّةَ الأعرافُ» [الدر المنثور: ٣/ ٤١٢].

وقال أبو عمروٍ الدانيُّ: «وكَلِمُها ثلاثةُ آلافٍ وثلاثمائةٍ وخمسٌ وعشرونَ كَلِمةً، وحروفُها أَرْبَعَةَ عَشَرَ أَلْفاً وثلاثمائةٍ وعَشْرَة أَحْرُفٍ. وهي مائتانِ وخمس آياتٍ في البصريِّ والشاميِّ، وستٌّ في المدنيَّيْنِ والمكيّ والكوفيّ» [البيان في عَدّ آي القرآن: ص١٥٥].

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الأول من سورة الأعراف
لا يجوز أن يكون في صدورنا حرج من القرآن

أولاً: تقديم

خاطَبَ اللهُ تعالى رَسولَهُ ﷺ وفي ذلك خِطابٌ لأُمَّتِهِ، مُخْبِراً إيّاهُ أنَّهُ أنْزَلَ إليهِ القُرْآنَ الكريمَ، ونَهاهُ أنْ يكونَ في صَدْرِهِ حَرَجٌ منْهُ، وبيَّنَ الغايةَ من إنْزالِهِ، فهو مُنَزَّلٌ لِيُنْذِرَ الكفارَ، ويُذَكِّرَ المؤمنينَ.

وأمَرَ اللهُ -تعالى- العِبادَ أنْ يَتَّبِعُوا ما أُنزِلَ إليهِم من ربهم، ونهاهم عن مُتابعَةِ الآلهةِ التي تُعْبدُ من دونِ الله تعالى، وحَذَّرَهم مصيراً كمصيرِ الأُمَمِ السابقة، التي كَفَرتْ فجاءَها عذابُ الله لَيْلاً وهُمْ بائتُونَ، أوْ في منتصفِ النهارِ وهم قائلون، فاعْتَرَفُوا بظُلْمِهِمْ، والعَذابُ يحيطُ بهم.

وحدَّثَنا عمّا سَيَفْعَلُهُ في يومِ الدينِ بعباده الصالحين والطالحين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾
ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا
فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾
فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾
وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ
قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأعراف: ١-١٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الحروفُ المُقطَّعةُ في أوائل السورِ:

ذهب بعضُ المفسرين إلى أنَّ هذه الحروف الثلاثة مأْخوذة من اسم الله: (المصور) لكنَّ هذا التفسير لم يَقُمْ عليه دليلٌ، وقد يفتحُ القولُ بهذا البابِ للباطنيةِ والزنادقةِ كي يفسِّروا القرآنَ بالتأويلاتِ الباطلة.

جنـــــة الســـــنة

وقد بيَّنْتُ في تفسير أول البقرة أنَّ المرادَ بهذه الأحرف حروفُ اللغةِ العربية التي يتكون منها القرآنُ، فكأنَّه قالَ لهم: هذا القرآن الذي لا تستطيعون الإتيان بمثلِ سورة قصيرةٍ من سوره مكوَّنٌ من هذه الحروفِ وأمثالها.

ويدلُّ على صحةِ هذا القولِ الحديث الذي أخْبَرَ الرسولُ ﷺ فيه أنَّ لكلِّ من قرأ حرفاً من كتابِ الله عَشْرُ حسناتٍ، وأخْبَرَ فيه أنَّ (الٓمٓ) ليستْ حرفاً واحداً، بل ألِفٌ حرفٌ، ولامٌ حرفٌ، وميمٌ حَرْفٌ [الترمذي: ٢٩١٠].

ويدلُّ لصحةِ هذا القولِ أنَّ أكثر السورِ المفْتتحة بالحروفِ المقطعة لم يذكرْ منها سورةٌ إلا وجاء بعْدَها التنويهُ بشأن القرآنِ ولم يُسْتَثْنَ من هذا إلا سورٌ قليلةٌ، ففي البقرة قال ربُّ العزة ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ﴾ [البقرة١-٢] وفي هذه السورة الأعراف قال: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف:١-٢].

٢- نَهْيُ الله -تعالى- رسولَه أنْ يكونَ في صَدْرِهِ حَرَجٌ مِنَ القرآن:

أخْبَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أنّه أنْزَلَ إليه كتابَهُ، وهو القرآنُ العظيمُ، ونهاه أنْ يكون في صَدْرِهِ حَرَجٌ منه، وبيَّن له الغايةَ مِنْ إنزاله: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾ [الأعراف:٢].

وأصحُّ ما فُسِّرَ به الحَرَجُ المنهيُّ عنهُ في الآية: الشَّكُّ، أي: فلا يكن في صَدْرِكَ شكٌّ منه، وهذا قولُ جمهور المفسرين، وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ۝١٤٧﴾ [البقرة:١٤٧] أي: فلا تكونَنَّ من الشاكينَ، وقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ [يونس:٩٤]. وسُمِّي الشكُّ حَرَجاً، لأنَّ الشاكَّ قَلِقٌ صَدْرُهُ ضَيِّقٌ غير مطمئن.

ومتى آمَنَ المرءُ بالكتابِ كِلِّه ارْتَفَع عنه الحرجُ كُلُّه، فإنْ آمَنَ ببعْضِهِ، ولم يُؤْمِنْ ببعْضِهِ بقيَ الحرجُ فيما لم يؤمن به، فالذي يَزْعُمُ أنَّ القرآنَ مخلوقٌ أصابهُ الحرجُ عندما يقرأ الآياتِ التي تُقَرِّرُ أنَّ القرآنَ كلامُ الله.

والذي يُنْكِرُ أنْ يكونَ اللهُ تعالى عالٍ على خلقه فوقَ سماواتِهِ، يقعُ الحَرَجُ في قلْبِهِ عندما يتلو الآياتِ المُثْبِتَةِ لِعُلُوِّ الله تعالى.

والذي يرفضُ الإقرارَ بصفاتِ الله تعالى كالاستواء على العرشِ، والنزولِ إلى السماءِ الدنيا في آخر الليل ونحو ذلك، يضيقُ صَدْرُهُ عندما يقرأُ هذه النصوص في الكتابِ والسنّة.

جنـــــة السـنــــــة

والذي آمن بالكتابِ والسنّةِ على الوجْهِ الحقِّ لا يبقى لديهِ حَرَجٌ من شيءٍ مِنَ القرآنِ.

ومن المعلوم أنَّ الرسولَ ﷺ لا يمكن أنْ يكونَ في صَدْرِهِ حَرَجٌ من القرآنِ بحالٍ من الأحوال، والمرادُ بالخطاب الموجَّه إليهِ هو أمتُهُ، من بابِ قولِ العربِ: إيَّاكِ أعْني واسْمَعي يا جارةُ.

٣- الغايةُ من إنْزالِ اللهِ القرآن على رسولِهِ ﷺ:

بيَّنَ اللهُ -تعالى- لرسولِهِ ﷺ الغايةَ التي أُنزِلَ القرآنُ مِنْ أجْلِها، فقال: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [الأعراف:٢] فالقرآنُ مُنْزَلٌ من عند الله تعالى لِيُنْذِرَ الكافرين، وذِكْرى للمؤمنين.

والقومُ الذينَ أُنزِلَ القرآنُ لإنْذارِهِمْ هُمْ جميعُ الإنْسِ والجَنِّ، لأنه مُنَزَلٌ للثقلَيْنِ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان:١].

والإنْذارُ: الإعْلامُ المُقْتَرِنُ بتهديدٍ، فكُلُّ إنذارٍ إعلامٌ، وليسَ كُلُّ إعلامٍ إنذاراً، والمعنى المرادُ أنَّ الله تعالى أنْزَلَ القرآنَ العظيمَ، ليخوِّفَ بِهِ عبادَه عقابَ ربِّهم وخالِقِهم سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ والمؤمنونَ في الشَّرْعِ: الذينَ آمنوا بقلوبِهِمْ، وأقرُّوا بالإيمان بألْسِنَتِهِمْ، وعَملوا الطاعات بجوارِحِهِمْ، فهؤلاءِ أنزلَ اللهُ القرآنَ ذكرى لهم، يذكِّرهم بربِّهم، ويُذَكِّرُهم بحقِّ غيرِهم، ويذكرهم بالمرجع والمصير.

٤- أوْجَبَ اللهُ -تعالى- علينا أنْ نتَّبِعَ ما أُنْزِلَ إلينا من ربِّنا:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- جميعَ عبادِهِ أنْ يتَّبِعُوا جميعَ ما أُنْزِلَ إليهم من ربِّهِمْ، ونهاهُمْ -سبحانه- أن يتَّبِعُوا من دونِهِ أولياء، وهُمُ الشركاءُ من شياطينِ الجنِّ والإنس، والآلهةُ التي يعبدونَها من دون الله ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الأعراف:٣].

وهذا الأمرُ في قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟﴾ للوجوبِ، أوجب علينا أنْ نتَّبعَ ما أنْزَلَهُ اللهُ إلينا في كتابه وسنّة نبيِّه، قالَ القرطبيُّ: «اتبعوا ملةَ الإسلام والقرآنِ، وأحلُّوا حلالَهُ، وحرِّموا حرامَهُ، وامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، ودلت الآية على تَرْكِ اتباعِ الآراءِ مع وجودِ النصِّ» [القرطبي: ٤/ ١٤٢].

جنـــــة السـنـــــة

والأولياءُ في لغة العرب: جمع وَلِيٍّ، والوَلِيّ: كُلُّ مَنْ انعقدَ بينَك وبينه سببٌ يَجْعَلُك تواليه ويُواليك، ولذلك كان اللهُ وليَّ المؤمنين، والمؤمنونُ أولياءُ الله. وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ أيْ: تتذكرون تذكراً قليلاً لا يجدي، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [يوسف:١٠٦].

٥- **تهديدُ اللهُ الكفارَ المشركين بالعذاب الأليم:**

أمَرَنا ربُّنا الحليمُ العليمُ سبحانه أنْ نتبعَ ما أُنزلَ إلينا من ربِّنا، ونهانا أنْ نتَّبعَ وليّاً من الأولياءِ من دونِهِ، ثمَّ أعلمنا -سبحانه- أنّه أهْلَكَ كثيراً من القرى فيما مضى بسبب كُفْرِهِمْ وتمردِّهم على ربِّهم -تبارك وتعالى- فقال: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ۝٤﴾ [الأعراف:٤].

﴿وَكَم﴾ التي في مَطْلَعِ الآية خَبَرِيَّةٌ للتكثير، أي: أهْلَكْنا عدداً كبيراً مِنَ القُرى فيما مَضَى، وإذا دَمَّرَ اللهُ القرية دَمَّرَ أهْلَها، فقدْ دَمَّرَ اللهُ تعالى قرى قوم نوحٍ، وقوم هودٍ، وقوم صالحٍ، وقوم لوطٍ، وقومِ شعيبٍ، وغيرهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩﴾ [الطلاق:٨-٩].

وقال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ۝٤٥﴾ [الحج:٤٥]. وقال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ۝١٣ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝١٤ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ۝١٥﴾ [الأنبياء:١١-١٥].

وقولُهُ: ﴿أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ الفاءُ في قولِهِ: ﴿فَجَاءَهَا﴾ حَرْفُ تعْقيبٍ، وما بَعْدَها آتٍ بعدَ ما قَبْلَها، وعلى ذلك فقد جَعَلَ مجيءَ البأْسِ كأنّه واقعٌ عَقْبَ الإهْلاك، ومجيءُ البأسِ ليس واقعاً عَقْبَ الهلاكِ، بل مجيءُ البأسِ، هو عَيْنُ الهلاكِ، وقد ذَهَبَ كثيرٌ مِنَ المُفَسِّرينَ إلى أنَّ المرادَ بقوله: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ أرَدْنا إهْلاكَها، والذي حَقَّقَه الشيخُ محمدُ الأمين الشنقيطيُّ أنَّ الفاءَ تفسيرِيَّةٌ، يؤتى بها بيْنَ كلِّ فِعْلَينِ معناهُما واحد، فيُرَتِّبون بينَهُما ما شاؤوا بالفاءِ، ومثالُ ذلك أنْ تقولَ: توضأ فغَسَلَ وجْهَهُ ويَدَيْهِ ورِجْلَيْهِ، فالفاءُ في (فَغَسَلَ) تفسير لتَوَضأ، وعلى ذلك فمجيءُ البأسِ في الآيةِ هو تفسير للهلاك [العذب النمير: ٣/ ٥٦].

جنـــــة السـنـــــة

وقوله تعالى: ﴿بَيَـٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤﴾ أي: يأتيهم بأسُ الله في حالِ غَفْلَتِهم وراحَتِهِمْ، فأخْبَرَ أنَّه يأتِيهِمْ في الليلِ، وهو زَمَنُ السُّكونِ والراحةِ والنوم، كما جاءَ العذابُ قومَ لوطٍ، فقد جاءَهَمْ مع طلوعِ الفجر قبل أن يقوموا من نوْمِهِمْ، ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۝٨١﴾ [هود:٨١] أو يأتيهم العذابُ في وقْتِ القَيْلولَةِ، والقَيْلولةُ نومُ نصف النهار، وهو وقتُ الراحة عند العرب، وقد جاء العذاب قوم شعيب في مثل هذا الوقت، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ﴾ [الشعراء:١٨٩]. وقد تهدَّدَ اللهُ تعالى الكافرينَ أنْ يأتيهم العذاب في وقتِ البيتوتةِ أو وقت الضحى بقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝٩٧ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٩٨﴾ [الأعراف:٩٧-٩٨].

وقد أعْلَمَنا ربُّنا تبارك وتعالى أنَّه عندما أوقع بالكافرين بأْسَه، رفعوا عقيرَتَهُمْ بالدعاء وبأسُ الله يحيطُ بهم قائلين: إنا كنَّا ظالمين ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ۝٥﴾ [الأعراف:٥] وقوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ أيْ: لم يَكُنْ دعاؤُهم إلا الاعتراف بالذنبِ، والتوبةُ عند وقوعِ العذابِ لا تنفع أصحابَها.

وقوله: ﴿ظَـٰلِمِينَ﴾ جَمْعُ ظالم، والظالمُ: اسْمُ فاعل من الظُّلْم، والظُّلْمُ: وَضْعُ الشيءِ في غيرِ موْضِعِه، وأشَدُّ الظلمِ وأعْظَمُه الشِّرْكُ بالله تعالى، لأنَّ صاحِبَهُ وَضَعَ المخلوقَ المربوبَ في موضعِ الخالقِ عندما عَبَدَهُ مع الله ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان:١٣].

٦- سؤالُ الله تعالى الأممَ التي أرْسَلَ إليها رُسُلَهُ وسؤالُ المرسلين في يوم الدين:

أخبرنا ربُّنا العزيزُ العليم سبحانه أنه في يوم الدينِ سيَسْألُ الأمم التي أرْسَلَ إليها رُسُلَهَ عما أجابوا به رُسَلَهُ، وسيسْألُ رُسُلَهَ عن تَبْليغِهِمْ دينَه، ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف:٦-٧] ومما يدلُّ على مِثْلِ ما دَلَّتْ عليهِ هذه الآية قوْلُه تعالى: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ﴾ [المائدة:١٠٩] وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦٥ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ۝٦٦﴾ [القصص:٦٥-٦٦].

فإنْ قيلَ: كيفَ يسأْلُ اللهُ تعالى المُرْسَلَ إليهم عمّا أجابوا به الرُّسُلَ، واللهُ يقول: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٧٨﴾ [القصص:٧٨]، ويقولُ: ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝٣٩﴾ [الرحمن:٣٩].

جنـــــة السـنـــــة

والجوابُ: أنَّ اللهَ تعالى يسألُ الكُفَّارَ في ذلك اليومِ سؤالَ استخبارٍ واستعلامٍ واستكشافٍ، لأنَّهُ عالمٌ بذنوبهم قد سجَّلَها عليهم ولكنَّه يسْأَلُهم سؤالَ توْبيخٍ وتقريعٍ، فيقولُ لَهُم: ماذا أجَبْتُم المرسلين، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر:٧١].

وقوله تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾ أي: يُخْبِرُهُمْ اللهُ تعالى في يومِ الدينِ بما فَعَلُوهُ في الدنيا، فيقول: يا عَبْدِيْ فلان، أأنتَ فعلتَ في الدنيا كَذا، وفَعَلْتَ كذا، حتى يأتي على جميع عَمَله، ويقصُّ عليهم جميعَ أَعْمالِهِمْ التي عَمِلوها، فاللهُ كانَ حاضراً أعمالَهُمْ، وسَجّلَها عليهم.

وهذا يَحُثُّ المؤمنَ على أنْ يصلحَ عَمَلَهُ في الحياةِ الدُّنْيا، حتى إذا أسْمَعَهُ الله سِجلَّ أعمالِهِ الذي عَمِلَهُ في الدنيا، كان عَمَلُهُ كُلُّه طيباً صالحاً.

٧- وزنُ أعمالِ العبادِ في يوم الدين:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنه يَزِنُ أعمالَ العبادِ في يوم الدين ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف:٨-٩].

وقد ذهب المعتزلةُ إلى أنَّ الميزانَ لا حقيقةَ له، وإنَّما المُرادُ بالوَزْنِ العدالةُ والجَزاءُ، وسَبَقَهُمْ إلى القولِ بذلك مجاهِدٌ والضحاكُ والأعمشُ، وهذا القولُ غيرُ صحيحٍ، فقد دلَّتْ نُصوصُ القرآنِ والأحاديثُ الصحيحةُ أنَّ اللهَ تعالى يَزِنُ أعمالَ العبادِ يومَ القيامةِ بميزانٍ حقيقيٍّ اللهُ أعلمُ بمدى عِظَمِهِ، فتوضعُ الأعمالُ السيئةُ في كِفَّةٍ والأعمال الصالحة في كفّةٍ، وقد وَصَفَ اللهُ تعالى الوَزْنَ يومَ القيامة بأنه حقٌّ ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ﴾ والمرادُ بالحقِّ العَدْلُ الثابتُ الذي لا جَوْرَ فيه، يأْخُذُ العبدُ حَقَّه من غيرِ زيادةٍ ولا نقصٍ، بل قد يُزادُ في الحسنات.

وهذا الوزنُ حقيقيٌّ، واللهُ قادرٌ على أنْ يَزِنَ أعمالَنا، فهو لا يُعْجِزَه شيءٌ، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٤٧].

وقال: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾ [القارعة:٦-١١].

جنـــــة السـنـــــة

وقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨﴾ أي: الفائزونَ في جناتِ النعيم خالدين فيها أبداً، لا يَرْحلونَ عنها، ولا يَظْعَنونَ.

وقوله: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: طاشَتْ ولم تَرْجحْ، ﴿فَأُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ وذلك بسَوْقِهِمْ إلى النار، وخلودهم فيها، وهؤلاءُ لم يَخْسَروا مالاً أو تجارةً، ولكنَّهم خَسِروا أنْفُسَهُمْ في النارِ، ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ أي: خَسِرُوا أنْفُسَهَمْ في الآخرة بما اقْتَرَفوهُ في الدُّنيا من كفرٍ وذنوبٍ وآثامٍ.

٨- تمكينُ الله تعالى للناس في الأرض:

امتنَّ اللهُ -تبارك وتعالى- على الناسِ بأنْ مَكَّنَ لهم في الأرضِ، فعليها نبْني مساكِننا، ونتَّخِذُ من سهولها جناتٍ وبساتينَ، ونستفيدُ من نباتِها وحيواناتها وأسْماكِها وطُيورِها، ونتَّخِذُ من ذلك كُلِّه معايشَ، أي: ما يمْكِننا من المعيشة في الحياة الدنيا، ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠﴾ [الأعراف: ١٠].

وتمكينُ الله تعالى لنا في الأرضِ بأنْ جَعَلَ الأرْضَ صالحةً لحياتِنا، وأوْجَدَ فيها ما يقيم حياتنا، وأقْدَرَنا على السعي فيها، والاستفادةِ من خيراتِها، وقولُه تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠﴾ أي: قليلاً ما تشْكُرونَهُ على ما أنعم بِهِ عليكم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- هذا القرآنُ المُعْجِزُ الذي لا يستطيع أحَدٌ أنْ يأتِيَ بسورةٍ من مِثْلِهِ مكوَّنةٌ كلماتُهُ من حُروفِ اللغةِ العربية.

٢- الذي يؤمنُ بالقرآنِ كُلِّه على الوجه الذي يريدُه اللهُ تعالى، لا يبْقى في صَدْرِهِ حَرَجٌ ولا رَيْبٌ، فإنْ غابَ عنه جَوانبُ من الحَقِّ الذي جاءَ القرآنُ بِهِ، بقيَ في صَدْرِهِ مِنَ الحَرَج بمقدارِ ما غابَ عنه من الحَقِّ.

٣- الغايةُ مِنْ إنزالِ القرآنِ إنْذارُ الكافرين والعصاةِ وتذكير المؤمنين.

٤- أوجبَ اللهُ تعالى على جميع عبادِهِ أنْ يقبلوا ما جاءَهم من ربِّهم في الكتاب والسنّة، وأن يعملوا به على الوجه الذي يريدُهُ اللهُ تعالى.

جنـــــة الســـــنة

٥- حَذَّرنا اللهُ تعالى من اتباعِ شياطينِ الإنسِ والجنِّ الذين يضادُّون ويُعارِضُونَ ما جاءَ اللهُ بِهِ من الحقِّ.

٦- تهدَّدَ اللهُ تعالى الكفارَ أن يفْعَلَ بهم مَثَلَ ما فَعَلَ بالقرى الكافرة مِن قَبْلِهِمْ.

٧- في يومِ القيامة يسألُ اللهُ الأُممَ التي أرْسَلَ إليها رُسُلَه، عما أجابوا به الرسل، ويسأل المرسلين عن تبليغهم أُمَمَهُمْ بالحقِّ الذي أرسلهم، وعمَّا أجابوهم به.

٨- في يوم القيامة يَزِنُ اللهُ أعمالَ العبادِ بميزانٍ حقيقي لا ندري كيفَ هو، فمَنْ ثقلتْ موازينَهُ أفلحَ وفازَ، ومن خَفَّت موازينُهُ خَسِرَ وأُلْقِيَ في النارِ.

٩- خَلَقَ اللهُ تعالى الأرضَ مناسبةً لحياتِنا، ومَكَّنَنا مِنَ العيشِ فَوْقَها، لنعبدَهُ ونشكُرَهُ، ونثني عليه سبحانَه.

جنـــــة السـنة

النص القرآني الثاني من سورة الأعراف
طَرْدُ الرحمنِ للشيطانِ من الجنَّةِ لعدَمِ سُجودِهِ لآدمَ

أولاً: تقديم

كرَّم اللهُ تعالى آدَمَ وبَنيه، فقد خَلَقَ الله بني آدمَ بخَلْقِ أبيهم من ترابٍ، ثم صوَّرَهُمْ بتصويرِهِ، ثُمَّ أمَرَ الملائكةَ بالسجود لأبيهم آدمَ بَعْدَ خَلْقِهِ، فسَجَدُوا إلاَّ إبليسَ أبى أنْ يكون مع الساجدينَ، وعندما سألَه رَبُّ العِزَّةِ مُقرِّعاً ومُبَكِّتاً إيَّاهُ لعدم طاعته فيما أمَرَهُ، ادَّعى أنَّه أفضلُ من آدمَ، لأنه خُلِقَ من نارٍ وآدمُ خُلِقَ مِنْ طينٍ، فما ينبغي أنْ يَسْجُدَ لَهُ، طَرَدَهُ اللهُ من جَنَّتِهِ ورحمتِهِ، وأهْبطَهُ مِنَ الجنَّة صاغراً ذليلاً.

وطَلَبَ إبليسُ مِنْ رَبِّه أنْ يُبْقِيَهُ حيّاً إلى يوم الدينِ، فأجابَهُ ربُّهُ لحكم يعلمها، وقد نَصَبَ الشيطانُ من نَفْسِهِ عدوّاً لآدم وبنيْهِ، يُزَيِّنُ لهم الكفرَ والشركَ والمعاصي، وقد تَوَعَّدَهُ ربُّه أنْ يُدْخِلَهُ ومَنْ اتَّبَعَهُ النَّارَ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن
مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ
فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ
ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ
أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ
مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأعراف:١١-١٨].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- **مِنَّةُ الله تعالى على البَشَر بخلقهم وأبيهم آدم عليه السلام:**

أخْبَرَنا ربُّنا -عَزَّ وجَلَّ- عن الأصلِ الكريم الذي مِنْهُ خُلِقْنا، فقد خَلَقَنا اللهُ تعالى بخلق أبينا آدمَ عليه السلام من تُرابٍ، ثم صوَّرَنا بتصوير أبينا آدم عليه السلام، ذلك أنَّ البَشَرَ بعد آدمَ وحواء يُخْلَقون ويصورون في الأرحام على هيئةِ آدم وصورتِهِ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ ثم أمَرَ اللهُ -تعالى- الملائكةَ أنْ يسْجُدوا لآدمَ بعد تمام خَلْقِهِ، ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾

جنـــــة السـنــــــة

[الأعراف:١١]، وقال سبحانه: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر:٢٩].

وما أخبرنا بِهِ خالقنا العليمُ الحكيمُ الخبيرُ عن الأصل الذي منهُ خَلَقَنا يَرُدُّ على الذين زَعَموا كاذبين أنَّ خَلْقَنا تطوَّرَ عن فأْرٍ أو قِرْدٍ أو صرْصورٍ، وهذا كذِبٌ على الله تعالى، وفيه تقذير لأصل الإنسانِ، وتكذيبٌ للرحمنِ، اللهمَّ إنَّا نبرأ إليك من الضَّلال.

وقد أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّ الملائكةَ جميعاً سَجَدُوا لآدمَ عندما سَرَتْ فيه الروحُ ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الحجر:٣٠]. وامتنعَ إبليسُ أنْ يكونَ مَعَ الساجدينَ، وإبليس لم يَكُنْ مِنَ الملائكةِ، بل كان من الجِنِّ، وكان يَعْبُدُ اللهَ مَعَهُمْ، فحَسَدَ آدم على ما فضَّله بِهِ ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأعراف:١١].

٢- الرحمن يُقرِّعُ الشيطانَ في سؤالِهِ عن السبب في عدم طاعتِهِ لأمْرِه:

أخبرنا ربُّنا العليم الحليم أنه سأَلَ الشيطانَ عن السَّبَبِ الذي أدَّى إلى عَدَمِ السجودِ، ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٢].

وقد أخبرنا ربُّنا فيما سبقَ أنَّه أمَرَ ملائكتَهُ وإبليسَ بالسجودِ، والأمْرُ من ربِّ العزَّةِ بهذه الصيغةِ يفيدُ الوجوبَ، وعدَمُ فِعْلِ ما أمَرَ اللهُ به معصيةٌ، فقال اللهُ لإبليس: ما منعك يا إبليس ﴿أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ ﴾ ومعنى الآيةِ: ما مَنَعَكَ أن تسجد إذْ أمَرْتُكَ، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ ﴾ [ص:٧٥].

والعلماءُ الأعلام على أنَّ (لا) في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ ﴾ زائدة، أي: ما ألجأَكَ وأحْوجَكَ إلى أنْ لا تَسْجُدَ، واللامُ تُزادُ لتأكيدِ المعنى وتقْويَتِهِ، وهذا في الفعل الذي يفيدُ معنى الجَحْدِ كثيرٌ في كتابِ الله تعالى كقوْلِهِ تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الحديد:٢٩]، أي: ليعلَمَ أهلُ الكتابِ، فقد جيء بـ (لا) لتقوية المقامِ، ومنه قوله: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [النساء:٦٥]، وقوله: ﴿مَنَعَكَ﴾ في الآية تُفيدُ الجُحودَ والنفي [العذب النمير: ٣/ ١١٢ باختصار].

وسؤالُ الله -تعالى- المُوَجَّهُ لإبليسَ، فيه توْبيخٌ وتقريعٌ له، لعَدمِ طاعَتِهِ لله. وقد أجاب إبليسُ لَعَنَهُ الله تعالى إجابةً تَدُلُّ على أنَّ رَفْضَهُ السجودَ كان بسبب تكَبُّرِهِ وتعاليهِ، فهوَ أفْضَلُ من آدَمَ، لأنَّهُ مخلوقٌ من النَّارِ وآدَمُ مخلوقٌ من الطينِ، والنارُ أفضلُ من الطينِ، وهذا الجوابُ

يَدُلُّ على أنَّ هذا المخلوقَ اللعينَ خَطَّأَ ربَّه العليمَ الحكيمَ بأمْرِهِ لَهُ بالسجودِ لآدمِ: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف:١٢].

ولم يُبيِّنِ اللهُ تعالى للشيطانِ فسادَ قولِهِ، لأنه تعالى لا يُسْأَلُ عمَّا يَفْعَلُ وهُمْ يُسألون، وإلاَّ فإنَّ ما احتجَّ به الشيطانُ قولٌ باطلٌ، فالنَّارُ التي خُلقَ منها نارٌ مُحْرِقَةٌ مُفْسِدَةٌ، لا تنبت الزَّرْع، ولا تُبْنَى عليها البيوتُ، بخلاف الترابِ.

ولَمَّا أجابَ الشيطانُ هذا الجوابَ الدالَّ على الكِبْرِ والاستعلاءِ، والذي يُخَطِّئُ فيه رَبَّ الأرضِ والسماءِ، طردَه اللهُ تعالى مِنْ رحمته، وأبعده من جَنَّتِهِ ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف:١٣].

وقد عاملَ ربُّ العزة الشيطانَ بنقيض قَصْدِهِ حيث كان قَصْدُهُ التعاظمُ والتكبُّرُ، فأخرجه اللهُ تعالى من الجنةِ صاغِراً حقيراً ذليلاً، وقال له: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ أي: من الأذلاَّءِ الحقراءِ المذمومين.

٣- الشيطانُ يَطْلُبُ من الرحمنِ أن يُنْظِرَهُ إلى يومِ الدين:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى الشيطانَ بالخروجِ من الجنة، طَلَبَ من الله تعالى أن يُنْظِرَهُ إلى يومِ البعثِ ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأعراف:١٤]، طلب من ربِّه أنْ يبقيهُ حيّاً إلى يومِ القيامةِ، فأجابَهُ اللهُ تعالى إلى ما سألَهُ ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأعراف:١٥]، وقد بيَّنَ اللهُ تعالى في سورة (الحجر) الوقتَ الذي أنظره إليه قال: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ [الحجر:٣٧-٣٨] وأكثر العلماء أنَّ هذا الإنظار إلى وُقوعِ النَّفْخَةِ الأولى.

٤- عَزْمُ الشيطان على إغْواءِ الإنسان:

بعدَ ما أجابَ الرحمنُ الشيطانَ في إبْقائِه حيّاً إلى أنْ يُنْفَخَ في الصورِ، أظْهَرَ ما انطوى عليه صَدْرُهُ مِنَ غلٍّ على بني آدم، وما سيفعلُهُ بهم ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف:١٦-١٧].

قالَ الشيطانُ لربِّ العِزَّةِ: كما أضللتني، لأقْعُدَنَّ لعبادِكَ الذين تخلقهم من ذُرِّيَةِ آدم على صراطِكَ المستقيم، يريدُ به الدينَ الذي يُنْزِلُهُ إليهم، وهو دينُ الإسلام، وسآتيهم لإضلالهم من أمامِهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم، أي: سيأتيهم من كلِّ الجهاتِ إلا من فوقِهم، وأخبر أنه ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي: مؤمنينَ موحِّدينَ.

جنـــــة السـنـــــة

وقد أخبرنا -تبارك وتعالى- في موضع آخر أنَّ إبليسَ صَدَّقَ عليهم ظَنَّهُ ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سبأ:٢٠].

وقد بيَّنَ لنا رسولنا ﷺ كيف قَعَدَ الشيطانُ للإنسان بطريق الإسلام، فعن سَبْرَةَ بنِ أبي فاكه، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إنَّ الشيطانَ قَعَدَ لابنِ آدمَ بأطْرُقِه، فقَعَدَ له بطريقِ الإسلامِ، فقالَ له: أتُسْلِمُ وتَذَرُ دينَكَ، ودينَ آبائِكَ، وآباءِ أبيكَ؟» قال: «فعَصَاهُ فأسْلَمَ، ثمَّ قَعَدَ لَهُ بطريقِ الهِجْرَةِ، فقال: أتُهاجِرُ وتَذَرُ أرْضَكَ وسماءَكَ؟ وإنما مَثَلُ المُهاجِرِ كمَثَلِ الفَرَسِ في الطِّوَلِ» قال: «فعَصَاهُ فهاجَرَ» قال: «ثم قَعَدَ له بطريقِ الجِهاد، فقال: هُوَ جَهْدُ النَّفْسِ والمالِ، فتُقاتِلُ فتقْتَلُ، فتُنْكَحُ المرأةُ، ويُقْسَمُ المالُ» قال: «فعَصاهُ فجاهَدَ» فقال رسولُ الله ﷺ : «فَمَنْ فَعَلَ ذلِكَ مِنْهُم، فماتَ، كانَ حَقّاً على الله أنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أوْ قُتِلَ كانَ حَقّاً على الله أنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، وإن غَرِقَ كانَ حَقّاً على الله أنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أو وَقَصَتْهُ دابَّة كانَ حَقّاً على الله أنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ» [مسند أحمد: ٢٥/ ٣١٥. ورقمه: ١٥٩٥٨. وإسناده قويٌّ، وعزاه إلى أبي داود والنسائي وغيرهم].

وعلى المسلم أنْ يَحْتَمِيَ بالله تعالى مِنَ الشيطانِ، كما كان يفعلُ الرسولُ ﷺ عندما يُمْسي وعندما يصبح، فعن عبدالله بن عمرَ قال: لم يكن رسولُ الله ﷺ يَدَعُ هؤلاء الدعواتِ، حين يُصبحُ وحين يُمسي: «اللهم إنِّي أسألُكَ العافية في الدُّنيا والآخِرَة، اللهمَّ إنِّي أسألُكَ العفوَ والعافيةَ في ديني ودُنْياي وأهلي ومالي، اللهمَّ استُرْ عَوْراتي، وآمِنْ رَوْعاتي، اللهم احفَظْني من بيْنِ يَدَيَّ ومِنْ خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذُ بعظمتك أن أُغْتالَ من تحتي»، قال: يعني الخَسْفَ [مسند أحمد: ٨/ ٤٠٣. ورقمه: ٤٧٨٥. وقال محققه: إسناده صحيح، ورجاله ثقات].

٥- أمْر الله -تعالى- الشيطانَ بالخروجِ مِنَ الجنةِ مهاناً وتَوَعّدَه بإدخاله وأتباعه النار:

بعد أنْ قالَ الشيطانُ ما قالَهُ لربِّ العزَّة -سبحانه- أمَرَهُ مَرَّةً أُخرى بالخروج من الجنَّةِ مَذْؤُوماً مَدْحوراً، أيْ: يخرجُ مِنَ الجنة مذموماً ممقوتاً معيباً، ويخْرَجَ منها مَدْحوراً، أي: مَطْروداً من رحمةِ الله، وتَوَعَّدَهُ -تبارك وتعالى- هو ومَنِ اتَّبعَهُ أنْ يملأ جهنَّم منهمْ جميعاً ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٨] وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [ص:٨٥].

جنـــــة السـنـــــة

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١- خَلَقَ الله تعالى بني آدَمَ أوّلاً بخلقِ أبيهم آدمَ من ترابٍ، ثم خَلَقَهمْ في أرحامِ أمهاتهم.

٢- الناسُ جميعاً من أصلٍ كريم هو آدمُ عليه السلام، خَلَقَهُ بيدِهِ من ترابٍ، وأسْجَدَ له ملائكتَهُ عندما خلقه.

٣- كان إبليسُ يَعْبُد اللهَ مع الملائكة، فلما أمَرَ اللهُ الملائكةَ بالسجودِ لآدم، رفضَ إبليسُ السجودَ له، بدعوى أنَّه مخلوقٌ من النار، والنارُ أفضل مِنَ الطينِ، فطردَهُ اللهُ مِنْ رحمته وجنتهِ صاغِراً ذليلاً.

٤- طلبَ الشيطانُ من ربِّ العزةِ أن يُبْقِيَه حيّاً إلى يومِ الدين، فأجابَ دعاءَه، فهو حَيٌّ إلى هذا اليوم.

٥- عَدَّ إبليسُ أنَّ ما وَقَعَ لَهُ كان بسبب آدم، فحَقَدَ عليه، وعَزَمَ على أنْ يُضِلَّ آدمَ وبنيهِ، ويديمَ الوسوسةَ لهم بالشرِّ، حتى يخرجَهُمْ مِنَ الإيمانِ إلى الكُفْرِ.

٦- طَرَدَ اللهُ إبْليسَ من جنتهِ ورحمتهِ، وتوعَّدَه ومنْ اتبعه بالنار.

جنـــــة السـ ـــنة

النص القرآني الثالث من سورة الأعراف

تغرير الشيطان بآدمَ وزوْجِهِ فأكلا مِنَ الشجرة المحرَّمةِ فأهبطَهما اللهُ من الجنة إلى الأرض

أولاً: تقديم

أسْكَنَ اللهُ تعالى آدمَ وزوجَهُ جَنَّةَ الخُلْدِ، وأباحَ لهما الأكلَ منها، وحرَّم عليهما نوعاً واحداً من شجرِها، فزَيَّنَ الشيطانُ لهما الأكلَ مِنَ هذه الشجرةِ، فعصيا ربَّهما، فأهْبَطَهُما اللهُ إلى الأرْضِ، وتابا فتابَ اللهُ عليهما، وغفَرَ لهما ذَنْبَهُما، واستمرتِ المعركةُ بيننا وبينَ الشيطانِ إلى اليوم، وإلى أنْ تقومَ الساعةُ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأعراف:١٩-٢٥].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أسْكَنَ اللهُ تعالى آدمَ وزوجَه الجنَّةَ وأباحَ اللهُ لهما الأكْلَ منها إلا شَجَرَةً واحدةً:

بعد أنْ طَرَدَ اللهُ -تعالى- إبليسَ من جَنَّتِهِ أمَرَ اللهُ تعالى آدمَ أنْ يَسْكُنَ هو وزوْجُهُ حواءُ الجنَّةَ، وأباحَ لهما أنْ يأكُلا من جميعِ أشجارِ الجنَّةِ إلاَّ شَجَرَةً واحدةً، ولم يَرِدْ لا في القرآنِ ولا الحديثِ تسميةَ هذه الشجرة، فلا ينبغي الخوضُ والبحثُ عن اسمها، وقالَ اللهُ لهما: إن أنتما أكَلْتُما مِنْ هذه الشجرةِ تكونا من الظالمين، أيْ: من العصاة الذين ظَلَموا أنْفُسَهُمْ بالمعاصي والذنوب ﴿ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٩].

جنـــــة السـنـــــة

٢- **الشيطانُ يوسْوسُ لآدم وزوجِهِ مغرياً إياهما بالأكْلِ من الشجرةِ:**

عَلِمَ الشيطانُ أنَّه لا يستطيعُ أن يضيرَ آدمَ إلاَّ إذا جَعلَهُ يَعْصِي ربَّهُ هُوَ وزوْجُهُ، فأخَذَ يوَسْوِسُ لهما ليأكلا من الشجرةِ التي نهاهُما ربُّهما عن الأكْلِ منها، والوَسْوَسَةُ: ما يُلْقِيَهُ الشيطانُ في نفْسِ الإنسانِ على وجْهِ الخِفْيَةِ، وأصْلُ الوَسْوَسَةِ صوتُ الحلي ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠].

كانَ الشيطانُ يَعْلَم عاقبةَ أكْلِ آدمَ وحواءَ من الشجرة، فهُما بذلك يعصيانِ ربَّهما، ويفْعَلان ما أمَرَهُما بتَرْكِهِ، وإذا أكَلا من الشجرةِ ظَهَرَتْ لهما سوءاتُهما، وكانت سوْءاتُهما مخْفِيَّةً لا تظهر لهما، فلا يَرى أحَدُهُما عوْرَتَهُ، ولا يَرى عَوْرَةَ الآخر، ولم يخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن كيفية ذلك، فلا نبحثُ عنه، وكُلُّ الذي نَعْلَمُه أنَّهما أكلا من الشجرةِ فَبَدَتْ لهما في الحالِ عَوْرَتاهُما.

وقد جاءَهما الشيطانُ من الجهةِ التي يُحِبَّانِها، وقالَ لهما: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ وقد كَذَبَ عليهما فيما زَيَّنَهُ لهما، ولكنَّه لو قالَ لهما: إذا أكَلْتُما من الشجرةِ أغضبتما ربَّكُما، وطُرِدْتُما من الجنَّةِ، فما كانا ليُطيعانِهِ، ولكنه جاءَهما من البابِ الذي يُحِبَّانِهِ، ويعشَقانِهِ، فإذا أصْبَحا مَلَكَيْنِ فلا يموتانِ، وكذلك إذا هما خَلَدا في الجنّة، وكي يزيل ما حاكَ في صدورِهما مما أمَرَهُما بِهِ أقْسَمَ لهما أنّه ناصِحٌ لهما ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأعراف:٢١]، والمرادُ بقاسَمَهُما: حَلَفَ لَهُما، حَتَّى خَدَعَهما، وما كان آدمُ يظنُّ أنَّ أحداً يَحْلِفُ بالله كاذِباً. وقوله: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ ﴾ صيغةُ مفاعلةٍ، لا يُرادُ بها في الآيةِ المشارَكَةُ مِنَ الطرفين، ولكنَّ المرادَ بها المبالغةُ في صُدورِ الإقْسامِ لهما من إبْليسَ.

٣- **أكْلُ آدم وزوجِهِ من الشجرة المحرَّمة:**

انْخَدَعَ آدمُ وزوجُه حواءُ بمعسول القولِ الذي ألْقاهُ إليْهما إبْليسُ، فأكَلا من الشجرةِ فبَدَتْ لهما سوءاتُهما، فعَلِما عند ذلك أنَّ الشيطانَ غَرَّرَ بهما، وأوْقَعهما بالمعصية، فقد ظَهَرَتْ لهما عورتاهُما وكانت مستورةً ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ ﴾ [الأعراف:٢٢].

وقولُهُ: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ ﴾ أي: خَدَعَهما، وأصْلُ التَّدْلِيَةِ بالغرورِ أنْ يكونَ المرءُ عَطْشاناً، فيُرْبَطَ بحَبْلٍ، ويُدَلَّى في البئْرِ، ليَرْوَى من مائِهِ، ولكنه لا يجِدُ فيهِ ماءً، فيكون مُدَلَّى بغرورٍ، فوُضِعَتْ التَّدْلِيَةُ موضِعَ الإطْماعِ فيما لا يُجْدِي نفعاً.

جنـــــة السـنـــــة

ويدُلُّ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾ أنَّهما ذاقاها ذواقاً، ولم يُبالِغا في الأكْلِ، وقوله: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ أي: عورَتاهما، وتسميةُ الفرجِ سَوْأَةً لأن كَشْفَها يسُوءُ صاحِبَها، ومسارعةُ آدمَ وحواءَ إلى الخَصْفِ مِنَ أوراقِ الجنّةِ يَدُلُّ على أنَّ العُرْيَ وكَشْفَ العَوْرَةِ ليس من الحضارة والمدنية في شيءٍ، وأنه مُسْتَقْذَرٌ مسْتَهْجَنٌ.

وقولُهُ: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: جَعَلا يأْخُذانِ من أوراقِ الجنةِ، والخَصْفُ أنْ يَجْعَلا ورقةً بجانبِ الأخرى كُلُّ واحدٍ على عَوْرَتِهِ لِيَسْتُرَها، ولم يُخْبِرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن الشَّجَرِ الذي أخَذا من أوراقِهِ، لِيَسْتُرا عَوْرَتَيْهِما، فلا نَبْحثُ فيه، فإنَّه أمْرٌ غيْبِيٌّ، والغيبُ إنْ لم يُعَرِّفْنا الله به، لا نستطيعُ مَعْرِفَتَهُ.

٤- تقْريعُ الله -تعالى- لآدَمَ وحواءَ لأكْلِهما من الشَّجَرةِ:

نادى اللهُ آدمَ وحواءَ، وقَرَّعَهُما لأكْلِهِما من الشجرةِ التي نهاهما عن الأكْلِ منها ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف:٢٢].
وجّهَ اللهُ -تعالى- الخطابَ إلى آدَمَ وزوجَه حواءَ مُقَرِّعاً لهما على عِصْيانِهِما لَهُ بأكْلِهِما مِنَ الشجرةِ التي حرَّمَها اللهُ عليهما، وهنا يظهرُ الفرْقُ بين معصيةِ الشيطانِ ومعصيةِ آدم، فإبليسُ تعالى وتكبَّر، وأصرَ على ذَنْبِهِ، بينما آدمُ اعترفَ بذنبِهِ، ونَدِمَ على ارْتكابِهِ لذَنْبِهِ، ولامَ نَفْسَهُ، وسارَعَ إلى التوبَةِ، ولم يقْنَطْ من رحمةِ الله تعالى.

لقد قالَ اللهُ -تعالى- لهما في تقريعه لهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ وقد كانت الشجرةُ التي عَصَيا بالأكْلِ منها حاضرةً مشاهدةً مَرْئية، وقد أشارَ إليها بقوله: ﴿تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾. وقال لهما: ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ ومِنْ عداوَتِهِ البيِّنَةِ الطريقةُ التي أضَلَّ بها آدمَ وحواءَ.

٥- توبةُ آدم وحواءَ:

سارَعَ آدمُ وحواءُ إلى التوبةِ إلى الله -تعالى- بعد معصيتهما، وقد أعْلَمنا ربُّنا بالذي قالاه وهما يتوبان إلى الله ربِّهما ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف٢٣]، قالا يا ربَّنا، ظَلَمْنا أنفُسَنا بأكلنا من الشجرةِ التي نهيْتَنا عن الأكل منه، وإن لم تَغْفِرْ لنا ما وقعنا فيه من المَعْصِيَةِ وترْحَمنا لنكونَنَّ من الخاسرينَ، وهكذا الإنسانُ ينبغي إذا عصى ربَّهُ أن يسارعَ إلى التوبةِ إلى الله بصِدْقٍ، ومن تابَ صادِقاً تابَ اللهُ عليه.

جنـــــة السـنـــــة

ومع توْبَةِ الله تعالى على آدمَ وزوجه، إلا أنَّه أهبطهما من الجنَة إلى الأرضِ، فهبط إلى الأرض إبليسُ وآدمُ وزوجُهُ ﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأعراف:٢٤].

لقد جَعَلَ اللهُ -تعالى- الأرضَ مَقرّاً ومنْزِلاً للإنسِ والجنِّ، هي دارهُمْ التي فيها يسْكُنونَ، وعلى ثراها يعيشونَ، وفيها يموتون ويدفنون، ومنها في يوم القيامة يخْرُجُونَ ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأعراف:٢٥]، كما قال عز وجل: ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [طه:٥٥].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - أسْكنَ اللهُ تعالى آدمَ وزوجه الجنّةَ وأباحَ لهما الأكلَ منها إلاَّ نوعاً واحداً من الشجر حرَّمَ عليهما أكْلَهُ.

٢- نَجَحَ الشيطانُ في التغريرِ بآدمَ وزَوْجِهِ، فحملهما على الأكْلِ مِنَ الشجرةِ، فعصيا ربَّهما، وبَدَتْ لهم سوءاتُهما، وطَفِقا يخْصِفانِ عليهما من ورقِ الجنة ليسترا عَورتَيْهِما.

٣- على بني آدمَ أنْ يَحْذَروا أنْ يفعلَ الشيطانُ بهم مَثَلَ فِعْلِهِ بأبيهمْ.

٤- سارعَ آدمُ وزوجُهُ إلى التوبةِ، فتابَ اللهُ عليهما، وأهَبطَهُما إلى الأرضِ، وجَعَلَها مقرّاً لهم، ولذريتهما.

٥- على بني آدمَ إنْ أخْطَؤوا أنْ يسارعوا إلى التوبةِ، فالتائبُ مِنَ الذَّنْبِ كمنْ لا ذَنْبَ لَهُ.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الرابع من سورة الأعراف
امتنانُ الله على عباده بما أنزله عليهم من نعمةِ اللباس

أولاً: تقديم

امتنَّ اللهُ تعالى على عِبادِهِ بما أنْزَلَهُ عليهم من نعمةِ اللِّباسِ الذي يسْتُرُ عَوْراتِهِمْ، ونعمةُ لِباسِ التقوى الذي يُقَوِّمُ نُفوسَهمْ، ويهذِّب أخلاقَهم، وقد نادى اللهُ بنى آدمَ مُحَذِّراً إياهم من أنْ يَفْتِنَهُمُ الشيطانُ كما فعلَ بأبويهم، فقد أخرَجَهُما مِنْ الجنة عندما زيَّنَ لهما الأكْلَ مِنَ الشَّجَرةِ التي حرَّمَها اللهُ عليهما.

وقد ذَمَّ اللهُ تعالى الذينَ يرتكبونَ الفاحشة كالتَّعرِّي حالَ الطَّوافِ، ثم يَزْعُمونَ أنَّ اللهَ أمَرَهُمْ بها، فاللهُ لا يأْمُر بالفَحْشاءِ، ولا يأْمُرُ إلا بالعَدْلِ.

ومع أمْرِ الله بالقِسْط، فإنه أمَرَ بالتَّوجُّهِ إلى القبلةِ في الصلاةِ، وأمرَنا بدُعاءِ الله وَحْدَهُ مخلصين له الدين.

وخَتَمِ اللهُ تعالى الآياتِ ببيانِ أنَّ البَشَرَ فريقان: مؤمنون مهتدون، وكفارٌ ضالون.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ
عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ
لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ
بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ
مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ
إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأعراف:٢٦-٣٠].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إعلامُ ربِّنا لنا بما أُنزل علينا من اللباس والريش ولباس التقوى:

أخبرَنا اللهُ -تعالى- فيما مَضَى أنَّ الشيطانَ اللعينَ غَرَّرَ بأبينا آدمَ وأُمِّنا حواءَ، وزَيَّن لهما الأكلَ مِنَ الشجرةِ ﴿لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا﴾ [الأعراف:٢٠]، ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف:٢٢].

جنـــــة السـنـــــة

وأعْلَمَنا ربُّنا في قوله: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأعراف:٢٦].

أعْلَمَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه أنْزَلَ علينا أنواعَ اللباسِ من الصوف والقطنِ والكتان وغيرَها ليواريَ سوءاتِنا، والسَّوْءَةُ ما يَسُوءُ صاحبَهُ إذا ظَهَرَ، وأَنْزَلَ علينا ريشاً، والريشُ لباسُ الزينةِ، وهو مستعارٌ من ريشِ الطائر، وقوله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ لباسُ التقوى: لباسُ الإسلام، فالإسلام بما فيه من إيمانٍ، وأعمالٍ صالحة، وأخلاقٍ حميدةٍ، يصْنَعُ لباساً لصاحِبِهِ، فيه الحياءُ والوَرَعُ وخشيةُ الله تعالى، قال الشاعر:

إذا المـرءُ لم يَلْـبَسْ ثياباً مِـنَ التُّقَـى ... تَقَلَّـبَ عُرْيانـاً وإن كـانَ كاسِـيا

وخـيرُ لبـاسِ المَـرْءِ طاعـةُ رَبِّـه ... ولا خَـيْرَ فِـيمَنْ كـان لله عاصِـيا

وقد رأى رسولُ الله ﷺ في المَنامِ أُناساً يَعْرَضُونَ عليه، وعليهم قُمُصٌ، وعُرِضَ عليهِ عُمر بن الخطابِ وعليهِ قميصٌ يجُرُّه، وقدْ أوَّل الرسولُ ﷺ القميصَ بالدين [البخاري: ٢٣. ومسلم: ٢٣٩٠].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف:٢٦] أي: اللباس الذي أنزله الله تعالى ليواري سوءاتنا من آيات الله، فلو لم يُقدِّرِ الله وجود هذا اللباسِ لحلَّ العنتُ بالعباد.

وقوله: ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأعراف:٢٦] أي: يتذكرون نعمةَ الله عليهم فيما رزقهم به من اللباس.

٢- تحذيرُ الله تعالى لذريةِ آدمَ أنْ يفعل بهم كما فعل بأبويهم:

نادانا ربُّنا محذِّراً لنا أنْ يفتِننا الشيطانُ كما فَعَلَ بأبينا آدمَ وأُمنا حواءَ عندما غَرَّر بهما، وزَيَّنَ لهما الأكْلَ من الشجرةِ، فنزعَ عنهما لباسَهما، وأظهر لهما عَوْرَتَيْهما، ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ ﴾ [الأعراف:٢٧].

وقوله: ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أيْ: لا يُوقِعَنكُمُ الشيطانُ في البلاءِ، فقد خَرَجَ أبوانا مِنَ الجنّةِ بسبب فتنةِ الشيطان عندما زَيّنَ لهما الأكْلَ من الشجرةِ وقد غرَّرَ الشيطانُ بذريَّةِ آدمَ من بَعْدِه، فقد كان أهلُ الجاهليةِ يطوفون بالكعبةِ عُراةً إن لم يَجِدِ الواحدُ من يعيره ثوباً من أهلِ مكةَ، أوْ لم يجدْ ثوباً جديداً، وكانوا يزعمونَ أنَّ اللهَ تعالى هو الذي أمَرَهُم بالعُرْيِ في الطوافِ على النحوِ المذكورِ، وقد كَذَبُوا فيما زَعموهُ.

جنـــــة السـ ــــنة

وقد أصْبَحَ العُرْيُ اليومَ حضارةً ومدنيةً في عالمِ الغربِ، وأصْبَحَتْ هناك نوادي للعُراةِ، وأصْبَحَت ترى النساءَ على شواطئِ البحارِ والأنهارِ لا يكاد يَسْتُرُ أجسادَهُنَّ إلاَّ النزرُ اليسيرُ مِنَ اللباسِ، بل أصبحتْ الفاحِشَةُ تمارسُ علانيةً في بعض الأماكن، وأخَذُوا يَعُدُّون هذا حضارة ومدنيةً، وهو في ميزان الله وشَرْعِهِ تأخرٌ وتخَلُّفٌ وضَلالٌ، واتباعٌ للشيطان.

وقد أعْلَمنا ربُّنا -عَزَّ وجَلَّ- أنّ إبليسَ وقَوْمَهُ وأولادَهُ يَرَوْننا من حيثُ لا نراهم ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٢٧] وقد اختصَّ الرسولُ ﷺ من بينِ الناسِ على قُدْرَتِهِ على رؤيةِ الجنِّ، وما يَدَّعيه بعضُ أهلِ العلمِ من وُرودِ نُصوصٍ تدلُّ على أنَّ بعضَ الصحابةِ رأى الجنَّ والشياطين، غير صحيحٍ، فالذي رأوْه هو ما تشكلت به الشياطينُ، لا الشياطينَ في صورِهِمْ التي خَلَقَهُم اللهُ عليها.

وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف:٢٧] أي: جعل اللهُ تعالى الشياطينَ أنصاراً للكفارِ الذين لا يوَحِّدُونَ الله تعالى.

٣- الردُّ على الذين يزعمون أنَّ اللهَ يأمُرُ بالفحشاءِ سبحانه:

كان أهلُ الجاهلية إذا فعلوا فاحِشَةً، وهيَ المَعْصيةُ التي بلغتِ الغايةَ في الفُحْشِ، كالطوافِ بالبيت وهُمْ عُراةٌ، يقولون: وَجَدْنا آباءَنا يفعلون هذه الفعلةَ على هذا النحو، واللهُ هو الذي أمرنا بها، وقَدْ أمر اللهُ رسوله ﷺ أن يَرُدَّ على هؤلاءِ الضالين ويقول لهم: إنَّ اللهَ لا يأمُرُ بالفحشاءِ، وأمَرَهُ أنْ يُقَرِّعَهُمْ ويُبَكِّتَهَمْ، ويقولَ لهم: أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف:٢٨].

وأمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أنْ يقولَ لهؤلاءِ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأعراف:٢٩].

أعْلَمَنا ربُّنا في هذه الآية أنّهُ أمرَ بالعدلِ والاستقامةِ، وأمَرَ رسولَه ﷺ وأصحابَهُ أيضاً أنْ يقيموا وجوهَهُمْ عندَ كُلِّ مسجدٍ، أيْ: يَتَّجِهُوا إلى القِبْلَةِ التي تكونُ إليها صلاةُ المؤمنين، وأمَرَهُمْ أنْ يدْعُوا اللهَ وَحْدَه، مخلصينَ له الدينَ، فلا يَدْعُونَ معه أحداً، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، ولا نبيٌّ مرسلٌ، وقوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: كما بدأكم في الحياةِ الدُّنيا، تَرْجِعُون إليه في الحياةِ الآخرة، وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:٩٤].

جنـــــة السـنة

٤- الناسُ فريقان: المهتدونَ والضالون:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الناسَ فريقان: فريقٌ هداهُم اللهُ تعالى وفريقٌ أضلَّهُم اللهُ ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف:٣٠].

والفريق الذي هداهُمُ اللهُ هم المؤمنون المتقون، والذين حَقَّت عليهم الضلالةُ، هم الذين قَدَّر اللهُ في الأزلِ كُفْرَهُمْ وضلالَهُمْ، وهؤلاءُ هم الذين اتخذوا الشياطينَ أولياءَ من دون الله، ويحْسَبون أنَّهم مهتدون، والأمْرُ ليس كذلِكَ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- جعل اللهُ تعالى لبَني آدمَ لباسَيْنِ، الأولُ: اللباسُ الذي يواري عَوْراتِهِمْ وهو من القماش، والثاني: لباسُ التقوى، وهو لباسُ الإسلامِ والإيمانِ. ومتى حَصَّل العبدُ هذين اللباسين كان في قمةِ الرقيِّ والحضارةِ.

٢- حذَّرَ اللهُ -تعالى- بني آدمَ أنْ يَفْعَلَ بهم الشيطانُ فِعْلَهُ بأبويهم، فقد أخْرَجَهُما مِنَ الجنَّةِ، عندما زيَّن لهما معصيةَ الله، فأكلا مِنَ الشجرةِ التي حَرَّم اللهُ عليهما الأكْلَ منها، فبدتْ لهما سَوْءاتُهُما.

٣- الجنُّ والشياطينُ يرونَنا من حيث لا نَراهُمْ، ولذلك لا نسْتَطيعُ الخلاصَ منهم، إلا بالالتجاءِ إلى الله والاحتماءِ به.

٤- الكفارُ يرتكبون الفواحشَ، ويدَّعون أنَّ اللهَ أمَرَهُمْ بها، وهُمْ كاذبون فيما يدَّعون، فاللهُ لا يأْمُرُ بالفحشاءِ، ولا يأْمُرُ إلا بالعَدْلِ.

٥- أمَرَنا اللهُ تعالى بالتوجّه إلى القِبْلَةِ التي حَدَّدها اللهُ لنا عندما نقوم إلى الصلاة، وأمَرَنا أنْ نَدْعُوهُ مخلصين له الدينَ، أي: وَحْدَهُ.

٦- بدأ اللهُ خلقنا في الحياة الدنيا، وسيعيدنا إليه في الحياة الآخرة.

٧- الناسُ فريقانِ الأولُ: الذين هَداهُمُ اللهُ إلى الإيمان، والثاني الذين أَضَلَّهم، فكَفَروا.

جنـــــة السـنــــــة

النص القرآني الخامس من سورة الأعراف
أمر اللهُ تعالى عبادَهُ أنْ يأخُذُوا زينَتَهُمْ عندَ كلِّ مسجدٍ ونهاهم عن تحْريمِ اللباسِ والطيباتِ

أولاً: تقديم

أمَرَ اللهُ -تعالى- عبادَهُ بأخْذِ زينَتِهِمْ عند كلِ مسجدٍ، فلا يطوفونَ، ولا يُصَلُّونَ وهُمْ عُراةٌ، وأمَرَهُمْ بالأكْلِ والشُّرْبِ من غيرِ إسْرافٍ، وقَرَّعَ الذينَ حَرَّمُوا زينة الله والطيباتِ من الرزقِ ووبَّخَهُمْ، وبيَّنَ أنه خَلَقَ الزينةَ واللباسَ للذين آمنوا في الحياةِ الدنيا، وإنْ شَرَكهم الكفارُ فيها، وهيَ خالصةٌ لهم في يومِ القيامة لا يَشْرَكُهُمْ فيها غَيْرُهُم، وبيَّنَ سبحانَهُ أربعاً مما حرَّمه اللهُ على عبادِهِ، وبيَّنَ أنَّ لكلِّ أُمةٍ أجلاً، وبيَّنَ أنَّ حجّةَ الله عَلَى عبادِهِ تقومُ بإرسالِ الرُّسُلِ، فمن استجابَ فلَهُ الجَنَّةَ، مَنْ كَفَرَ فالنَّارُ موعده.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾
قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ
بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ
أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي
فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ
أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأعراف:٣١-٣٦].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- شَرَعَ اللهُ تعالى لنا الزينة عِنْدَ كُلِّ مسجدٍ وشرع لنا الأكلَ والشربَ من غير إسرافٍ:

نادى اللهُ تعالى بني آدمَ وأمَرَهُم أن يأْخُذوا زينَتَهُم عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ، وأمَرَهُمْ أنْ يأكُلُوا ويَشْرَبُوا ولا يُسْرِفُوا، وبيَّنَ لهم أنّه لا يحبُّ المسرفين ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأعراف:٣١].

جنــــة الســــنة

أمَرَنا ربُّنا عَزَّ وجَلَّ أنْ نأخذ زينتنا عندَ كُلِّ مَسْجِدٍ، وذلك بلُبْسِنا اللباسَ للطوافِ والصلاة، لا فرقَ في ذلك بيْنَ أنْ نكون في المسجدِ الحرام أو غيرِهِ مِنَ المساجِدِ، ويُفْقَهُ من الآيةِ أنّه لا حرجَ على المسلم أنْ يختار من الثيابِ أحْسَنها، ومِنْ ذلك لُبْسُ الثيابِ البيضِ، فقد أمَرَنا رسولُنا ﷺ بِلُبْسِها، وأمَرَنا بتكفين موتانا فيها، فعن ابن عباسٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «الْبَسُوا مِنْ ثِيابِكُمُ البياضَ، فإنَّها من خيرِ ثيابِكُمْ، وكَفِّنوا فيها موْتاكُمْ» [صحيح الترمذي: (٧٩٢) وصحيح أبي داود (٣٢٨٤)، (٣٤٢٦)].

وهذه الآيةُ تدلُّ على أنَّه لا يصحُّ الطوافُ من العُرْيانِ، وأنَّ الصلاةَ لا تصحُّ من مَكْشوفِ العورةِ، ويدلُّ لصحةِ هذا ما رواه أبو بكر أنَّ الرسول ﷺ بَعَثَهُ في الحجَّةِ التي أمَّرَهُ عليها قبل حجَّةِ الوداعِ: «بألاَّ يَحُجَّ بَعْدَ العامِ مُشْرِكٌ، ولا يطوفُ بالبيتِ عُرْيانٌ» [البخاري: ١٦٢٢. ومسلم: ١٣٤٧].

وقد كان غيرُ قريشٍ من العربِ في الجاهلية إنْ لم يَجِدِ الواحدُ قُرَشِيّاً يُعيرُهُ ثياباً يطوفُ بها، ولم يَجِدْ ثوباً جديداً طافَ عرياناً، الرجال يطوفون عرايا في النهارِ، والنساءُ يَطُفْنَ عرايا بالليلِ.

روى سعيدُ بن جبيرٍ عن ابن عباسٍ قال: «كانتْ المرأةُ تطوفُ بالبيتِ وهي عَرْيانةٌ، فتقولُ: مَنْ يعيرُني تَطْوافاً، تَجْعَلُهُ على فَرْجِها؛ وتقول:

اليــــومَ يَبْـــدُو بَعْضُـــهُ أو كُلُّــــهُ فــــما بَــــدا مِنْــــهُ فــــلا أُحِلُّــــهُ

فنزلتْ هذه الآية: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف:٣١]» [مسلم: ٣٠٢٨].

وبعد أن أمَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن نأْخُذَ زينَتَنا عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ، أمَرَنا أنْ نأْكُلَ ونشربَ غيرَ مُسْرِفينَ، ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ وقد بيَّنْتُ في سورة الأنعام ما كان عليهِ أهل الجاهليةِ من تحريم بعض ما أحلَ اللهُ من بهيمةِ الأنعام، وتحريمِ ما أحلَّه اللهُ تعالى من خطوات الشيطانِ.

ولا يجوز أن يُحَرِّمَ الإنسانُ على نَفْسِهِ بعضَ ما أحلَّ اللهُ له، كأنْ يقولَ لزوجتِهِ: أنتِ عليَّ حرام، أو يقولُ: حَرَّمتُ الدجاجَ على نفسي، أو حرَّمت التَّمرَ على نفسي، فإنْ حرَّم زوجته على نفسِهِ بالظهارِ، وجبت عليه كفارةُ الظهارِ، وإن حرَّم زوجته أو طعاماً على نفسه، بقوله: هي حرامٌ عليهِ، وَجَبَ عيه كفارةُ يمينٍ، فقد حرَّم الرسولُ ﷺ على نَفْسِهِ ماريَّةَ أمَتَهُ، أو حَرَّم العسلَ، فعاتبه اللهُ على ما فَعَل، وشَرَعَ له كفَّارَةَ اليمينِ فيما حرَّمَهُ، وقالَ في ذلك: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾ [التحريم:٢].

جنـــــة السـنـــــة

وكما نهانا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن تحريمِ ما أحَلَّ لنا من الطعامِ والشرابِ، فإنَّه نهانا عن الإسراف، فقال: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ أي: لا تُسْرِفُوا في الأكلِ والشُّرْب، فتأكلوا وتشربُوا فوقَ الحاجةِ، وأصل الإسرافِ في لغة العَرَبِ: مجاوزةُ الحدِّ، وأعلمنا ربُّنا ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ٣١﴾.

وقال ابن كثير: قال البخاري: قال ابن عباس: «كُلْ ما شِئْتَ، والْبَس ما شِئْتَ، ما أخطأتك خَصْلَتانِ: سَرَفٌ ومَخِيلَةٌ، وقال ابن جريرٍ عن ابن عباس: أحَلَّ اللهُ الأكل والشربَ ما لم يكنْ سَرَفاً أو مَخِيلَةً» [ابن كثير: ٣/ ١٥٠. وقال: إسناده صحيح].

وعن عمرو بن شُعَيْبٍ عن أبيه عن جَدِّهِ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «كُلُوا واشْرَبُوا والْبَسُوا وتَصَدَّقُوا في غيرِ مَخِيلَةٍ ولا سَرَفٍ، فإنَّ اللهَ يُحِبُّ أنْ تُرى نِعْمَتُهُ على عَبْدِهِ» [أحمد في المسند: ٦٧٠٨. وإسناده حسن].

٢- إنكارُ الله تعالى على مَنْ حرَّم زينةَ الله والطيباتِ مِنَ الرزق على نفْسِهِ:

أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أنْ يسْأَلَ الكفارَ منكراً عليهم، قائلاً لهم: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣٢﴾ [الأعراف:٣٢].

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أنْ يُنْكِرَ على المشركينَ الذين يُحَرِّمون زينةَ الله التي أَخرجَ لعبادِهِ، وهي ما يُلْبَسُ ويُتَجَمَّلُ به مِنَ ثيابِ الصوفِ والقطنِ والكتَّانِ وغيرِها، فكانوا يطوفون بالكعبةِ عراةً. وأنْكَرَ على الذين حرَّموا على أنفسهم الطيباتِ مِنَ الرِّزْقِ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ﴾ [الأنعام:١٥٠]. وقالَ سبحانَهُ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ [يونس:٥٩].

وأمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أنْ يُبَيِّنُ للناسِ أنَّ الزينةَ والطيباتِ خَلَقَها اللهُ تعالى في الأصلِ للذين آمنوا في الحياةِ الدنيا، ليستعينوا بها على طاعَةِ الله، ولم يَخْلُقْها للكفارِ ليستعينوا بها على معْصِيَتِهِ.

أما ما يُتَزَيَّنُ به في الجنّةِ، وما يُطْعَمُ مِنَ الطيباتِ فيها، فهو خالِصٌ للمؤمنين، ولا يَشْرَكُهم فيه أحدٌ من الكافرين، ولذلك عندما ينادي أَصْحابُ النارِ في الآخرةِ أصحابَ الجنة ﴿أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ يقول أصحابُ الجنة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٥٠﴾ [الأعراف:٥٠].

جنـــــة السـنـــــة

وقولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: مِثْلَ هذا التفصيلِ الذي بيَّناهُ لكم فيما سَبَقَ في الزينة من الثيابِ وما أحْلَلْناه مِنَ الطعام نُفَصِّلُ الآياتِ لقومٍ يعلَمونَ، وخَصَّ الذين يَعْلَمونَ، لأنَّهم هُمُ الذينَ يَفْهَمونَ عن الله مرادَهُ.

٣- ما حرَّمه اللهُ تعالى على عباده:

بعدَ أنْ ذكر اللهُ أنَّ بعضَ المشركين حرَّموا ما أحلّه اللهُ مِنَ الزينةِ والطيباتِ، أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أن يُبيِّنَ للناس ما الذي حرَّمَهُ اللهُ، والذي حرَّمه كما بيَّنَتْهُ الآيةُ أربعةُ أمور: الأولُ: الفواحش ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ.

والثاني: الإثْم والبَغْيُ بغيرِ الحقِّ. والثالث: الشركُ بالله. والرابعُ: أن يقولوا على الله ما لا يعلَمونَهُ ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف:٣٣].

والفواحِشُ: جمعُ فاحِشَةٍ، وهي كُلُّ ذنبٍ أو معصيةٍ بَلَغَتْ الغايةَ في القُبْحِ، وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ يشمَلُ جميعَ الذنوبِ والمعاصي، فالظاهِرُ منها كالزنا والرِّبا والقَتْلِ والسُّجود للأصنام، والباطنُ، اتخاذُ الخليلات، والكِبْرُ الذي في القلبِ، وإرادةُ الخيانةِ، ونحو ذلك.

﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ المعصيةُ التي تَقْتَصِرُ على صاحبها. ﴿وَٱلْبَغْىَ﴾ المعصيةُ التي يضيرُ بها المرءُ غيرَهُ، وقولُهُ: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ كُل بَغْيٍ فهو بغيرِ حقّ.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ السلطانُ: الحُجَّةُ والبُرْهانُ، وكلُّ شِرْكٍ بالله، فليسَ عليه حُجَّةٌ ولا بُرْهانُ؟

وقوله: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ وهذا يَشْمَلُ كُلَّ ما افتراهُ وكَذَبَهُ الناسُ على ربِّ العزة.

٤- حَدَّد اللهُ -تعالى- لكلِّ أُمَّةٍ أجلاً، فلا يتقدمون عنهُ ساعةً ولا يتأخَّرون:

كانَ الكفارُ يطلبون أنْ يُنزِلَ اللهُ بهم عذاباً يُنْهِي وجودَهُمْ، فأعلمنا اللهُ تعالى أنْ اللهَ قَدَّرَ لكلِّ أمةٍ أجلاً، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف:٣٤] فإذا جاءَ الأجَلُ الذي حَدَّدَه الله تعالى أهْلَكَهُم.

فلا يتقدَّمُ مَوعدُ إهْلاكِهم ساعةً، ولا يتأخَّرُ ساعةً.

جنـــــة السـنـــــة

وهذا كما فَعَلَ ربُّ العزَةِ بقومِ نوحٍ وقومِ هودٍ وقوم صالحٍ وغيْرِهم من المُهْلَكين، حَلَّ بكلِّ واحدٍ منهم العذابُ عندما جاءَ أَجَلُهُ.

وينبَغي أنْ يتنبهُ البشرُ إلى أنّهم لا يستطيعونَ تغْييرَ المَوْعِدِ الذي حَدَّده اللهُ تعالى، فَقَدْ خَرَجَ على مَرِّ التاريخِ الإسلاميِّ أُناسٌ كثيرون، كلُّ واحدٍ يدَّعي أنَّهُ المهديُّ الذي بَشَّرَ به الرسولُ ﷺ، والمهديُّ يَخْرجُ في المَوْعِدِ الذي حَدَّده رَبُّ العِزَّة، من غيرِ تأخيرٍ ولا تقديمٍ.

والكفارُ الذينَ كانوا يَطْلُبون أنْ يُحِلَّ اللهُ بهم سَخَطَهُ، ويُنزلَ بهمْ عَذابه، لنْ يُؤَثِّر طَلَبُهمْ هذا في تقديمِ مَوْعِدِ عذابهم، ولا تأخيره، وسيأتيهم العذابُ في الموعد الذي حَدَّده اللهُ لهم في الأَزَلِ.

٥- مصيرُ الذينَ قَبِلُوا دَعْوَةَ الرُّسلِ والذينَ رَفَضُوها:

نادى اللهُ -تباركَ وتعالى- بني آدمَ مخبراً إيَّاهُمْ أنَّ الذي يستجيبُ لدعوةِ الرسلِ، فلا خوفَ عليه من الآتي في القبْرِ والحَشْرِ، والذين كذبوا الرسلَ واستكبروا عن الإيمانِ مصيرُهُم النارُ.

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأعراف:٣٥-٣٦].

فإرسالُ الله -تعالى- الرُّسَلَ، وتَبْليغُهُمْ الحَقَّ الذي أَوْحاهُ إليهم يُقيمُ عليهم الحُجَّة، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء:١٥].

وأعلمنا ربُّنا في هاتين الآيتين أنَّ الناسَ فريقانِ: فريقٌ قَبِلَ دعوةَ الرُّسُلِ، وعَمِلَ بما أَمَرَهُ اللهُ بِهِ، وترك ما نَهاهُ اللهُ عنه، وأصلَحَ أمورَهُ، فهذا الفريق لا يخافُ على الآتي، ولا يَحْزَنَ على الذاهبِ، والفريق الثاني: الذينَ كَذَّبوا الرُّسُلَ، وكَذَّبوا الآياتِ التي جاؤوا بها، واستكبروا عن الإيمانِ، فهؤلاء أصحابُ النار، هم فيها خالدونَ.

رابعاً: ما تهدينا إليه الآياتُ من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- يجبُ على العبادِ أنْ يَلْبَسوا ما يواري عوراتِهِمْ عِنْدَ الطوافِ وعِنْدَ الصلاةِ.

٢- لا يجوزُ للعبدِ أن يُحَرِّمَ على نفسِهِ ما أحلَّهُ اللهُ له، فإنْ حرَّم على نفسه طعاماً أو شراباً أو زوجةً، فعليه أن يُكَفِّر كفارة يمينٍ.

جنـــــة السـنــــة

٣- ما أحلَّهُ اللهُ تعالى مِنَ الزينةِ والطيباتِ خلقه اللهُ للمؤمنين في الدنيا، والكفارُ تَبَعٌ لهم، أما في الآخرة فإنه خالص للمؤمنين لا يشْرَكُهُمْ فيه غَيْرُهُمْ.

٤- حَرَّمَ اللهُ تعالى أربعةَ أمورٍ: الفواحشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ، والإثْمَ والبَغْيَ، والشركَ بالله، والقولَ على الله بغيرِ علمٍ.

٥- يُرْسِلُ اللهُ تعالى رسلَهُ إلى عبادِه، يبلغونهم آياتِه، فمن آمَنَ فله الجنَّة، ومن كفر فله النار خالداً فيها.

جنــــة الســـــنة

النص القرآني السادس من سورة الأعراف
مصير المؤمنين ومصيرُ الكافرينَ

أولاً: تقديم

حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن مصيرِ الكافرينَ الذين يُكَذِّبونَ الله ويُكذِّبونَ بآياتِهِ، وأعلمنا أن الكفارَ سينالُهُمْ نصيبُهُمْ من الكتابِ، وبيَّن لنا مصيرَ هؤلاءِ عندما تنزلُ ملائكةُ الموتِ تقبضُ أرْواحَهُمْ، وكيف يشْهَدونَ على أنْفُسِهِمْ بالكُفْرِ.

وأعلمنا أنَّ مصيرَ هؤلاءِ النارُ، وهم فيها متعادون متخاصمونَ، يَلْعَنُ الضعفاءُ السادةَ والزعماءَ، ويطلبون لهم العذابَ المضاعفَ، وهؤلاءُ الكفارُ لا تُفتَّحُ أبوابُ السماءُ لقبولِ أعمالِهِمْ، وعندما يموتون لا تُفتَّحُ لأرواحهم، ولا يدْخُلونَ الجَنَّةَ في يوم القيامة حتى يَلِجَ الجملُ في سَمِّ الخياطِ، وبيَّنَ لنا أنَّ مصيرَهُمُ النارُ، فلهم فيها فرشٌ من النارِ، وأغْطِيَةٌ من النار.

والمؤمنون الذين يعملون الصالحات في جناتِ النعيم، وقبل أن يُدْخلَهُمُ اللهُ الجنة ينزعُ ما في صُدورِهُمْ من عداواتٍ وأحقادٍ، وينعمونَ في الجنةِ بالأنهار التي تجري من تحتهم، وبعد دخولهم الجنَّةَ يحمدون ربَّهم على هدايته لهم إلى ما يدخلهم الجنّة، وبعد دخولِهِمُ الجنةَ ينادونَ ﴿تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف:٤٣].

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف٣٧-٤٣].

جنـــة الســـــنة

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أشدُّ الناس ظلماً الذين افتروا الكذبَ على الله أو كذَّبوا بآياتِهِ:

أعلمنا اللهُ تبارك وتعالى أنه لا أحَدَ أظلمُ ممَّنْ اخْتَلَقَ الكذِبَ على الله أو كَذَّبَ بآياتِ الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [الأعراف:٣٧]، والمرادُ بالسؤال في الآية سؤالُ إنكارٍ، والمعنى: لا أحَدَ أظلمُ ممن افترى على الله الكَذِبَ، و﴿افْتَرَىٰ﴾ اخْتَلَقَ، وكَذِبُ الناسِ على الله كثيرٌ، كدعواهُمْ أنَ الله اتخذَ ولداً سبحانه، وكدعواهم أنَّهُ شرَعَ لهم الشركَ، ودَعْواهُمْ أنَّ اللهَ حَرَم عليهم بعضَ ما أحَلَّه، وأحَلَّ لهم بعضَ ما حرَّمَهُ.

وقوله: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ وذلك بدَعْواهُمْ أنْ آياتِ القرآنِ كذبٌ، أو أنَّها سِحْرٌ أو شِعْرٌ أو أساطيرُ الأولين.

وقد أعلمنا ربُّنا أنَّ ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ [الأعراف:٣٧] أي: ما قُدِّر لهم من خيرٍ وشرٍّ، فكُلُّ ما قَدَّرَهُ اللهُ لهم في الدنيا من الصحةِ والعافيةِ والرزقِ وطولِ العمر والمالِ والأولادِ سينالُوهُ، وسينالونَ ما كُتِبَ لهم من الشقاوة والسعادة.

والمرادُ بالرُّسُلِ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٣٧] هُمُ الملائكةُ الذين يقْبِضُونَ الأرْواح، كما قالَ تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام:٦١]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء:٩٧].

وقوْلَهُ: ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ أي: يقبِضونَ أرْواحَهُمْ.

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجَلَّ- أنَّ الملائكةَ التي تأْتي لقبضِ الأرواحِ تَسْألُ هؤلاءِ وتوبِّخُهُمْ وتقرِّعُهُمْ، وتقولُ لهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الأعراف:٣٧] أي: أيْنَ الآلهةَ التي كنتم تعبدونَها مِنَ الأصنام والأوثانِ، فيقولونَ: ﴿ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأعراف:٣٧].

ومعنى ﴿ضَلُّوا﴾ أي: غابوا، وقوله: ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: أنَّهم يعْترفونَ في ذلك الوقتِ بكفرهِمْ وشرْكِهِمْ، كما قال تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك:١١].

جنـــــة السـنـــــة

٢- **مصيرُ الكفارِ في يوم القيامة النارُ:**

بيَّنَ اللهُ تعالى فيما سَبَقَ أنَّ الذين افتروا عليه الكذبَ والذين كذَّبوا بآياته يعْتَرِفونَ عندَ الموتِ بكفرِهِمْ وشركِهِمْ، وبيَّنَ مصيرَ الكفارِ في يوم القيامة، ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ﴾ [الأعراف:٣٨].

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه يقالُ للكفارِ في يومِ القيامة: ادخلوا في جملةِ أُمَمٍ خَلَتْ من قبلكم، أي: مَضَتْ من قبلكم، والأممُ الكافرة التي خلت من قبل كثيرة.

وهذه الآية صريحةٌ في أنَّ مصيرَ الكفارِ مِنَ الجنِّ النارُ، ولا خلافَ في ذلك بينَ العلماء، ولكنَّهم اختلفوا في مصير المؤمنين من الجنِّ، والصوابُ من القولِ أنَّ مصيرهُمُ الجنّةُ، ويَدُلُّ لذلك أنَّ الله تعالى خاطبَ الإنسَ والجنَّ قائلاً: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ٤٦﴾ [الرحمن:٤٦]، ثم أتْبَعَهُ بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٧﴾ [الرحمن:٤٧]، وهو خطابٌ للإنس والجنِّ.

ومما يرجِّح هذا القول قولُهُ تعالى في نساءِ أهلِ الجنة: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ٧٤﴾ [الرحمن:٧٤]، ويفهم من الآية أنَّ نساءَ الجَنَّةِ صالحاتٌ لطَمْثِ (لِوَطْءِ) الجنِّ لهنَّ، كما يصلحنَ لَطْمثِ (لِوَطْءِ) الإنسِ لهنَّ، ولو كان مؤمنو الجِنِّ لا يدخلون الجنَّةَ فلا فائدة من الإخبار بذلك.

٣- **تحوُّل محبَّةِ الكفارِ فيما بينهم يوم القيامةِ إلى عِداءٍ وبغضاء:**

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ المحبةَ التي كانتْ بين الكفارِ في الدنيا تتحوَّلُ إلى عداءٍ وبغضاءٍ في يوم القيامةِ، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ٣٩﴾ [الأعراف:٣٨-٣٩].

أخبرَنا ربُّنا أنَّه كلَّما دخلتْ أمةٌ كافرةٌ في النارِ يومَ القيامة فإنَّها تلْعَنُ أُختَها، والمرادُ بأختِها في الديانة والمِلَّة والكفرِ بالله، فالكافرة أُختٌ للكافرةِ، والمتأخرون من كُفَّارِ اليهودِ يلْحقونَ السابقين، وكذلك المجوسُ والنصارى والبوذيونَ، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٥﴾ [العنكبوت:٢٥]. وقال: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ﴾ [البقرة:١٦٦-١٦٧].

جنـــــة الســــــنة

وأعلمنا ربُّنا أنَّ أهلَ النارِ عندما يتداركون في النار أي: عندما يجتمعون ويتلاحقون فيها، تقولُ أُخراهم لأولاهم: ربَّنا هؤلاءِ أضَلُّونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النارِ، والمراد بأُخراهم الأتباعُ والضعفاءُ، والمرادُ بأولاهم: الزعماءُ والرؤساءُ، يقول الضعفاءُ: يا ربَّنا وخالقنا هؤلاء هم الذين أضَلُّونا عن طريق الحقِّ، وجعلونا نشرك ونكفرُ بِكَ، فآتهم عذاباً مضاعفاً بأن تُعَذِّبَ الواحدَ كعذاب اثنين، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

وإذا نادى الضعفاءُ بهذا النداءِ أجابهم ربُّ العزةِ قائلاً: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أي: لكلِّ فريقٍ منكم ضِعْفٌ، فالقادةُ والزعماءُ لهم ضِعْفٌ، لأنَّهم ضَلُّوا وأَضَلُّوا، والأتباعُ لهم ضِعْفٌ لأنهم ضَلُّوا، واتَّبعوا غيرَهم من غيرِ دليلٍ، ولا برهانٍ، وقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أي: لا تعلمون أنَّ لكلِّ واحدٍ منكم ضِعْفٌ.

وقد أجابَ السادةُ والزعماءُ على ما رماهم به أتباعهم، وعلى طلبهم لهم العذابَ المضاعفَ قائلين: ليسَ لكم علينا من فَضْلٍ، بل أنتم كفَّارٌ مثلنا، فذوقوا العذابَ بسببِ كفرِكِمْ وشِرْكِكُمْ.

فالزعماءُ والضُّعفاءُ يختصمونَ في النارِ، ويطلبُ كلُّ فريقٍ للآخر المزيدَ مِنَ العذابِ.

٤- مصيرُ الكفارِ في يوم الدين:

أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أنَّ الذين كذَّبوا بآيات الله، واستكبروا عن الإيمان، لا تُفَتَّحُ أبوابُ السماء لأعمالهم، لأنها غيرُ صالحةٍ، ولا لأرواحهم عندَ موتِهِمْ، لأنَّها خبيثةٌ، ولا يدخلونَ يومَ القيامة الجنَّةَ حتى يَلِجَ الجملُ في سَمِّ الخياط، وسَمُّ الخياطِ: خُرْمُ الإبرةِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأعراف: ٤٠]، وإنما ضرب الله المثل بالجمل لأنَّ له عند العرب شأن أعظم من بقية الدواب.

وقد وَعَظَ رسولنا ﷺ أصحابَه يوماً، وهو ينتظرُ دَفْنَ ميتٍ من أصحابه، فأخبرَ في عظتِهِ تلكَ أنَّ روحَ العبدِ المؤمنِ تفتح لها أبواب السماء، فتدخل السماواتِ ويشيِّعُهُ من كلِّ

جنـــــة الســـــنة

سماءٍ مُقرَّبوها، ثم تعاد إلى الأرض، وأنَّ الكافرَ تُغْلَقُ دونَ روحه أبوابُ السماء، وقد قرأ الرسول ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:٤٠] [جَمَعَ ألفاظَهُ شيخنا محمد ناصر الدين الألباني، وعزاه إلى أحمد وأبي داودَ والنسائي وغيرهم. انظر: الجنائز: ص١٥٦]، وقولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ أي: الذين ارتكبوا عظائمَ الذنوب.

ثم أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ مصيرَ هؤلاءِ المجرمين النارَ ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف:٤١].

أعْلَمَنا العليمُ الحكيمُ أنَّ للكفارِ في النارِ مهادٌ، والمهادُ: الفراش، وهو من النار، ولهم مِنْ فَوْقِهِمْ غَواشي، وهي لحُفٌ من النار تغطيهم، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ الذين ظلموا بِرَفْعِهِمُ الأصنام والأوثانَ إلى مرتبة الألوهية بعبادتهم إيَّاها من دون الله.

٥- مَصيرُ المؤمنينَ في يوم الدينِ في جنات النعيم:

بعْدَ أنْ بيَّنَ لنا ربُّنا مصيرَ الكفارِ في يومِ الدين بيَّن لنا مصيرَ المؤمنين الذينَ يعملونَ الصالحات في ذلك اليوم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأعراف:٤٢].

والذين آمنوا، أي: صدَّقوا في قلوبِهم بالله ربِّهم، وآمنوا بملائكَتِهِ وكُتُبِهِ ورسله واليوم الآخر، وعملوا الأعمالَ الصالحةَ.

ومِنَ المعلومِ أنَّ القرآنَ إذا جَمَعَ في آيةٍ بين الإيمان والأعمالِ الصالحةِ كهذه الآية، أرادَ بالإيمانِ التصديقَ على النحوِ الذي جاءَتْ بِهِ الشريعةُ، فإذا أُفْرِدَ الإيمانُ ولم تذكر مَعَهُ الأعمالُ الصالحةُ، كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:٧] فيشملُ الإيمان: عقيدةَ القلبِ، أي: التصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخرِ، والنطق باللسان، أي: الإقرارُ بشهادةِ أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسولُ الله، والعملُ بالأركانِ، أي: القيامُ بالصلاةِ والزكاةِ والحجِّ والصومِ ونحوها من العباداتِ.

وقوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ جَمْلَةٌ اعتراضيةٌ بَيْنَ المبتدأ وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ وبينَ خَبَرِه، وهو قوله: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ وفائدةُ الجملةِ المُعْتَرِضَةِ إخبارُ الله تعالى أنَّ الجنةَ مع عِظَمِها وما فيها من الخيرِ الذي لا شيءَ مثله، ففيها ما لا عينٌ رأت، ولا أُذن سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلب بشرٍ، ومع ذلك فدخولُها والحصولُ عليها لا

جنـــــة الســـــنة

يُكَلِّفُ اللهُ فيه نفساً إلا وُسْعَها، وقد أخبرنا اللهُ تعالى أنَّه في يومِ الدينِ قبل أنْ يُدْخِلَ المؤمنينَ الجنة ينزعُ من قلوبِهِمْ ما فيها من غلٍّ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف:٤٣].

والنَّزْعُ: القَلْعُ والإزالَةُ. والغِلُّ: الحِقْدُ والعداوةُ الذي سَرَى إلى القلوبِ لما جرى بينهم في الدُّنْيا، ومِنْ ذلك ما وَقَع بين الصحابة من خلاف وقتال.

وأخبرنا ربنا تبارك وتعالى عن النَّعيمِ الذي حَظُوا بهِ في جناتِ النعيمِ فقال: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾.

وأعلمنا ربُّنا أنَّ أهلَ الجنةِ بعد أن دَخَلُوا الجنَّةَ ﴿قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف:٤٣].

أخبرنا أنَّ أهلَ الجَنَّةَ بعدَ أن يَدْخلوا الجَنَّةَ يحمدونَ اللهَ تعالى على أنْ هَداهُمْ للإيمانِ والعملِ الصالحِ، وما كانوا ليهتدوا بعد أنْ هَداهُمْ اللهُ تعالى ووفَّقَهُمْ لذلك، واعترفوا بأنَّ رسلَ ربِّهم جاءَتهم بالحقِّ.

وأعلمنا ربُّنا أنَّ أهلَ الجنةِ بعدَ دخولهم الجنةَ ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف:٤٣].

أعلمنا اللهُ تعالى أنَّهُ ينادي أهلَ الجنةِ بعد دخولهم إيَّاها، واستقرارِهم فيها: أنْ تِلْكُمُ الجَنَّة التي دخلتموها، واستقررتم فيها، أُورِثْتُمُوها، أي: أُعْطِيتُموها بإيمانكم وأعمالِكم الصالحةِ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النصِّ وجدناها تَهْدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١- الظالمونَ الكافرونَ الذين يكْذِبون على الله ويُكَذِّبونَ بآيات بالله ينالهم ما كتبَ اللهُ عليهم من الشقاءِ والبلاءِ.

٢- عندما تَتَنَزَّلُ ملائكةُ الموتِ لقبض أرواح الكفارِ تسألهم عن الآلهةِ التي كانوا يعبدونها، فيخبرون أنَّهم غابوا عنهم، ويعترفون بكُفْرِهِمْ وضَلالِهِم.

٣- مصيرُ الكفرةِ النارُ، وهم في النَّارِ أعداءٌ متخاصمون، يَلْعَنُ اللاحقُ مِنْ كلِّ أمّةٍ السابقَ، ويطلبُ الأتباعُ العذابَ المضاعفَ للقادةِ والسادةِ.

جنـــــة السـنة

٤- الكفارُ في الدنيا لا تُفْتَحُ أبوابُ السماءِ لأعمالهم، ولا تُفْتَحُ لأرْواحِهِمْ عندما يموتون، ولا يدخلون الجنَّةَ إلا إذا دَخَلَ الجملُ في خُرْمِ الإبرةِ.

٥- شِدَّةُ عذابِ أهْلِ النارِ في النّارِ، فلهم فيها فراشٌ مِنَ النّارِ، وأغطيةٌ مِنَ النّارِ.

٦- المؤمنونَ الذين يعملونَ الصالحاتِ مصيرهُمْ جناتُ النعيمِ خالدينَ فيها.

٧- الجنَّةُ سِلْعَةُ الله، وهي سِلْعَةٌ عظيمةٌ غاليةٌ، ومع ذلك فإنَّ تحصيلها في قدرة الإنسان وطاقَتِهِ.

٨- قبل أن يُدْخِلَ اللهُ أهَلَ الجَنَّةِ الجنةَ ينزع ما حَلَّ في صُدورِهم مِنْ أحقادٍ وعَداواتٍ كانت في الدنيا.

٩- إذا دخل أهلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ حمدوا رَبَّهم الذي هَداهم إلى الإيمانِ والعملِ الصالحِ، فأوصلهم إلى جناتِ النعيم.

١٠- يُنادَى أهلُ الجنةِ في الجَنَّة، ويقال لهم: تلكَ الجنةُ أُورثتموها بما كنتم تعملون.

جنـــــة الســــــنة

النصُّ القرآنيُّ السابعُ من سورة الأعراف
أصحابُ الأعراف

أولاً: تقديم

يُحَدِّثُنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ عن نداءِ أصحابِ الجنةِ لأهل النار قائلين لهم: إننا وَجَدْنا ما وعدنا ربُّنا حقّاً، فهل وجدتمْ ما وعدكم ربُّكم حقّاً، فيقرُّون ويعترفون، ويُحدِثُنا أنَّ منادياً ينادي بلعنِ الظالمين الذين يَصُدُّونَ النَّاسَ عن دينِ الإسلامِ، ويريدونَ الطريقَ معوجةً منحرفةً، ثمَّ حدَّثَنا ربُّنا عن أصحابِ الأعرافِ، وهم رجالٌ استوتْ حَسَناتُهم وسيئاتُهم، فيكونون على جِسْرٍ بينَ الجنَّةِ والنارِ، حتى يأذنَ اللهُ بدخولهم الجنة.

وهؤلاءِ عندما يلْتَفِتُون إلى أهلِ الجنَّةِ يُسَلِّمونَ عليهم، وهم طامعون أنْ يدخلهم اللهُ إيَّاها، وعندما ينظرون إلى أهلِ النارِ، يدْعُونَ ربَّهم أن لا يجعلَهم معهم، ويُبكِّتُ أهلُ الأعرافِ أهلَ النارِ الذين كانوا يَسْخَرون بالمؤمنين الضعفاء.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّاۖ
قَالُوا۟ نَعَمْۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم
بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن
سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ
ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ
تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ
تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ
قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ
ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾

[الأعراف: ٤٤-٥١].

جنـــــة السـنــــة

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أصحابُ الجنَّةِ ينادُونَ أهلَ النار:

أعْلَمَنا ربُّنا العليمُ الخبيرُ أنَّ أهلَ الجنَّةِ بعد دخولهم الجنَّةَ ينادون أصحابَ النَّارِ، ويقولون لهم: أنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا ربُّنا حَقّاً، فقد وَعَدَ اللهُ عبادَه المؤمنين في الدنيا بالخلودِ الأبديِّ السرمديِّ في جناتِ النعيم، ووَعَدَهُمْ فيها بما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلبِ بشر، وفي يوم القيامةِ يُنْجِزُ اللهُ لهم ما وعدهم، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف:٤٤].

وسؤالُ أهْلِ الجنّةِ لأهْلِ النارِ سؤالُ تقريعٍ وتوْبيخٍ، يقولونُ لهم: هل وجدتم ما وَعَدَكُمْ ربُّكُمْ من العَذابِ والهوانِ والخزي في النارِ حَقّاً، قالوا: نعم، أي: وجدنا ما وعدنا حقّاً وصِدْقاً، و﴿نَعَمۡ﴾ لا تكون إلا جوابَ سؤال مُثْبَتٍ، وأمّا السؤال المنفي، فيكون جوابه (بلى)، كقوله تعالى: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: نادى مُنادٍ أهلَ الجنةِ وأهلَ النارِ ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ والتأذين في لغة العرب الإعلامُ، ومِنْهُ التأذين بالصلاةِ، أي: الإعلام بدخول الوقت.

واللعنُ في لغة العرب: الإبْعادُ والطَّردُ، وأصلُه الرجلُ يرْتَكِبُ الجرائِمَ، فيَطْرُده قومُهُ حتى لا يطالبونَ بدِمِهِ، فيُسمَّى لَعيناً.

و(الظالمون): الذين يَعْبُدونَ الأصنامَ والأوْثانَ وهُمْ ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأعراف:٤٥] و﴿يَصُدُّونَ﴾ أي: يمنعونَ الناسَ عن ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: دينِ الله، وهو الإسلامُ، والسبيلُ في اللغة: الطريقُ، وأُضيفت السبيلُ إلى الله تعالى، لأنَّها السبيلُ التي أمَرَ بسلُوكِها دون غيرها ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران:٨٥].

وقوله: ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ أي: يطلبون الطريقَ مائلةً زائغةً، وذلك بقيامها على عبادةِ الأوثان، ومِنْ عِوَجِهِمْ كُفْرُهُمْ بالآخرةِ ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: جاحِدُونَ.

جنـــــة الســـــنة

٢- **أصحاب الأعراف:**

أخبرنا ربُّنا أنَّ بينَ الجنةِ والنارِ أعرافٌ، والعُرْفُ كُلُّ شيءٍ عالٍ ومرتفع، كالسورِ، أو التلَةِ، ومنه عُرْفُ الفَرَسِ، وعُرْفُ الديكِ، وأخبرنا ربّنا -تبارك وتعالى- أنَّه يوجَدُ على السُّورِ الذي بيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ رجالٌ، وكونهم رجالٌ يَدُلُّ على أنَّهُمْ بشرٌ من بني آدمَ، قال تعالى: ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ ﴾ [الأعراف:٤٦]. والحجابُ: سورٌ حاجزٌ بينَ الجنَّة والنار.

والرجال الذين على الأعرافِ قومٌ من بني آدمَ استوتْ حَسَناتُهُمْ وسيئاتهم، قالَ ابن جرير: «أصحابُ الأعراف قومٌ من بني آدمَ استوتْ حسناتُهم وسيئاتُهم، فجُعِلوا هناك إلى أن يقضيَ اللهُ فيهم ما يشاءُ، ثم يُدْخِلُهم الجنةَ بفضلِ رحمتِهِ إيَّاهُمْ» [تفسير ابن جرير الطبري: ٥/ ٣٥١٩].

وقال ابنُ عباسٍ: «الأعرافُ بينَ الجنَّةِ والنارِ، حُبِسَ عليها قومٌ بأعْمالِهِمْ» وكان يقول أيضاً: «قومٌ استوتْ حسناتُهُمْ وسيئاتُهُمْ، فلم تزدْ حسناتُهم على سيئاتِهِمْ، ولا سيئاتُهُمْ على حَسَناتِهِمْ» [الطبري: ٥/ ٣٥٢٢].

وعن ابن مسعودٍ، قال: «سيُحاسَبُ الناسُ يومَ القيامةِ، فمن كانتْ حسناتُهُ أكثر من سيئاتِهِ بواحدةٍ دخلَ الجنّة، ومَنْ كانت سيئاتُه أكثرَ من حسناتِهِ بواحدةٍ دَخلَ النارَ، ثمَّ قرأ قولَ الله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ [الأعراف:٨-٩]»، ثم قال: «فمن استوتْ حسناتُهُ وسيئاتُهُ كان من أصحابِ الأعْرافِ» [الطبري: ٥/ ٣٥٢٠].

وقال حذيفةُ: «أصحابُ الأعرافِ قومٌ تجاوزتْ بهم حسناتُهُمْ النار، وقَصُرَتْ بهم سيئاتُهم عن الجنّة، فإذا صُرِفَتْ أبصارُهُم تلقاءَ أصحابَ النار، قالوا: رَبَّنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين، فبينما هم كذلك، اطَّلَعَ -تبارك وتعالى- فقالَ لهم: اذهبوا وادْخُلوا الجنَّةَ، فإنِّي قد غفرت لكم» [الطبري: ٥/ ٣٥٢٠].

وقد أخبرَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَ أصحابَ الأعرافِ، يعرفُونَ كلاً من أصحابِ الجنةِ وأصحابِ النارِ بسيماهُمْ، أي: بعلاماتِهم، فيعرفونَ أهلَ الجنة ببياض وجوههم، ونَضْرَة النعيم عليها، ويعرفونَ أهلَ النارِ كذلك بسيماهم، وذلك بسوادِ وجُوهِهِمْ، وزُرْقَةِ أعيُنِهم، و«(السيما): العلامةُ الدالةُ على الشيء في كلام العرب» [الطبري: ٥/ ٣٥٢٦].

جنـــــة السـنــــــة

٣- موقفُ أهلِ الأعرافِ من أهل الجنةِ وأهلَ النار:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى عن أهْلِ الأعْرافِ أنَّهم يعرِفُونَ أهْلَ النارِ وأهْلَ الجنة أثناءَ وجودِهِمْ على الأعْرافِ، فقال: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأعراف:٤٦-٤٧].

بيَّنَ اللهُ لنا أن أصحاب الأعراف يعرِفُونَ كلاًّ من أصحاب النار وأصحابِ الجنةِ بسيماهم، كما سبق بيانُهُ، وهذا يَدُلُّ على أنَّهم على شَرَفٍ عالٍ، فيطلعون على هؤلاءِ وهؤلاءِ، وأخبرنا ربُّنا -سبحانه- أنَّهم في اطلاعهم على أهل الجنّةِ يقولون لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: سَلِمْتُم مِن جميعِ الآفاتِ، وقوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: لم يدخلْ أهلُ الأعرافِ الجنةَ، وهم يطمعونَ في دخولها، والطمعُ: تَعَلُّقُ النفسِ وأملُها في الحصولِ على الشيءِ.

ثم أخبرنا ربُّنا -سبحانه- أنَّ أصحابَ الأعرافِ إذا صُرِفَتْ أبصارُهُمْ، أي: قُلِبَتْ عيونهم تلقاءَ أصحابِ النارِ، و﴿تِلْقَاءَ﴾ أي: جهةَ أصحابِ النارِ، دَعَوا ربَّهم قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ فإنَّهم إذا نظروا إلى أهلِ النارِ، وما هُمْ فيهِ مِنَ العذابِ والبلاءِ، قالوا: يا ربنا لا تجعلنا مَعَ القومِ الظالمين، أي: لا تجعلنا مع هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالشّرْكِ والكفرِ.

وقد أعلمنا اللهُ تعالى أنَّ أصحاب الأعراف وهم في موقعِهِم على الأعراف ينادون رِجالاً يعرفونَهُمْ في النارِ بعلاماتِهِمْ، ويقولون لهم: ما أغنى عَنْكُمْ جمعكم، أي: ما كنتم تجمعونَهُ مِنَ المالِ والأولادِ والأعوانِ، وما كنتم تستكبرون، أي: ولم يغن عنكم استكبارُكُمْ، ولم يُغْنِ عنهم لأنَّهم صارُوا إلى النارِ وعذابِها وسَمُومِها، وحميمِها، وزقُومِها ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأعراف:٤٨].

ثم يوجِّه أصحابُ الأعرافِ سؤالَ توبيخٍ وتقريعٍ إلى الرجالِ الذين يعرفونَهُمْ بسيماهم من أهلِ النارِ، فيقولون لهم: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأعراف:٤٩].

يقولُ أصحابُ الأعرافِ لأولئك الرؤساءِ والزعماءِ: أهؤلاء الذين أقْسَمْتُمْ في الحياة الدنيا أنَّ اللهَ لا ينالُهُمْ برحمة منه، لأنَّهم ضعفاءُ مساكين، وقوله: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ

جنـــــة السـنـــــة

﴿وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ۝٤٩﴾ أي: يقال لأصحاب الأعْرافِ بعد توبيخهم لأولئك الرجال: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ۝٤٩﴾، والخوف: الغمُّ مِنْ أمرٍ مستقبلٍ، والحزنِ: الخوف على أمر فائت.

٤- أهلُ النار يطلبون من أهل الجنة أن يمدوهم بالماء والطعام:

أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى فيما سبقَ أنَّ أهلَ الجنة ينادون أصحابَ النارِ، وأخبرنا أنْ أصحاب الأعراف ينادونَ أصحابَ النارِ، ويخاطبون أهلَ الجنَّة، وأخبرنا ربُّنا في آخر آيات هذا النصِّ أنَّ أصحابَ النار ينادون أصحابَ الجنةِ طالبينَ منهم أنْ يفيضوا عليهم مِنَ الماءِ أو مما رزقهم اللهُ، فلا يعبؤون بهم، ولا يستجيبون لهم، ويقولون لهم: إنَّ اللهَ حرَّم طعامَ أهلِ الجنةِ وشرابَها على الكافرين ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠﴾ [الأعراف:٥٠].

وقوله: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ أي: صُبُّوا علينا الماءَ بكثرةٍ، ﴿أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ أي: من مآكل الجنَّةِ، مِنَ اللحوم والفاكهةِ ونحوها.

ثم أخذَ ربُّ العزةِ يُوَبِّخُ هؤلاءِ الكافرين الذين حَرَّمَ اللهُ عليهم طعامَ الجنةِ وشرابَها، ففي الدُّنيا اتَّخذوا دينَهُمْ لَهْواً ولَعِباً وغرَّتهم الحياةُ الدنيا، فالدين الذي دعاهُم إليه الرسولُ ﷺ اتَّخَذُوهُ لهواً ولعِباً، فكانوا يسْخرونَ بالقرآن، وبالنبيِّ، ويسْخرونَ بضعفاء المؤمنين، ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ [الأعراف:٥١] أي: خَدَعَتْهم الدنيا بلذائِذِها ونَعيمها، وظَنُّوها دائمةً خالدةً، فألْهَتْهُم وشَغَلَتْهمْ.

وقوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝٥١﴾ [الأعراف:٥١]. فاللهُ في ذلك اليوم يَنْساهُمْ أي: يترُكُهم مع علمه التام بهم، والعربُ تطلقُ النسيانَ على ذهابِ الشيءِ مِنْ علمِ الإنسان بعد أن كان يعلمه، وتُطْلِقهُ على تركه عمداً مع كونه يعلمه، وهذا هو المراد بقوله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾ ونسيانُهُمْ على هذا النَّحْوِ جزاءً وفاقاً، أيْ لأنَّهم نَسوا يومَ القيامةِ، ولم يعملوا له قَصْداً وعمداً.

وقوله: ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝٥١﴾ أي: نتركهم في النار، يعذبون فيها، كما تركوا العمل ليوم القيامة وجحودهم لآياتنا.

جنـــــة السـنــــة

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - يكْثُرُ النداء في يوم القيامة، فأهْلُ الجنة ينادون أهلَ النارِ، وأهل النار ينادون أهلَ الجنةِ، وأهل الأعراف ينادون أهلَ الجنةِ وأهل النار.

٢ - أهلُ الجنّةِ ينادون أهلَ النار سائلين إياهم على وجهِ التقريع، قائلين لهم: قد وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقّاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقّاً، فيقرُّون ويعْتَرِفونَ.

٣- هناكَ جدارٌ فاصل بينَ الجنةِ والنارِ، يسمَّى الأعرافُ، وبعد دخولُ أهْلِ الجنةِ الجنةَ، وأهلِ النارِ النارَ، يبقى الذين استوتْ حسناتهم وسيئاتهم فوق الأعراف.

٤ - أهْلُ الأعرافِ يكونون في مكانٍ مشرفٍ على أهلِ الجنةِ وأهْلِ النار، فهم يخاطبون أهلَ الجنةِ مُسَلِّمينَ عليهم، ويخاطبونَ أهلَ النارِ مُبكِّتين لهم.

٥ - أهلُ النارِ يطلبونَ مِنْ أهلِ الجنَّةِ أنْ يفيضوا عليهم مِنَ طعامِهِمْ وشَرابِهِمْ، فيجيبون أنّ الله حرَّمَهُما على الكافرين.

٦ - الذين اتخذوا القرآنَ هزواً، واتخذوا الرسولَ والمؤمنين هزواً، وغرَّتهم الحياةُ الدنيا، يتركهم اللهُ في النَّارِ، كما نسوا يومَ القيامة.

٧- كَثُرَ في أيامنا هذه استهزاءُ الغربيين برسولِنا ﷺ وقبلتِنا وعُلَمائِنا، بل بعضُ المجرمين في ديارِ المسلمين يفْعَلُونَ ذلك، وهؤلاء جميعاً ينتظرهُمْ يومٌ أسودُ.

جنـــــة السـنـــــة

فهرس

النساء ٦١١

المائدة ٨١٩

الأنعام ٩٧٧

الأعراف ١١٣٥